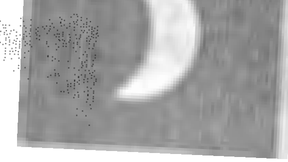


الكاتب المصري

د. سيد كريم



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB ALHILAL
العدد ٤٥١ - ذو القعدة ١٤٠٨ - يوليو ١٩٨٨
NO — 451 JULY 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الكاتبُ المصرى
وأدبُ القصّة العالمىّ

بقلم
د. سيّد كريم

مقدمة

لا يعرف التاريخ كاتبا أسوأ حظا من هذا المصرى الجالس القرفصاء !

فلو أن ميلاده تأخر ستة آلاف سنة ، ولحق معنا بعصر حماية حقوق المؤرخين ، لحصل على حقوق تأليف الادب العالمى كله .. وصار أغنى أغنياء العالم !

ذلك انه المؤلف الحقيقى لأشهر الروائع القصصية الخالدة التى لا تزال نسخها تباع بالملايين ، متسوبة الى غيره ، سندريللا ـ على بابا ـ مجنون ليلى ـ شمشون ودليلة ـ الشاطر حسن ـ السندباد البحرى ـ ألف ليلة وليلة .. بل و « الكونت دى مونت كريستو » أيضا !

والذى يقطع بحق الكاتب المصرى فى حقوق تأليف هذه الروائع كلها هو « البرديات » الموزعة الآن على مختلف متاحف العالم ، والتى تروى الاصل الفرعونى لكل من هذه القصص .. بخط ذلك الجالس القرفصاء !

ويكفى أن نضرب هنا بعض الامثلة ..

● حكايات كليلة ودمنة ..

يقرأ العرب اليوم حكايات « كليلة ودمنة » على انها حكايات كتبها الفيلسوف الهندى « بيدبا » ، وترجمها الاديب العربى « ابن المقفع » ، وتكمن جاذبيتها فى أنها

تستعرض أحوال البشر ، وتستخلص الحكمة منها ، ولكن من خلال قصص تلعب دور البطولة فيها حيوانات .

وحتى عصرنا هـــذا ، لا تزال معظم قصص الاطفـــال تستخدم نفس الحيلة . وتصوغ من الحيوانات مخلوقات عاقلة ترمز بها الى نماذج من بني الانسان .

ولكن أقدم نص تاريخي لهذا الطراز من القصص كان بقلم الكاتب المصرى القديم . وهو ليس نصا واحدا ، وانما ثروة من النصوص ، تنتمى الى أقــلام مصرية متعـــددة ، الحكيـــم كاجنى (معلـــم أولاد الملـــك حـــوفى) ، والاديب كايروس ، والمعلم نصرى ، والحكيم « حور درف » ..

ومن هذه الثروة من النصوص ـ التي كتب معظمها عام ٢٨٥٠ قبل الميـــلاد ـ قصـــص كانت تدرس فى مدارس الدولة الوسطى .. ومن عناوينهـــا ، الثعلب والاوز ـ الذئب راعى الغنم ـ التمساح العجـــوز ـ النحلة وزهرة عباد الشمس ـ الاسد والغزالة الجميلة ـ جيش القطط وقلعة الفيران .. الخ .

وتروى هذه القصة الاخيرة ، على سبيل المثـــال ، أن القطط حاصرت قلعة تحتمي بها الفيران ، فقررت الفيران أن تتحالف مع الكلاب ، على أساس أن القطط هى العـــدو المشترك لهما ، وتم التحالف . ودخلت الكـــلاب المعركة ، وهزمت القطط . لكنها بعد هزيمتهـــا أقنعت الكـــلاب بالتعاون معها فى التهام الفيران . والتمتع بلحمها اللذيذ . وتم بالفعل عقد تحالف جديد .. كانت ضحيته الفيران !

والقصة كما ترى هى أقدم نموذج للادب الذى يستخدم أبطالا من الحيوانات ليصور عالم الانسان . وهو بالتحديد النموذج الذى نسج على منواله مؤلف « كليلة ودمنة » .

وليت السرقة اقتصرت على تقليد النموذج ، وانما هى فى الحقيقة تجاوزت ذلك الى اقتباس التفاصيل .. خاصة فيما يتعلق بالصفات التى يمثلها كل حيوان من أبطال القصة .

فقد اختارت « كليلة ودمنة » ، كما اختار الادب العالمى كله ، نفس الصفات التى اختارها الكاتب المصرى لكى يرمز بها الى نفس الحيوانات .

اختار الكاتب المصرى الاسد معبرا عن القوة والعظمة . وأطلق عليه اسم « ملك الحيوانات » . واختار التمساح معبرا عن الغدر . والكلب رمزا للوفاء . والثعبان رمزا للشر والسحر . والقرد معبرا عن الحكمة . والثعلب معبرا عن المكر . والذئب معبرا عن الخيانة . ونسب الى الصقر السمو ، والى الخنزير الوضاعة . والى النحلة النشاط والعطاء .

هل فعل كتاب قصص الحيوانات ـ بما فيهم كاتب كليلة ودمنة ـ الا استخدام نفس الصفات لابطال قصصهم وتكرار نفس القصص . أو التاليف فى نفس اطارها والنسج على نفس منوالها !

قد يقال : ان استخدام الحيوان رمزا للتعبير عن ظروف مجتمع الانسان فكرة يمكن أن تخطر ببال أى كاتب . وليس شرطا أن يكون سارقا لها من غيره .

ولكن .. انتظر حتى تقرأ النموذج التالى !

● جحيم دانتي ..

او : رسالة أبى العلاء ●

هنا لا يلعب دور البطولة الحيوان .. وانما الانسان .

وهنا يتلخص الموضوع ، لا فى قضية الانسان وهو حى وانما فى قضيته وهو بعد الموت ·

وقد حفظ التاريخ لنا · فى هذا الموضوع المثير · عملين خالدين : « رسالة الغفران » للشاعر العربى الفيلسوف أبى العلاء المعرى · و « الجحيم » للشاعر الايطالى الخالد دانتى الليجيرى ·

وجوهر كل من العملين رحلة الى العالم الاخر ، نرى فيها أحوال الناس بعد أن انتقلوا اليه · ولا يزال النقاد مختلفين حول العلاقة بين العملين : هل ظهر كل منهما مستقلا · أم تأثر أحدهما بالاخر ؟

لكن النقاد لم يلاحظوا العمل الثالث الذى سبقهما بعدة قرون ·· بقلم الكاتب الجالس القرفصاء !

صاحب هذا العمل هو الحكيم « آنى » مؤلف « كتاب الموتى » منذ اربعة الاف سنة ·

وقد وصل الينا النص الذى كتبه « آنى » فى بردية واحدة ، عرضها أربعون سنتميترا ، وطولها ثلاثون مترا · ويحفظها الان المتحف البريطانى ·

وفى هذه البردية يزعم « آنى » انه مات وسافر الى العالم الاخر · ثم عاد ليروى التجربة · ويصف « انى » رحلة الروح يوما بيوم · منذ تفارق الجسد ، الى أن يتم تحنيطه ، وتجرى له المراسم الجنائزية · ثم رحلة المومياء الى الشاطىء الغربى للنيل · حيث يتم دفنها · ثم انتقال الروح فى مركب الشمس عبر الفضاء · حتى تصل الى « المحكمة التحضيرية » ·· التى يتصدر منصتها اثنا عشر قاضيا يمثلون بروج السماء الاثنى عشر ·

وفى هذه المحكمة يتعرف الميت على البرج الذى ينتمى

اليه ، والذى كان مسيطرا على صفاته وسلوكه فى الحياة ويتزود بنصائح ممثل البرج وتعاليمه التى تعينه على مصاعب الرحلة القادمة .

ولكن . ما هي هذه الرحلة القادمة ؟

انها تمر بسبع سماوات متعاقبات . يصف كلا منها بالتفصيل . ويصور ما تحتوى عليه من كائنات ومخلوقات وما يتعلق بكل منها من أساطير وحكايات ، وما يجب أن يتلى فيها من تعاويذ وأدعية .

ثم يصل « انى » الى المحطة الاخيرة .. وهى محكمة الاخرة . هنا يتربع الاله « اوزير » على عرشه السماوى ، يشع النور من جسده . ويضيىء قاعة المحكمة بأكملها .

ويصف « انى » اجراءات المحاكمة . والنيران . والملكين اللذين يسجلان الحسنات والسيئات . والاسئلة التى يوجهها القضاة . والاجوبة التي أعدها مقدما . والدفاع التي استعد به .

ويصدر الاله « اوزير » فى النهاية حكمه بتسجيل ولادة « انى » فى عالم الخلود .

وينتقل « انى » من المحكمة الى ما سماه « جنة الخلد » ويبدأ يصف هذه الجنة . وكيف أنها مكونة من سبع طبقات (أو سبع جنات) تبدأ بجنة الابرار ، ثم جنة شهداء حرب العقيدة ، ثم جنة المرسلين . وجنة الملائكة .. ثم تستمر صعودا حتى تبلغ أعلى درجات الجنة . وهى « جنة النور » .. التى يقوم فيها عرش الاله .

ويواصل « انى » وصف الجنة ، ويذكر أن فيها نهرا من خمر . ونهرا من لبن ينزل من ثدى « نوت » ، ونهرا من عسل . وحقولا من القمح ، سنابله من ذهب . وفيها ملابس لا تتسخ ولا تبلى . وفيها شباب دائم . وجسم

لا يعرف المرض أو التعب أو الفناء • وليس فيهـا أرواح خبيثة • أو شريرة • أو حيوانات كاسرة • أو حشرات •

لكن « انى » لا يفوته أن يصف الجحيم أيضا •

والجحيم الذى يزعم أنه شاهده يتألف من سبع طبقات كالجنة • وهذه الطبقات فى حقيقتها سبع بحيرات للعذاب ومنهـا بحيرة ماؤها من لهب • يلقى فيهـا المجـرمون فيتعذبون • ولكن لا تحترق أجسادهم • ولا يمـوتون • وفيها بحيرة تزخر بالتماسيح الجائعة المفترسة • وبحيرة ثالثة تسكنها الحيات والثعابين السامة •• الخ •

ولا ينسى « انى » وصف زبانية هذا الجحيم • وكيف أنهم جميعا وحوش وحيوانات ضارية • وكيف يتفننون فى تعذيب أهل الجحيم •

وقد يقال • هنا أيضا ، ان فكرة الذهاب الى العـالم الاخر والعودة منه لا يشترط أن تكون مسروقة من « انى » الفرعونى • وقد تكون خطرت « لابى العلاء » أو « لدانتى الليجيرى » دون أية صلة بالاصل الفرعونى القديم ••

● على بابا •• والاربعين حرامى ●

تدور قصة « على بابا » الشـهيرة حول خدعة ذكية ، تتلخص فى اخفاء عدد من القاتلين داخل براميل تحملهـا قافلة من الخيل •

ويرى كثير من مؤرخى الأدب أن القصـة مأخوذة من ملحمة « حرب طروادة » اليونانية التى كتبها هوميروس • حيث خبأ اليونانيون جنودهم داخل حصـان خشبى • سحبه الاعداء الى حصنهم • ثم فوجئوا بخروج الجنود منه واستيلائهم على الحصن كله •

لكن المؤرخين فاتهم أن الاصل الاول لكل من القصتين يعود تاريخه الى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد . وأنه مسجل في بردية « هاريس » المصرية ، التي يحتفظ بها في الوقت الحاضر المتحف البريطاني (تحت رقم ٥٠٠) .

كتب هذه البردية القائد المصرى « تحوتى » ، ووجهها الى تحتمس الثالث من فلسطين .

وكان « تحوتى » من ضباط تحتمس الثالث في احدى حملاته الفلسطينية . وكان مكلفا بالاستيلاء على « يافا » ولكن يافا استعصت على « تحوتى » . فعسكر بجنوده خارج حصن المدينة . وبدأ يفكر فى خديعة يقتحم بها الحصن . ويقهر بها مقاومة « يوبا » .. أمير يافا .

ورسم « تحوتى » خطته ببراعة .

أرسل الى أمير يافا جاسوسا يخطر الامير بأن « تحوتى » قد كان سيده تحتمس . وتمرد عليه . وأن تحتمس قد غادر البلاد بفلول جيشه بعد أن تمرد عليه جنود «تحوتى» وأكد الجاسوس للامير أن « تحوتى » يريد التحالف معه ، وانه أحضر من مصر ثروة من الهدايا النفيسة . والاسلحة الفرعونية السحرية .. ومنها صولجان تحتمس السحرى . الذى تكفى ضربة واحدة منه لكى يفقد الاعداء الوعى .

واقتنع الامير بهذا الكلام . وسال لعابه للاستيلاء على الصولجان السحرى للملك تحتمس ، وقبل دعوة «تحوتى» المرابط خارج الحصن الى وليمة أقامها خصيصا لتأكيد ولائه لسموه .

وسالت فى هذه الوليمة أنهار الخمر حتى سكر الامير « يوبا » وجميع حراسه . وعندما بلغت نشوة الامير أقصى حدودها . طلب من « تحوتى » أن يسلم اليه صولجان

تحتمس الذى وعد به • فقام تحوتى ، وأحضر هراوة ضخمة • وقال :

ـ أنظر يا أمير يافا ، وحاكم سوريا • هذا هو صولجان تحتمس الثالث ، الاسد الذى يكشر عن أنيابه • وهو الصولجان الذى أعطاه اياه أبوه « آمون » لينتصر به على أعدائه ••

ثم رفع الهراوة ، وهوى بها على رأس الامير • فسقط مغشيا عليه • وفى نفس الوقت أطبق جنود « تحوتى » على حرس الامير • وأصبح الجميع أسرى ، مقيدين ، فى قبضة المصريين •

وأسرع « تحوتى » ينفذ الجزء الثانى من خطته •

أحضر مائتى قدر • ووضع فى كل قدر جنديا من المحاربين الاشداء ، مسلحا بالاقواس والسهام وباقى المهمات • وحمل كل أثنين من القدور حصان • ثم تخفى فى زى سائس • وقاد هذه القافلة كلها الى الحصن • ومعه عدد من جنود الامير الذين وقعوا فى قبضته •

وأمام باب الحصن زعم « تحوتى » أن القافلة تحمل هدايا لأميرة يافا • زوجة الامير • وأيده فى هذا الكلام جنود الامير الذين جاء بهم معه •

وفتح الحراس الابواب مرحبين • ودخلت القافلة الى ساحة القلعة •

ثم فجأة خرج المقاتلون من القدور • وانتشروا فى انحاء القلعة • واستولوا عليها •

وهكذا سقطت يافا فى قبضة الجيش المصرى • وكتب « تحوتى » الى تحتمس الثالث هذه البردية •• يروى فيها قصة الخدعة التى استولى بها على يافا • ويقول له : فلتهنأ أيها الملك العظيم برعاية والدك « آمون » •• الذى ارتفعت

رايته على ارض « يوبا » • فقد أصبح أمير « يوبا » وكل قومه ومدينته صرعى تحت قدميك الى أبد الابدين • وسنحملهم اليكم أسرى لتملأ معبد أبيك « آمون » بالعبيد ذكورا واناثا !

هل يمكن أن يكون الشبه بين هذه القصة وبين قصة على بابا وحصار طروادة مجرد توارد خواطر ؟

ان هذه القصص التى رويناها مجرد أمثلة • لا أكثر !

وفى الادب المصرى القديم أمثلة أكثر تفصيلا • ونصوص أكثر اثارة • تؤكد أن معظم معالم الادب العالمى الخالد فى عالم اليوم كان كاتبها الاول هو المصرى المسكين الجالس القرفصاء •

وقد يفسر بعض المؤرخين هذه الظاهرة بأن الكاتب المسكين كان أكثر عبقرية من كل من جاءوا بعده • وأن الدنيا كلها أفلست فكريا بعد رحيله • ولم تستطع أن تكتب الا أشياء تكرر ما سبق أن كتبه هو •

وقد يكون لدى البعض الاخر تفسير اخر • وهو ان الموضوعات القصصية بطبيعتها محدودة • وأن الانسان القديم قد غطاها جميعا • ولا يمكن ابتكار غيرها •

ولكن هذا الخلاف يهم النقاد والمؤرخين • ولا يهمنا نحن لانه ليس موضوعنا • أو بتعبير أدق : لان لدينا موضوعا أهم منه •

لدينا النصوص الفرعونية لمعظم روائع القصص العالمى التى لا تزال منسوبة الى غير كاتبها الجالس القرفصاء •

وهذه النصوص هى التى سنبدأ نرويها كما كتبها صاحبها ـ لا بقصد انصافه فقط • ولكن أيضا بقصد انصافها • وامتاع القارىء بنصها الاصلى الذى شوهه الناقلون والسارقون والمقتبسون عبر ستة الاف سنة !

شمشون ودليلة أصلها :
عملاق جزيرة الشياطين !!

وهذه حكاية ثانية من حكايات الكاتب المصرى الجالس القرفصاء ، والتى اقتبسها كتاب العالم الحديث واشتهرت واشتهروا بها ، دون أن يعرف العالم أصولها القديمة التي ترجع الى هذا الكاتب المتواضع الذى مات منذ آلاف السنين .. الحكاية هذه المرة وجدت مدونة على قطع متفرقة من لوحات الاستراكا ، ومنقوشة على الاحجار فى حفريات سقارة .. وقد قام بترجمتها أكثر من كاتب على مختلف العصور ، من بينهم « مارش » فى كتابه : حكايات الزمن القديم • و « بروكسبانك » فى : أساطير الفراعنة ، و : تراجم الادب فى الدولة القديمة ، لسليم حسن ..

ولسوف يدهشك أن تلك القصة القديمة التى كتبت منذ بضعة آلاف من السنين ، هى الاصل الحقيقى للقصة المشهورة ، شمشون ودليلة .. !

كان فى قديم الزمان عملاق ضخم الجسم أسود اللون بشع المنظر ، يسكن في جزيرة نائية خلف شلالات النيل كان شديد البأس ذا قوة خارقة جعلت الجميع يخشون بطشه ويرتعدوا خوفا منه •

ولم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من الجزيرة وجعلت الجميع ينشرون حولها الخرافات ، وساد الاعتقاد بأن الجزيرة تسكنها الشياطين .. وكان العملاق الضخم يعيش وحيدا فى الجزيرة فى كوخ مقام من جذوع النخيل وسط

غابة كثيفة من أشجار الدوم وشجرة كبيرة من أشجار السنديان النادر تمتد فروعها مرتفعة في السماء لتستقبل أوراقها القصية أشعة الشمس الذهبية وهي تطل من أفق الشروق ولا تغفل عنها حتى تودعها وهي تغيب في أفق الغروب .

ولم يكن يوجد بالجزيرة من الحيوانات الا الافاعي الضخمة والزواحف التي تجوب أرجاءها عندما يخيم الظلام وينام العملاق .. وتحيط بشواطئها التماسيح المفترسة التي يخشاها الصيادون وتمنعهم من الاقتراب بقواربهم منها ، كما تعودت سفن الملاحة أن تتفادى الاقتراب من شواطئها وقد ساد الاعتقاد بين الملاحين أن تلك التماسيح ما هي الا شياطين النهر التي تحرس الجزيرة وتتلقف القرابين البشرية لتقديمها اليه .

وتنتقل القصة الى وصف رحلة من رحلات صيد البط والاسماك والترفيه بالعزف والغناء التي يقوم بها الشباب في الليالي القمرية في أعياد الربيع .. الى أن تهب عاصفة عارمة من عواصف غضبات النهر فتعصف رياحها العاتية بقوارب الصيد وينقلب بعضها ويذهب كثير من ركابها قربانا له ..

وهنا يجرف تيار النهر العاتي أنقاض قارب صغير تعلقت به حسناء جميلة وصفت بأنها أجمل جميلات مدينة طيبة « ت . أبت » يطلق عليها اسم ضياء الشمس وكان يتبعها تمساح ضخم كاد يفتك بها قبل أن تقذف الامواج بها الى شاطىء الجزيرة .

وكان العملاق الضخم يرقبها وهو يقف ممدود القامة كشجرة من أشجار الدوم الذي يقف بينها . وما أن شاهد

التمســـاح الذى كان يفتك بها حتي هجم عليه ورفعه بيديه القويتين فى الهواء ـ وكان طوله أربعة عشر ذراعا ـ ثم القى به على الشاطيء بعيدا عنها ، ولما حاول التمساح مهاجمته قبض على فكيه وفصـــلهما بيديه القـويتين عن بعضهما ومزقهما ، ثم يتقدم العملاق من « ضياء الشمس » التي تقف في ذهول مما رأت وحملها بين ذراعيه وسار بها الى كوخه ٠

ويدور حوار بين « ضياء الشمس » والعملاق فتقول له انها لا تعرف كيف تشكر الالهه التي استجابت لتضرعاتها ودعائها فأرسلته لانقاذها ؟

فيرد عليها بانه هو الذى لا يعرف كيف يشـكر الالهه التي قبلت صلواته وتضرعاته ووهبته الزوجـة الجميلـة لتؤنس وحدته ٠ وأخذ العملاق يلاطفها ويتودد اليها ولكنها وجدته متوحشا يجمع بين الدمامة والقبح لدرجة لم تستطع معها مجرد النظر اليه ٠٠ ولم تجد ما تفعله سـوى البكاء طول اليوم ٠٠ ولكنها عرفت أنها مهما صرخت أو استغاثت أو استعانت بالصبر فلن يمكن لاحد أن ينقذها أو يخلصها من ذلك العملاق المتوحش ٠ وقد غضب العملاق غضـــبا شديدا وخيرها بين أن تتزوجه أو يلقى بها الى التماسـيح في النيل التي سرعان ما تفترسها وتمزقها ٠

فأخذت تتودد اليه حتى اطمأن اليها فقالت كيف أرفض الزواج منك وقد أرسلتني الالهه خصيصا لك اســـتجابة لدعواتك ان كل ما أطلبه أن نتزوج زواجا ترضـــاه الالهه ولا يغضبها ٠

فسألها ـ كيف ومتى يتم هذا الزواج ؟

فقـــالت ـ سيتم ذلك الزواج على يد اله المعبد الـذى

سيرسل لنا رسالة من رسائله تحملها معجزة من معجزاته تصل قبل عودة القمر أو فى مثل هذه الليلة بعد شـــهر قمرى ٠

فسألها ـ واذا لم تصل الرسالة ؟

قالت ـ معناه موافقة الالهه وعدم اعتراضـــها وبذلك أصبح أمامك وأمامهم شريكة حياتك ٠

وبدأت تتقرب منه وتتودد اليه بعد أن اطمـأن اليهـا وتحاول أن تدخل السرور الى نفســـه والغرور الى قلبـه فتمتدح حجمه الضخم وقوته الخارقة وهى تقـول ـ الى قبلت الزواج منك لقوتك وشجاعتك التى تجعل جميـــع الرجال يخشونك ٠٠ وليس هناك من يمكنه أن يقهرك أو يتغلب عليك ٠٠ وان كان ينقصك الجمال فان عندى تميمة حتحور وبها سر جمالى الرائع الذى يجعل كل فتاة أخـرى فى مصر تبدو الى جانبه دميمة ، جمال دائم وخالد تزيده الايام نضارة وشبابا ما دمت أحتفظ بتميمة سره ، وسوف أطلعك عليها لانى أريد أن أفخر بأنك أقوى وأشجع رجال المدينـة ٠٠ وأجمـل شبابها بعد أن تطلعنى أنت على سر قوتك ٠

فقال لها العملاق الذى كان مسرورا بمديحها ســـعيدا بتملقها وهو مأخوذ بسحر جمالها ـ ليس هناك ضرر فى أن أخبرك بذلك السر ٠٠ أن سر قوتى هو قلبى الذى يبلغ من الحجـم والقـوة بحيث لا يمكننى ان احتفظ به داخل جسدى ٠

فصاحت ضياء الشمس اذا كان قلبك كبيرا لدرجة أن لا مكان له فى جسدك ولا يمكنك أن تحتفظ بهذا القلب العظيم بين ضلوعك فأين تحتفظ بمثل هذا القلب المدهش؟

فتنهد العملاق الضخم وأجاب هذا هو سرى وسر قوتى ولكن حيث انك ستصبحين شريكة حياتى فلا خوف من أن اخبرك عن ان ذلك المخبأ يقع بين غصون قمة السنديانة الكبيرة التى تظلل الشاطىء الجنوبى للجزيرة ٠

وطالما بقى فى ذلك المخبأ المحصن لن يستطيع أى انسان او حيوان أو وحش ضار أن يواجهنى أو يتحدانى ٠

فسألته الا تخشى أن يصل اليه أو يسرقه أحد ٠٠

فقال لها : لا يمكن ان يقترب أحد من الشجرة التى يقوم على حراستها ثعبان ضخم له رأس كرأس الثور يعلوه قرنان متلويان ، وله عينان تلمعان بلون أحمر كاللهب ٠ وهو يلتف بجسمه الفضى اللون حول جذع السنديانة ولا يفارقها طول الليل والنهار ٠

وانتظرت ضياء الشمس أسبوعين حتى وصل الفيضان وارتفعت مياه النهر على الشاطىء وغمرت جذع السنديانة ٠٠ وعندما انتصف الليل وغلب النوم العملاق وعلا شخيره كالرعد الذى يزلزل الجزيرة فترتعد منه حيواناتها وطيورها وزواحفها ٠ فتطمئن « ضياء الشمس » الى ان العملاق يغط فى سبات عميق فتتسلل بهدوء الى الشاطىء حتى تكون فى مأمن من تماسيح الدهر وحيات البر حتى تصل الى شجرة السنديان التى تكون مياه الفيضان قد أحاطت بجذعها وغمرته ٠٠ فابتعدت الحية الكبيرة التى تحرسها وزحفت الى أعلى التل حتى ينحسر الفيضان — وابتعدت التماسيح عن الشاطىء الجنوبى للجزيرة الى الشواطىء الاخرى حتى لا يجرفها التيار وأمواجه المتلاطمة فتسبح « ضياء الشمس » حتى تبلغ جذع السنديانة فتتسلقه بهدوء وهى تحتمى بين اغصانها حتى تصل الى

السلة المعلقة فى طرف السنديانة فتفك رباطها فتسقط السلة بحملها الثقيل فى النهر فتجرفها أمواج تياره الدافقة الى حيث الشلالات وصخورها الجرانيتية لتتحطم عليها .

وتعود ضياء الشمس الى الكوخ فتنام فى ركن من أركانه كعادتها حتى يستقيظ العملاق مع طلوع الفجر . وتطلب منه ان يحضر لها جذعا من جذوع شجر الدوم لسد بعض الفتحات فى حوائط الكوخ حتى لا تتسلل منها الافاعى لتفترسها فى الليل ، وكان من عاداته استعراضا لقوته الخارقة أمامها أن يحتضن الاشجار الضخمة من جذوعها ويخلعها من جذورها .. وقد راقبته هذه المرة وهو يفشل فى تحريكها بعد أن خانته قوة عضلاته . فتأكدت من أن مكيدتها قد نجحت فى سلب قوته بعد كشف سرها .

فذهبت للاستحمام كعادتها كل صباح على شاطىء الجزيرة وراحت تصرخ مستنجدة به مدعية أن أحد التماسيح قد هاجمها وأراد اختطافها وأشارت له على تمساح ضخم يرقد بين الاعشاب فذهب اليه وحاول رفعه فى الهواء والقاءه على الشاطىء كما تعود أن يفعل دائما اظهارا لقوته أمامها فاذا بالتمساح الضخم يلقيه هو على الارض ويدور بينهما صراع عنيف ينتهى بأن يطبق التمساح فكيه القويتين على ساقه ويسحبه ليختفى به فى قاع النهر .

فتجرى « ضياء الشمس » حتى تبلغ الشاطىء الجنوبى وتجلس فى ظل السنديانة الكبيرة التى يغمر الماء جذعها وتقص خصلة من شعرها الاسود الطويل الذى يصل الى قدميها والذى تميزت به بين جميلات مدينة طيبة . وتلتقط فرعا من فروع السنديانة المتساقطة وتربط به الخصلة

بعناية فائقة وتلقيه فى تيار النهر المقدس الذى تصلى له وتأتمنه على توصيله لأهلها وحبيبها ٠

وتذهب كل يوم لتتسلق السنديانة في الليل وتجلس فوق غصون قمتها العالية لتكـون فى مأمن من وحوش الجزيرة وأفاعيها بالليل وترقب في ضوء القمر الذى بدأ في التكامل السفن التى تعبر النهر بعيدا عن الجزيرة خوفا من لعنة شياطينها ٠ لكن احساسها يؤكد لها بأن قاربا واحدا سيأتى فى اتجاه الجزيرة يحمل أميرها المحبـوب عندما يكتمل القمر ويضىء له الطريق ٠

خلال ذلك الانتظار الذى تأرجح بين اليأس والامل لعدة أيام يكون فرع السنديانة الذى يحمل الخصـلة الطويلة السوداء قد جرفه التيار قرب شاطىء مدينة طيبة فيلتقطه أحد الصيادين بشباكه ، وما أن يرى الخصلة السـوداء الطويلة التي اشتهرت بها الجميلة ضـياء الشمس أجمل بنات طيبة حتى يهرع بها مسرعا الى قصر الامير الحـزين يحمل اليه البشرى الجميلة ٠

ويسرع الامير فى طلب عراف معبد أمون الذى يسأله عن صاحبة الخصلة ومكانها ومصيرها ٠ فيقـوم العـراف باستخارة الهته وهو يقلب الخصلة اللامعة بين يديه يقول: ان تلك الخصلة من ضفائر أجمل جميلات طيبة التى تحمل تميمة حتحور التي تحفظها وتحفظ جمالها ـ انها لا تزال حية لان الخصلة قد ربطت بعناية واحكام فى فرع شجرة السنديان التي لا تنمو في تلك البلاد ولا يوجد منها الا شجرة واحدة تعلو بجزيرة الشياطين الواقعة فى بلاد النوبة خلف الشلالات وستعود اليك عندما يتكامل القمر فتسقط من السماء بين يديك قبل أن يلمس قاربك شاطىء الجزيرة

لم يكد العـــراف ينتهى من كلامه حتى أسرع الامير الى عربته واندفع بأقصى ما يستطيع من سرعة وتبعــه بعض حرسه وأتباعه الاشداء بعرباتهم وأخذت عربته تميــل من جهة الى أخرى بتأثير السرعة ويســـير فوق عجلة واحدة فتارة فوق العجلة اليمنى وتارة فوق العجلة اليسرى ولم تستقر العربة أبدا فوق العجلتين وهى تقفز فوق الشاطىء الصخرى الوعر حتى بلغ موضع الجزيرة فى الموعد المحدد باكتمال البدر وقد اســـتدل على الجزيرة بالســـنديانة الشاهقة التى بدت كالعملاق الفضى فى ضــــوء القمر . ويقذف الامير بنفسه فى قارب من قوارب الصيد الراسية على الشاطىء ويجدف بأقصى قوته متجها الى الجزيرة ولم يستمع الى نصائح الصيادين الذين طلبوا منه الا يجازف بحياته فيقع أسير شياطين الجزيرة وعملاقها الاســطورى المتوحش .. أو أن ينتظـــر حتى يذهب برفقة حراسه وجنوده الاشداء بأسلحتهم وعتادهم .

وكانت « ضياء الشمس » تجلس كعادتها كل ليلة فى مكانها المختار فوق قمة السنديانة تراقب تحركات قوارب الصيد التى تتهادى فوق سطح النهر وتتفادى فى مسيرها الاقتراب من شواطىء الجزيرة المشئومة اذا بها تشـــاهد قاربا يتجه وحيدا الى الجزيرة مباشرة فقفــز قلبهـــا فى صدرها من الفرحة لأنها تأكدت بأنه فارســها المحـــبوب الذى سيصل مع اكتمال القمر فترجلت بسرعة وهى تقفز بخفة ورشاقة بين الاغصان حتى وصلت الى الفروع الكبيرة الممتدة فوق ماء النهر التى كان القارب يمر تحتها قبل أن يلامس الشاطىء واذا بها تقذف بنفسها لتسقط فى القارب بين يديه وهكذا تحققت نبوءة العـــراف عنـــدما قال :

« ستعود اليك عندما يتكامل القمر . فتسقط من السماء بين يديك قبل أن يلمس قاربك شاطيء الجزيرة . »

وتنتهى القصة بعودة « ضياء الشمس » الى طيبة التى تدخلها كتمثال الهه الجمال بجوار الامير الشاب فى عربته التى كانت تسابق الريح الذى يعبث بخصلات شعرها الاسود الجميل .

وتزوجت ضياء الشمس من أمير مصر وصارت ملكة تحدث الناس عنها بأنها كانت أحسن وأجمل ملكة حكمت على أرض مصر .

اللى كتب ألف ليلة كان
فى الأصل فرعونى !!

وتصل الى حكايات الف ليلة وليلة الشهيرة والتى أدهشت جميع شعوب العالم انها ابداع خاص بها أنجبته قريحة أبنائها ·

ولكن الكشف التاريخى المثير الذى ننفرد بنشره يرد للكاتب المصرى الجالس القرفصاء اعتباره فهو صاحب الفضل الاول فى ابداع « ألف ليلة وليلة » ·

ـ وتعالوا نقرأ برديات ما كتبه ذلك الجالس القرفصاء !

● برديات وستكار !

فى برديات وستكار التى ترجع الى الدولة القديمة ٢٨٠٠ ق · م وتعتبر من أشهر البرديات التى أبدع فيها الاديب المصرى القديم فى الخروج من عالم الواقع الى عالم الخيال ووصف خوارق الاعمال فى عالم السحر والاساطير كما تعتبر فى نفس الوقت تطورا فى أدب القصة والخروج بها من إطار أساطير العقيدة الى حياة المجتمع !

وتشبه قصص برديات وستكار فى طريقة سردها وتسلسلها وتعاقبها واحدة بعد الاخرى قصص ألف ليلة ليلة المعروفة · وهى قصص رويت على ألسنة الامراء لتسعة من أولاد الملك خوفو فى مجالس سمره والتى كان

يجمع فيها الحكماء والندماء والادباء والسحرة من معلمي أولاده .

كان كل امير يروى فى ليلة من الليالى فى مجلس السم قصة من قصص معجزات السحر وجولات الفكر فى عالم الخيال . كانوا يجمعونها عن رواتها بواسطة أعوانهم ومعلميهم وعن حلقات السحر بالمعابد ويقومون بتدوينها ونسخها وتلاوتها فى حضرة الملك فى المجلس .

● قرط الاميرة والساحر !!

ومن امثلة قصص ألف ليلة وليلة الفرعونية قصة « جاجام عنخ » وتحكي القصة كيف خرج الملك سنفرو للتنزه فى بحيرة القصر مع الاميرة « مسروى » فى سفينته ذات المقصورة الذهبية ـ التى أبدع الاديب فى سحرها ـ وقام بالتجديف عشرون وصيفة من أجمل العذارى ذوات أجمل الصدور والجوارح ولا يستر أجسامهن سوى غلالات من شباك الصيد وكن يجدفن بمجاديف مكسوة برقائق الذهب على أنغام القيثارات ونقر الدفوف .

ثم تشرح القصة كيف فقدت الاميرة قرطها الذى سقط منها فى الماء ـ وكان على شكل سمكة من الذهب والفيروز ـ بينما كانت الاميرة تتغزل فى جمال وجهها المنعكس على صفحة الماء فتشاءمت الاميرة وانتابها الحزن وأمر سنفرو باستدعاء « جاجام عنخ » ساحر معبد آمون بمنف الذى ركع على شاطىء البركة وتلا عزائمه السحرية ثم ضرب سطح الماء بعصاه فانشق ماء البحيرة الذى كان عمقها اثنى

عشر ذراعا · فانكشف قاع البحيرة وظهر القرط الذهبى فنزل سنفرو والتقطه بنفسه ليسلمه للاميرة فعادت الافراح وكافأ فرعون « جاجام عنخ » مكافأة سخية وعينه ساحرا خاصا لقصر فرعون ·

● الزوجة الخائنة والتمساح الشمعى !

ومن القصص التى حوتها نفس برديات وستكار قصة « الزوجة الخائنة والتمساح الشمعى » التى تحكى كيف صنع الساحر « أوبا أونر » تمساحا من الشمع طوله نصف ذراع والقاه فى البحيرة التى كانت الزوجة الخائنة تقابل فيها عشيقها أثناء غياب زوجها فى رحلاته مع الملك .. وكيف تحول تمثال الشمع الى تمساح ضخم حى قبض على العشيق · وغاص به تحت الماء واحتفظ به فى قاع البحيرة لعدة أيام حتى أتى الكاهن وأمره بالخروج به الى سطح الماء ليراه زوجها والشهود ثم أمره بافتراسه وتحول التمساح مرة أخرى الى تمثال صغير من الشمع حمله الساحر معه فى صندوقه الخشبى المخلص ثم أمر الزوجة الخائنة بأن تلقى بنفسها فى البحيرة لتلحق بعشيقها ·

وفى قصة « تميمة حتحور » وهى من بين القصص التى لم تصل الينا كاملة فهى تحكى قصة الاختين مريت وتارى حيث يعجب الامير تاوى بالاخت الصغرى ويقع فى حبها فتلجأ الاخت الكبرى الى ساحر معبد حتحور الهة الحب والجمال فيعد لها تميمتين عبارة عن نصفى قلب زود كل منهما بتعاويز خاصة ويطلب منها أن تحمل احداهما وتعلق الاخرى على عنق الامير ، فتقوم التميمة بالتأثير على

حاملها والســيطرة عليه ليخضع لمشيئة الاخر ويربطهما ببعضهما برباط لا يمكن فصله وعند زيارة الامير لهما في البيت غافلته مريت ووضعت التميمة في قلادة صــدره ضمن ما يحمله من تمائم ٠

وبالفعل تحقق تأثير التميمة حيث سرعان ما تحول حبه عن اختها ووقع الامير أسير غرامها وطوع مشيئتها وأمرته أن يسرع بتحديد ميعاد مصاحبتها الى المعبد لعقــد قــرانه عليها ٠

وهنا تلجأ الاخت الصغرى عندما كشفت خديعة أختها ـ وسر التميمة التي يحملها الامير ـ الى احدى صديقاتها من وصيفات الامير وتتفق معها على سرقة تميمة حتحــور من قلادته واحضارها اليها بعد ما وعدتها باهدائها جــوهرة ثمينة من جواهرها لقاء قيامها بتلك المهمة ٠

وتنجح الوصيفة في نزع التميمة من القلادة واحضارها اليها ٠ وتقوم تارى بدورها باهداء التميمة لعبد دميم من عبيد القصر تقديرا لاخلاصه في خدمة سيده ونشاطه في العمل بالقصر وتحدث المفاجاة وتعمـــل التميمة عملهــا فينجذب العبد نحو مريت ويســـعى للقائها فتقــابله بالحديقة ويقع كل منهما في حب الاخر فتهرب معه خــوفا من بطش الامير ٠

وبذلك يخلو الجو لتارى والامير الذى يعود اليها معتذرا عن تصرفاته نحوها وعندما عرف بقصة التميمة أخذ تارى معه الى معبد حتحــور حيث عقد قــرانه عليهــا وطلب من الساحرة ابطال عمل التميمة. انتقاما من مريت والعبد حيث سيفيقان من الحب على الكراهية والحقد ويهرب كل منهما من الاخر !

● عازف الناى الاخرس !

ومن بين قصص ألف ليلة وليلة الفرعونية التى ترجع الى الدولة القديمة أيضا قصة « عازف الناى الاخرس » تحكى الاسطورة قصة « أى نو » الراعي العاشق الاخرس الذى كان يبكي حبه وهو جالس على شاطىء النيل ويرفع شكواه الى « سين » اله القمر وقد حرمته الحياة من نعمة النطق لان لسانه عاجز عن التعبير عما يريد أن يقوله ليعبر به عن حبه للجميلة « تاميو » فأرسل له القمر احدى عرائس النهر التى طفت بين ثنايا الشعاع الفضى الذى يكسو صفحة الماء لتستمع الى شكواه وتستجيب لدعائه فتقدمت منه ونزعت عودا من أعواد الغاب الذى يكسو الشاطىء وقدمته له وطلبت منه أن ينفخ فى العود بأحاسيس قلبه وما يريد أن ينطق به • وتصف الاسطورة كيف تساقطت دموعه الحارة على غابة الناى فحفرت الثقوب التى خرجت منها أول وأجمل أنغام الحب •

وتستمر القصة وأحداثها بخروج حبيبته من القصر باحثة عن مصدر تلك المفاجأة التى تنطق بكل معانى الحب وينير اليها القمر الطريق بين المزارع لتصل الى مصدر تلك المناجاة التى تنطق بكل معانى الحب •

وهكذا جمع الناى « أى نو » بحبيبته « تاميو » التى سمعت صوت نداء قلبه عن طريق أنغام نايه •

تحوى برديات هاريس التى تعود الى الاسرة الثمانية عشرة مجموعة كبيرة من القصص المماثلة التى تتشابه فى كثير من وقائعها وأسلوب سردها مع قصص الف ليلة المعروفة وبعض القصص قد كتبت بأسلوب مسرحى مما

يرجع بعض المؤرخين انها كانت تمثل فى المسارح الشعبية والاعياد أسوة بالمسرحيات الدينية المشـــهورة التى كانت تمثل فى المعابد وفى الاعياد الدينية .

لقد وجد بين برديات مقابر الدولة الوســـــطى بعض الصفحات المتفرقة ونصـــوص غير كاملة لبعض القصص المسرحية من بينها مشهد أو مقطع من قصة «عودة المحارب» التى يحتفظ بها متحف برلين والتى يعتبرها نقـاد الادب العالمى نموذجا لاروع ما وصل اليه الخيـــال فى القصص المسرحية .

وتصــف البردية منظـــر الاميرة وهى تجلس فى شرفة قصرها المطل على النيل تحتضن ابنها الطفل الذى يسالها عن أخبار عودة أبيه البطل الذى يقود جيش فرعون ويقاتل الاعداء فى وادى القمر (سينا) . وقد عده بأنه سيحضر له هدية عبارة عن سيف ذهبى من ســـيوف قواد الاعداء الذين سيقتلهم .

ويقطع السكون صوت أحد صيادى الســـمك وهو يغنى بصوته الجميل بمصاحبة ضربات مجاديف قاربه الذى يعبر به النهر .

فيسال الطفل أمه .. لماذا يغنى الصـــــياد وهو يجدف فترد عليه بقولها « يا ولدى أن النهر هو نهـــر الحيـــاة بشاطئيها .. والرحلة بين الشاطئين هى رحلة الوجود انها رحلة طويلة وشاقة وضربات السواعد تحتاج الى مجهـــود مضن ومستمر للعيش وكسب الرزق لبلـــوغ نهايتهـــا بسلام » .

والرحلة تحتاج الى زاد من المجهود الجســمانى والعقل المتواصل فلكى ينسى الانسان تعبه فانه يغنى ليسلى نفسه

ويتغلب على تعبه وملله ويقطع وقته !
وبينما هى مسترسلة فى حديثهـــا الذى نسـيت انه لا يتفق مع سن طفلها تلتفت اليه فاذا به ينعم بســـبات عميق سعيدا بأحلامه التى نقلته الى عالمه · وتترك مكانهـا لتتوقف عند حافة الشرفة لتتطلع الى القمر الذى بدأ يأخذ مكانه فى قبة السماء وبدأت تناجيه بسؤالها « يا رسول الاله فى سماء الليل يا من تحرس الكائنـات وترعاها فى سكون الليل لقد طلبت بالامس أن أســـألك عما أريد ـ أسالك عن الغائب فى المجهول ! »
ما هو سر الوجود ؟ فأجابها القمر على سؤالها برسالة كتبها بأشعته الفضية على صـفحة الماء ـ حاولت أن تفهم منها شيئا فعجزت عن حل رموزها · فقالت له تلك الرسالة لا يمكن فك رموزها لقراءة فحواها ؟
فرد عليها ـ وهكذا سر الوجود علمه عند رب الارباب الاله الاعظم وليس للالهه أو البشر فى الاطلاع عليه ـ أو حتى السؤال عنه ·
واعتذرت للقمر على جرأتها للســـؤال وطلبت منه ان ينبئها أو ينقل اليها أخبار حبيبها الغائب والذى يحـارب على أرض سينا (وادى سين) ·
ويكمل القمر رحلته فى قبة السماء ويعـود فى اليـوم الثانى ليجدها فى انتظاره حاملا اليها رســـالة حبيبهـا المحارب كما وعدها ويخط لها الرسالة على صـــفحة الماء بأشعته الفضية بخط أمكنها فك رموزه وقراءته وتنـاجى القمر فى صلواتها كل يوم وتحمله الرد على الرسالة وتبثه أشواقها لرؤياه ولهفتها للقائه !
وتمر الايام ـ وهى على أشد اللهفة لاستقبال القمر وهو

يحمل رسالة حبيبها التى طال غيابها واذا بوجه القمر تحجبه سحابة قاتمة ترد على سؤالها بدموع سخين وهى تتساقط من خلال السحاب وتصرخ وهى تسأل القمر عن رسالة حبيبها ولكن السحابة تحجب أشعة القمر أو ذراعه من أن تمتد لتخط الرسالة على صفحة الماء .

ويتوقف الحوار المسرحى الرائع عند ذلك المقطع من البردية وربما تكشف الايام عن بقيتها التى قد تكون فى حوزة مخازن دور الاثار العالمية ضمن مئات البرديات التى لم تترجم بعد .

مونت كريستو .. وسر يذاع لأول مرة !!

ان مغامرات « ون آمون » التى اكتشفت برردياتها فى احدى مقابر الاسرة العشرين فى مدينة طيبة تعتبر من أروع نماذج أدب المغامرات فى الدولة الحديثة .

وهى قصة كاهن من كهنة معبد آمون يروى مغامراته فى رحلة قام بها من طيبة بامر « حريحور » حاكم طيبة وكاهنها الاكبر للذهاب الى سوريا لشراء خشب الارز اللازم لتجديد زورق آمون المقدس .

ويظهر من الوثيقة التى دونت بها القصة أن العلاقات السياسية بين مصر وسوريا لم تكن على ما يرام حيث منع حكام سوريا تصدير أخشاب الارز اللازمة لصناعة الزوارق المقدسة ومراكب الشمس والتوابيت والاثاث الجنائزى بالمعابد بالاضافة الى الاخشاب العطرية اللازمة للبخور .

وقد تطوع « ون آمون » بالقيام بتلك المغامرة والسفر الى بيبلوس لاحضار الاخشاب المطلوبة فزوده حريحور بتمثال من البرونز للاله آمون لحمايته ويطلق عليه اسم « آمون رفيق الطريق » .

وبعد مغادرة مدينة طيبة عرج « ون آمون » فى طريق رحلته على « سمندس » حاكم تانيس لمعاونته ماليا . فلما علم سمنداس أن الخشب مطلوب لزورق آمون المقدس زوده بالذهب والفضة اللازمين لشراء الخشب والبخور اللازمين للمعبد كقربان منه شخصيا للاله . وأمده ببعض الهدايا النفيسة من العاج والبردى ونسيج الكتان ومصنوعات مصر القيمة .

وأبحر ون آمون فى سفينته الشراعية بصحبة مجموعة من أمهر ملاحى مصر الاشداء . وكانت « دور » أول مدينة وصلوا اليها على الشاطىء الفينيقى بعد رحلة استغرقت شهرين استعانوا فيها بالقبة السماوية فى تحديد خط المسير ومعرفة اتجاه الريح واحوال البحر .

وبينما كان ملاحو السفينة يستريحون على الشاطىء من عناء الرحلة تربصت بهم عصابة من أهل « ثاكر » تسللوا الى السفينة فى غفلة من ملاحيها وسرقوا ما بها من ذهب وفضة كما سرقوا الهدايا التى حملها ون آمون معه ليقدمها الى حاكم بيبلوس من سمندس ملك مصر .

لما تقدم ون آمون بالشكوى لحاكم « دور » نفى الاخير مسئوليته عن رد المسروقات . وبعد أن غادر ون آمون مدينة دور في طريقه الى بيبلوس اكتشف بالقرب من شاطىء المدينة مخيما لاحدى قبائل الثاكر التى ينتمى اليها سارقو الذهب والفضة من سفينته وقد دله عليهم تمثال « رفيق الطريق » فباغتهم برجاله فى الليل ووجدها فرصة لاغتصاب أموالهم تعويضا أو رهنا حتى يسترد ما فقد من أموال آمون .

يستمر ون آمون فى رحلته ليصل الى بيبلوس عند شروق الشمس وكانت أخبار رحلته وقصته مع أهل ثاكر قد سبقته اليها عن طريق رسل حاكم دور الذى كان يكره المصريين . فرفض أمير بيبلوس أقامته في بلده تجنبا للمشاكل خاصة عندما أخبروه أن ون آمون هو الذى سرق أهل ثاكر وليس العكس وطلبوا تفتيش سفينته للتأكد مما تحمله مما سرقه من أهل ثاكر كما أخبره حاكم دور .

ويشرح ون آمون فى برديته القصة كيف قضى أياما طويلة فى محاولة مقابلة الامير شخصيا ورفضه مغادرة

الميناء قبل أن يحقق رغبة الاله آمون التى لا يمكنه العودة الى مصر قبل تحقيقها ٠

وهنا يتذكر « ون آمون » تمثال رفيق الطريق الذى كان قد أخفاه طوال تلك المدة فى قاع السفينة خوفا عليه من السرقة فيلجأ الى استخارته فتتحقق المعجزة فورا واذا بالامير يرسل اليه رسولا يدعوه لزيارته ٠

عرف ون آمون ان رسل الامير الذين قاموا بتفتيش السفينة للتأكد من دعوى أهل ثاكر وحاكم دور أخطروا الامير بعد تفتيش السفينة أن دعواهم ليس لها نصيب من الصحة كما عرف ون آمون عندما استخار « رفيق الطريق » انه هو الذى أعماهم عن رؤية المسروقات ولو انها كانت فى مكان ظاهر على ظهر السفينة وليست فى مخابئها التى قاموا بتفتيشها ٠

وصف ون آمون مقابلته لامير ببيلوس بقوله « كان الامير الذى عرف بضخامة الجسم وشراسة الطباع جالسا فى ايوانه الخاص بالدور العلوى بقصره الذى يطل على الميناء وظهره للنافذة المطلة على البحر السورى باامواجه المتلاطمة وعواصفه المتشابكة ٠

ويدور حوار عنيف بين الامير و « ون آمون » يوصف رحلته بأنها « مغامرات أطفال وأعمال قرصان » ويسخر من حارسه الالهى رفيق الطريق الذى لم يتمكن من حفظ الاموال التى أرسلها الاله آمون لشراء الاخشاب والذى يدعى انها سرقت منه بينما يعلم الامير انه هو الذى سرق أموال الشاكر ويرفض أن يعطيه الاخشاب الا بعد دفع ثمنها ٠ فالاخشاب ملك له وحده وليست ملكا لمصر أو لالهها آمون ٠

ويدور في البردية حوار طويل يقول فيه ون آمون ان اخشاب الارز ملك لآمون وما الامير الا حارس عليها وان « لبانو » لبنان التي تنمو بها أشجار تلك الاخشاب هي مزرعة الاله ويحمل الامير تبعة مسئولية رفضه ارسال أخشاب الزورق المقدس ٠

وهنا يثور أحد شباب العائلة من الحرس الخاص للامير ــ وتصفه البردية في مكان آخر انه اكبر أبناء الامير ــ ويتطاول على ون آمون ويحاول مبارزته وقتله ويتهمه هو والهته بالدجل فيتدخل الامير ويمنع ابنه من قتله لان ون آمون لا يحمل سلاحا يدافع عن نفسه ٠

يصرخ ابن الامير في ون آمون ويقول له : ما لالهك أخرس لا ينطق فلينقذ حياتك ، ويأمر الامير ون آمون بالعودة الى سفينته ومغادرة بيبلوس قبل شروق الشمس ٠

ما كاد ون آمون يصل الى سفينته حتى أرسل الامير في استدعائه ثانية فقد نزلت لعنة آمون على ابنه الذى لم يكد ينتهي من قوله « ما لالهك أخرس لا ينطق » حتى فقد النطق هو نفسه وخرس لسانه عن الكلام ٠

وخاف الامير أن تنزل اللعنات عليه هو ايضا ــ كما هدده ون آمون قبل خروجه من المجلس ــ فاظهر التمثال معجزة الاله بأن أعاد النطق الى ابن الامير وعفا عما تفوه به الامير وحاشيته ٠

وأمر الامير بتسليم آمون الشحنة بأكملها كهدية منه لمعابد آمون وقربانا للالهه ٠ ولكن الامير أخبره بانه غير مسئول عنه وعن سفينته بعد مغادرتها شواطىء بيبلوس لانه يعلم أن احدى عشرة سفينة من سفن قرصان أهل ثاكر تتربص له خارج الميناء لتهاجمه عند خروجه الى عرض

البحر لتستولى على الشحنة بعد أن تغرق سفينته وتقتل ملاحيها •

وتستمر القصة لتصف مغامرة ون آمون عندما اشاع في المدينة انه سيبقى ضيفا على الامير لمدة أسبوعين حتى يصبح القمر بدرا فيغادر المدينة بسفينته في ضوء القمر ؛ ولكنه انتهز فرصة غياب القمر وظلمة الليل وهبوب العاصفة فتسلل بسفينته خلسة فى نفس الليلة •• الى عرض البحر !

وعندما أشرقت شمس الصباح التالى اكتشفت قافلة القرصان هربه فتتبعوه عدة أيام فى معركة بحرية صامتة حتى اقتربوا من سفينته فظهرت معجزة رفيق الطريق مرة أخرى عندما ثار اله البحر وارتفعت أمواجه كالجبال الشاهقة وكانت تخفى السفن فلا يظهر منها الا أطراف اشرعتها وقامت عاصفة عاتية لتشترك فى الصراع وتحطم اشرعة السفن وتكسر مجاديفها وأخذت الامواج تتقاذفها بملاحيها حتى غابت عن أعينهم سفينة ون آمون بشحنتها المقدسة ولم يتمكنوا من اللحاق بها •

أما سفينة ون آمون فقد قذفت بها الامواج الى شاطيء أرض سابا (قبرص) وهنا تبدأ مغامرة جديدة من مغامرات (مونت كريستو) •

تنزل عصابة من جبال الجزيرة لقتله ونهب حمولة سفينته ـ وقد اشتهرت جزيرة سابا باسم جزيرة القرصان الذين تخصصوا فى قطع الطرق البحرية المحيطة بها وخروجهم على القانون •

ودخل ون آمون ورجاله فى معركة معهم لم ينقذه منها سوى جنود أميرة المدينة الذين تصادف مرورهم بالقرب من الشاطيء •

فقام جنود الاميرة بوضع حراسة لحمـــاية الســـفينة وركابها وحملوا ون آمون الى الاميرة بناء على طلبها • فلما عرفت من هو وسمعت منه قصة مغامراته مع رفيق الطريق لتوصيل شحنة زورق الاله المقدس ـ وقد قامت بترجمة حديثه وصيفة الاميرة وهى مصرية الاصل ـ فاكرمت الاميرة وفادته وقامت بحمايته هو ورجاله أيضا •

وأقام بالجزيرة أسبوعا قام فيه باصـــلاح ما حـدث لسفينته من خلل أثناء جنوحها مكث خلاله فى ضيافتها فى قصرها الذى يعلو الربوة المطلة على الميناء والبحـر الازرق العظيم •

ويفهم من سياق القصة التى فقدت بردياتهـا للاسـف الكثير من أجزائها أن الامـيرة وقعت فى غـرامه وحاولت اغراءه للبقاء بجوارها ولكنه أسر لها بخوفه من لعنة آمون ورفيق الطريق اذا لم تصل الشحنة الى طيبة قبـل عيـد « ايبيت »،عيد زورق آمون المقدس فاقنعها بضرورة عودته بالسفينة الى طيبة • فحملته الاميرة بالهدايا والقرابين لملك مصر ومعابدها كما كانت أول من اعتنق ديانة المصريين بعد ما شهدت معجزات التمثال •

وهنا تنقطع القصة التى يفهم من بقـايا أجزائهـــا ان الوصـــيفة المصرية تسللت الى السفينة واختفت بها ولم تظهر الا بعد أن أصبحت السفينة فى عرض البحر وبالقرب من شواطىء مصر •

وربما كان لمغامرة الوصيفة دور فى قصة غرام اخرى مع ون آمون أو كونت دى مونت كريستو الفرعونى حيث تمثل العنصر النسائى الذى لا غنى عنه فى قصص المغـــامرات العالمية •

السندباد البحرى على الطريقة الفرعونية !!

ان قصة الجزيرة المسحورة أو جزيرة الثعبان تعتبر نموذجا لادب قصص المغامرات فى الدولة الحديثة وقد وصفها كثير من الكتاب باسم قصة « السندباد الفرعونى »

تبدأ أحداث القصة بأن يسرد بطل القصة مغامراته فى احدى برديات بريس بالمتحف البريطانى ضمن حفريات الدولة الحديثة بوصف مغامرات رحلته التى يبدأها بوصف سفينته التى يبلغ طولها مائة وعشرين ذراعا ويبلغ عرضها أربعين ذراعا يقودها مائة وعشرون ملاحا من أمهر ملاحى مصر ـ قلوبهم أقوى من قلوب الاسود وعيونهم أشد حدة من عيون الصقور وسواعدهم تصارع أعتى الامواج ولهم خبرة بالبحر وأسراره ٠

كانوا يعرفون من أين تهب العاصفة قبل مجيئها ٠ كانت قبة السماء يعرف منها طريق سيره ويستخبرها فتنبئه بما يخبئه القدر ٠

ومع ذلك غدر به اله البحر وهو فى غفلة عما تطويه صفحات المصير ٠ فهاجمه البحر وباغته بامواجه التى بلغ ارتفاعها احد عشر ذراعا ٠ حطم سفينته وغاص بها الى قاعه بجميع بحارته فلم ينج منهم أحد سوى بطل القصة ليروى قصة رحلته التى تعتبر من اروع أمثلة أدب الرحلات الفرعونية ٠

يبدأ مغامراته بقوله « بعد ثلاثة أيام وأنا متعلق بلوح خشبى مما تخلف من بقايا السفينة ـ تتقاذفنى الامواج حتى القت بى الى شاطىء مهجور ٠ نمت فى ظلام الوحشة

فوق رماله . لم يوقظني من ثباتي العميق الا الجوع وأخذت أبحث عن غذاء .

كان الشاطيء يمتليء باشجار التين ذات الثمار الذهبية وعناقيد العنب كأنها تتدلى من السماء وثمار كثيرة لم أرها من قبل واشجار عالية كثيفة متشابكة الاغصـــان غريبة الاشكال .

الزهور والطيور والاسماك مختلفة الاشكال والالوان .. تشير جميعا الى انني في عالم جديد لم يطرقه أحد من قبل فأكلت حتى شبعت وحفرت حفرة ملأتها بالاخشاب واشعلت نارا وركعت وصليت شكرا للاله وقدمت له قرابين الشكر على ضوء هذه النيران .

وفجأة اذا بصوت يدوى كالرعد اضطرب له جو المكان واهتزت له الاشجار وارتعشت أوراقها وسقط فوقي ظل حجب عني ضوء الشمس فرفعت رأسي لارى أمامي ثعبـانا عملاقا طوله ثلاثون ذراعا رأسه في حجم ثور ضخم ولحيته طولها ذراعان . وعيناه بلون الفيروز ولون جسمه فضي به نقوش ذهبية ورسوم زرقاء كالوشم السحري .

فنطق بفحيحه المخيف وقال : من أنت ايهـــا القـــزم الحقير ؟ وكيف وصلت الى هنا .. ومن آتى بك الى جزيرتي المسحورة ؟

عقد الخوف لساني ولم أسمع سوى ضربات قلبي وق‍ـ سكن كل شيء في الوجود حولي حتى أمواج البحـــر و‍ريح الجبل . ففتح الثعبان فمه وحملني بين فكيـــه وزحف بي الى كهفه فوق قمة جبـــل الجزيرة . وكانت المفـــاجأة أن الكهف أكبر من قاعة فرعون .

والقاني الثعبان في ركن الكهف ولم يمسسني بسوء .

فتحسست جسمي الذى كان بين أنيابه فوجدته سليما •
طوى الثعبان نفسه وتكور كالهرم المدرج ورفع رأسه وعيناه تشعان ببريق ساحر وأعاد سؤاله مرة أخرى •
أيها القزم الصغير •• من أنت ؟ وكيف وصلت الى مملكتي ؟
وأخبرته انني خرجت بسفينة فرعون برفقة مائة وعشرين ملاحا من أقوى وابرع ملاحى مصر للسفر الى مناجم الذهب والاحجار الكريمة فى أرض « تيم » •
وقصصت عليه قصة معركتنا مع اله البحر وكيف لقى جميع الرجال الاشداء حتفهم رغم علمهم بأسرار البحر ولغة النجوم ولكنهم لم يستجيبوا لاستخارة الاله آمون الذى حذرهم من القيام بالرحلة وبدئها فى ذلك اليوم • وقد أخفوا على تلك الاستخارة فواجه كل منا مصيره ونجانى الاله آمون لانهم أخفوا عنى رسالة استخارته وأمره المقدس ••
وبعد أن سمع الثعبان قصتى بأكملها وتأكد أنى لا أقول الا الحق وبحق الاله رع الذى تشرق طلعته كل يوم على الجزيرة ليدور دورته اليومية فى الافق الازلى فيرعى مخلوقاته ويدبر مصير كل كائن عليها •• و •• و ••
•• ومن بقايا الحوار الذى فقد جزء كبير منه يفهم ان الثعبان كان أحد الاله المقربين للاله الاعظم لنقل تعاليمه ورسالته إلى البشر ولكنه عصى الاله وخرج عن طاعته عندما ظن انه بما أعطى من قوة وأسرار قد أصبح أقوى من الاله نفسه فحوله الاله الى ثعبان قوى وعملاق كرمز للشر وتركه يتحكم فى مصير الكائنات فى مملكته وفى كل من آمن به من سكانها ممن عصوا الاله العظيم •

كذلك كشف عنه الحجاب ليعرف الغيب وكان ذلك أول انتقام للاله العظيم من الثعبان حيث استشف من الغيب انه فقد نعمة الخلود التي يتمتع بها الالهة وان نهـايته ومصيره ومصير مملكته قد رسمت صورتها في لوحة القدر وتحدد ميعادها ولن يفلت منها ٠

ويقول الثعبان : لانني أعلم الغيب وارى ما سيحدث لى وما يخبئه المستقبل لى كما سبق أن أخبرتك ٠ فقد عرفت انك ستصل الى أرض مملكتى فى ذلك اليوم وأعلم مصير من كانوا معك وانك لم تقل غير الصدق ٠

ثم أضاف الثعبان قائلا : أرى فى الغيب انك ستمكث بيننا أربعة أشهر تعود بعدها الى أهلك وأحبابك٠٠وها أنا أراك تضمهم الى صدرك وكتب لك أن يكون قبرك فى أرض بلدك الذى جئت منه وستعود اليه ٠٠ فان كنت قد سألتك من أنت وكيف جئت فما كان ذلك الا لكى أعرف منك هل ستكون صادقا معى أم لا ٠

ساقص عليك أسرار مملكتى التى يحيط بهـا المحيـط الازرق العظيم من كل جانب وهو مسئول عن حمايتها حتى لا يطرق أبوابها أحد ٠ ستعيش بين أخوتى وأبنائى وعددهم خمسة وسبعون ثعبانا واتباعهم وخدامهم وفتـاة واحدة جميلة ٠ ستجد فى جزيرتى كل ما يشتهيه قلبك وعيناك وبطنك ٠

ولا أطلب منك الا الطاعة والشجاعة والصبر ٠ ستأتى سفينة تائهة بعد أربعة اشهر لتحملك الى أرض مصر التى تبعد من مملكتى بمسافة زمنية قدرها شهران ٠٠و ٠٠ و

وتنتقل البردية الى نهاية الرحلة حيث يقول الثعبـان وهو يتطلع الى الافق البعيد انه يرى المركب اتية فى اتجاه

الجزيرة وعلى بعد ثلاثة أيام منها ·

ويصف بطل القصة كيف كان يصعد كل يوم الى قمة الشجرة العالية ينظر الى البحر فى انتظار المركب حتى اليوم الثالث فاذا باشرعة مركب من مراكب مصر تظهر فى الافق فيهبط من أعلى الشجرة ويهلل ويرقص فرحا ويركع أمام الثعبان العظيم عالم الغيب ·

وبالفعل وصلت السفينة والقت مراسيها فما أن شاهد بحارة السفينة الثعبان حتى ارتجفوا من الرعب · فأمرني الثعبان أن اطمئنهم وانهم سيبقون فى ضيافته وحمايته حتى تبحر السفينة مع شروق الشمس لتعود سالمة الى أرض الوطن ·

وعندما طلع الفجر وحان وقت الرحيل ظهر الثعبان وركعت أمامه كرمز للتعبير عن الشكر وقلت له انى سأخبر فرعون الذى سيفرح قلبه لرؤياى ولعودتى سالما لانني قريب من قلب فرعون وعرشه · وسأخبره انك أعظم من فرعون لانك اله تتحكم فى مصير الكائنات وتعلم الغيب · سأعود محملا بهدايا فرعون مصر سأجلب لك العطور المقدسة والبخور والجلود والنسيج والبردى والذهب والاحجار الكريمة وكل ما لا يوجد بجزيرتكم من خيرات أرض مصر المقدسة ·

وهنا فتح الثعبان الكبير فمه وضحك ضحكة لها صليل الاجراس وقال :

ـ أنا لست فى حاجة الى هداياك ـ أن كل شىء أقول له كن فيكون ـ ان كلمة منى تحول الاخشاب الى عطور مقدسة والصخور الى أحجار كريمة والرمال الى تبر الذهب ومحار البحر يحمل لى لآلئه وأسماكه تكسو الشواطىء بالعنبر ·

وأمر بتحميل سفينتنا بمختلف الهدايا والنفائس والمحاصيل والنباتات التي لا يوجد لها مثيل بأرض مصر .. قال : احملها مني هدية لفرعون ولا تنس أن تقدم لى القرابين فى معبد الهكم العظيم .

وتنتهى القصة بقول الثعبان وهو يودعهم : « لا تفكر فى العودة ثانية لانك اذا عدت فسوف لا تجدنى ولن يكون لجزيرتى أى وجود على الاطلاق وهذا هو الغيب الذى ملكت قوة الاطلاع عليه والمصير المحتوم المنقوش فى لوح القدر وكشفه لى من هو أعظم منى .

لقد سقط من بردية جزيرة الثعبان للاسف الجزء الخاص بحياة السندباد فى الجزيرة وقصة الفتاة الجميلة التى قدمها اليه الثعبان فى أول القصة وهى التى تلعب دورا هاما فى قصة السندباد البحرى العالمية وبعض قصص المغامرات المماثلة كقصة الجزيرة المسحورة فى روايات الف ليلة وليلة ورحلات ماركو بولو وغيرها من أدب القصة العالمى .

كان أول من كشف علاقة جزيرة الثعبان بقصة السندباد البحرى الاستاذ الكبير الدكتور سليم حسن عالم الاثار المصرى الاول الذى كان اول من ترجم قصة جزيرة الثعبان من الاصل الفرعونى الى اللغة الانجليزية والعربية وصحح كثيرا من التراجم القديمة التى لم تكن دقيقة التر[illegible] والتفصيل .

لقد أثارت قصة جزيرة الثعبان فى السنوات الاخيرة جدلا فى كثير من الاوساط العلمية المعنية بتاريخ « قارة الاطلنتس » بعد ما كشف الاستاذ بعض صفحاتها المفقودة التى وجدت ضمن برديات متحف لننجراد وأوضح العلاقة

بينها وبين أسطورة القارة المفقودة من حيث التشابه فى كثير من وقائعها وما ورد بها من أوصاف مع ما ورد فى برديات كهنة هيليوبوليس ومتون أهرام المايا والاوزتيك فى أمريكا وكتاب افلاطون « التيمابوس » ووثائق قدماء الفينيقيين حيث وصفت جميعها قارة الاطلنتس بأنه كان يطلق عليها اسم « جزيرة الثعبان » .

كما أن الفتاة الجميلة التى كان يحتفظ بها فى جزيرته وعادت الى مصر فى المركب ربما رمز بها الى ايزيس التى ذكرت برديات هيليوبوليس انها أتت الى أرض مصر مع ابنها حورس بعدما قتل « ست » اله الشر أخاه أوزوريس اله الخير ونادى بأنه أصبح الاله الاوحد الذى يتحكم فى مصير الكائنات فانزل الله لعنته على الجزيرة فاختفت فى قاع المحيط .

وتنتهى أسطورة الاطلنتس بقول الكاهن « مو » لحورس واتباعه وهم يغادرون الجزيرة للتوجه الى مصر « اذا عدتم فلن تجدوا الجزيرة » وهى نفس أقوال الثعبان لملاحى سفينة السندباد عند مغادرتهم الجزيرة فى رحلة العودة الى مصر .

ومرة أخرى نثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المثات من آداب العالم وفنونه ذات أصل فرعونى . وبالتحديد كتبها وأبدعها ذلك الرجل المصرى الجالس القرفصاء ومنذ سبعة الاف سنة .

ليلى الفرعونية تعترف لأبيها :
سنوحى ابن عمى عندنا !!

مجنون ليلى قيس بن الملوح الشاعر المجنون الذى راح يقول الشعر فى محبوبته فرددت البيد أشعاره وخلد الادب العالمى الحديث قصته نرى أن مصر الفرعونية القديمة قد عاصرت ورددت قصة تاريخية مماثلة بشخصياتها الواقعية التى سبقت قصة مجنون ليلى بألفى سنة . هى قصة سنوحى وتيكاهيت التى تفوقت على قصص الحب العالمية المماثلة بأسلوبها وتركيبها وأحداثها وما اجتمع لها من عناصر التكوين التى جمعت بين أدب قصص الحب والبطولة والمغامرات .

كانت قصة سنوحى وتيكاهيت من أحب القصص الى قلوب المصريين وقد وصل الينا الكثير من أجزائها ومن مختلف العصور الفرعونية ابتداء من الاسرة الثانية عشرة حيث دونت لأول مرة فى عهد الملك سنوسرت الاول حتى أواخر الاسرة العشرين .

وقد وجدت منسوخة فى برديات مختلف العصور وعلى ألواح الاستراكا كما كانت تدرس فى المدارس وتروى فى القصص الشعبى كما كانت تغنى كثير من مقاطعها الشعرية فى حفلات السمر .

كان سنوحى شخصية حقيقية فقد كان الوزير الاول فى عهد امنمحعت الاول أول ملوك الاسرة الثانية عشرة .

ويذكر المؤرخون ان الملك مات بسبب مؤامرة دبرت

ضده قامت على أعقابها دسيسة قام بها بعض رجال القصر للمناداة بأحد أبنائه من أم غير الملكة الشرعية لتولى العرش

وكان سنوسرت ولى العهد الشرعى الذى يشارك أباه فى الحكم مشغولا فى ميدان القتال الغربى فى محاربة اللوبيين ويقال ان كبير أمناء مصر وكان على ولاء لسنوسرت ويحقد فى نفس الوقت علىسنوحى الذى كان يحب الاميرة تيكاهيت ويكتب لها قصـــائد الحب التى كانت تتغنى بها منف وترددها مجتمعاتها ويغنيها المغنون فى حفلات السمر •

ولان الوزير كان يعلم بالمؤامرة أرسل للملك يطلب اليه العودة وكما وصفه سنوحى فى قصته « وعاد الصقر طائرا كالبرق، وأمكنه القضاء على المؤامرة قبل أن تنفذ » كما اتهم الوزير سنوحى بأنه كان له ضلع فى المؤامرة حتى يتخلص منه وهو ما يفسر سبب قراره عند وصول سنوسرت الاول وتوليه الحكم •

وفى قصته التى يرويها عن نفسه نراه يبتـدىء بذكر القابه ووظيفته فيقول انه الامير الوراثى ومدير ضـياع الملك والسمير الوحيد المجيب اليه وكان خادما وفيا للملك والابنة الملكية لامتمحعت المسماة نفرو فى بلدة الهرم (خنتم اسوقت) •

وفى السنة الثلاثين فى اليوم التاسع من الشهر الثالث للفيضان دخل الملك أفق الاله فطار الى السماء ليتحد مع قرص الشمس ويمتزج بجسم خالقه فخيم الصـمت على القصر وأغلق باباه العظيمان وجلس رجال القصر منكسى الرءوس على الركب • كان قلبى يتحـرق وخارت قـواى واستولت الرعدة على جميع أعضائى فقفزت باحثا عن مكان

اختبىء فيه بعيدا عن القصر لان هناك شجارا وصراعا يدور فى أرجائه .

ويصف فى قصته كيف كان يتسلق أشجار الايك حتى لا يراه حراس النهار ويتسلل كالثعلب الهارب من الصياد بين عيدان القمح حتى لا يلمحه حراس الليـــل . ويروى كيف اجتاز الحدود التى حصن « جدار الامير » الذى شيده ليصد غارات البدو . ويصف أداث رحلة الهروب بقـوله « وفى ليل غاب قمره وارتفع عواء ذئابه وخرجت الزواحف والحشرات من جحورها زحفت على صدرى بين الرمال وفوق الصخور .

وعندما تنفس الصبح كنت قد وصـلت الى أرض بتنى وفى جزيرة « كم أور » استلقيت على الشاطىء للاستجمام لقد خنقنى العطش والتهب حلقى حتى ذقت طعـم المـوت شربت الماء المر لاطفىء عطشى فزدته لهيبـا . وفى ظـلام الليل التالى سمعت خوار قطيع من الماشـية ورأيت خلف كثبان الشاطىء قبيلة من قبائل البدو تشـــعل نيرانهـا فذهبت اليهم فعرفنى شـــيخ من بينهم كان قد زار مصر وأكرمت وفادته فأعطانى ماء وطبخ لى لبنا ولحما جافا مما يحمله قبائل البدو فى رحيلهم وقدمنى الى أبنــاء قبيلته الذين أحسنوا معاملتى واعتبرونى واحدا منهم » .

ثم تخلف سنوحى عنهم ليسير فى طريق اخر غير طريق قوافل البـدو حتى لا يقع فى أيادى جنود فـرعون الذين خرجوا للبحث عنه ويحكى سنوحى كيف قضى أياما طويلة كالغزال الشارد فى قلب الصحراء الواسعة وكيف اشتغل فى قطع الاحجار فى مناجم الفيروز حتى وصــل الى أرض

« رتنو العليا » حيث قابل أميرها شيخ قبيله «عمو نتشى» بارض فلسطين •

ولما عرف انه قادم من مصر أخذ يمدح له فى ملكها العظيم ستوسرت بقوله « حقا أن مصر سعيدة بملكها العظيم سنوسرت الذى نشر العدالة والسلم والرخاء فى أنحاء بلاده الفسيحة ومن بينها فلسطين التى يدين أهلها له بالحب والولاء » •

ولما كان قد سمع عن سنوحى كأحد رجال قصر الملك الامناء ومن بين قواده الاشداء فقد أكرم وفادته واستبقاه عنده وفى ذلك يقول سنوحى : وجعلنى الامير على رأس أبنائه وقال لى أمل أن تكون هنا سعيدا بيننا • ستسكن معنا ونعاملك بحب وشفقة •

وزوجنى احدى بناته وجعلنى أختار لنفسى أحسن مافى حيازته من الاراضى التى تمتد من حدود بلاده الى أرض ما بين النهرين فاخترت أجملها وتسمى أرض « ياه » كان فيها التين والكروم ونبيذها أكثر من مائها شهدها غزير وزيتونها كثير وحقول الشعير والقمح بسنابله الذهبية وأشجارها محملة بكل أنواع الفاكهة وماشية يخطئها من كل نوع •

كان نصيبى عظيما وأعظم منه ما نلته من حب الناس • وقد نصبنى أمير رتنو حاكما على أحسن قبيلة من قبائل بلاده فوضعوا لى الخبز لاكلى اليومى والخمر لشرابى واللحم المطبوخ والدجاج المشوى خلاف ما فى الصيد من خيرات وضعوا الالبان بكل الاشكال والحلوى وقضيت عدة سنين وأنا سيد قومى والجميع يدينون لى بالحب والوفاء •

ورغم اسرافه في وصـــفه لذلك النعيم ورغد العيش الذى كان يعيش فانه لم يخف حنانه ولوعتـه لمصر واله وأحبابه وحبه ووفائه لحبيبته تيكاهيت التى كان يرددها في أشعاره وقصائده تلك القصائد التى كان يغنيها ويعزفها على قيثارته ونايه • كان شباب القبائل الرحل بالصحراء يحفظونها ويرددونها وتغنوا بها فى مجـــالس سمرهم وأفراحهم وقد وصـــفتها احدى البرديات « كانت أرجاء الصحراء الشاسعة تردد أغانيه وأشعاره وأنغامه الشجية حتى وصل صداها الى شواطىء النيل وانتشرت فى أنحاء الوادى بأكمله فكان المصريون يتغنـــون بها فى مجالس سمرهم وأفراحهم الشعبية يتغنى بها المغنـــون ويرددها العشاق لسنوات طويلة زادت عن خمسة قرون •

ويذكر بعض المؤرخين أن تلك القصائد والاغانى والملاحم التى رددتها البلاد بأكملها حتى دخلت الى مجالس القصر كانت من الاسباب الرئيسية للقرار الذى أصـــدره الملك سنوسرت بالعفو عن سنوحى والسماح له بالعودة الى مصر وما ناله من تكريم وتقدير من العائلة الملكية بأكملها •

كما أصـــبحت قصـــته التى كتبها بنفسه من الملاحم الشعبية التى كان يرددها المنشدون والمداحون لاجيال طويلة كملاحم أبو زيد الهلالى وغيرها من الملاحم الشعبية المعروفة

أما وقائع البطولة فى قصة سنوحى كما وصفها بنفسه فهى عديدة من بينها على سبيل المثال واقعة مبـــارزته مع بطل قوى من فلسطين جاء يتحدى قوته ليبارزه ويحطـم سطوته وهنا يقول سنوحى :

« جاء رجل قوى من فلسطين ليبارزنى فى معسكرى • كان بطلا منقطع النظير ، أخضع جميع قبائل فلســـطين

واقســم أن يحــاربني وتآمر مع رجال قبيلته أن يأخذ ماشيتي وأملاكي غنيمــة وادعى أن رجالي فتحوا بابه واخترقوا سياجه ودبروا سرقته وسألني الامير فقلت له أن ذلك حقد عليك لانه رأى انني رددت من ســلطتك واني كثور الماشية في قطيع غريب ـ ان الثور يحب النزال ولن يعلن تقهقره خوفا من ثور ربما كان أقوى منه أو يضارعه في القوة فاذا كان قلبه مصمما على الحرب فدعه ينطلق بارادته ، وهل الاله يعلم بما قدر له ؟ أو هل يعرف هو كيف يكون المصير » •

ويتابع القصة بقوله « في الليل شددت قوسي وفوقت سهامي وشحذت خنجري • وعند الفجر كانت فلســطين بأكملها قد جاءت وقد أثار قبائلها فتهيأت للنزال • وهنا برز كالثور الهائج •

كان كل قلب يحترق من أجلي وكل قلب مكلوم بسببي هجم على فجأة قبل اشارة المبارزة فتفاديت سلاحه بحركة خاطفة فسقط درعه وفأسه وحزمة حرابه ومر ســهمه بي طائشا فتركته ولم أقض عليه بضربة قاضــية وهو تحت رحمة سلاحي وقبضتي الحديدية •• وتركتــه وأعطيتــه الفرصة ليقترب مني ويهاجمني مرة ثانية فدفعت سهمي اليه فلصق بعنقه فصاح وهو يخور كالثور القتيـــل وقد انبطح على أنفه فسحبت منه سيفه وأجهزت عليه به وصحت صيحة النصر وأنا أضع قدمي على رقبته فكانا قربانا لمصر أرضي الاله •

ان ما دبره نكاية بي جملته يحيق به ولقد فصــل الاله رحمة بفرد غضب عليه وجعله يفر الى أرض أخرى ويحرم من وطنه بغير ذنب فعفا الاله عنه وأعاد الفرحة الى قلبــه

ونصره على من عاداه ويعود ويقول « أيها الاله العظيم يا من أمرتني بالهروب وحميتني بالغربة كن رحيما وأعدني ثانية الى مقر الملك لأرى المكان الذى يسكن فيه قلبى وأن تدفن جثتي في الارض التي ولدت فيها وخرجت منها وبقرب من أحببت » .

وأرسل سنوحي الى سنوسرت وزوجته يستعطفهما ويستأذنهما في المجيء الى مصر ، ويؤكد لسنوسرت أنه يحفظ له والعائلة كل ولاء واخلاص وانه هرب خوفا على حياته ممن تآمروا على قتله .

ويكمل سنوحي قصته فيقول انه تلقى مرسوما ملكيا بالعفو عنه والعودة الى مصر ونشر بيانه كاملا بما فيه من توقيعات وأختام ولم يمكث في « ياء » الا يوما واحدا عاد بعده فورا الى مصر وعندما وصل الى حدود مصر صحبه رجال القصر الى العاصمة وجاءوا في الصباح المبكر لدعوته لزيارة الملك وكان أبناء الملك في استقباله عند بوابة القصر وكان اللقاء مع فرعون والملكة وديا ووصفه بأنه « كان احتفالا أنساه ما سرقته السنون من عمرى » ..

وعينه الملك أمينا على القصر وبين رجال حاشيته .

ويشير في نهاية القصة انه أقيم له قبر من الحجر وسط المقابر الملكية بجوار قبر الاميرة أشرف عليه كبير مهندس العمارة بأمر الملك .

وهو ما يربط قصة سنوحي وتيكاهيت بقيس وليلى حيث اشتركت القصتان في نهاية واحدة مماثلة حيث عاد كل منهما ليجد حبيبته قد سبقته الى العالم الاخر .

أما قصائد سنوحي لتيكاهيت التي يعتبرها مؤرخو الادب الفرعوني من أروع ما كتب في أدب الحب وأغانيه وقد

جمعت بين الشعر المنظوم والمنثور فقد وصل الينا مجموعة قيمة من بردياتها اهمها برديات شســـتر بيتى وهاريس وبريس الموزعة على متاحف اللوفر وتورين وبرلين والمتحف البريطانى وقد ترجمت الى عدة لغات أجنبية كما قام بعض الادباء بترجمتها بالشعر والنثر للاحتفاظ بجمال ايقاعها الغنائى • ومن أمثلة تلك الصـــور الشـــعرية التى كان صنوحي يناجي بها تيكاهيت قصيدة اسمها « صـــوت من بعيد » •

لانى بعيد عنك
في حلة بغير أبعاد
اصبحت كمثال فقد يديه
او رسام فقد بصره
او مغن فقد صوته
او قارب تحطم شراعه
او طائر انكسر جناحه
او حقل جف ماؤه
اصبحت كبستان جف ماء الجدول الذي يرويه
اصبحت كشجرة جفت غصونها فتساقطت اوراقها
اصبحت كقيثارة بغير اوتار
وقوس بغير سهام
اصبحت كسماء بغير نجوم
ومعبد بغير اله أو تراتيل
لاني بعيد عنك في رحلة رسمها القدر في صحراء المجهول
يزادي الامل •• الذى أحيا به الامل فى انتظار اللقاء
ومن أجمل الصور الشعرية (قصيدة حبيبتي مقبلة)
ما انا اراها اتية •• أري حبيبتي مقبلة

تتهادى كنسمة الربيع
مرفوعة الرءوس يداعب الريح ضفائرها
وتزين الثمار الحمراء خدودها وجيدها
تكاد قدماها لا تلمسان الارض
وهى تخطو كراقصات المعبد
وتتماوج ذراعاها ويداها فى دلال
كامواج البحر فى ضوء القمر
واسمع صوتها يحمله الى النسيم من بعيد
كرنين قيثارة الحب فى سكون الليل
ها أنا أرى حبيبتى مقبلة !!
فيبتهج قلبى وأمد ذراعى لاضمها الى صدرى
ويهتز قلبى فرحا وهو ينتقل من صدرى الى صدرها
أحس باننى ضممت البستان باكمله
بزهوره وطيوره وفاكهته وغديره
عندما اضمها الى صدرى
احس باننى ضممت أرض بونت باكملها
بعطورها وبخورها وزهورها وزيوتها السحرية
وعندما اضمها الى صدرى
أشعر انى سكرت وأنا لم أشرب الخمر
أشعر انى أعيش فى عالم الاحلام وانا لم انم
ان حبها يملأ قلبى قوة
ويحيطنى بتمائم الحفظ
وهى تغنى لى تعاويذ الماء
لتحفظ حبنا من غير الايام
وفى بردية أخرى من برديات شستر بيتى قصيدة أخرى تنسب الى سنوحى وجدت فى مقبرة أحد المغنين فى طيبة .
اذكرى حبنا وانت تجلسين تحت شجرة الجميز

لقد تعاهدنا فى ظلها عند أول لقاء
أن يدوم حبنا الى الابد
مهما حاولت عواصف الحسد ان تعبث بغصـــونها او تقتلعها
لقد زرعناها معا ونحن اطفال
ان حبنا ينمو مع نموها ويكبر معها
ويزداد قوة بازدياد قوتها
استمعي الى حفيف اوراقها فهي تهمس لك بالحان قلبي
انظري الى غصونها فهي تمدها لتصد عن حبنا عيـون الشر
انظري الى ثمارها فهي تحمل لون خديك وحلاوة شفتيك
اذكريني وانت ترقدين في احضان ظلها الكبير
الذى ظلل حبنا وكبر معه
ساعود عندما تتفتح زهور الحديقة وتغرد طيورها
ساعود من الارض البعيدة مع الطيور المهاجرة
التي تلقى بنفسها فى إحضـــان البحيرة لتنسى تعب الرحلة
ساعود وسيكون صدرك هو بحيرتي التى أنسى فيها تعب الرحلة
ومن قصـــائده الغنـــائية التى تعتبر نموذجا للادب المكشوف عند الفراعنة قصيدته المشهورة وعنوانها القديم « ليغنى القلب وتشدو الروح » •
حبيبتى •• اذا قبلتها وفمها مفتوح •• أحســست بطعم الرحيق المقدس وحلاوة عسل النحل
اذا نظرت فى عينيها الواسعتين المفتوحتين
رأيت فى سوادهما نور قلبها المضيء

وكشف عما يخفيه من سر لا يأتمن
أحدا غيرى ليبوح به اليه
ليتنى .. كنت جاريتها التى تغسل لها قدميها
فلا يلمسها غيرى ولا تريحهما الا على يدى
ليتنى .. كنت جاريتها التى تدلك جسمها
حتى لا يرى جسمها العارى أو يلمسه أحد غيرى
ليتنى .. كنت جاريتها التى تغسل ملابسها
فاسعد برائحة طيب جسمها العالق بها
ليتنى .. كنت جاريتها التى تقوم بزينة وجهها
حتى أتحسس باناملى كل جزء فيه وأقبله
ليتنى .. أكون العقد الذى يطوق عنقها
فلا يطوقه ويداعبه الا ذراعاى
ليتنى .. أكون الخواتم التى تزين أصابعها
فاحتفظ باصابعها بين أصابعى طول الوقت
ليتنى .. أكون الاساور التى تزين معصميها
حتى احتفظ بهما بين يدى طول الوقت
ليتنى .. اكون القلادة والتمائم التى تزين صدرها
لارقد على صدرها واستمع الى دقات قلبها طول الوقت
ليتنى .. اكون الخلخال الذى يزين قدميها
حتى لا يلمسها أو يقبض عليها أحد سواى
ليتنى .. أكون القرط الذى يزين اذنيها
لاهمس فى اذنها ما يسعد لسماعه قلبها
ليتنى أكون البستانى الذى يقطف الزهور التى تزين حجرتها
لاحمل كل زهرة منها رسالة حب وقبلة تنقلها الى فمها كلما لامستها

ليتني أكون زهرة اللوتس التي تزين ضفائر شعرها
حتى لا تلمسه أو تعبث به الا أناملي
ليتني أكون عقد الورود والياسمين الذى يزين
صدرها ويداعب خدها ويلمس شفتيها
ويحمى نهديها .. ويبتسم للقائها كلما ...
نظرت اليها وتتجدد كل يوم لتأكيد تجديد حبه الذى
تتفتح مع كل صباح

حكايـة الشاطـر حسـن وسـت الحسـن !!

تمضى السنوات ·· ونكبر وتظل سـنوات الطفـولة ببراءتها وصدقها وأحلامها أروع ما نحمله معنا !

وتظل حكاية الشاطر حسن حلم كل « ولد » ·· وتظل حكاية ست الحسن حلم كل « بنت » · ونعيش بخيالنـا مع حصان الشاطر حسن الذى يمتطيه حسن وأمامه ست الحسن ··

ولا أحد يدرى ان هذه الحواديت أيضا سـبق وأبدعها وببراعة كاتب مصرى منذ ٧ آلاف سنة ··

من قصص الدولة الحديثة المحببة الى قلـوب المصريين والتى تتشـابه الى حد بعيد مع قصص ألف ليلة وليلـة ومغامرات الشاطر حسن المعروفة قصة « الاميرة الجميلة » وكانت أكثر القصص تداولا وانتشارا لعدة أجيـال ·

وتبدأ القصة بتاجر وزوجته تقدمت بهما السن ـ رزقهما الاله كل شيء الا ابنا يرثهما ويصـلى على « قبرهما » وهو ما يعتبرانه أرفع نعم الرضا ·

وتستجيب المعبودة ايزيس لدعواتهما فيرزقان بطفـل جميل يطلقان عليه اسم « هبة السماء » بعـد ان كانا قد فقدا الامل فى الانجاب تماما ·

ويحملان الطفل الى المعبد ليباركه الكاهن الاكبر ويقدما الشكر للاله · عند خروجهما تقابلهما عرافة على باب المعبد فتقرأ طالع الطفل وتتنبأ بمصيره بقولها ! « ان نهـايته سيلقاها بكلب او ثعبان او تمساح » ·

وحتى يهرب من هذا المصير ارسله أبوه ليعيش في بيت عمه في يوم من الايام بينما كان « هبة السماء » يطل من غرفة البيت المطلة على الصحراء شاهد صيادا يسير يتبعه كلبه الامين والصديق الوفي للصياد . فلما سأله عن ذلك المخلوق .

قال الصياد انه الصديق الوفى والرفيق المخلص الذى يحميه ، وألح على والديه أن يحققا أمنية تسعد قلبه باقتناء كلب يكون صديقا يؤنسه ويحميه .. فأحضرا له جروا صغيرا قام بتربيته .

مرت الايام ويكبر الابن ويصبح شابا قويا وجميلا وكبر معه كلبه الذى أصبح صديقه المخلص الذى لا يفارق ظله ويسهر على حمايته بخلاف ما تنبأت به العرافة . وطلب من أبويه أن يخرج من سجنه ويقوم برحلة يواجه بها الحياة ويمتع قلبه بمباهجها وعطاءاتها وهو يقول :

« سأفعل ما يرضى قلبى .. ويفعل الاله ما يرضى قلبه وخير لى أن أعيش وأموت مرة واحدة .. وهو القدر والمصير !! من أن أموت عدة مرات فى انتظاره بغير أن أعيش لامتع قلبى .. وأحيا حياتى » .

وهكذا يخرج بطل القصة « هبة السماء » فى رحلة بعيدة الى « نهارينا » ليس له رفيق سوى كلبه الامين وأحلامه الواسعة . ويحكم نهارينا أمير قاسى القلب له ابنة وحيدة ـ اية فى الحسن والجمال وكما هو الحال فى قصص ألف ليلة وليلة وحكايات « الشاطر حسن وست الحسن » فالأمير يحجب ابنته فى قلعة أو برج حصين ـ تصفه القصة بأن له سبعين نافذة يرتفع كل منها عن الارض

سبعين ذراعا ، ويحيط بالبرج بركة عميقة ملأى بالحيات والتماسيح ·

ويشترط أمير نهارينا على من يريد أن يتقدم لطلب يد ابنته أن يكون من العائلة المالكة ، وأن يتسلق حوائط البرج ليصل الى نافذة « ست الحسن » بعد أن يصارع التماسيح والحيات قبل أن يصل الى أسفل حائط البرج نفسه ·

وتتتابع تفاصيل القصة ومغامراتها المثيرة بأن يتعرف بطل القصة على وصيفة الاميرة وكاتمة أسرارها ويرشيها ويغريها بأنه سيأخذها الى حبيبها الفارس الذى حرمت من لقائه بعدما أودعه الامير فى سجن بعيد فى الصحراء ·

وتدله الوصيفة على سرداب سرى يصل الى القلعة فى مأمن من بركة التماسيح والحيات · ويخبر الوصيفة أثناء الحديث انه من أبناء ملك مصر وأنه هرب من مصر ومن القصر خوفا من زوجة أبيه التى كانت تدبر مؤامرة لقتله والتخلص منه ليرث ابنها العرش ·

ينجح بطل القصة فى الوصول الى نافذة الاميرة (وقد سقط من البردية الطريقة التى توصل بها لتسلق حائط البرج والوصول الى نافذة الاميرة على ارتفاع ٧٠ ذراعا) ·

وما تكاد الاميرة الجميلة « ست الحسن » تشاهد فارس أحلامها حتى تقع فى حبه ·· كما يقع هو فى حبها من أول نظرة ـ عندما سحره جمالها الاسطورى · ولكن الامير عندما يعلم بقصة غرامها يرفض أن يزوجها منه عندما بلغه عن حقيقته وقصته المختلقة بأنه من أبناء فرعون مصر فيأمر بالقبض عليه والقائه فى بركة التماسيح ·

هنا تهدد الاميرة الجميلة بأنهم لو مسوا حبيبها بسوء

لستلقى بنفسها من نافذة البرج لتلحق به •• فيتراجع الاب تحت ضـــغط أم الاميرة أيضا ويوافقا على طلبهـــا وتتزوج البطل التي تطلق عليه القصـــة الفرعونية اسم « الامير الشاب الجميل » •

ويقص الامير الشاب على حبيبته نبوءة المصير ونهـايته المكتوبة على يد كلب أو افعى أو تمساح • وهنـا ترتعب الاميرة وتطلب منه أن يقتل كلبـــه • ولكنـه يرفض أن يضحى بصديقه الوحيد الذى رافقه فى رحلته الشـــاقة القاسية حتى وصل اليها سالما وتحققت أحلامهما معا « هو وهى » •

قص عليها كيف كان كلبه الامين لا ينام الليل ليحرسه فى نومه ليمنع عنه غدر البدو ولصوص الصـــحراء • كان يمنع اى كائن يحاول الاقتراب منه سواء من الحيوانات أو الزواحف أو الحشرات •• كان يصيد له الطيور والارانب التى يتغذى عليها ويدله على آبار الماء ليروى ظمـــاه ـ قال أن الكلب أصبح الان خادمها الامين « يحبهـــا لانها أحبت سيده » وهذا وفاء لن تجده فى قلوب البشر •

وهنا يرق قلبها عندما تجد الكلب يرقد تحت قدميهـــا ولا يدرى ما يدور حول مصيره • فتعتذر له عما بدر منها وتقول له •

ـ أن حبها له وخوفها عليـــه من أن يكون الكلب وهو اخلص صديق أمين سيكون الأداة فى يد المصير ، كما كان ابوها وهو أحب الناس اليها سيكون السبب فى نهايتهـــا •• وأداة فى يد المصير •

وتنتقل القصة فجأة الى ساحر عملاق يعيش فى كهف بالقرب من طريق القصر يشاهدان عنده تمســـاحا كبيرا

مقيدا بالحبال ويقول لهما لا تخافا لقد قيدته بحبال سحرية حتى لا يؤذيكما أو يعترض طريقكما .

وتنتقل القصة مرة أخرى لفقد بعض اجزائها - الى الامير الشاب .

وتأتي الاميرة وتقبل جبهته وهي تخشى أن توقظه وتعود وهي تحمل اناء مملوءا باللبن وتضعه بجواره ليجذب اللبن ثعبانا ضخما يخرج من بين الاعشاب ليشرب اللبن الموجود بالاناء حتى يمتلىء وينتفخ ولا يقوى على الحركة فينقلب على ظهره فتظهر الاميرة من خلف الشجرة - وكانت تسهر على حراسة حبيبها - وتستل خنجرا من حزامها وتشق به بطن الثعبان - ويستيقظ الامير وهو يقول لها - أنت هدية اله الخير لى .. فترد عليه « وقد أرسلني فى الوقت المناسب لارد مخالب اله الشر الثلاثة عنك » .

وتنتقل القصة مرة اخرى بعد فقد جزء كبير من بردياتها .. حيث يخرج الامير الشاب فى رحلة للصيد ومعه كلبه الامين .. ليخوض احدى برك الصيد كما تعود أن يتبع كلبه الامين الذى يدله على المسالك الامنة واماكن الطيور فاذا به يفاجأ بتمساح ضخم يخرج من وسط عيدان البردى ليقبض عليه بين فكيه ويأخذه الى كهف الساحر العملاق ويقول له « أنا مصيرك الذى كان يتبعك » وقد رأيتني مقيدا لان اجلك لم يكن قد حان .. ويهرب الكلب

ويجرى مسرعا الى الاميرة .. فتبكي عندما تراه يعـــود وحيدا .

وهكذا تنتهى القصة التي فقدت بقيتها أو خاتمتها التي قد تكون موجودة ضـــمن مخلفات البرديات ومقتنيـــات المتاحف العالمية الى أن يحين الوقت لترى النـــور وتلقى ضوءا جديدا على استكمال قصة من أدب المغامرات في الادب المصرى القديم ..

سندريلا .. الحلم المستحيل !!

تعتبر قصة رادوبى الجميلة أو سندريللا المصرية نموذجا لادب القصة فى الدولة الحديثة وهى ضمن برديات شستر بيتى بالمتحف البريطانى وترجمت أكثر من مرة لعدة لغات كما وجدت لها أكثر من نسخة يرجع بعضها الى العصر المتاخر اختلفت فى بعض تفاصيلها ولكنها اشتركت في المضمون العام .

تدور وقائع القصة في مدينة منف حيث كان يعيش تاجر ثرى « سنوفر » فى قصره الفخم المطل على شاطىء النيل مع زوجته « تننت » وابنته الطفلة « رادوبى » ذات الجمال الملائكى الذى ورثته عن أمها وكانت اجنحة السعادة ترفرف على العائلة الصغيرة . وكان التاجر لا يبخل بشىء لاسعاد زوجته المحبوبة وابنته ذات « الوجه الملائكى » .

تبدأ أحداث القصة عندما تصاب الام بمرض خطير وتحس بدنو اجلها فتنادى ابنتها رادوبى وتجلسها بجوارها على الفراش وهى تقول ابنتى الصغيرة لقد دعتنى الاله لاعد نفسى للرحيل الى العالم الاخر حيث سأكون فى انتظاركم لنلتقى بعد حين ولن تمهلنى الايام حتى ارى ملاكى الصغير أجمل عرائس منف وأنت تزفين الى قصر فارس أحلامك ولن تتخلى عنك الالهة حتى تتحقق امنيتى ولما كان أباك لا يزال فى عنفوان قوته وشبابه فقد أنبأنى احساسى الذى لا يخيب .

ان أباك سوف يتزوج من امرأة أخرى تحل محلى فى البيت .. ليكون له وريث .. سوف يكون لك اخوات من

امرأة أبيك وسيكون جمالك مصـــدر غيرتهن وحسدهن وحدهن عليك · سوف تتعرضين للحقد والاضطهاد وليس عليك الا الصبر والايمان بالاله وهو وحده الذى سيحميك

وتنهدت الام وتناولت من تحت وسادتها صـــندوقا من خشب السندل المطعم بالذهب والاحجار الكـريمة وقالت لابنتها احتفظى بهذا الصندوق فى مكان أمين فهو صندوق مجوهرات أمك التى ورثتها عن عائلتها واجدادها ومن بينها قلادة حتحور الجميلة التى لا تقدر بثمن لتحفظ لها جمالها وتحميها من العين والغدر وطلبت منها أن تحتفظ بهـا ولا تعير أى شيء منها لاحد ولا تضع التميمة على صـــدرها الا يوم تزف الى عريسها فى معبد حتحور الهة الجمال ·

ثم قدمت لها صندوقا ثانيا أخرجته من تحت وسادتها وهو مصنوع من الخشب الابنوس المطعم بالفضة ثم قالت لها وهذا الصندوق يا ابنتى به حذاء نفيس لا يوجـد له مثيل فى البلاد وهو مصنوع من جلد الغزال الذهبى اللون ومطرز بخيوط الذهب والاحجار الكريمة ـ ليست قيمته فى جماله فحسب بل ان له ميزة أخرى وهى انه لن يتسع لقدم فتاة سواك كما انه سيكون مصدر حظ عظيم لك فى مستقبلك حافظى عليه وضـعيه فى مكان أمين لا تراه عين ولا تمتد اليه يد سوف ترتدين الحذاء عندما يحين الاوان الذى تحدده لك الالهة ·

تنهدت الام بعد أن طبعت قبلة عميقة على جبين طفلتها ذات الوجه الملائكى · وصدقت النبوءة وصح ما قالته الام فقد تزوج الاب من امرأة أخرى وأنجب منها ابنتين كانتا أقل من رادوبى جمالا وخلقا ·

تمر الايام وينشـــغل الاب عن زوجته وبنـاته وتكثر

مكائد زوجة الاب ومحاولاتها المستمرة للوقيعة بين الاب وابنته اليتيمة رادوبى تغيرت حالة الاب وترك ابنته فريسة لزوجته التى بدأت تعاملها كخادمة فى البيت ووصيفة لابنتيها ٠

واصبح كسائها هو ملابس اختيها القديمة ولا تتناول طعامها الا فى المطبخ ٠ وكانوا يرددون لضيوفهن وزوارهن أنها مجرد خادمة البيت وليست اختهن ٠

وتمر الايام وتكتشف زوجة الاب وهى تفتش خزانة ملابس رادوبى صندوق مجوهرات أمها فأخذته واخفته عندها ثم ذهبت به الى كبير الصاغة واستبدلته بمصاغ آخر لابنتيها حتى لا يقال ان المصاغ الذى تتزينان به هو نفس المصاغ المسروق ٠

ولما اكتشفت رادوبى ضياع صندوق المصاغ خشيت على الصندوق الآخر وكانت تخفيه فى مكان آخر من نفس الغرفة فأخذته فى الليل عندما نام الجميع وذهبت به الى شجرة الورد التى تطل على بركة السباحة ٠ وهى الشجرة التى زرعتها لها أمها وهى طفلة لتنمو معها وتلعب فى ظلها ـ وحفرت حفرة فى ظل الشجرة أخفت فيها الصندوق كما قالت لها أمها ـ فى مكان لا تراه عين ولا تصل اليه يد ٠

تمر الايام والسنين وحياة المسكينة رادوبى تسير من سىء الى أسوأ بينما سار جمالها وأنوثتها فى نضوج مستمر تحسده عليها اخواتها ويحس كل من يراها انها سيدة البيت وهن وصيفات لها ٠

وتنتقل القصة عندما تستعد البلاد لاعياد الربيع ويعلن الامير ابن فرعون انه سيختار عروسا ينتقيها من بين فتيات

منف الجميلات وحدد أحد أيام العيد ليقيم حفلا فى حدائق قصره وفى اليوم المحدد استعدت الفتيات من جميع أنحاء المدينة • كما أرسلت كثير من كبريات العائلات فى أنحاء البلاد بناتها لتجربة حظهن خاصة وان الدعوة كانت مفتوحة لجميع الجميلات •

كان يوما مشهودا لم تر البلاد له مثيل من قبل وفى ذلك اليوم تهيأت أختا رادوبى وتفننت الام فى زينتهن والبستهن الثياب واجمل المصاغ ولم تفكر رادوبى المسكينة فى طلب مصاحبتهن حتى كوصيفة حيث انها لم تكن تملك ما يمكنها أن ترتديه خارج المنزل أو حتى فى داخله اذا قام أحد بزيارتهم •

لم تكتف الام وبناتها بترك رادوبى وحيدة فى القصر لا يؤنسها غير دموعها بل أغلقن عليها أبواب القصر ومنافذه حتى لا يتركن لها مجالا للخروج أو الهروب • وعندما وجدت المسكينة نفسها وحيدة فى القصر أحست برغبة فى الخروج الى الحديقة للتمتع بشمس الربيع ونسمته وزهور شجرة الورد الحبيبة • وما أن وصلت الى شجرة الورد حتى أسرعت فى لهفة وأخرجت الصندوق لتتأمل الحذاء الجميل بداخله الذى أخفته وهى طفلة ثم اجتاحتها رغبة عارمة فى تجربته وارتدائه بعد أن أصبحت شابة كاملة الانوثة •

نظرت الى قدميها فهالها قذارتهما من طول الاهمال وحرمانها من الاستحمام فى البركة التى بنيت خصيصا لها عندما كانت وحيدة أبويها المدللة فخافت على الحذاء الجميل من الاتساخ فوضعته على حافة البركة وخلعت ملابسها ونزلت لتستحم فى غيابهم وهى مطمئنة انهم لن يعودوا

قبل منتصف الليل عندما ينتهى الحفل ، واذا بها تفاجأ وهى فى نشوتها وقد فقدت كل احساس بما حولها بأن طيور الحديقة قد توقفت عن التغريد وهربت لتختفى بين الاغصان فقد شاهدت نسرا ضخما يرفرف بجناحيه محلقا فوق الحديقة باحثا عن فريسة ينقض عليهـا ويتخـذها طعاما له ·

وفجأة يلمح النسر الحذاء الذهبى المرصع باللآلىء فظنه فريسة طيبة فانقض فى لمح البصر ليخطف أحـد فـردتى الحذاء الجميل ويحملها بين مخالبه ويحلق بعيدا فى الفضاء حتى يمر فوق مكان المهرجان فتفزعه دقات الطبول والدفوف وصوت الموسيقى فيسقط الحذاء من بين مخـالبه ليستقر بين يدى الامير الشاب وهو جالس فوق المنصة فاتسعت عيناه من المفاجأة المذهلة واذا بالامير يقلب الحذاء بين يديه ويتأمل رقة منظره وجماله والوانه وصياغة الاحجار الكريمة التى ترصعه وأخذ يتخيل الصورة الرائعة لصاحبة الحذاء وايقن أن الاقدار قد حسمت له الامر وأراحته من الاختيار ·

وردد الامير قوله « ان صاحبة هذا الحذاء الرائع الذى ارسلته لى السماء لابد أن صاحبته رائعة الجمـال وفوق مستوى البشر » ثم غادر المنصة وطلب من الجميـع أن يعودوا الى بيوتهم · والتفت الى حرسه وقال لهم لابد من العثور على صاحبة هذا الحذاء اينما كانت لابد أن تحضروا الى أى فتاة تتسع قدمها لذلك الحذاء وتدلنا على الفـردة الاخرى ·

تمر الايام والامير يخرج كل ليلة ومعه فردة الحـذاء لزيارة القصور والبيوت التى يدله اعوانه على من بها ممن تحمل نفس المواصفات التى يحددها الى أن أرسلت زوجة

ستوفر احد أعوانها لدعوة الامير لتعرض عليه ابنتيها .

يصل الامير الى القصر فتستقبله الام وابنتاها في أجمل زينة وأحسن الازياء وتحاول كل من البنتين أن تقيس الحذاء فلا تفلحان ويلمح الامير رادوبي الجميلة وهي تقف خلف نافذة الحديقة تسترق النظر الى ما يدور في القاعة بملابسها المهلهلة وقد أخذ بجمالها الطبيعي فيسأل عنها ترد الام عليه بانها ابنة البستاني ولا يسمح لها بدخول القصر فخرج الى الحديقة وجذبها من يدها الى داخل المجلس وامرها أن تقيس الحذاء فاذا بالحذاء يلائم قدمها الجميل ولما اعترضت زوجة الاب على دخولها المجلس وتجربة الحذاء الجميل بقدميها القذرتين خرجت رادوبي الى الحديقة لتعود بالصندوق الابنوس وبه الفردة الاخرى وقصت عليهم قصة الحذاء الذي خطفه النسر كما انه البرهان الوحيد بأنها سيدة القصر الذي تعمل به خادمة لزوجة ابيها وهو ملك لامها .

وأمر الامير حراسه باحضار عربته الملكية واجلس فيها رادوبي الجميلة الى جواره كما هي بملابسها القديمة وحذائها السحري ليقدمها الى فرعون مصر والملكة الام ويشرح لهم قصتها الحقيقية فباركا زواجها وطلب الملك من كبير صياغ القصر أن يقدم لها أجمل وأثمن الجواهر والمصاغ الموجود في حيازته .

وأقيمت الافراح في اليوم التالي وظهرت رادوبي بوجهها الملائكي وجمالها الاخاذ وهي تقف بجانب الامير في أجمل زينة وأرقى زي تزين قدميها الجميلتين بحذائها الساحر .

وتحدث المفاجأة عندما يقدم لها الامير هدية الملك فاذا به صندوق مصاغها الذي تتوسطه تميمة حتحور المقدسة

ويطمع الامير التميمة فوق صدرها فاذا به يفاجأ وهى تبحث بين جواهر الصندوق عن تميمة أخرى تعتبر توأما مكملا لتميمتها لتضعها على صدره وتقول له أنها هدية أمها لشريك حياتها لتحمي الالهة حبهما وتحميهما من عيون الغدر ٠

ويبحث الامير عن صائغ القصر ليعلم منه مصدر صندوق المصاغ الذى فقد من رادوبى وهى طفلة ولما عرف الصندوق وسرقته بمعرفة زوجة الاب أمر بالقبض على الام وابنتيها ومصادرة القصر وأموالهم لردها لرادوبى صاحبة الحق فى كل شىء ولكن رادوبى تطلب من الامير الذى وعدها الا يرفض لها طلبا أن تصفح عن زوجة الاب واختيها « لان قلبها كما علمتها أمها لا يتسع للحقد والبغضاء » ٠

● سندريللا عصر الاهرامات :

صورة أخرى لحكاية سندريللا تسبق الصورة الاولى بعدة قرون نسبها المؤرخون الى الملك منكاورع ابن الملك خوفو وقد وردت القصة مع اختلاف فى بعض تفاصيلها فى كتاب هيرودوت عن تاريخ مصر وغيره من كتاب الاغريق القدماء في عصور متتالية ونقلها بروكسبانك الى الانجليزية فى كتابه « قصص الفراعنة عبر العصور » ٠

تبدأ حوادث القصة فى مدينة « نقراطيس » القريبة من مدينة سايس فى شمال الدلتا حيث كانت تعيش أجمل فتيات المدينة وتدعى « دوريس » فى قصرها المطل على النيل ـ وتخرج ذات صباح لتتمتع بالاستحمام فى بركة اللوتس التى تتوسط حديقة القصر تحت أشعة شمس الربيع الدافئة ٠ وبينما كانت تتهادى على صفحة الماء بين زهور اللوتس كالبجعة الحالمة وقد خلعت حذاءها المطرز بالذهب والمزين بالاحجار الكريمة وتركته على حافة

البحيرة كان هناك نسر عملاق يرفرف بجناحيه وهو يحلق في سماء الحديقة • فلفت نظره بريق حذائها الخاطف الذى تزينه الاحجار الكريمة بالوانها البراقة • فانقض بسرعة البرق على الحذاء وخطف فردة حملها بين مخالبه القوية وطار بها يسابق الريح فى اتجاه الجنوب حتى وصل الى مدينة منف • وأثناء رحلته سقط الحذاء الجميل بين يدى الملك وهو جالس فى فناء القصر يتصدر منصة القضاء •

ورفع الملك الشاب فردة الحذاء بين يديه فبهره منظره فاخذ يدقق فى جمال شكله وبديع تكوينه وسرح بخياله فى جمال ورقة قدمى صاحبته والجمال الكامل السحر الذى تحمله ساقى تلك القدمين وسرعان ما أمر بارسال رسله وخاصة حرسه للبحث عن صاحبة الحذاء واحضارها اليه ووعدهم بجوائز سخية لمن يأتى بها اليه •

وسار موكب الحاشية ليجوب البلاد طولا وعرضا فى اتجاه الشمال الذى حلق منه النسر فى طيرانه حيث توجد دلتا نهر النيل المقدس بفروعه السبعة ومدنها الجميلة التى تتوسد شواطئه •

وكلما دخلوا مدينة من مدن الدلتا اذاعوا الرسالة الملكية وأعلنوا عن الجائزة الكبيرة التى سينالها كل من يرشد عن صاحبة الحذاء بجانب الهدية المقدمة القيمة والتقدير السامى الذى ستناله صاحبة الحذاء الساحر الذى ستخطو به الى قلب الملك وتشاركه حياته لتصبح ملكة على مصر •

وفى كل مدينة كان يتوافد على الحاشية عدد كبير من النساء والفتيات الجميلات تدعى كل منهن انها صاحبة

الحذاء بعدما سمعت عن أوصافه وأتت بعض الفتيات تحمل كل منهن فرد حذاء مماثلة للاوصاف التي سمعت عنها مدعية كل منهن انها الفردة الاخرى من الحذاء التي تحتفظ بها •

كان ركب الحاشية يمكث فى كل مدينة يزورونها ثلاثة أيام ينتقل بعدها الى مدينة أخرى • وفى اخر المطاف يصل الركب الى مدينة نقراطيس فى أقصى الشمال من دلتا النيل حيث يعلن الرسالة الملكية وزادوا من قيمة الجائزة والعطايا حتى لا يلازمهم الفشل ويعودوا بخفى حنين بدلا من العودة بالحذاء السحرى وصاحبته • ومر يومان لم يتقدم أحد من فتيات المدينة وبدأ اليأس يدب فى نفوسهم لفشلهم في تحقيق رغبة فرعون الشاب وأمنيته •

وفى اليوم الثالث بينما كان وزير الملك وحاشيته يشدون الرحال استعدادا للرحيل ومغادرة المدينة اذا بعجوز شمطاء مهلهلة الثياب منحنية الظهر تتوكأ على عكاز تطلب مقابلة رسول الملك فيتصدى لها الحراس وهم يتضاحكون ويسخرون منها ويقول أحدهم ـ هل تريد سيدتى الجميلة أيضا قياس الحذاء ؟

فترد عليهم وهى تصرخ بأعلى صوتها نعم ساقوم بقياس الحذاء وسأنال الجائزة الكبيرة التى وضعها الملك لأن قدمى هى قدم السعد التى تبحثون عنها والتى سترشدكم الى مكان الحذاء وصاحبة الحذاء •

ويدور حوار بين المرأة العجوز والوزير تقول فى نهايته ما عليكم الا أن تسلمونى المكافاة لاقدمها قربانا للالهه وأنا أدلكم على صاحبة الحذاء وارشدكم عن مكانها •

فيأمر الوزير باعطائها القلادة الذهبية المرصعة بالجواهر

والتى أمر الملك باهدائها لمن ترشدهم الى صاحبة الحذاء فتضع القلادة حول عنقها وتقول له - ان هدية الالهة لفرعون الشاب اسمها دوريس - فيسألها عن مكانها فتقول له - هناك فى أقصى جنوب المدينة ستجدها فى قصرها الابيض المطل على النيل وسيدلك عليه النسر العملاق الذى حمل فردة الحذاء الى منف وستجده محلقا فى سماء الحديقة ٠

وعندما بلغا مكان القصر طرق الرسول بابه وقال للحارس انهما يريدان مقابلة سيدة القصر ويرد عليه الحارس بأن سيدة القصر لا تستقبل أى زائر بغير دعوة وميعاد ٠ فأخبره أن الزائر هو وزير فرعون وانه يحمل رسالة ملكية خاصة لسيدته فما أن سمع الحارس اسم فرعون مصر حتى خر ساجدا ثم هرول مسرعا لابلاغ الخبر وعاد بعد برهة ليفسح لهما الطريق الى قاعة الاستقبال بالقصر التى كانت تتصدرها دوريس الجميلة وهى فى كامل زينتها ٠

وبعدها تلى مضمون الرسالة ردت عليه بقولها :

لذا أرسلكم فرعون من منف الى نقراطيس لتوصيل تلك الرسالة لى بالذات ؟ فرد الوزير بأن الرسالة المذكورة هى مرسوم عام وليست رسالة خاصة أمر جلالة الملك باختيار مائة ألف من أجمل جميلات مصر يعرضه عليهن لانه يخص واحدة فقط من بينهن وقد انتهت مهمتنا بالامس باتمام العدد ولم تنجح فى مهمتنا بالوصول الى صاحبة النصيب لتسليمها الرسالة الاخرى الخاصة لها ٠

وعندما قررنا العودة فى الصباح أرقفتنا حتحور لتدلنا على اسم صاحبة الرسالة التى نحملها ومكان اقامتها ٠وهنا

قال الوزير أما الرسالة الثانية فها هى وأخرج الحذاء البراق الذى كان يخفيه تحت طيات وشاحه وهو يقول :
ان كل ما أرجوه من سيدتى الجميلة أن تجرب وضع قدمها الجميلة فى فردة الحذاء حتى تتأكد من أن رسالة فرعون خاصة بها ٠
وهنا تقدمت وصيفة درويس الجميلة بصندوق مزخرف من خشب الابنوس المطعم بالذهب والفضة وقدمته للوزير وهى تقول ـ وهذا هو ردى على رسالة فرعون العظيم ٠ ويفتح الوزير الصندوق فتعقد المفاجأة لسانه عندما يجد بالصندوق الفردة الاخرى لنفس الحذاء التى يبحثون عنها
وتختتم القصة بالنهاية السعيدة حيث تغادر دوريس الجميلة نقراطيس فى اليوم الثالث بعد أن سبقتها أخبارها الى منف ٠
وهكذا يتحقق قول العرافة العجوز « بأن الحذاء السحرى سيخطو بقدميها الى قلب فرعون وأعتاب العرش » ٠
المهم لقد كانت قصص سندريللا الفرعونية موضع تحليل وتعليق كثير من نقاد الادب ومؤرخي تاريخ مصر خاصة وأن هيرودت قد سجلها على انها من الوقائع التاريخية لتاريخ عصر الاهرامات ونسبها للملك منكاورع بالذات صاحب الهرم الثالث ٠ بل قد أضاف الى ذلك أن دوريس أو رادوبيس قد ساهمت بأموالها الخاصة فى بناء الهرم وتكملته بعد موته مما دعا بعض المؤرخين الى الاعتقاد بأن رادوبيس هى الملكة نيتو كريس أخته أو زوجته التى تولت العرش بعده وأكملت بناء هرمه لقد جانب هيرودوت الصواب بسرد تلك القصة ووقائعها التاريخية خاصة وأن

شخصياتها والاماكن التى دارت فيها أحداثها حقيقية رواقعية . فمدينة نقراطيس من المدن المصرية المعروفة والتى أزدهرت فى عهد الاسرة الثانية والعشرين وكانت من أهم المدن التجارية التى يتقابل فيها تجار بلاد البحر الابيض .

تلك المدينة لم تظهر الى حيز الوجود الا فى القرن السابع قبل الميلاد أى بعد عهدنا منقرع بألفى سنة .

واشتهرت نقراطيس بجانب شهرتها كمركز تجارى بانها كانت مركزا من مراكز اللهو واشتهرت بغانياتها الاغريقيات اللاتى وصفهن كثير من الكتاب والمؤرخين بانهن كن على درجة كبيرة من الجمال ومن أشهر غانيات نقراطيس كما وصفهن مؤرخو الاغريق « رادوبيس ودوريس وارخيديكى » . وقد ذكر فى تاريخ الاغريق فى مصر أن رادوبيس الجميلة أحضرها الى مصر كانثوس الساموري وأتى بها الى نقراطيس ليتكسب من ورائها فأعتقها أخو الشاعرة سافو وأصبحت بعدها من أكبر غانيات مصر وانها جمعت أموالا طائلة ووقع فى غرامها أحد أمراء البيت المالك . وقد حاول بعض الكتاب تصحيح قصة هيرودوت بأنها وقعت فعلا بين الملك بسماتيك الثانى والغانية رادوبيس وهو تحليل أقرب الى الصواب ..

ومهما كانت حقيقة القصة فمما لا شك فيه أن الكاتب المصرى القديم أمكنه أن يشغل المؤرخين والكتاب والادباء بواسع خياله الرائع لآلاف السنين ويقدم لهم مادة خصبة لينسجوا على منوالها خيوط أدبهم المعاصر على مر السنين .

المعقـول والـلا معقـول
فى حكاية الزوجة الخائنة !!

أشتهر ادب الدولة الحديثة فى أعقاب تحرير البلاد من عهد الهكسوس بظهور نوع جديد من الادب الذى يجمع بين الواقع والخيال أو المعقول واللا معقول مع اللجوء الى التعبير الرمزى الذى يشوبه الغموض •

كما ينتقل بالقصة الى طابع الاساطير وخاصـة ما كان يقصد به تسجيل قصص فضائح القصور والحكام بتغليفها بالاسلوب الخرافى والتعبير الرمزى وادماج عدة قصص أو أحداث متباعدة فى قصة واحدة أو ملحمة واحـدة كتبت معظمها باللغة المصرية الدارجة أو اللغة العامية التى انتشر استعمالها فى ذلك العهد •

وكثيرا ما كان يدمج مع وقائع القصة الاعمال الخـارقة للعادة التى تنسب للالهة أو أعمال السحر التى تصل الى دور المعجزات وهو ما كان محببا الى الشعب وفى كثير من تلك القصص أخفت خوارق الاعمال حقيقة القصة الاصلية التى أراد الكاتب تسجيلها وترك للقارىء اسـتنتاجها • كما تميزت تلك القصـص بما أطلـق عليه أدب الحـوار والمساجلة بين أبطال القصة أو بينهم وبين الشـخصيات الخيالية والرمزية •

من القصص الخرافية الذائعـة الصـيت فى أدب ذلك العصر قصـة الزوجة الخـائنة أو كما يصر البعض على تسميتها « كيد النساء » وهى تشبه قصصا كثيرة أخرى حكيت فى الادب العالمى الحديث وتعتبر فى نفس الوقت

نموذجا للشعر القصصى الهام التى تعلق بوقائعها الخيالية فى عالم الخرافات بجانب الاحداث الواقعية وقد نقلهـــا الكاتب المصرى « أنانا » تلميذ كاتب الخـــزانة الملكية ـ « كاجبو » .

وقد اختلف الكتاب والمؤرخون فى علاقتها بقصة سيدنا يوسف عليه السلام فذكر البعض أنها مجرد ظن وتوافق خواطر . ولكن اذا عرفنـــا أن انانا هو الذى كتب قصص « أبوفيس » « وسقننرع » وان « أبوفيس » كان معاصرا لسيدنا يوسف وزليخة زوجة بوتيفا لانتفى الشك فى أن قصة كيد النساء هى تسجيل لقصـــة سيدنا يوسف مع زليخة زوجة العزيز . بجانب الوقائع المختلفة التى تحويها القصة والتى تمتد جذور كل منها الى فضائح القصـــور والحكام فى ذلك العصر .

وتتلخص قصة « الزوجة الخائنة » فى أن أخوين مات أبوهما وترك لهما مزرعة صغيرة وبيتا يضمهما فقام الاخ الاكبر « أنوب » برعاية أخيه الصـــغير « باتا » وأشرف على تعليمه ونشأته بينما كان هو يقـــوم بأعمـــال المزرعة والبيت وحده الى أن كبر باتا واشتد ساعده فقام بمساعدة أخيه فىفلح الارض وزراعتها وتربية أنعامها . كما كان « أنوب » فى كل موسم من مواسم الحصاد يحمل خيرات المزرعة وثمارها لبيعها فى سوق القرية وشراء ما يحتـــاج اليه البيت والمزرعة وتلبية طلبات واحتياجات أخيه« باتا »

فى احدى رحلاته الى ســـوق القرية أعجبت به احدى جميلاتها فوقع فى غرامها . ويدور حوار بينهما تقنعه فى نهايته بحاجته اليها وحاجة البيت الى امرأة تقوم بخدمته ورعايتهما حتى ترفرف على البيت السعادة وتطرد الوحدة

ويعود أنوب ليخبر أخاه بما حدث وقد حملته بعض الهدايا لاخيه . ويأخذ انوب أخاه لزيارتها واستشارته فى الزواج منها واقامتها معهما فيوافق باتا ارضاء لسعادة أخيه الذى سيطر عليه حبها . ويعودون معا .. ويضم البيت ثلاثتهم .

وتصف البردية أن الاخ الاصغر عاش معهما فى البيت كابن لهما فكان يخيط لهما الثياب ويحلب الابقار ويرعي الماشية في الحقل ويعتنى بها فى الزريبة .

كانا يذهبان معا كل صباح الى الحقل بعد أن يصحب باتا الابقار ويحمل أخاه معدات الحقل . وفى يوم كان يزرعان في الحقل فاحتاجا الى بعض البذور فطلب أنوب من باتا أن يذهب الى البيت لاحضارها .

ولما بلغ الدار رأى زوجة أخيه منهمكة فى تمشيط شعرها وتعطير جسمها الذى تكسوه غلالة رقيقة تكشف عن مفاتنها فقال لها قومي وهاتى لى كمية من البذور لكى آخذها وأعود بها الى الحقل بدون ابطاء كما أمرنى أخى .

فقالت له المرأة : أدخل الغرفة وخذ من البذور كما تريد فدخل وملأ وعاءين من بذور القمح والذرة .

ثم سألته ما وزن الحمل الذى تحمله فوق كتفيك فقال: مكيالين من الذرة وثلاثة مكاييل من القمح . فنظرت المرأة الى الصبى بصدره العارى وعضلاته البارزة .

وقالت : ما أشد قوتك وما أحلاك يا فتي ومال قلبها اليه فراودته عن نفسه وهي تقول تعال لنقضى ساعة من الراحة والمرح .. وغلقت الابواب وقالت : هيت لك .

وهنا غلا الدم فى عروقه وهاج كنمر مفترس .. أما هى فقد وقفت مذعورة خائفة وهو يقول لها معاذ الله ان أخى

الكبير رب نعمتي وقد أحسن مثواى فلا أخونه في زوجته وقال لها يا امرأة كنت لى مثل أمى وأخى فى منـزلة أبى لانه أكبر منى • ما هذا الشر الذى تكلمت به ؟

فاضمرت المرأة في نفسها الكيد لهذا الفتى الذى عزمها وفوت عليها ما كانت تريد من اللذة والمتاع •

وعاد الزوج كعادته فى المساء لتقابله متمارضة متباكية متظاهرة بالالم تشكو من أذى ألم بها ولم تقدم له ماء لغسل يديه كعادتها ولم تشعل له السراج فكان البيت فى ظلمة وحين رآها زوجها على هذه الحال قال لها : من الذى إعتدى عليك ؟ انهضى وخبـريني •• فأجابت لم يؤذني أحـد الا أخوك الاصغر فلماه جاء ليأخذ البذور وجدنى وحدى هجم على وقال لي ارخي شعرك وهيا بنا تلهو ونمـرح وراودني عن نفسي فقاومته وقلت له « ألسـت انا مثل أمك • وأليس أخوك مثل أبيك ؟ » •

على أنه لم يصغ الى كلامى واسـتخدم العنف معى لكى لا أبوح لك بهذا السر •« وما جزاء من يفعل ذلك الا القتل أو عذاب اليم •• والان ان كنت لا تقضي عليه فانا ساقتل نفسى » •

وهنا اهتاج الاخ الاكبر واستشاط غضبا كنمر مفترس وشحذ خنجره وأخـذه فى يده ووقف وراء باب الحظـيرة ليقتل أخاه الاصغر عند عودته مع الابقار فى المساء •

وبعد أن غابت الشمس حمل الاخ الاصغر طيبات الحقل على كتفه وعاد مع الماشية كعادته • وفى طريق العـــودة بصحبة أبقاره المخلصة يحلق طائر من طيور الايبس « أبو منجل » فوق رأسه ويحط على ظهر البقرة بجـواره ويسر اليه بما انتواه أخوه وبما دبره له من شر (وطائر أبو منجل

يعتبر رمز للمعبود تحوت رســول المعرفة ويكنى به فى الادب الفرعونى للوحى الهاتف) ومما يلاحظ الى اليـوم وقوف طائر أبو منجل على ظهور الابقار فى الحقول والمراعى ليخلصها من الحشرات التى تعلق بجسمها وتضايقها ٠

وعندما اقترب باتا من الحظيرة ذكرته البقرة مرة ثانية بقول الطائر وقـالت له احـذر فان أخاك يقف خلف باب الزريبة وفى يده السكين ٠ فاطل الى أســفل الباب ولمح قدمى أخيه واقفا وهو يضمر له الشر ٠

فألقى بحمله على الارض وفر هاربا بين الحقول وأخوه يركض وراءه والخنجـر بيده ٠ ولكـن الاله « رع » خف لنجدة الغلام البرىء ووضع نهرا تسبح فيه التماسيح بينه وبين أخيه وقضى الاثنان الليل كله يقف أحدهما قبـالة الاخر فى حوار طويل برأ فيه باتا نفسه وجب عضو تناسله (وهو ما يعبر به عن يمين طهره وبراءته من الاتصال بها أو ارتكاب جريمة الزنا التى تغضب الالهه) ٠

وهكذا أقنع أخاه فى الصباح بأنه لم يرتكب جرما فى حق الالهة أو حق أخيه وأنه أخطأ اذا صدق زوجته ٠

وأبان باتـا عزمه على الرحيــل الى وادى الارز حيث سيقضى بقية حياته هناك بعيدا عن الناس وأنه سـيضع قلبه على زهرة فى أعلى احدى أشجاره ٠ وعين له علامة اذا حدثت كانت دليلا على وفاته ويطلب من أخيه حينئـذ أن يذهب الى وادى الارز ويبحث عن قلبـه ويضـعه فى الماء فتعود الى باتا الحياة ثانية وينتقم لنفسه ممن تسبب فى قتله ٠

وذكر له أن العلامة التى سيعلم بها أمر موته هى فوران الخمر فى اناء شربه وانسكابها على الارض ٠

ويفترق الاخوان ويعود أنوب الى داره وقد صمم على قتل زوجته التى تأكد من خيانتها وتسببها فى فقد أخيه الى الابد • وعندما لمحت زوجها وهو عائد والشرر يتطاير من عينيه وشاهدت الخنجر فى يده لم تلوثه دماء أخيه توقعت منه شر الانتقام فتسللت من الباب الخلفى للدار واختبأت بين أشجار الحديقة وأعشابها حتى خيم الظلام فانسابت بين المزارع كالحية الرقطاء حتى وصلت الى حافة الصحراء حيث كان ابن فرعون يضرب خيام الصيد رياضته المحببة فالتجأت الى خيمته وطلبت منه حمايتها بعدما أدعت انهـا ابنة أحد كبار التجار وانها هربت خلسة فى ظلام الليـل لان اهلها يريدون تزويجها من حاكم شرس فى سن أبيها •

فرق الامير لروايتها وأخذ بجمالها السـاحر ووقع فى شراك غرامها واصطحبها معه فى رحلة الصـيد التى عاد بعدها الى قصره ليقدمها لزوجته ويطلب منها أن تتخـذها وصيفة لها •

وبدأت الزوجة الخائنة تنسج خيـوط مؤامرة جديدة تتخلص بها من الاميرة لتحل محلها فى القصر بعدما حلت محلها فى قلب زوجها الامير فطلبت من ساقية الاميرة التى تعد لها الشراب فى السهرة أن تحضر لها الخمر والكاسات لتعدها بنفسها ولمحتها الوصيفة وهى تضع سـائلا من زجاجة تحملها فى كأس الاميرة وتطلب من الوصـيفة أن توزع الكاسات على المائدة وتتأكد من وضـع كأس الاميرة أمامها فما كان من الخادمة المخلصة التى راودها الشـك فيما قامت به الزوجة أو وصيفة الاميرة المحبوبة فغافلتهـا وصبت ما كان فى كأس الاميرة فى كأس الوصيفة وأعدت كأسا اخر للاميرة •

وعندما اجتمع نسمس تعجلت الوصيفة فى الشرب فى نخب شرف الاميرة حتى تتخلص منها سريعا فاذا بها تسقط فريسة السم الفتاك وتدفع حياتها ثمن خياناتها .

ونعود الى باتا الذى تبدأ رحلته الى وادى الارز بمجموعة من المغامرات التي لا تخلو منها قصـــة من قصص الدولة الحديثة فيسير باتا وحيدا فى ظلام الليل فى الصـــحراء اللا نهائية لا يرى فيها الا نجوم السماء ولا يسمع فيها الا عواء الذئاب بأشباح عصابة من قطاع الطرق تتابع خطواته لتحاول السطو عليه والفتك به .

وبينما هو يعدو للاختفاء منهم فاذا به يقع فى جب أو بئر مهجور يخفيه عن أعينهم ولما يئسـوا من اكتشـــاف مخبئه عادوا من حيث أتوا .

ومع شروق الشمس تلمس يداه حبـــلا يتدلى في البئر فتعلق به وتسلق عليه حتى وصـــل ســـالما الى السطح فيفاجأ فى ضوء النهار بأن الحبل الذى تعلق به ما هو الا ثعبان ضخم فضى اللون وعيناه بلون زرقة السماء وطمأنه بقوله ان الاله أرسله اليه لحمايته وانقاذه لعلمـــه ببراءته ويفهم من أجزاء الحوار بين باتا والثعبان ـ الذى فقد جزء منه ـ ان الثعبان يرد له جميلا سبق أن أســـداه باتا اليه وهو لا يعلم عندما أنقذ أولاده من الغرق عندما وصـــلت مياه الفيضان الى حجرة المزرعة ومنع المياه من أن تغمـــر الجحر وتقضى على صغار الثعبان الذى كان بعيدا عن المزرعة فى البحث عن قوت أولاده .

ويطلب باتا من الثعبان أن يرشده الى طريق آمن يوصله الى وادى الارز فيقول له الثعبان « اذا أردت أن تصل سالما الى وادى الارز ولا يجرؤ أحد على اعتراض طريقك فعليك

تقتفى أثر المداق الذى تركته فوق أرض الصحراء فذلك
طريق ينحاشون الاقتراب منه خوفا من ملك الزواحف
وبطشه فاياك أن تبتعد عنه أو تخطئه وسيصل بك الى
أرض الموعودة بعد سبع ليال وسبعة أيام .

وهكذا مرت الايام برتابتها حتى وصل باتا الى وادى
الارز الذى لاح له فى الافق البعيد فى اليوم السادس
اطمأن قلبه وسجد للاله شاكرا .

وعاش باتا وحيدا فى وادى الارز الذى يطل على البحر
باشجاره الباسقة وعاش كما أوحت له الالهة فى عزلة
عن الناس وتحاشى رؤية النساء حتى يأمن كيدهن . فالمرأة
هى التى أخرجته من أرض بلاده ليعيش سجينا فى وادى
الارز بعيدا عن وطنه وأهله (كما عاش يوسف عليه السلام
سجينا فى أرض مصر بعيدا عن وطنه وادى الارز) .

وقد حرص باتا على الاحتفاظ بقلبه الذى نما على شكل
زهرة على قمة أعلى شجرة من أشجار الغابة حتى لا تصل
اليه أو تلمسه يد امرأة حتى يعيش قلبه طاهرا ونقيا
يستقبل أشعة الشمس ونور الاله كل صباح كما أوحت
اليه الالهة وتمر السنون تباعا وهو يرقب قلبه الذى تعذبه
الوحدة ويتعبد لربه .

ولما رأته الالهة وحيدا فى الغابة وقد تعلق قلبه بالسماء
اشفقت عليه وجعلت الاله خنوم يسوى له زوجة صالحة
جزاء استماعه لتعاليم الاله والعمل بها طوال تلك المدة .
مرحلة التجربة ـ وهنا يأمر باتا زوجته المخلصة الا تغادر
الغابة وتنزل الى البحر كما أمرته الالهة ولكن الزوجة غافلته
ذات صباح وخرجت الى البحر رغم تحذيره لها من العمل .
فجعلت تتأمل جمالها على مرآة صفحة الماء وتتحسس مفاتن

جسمها ثم خلعت ملابسها وأسدلت ضفائر شعرها والقت بنفسها فى أحضان الامواج فأراد البحر أن يختطفها ولكن باتا الذي كان يرقبها من بعيد أسرع اليها وألقى بنفسه بين أمواج البحر الثائر وأنقذها من براثنه وكل ما أمكن البحر أن يأخذه خصلة من شعرها طفت على وجهه وحملها تياره حتى وصلت الى شواطىء مصر . وهناك فاح شذاها وانتشر رياها فشغف الفرعون بصاحبتها فارسل فى طلب ساحر القصر ليستدل منه عن صاحبة الخصلة ومكانها . فقال له الساحر « لقد أتت الخصلة مع رياح الشرق وتيار البحر التى حملتها أمواجه من بلاد بعيدة تكسوها أشجار الارز وأطنب في وصف جمالها الساحر الذي وقع اليها البحر في أسره وحاول اختطافها والاحتفاظ بها لنفسه ولكنه لم يتمكن من الحصول على أكثر من تلك الخصلة التي حملها اليك .

فارسل الملك أحد اتباعه المخلصين للبحث عنها حتى وجدها تجلس وحدها بالقرب من الشاطىء فأخبرها بأنه رسول الملك الذى شغف بها حبا عندما وصلته خصلة شعرها فاتفقت مع الرسول على أن ينتظرها بعربته الملكية في مكان معين حددته له في أسفل الوادى عند مخرج الغابة حيث ستوافيه في منتصف الليل عندما ينام زوجها ويشرق القمر . ويستيقظ باتا فى صباح اليوم التالى فلا يجد زوجته ويعرف باتا من طيور الغابة ان احدى عربات فرعون قد اختطفتها وهربت بها فى اتجاه مصر .

وتصل زوجة باتا الى قصر فرعون الذى يقع أسير غرامها وتغريه ليعلن زواجه عليها لتصبح الملكة المتوجة .. أمنيتها التى كانت تحلم بها .

ولما كانت تخاف بأس زوجها الذى سينتقم منها كما كما انتقم منها أخوه من قبل (ولم تفسر البردية علاقتهما باخيه او بزوجة أخيه التى خانته) فقد أغرت الفرعون بقطع شجرة الارز التى تحمل قلب باتا . حتى لا يلاحقها باللعنة ويقضي عليها وبذلك تستريح منه الى الابد وتصبح ملكا لفرعون وحده . وهكذا يرسل فرعون رجاله للبحث عن شجرة الارز التى تحمل قلب باتا فى المكان الذى وصفته وحددته له زوجته وأمرهم بقطعها . واستدلوا على الشجرة بالزهرة الكبيرة التى تعلو قمتها وقاموا بقطعها فسقط قلب باتا بسقوطها .. ومات .

عندئذ حدثت العلامة التى كان قد ذكرها باتا لاخيه « أنوب » ليعلم بها أمر موته . فبينما كان أنوب يجلس وحيدا فى حديقة داره التى كانت تجمعه مع أخيه بعد موت أبيهما وقبل أن تفرق بينهما الزوجة الخائنة وبينما هو غارق فى دوامة أفكاره وما وصل اليه حاله وحال أخيه الذي تسببت فيه الزوجة الخائنة . يتقبض قلبه فاذا بانية الخمر تهتز فى يده ويفور الخمر وينسكب على الارض وهنا يوقن بأن أخاه قد مات .

فيشد رحاله فى الحال الى وادى الارز لينقذ قلب أخيه ويستمر البحث عدة سنوات حتى يجد أنوب قلب أخيه فى صورة فاكهة نادرة ووحيدة وله احساسه على انها روح أخيه . فحملها ووضعها فى اناء مملوء بالماء كما أخبره عندما افترقا . وهكذا عادت الحياة الى باتا الذى صير نفسه ثورا قويا حمل أخاه الى مصر .

وعندما وصل الى داره طلب من أخيه أن يقوم باهدائه الى فرعون ليحتفظ به فى قصره ضمن الثيران الملكية المقدسة

ففرح فرعون بذلك الثور النادر وقربه اليه لما يمتاز به من علامات مقدسة تتوج جبهته ٠

وتنزل زوجته الى الحديقة لمشاهدة الهدية التى أهداها أنوب للملك فيقترب منها الثور الجميل ويفصح لها عن شخصيته وأنه جاء لينقذها ظنا منه أن رجال فرعون اختطفوها وأنها بريئة مما حدث وما زالت تحفظ له الود والوفاء ٠ فاذا بها تغرى فرعون بذبحه وتقديمه قربانا للالهة حتى تتخلص منه الى الابد ٠ ويستمع الى رأيها ويستجيب لمكيدتها فيأمر بذبح الثور أمامها ٠

وفى مكان ذبح الثور تطايرت منه نقطتان من الدم نبتت مكانهما شجرتان من أشجار الاتل ونمت الشجرتان بسرعة ولمع ساقاهما الفضيتين وقد سكنت فيهما روح باتا ٠ وبينما كانت الزوجة تجلس فى ظلها أسر باتا الى زوجته بأمره وهو لا يعلم أنها هى التى أمرت بذبحه لتتخلص منه

فما كان منها الا أن أغرت فرعون بقطع الشجرتين وتسليمهما الى صناع الاثاث وفنانى القصر لصناعة الاثاث

وفى أثناء قيام الصناع بنجارة الاثاث وهى تراقب حفر الاخشاب تطايرت شظيتان من نشارة الخشب ودخلتا فى فمها ٠ ٠ فحملت وأنجبت صبيا جميلا صار وليا للعرش وعند وفاة الملك نصب هذا الصبى خلفا له ملكا على البلاد

ولم يكن ذلك الصبى الا « باتا » نفسه وعندما أيقنت أن الملك هو باتا زوجها الذى خانته ودبرت سلسلة المكائد المتتابعة للتخلص منه تأكدت انه سينتقم منها شر انتقام لنفسه ولاخيه ٠

وألقت شراكها هذه المرة حول الضابط الشاب أخى

الملك الراحل والذى كان يحقد عليه لانه من أم غير شرعية وأغرته بالتخلص من باتا ليخلو له الجو فيجلس على العرش وتصبح هي زوجة له .

ويخرج باتا ليتجـول فى حديقـة القصر حتى ينتهى الحراس من اعداد عربة الصيد ومعداته ويجلس ليستريح فى ظل احدى أشجار الحديقة فاذا بطائر « أبو منجـل » الهاتف يحط على فروع الشجرة التى تظلله ويحذره من الخروج للصيد ويسر له بما دبرته الزوجة الخائنة فيعود فورا الى القصر ويأمر بالقبض عليها وعلى أعوانها بعد أن يعترف له رفيق الرحلة الذى كان قد كلف باغتياله بدورها فى المؤامرة فيقتلها بيده بسهام الصيد التى كان سيقتل بها .

وهكذا انتقم باتا من الزوجة الخائنة شر انتقام .

اللصـان الشقيقان
ولعنـة الكنـز !!

أن قصة «اللصان الشقيقان» أو كنوزالملك هيريوس التى تنسبها كتاب أدب القصة العالمى فى تراجمهم الى الاغريق هى فى الواقع من قصص الادب الفرعونى القديم بالدولة القديمة المعاصرة لبرديات وستكار أو الف ليلة وليلة الفرعونية التى الفها الكاتب المصرى لملوك عصر الاهرامات وتتبع نفس النسيج والاسلوب القصصى لكتاب ذلك العصر

وتتلخص أحداث القصـة الاغريقية فى ان الأخوين « جاميدس وتروفونيس » كانا من أشهر البنائين • كلفهما الملك هيريوس ببناء خزانة منيعة لحفظ كنوزه فقاما بمهارة فائقة ولكنهما حشرا سرا بين أحجار جدارها الخارجى حجرا يمكن سحبه فى سهولة ويسر بحيث يتمكن من يريد الدخول الى الخزانة أن يأتيها من غير بابها الذى وضعت على أختامه وترباسه حراسة قوية •

وقام الاخوان بعد أن وضع الملك كنوزه فيها بدخول الخزانة من وقت الى آخر وسرقة بعض ما بها من أموال وكنوز وعندما اكتشف الملك هيريوس أن كنوزه تتناقص نصب فى الخزانة شركا وقع فيه أحد الاخوين العاملين وعجز أخوه عن تخليصه فاضطر أن يقطع رأسه ويهرب حتى لا يتعرف أحد عليه •

فالقصة ينسجها الاغريق وما دخل عليها من تحوير لا تختلف عن الاصل الفرعونى الذى يسبقها بالفى سنة • والتى استمر تداولها ــ ككثير غيرها من القصص الشعبى

لعدة أجيال ـ حتى نقلها كتاب الاغريق ومؤرخوهم الذين توافدوا على مصر فى العصور المتاخرة ابتـداء من القـرن الخامس قبل الميلاد ٠

وتدور وقائع القصـة الفرعونية حول كبير من أثرياء منف كان يمتلك ثروة طائلة ويدخـر من الكنـوز ما لم يستطع أحد فى منف أن يقتنى أكثر منها أو يدانيه فيها ٠

واشتهر بين أهل المدينة ببخله الزائد وتقتيره على زوجته وولديه الوحيدين ٠ كما لم يكونوا على وفاق معه عنـدما بلغهم انه على صلة بغانية معروفة فى مدينة « سـايس » كثيرا ما يرحل لقضاء أيام بجانبها ويغدق عليها الكثير من امواله وكنوزه كما أشاعت فى المدينة انه سـيتزوجها ٠ وبذلك ستصبح سيدة الدار وتستولى على قصره وكنـوزه ويحرم منها زوجته وولديه ٠

وحرصا منه على كنز تلك الثروة فى أمان ابتنى خزانة من الحجر الصلب تمتد احدى حوائطه الى الجدار الخارجى للقصر ٠

عندما شرع البناء فى بناء حوائط الخزانة فكر أبنـاءه فى حيلة اتفقا مع البناء على تنفيذها بعد ما رشوه بالاموال الوفيرة وتنطوى الحيلة على وضع حجر سرى بين أحجـار الحائط بحيث كان من السهل على رجل واحد يرفعه والمرور خلال الفجوة التى يسدها ٠

ولما انتهى البناء من القيام بمهمته اجزلوا له العطـاء حتى ليتمكن من مغادرة المدينة حتى اذا انكشفت الحيلة لن يتمكن الاب من ملاحقته والانتقام منه واتهامه بالسرقة ٠ وفى نفس الوقت يضمن الاخوان الا يشى بهما أحد ٠

وما أن تسلم الاب الخزانة حتى كنز أمواله فيها بعد أن وزعها فى قدور متراصة ٠

وقام بالعمل وحده طوال الليل فى غيبة أهل القصر حتى لا يطلع أحد على أسرارها ثم أغلق باب الخزانة الذى لايمكن لاحد أن يفتحه أو يصل الى سر فض أختامه ٠

ولم ينتظر الولدان طويلا وخرجا من القصر ليلا أثناء غياب والدهما خارج المدينة واكتشفا الحجر بالجدار فرفعاه بيديهما وانزلق بدون مشقة ودخلا الخزانة فحملا مقدارا كبيرا من الاموال ٠

وعندما عاد الاب من رحلته فتح الخزانة للاطمئنان على ما بها فأخذته الدهشة عندما شاهد أن المال الذى بالقدور قد قل رغم أن الخزانة كانت أبوابها محكمة وأختامها سليمة لم تمسها يد ٠ ولما قام بفتح الخزانة مرة ثانية وثالثة تبين له أن الاموال اخذه فى النقصان باستمرار وخامره الشك القاطع أن هناك من تمكن من دخول الخزانة بطريقة سرية وانه لن يتوانى فى السطو عليها مرات أخرى

فلجا بدوره الى الحيلة وأمر بصنع أشراك وضعها بجانب القدور التى وضعت بداخلها الاموال والكنوز حتى اذا اقترب أحد من احداها وحاول فتحه وقع فى مقابض الشرك ولن يتمكن من الافلات ٠

لما دخل الاخوان الى الخزانة كما فعلا فى الايام السابقة اقترب أحدهما من أحد القدور وحاول فتحه وقع لتوه فى الشرك ولم يتمكن من تخليص نفسه ٠ ولما أيقن وهو فى مازقه انه لابد هالك طلب من أخيه أن يتقدم ليقطع رأسه ويأخذها معه حتى اذا رآه أحد لا يمكنه التعرف على شخصه حتى لا يكون فى ذلك هلاك أخيه ٠ فاقتنع الاخ بوجاهة

الفكرة وقام بتنفيذ ما أمره به أخيه ورجع الى بيته يحمل راس أخيه .

وفى الصباح عندما دخل الاب الخزانة ذهل عندما فوجيء بجثة اللص فى الشرك دون الرأس بينما كان المكان سليما لا أثر فيه مطلقا لدخول أحد أو الخروج منه . فلجأ فى حيرته الى الحيلة فعلق جثة اللص المجهول فوق الحائط وأمر الحراس الذين وضعهم لحراستها أن يقبضوا على من يرونه باكيا أو نادبا أو من يحاول سرقة الجثة حتى يمكنه الاستدلال على حقيقة صاحب الجثة ومن كانوا يعاونونه أو يعمل لحسابهم .

ولما علقت الجثة ثارت ثورة الام وطلبت من ابنها - الوحيد - الذى تبقى لها - أن يحتال بكل ما يستطيع من الوسائل والحيل حتى يفك جثة أخيه ويحضرها لهنا لان الام كرهت أن تدفن جثة ابنها بغير تحنيط فيكون مصيرها الفناء وحرمانها من الوصول الى عالم الخلود حيث يجتمع شملهم جميعا بعد حين .

ويلجأ الابن الى أحد السحرة الذى يعطيه اناء من الخمر بعد أن يطلق تعاويذه السحرية عليه ويطلب منه أن يتحايل على الحراس حتى يسقيهم من الخمر المسحور فاذا تمكن من ذلك سيخلو له الجو والمكان لذلك فيسود جثة أخيه والهروب بها .

يذهب الابن بعدما تغرب الشمس حين لا يكون هناك أحد بالقرب من الجثة المعلقة على الحائط سوى الحارسين القويين فيقوم بتنفيذ ما أمره به الساحر ويعد حمارا يحمل عليه جرة الخمر وعندما مروره بجوار الحارسين أخذ يضرب الحمار بالعصا ليحثه على سرعة المسير فأخطاه فى احدى

الضربات وأصابت العصا الجرة فثقبها وأخذ الخمر ينهمر فأخذ يصيح ويضرب رأسه فأسرع الحارسان كل يحمل أوعيته ليأخذ فيها من الخمر المتدفق حاسبين ذلك غنما وساعداه على انقاذ ما تبقى من الجرة بعد سد ثقبها وتثبيتها فشكرهما على صنيعهما وطلب منهما تذوق ما حصلا عليه من الخمر المعتق الفاخر الذى كان يود تقديمه كقسربان للمعبد ٠

فأخذا فى تذوقه ثم شربه بنهم فاذا بالسحر يظهر تأثيره عليهما سريعا وينظر الحارسان الى الجثة المعلقة على الحائط فاذا بها قد تحولت الى تمساح حى ضخم الجسم يضرب الحائط بذيله وأرجله وهو فاغر فاه ويشع الشرر من عينيه فأصاب الحارسان الذهول وانتابهما الذعر فتركا مكانهما وهربا طلبا للنجاة ٠

وقام الاخ بفك رباط جثة أخيه وحملها على الحمار وعاد بها الى البيت حيث كانت أمه فى انتظاره فوضعا الجثة والرأس المقطوع فى تابوت جميل وحملاه الى دار التحنيط

بعد مرور أيام تم خلالها تحنيط جثة الاخ القتيل ونقلها الى مقبرة أعدت خصيصا لها يذهب الابن فى ظلام الليل ليدخل الخزانة عن طريق الفتحة السرية وهو يحمل على كتفه قدرا مماثلا للقدور الموجودة بالخزانة أعدته له أمه ووضعت به حية من نوع الكوبرا القاتلة وقد طلبت منه أن يضع القدر بما حوى فى مواجهة باب مدخل الخزانة مباشرة حتى اذا فتح الاب القدر كعادته لاخذ بعض محتوياته من أموال ومجوهرات لحملها الى عشيقته الغانية قضت عليه الكوبرا المميتة ٠

وحذرته أمه من الاقتراب من القدور الاخرى وأخذ

الحيطة عند المرور بينها حتى لا يواجه مصـــير أخيه .. ويعود الى القصر قبل طلوع الفجر بعد أن ينجح فى مهمته ويغلق الفجوة السرية بالحائط .

ويدخل الاب الى الخزانة فى الصباح الباكر كعادته قبل سفره للاطمئنان على كنوزه وحمل ما يحتاجه اليه منها فى رحلته الى مدينة سايس . ولما يطول غيابه داخل الخزانة الذى يستمر طوال اليوم يعود الحارس للاطمئنان عليه فاذا به يجد سيده ممددا على الارض جثة هامدة والحية المميتة تحيط بذراعه الذى دسه فى القدر بعد رفع غطائه .

وهكذا نجحت حيلة الام وتم لها ما أرادت من انتقـــام لابنها الذى تسبب أبوه فى قتله .

لقد وردت قصة الاخوان والكنز فى كتاب هيرودوت فى وصف تاريخ مصر سجلها على أنها جزء من تاريخ ملـــوك عصر الاهرامات فنسب القصة الى الملك (رامسينيتوس) رمسيس الثالث ابن الملك ست نخت وهما من ملوك الاسرة ٢٠ التى حكمت عام ١١٦٠ ق . م على إنه والد الملك خوفو صاحب الهرم الاكبر وهو من ملوك الاسرة الرابعـــة وكان حكمه خلال عام ٢٦٥٠ ق . م اى بفارق فى التاريخ الزمنى بالف وخمسمائة سنة بين الاب وابنه فكان هيرودوت الذى أطلق عليه مؤرخو الغرب ظلما لقب أبو التاريخ . والذى كان كغيره من مؤرخى اليونان يجهلون اللغة المصرية وكتاباتها الهيروغليفية ـ وقد وقع ضحية التراجمة والكتاب المصريين الذين تعودوا السخرية من الكتاب والمؤرخين الاجانب الذين كانوا يحاولون السطو على التراث المصرى فى علوم النثر والادب ونقله الى بلادهم لينسبوه الى أنفسهم .

بجانب تلك الاخطاء التاريخية الفاحشة فى نقل القصة

فقد وجد هيرودوت نهاية ساذجة للقصة تبعدها كل البعد عن احتمال كونها قصة واقعية أو وقائع تاريخية تنسب الى تاريخ مصر فيصف نهاية القصة كما وردت حرفيا في الفصل ١٢١ من كتابه كما يلى ٠

واستشاط الملك غيظا حينما بلغه بأن جثة اللص قد سرقت وأراد أن يكشف بأية وسيلة شخصية مدبر تلك المكيدة فلجأ الى الحيلة التالية ٠

وضع الملك ابنته فى ماخور وأمرها أن تستقبل جميع من يفدون اليها على السواء وأن تختبر كل زائر منهم قبل مجىء أباها ٠ على أن يقص عليها أبرع وأخبث ما فعل فى حياته حتى اذا روى أحدهم ما حدث بشأن اللص ٠ فعليها أن تمسك به ولا تسمح له بالخروج ٠وعندما بدأت الصبية بتنفيذ ما أمرها به أبوها جاء اللص الذى كان عليهما بالسبب الذى من أجله دبرت تلك الخديعة وأراد اثبات انه يبز الملك فى مكره وخدعه ـ قطع من عند الكوع ذراع جثة شخص مات حديثا ٠ وذهب الى ابنة الملك يحمل الذراع تحت ردائه ٠

ولما دخل عليها وجهت اليه الاسئلة التى وجهتها لمن سبقوه فأنبأها أن أشنع ما قام به هو قطع رأس أخيه عندما وقع في شرك في خزانة الملك وأن أمهر ما أقدم عليه هو فك جثة أخيه المعلقة بعدما ما أسكر الحراس فلما سمعت الفتاة ذلك همت بالقبض عليه فمد اليها اللص فى الظلام ذراع الجثة فامسكت بها فترك لها الذراع خفية وهى مطبقة عليها حاسبة انها ممسكة بذراعه وتسلل هو ٠

ولما وصلت هذه الانباء أيضا الى الملك اندهش لفطنة هذا اللص وجراته وذكائه فارسل فى النهاية الى كافة المدن معلنا انه اذا حضر الرجل الى حضرته فهو يضمن له حريته ويعده بوعود مغرية فوثق به اللص وذهب اليه فأعجب به الملك رمسيس أشد الاعجاب وزوجه من ابنته هذه لكونه ابرع الخلق أجمعين ·

اذ انه يبز المصريين كلهم وهؤلاء يبزون سائر البشر البراعة » ·

كيف ضحك الفراعنة على المؤرخ هيرودوت ؟

منذ ستة الاف سنة والكاتب المصرى الجالس القرفصاء يتعرض الى عملية نهب وسطو منظمة على مؤلفاته !

سرق العالم مؤلفاته الحقيقية ونسبها الى مؤلفين وكتاب غربيين !

وطوال الصفحات السابقة تابعنا حكايات وقصص مجنون ليلى .. السندباد البحرى والكوميديا الالهية – وكليلة ودمنة .. والف ليلة وليلة .. و .. و ..

● **البداية هيرودوت :**

ان أول من حاول سرقة الكاتب المصرى والسطو على نتاج أفكاره في الادب والقصة والشعر كان مؤرخى الاغريق وكتابهم . وفى مقدمتهم هيرودوت وسولون وتيودورس وافريكانوس ثم تبعهم مؤرخو الرومان أمثال شيشرون وبلليني .

وقد اعترفوا جميعا فى تراجم حياتهم بجهلهم وعدم معرفتهم باللغة المصرية القديمة وعدم درايتهم بخطوطها ونقوشها وكتاباتها ولذا فقد اطلقوا اسم « الهيروغليفية » أو النقش المقدس (هيرو – غليفوس) وهو الاسم الذى

لق فيما بعد ـ وحتى اليوم ـ على كل ما هو غامض لا مفهوم •

لذلك فقد كانوا يلجأون الى الكاتب المصرى والتراجمة صغار الكهنة من كتاب المعابد ليترجموا لهم ما يقع تحت يديهم من مستندات وبرديات أو ما يصادفهم من نقوش ورسوم •

وهكذا وجد الكاتب المصرى ابن البلد فرصـــة ذهبية اتيحت له ليسخر من هؤلاء السـواح الاجانب الذين أتوا سرقة أفكاره ومقومات تراث حضارته الادبى • وجـدها فرصة لا تعوض « ليسرح بهم » ويمرح بخياله فى وصف ما يريدون معرفته وترجمة ما يريدون كشف أسراره من نقوش وكتابات وقصص وأحداث تصف حضـــارة مصر وتعبر عن تراث تاريخها وحياة مجتمعات شعبها فحلقـــوا بخيالهم فى ترجمة البرديات وتفسير النقوش بما يخالف مضمونها ونسبوا قصصهم الشعبية الى شخصيات تاريخية معـــروفة • وأماكن لا ترتبـــط بالتـــاريخ الزمنى لتلك الشخصيات • ونسبوا الى كل منها احداثا ووقائعا لم يكن لها فى الواقع الا فى ابتكارات خيالهم •

وتسارع المؤرخون والكتـــاب الى نقل تلك القصـــص التاريخية وما ارتبط بها من أسرار المعرفة ونســـبوها الى أنفسهم أو الى دراساتهم وأبحاثهم الخاصة •• فوقعوا فى شر أعمالهم واعترف العالم ومؤرخو العصر الحديث « بأن الكاتب المصرى كان أكثر ذكاء ممن سرقوا أدبه وأفكاره •

كان فى مقدمة ضحايا انتقام « الكاتب المصرى » ومقالبه الذكيـة المؤرخ الاغريقى « هـيرودوت » الـذى يعتبـره المؤرخون وكتاب الفرعونيات المرجع الاساسى للحضـــارة

الفرعونية وتاريخ مصر واطلقوا عليه اسم « أبو التاريخ »
بينما كشف مؤرخو الفـــراعنة المصريين وفي مقدمتهم « مانيتون السمنودى » الذى كان اول من كتب التـاريخ الزمنى لمصر وقسمه الى عصـــور وعهود واسرات وقوائم زمنية لحكم الملـوك وأسـمائهم وأعمالهم وهو ما تحققت صحته بما كشفته الحفريات عبر السنين الى يومنا هـذا فانكشف زيف التاريخ الذى افترى عليه هؤلاء الكتـــاب الاجانب ٠

وقد خرج كل من الكـاتبين الالمانيين فيدرمان وهايدى بابحاثهما التى كشفت بأن أبا التاريخ كان ضحية مقالب الكاتب المصرى كما نشر سودربرج السويدى بحثا مماثلا وصف فيه هيرودوت بأنه كان ضـــحية « لعنة الفراعنة » التى كان الكاتب المصرى يتقن لعبتها ٠

واذا راجعنا ما كتبه هيرودوت « أبو التاريخ » عن عصر الاهرامات وبناتها نجد انه عندما وصـــف الهـرم الاكبر وكانت واجهاته تكسوها النقوش والرموز التى وضـــعها مؤرخو الفراعنة ومتون الاهرام بأنها كانت رموزا بيـانية لقياس الزمن بالنسبة لسقوط أشعة الشمس على واجهاته « كمزولة شمسية » وخطوطا هندسية لحســــاب دورة النجوم فى قبة السماء وكانت تستخدم فى رصد النجوم والبروج السماوية وارتباطها بالتنجيـم الـذى برعوا فى كشف أسراره ٠٠ نجد هيرودوت يصف تلك النقوش (فى الفصل ١٢٥ من كتابه عن تاريخ مصر) بقوله :

« وقد بينوا على واجهات الهرم بالحروف الهيروغليفية ما أنفق ثمنا لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم واذا وعت ذاكرتى بالضبط ما قاله الترجمان عندما قـرأ

على النقش • فان النفقات بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة • بالاضافة الى ما أنفق على مآكل العمال وملابسهم » •

وبجانب تلك السخرية من عقلية كبار كتــاب الغرب وسذاجة مؤرخيه فقد خــدع التراجمــة هيرودوت بتقدير النفقات بالتالنت والفضة والمعــروف أن الفضــــة لم تكن متداولة أو معروفة فى مصر الا بعد عصر الاهرامات بألف وخمسمائة عام •

ويصف هيرودوت بناء الهرم الاكبر بقوله (فى الباب ١٢٦) :

« لقد بلغ كيوبس ـ فيما يقــولون ـ أحــط درجات الرذيلة حتى أنه عندما احتاج الى المال لبناء هــرمه الاكبر وضع ابنته هو فى ماخور وأمرها أن تحصــــــل على مبلغ معين لم يذكروا لى مقداره • وفضلا عن حصولها على ماأمرها به أبوها الملك فانها فكرت بدورها فى ترك أثر خاص بها لذلك كانت تطلب الى كل من دخل عليها أن يهدى اليهــا حجرا • ومن هذه الاحجار ـ فيما يقال ـ النهــار عنــدما يكون الجو صــــحوا لان البنت توسلت الى أبيها أن ترى الشمس مرة واحدة فى السنة •

لقد كشف التاريخ الحقيقى لمصر الفــرعونية أن عصر الاهرامات كان رمزا لعودة توحيد الاله رع واقامة معابده فى منف وهو ما يؤكد ان الهرم الاكبر لم يكن مقبرة للملك خوفو كبقية الاهرامات الاخرى بل كان مرصــدا للقبــة السماوية ومعبدا لرب السماء مما تؤكده متون الاهرامات وتشاريعها •

أن من يعرف اخلاق المصريين وسلوكهم وايمانهم بالقيم الانسانية فى ذلك العصر بالذات • يعرف مما ورد مفصلا

فى كثير من برديات التشاريع فى الدولة القديمة ومتـون الاهرام اعتبار الزنا من كبائر الاثم الذى يجازى مرتكبهـا بأن يعتبر منبوذا من المعبد والشمس كما صـدرت قوانين في ذلك العصر بالذات باعتبار الدعارة اثم يجازى مرتكبها بالموت ٠

ومما هو جدير بالذكر أن القصة ومضمونها قد وردت قصة مماثلة لها فى العصر المتأخر من القصص المعـروفة باسم غانيات نيكراتيس الاغريقيات ٠ وتصف القصـة احدى الغانيات التى بنت لنفسـها قصرا من المرمر يعد اجمـل قصر في المدينـة فكانت تطلب من كل من يدخل عليها من عشاقها أن يهديها حجرا تضيفه الى بناء القصر ٠

كما يؤكد بعض كتاب المصريات أن تلك القصة لا تخرج عن قصص وستكار « ألف ليلة وليلة الفـرعونية » التى تناولها كتاب الدولة القديمة وعصر الاهرامات بالذات ٠

● البقرة الذهبية !

وينتقل هيرودوت من تاريخ الملك خوفو الى حقبة الملك منقرع ولم يذكر شيئا عن الملك خفرع صـاحب الهـرم الثانى وأبو الهول الذى جذب انتباه جميع المؤرخين الذين زاروا مصر واهراماتها وأطلق عليه بعضهم اسـم حارس الاهرام ٠

ويصف هيرودوت منقرع بأنه ابن الملك خوفو الذى تولى الحكم من بعده ويقول :

« كان منقرع على خلاف أبيه فتح المعابد وقدم القرابين والهدايا للالهة والكهنة وكان من أعدل الحكام الذين أحبهم

الشعب ولذا فهم يخصونه بالمديح دون سائر الملوك وكان من أمواله الخاصة يدفع تعويضا لكل من لا ترضيه أحكامه او يشكو من ظلم القضاه ·

وبينما هو يقيم العدل في البلاد ويحبو الشعب بحسن رعايته دائب على عمل الخير في ورع وتقوى نزلت به أولى المصائب وهى وفاة ابنته الطفلة الوحيدة التى كانت له فى القصر · فاستولى عليه حزن عميق من جراء الخطب الذى نزل به فأعلن الحداد في جميع البلاد التى شاركته احزانه وقرر أن يدفن ابنته بطريقة تخالف ما عداها فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب على شكل المعبودة حتحور وكساها بالذهب ثم دفن أبنته المتوفاه بداخلها ·

ويقول هيرودوت ان البقرة لم توضع فى القبر ولكنها ما زالت ترى حتى يومنا هذا وقد شاهدتها فى مدينة « سايس » موضوعة بالقصر الملكى باحدى قاعاته المزينة ويحرقون بجانبها طوال الوقت مختلف أنواع البخور · وكانوا يخرجون البقرة الى ضوء النهار عندما يكون صحوا لان البنت توسلت الى أبيها أن ترى الشمس مرة واحدة فى السنة ·

وعلى مقربة من قاعة البقرة المقدسة توجد قاعة اخرى بها تماثيل سرايا منقرع وهى تماثيل ضخمة لنسوة عاريات يبلغ عددها عشرين تمثالا مختلفة الاوضاع ·

وفى باب اخر من الكتاب يعيد رواية قصة البقرة والتماثيل الضخمة بقوله :

« ان منقرع هام بحب ابنته الوحيدة وجامعها رغما عنها وان البنت شنقت نفسها بعد ذلك وأن الام أمرت بصنع البقرة التى دفنتها فيها واحتفظت بها فى القصر ورفضت

وضعها في القبر حتى تكون أمامها وبجوارها باستمرار ..
وقالوا ان الام قطعت أيدى الوصيفات اللاتى قدمن البنت الى أبيها وان التماثيل تعرض لما لاقته النسوة في حياتهن .. ويصف هيرودوت كما شاهدها وقد تقطعت أيديهـا والقيت بجانبها .

فذلك الخلط والتناقض فى سرد تاريخ الملك منقـرع الذى يظهره مرة بانه كان ورعا متدينا بينما فى باب اخر يصفه بانه كان منحلا مستشهدا فى الحالتين بقصة واحدة اختلف نسجها فما يثبت ان هيرودوت كان كغيره من المؤرخين الاجانب ضحية الكاتب المصرى والتراجمة ورواة القصص الشعبية .

ويغلب الظن أن قصـة « البقرة الذهبية » من طابع اسلوبها وطريقة سردها ترجح انها من القصص الشعبية التى تداولها أدب الدولة الحديثة .

وتستمر القصة وخيال مؤلفها ليكملها هيرودوت تاريخ منقرع بقوله :

« جاء وحى من مدينة « بوتو » الى الملك يخبره أنه سيعمر ست سنوات فقط ويموت فى بداية السنة السابعة فلما عرف منقرع أن مصيره قد تقرر ونهايته قد تحددت قرر أن يتحدى المصير ونبوءة كهنة معبد بوتو فأمر بصنع مصابيح عديدة قوية الاضاءة كان يشعلها عندما يخيم الظلام ويجيء الليل ويتمتع بلذات الحياة دون انقطاع سواء بالليل أو بالنهار حتى تصير السنوات الست اثنتى عشرة سنة وطاف بالمستنقعات والغابات وورد كل مكان علم أن به أحب متع الحياة وقد فعل ذلك رغبة منه فى تكذيب الوحى .

ويضيف هيرودوت ان الملك منقـرع ترك بدوره هـرما

اصغر بكثير من هـرم أبيه وينسـب الى نيتوكريس التى خلفته على العرش هى التى أكملته لانه مات قبـل اتمـام بنائه .

ويختم هيرودوت تاريخ عصر الاهـرامات أو حواديت عصر الاهرامات بالملكة نيتوكريس التى انتهى بنهايتهـا تاريخ الاسرة الرابعة .

ويصفها بأنها الملكة الوحيدة فى تاريخ الفراعنة بينمـا ورد فى قوائم الملـوك وتقسيم الاسرات الذى دونه المؤرخ المصرى ماينتون اسم تسع ملكات جلسن على عرش الحكم فى مصر من بينهن مريت نيت حفيدة الملك مينا فى الاسرة الاولى والملكة سبك نفرو رع فى الاسرة الثانية عشرة والملكة حتشبسوت المعروفة فى الاسرة الثـامنة عشرة منتهيـا بكليوباترة .

ويصف هيرودوت تاريخ نيتو كريس بقوله :

« تلا على الكهنة من ثبت البردى أسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكا اخرين حكموا بعد مينا وكان ضمن هـذه الاجيـال ثمانية عشر ملكا من الاثيوبيين وامرأة واحدة من أهل البلاد والمرأة تدعى نيتو كريس كالملكة البابلية . ثم قالوا لى انها احتالت وأهلكت الكثير من المصريين انتقاما لاخيهـا الذى قتله المصريون أثناء حكمه عليهم وولوها الملك بعد قتله . فقد ابتنت قاعة واسعة تحت الارض وقالت انها ستحتفل بافتتاحها ولكنها كانت فى قرارة نفسها تدبر أمرا غير ذلك

وللاحتفال بافتتاح القاعة أعدت وليمة عظيمة دعت اليها عددا كبيرا من المصريين وخاصة أولئك الذين علمت انهـم كانوا من المتآمرين على قتل أخيها وأثناء انشغالهم بالتهام الطعام واحتساء الشراب أنسحبت خفية واعوانها خـارج القاعة واغلقوا الابواب الحجرية الصماء خلفهم ثم أطلقت

على القاعة ماء النهر من قناة واسعة خفية •

هذا كل ما رواه لى عن هذه الملكة فيما عدا انها بعد أن قامت بفعلتها هذه ألقت بنفسها فى بئر مليئة بالرماد حتى لا تعاقب •

وقد بلغ استخفاف « الكاتب المصرى » بعقلية كتاب الغرب ومؤرخيه الذين أتوا لسرقة أفكاره •• بلغ قمته عندما حاول هيرودوت كشف الستار عن عمر الحضارة المصرية فيقول ان الكهنة قد أطلعوه على قاعة مقدسات وقوائم كبار الكهنة المبجلين الذين توارثوا رئاسة المعبد ٢٤١ جيلا من الكهنة حكموا مصر من يوم نشأتها الى يوم زيارته للمعبد وقرر تلك المدة بـ ١٣٤٠ عاما •• ويسترسل هيرودوت في مذكراته التاريخية فيقول : « وقالوا ان الشمس فى ذلك العصر غيرت دورتها المألوفة أربع مرات • فأشرقت مرتين من حيث تغرب الان وغربت مرتين من حيث تشرق الان • ولم يتبع ذلك أى تغيير فى مصر لا فيما تغله الارض ولا فيما يجود به النهر ولا فيما يتعلق بالامراض أو الموت»

وهى أسرار ومعلومات تاريخية لا تحتاج الى تعليق ولا تعبر عن ذكاء « أبو التاريخ » بقدر ما تعبر عن ذكاء من خدعوه عندما لقنوه اياها •

أن ما يقال عن هيرودوت يقال عن جميع مؤرخى الاغريق والرومان القدماء الذين حشروا كتبهم ومذكراتهم عن تاريخ مصر بالاساطير والخرافات والاراجيف والقصص التى تثبت انه لم يكن لها وجود الا فى أرجاء خيال الكاتب المصرى والتراجمة •

وهكذا انتقم الكاتب المصرى لوطنه ممن سطوا على أفكاره فعراهم وجردهم من ألقابهم كمؤرخين أو كتاب أو أدباء •

التفاصيل الكاملة لتهريب المســلات المصريــة !!

يوما ما كان لدينا ١٢٠ مسلة ترتفع فى ســماء مصر تحكى تاريخ العقيدة والكفاح وحضارة مصر !

يوما ما اختفت تلك المسلات لترتفع فى عواصم العــالم ومدنه المختلفة · ولم يبق فى مصر سوى خمس مســلات فقط ··

وتبقى قصة انتقال باقى المسلات خارج أرض وســماء مصر قصة مثيرة تدعو للدهشة والتأمل والتساؤل أيضا · لماذا ·· وكيف ·· ومتى ·· و ·· و

المسلة ·· رمز بها المصريون القدماء الى أصبع العقيدة الذى يشير الى عرش الاله فى السماء للتعبير عن وحدانية الخالق ·

كما يعبر شكل المسلة عن هرم (بن بن) ذى الاضلاع الاربعة التى تمثل اركان الدنيا الاربعة وتتجه بشــكلها الهرمى نحو السماء مكونة قمة المسلة ·· أما جسم المسلة فهو القائم الذى يحمل الهرم ليرتفع به ويســمو به ليربط الارض بالسماء ·· كرمز للايمان ·

أطلق المصريون القدماء اسم « تحن » على المسلة ومعناها « أصبع الشعاع المضىء » · وأطلق عليها مؤرخو الاغــريق اسم « أوبوليسكس » أى الوتد أو الابرة وهو الاسم الذى اشتهرت به فى الغرب وترجمه العرب الى « المســلة » أى الابرة ·

وسجل التاريخ ما ارتفع في سماء مصر بما لا يقل عن مائة وعشرين مسلة

أن تلك المسلات المائة والعشرين التي وقفت صامدة تقاوم الزمن الاف السنين تعبر عن عظمة مصر لم يبق منها على أرض مصر سوى خمس مسلات سقطت اثنتان منها وتركت مهملة فوق الارض تنتظر من يسرقها والثلاث الاخرى معرضة للسقوط والانهيار ..

يقول هيرمان : في كتابة عن « سرقة الاثار » اذا أردت أن تشاهد عظمة مصر فانظر الى مسلاتها التى تعبر عن الخلود خلود الحضارة في أسمى معانيها .

واذا أردت أن تشاهد تلك المسلات فاذهب الى أى عاصمة من عواصم العالم المتحضر فستجد واحدة أو أكثر تتصدر أعظم ميادينها فيما عدا مصر صانعة الحضارة ومسلاتها التى تشرف على تسرب ما بقى لديها من آثارنا »

ويصبح التساؤل ضرورة ملحة ، كيف .. ومتى .. والى أين ؟ خرجت تلك الاثار ؟

● بداية هجرة المسلات :

بدأت هجرة مسلات الفراعنة الى خارج البلاد عام ٦٧٥ ق . م عندما قام أشور بانيبال بعد فتح مصر . بنقل مسلتين من مسلات أون (عين شمس) (ذكر أن احداها كانت تحمل اسم رمسيس الثاني والثانية تحمل اسم سيتى الاول) لاقامتهما فى مدينة نينوى عاصمة ملكه الجديدة التى أسسها « سنجريب الاشورى » بعد استيلائه على بغداد واغراقها وتخريبها .

وأقام اشور بانيبال المسلتين في الميدان المواجه لقصره العظيم الذي يتوسط عاصمة ملكه • كان ارتفاع كل مسلة ٥٠ قدما ومن قطعة واحدة من الجرانيت الوردي وكانت تكسو قمة كل منهما ألواح من معدن الالكترون البراق •

اهتم اباطرة الرومان بنقل المسلات المصرية الى روما عاصمة الامبراطورية ابتداء من عصر البطالسة وأقدم مسلة مصرية ظهرت في القارة الاوربية هي التي حملها الامبراطور « اغسطس » عند عودته من مصر التي قام بزيارتها عام ٥٥ ق • م ونقلها لتتوسط مدينة روما بعد قيامه بتجديدها واعادة تخطيطها ونقش على قاعدتها باللاتينية بعض العبارات تبركا بالمعبودة المصرية «ايزيس» التي اطلق عليها الرومان اسم « سيدة العالم » وقد ذكر بعض مؤرخي الرومان انها لم تغتصب من مصر ولكنها صنعت خصيصا بأمره وفي عام ٢٥ ميلادية قام الامبراطور « كاليجولا » بنقل احدى مسلات تحتمس الثالث من عين شمس وأقامها في ميدان القديس بطرس • وفي عام ٨٠ م نقل الامبراطور دوماتيان احدى مسلات رمسيس الثاني التي كانت موجودة في معبد تانيس أثناء زيارته لمصر لوضعها في بهو معبد ايزيس الذي أقيم تقديسا لسيدة العالم المصرية على شاطيء نهر التيبر في روما •

وفي عام ١٣٠ م نقل الامبراطور هادريان مسلة من هليوبوليس الى روما عندما أصبح امبراطورا على الاسكندرية وفي عام ٢٢٠ م نقل قنسطنطين الاكبر عاهل الدولة الرومانية أكبر مسلة فرعونية وجدها في عين شمس لتكون أكبر من اية مسلة نقلها أباطرة الرومان من مصر • فنقلها من هيليوبوليس الى الاسكندرية رغبة منه في ارسالها الى

بيزنطة لتجميل عاصمة ملكه الجديدة • لقد واجه محاولة نقل المسلة الضخمة الى بيزنطة عدة صعوبات فبقيت ٢٧ سنة في مكانها على شاطىء الاسكندرية حتى قام قسطنطينيوس ابنه عام ٢٥٧ م بنقلها الى روما حيث أمر باقامتها في ميدان مكسيموس •

ويحدثنا المؤرخون ان لعنة الفراعنة قد صحبتها من وقت نقلها من هيليوبوليس فلم يتمتع الامبراطور قسطنطين برؤيتها تزين عاصمة ملكه وتبعت اللعنة ابنه فبعد المجهود الشاق الذى لاقاه فى نقل المسلة من الاسكندرية حتى وصلت الى روما وأرادوا الاحتفال باقامتها فاذا بها تتصدع فجأة عند محاولة رفعها •• وقرر لقسطنطينيوس أن يموت فى نفس السنة •• فتركت المسلة فى مكانها لم يجرؤ أحد على محاولة ترميمها أو نقلها من مرقدها •

وفي عام ١٥٨٧ م أى بعد مرور ٢٣٠ سنة كشف عنها ووجدت محطمة الى ثلاث قطع • فقام دومنيكو فونتانا بأمر من البابا (سكوتس الخامس) بترميمها واصلاحها واقامتها أمام القديس يوحنا باللاتيران كما أمر برفع الصليب على قمتها كرمز على انتصار المسيحية على الوثنية •

وتعتبر مسلة اللاتيران أكبر مسلة فرعونية نقلت خارج مصر حيث يبلغ ارتفاعها ١٠٥ أقدام ووزنها ٤٥٥ طنا • وتعتبر تلك المسلة اخر المسلات التى أقامها تحتمس الثالث ومات قبل أن يتمها • فقام باتمامها واقامتها حفيده تحتمس الرابع •

● أما مسلة القسطنطينية أو مسلة اسطنبول الحالية فليست لها علاقة بالمسلة التى أقامها قسطنطينوس التى سبق ذكرها ولكنها أيضا احدى مسلات تحتمس الثالث

نقلها الامبراطور تيودورس من طيبة عام ٥١٠ م وهى فى الواقع تمثل الجزء الاعلى فقط من مسلة مماثلة أصلا فى الطول لمسلة اللاتيران ويبلغ الجزء منها حاليا ٨٥ قدما .

● مسلة روما :

وهى اخر المسلات التى اقامها سيتى الاول عام ١٢٩٠ ق . م ومات قبل أن ينقشها وقد أتمها ابنه رمسيس الثانى وقد نقلت الى روما فى أواخر عهد الحكم الرومانى وهى مقامة الان فى ميدان الشعب « بياتزا دل بوبولو » . فى وسط روما وهى أشهر واجمل مسلاتها .

وتعتبر هذه المسلة ثانى مسلة فى روما تحمل اسم ملكين بعد مسلة اللاتيران .

لقد بدأت هجرة المسلات من مصر فى العصر الحديث الى عواصم الدول الاوروبية والامريكية فى بداية القرن التاسع عشر عندما هبت على أرض وادى النيل عاصفة هوجاء جمعت خليطا من علماء الاثار ومحترفى الحفريات وتجار الاثار وخبراء سرقاتها وعصابات التهريب العالمية الذين يتخفى معظمهم تحت أسماء مختلف نوعيات الخبرة والذين تتستر عليهم الحكومات والمنظمات التى يعملون لحسابها .

فكانت أول المسلات التى اختفت من أرض مصر مسلة جزيرة فيلية المشهورة التى هربها « بلزونى » بمغامرة خيالية حيث قام بسحبها من مكانها بالمعبد على ضرافيل خشبية صنعها من جزوع النخيل حتى وصلت الى شاطىء الجزيرة حيث اختفت لعدة أيام بين عيدان الغاب حتى وصلت سفينة خاصة أعدت لتهريبها . فنقلت اليها فى

ظلام الليل لتبحر بها فى مجرى النيل متجهة الى رشيد • ومن رشيد حملتها احدى السفن ـ قيل انها احدى سـفن الاسطول البريطاني •

ووصلت المسلة الى شواطىء انجلترا عام ١٩٢٠ لتقام في ساحة قصر لنجزتون فى دورست ـ وهو المكان الذى اختاره لها دوق ولنجتون ـ الذى قيل بأنه كان له يد في تهريبها •

وقام بلزونى بمغامرة أخرى أكثر اثارة عندما قام بنقل احد التماثيل الضخمة لرمسيس الثاني من معبد الرماسيوم ونقله الى لندن حيث تصـــدر القـــاعة الكبرى بالمتحف البريطاني •

● مسلة لندن :

احدى المسلتين اقامهما تحتمس الثالث أمام معبـد عين شمس ـ وقام المهندس الاغريقى بنيوس بنقلها بنـاء عن طلب كليوباترة لتزين بها مدخل معبد ايزيس بالاسكندرية فى خلال القرن الرابع عشر الميلادى سقطت احداهمـا من فوق قاعدتها ـ وهي المسلة التى نقلت الى لنـدن • وقـد أهداها محمد على باشا الى « الامة الانجليزية » عام ١٨٣١م بعد أن أدعى الانجليز بأنها قد أهديت اليهم عدة مرات من قبل ولكنهم لم يتمكنوا من نقلها • وقد بقيت بعد الاهداء الاخير ملقاة على الارض لصعوبة نقلها حتى عام ١٨٧٧ م وهو العام الذى نقلت فيه على يد السير « ارزمس ولسن » فابتكر لنقلها عمل سفينة خاصة على شـــكل غلاف أو ماسورة توضع المسلة بداخلها وأطلق عليها اسم كليوباترة

قامت بجرها باخرة ضخمة أسمها أولجا • وهكذا غادرت اولجا ميناء الاسكندرية تجر وراءها كليوباترة فى شهر يوليو عام ١٨٧٧ م •

وبعد خروج الركب الى عرض المحيط صادفته عاصفة اصطدمت بسببها الباخرة أولجا بصخور الشاطىء وفقدت عددا من رجالها بعدما أوشكت على الغرق أما كليوباترا فقد انفصلت عن أولجا وجرفتها الامواج وتصادف مرور باخرة بالقرب منها اسمها « فيتز موريس » اسرعت بانقاذها واوصلتها سليمة الى الشاطىء البريطانى •

وكان ذلك الحادث حديث الصحافة العالمية التى نسبته الى لعنة الفراعنة • كما نسبت نجاة كليوباترة الى العين الحارسة عين حورس المنقوش على المسلة وأخيرا تمت اقامة المسلة على شاطىء نهر التميز بعد أن أعد لها المهندسون برجين عملاقين من الحديد والاخشاب يمكن رفعها وخفضها آليا حسب الطلب يرتكز عليهما طرفا المسلة ويحملها من الوسط برج معدنى على محور متحرك يمكن بواسطته رفعها وتركيزها عموديا •• ولم تخل تلك العملية من الاخطار فقد اختل توازن المسلة عند رفعها مما أدى الى قطع الحبال التى تربطها وسقطت من فوق البرج الذى تصدع وأصيب بعض العمال ولكن المسلة نجت بأعجوبة ولم يصبها أى خدش أو ضرر مما زاد فى اعتقاد الناس بلعنة الفراعنة التى أصابت البرج والعمال والعين الحارسة التى أنقذت المسلة وحمتها • وقد استغرق نقل المسلة واقامتها مكانها اثنى عشر شهرا واحتفل بتدشينها فى يوم ١٥ سبتمبر ١٨٧٨ •

واشتهرت مسلة لندن باسم « ابرة كليوباترة » وهو

الاسم الذى أطلقه عليها الانجليز اعتقادا منهم بأن كليوباترة قد صنعت مسلتى الاسكندرية لتزين بهما معبد ايزيس ولم تسطو عليها من بين مسلات تحتمس وسسيتى ورمسيس بمعبد هليوبوليس ولم يكتشف ذلك الا بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية وقراءة اسماء أصحاب المسلات على واجهاتها .

● مسلة باريس :

شيدها رمسيس الثانى أمام معبد الاقصر ١٢٨٠ ق.م وقام بنقلها المهندس الفرنسى ليباس عام ١٨٣٦ م .

وقد تم انزال المسلة التى يبلغ وزنها ٢٢٠ طنا من المعبد الى شاطىء النيل على زحافة خشبية ضخمة بحجم المسلة تحملها دعامات خشبية على الجانبين بعد أن تم دك الطريق وتغطيته بالشحم لتسهيل سير الزحافة التى يشبه شكلها شكل الزحافات التى استعملها الفراعنة ووجدت مصورة فى مقابرهم .

كما ذكر ليباس انه استعمل فى كل مراحل نقل المسلة سواء على الارض أو رفعها الى السفن أو نقلها فى النيل نفس الوسائل التى لجأ اليها قدماء المصريين وقد أطلعه أحد علماء الاثار الفرنسيين على وثائقها .

وكان فى انتظار المسلة سفينة ضخمة اسمها (درومادير) تسندا جانبيها مجموعة من العوامات نقلتها من الاسكندرية الى الشاطىء الفرنسى .

وفى فرنسا استعملت الزحافة الفرنسية لنقل المسلة الى مكانها الحالى بميدان الكونكورد فى باريس .

وحتى يتمكن المهندس ليباس من اقامة المسلة وسط

الميدان اضطر الى اقامة قنطرة صاعدة تصل الى مستوى القاعدة التى تم بناؤها وسط الميدان واستعملت رافعة صممت خصيصا لاقامتها بواسطة شدها من قمتها وتثبيت وسطها لتدور حول محور أفقي حتى تصبح فى وضع عمودى فوق القاعدة ·

وقد تم الاحتفال بتدشين المسلة الفرعونية يوم ٢٥ اكتوبر عام ١٨٢٦ م في احتفال كبير رأسه الملك وشاهده مائتا ألف شخص ·

لقد انتقلت الى باريس ثلاث مسلات أخرى قبل مسلة الكونكورد · واحدة تتوسط ميدان الفونتابلو انتقلت مع نابليون أثناءالحملة الفرنسية ·· والثانية فى « فنسان » والثالثة فى « ارل » ونقل جميعها من ناحية الحجم والقيمة التاريخية عن مسلة رمسيس الثانى ·

لقد انتقلت خارج البلاد من مسلات رعمسيس الثانى وحده خلاف مسلة باريس آربع مسلات أخري واحدة منها فى روما وواحدة فى فلورنسا ·

● مسلة نيويورك :

إرادت الولايات المتحدة أن تجارى كلا من انجلترا وفرنسا وايطاليا وتركيا فى تزيين ميادين مدنها الكبرى وعاصمة البلاد بمسلة من المسلات الفرعونية الخالدة · فنقلوا المسلة الثانية من مسلتى ابرتى كليوباترة والتى كانت لا تزال قائمة فى الاسكندرية تطل على البحر ـ نقلوها الى نيويورك عام ١٨٨١ م أى بعد نقل مسلة لندن بثلاث سنوات ·

ونقلت المسلة من موقعها بعد انزالها من على قاعدتها على زحافة كبيرة تتحرك على درافيل خشبية ثم وضعت داخل صندل يجرى على شكل ماسورة معدانية مغلقة لا تصل اليها المياه وتبقي عائمة مهما واجهها من انواء وعواصف أو صادفها من كوارث ـ وقامت بجرها قاطرة بحرية ضخمة عبر المحيط حتي وصلت الى نيويورك على الشاطيء الامريكي وقد استغرقت رحلتها البحرية خمسة أشهر ٠

وفى نيويورك تم رفعها واقامتها على القاعدة التى أعدت لها باستعمال نفس ابراج الرفع والروافع التى استعملت فى لندن بعد عمل الابراج بأكملها من الصلب ٠

هكذا نرى أن ما أقامه فراعنة مصر من المسلات الخالدة فى تاريخ العقيدة والعمارة والفنون ـ اختفت من أرض مصر التى نحتت من صخورها الجرانيتية بفكر وفن وسواعد ـ مبدعيها اختفت من فوق سطح أرضها وأفق سمائها لتنصب كالاعلام فى العالم الجديد لتطل على ربوع القسطنطينية وروما ولندن وباريس ونيويورك وفلورنسا وعشرات البلاد والعواصم الاخرى بينما أرض الالهة وبلاد العقيدة والحضارة التى هاجرت منها تلك الاعلام ـ لا تحتكم على مسلة واحدة من بينها ٠

فمصر موطن المسلات التاريخية الاصلية وصانعيها لا تمتلك الا خمس مسلات تقل أهمية وشهرة وجمالا من تلك المسلات التى تعيش بعيدة عن أرض الحضارة والتاريخ التى نشأت فيها ولها ٠

فتلك المسلات اليتيمة الباقية التى تساقط بعضها ودب الانحلال فيما بقى قائما منها ٠٠ فى حاجة الى من يسرقها لترى النور فيبقى على حياتها أو حياة صفحة مجيدة وخالدة من صفحات تاريخنا التى نطأه بأقدام الاهمال !!

بعد أن أكلت البيضة ..
هــل تقــرأ هــذا ؟!

كل شم نسيم وأنت طيب !

وعيد شم النسيم الذى تحتفل به مصر ويشاركها العالم كله الاحتفال بنفس العيد الذى انتقل من مصر الفرعونية القديمة ـ مهد الحضارات ـ ليحتـل مكانه بين أعيـاد الشعوب الشرقية منها والغـربية • فالاعيـاد هى رمز الحضارة الانسانية ومقياس عراقتها فجميع اعيـادنا هى امتداد مصر القديمة فى مصر المعاصرة بكل ما وصل اليه وظل يصاحبنا عبر الزمان من عادات وتقاليد وطبائع لم يمح معالمها اختلاف العصور ولا تغير العقيدة •

وما من عيد من أعياد العالم المعروفة ســواء عيد رأس السنة أو الاعياد الدينية أو أعياد الرياضة وأعياد النصر حتى عيد شجرة الكريسماس وعيد الام وعيد العلم الا كان لمصر السبق فى ابتكارها والاحتفال بها من الوف السنين قبل ظهور الحضارات الانسانية فى العالم •

● بداية شم النسيم :

كانت أعياد قدماء المصريين ترتبط بالظـواهر الفلكيـة وعلاقتها بالطبيعة ومظاهر الحياة فقد كان احتفالهم بعيد الربيع الذى حددوا موعده بالانقلاب الربيعى ، وهو اليوم الذى يتساوى فيه الليل والنهار وقت حلول الشمس فى

برج الحمل • ويقع فى الخامس والعشرين من شهر فارمنهات الفرعونى (برمهات) وكانوا يعتقدون كما ورد فى بردياتهم المقدسة ان ذلك اليوم هو « أول الزمان أو بدء خلق العالم » كانوا يحددون ذلك اليوم والاحتفال به فى « ليلة الرؤيا » أو لحظة الرؤيا عند الهرم الاكبر التى وصفوها بقولهم « عندما يجلس الاله على عرشه فوق قمة الهرم الاكبر » وهى الساعة السادسة تماما فى ذلك اليوم حين يجتمع الناس فى احتفال رسمى « أمام الواجهة الشمالية للهرم حيث يظهر قرص الشمس قبل الغروب وخلال دقائق معدودة وكأنه يجلس فوق قمة الهرم وتظهر معجزة الرؤيا عندما يشطر شعاع الشمس وظلالها واجهة الهرم الى شطرين •

وأطلق قدماء المصريين على ذلك العيد اسم « عيد شمو» ويعنى بعث الحياة وعلى مر الزمن حرف الاسم الى عيد شم فى العصر القبطى وكان العيد يعلن عن حضوره بنسمة الصباح التى ترسلها السماء الى الارض تحية واعلانا لبدء الربيع وبعث الحياة فى الارض وكان القدماء يطلقون عليها اسم نسمة شم أو نسيم شم ومنها اتخذ العيد اسمه المعروف به الان وهو « شم النسيم » ••

ويرجع بدء احتفال قدماء المصريين بذلك العيد رسميا الى عام ٢٧٠٠ ق • م أى فى بداية الاسرة الرابعة نظرا للاحتفال الرسمى الذى كان يقام عند الهرم الاكبر فى يوم الرؤيا بينما يذكر بعض المؤرخين انه كان معروفا من عصور ما قبل الاسرات حيث كان يعتبر من أعياد مدينة اون القديمة (هليوبوليس) أى عام ٤٠٠٠ ق • م •

ونقل اليهود عن المصريين عيد شم النسيم عندما خرجوا

من مصر فى عهد موسى عليه السلام وقد اتفق خروجهم مع موعد احتفال المصريين بعيدهم • وقد أشـــارت كثير من المراجع التاريخية الى ان اليهود اختاروا يوم شم النسيم بالذات للخروج من مصر حتى لا يلفت انشـغال المصريين بعيدهم النظر اليهم أثناء هروبهم مع ما حملوه معهم •

واحتفل اليهود بالعيد بعد خروجهم ونجاتهم واطلقـوا عليه « عيد الفصح » (والفصح كلمة عبرية معناها الخروج أو العبور) كما اعتبروا ذلك اليوم أو يوم بدء الخلق عند القدماء المصريين بداية لتقويمهم العبرى ورأسا لسـنتهم تيمنا بنجاتهم •

● يوم الاثنين دائما :

وهكذا اتفق عيد الفصـــح العبرى مع عيـــد شـــم المصرى • ثم انتقل عيد الفصح بعد ذلك الى المســيحية لموافقته مصادفة مع موعد قيامة السيد المسيح •

وعندما دخلت المسيحية مصر أصبح عيدهم يلازم عيـد المصريين القدماء ويقع دائما يوم الاثنين ـ أى اليوم التالى لعيد الفصح أو عيد القيامة •

كان قدماء المصريين يحتفلون بعيد شم النسيم كمانحتفل به اليـــوم حيث يبـــدأ فى الليلة الاولى أو ليلـة الرؤيا بالاحتفالات الدينية والاعداد للاحتفال باســـتقبال شروق الشمس فى الطبيعة • ويعتبر عيد شم النسيم بمثـــابة الخلق الجديد للطبيعة فهو العيد الذى تبعث فيه الحيـاة ويتجدد النبات وتنشط الكائنات لتجديد النوع فتزدهر الخضرة وتتفتح الازهار وتزهر البراعم وتهب نسمة الربيع

وهى تحمل رسالة ميلاد الطبيعـــة بما تحملـه من أريج البراعم النامية والزهور المتفتحة . لذلك يخـرج النـاس جماعات الى الحدائق والحقـــول والمتنزهات ليكونوا فى استقبال نور الاله أو الشمس عند شروقها . وقد اعتادوا أن يحملوا معهم أطعمتهم الخاصة بالعيد ويقضوا يومهم فى الاحتفال بالعيد ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها .

وكانوا أيضا يحملون معهم أدوات لعبهم ومعدات لهوهم والات موسيقاهم وتتزين الفتيات عادة بعقـود الياسـمين (زهر الربيع) ويحمل الاطفال والشبان زعف النخيـل المزين بالالوان والزهور فتقـام حفــلات الرقص الزوجى والجماعى على أنغام الناى والقيثار ودقات الدفوف تصاحبها الاغانى والاناشيد الخاصة بعيد الربيع ، كمـا تجـــرى المباريات الرياضية والحفلات التمثيلية فى الهواء الطلـق وينتقل الاحتفال بشم النسيم بعد غروب الشمس الى دور السكن حيث تقام حفلات الاستقبال وتبادل التهنئة .

كان لشم النسيم أطعمته التقليدية المفضلة وما ارتبط بها من عادات وتقاليد أصبحت جزءا لا يتجزأ من الاحتفال بالعيد نفسه والطابع المميز له .

تشمل الاطعمة المميزة لمائدة شم النسيم المصرية القديمة البيض والفسيخ والبصل والخس والملانة ، تمسكت أعياد شعوب العالم بها أو ببعضها ولا يمكـن الاحتفـــال بغير وجودها .

● بيضة شم النسيم :

البيض الملون هو الرمز المميز أو الطعام التقليدى الذى

فرض نفسه ليتصدر موائد أعياد شم النسيم والفصح والربيع فى العالم ٠

بدأ ظهور البيض على مائدة أعياد الربيع مع بداية احتفال الفراعنة بعيد شمو نفسه أو عيد الخلق ، حيث كان البيض يرمز الى خلق الحياة كما ورد فى متون الاهرام وكتاب الموتى التى رمزت للحياة بالبيضة التى نفخ الاله فيها الروح فخرجت الكائنات الحية وكما ورد فى أناشيد اخناتون « الله وحده لا شريك له ٠ خلق الحياة من الجماد فاخرج الكتكوت من البيضة » ٠

كما صورت برديات مصر القديمة الاله بتاح اله الخلق والتكوين هو يخلق الارض على شكل البيضة التى شكلها من الجماد ونفخ فيها الروح فدبت فيها الحياة ـ وهى اللوحة الشهيرة بالمتحف البريطانى التى أثبت بها العلماء ان الفراعنة كانوا أول من اكتشف أن الارض بيضاوية الشكل وليست كروية كما كان معروفا الى وقت قريب ٠

وهكذا ظهر البيض كأحد الشعائر المقدسة التى ترمز الى عيد الخلق أو عيد شم النسيم ٠

أما فكرة نقش البيض وزخرفته فقد ارتبطت بعقيدة قديمة أيضا وهى اعتبارهم ان ليلة العيد بمثابة « ليلة القدر » فكانوا ينقشون على البيض الدعوات والامنيات ويجمعونه فى سلال من زعف النخيل الاخضر ويزينونها بالزهور ويتركونها فى شرفات المنازل ونوافذها أو يعلقونها فى أشجار الحدائق حتى تتلقى بركات نور الاله عند شروقه فيحقق أمنياتهم ويستجيب لدعواتهم ٠ ويبدءون العيد بتبادل التحية والتهانى « بدق البيض » وأكله وهى من العادات التى ما زال أكثرها متوارثا الى الان ٠

وقد انتقلت عادة الاحتفال بعيد الربيع وتقاليدا أكل البيض الى اسيا الصغرى وفلسطين قبل أن ينقلها اليهم اليهود فى احتفالهم بعيد الفصح وذلك مع فتوحات تحتمس الثالث عام ١٤٥٠ ق ٠ م عندما تصادف حلول العيد أثناء وجوده مع جنوده في « مجدو » المشهورة فاحتفلوا بالعيدين في وقت واحد ونقشوا على البيض شكرهم للاله على نصره لهم وأرسلوا بعض البيض الى ذويهم في أرض مصر ٠

كما وجدت في بعض الوثائق القديمة التى وجدت بفلسطين ما يشير الى أن جنود رمسيس الثاني احتفلوا بعيدهم المقدس أو عيد شمو الذى يشاركهم فيه أهل البلاد عام ١٢٥٠ ق ٠ م

أما عادة تلوين البيض بمختلف الالوان وهو التقليد المتبع فى جميع انحاء العالم فقد بدأ فى فلسطين بعد صلب المسيح الذى سبق موسم الاحتفال بالعيد فاظهر المسيحيون رغبتهم في عدم الاحتفال بالعيد حدادا على المسيح وحتى لا يشاركون اليهود أفراحهم ولكن أحد القديسين الذين حملوا تعاليم السيد المسيح أمرهم بان يحتفلوا بالعيد تخليدا لذكراه لانه تصادف مع تاريخ قيامه على أن يصبغوا البيض باللون الاحمر ليذكرهم دائما بدمه الذى سفكه اليهود ٠

وهكذا ظهر بيض شم النسيم مصبوغا باللون الاحمر وكان البعض يزخرفونه بالنقوش الحمراء والسوداء التى تحمل تعاليمه المقدسة والادعية أسوة بنقوش البيض الفرعونية ٠

وانتقلت تلك العادة الى مصر مع زيارة القديسين لمصر قبل انتقالهم منها الى روما حيث بدأ الاقباط بالحفاظ عليها

وتعميمها بجانب ما توارثوه من الرموز والطلاسم والنقوش الفرعونية • ومن مصر انتقل عيد الفصح الى روما وأوربا حاملا معه تقاليده وشعائره ورمزه المميز •• البيض الملون وفي أواخر العصور الوسطى وبدء عصر النهضة فى أوروبا ابتدأت مختلف الالوان تدخل فى تلوين البيض وزخرفته ونقشه وأصبح البيض الملون هو الطابع المميز لاعياد شم النسيم والفصح فى جميع أنحاء العالم •

الكاتب المصرى !!

قدمنا « الكاتب المصرى » الى قراء العربية وقراء الأدب العالمى من خلال أدب قصة على انه المؤلف الحقيقى لأشهر روائع الادب العالمى الخالد ٠ التى سرقها العالم ونسبها الى نفسه ٠

ذلك الكاتب « الجالس القرفصاء » ٠٠ الذى لم نكن نعرف عنه أكثر من انه تمثال من الحجر يحمل رقما بلا اسم ٠

فى كل يوم تكشف البرديات المتناثرة والضائعة بين مخازن المتاحف أو حفريات الاثار أو غياهب المقابر المطمورة فى رمال الصحراء ٠٠ تكشف عن عظمة ذلك الكاتب الصامد فى جلسته خلال سبعة الاف عام أو أكثر ٠

ولد الكاتب المصرى مع مولد الحضارة المصرية فكان أول من سجلها فخلدها أو كما وصفه الكاتب المؤرخ اميل لودفيج انه ولد مع مولد الزمان فشاهد مولد الحضارة ٠٠

مصر هى الحضارة ٠٠ والمصرى القديم هو أول من شق طريقها كانت طبعات اقدامه على ذلك الطريق هى الاثار التى اقتفتها الحضارات الانسانية جميعها فى مختلف عناصر تكوينها من عقيدة ومعرفة وعلوم وفنون ٠٠ واداب

كان المصرى أول من أمسك بالقلم ٠٠ صنعه من عيدان غاب النيل ليسجل افكاره ويكتب تاريخ بلاده أول من اصطنع ورق الكتابة من نبات البردى « بابيور » فاعترف له العالم بفضله فاطلق على الورق بجميع أنواعه وفى جميع اللغات نفس الاسم ٠

كان أول من اخترع حبر الكتابة من عصير نبات النيلة التي نسبها أيضا الى النيل المقدس ٠٠ الذى أمده بالقلم والورق فكان « الكاتب المصرى » أول من كتب ٠٠ وأول من قرا ٠ خط لنفسه ابجدية ٠٠ أول أبجدية في الوجود جمعت بين الفن والعلم والادب ٠ جعل من الكتابة فنا جميلا ومتحررا ٠ رسم كتابته من اليمين الى الشمـــال ٠ ومن الشمال الى اليمين في وضع رأسي أو أفقى كما يمليه عليه احساسه بالفن وبالجمال وترك للعـــالم الذى ولد بعده بالوف السنين ليختار ما يوافق لغته واحســـاسه ، وهو ما ظهر في مختلف لغات العالم القديم والحديث التي رأت النور ٠

كانت ابجديته العتيقة أما ابجدية فردية تتكون من ١٦ حرفا كل صوت ينطق بصوت واحد ٠ وأما ابجدية مزدوجة ينطق رمز بصوتين ٠ وأما ابجدية مثلثة يعبر كل شــكل عن ثلاثة أصوات ٠ ووضع لكتابة ابجديته ثلاثة خطـوط وثلاث لهجات :

- الخـط الهـيروغليفى (هيرو ٠٠ غليفوس) النقش المقدس ٠
- الخط الديموطيقى (النقش الشعبى) ٠
- الخط الهيراطبقى (النقش الكهنوتى) ٠

فسجل بالخط الهيروغليفي افكاره المقدســـة وأسرار المعرفة ومعتقداته وبالخطين الديموطيقى والهيراطيقى كتب احاديثه وأدبه وقصصه واشعاره وأغانيه وأساطيره وشعره وأغانيه ٠

أن صوت الناس يفنى ولكن
صوت الكاتب يعيش أبد الدهر !!

"من برديات قدماء المصريين"

تراث مصر ملىء بالافكار الجميلة والرائعة حول الكلمة وشرف القلم . بل ان المصرى القديم حرص على وضع ميثاق شرف للكاتب المصرى .

ونقدم فى هذا الموضوع صورة من تراثنا عن منزلة الكاتب ووضعه فى المجتمع ونقدم ميثاق الشرف الذى عاش به كل كتاب العالم الكبار الذين يحترمون أنفسهم ويجملون الكلمة التى يكتبونها .

الادب المصرى القديم هو أقدم أنواع الادب . يتميز بأصالته بحكم توغله فى القدم .. كانت شخصيته القوية وطابعه المميز الذى كان انعكاسا لظروف البيئة فى الزمان والمكان . واستجابة مباشرة للعوامل الفكرية والاجتماعية والدينية والتاريخية .. تلك العوامل التى حددت مفاهيمه وألهمت مواضيعه وحددت أساليبه .. فكان انتاجه الخلاق الذى وضع الاساس الذى اهتدى به الادب فى العالم القديم وترك بصماته على الكثير من عناصر الادب العالمى الحديث

فالكاتب المصرى كان أول من أمسك بالقلم فى تاريخ البشرية .. رأى مولد الزمان فسجله .. عاصر أول تجربة لبناء الحضارة فدونها ، فكان أول من كتب التاريخ ، وخلد بقلمه تراثه الفكرى .

بدأ بأدب السماء التى وهبته نعمة الكتابة وأمدته بالحرف والكلمة وعلمته كيف يمسك بالقلم وتدرج منه الى الحكمة وأدب تعاليم العقيدة مرورا بأدب الاساطير وأدب

القصة لشرح الواقع بالخيال ليوقظ أحاسيس المجتمع ويقرب من قلبه .. فكان أول من كتب الشعر وغناه والادب وصنفه والقصة ورواها ..

كان أول من كتبُ للمسرح ليضفي الحياة الى ما يكتبه وأول من ابتداع الادب التصويرى المصور .. فجعل من الادب فنا جميلا ومن فنون كتابته وأساليبها مادة لذلك الفن ..

خاض بفنون أدابه جميع جوانب التجارب الانسانية وفتح آفاقا جديدة للادب .. فكان سخيا فيما قدمه عبر تاريخه الطويل وما خلفه من تراث فكرى خالد ..

كان للكاتب المصرى أو « حامل القلمْ » كما وصفه الفراعنة القدماء مركز ممتاز فى المجتمع .. كانت مهنة الكتابة من المهن المرموقة التى تصل فى بعض مراتبها الى درجة التقديس .. كان لكاتب الادب أو كاتب المعرفة النصيب الاكبر فى ادارة دفة الامور وتصريفها سواء فى قصر فرعون أو دور الحكم أو بيوت العمالة .. كان الوزير الاول يسبق أسمه عادة لقب الكاتب .. فكانت الكتابة ومهنتها حلم الكثيرين حيث تفتح لهم افاقا واسعة ..

بمراجعة تاريخ حياة الكثير من العظماء نجد أنهم بداوا حياتهم بمهنة الكتابة فوصلوا عن طريقها الى مناصب هامة فى الدولة وكثيرا ما كان أبناء فرعون نفسه وخاصة ولى عهده الذى سيرث العرش ، يسعون للحصول على لقب كاتب المعرفة المقدسة التى كانت تسبق ألقابه الملكية المتعددة عند جلوسه على العرش ..

ولعل أكبر مثل لاعتزاز العظماء الكبار المسئولين فى الدولة بلقب الكاتب أن كثيرا من رجال الدولة والفنانين

والمهندسين والاطباء ورؤساء الكهنة والقواد العسكريين كانوا يضيفون الى القابهم لقب الكاتب .. كما خلد البعض أنفسهم بأن نحتوا بعض تماثيلهم على شكل الكاتب الجالس حامل القلم ..

وكانت شواهد الاحوال في الدولة الحديثة تدل على المكانة العظيمة التى وصل اليها الكتاب وحاملو القلم الذين قربهم ملوك الفراعنة الى العرش وعهدوا اليهم بأخطر أعمال شئون الدولة ووصلوا الى أرقى وظائفها وأطلق عليهم لقب « كتاب الفرعون الحقيقيين » وكانت تسجل أسماؤهم في « لوحات الشرف » بالقصر « ولوحات الخلود » بالمعبد ..

وقد ورد في لوحة الخلود في عهد رمسيس الثانى أسماء خمسين كاتبا كان الملك يخلد كل كاتب بصنع تمثال له تنقش عليه ألقابه وأعماله .. ولا يخلو متحف من المتاحف العالمية المشهورة من تمثال أو أكثر من تماثيل الكاتب المصرى ..

ومن أشهر تماثيل « الكاتب المصرى » الذين خلدتهم البلاد في عهد رمسيس الثانى ..

تمثال الكاتب « خاعى » (كاتب الفرعون الحقيقى ومحبوبه) وتمثاله محفوظ بالمتحف المصرى ..

والكاتب « وى نفر » (كاتب الفرعون الاول وحافظ أسراره) ..

والكاتب « باتحسى » (الكاتب الرسمى المشرف على المالية والتموين) وكتب اسم الملك على كتفه كوشاح للتكريم « المتحف البريطانى ٩ » .

« ومن مس كانرا » (كاتب الملك وكاتب الاسرار في مكان الصدق ويحتفظ بتمثاله متحف اللوفر) .

والكاتب « ثيا » كاتب فرعون المحبوب ومعلم جلالته وحافظ أسرار المعرفة (متحف برلين) ..

الكاتب « سا اسـت » (معلم مرنبتاح بن رمسيس .. الناطق بالحكمة) وقد صنع الملك له تمثالا من البازلت كتب على ظهره .. ان من يعتدى على تمثاله أو يصيبه بسوء تنزل عليه لعنة الاله ويحتفظ بتمثاله (متحف فيينا) .

والكاتب « مرى بتاح » كاتب وثائق الملك الصادق الامين محبوب تحوت (اله المعرفة) وماعت (معبود الحق والصدق والعدالة) وقد صنع له فرعون لوحة يظهر فيها الملك وهو راكع أمام الاله وكتب فوقه ..

« انى أقدم التحيات والدعاء لرع لأجل روح الكاتب الامين « مرى بتاح » صادق القول وسيد الاحترام له الحياة الخالدة والفلاح والصحة .. والدعاء لا وزير لاجل روح الكاتب العظيم » .

كما يحتفظ المتحف البريطانى بتمثال الكاتب والشاعر المشهور « بنتاور » الذى نسخ ملحمة رمسيس فى معابده العظيمة .. ومن بين تماثيل كل من الكتاب ريا وكاثا وبن تستاوى وامن ابت وغيرهم .. كما كان من بين وسائل تكريم الكتاب أن يخلع الملك اسمه ليضاف الى أسمائهم كما هو الحال فى أسماء الكتاب رعمسيس نختو ورعمسيس حورا ورعمسيس اثانا ..

لقد تنافس ملوك وحكام الدولة الحديثة فى مختلف وسائل التكريم للكاتب المصرى فاقاموا ما أطلق عليه « عيد المعرفة » وهو ما يشابه « عيد العلم » اليوم فكانت تحفظ أعمال الكتاب المرموقين ضمن مقدسات المعابد وتدرس أعمالهم الادبية فى المدارس وتنشد أشعارهم وتردد

اغانيهم في الحفلات والندوات ويتبارى الرواد والسمار في سرد ملاحمهم الادبية وقصصهم الاسطورية التى كانوا ينسبون فى بعضها أسماء أبطال الروايات الى أسماء الكتاب أنفسهم واحتلت مكانها فى القصص الشعبى الذى توارثته الاجيال كما تحول البعض منها الى تمثيليات تعرض فى المعابد والمسارح الشعبية فى الاعياد ..

● أشرف مهنة !!

ان الكثير من النصوص القديمة تبين مكانة الكاتب فى المجتمع المصري القديم من بينها بردية الحكيم سنب حتب التى يوصى بها ابنه بقوله :

ـ أعد نفسك لتكون كاتبا وحاملا قلم المعرفة .. انها أشرف مهنة واجل وظيفة تليق بك وترفع شأنك وتقربك من الاله فيوم أن تنادى شخصا واحدا يلبى نداءك الف شخص فتعلو بقلمك على رءوس الاخرين ..

ان ما يخطه قلمك سيعيش أبد الدهر ويكون أكثر خلودا مما ينقشه الاخرون على الحجر الصلب لانه سيعيش فى قلوب الناس ورءوسهم فلا تمتد اليه يد العبث أو التخريب .. تعلم كيف تحرك أصابعك القلم وكيف يحرك عقلك أصابعك فلا يخط قلمك الا الحكمة والمعرفة وما ينفع الناس .. اجعل ملف البردى وأدوات الكتابة أصدقاءك ستجد أنهم أوفى الاصدقاء وأخلص الندماء ..

ستزيدك الكتابة بما هو أجمل من ملابس الكتان وعطور اللوتس ان ما يخطه قلمك هو أعظم ميراث لا تعبث به يد الطامعين وأثمن من أرث فى أرض ناحية الشرق أو مقبرة

ناحية الغرب ان الكتابة مهنة مقدسة تقربك الى الاله الذى منحك العقل والقلم وتقربك من فرعون والنـاس فتجعلك حبيبا للجميع ، وقريبا الى قلوب الجميع •• فغذاء العقل الذى تقدمه للناس باق ، أما غذاء البطـون الذى تقدمه يعطيه لهم الغير لا يدوم (برديات شستربتى ـ المتحف البريطانى) •

ومن أقوال دع حتب فى وصف أدب الكتـابة قـوله « الكتابة تجعل الكاتب أسعد من امرأة وضعت طفلافالكتابة كميلاد الطفل الذى يعوض الام أضعافه ما تحملته من الام فى حمله وولادته ، فلا تشعر بأى تعب وهى تقوم لترضعه وتعطى ثديها لفمه كل يوم •

فرح هو قلب الكاتب الذى يزداد شبابا كل يوم •

فرح وهو يسترد أضـعاف ما أعطى •• من حبهم وتعظيمهم له وتقديسهم لاعماله » ••

ومنها بردية الكاتب « امون من » حافظ سجلات فرعون « كن كاتبا » •• حتى يريح عقلك اجهاد جسمك كن كاتبا •• لتصبح سيد نفسك ولا تكن تحت أمرة أسياد كثيرين•

كن كاتبا فتنعم عليك الالهة بحاسة جديدة مقدسة تضاف الى حواسك الخمس •• حاسة تميزك عن الاخرين فترى مالا يراه الاخرون •• وتسمع ما لا يسمعه الاخرون

سترى وتسمع بعقلك وقلبك عالم ما وراء الطبيعة ستتمتع بشهوات عقلك فتسعد قلبك •

ومن كان قلبه سعيدا أسعد الاخرين ••

ومن رسالة الحكيم انى لابنه « فلتكن أمنيتك أن تصبح كاتبا فالكتاب أعطى رزق تسعى اليه » •

وأعظم هبة يهبها الاله لمن يسعى اليه •

الكتاب أعظم قيمة من مسـكن الحيـاة حيث تشرق الشمس ٠

وأبقى خلودا من مقبرة حيث تغرب الشمس
انه أجمل وأمتع من قصر في البستان
أو لوحة دعاء في هيكل معبد الاله
هل بيننا من يضارع زدفرا ؟
هل بينكم من يتساوى مع أمحتب ؟

هل في عصرنا من هو مثل نفرى واختي أو بتاح جوني وكاخبر وهم أعظم العظماء الذين تتطلع اليهم الانظـار وتنخفض أمامهم الرءوس هل بينكم من يقول انه مثل بتاح حتب أو كاترس » ٠

وتستمر الرسالة في سرد أسماء كثير من الادباء وأعلام القلم في مختلف نواحي الادب ٠٠ وجميع تلك الشخصيات التي ورد ذكرها في البردية ليست غريبـة على التـاريخ فزدفرا هو أحد أبناء الملك خوفو وكان أديبـا وشـاعرا ويحمل لقب كاتب من معبد منف وأمحتب مهندس الملك زوسر وكانت القابه تجمع بين الهندسة والطب والكتابة والادب وبتاح حتب عاش في عهـد الملك أسيسي وكان من أعظم كتاب الحكمة في عصره ٠

ويعتبر التاريخ هذه المجموعة أو القائمة من الكتاب في مقدمة الادباء المحترفين وكانت أعمالهم الادبيـة وتخصص كل منهم في ناحية من نواحي الادب موضع تقدير وتعظيم عند قدماء المصريين ابتداء من الاسرات الاولى والعصر العتيق مرورا بالدولة القديمة والدولة الحديثة ٠٠ ويعتبر بعض المؤرخـين تلك البـردية كلوحة من « لوحـات الشرف أو لوحات الخلود » التي كانت تعبر في أعياد الأدب تخليدا ذكرى الكتاب والادباء حتى يستمر حضورهم وحياتهم ٠

● اعفاء من الضرائب !

وفي احدى برديات الاسرة التاسعة عشرة وجد نص ملكى أصدره الملك سيتى الاول باعفاء الكاتب والاديب من الضرائب والجزية ٠

كما وجدت بردية أخرى من عهد رعمسيس الثالث تضيف الى اعفاء الكاتب من الضرائب بأنواعها صرف معاش للكاتب والاديب حتى يتفرغ لعمله ولا تشغله مطالب الحياة عن القيام بعمله المقدس وقد اشتمل النص فى بعضها الى اقطاع أرض مغلة أو مسكن خاص للكاتب كما نص بعضها على تامين تموينه بحصة ثابتة من مخازن الدولة ٠

وينعكس ذلك على النصائح التى يقدمها الحكيم انى لابنه فى احدى برديات بريس بالمتحف البريطانى ونصها: « عليك بالكتابة ٠٠ فالكتابة مهنة مقدسة يا بنى ول وجهك نحو الكتاب ٠٠ ولا توله نحو الحقل فمهنة الكتابة أشرف المهن وأعلاها ، تعلو بصاحبها فينال احترام الجميع

ويتقرب اليه الجميع ٠

فالكاتب فوق كل شىء ومن يتخذ الكتابة صناعة لاتفرض عليه ضرائب ولا يدفع جزية ويؤمن الاله معاشه لا تنس ان قلمك هو سلاحك الذى يحميك من أعدائك فلا تعره لغيرك حتى تفقده أو يستعمل ضدك كن كاتبا ٠٠ فالكتابة ترفع رأسك فوق رءوس الناس وترفع رءوس الناس نحوك بالاحترام والتعظيم » ٠

لقد رفع كثير من الحكماء أمثال بتـــاح حـوتب وانى وسنب حتب وأبيوور مكــانة الكـاتب المصرى وقلمه فى أقوالهم المأثورة وحكمهم الخالدة من بينها :

● ان صوت الناس يفنى ولكن صـوت الكاتب يعيش ابد الدهر .

● القلم سلاحك الذى وهبك الاله اياه وخصك به وميز به مكانتك بين الناس فاحتفظ به نظيفا ولا تعره لعـدوك ولا تدع يدا تحركه غير ضميرك .

● لينطق قلمك بالحق ولا يخط الا الصدق بما يفيد الناس ويرضى الالهة .

● ان من يخرس صوت القلم يخرس صوته الى الابد .

● صوت القلم هو أعلا الاصوات لانه صوت الحق .

● الكتابة حاسة مقدسة يهبهـا الاله للكاتب لترفعـه فوق الناس فيرى ما لا يرون ويسمع ما لا يسمعون .

● ان من يغرق صوت القلم بقوة ساعده سرعان مايغرق هو ويطفو صوت القلم على السطح .

● قلم الكاتب .. طائر يحلق فى الافاق العالية فيرى ما لا يراه الغير ويصدح بما يراه وينقله الى من فى الأرض

● مؤهلات الكاتب وثقافته !

ان لقب الكاتب من الالقاب العلمية التى يحصل عليها حاملها من « بيت الحياة » الملحق بالمعبد ٠٠ وهو بمثابة جامعات العلوم والاداب والفنون فى العصر الحالى ٠٠ وفى تلك الجامعة يدرس الطالب ويتخصص فى مختلف النواحى الادبية واعلا مراتبها المعرفة المقدسة وهو كتاب العقيدة واللاهوت والعلوم الفلسفية التى أطلقوا عليها اسم « أسرار الوجود » ويليهم كتاب الوحى أو الحكماء وهو كتاب تعاليم الحكمة وما ارتبط بها من تدوين التشاريع والوثائق التاريخية ٠

ثم كتاب الأدب الاجتماعى وهم كتاب أدب القصة بانواعها وتدوين الاخبار والاحداث ليتناقلها الشعب ، ثم كتاب الشعر والاغانى وكانوا يجمعون بين الكتابة والعزف على الالات الموسيقية ٠٠ ثم الكتاب العموميون أو الشعبيون الذين يعملون فى الوظائف الحكومية أو فى خدمة الشعب وتقتصر ثقافتهم على القراءة والكتابة وتدوين المستندات ولا تدخل ثقافتهم ضمن المؤهلات الجامعية ٠

لقد عبر قدماء المصريين عن الكاتب وهو يجلس القرفصاء وقد نشر على ساقيه ملفا من ملفات البردى وهو يمسك بطرفه باحدى يديه كى يطوى ما تم كتابته ويمسك بالاخرى أدوات الكتابة من دواة الحبر الأسود والاحمر واقلام البسط (الغاب) وكان الكاتب يظهر عارى الرأس دلالة على انه كاتب عمومى أو شعبى ليقوم بتدوين المراسلات والوثائق والعقود وحساب المحاصيل والمنتجات لعامة الشعب ٠٠

أما الكاتب الرسمي أو الحكومي المؤهل فكان يميز عن الكاتب العمومي أو الرأس .

أما الاديب وكاتب المعـــرفة والحكمـــة فقد رمزوا له بالكاتب الجالس وقد استوى على كتفيه قرد وهو رمز الاله تحوت « اله الحكمة والكتابة والوحى » والذى ذكـر من صفاته انه يبتدع الكلمات ويجلس فـوق رأس الكـاتب لتحميه ويوحى اليه بالافكار التى يســـطرها وفى بعض الامثلة يظهر الاله تحوت على شكل الطائر (أبو منجـل) « أيبس » وهو يقف أمام الكاتب الجـــالس كالمعلم أمام التلميذ ليلقنه « وحى الفكر والكلمة والحكمة » ..

أما الكاتب كاتم الاسرار فرمز له بالكاتب الجالس الذى يخفى جسمه وساقه رداء نقش عليه ما يرمز الى قدســية ما يحافظ عليه من أسرار .

وكاتب المعبد الذى يحتفظ بأسرار الوجـود ومتـــون العقيدة فقد ظهر فى عدة أوضاع منها حامل القلم المقدس على شـــكل صولجان يحمل رأس أحد الالهة التى تحمى المعرفة المقدسة ..

ولما كان الكاتب العبقرى ينسب أعماله من الخلق الادبى الى الوحى فقد نسب كل كاتب ما يوحى اليه بانتمائه الى اله أو معبود خاص من الهة المعرفة المقدسة فنســـبوا الى « تحوت » المعرفة المقدسة والحكمة الخـالدة والى أمحتب بعد تقديسه ورفعه الى مرتبة الالهة ونســـبوا اليه الطب ومجموعة من فنون الادب وكانت المعبودة « حتحور » ربة الحب والجمال هى التى يستمد منها وينسب اليها أدباء قصص الحب وشعراؤه ما ينزل عليهم من وحى وما يقدمونه

من عمل خلاق وينسب كتاب أدب العدالة والتشـاريع انفسهم الى المعبودة « ماعت » الهة الحق والصدق والعدالة وهكذا ..

وكان الكاتب أو الاديب في كل فن من الفنـون وكل ناحية من نواحي الادب يحتفظ فى بيته أو فى محراب عمله بتمثال لالهة الوحي ويقدم لها القرابين عن كل ما يقوم به من عمل خلاق أو انتاج أدبى خـالد ، كما كان يحمـل تميمتها لتحميه وتوحي اليه بالكتـابة أو .. المعـرفة المقدسة ..

رأس السنة عام ٥٥٥٧
قبل الميلاد !!

((التقويم)) هدية كليوباترا الى يوليوس قيصر
الفراعنة علموا العالم تبادل الانخاب
ديك الكريسماس كان أوزة أحمس

اليوم تحتفل مصر بعيد رأس السنة .. وأعياد الميلاد يشاركها العالم أجمع في احتفالاتها بأعيادها .. تلك الاعياد التي أهدتها مصر لجميع شعوب الانسانية ..

في مقدمة أول الاعياد التي عرفتها البشرية والتى أجمعت جميع الشعوب على الاحتفال به هو « عيد رأس السنة » ..

أو العيد الذى عرفت به الشعوب التقويم .. أو حساب الزمن الذى جدد أعمارهم وبه كتبت تاريخها ..

فالتقويم المصرى القديم أو التقويم الشمسى هو أول وأقدم تقويم عرفته البشرية وخرج من « أون » عاصمة مصر الدينية الاولى وساير موكب الحضارة من خمسة وسبعين قرنا من الزمان ..

فشغف شعب مصر بالنيل ـ نهر الحياة ـ دفعه الى رصد موعد فيضانه .. وجد ان أول بشائر المياه السمراء أو فيض الخير الذى يحمله النيل ويجلبه معه من منبعه فى الجنة الى أرض مصر المقدسة . تظهر مع مطلع نجم ثابت معين يبدو ويشرق بوضوح فى سماء معبد أون (هيليوبوليس) فى نفس اللحظة التى تشرق فيها الشمس وهو نجم « سبدت » أو سيروس (الشعرى اليمانية)وهو

اول مجموعة من النجوم المعروفة باسم الكلب الاكبر • وبعد قيامهم بمراقبة ذلك النجم ورصده عدة سنوات توصلوا الى تحديد طول دورته الفلكية أو الدورة الشمسية بدقة متناهية فحددوا طولهاأو طول السنة الشمسية ٣٦٥ يوما وخمس ساعات و ٤٩ دقيقة و ٤٦ ثانية (أى بفارق يوم كل ١٢٨ سنة) •

كانت تلك الدقة فى حساب الزمن من المفاجآت التى أعلنها أحد علماء الفلك الالمان من بضعة سنوات عندما أعلن بالحسابات الفلكية الالكترونية الحديثة صحة تلك النتيجة المذهلة التى توصل اليها المصريون القدماء فى حساب الزمن وعلاقته بدورة الفلك •• أطلق الفراعنة على ذلك التقويم اسم التقويم الكهنوتى ووصف بالتقويم الرباعى أى أن السنة ٣٦٥ يوما وربع تضاف الارباع الى السنة الرابعة لتصبح ٣٦٦ يوما وهو التقويم المعمول به فى العالم أجمع ••

كما كان المصريون القدماء أول من قسم الزمن فقسموا السنة الى ١٢ شهرا والشهر الى ثلاث ديكانات والديكان عشرة أيام واليوم الى ٢٤ ساعة والساعة الى ٦٠ دقيقة والدقيقة الى ٦٠ ثانية •• أنتقلت من مصر الى العالم أجمع فى مختلف العصور •• ولم يجد العالم لها بديلا ••

● تحوت رسول المعرفة !!

كما أطلقوا أسماء على شهور السنة الاثنى عشر وأيام الاسبوع العشرة بل وضعوا أسماء الساعات الليل والنهار نسبوها للالهة الحارسة للزمن •• واكتفى العالم الحديث بأسماء الشهور والايام • نسب الكهنة نزول التقويم الى المعبود تحوت رسول المعرفة المقدسة فأطلقوا على التقويم

الرسمي الذى أعلن على الشعب بالتقويم التحوتى كما ورد في قوائم المؤرخ المصرى القديم « مانيتون » وذلك فى العام الاول من حكم الملك حورعها (الويتسى) ابن الملك مينا مؤسس الاسرة الاولى فبدأت السنة الاولى فى التقويم عام ٥٥٥٧ ق ٠ م وتوافق بداية العام المصرى أى عيد رأس السنة اليوم التاسع عشر من شهر يوليو فى التقويم الميلادى الحالى ٠٠

وهكذا شاهد العالم أول احتفال بعيد رأس السنة من ٧٥٣٩ سنة فى مصر الفرعونية وأقدم مظهر من مظاهر حضارة المجتمع الانسانى ٠

انتقل الاحتفال بالعيد من مصر الى حضارات الشرق خلال الدولتين القديمة والوسطى مع فتوحات الغزو المتبادل وانتقل معه التقويم الشمسى ليحل محل التقويم القمرى الذى كان سائدا عند مختلف الشعوب الاسيوية ٠

كما نقله اليهود عند خروجهم من مصر ليظهر التقويم العبرى الذى بدأوا الاحتفال به بعد خروجهم من مصر وانتقل التقويم الشمسى المصرى عبر البحر الابيض الى أوروبا عندما أهدت كليوباترة التقويم المصرى وحساب الزمن الى يوليوليوس قيصر وكلفت العالم المصرى « سوسيجين » بجامعة الاسكندرية لنقل التقويم المصرى للرومان ليحل محل تقويمهم القمرى وأطلقوا عليه اسم التقويم القيصرى واحتفلت روما رسميا بأول أعياد رأس السنة عام ٤٥ ق ٠ م ٠٠

عملت روما والبلاد الاوروبية التى حولها بالتقويم القيصرى والاحتفال بعيد رأس السنة عدة قرون ثم قام بتعديله البابا جريجورى الثالث عام ١٨٥٢ وهو التقويم العالمى الحالى وهو فى جوهره عمل مصرى صميم أهداه

الفراعنة للعالم كله. ومع انتقال التقويم الشمسى والاحتفال برأس السنة من مصر الى مختلف الشعوب الشرقية والغربية انتقلت معه ما ارتبط بالعيد من عادات وتقاليد وشعائر مصرية قديمة لتحتل مكانها فى أعياد الشعوب ..

اتخذ الاحتفال بالعيد خلال الدولة القديمة مظهرا دينيا فكانت تقاليد الاحتفال تبدأ بنحر الذبائح كقرابين للاله وتوزع لحومها على الفقراء لمشاركتهم فى الاحتفال بالعيد وكان سعف النخيل من أهم النباتات المميزة لعيد رأس السنة حيث كان سعف النخيل الاخضر يعبر عن الحياة المتجددة كما أنه يختلف عن بقية النباتات بأنه يخرج من قلب النخلة ويمتد نحو السماء بما يشبه الاذرع التى ترتفع بالدعاء - فكانوا يتبركون به ويصنعون منه ضفائر الزينة التى يعلقونها على أبواب المنازل كما كانوا يحملون باقات السعف ليضعوه على المقابر فى العيد ويوزعون ثماره الجافة صدقة على أرواح موتاهم - وما زالت تلك العادة من التقاليد الموروثة التى لم يطرأ عليها تغيير حتى يومنا هذا ..

كما كانوا يصنعون من سعف النخيل أنواعا مختلفة من التمائم والملقات التى يحملها الناس فى العيد على صدورهم وحول أعناقهم كرمز لتجديد الحياة مع مطلع العام الجديد وحفظها من العين الشريرة وكان الشباب يحملون سعف النخيل فى رقصاتهم الجنائزية ورقصاتهم الشعبية الجماعية وممارسة بعض أنواع الالعاب الرياضية ومبارياتها الخاصة بالعيد ..

● اعياد عصير العنب !!

ومن أقدم التقاليد التى ظهرت مع الاحتفال بعيد رأس

السنة صناعة الكعك والفطائر التى تفننوا فى صـــناعتها وتزينها وزخرفتها والتى انتقلت بدورها من عيـــد رأس السنة لتلازم مختلف الإعياد التى تميز كل منها بنـــوع خاص من الفطائر ـ ولما كان عيد رأس السنة يتفـق مع أعياد عصير العنب فقد ابتكر المصريون القدماء تقليد شرب الخمر وعصيره الطازج نخب العام الجديد وهو من التقاليد التى نقلها الرومان من مصر فى الاحتفال بأعيادهم وكانوا يستوردون النبيذ المصرى خصيصا فى الاعياد وصـنعوا سفنا خاصة لنقله من الاسكندرية الى روما وانتقلت منها الى مختلف الـدول الاوروبية .. هكـــذا كان المصريون القدماء أول من شرب نخب العام الجديد .. وعلموا العالم تبادل الانخاب فى صحة العام الجديد ..

ومن العادات التى كانت متبعـة وخاصـــة فى الدولة الحديثة الاحتفال بعقد القران مع الاحتفـــال بعيـد رأس السنة حتى تكون بداية العام بداية حياة زوجية سـعيدة وكانوا يعقدونه فى معبدى ايزيس ربة الحب والحنان ومن رب الخصوبة والتناسل تبركا بهما .

كما كانت تقام أعياد ختان الاطفال فى نهاية أيام العيد وبدء العام الجديد ..

ومن التقاليد الانسانية التى ســنها المصريون القدماء خلال الايام المنسية التى تسبق العيد . أن ينسى النـاس خلافاتهم وضغائنهم ومنازعاتهم فتقام مجالس المصـالحات بين العائلات المتخاصمة وتحل كثير من المشاكل بالصـلح الودى والصفح وتناسى الضـغائن وكانت تدخل ضـــمن شرائع العقيدة حيث يطلب الاله من النـاس أن ينســـوا ما بينهم من ضغائن فى عيده المقدس .. عيد رأس السنة

الذى يجب أن يبدأ بالصفاء والاخاء والمودة بين الناس حتى ينالوا رضى الاله وبركته ونعمته من العام الجديد فكان من التقاليد المتبعة أن يتسابق المتخاصمون كل مع اتباعه وأعوانه لزيارة خصمه أو عدوه فيقتسم الضيف مع مضيفه أو الخصم مع عدوه كعكة العيد بين تهليل الاصدقاء وتبادل الانخاب تأكيدا لما يقوله كتابهم المقدس (كتاب الموتى) ان الخير أقوى من الشر والمحبة تطرد العداء وعين الاله تنظر الى مافى قلوبهم وخبايا نفوسهم يوم رأس السنة ..

كما شاهد عيد رأس السنة لاول مرة استعراض الزهور أو كرنفال الزهور الذى ابتدعته كليوباترة ليكون أحد مظاهر الاحتفال بالعيد عندما تصادف الاحتفال بعيد جلوسها على العرش مع عيد رأس السنة ..

تعود الناس مع الاحتفال بالعام الجديد من الاهتمام باستطلاع الغيب وقراءة الطالع والكشف عما يخبئه العام الجديد للافراد والجماعات بل وللعالم أجمع من تنبؤات تملأ صفحات الجرائد والمجلات والمطبوعات ويتسابق العرافون والمنجمون فى اعلانها مع مطلع العام الجديد استنادا الى علوم الفلك والتنجيم حتى أصبح التنجيم وقراءة الطالع أو الغيب جزءا لا يتجزأ من الاحتفال بعيد رأس السنة ..

● عيد الميلاد وشجرة الكريسماس

أسطورة الثالوث المقدس من أقدم الاساطير الفرعونية القديمة التى نشأت مع عقيدة الخلق والتكوين عند قدماء

المصريين ـ هى قصـــة صراع البشرية بين الخير والشر ، طرفا النزاع فيها هما « ست » الذى كان رمزا لاخطـــاء البشرية وشرورها فعبروا به عن الشر والخيـانة والحقـد والحسد • و « أوزوريس » الذى كان علما على الحيـــاة المتجددة ورمزا للخير والعطاء ••

وتروى الاسطورة كيف غدر ست بأخيه أوزوريس الذى كان يبغض فيه جمال وجهه وصـــفاء قلبه ورجاحة عقله وحمله رسالة الخير والمحبة بين البشر والتفاهم حوله •• فمكر به بان دبر مكيدة للقضاء عليه فاتفق مع أعوانه من الهة السوء والشر على أن يقيموا له حفلا تمجيدا لاعمـاله وتكريما لذاته • ثم أعد تابوتا جميلا كسـوته من الذهب الخالص بحجم الاله الشاب وحده • وزعم ست بأنه يقدم هذا التابوت النفيس هدية منه لاى اله من الحاضرين يصلح لان يكون مرقدا يناسبه •

وهكذا جرب كل من الضيوف حظه فى الاســـتلقاء فى التابوت دون جدوى حتى جاء دور « أوزوريس » وما أن رقد فى التابوت حتى أغلق « ست » وأعوانه عليه الغطاء ثم حملوا التابوت وألقوه فى نهر النيل فحملـه تيـــاره الجارف حتى بلغ البحر الابيض المتوسط وهناك تقـاذفته الامواج حتى وصـــل الى الشـــاطىء الفينيقى فى أرض « ليبانو » (لبنان) عند مدينة بيبلوس فنمت على الشاطىء شـــجرة ضخمة وارفة الظلال دائمة الاخضرار احتـــوت التابوت المقدس وحافظت عليه وحمته من عين الرقباء •

كان فى بيبلوس ملكة جميلة هى الالهة « عشتروب » التى خرجت تتريض على الشاطىء فبهرتها تلك الشجرة الجميلة النادرة التى ليس لها مثيـل الا فى أرض وادى النيـــل

فامرت بنقلها الى حديقة قصرها .

أما ايزيس فقد استبدت بها الاحزان فبكت أوزوريس بدمعها المدرار وهي تبحث عنه على طول شاطىء النيل .. وكلما انهمرت الدموع من عينيها سقطت فى مجراه وامتزجت بمائه ففاض وكان الفراعنة ينسبون سبب الفيضان الى دموع ايزيس ..

وبينما كانت تجلس بين سيقان البردى فى مستنقعات الدلتا وقد أنهكها التعب انصتت الى صوت رياح الشمال وهي تهمس فى أذنيها بان الاله أوزوريس ينتظرها على شاطىء بيبلوس الذى حملته عنه رسالته اليها .. ومضت ايزيس الى بيبلوس ودخلت على الملكة عشتروت التى أكرمت وفادتها واتخذتها نديمة وكانت ايزيس كلما أقبل المساء تحول نفسها بقوتها السحرية الى نسر مقدس وتحوم حول الشجرة وتحط بين أغصانها تناجى روح زوجها .. ثم حدثت المعجزة وحملت ايزيس من روح أوزوريس ولم يمسسها بشر . فحملت الطفل « حورس » فى أحشائها ورجعت به الى أرض مصر حيث أخفته بين سيقان البردى فى أحراش الدلتا وكان غذاؤه من الاوز المقدس الذى تحمله رياح الشمال ليحط فى البركة الى أن كبر وحارب الشر وأعوانه وخلص الانسانية من شرور ست فأطلق عليه المصريون لذلك اسم « الاله المخلص » ..

وبعد ولادة حورس عادت ايزيس الى بيبلوس وأرادت عشتروت مكافأتها عندما عرفت أنها ايزيس معبودة المصريين فطلبت منها أن تهديها الشجرة التى يضم جزعها تابوت زوجها . فأهدته اليها عشتروت وأمرت حراسها أن

يحملوا الشجرة الى سفينة أعدتها لها لتحملها هي وشجرتها المقدسة وتبحر بها الى أرض مصر ..

ولما وصلت أرض مصر تحمل شجرتها المقدسة اخرجت الجثة من تابوتها الذي كان يحتفظ به جزء الشجرة ونفخت فيه من أنفاسها فردت اليه الحياة فباركها هي وابنها « حورس » ثم صعد الى السماء ليعتلي العرش ويصير ملكا للعالم الاخر ورئيسا لمحكمة الاخرة ..

وكان حورس الذي ورث عرش مصر من أبيه أوزوريس ثم أورثه ملوك مصر من البشر بعد ذلك واعتبره المصريون رمزا للحرب المقدسة ضد الشر وأعوانه وحاملا لرسالة الاله لنشر عقيدة التوحيد أما ايزيس فقد أطلق عليها المصريون القدماء اسم « نترموت » أي الام المقدسة التي تمنح الحياة وتحمي الناس من الشر . وكان للثالوث المقدس من الحب في نفوس المصريين ما ملأها طوال التاريخ القديم وخلال فترات المحن والاضمحلال بالامل فكان عيد الميلاد .. أو عيد أوزوريس وتمثيل الامة وبعثه من أعز ما يحتفل به المصريون ومن أهم أعيادهم الدينية وسمى بعيد الميلاد نسبة الى ميلاد حورس من روح الاله كما أطلق عليه أيضا اسم عيد شجرة ايزيس نسبة الى الشجرة التي احتفظت بتابوت أوزوريس التي نقلتها ايزيس من بيبلوس الى مصر وزرعتها في غابة مدينة أون بالقرب من المطرية .

وقد وصف بعض مؤرخي المسيحية شجرة ايزيس انها الشجرة التي أخفت السيد المسيح الطفل والسيدة مريم عن أعين جنود هيردوس الذين تتبعوه الى مصر .. وما زالت تلك الشجرة قائمة مكانها بالمطرية الى اليوم ويطلق عليها اسم شجرة العذراء .

وكان يحتفل بعيد الشجرة ابتداء من الدولة القديمة فى اول شهر (كاهى كا) الفرعونى أى روح على روح الذى سمى بهذا الاسم نسبة الى ميلاد حورس من روح الاله وهو رابع أشهر التقويم المصرى حين تنحصر مياه الفيضان فتعود الخضرة الى الارض فتنمو النباتات وتزهر الاشجار التي ترمز الى بعث الحياة وقد أصطلح المصريون القدماء على تهنئة بعضهم البعض بقولهم « سنة خضراء » وهي من الاصطلاحات العامية التى عبرت القرون وما زالت تعيش على شفاهنا ..

وتعود شجرة ايزيس للظهور مرة أخرى فى أعياد ميلاد المسيح وأطلقوا عليها في أوروبا « شجرة الكريسماس » .

ومن التقاليد المرتبطة بالاعياد وما يطلق عليها موائد الاعياد لنحر الذبائح فى عيد راس السنة وديك الكريسماس الذى يتصدر مائدة عيد الميلاد فالذبائح فى اعياد راس السنة هي امتداد لذبائح القرابين أما ديك الكريسماس فهو امتداد أيضا للتقليد الفرعونى القديم .

وهكذا يحتفل العالم اليوم باعياد راس السنة والميلاد ليشارك مصر فى أعيادها التى كان لها الفضل فى احداثها لهم واحتفالهم بها .

انقاذ أبو الهول رغم أنفه !!

● من هو ابو الهول ؟

وأبو الهول ·· تمثال أقامه الملك خفرع (٢٦٧٥ ـ ٢٦٠٠ ق · م) ليتحدى به كهنة عين شمس الذين أشاعوا عن طريق السحرة أن عرش مصر سيجلس عليه حاكم من سلالة الالهة سوف تحمل به سيدة من عين شمس ويولد في المعبد ··

وقد أمر الملك خفرع بطبع تمثال أبو الهول الذي يحمل رأس الملك خفرع نفسه وجسمه على شكل جسم الاسد ويتجه بوجهه نحو مشرق الشمس ومعبد هليوبوليس ليؤكد به الملك للشعب أن منبع الحكمة فى رأسه (يرمز للحكمة بالذقن والعظمة والسمو بالانف) والقوة فى جسده التى عبر عنها بجسم الاسد الرابض ومخالبه المتحفزة ·· والايمان فى قلبه الذى عبر عنه بانظاره التى يوجهها نحو شروق الشمس لتستقبل نور الاله ··

لقد تحققت نبوءة الكهنة ـ أو حققوا نبوءتهم بأن زوجوا خنت كاوس (الملكة نيتوكريس) من « اوسركاف » أحد تلاميذ المعبد الذى تجرى فى دمائه روح الاله ·· وبذلك انتهى حكم الاسرة الرابعة وانتقل من أسرة خوفو الى سلطان المعبد ··

بدا اول اعتداء على أبو الهول بواسـطة عوامل التعرية البشرية عندما ذكر التاريخ ان « أوسركاف » عمل على اهماله ومنع طقوس عبادته حتى غمرته رمال الصحراء بأكمله ولم يبق ظاهرا منه سوى جبهته وعينيه فابتعـد أبو الهول عن مسـيرة التاريخ وأحداثه السـياسية منذ بداية الاسرة الخامسة عام ٢٥٦٠ ق ٠ م ولم يرد ذكره أو يسـترجع مكانته الا فى الاسرة الثامنة عشرة عام ١٤٢٠ ق ٠ م عندما قام تحتمس الرابع بازالة الرمال عن جسمه وأعاد له رونقه وأعاد طلاءه بالوانه الاصلية وأصلح معبده الجنائزى الذى كانت عوامل التعرية البشرية وعواصفها الرملية قد دفنته

وخلد تحتمس الرابع أعماله فى انقاذ أبو الهول منقوشة على اللوحة الجرانيتية التى وضعها بين يدى أبو الهول ٠٠ وبذلك يكون أبو الهول قد حظى بأول محاولة جدية لترميمه وصيانته واعادة اعتباره اليه والتى قاوم بها الزمن ٠

وقد تتابع ملوك الاسرة الثامنة عشرة على العودة الى عبادة الاله حورس واعتبروا أبوالهول رمزا له وأطلقوا عليه اسم (حور ـ أم ـ أختى) أى حورس الساكن فى أفق الشروق ٠

وقد تعرض أبو الهول لحملة أخرى من حملات التخريب فى أواخر الاسرة العشرين عندما قام النزاع على السلطة بين كهنة أمون وكهنة رع وحورس التى عاصرت مختلف أسرات الغزو الاثيوبى والفارسى وهى الحملات التى تعرضت فيها آثار ملوك الرعامسة وتماثيلهم للتخريب وأخذت جميعها طابعا خاصا وهو تحطيم الانف التى ترمز الى السمو والعظمة والذقن التى ترمز الى الحكمة والسيطرة والخلود وهو ما نشاهده فى كثير من تماثيل ملوك ذلك العهد الذين اتخذوا أبو الهول رمزا لهم ومازالت آثار ذلك التخريب الذى

تركز على الانف والذقن ظاهرة فى تماثيل معبد الرماسيوم ومعابد أبو سنبل وتمثالى ممنون •

وهكذا كان أبو الهول ضحية لعملية من تلك العمليات التخريبية اى عوامل التعرية البشرية فامتدت أيدى التخريب لتحطيم أنف أبو الهول وذقنه ووشاح جانبي غطاء الرأس الذى يحمى صدره فاعطت الفرصة لعوامل التعرية الطبيعية لتعبث بصدره العارى وتنهش رقبته المكشوفة •

واذا القينا نظرة على راس أبو الهول حاليا لوجدنا آثار الذقن التى أزيلت أو حطمت واضحة كذلك غطاء الرأس الذى كان يغطى الصدر لازالت اثاره واضحة كما أن الجزء المتبقى من جانبى غطاء الرأس قد تم اسناده بدعائم حجرية لمنعه من السقوط على أحد الجانبين ••

وقد امتدت يد التخريب لتغمره مرة ثانية بالرمال وبقى مكانه الفى سنة أخرى حتى قر له أن تتحرر يداه ويخرج من معتقله على يدى عالمنا الكبير الدكتور سليم حسن عام ١٩٣٦ وكان أول من سجل تاريخه الحقيقى فى عدة مؤلفات • كما كان أول صوت ارتفع عام ١٩٣٨ مطالبا بترميم أبو الهول ومعبده الجنائزى والعمل على صيانته •

● غير صحيح !

ان قصة علاقة ذقن أبو الهول التى يرجع انها تعرضت للكسر مع الله فى نفس الوقت ينفيها بعض الخبراء اعتمادا على أن صور أبوالهول التى أخذت أثناء الحملة الفرنسية بعد أن قام نابليون بزيارة الاهرام وأبو الهول وأطلق مدافعه لتحطيم أنف التمثال لا يوجد بها اى أثر لوجود الذقن ••

لقد شهد التاريخ لنابليون اهتمامه الزائد وشغفه الشديد بآثار الفراعنة حتى انه استدعى علماء اثاره وبعثاته العلمية من فرنسا وكلفهم بتسجيل أثرها وكتابة تاريخها والعمل على الحفاظ عليها وجمعها فى دار للاثار أنشئت لها فكيف يتهم نابليون بانه مسئول عن كسر انف أبو الهول الذى وصف فى مذكراته زيارته لأبى الهول عند وصوله الى أرض مصر للتبرك به أسوة باسلافه من اباطرة الرومان وقوادهم العظماء ٠

ان قصة تحطيم أنف أبو الهول قد ورد ذكرها فيما دونه مؤرخو العرب الذين كتبوا تاريخ مصر قبل الحملة الفرنسية نفسها بعدة قرون فذكر المقريزى « أن صوفيا يدعى صائم الدهر هو الذى حطم أنف أبى الهول لأنه رمز للوثنية ٠٠ وكانت النساء تتبرك به وتتقدم له النذور ويقال ان عاصفة رملية زحفت على الاراضى الزراعية الممتدة من هضبة أبى الهول الى النيل فاتلفت المزروعات واهلكتها ونسب الناس ذلك الى غضب أبى الهول لتشويه أنفه ٠٠ » ٠

كما ذكر البغدادى نفس الواقعة وقال ان ذلك الحادث كان سببا فى اعتقاد العامة فى كرامات أبو الهول كما ذكر أن الذى حطم أنفه أحد مشايخ المغاربة فى عهد الفاطميين عند الكشف على مداخل الهرم الأكبر ٠

ويصف القضاعى الذى شاهد أبو الهول بغير أنف بانه رأس ضخم يبرز من رمال الصحراء حتى عنقه ويعتقد الناس بان له جسما ضخما مدفونا تحت الارض ٠٠ ويطلق عليه المصريون اسم « أبو الهول » وانه يحرس أرض مصر ويحميها من زحف رمال الصحراء ٠

ويحكى الرحالة فانسليب انه سمع أن أحد مشايخ

المغاربة الصوفيين هو الذى حطم تماثيل الاسود التى أقامها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ليزين بها قناطر القاهرة وحدائقها والتى تحاكى رأس أبى الهول الرمز الوثنى الذى كان العامة يعتقدون فى كراماته وخرافاته فقام بعد تحطيمها بتحطيم وجه أبى الهول ..

وهكذا أصبح نابليون بريئا من دم أنف أبى الهول ..

وهكذا فقد شهدوا جميعا بأنأنف أبو الهول كان محطما عندما قاموا بزيارته من عدة قرون قبل حضور نابليون .

والحقيقة الوحيدة التى يمكن استخلاصها ان أنف أبو الهول كان محطما من عصور قديمة ومما لا شك فيه أن الانف تحطمت مع الذقن فى نفس الوقت فى عصور قديمة أسوة بما اتبعه المخربون مع العديد من التماثيل خلال الثورات الدينية والسياسية التى تقف تلك التماثيل فى مصر ومتاحف العالم شاهدة عليها .

فالمسالة ليست مسالة من المسئول عن ضياع أنف أبو الهول أو ذقنه بل المسألة مسالة كيف ننقذ تمثال أبو الهول من العبث غير المسئول بالتغنى بمحاولات انقاذه التى ابعدتنا عن صلب الموضوع .. وهو كيفية انقاذه .. ؟!

● اربعون سنة من الكلام !

لقد أضعنا اربعين عام فى الاستجابة الى ما طالب به الدكتور سليم حسن الذى كشف تمثال أبو الهول وسجل تاريخه وطالب بانقاذه وترميمه وصيانته . أضعنا أربعين عاما فى تشخيص العلة ووصف العلاج الذى قد لا يبدأ قبل موت المريض ..

أضعنا الوقت في المناقشات والاسئلة والكلام والبحث عن المسئول عن كسر أنف أبو الهول أهو نابليون أو صانع الدهر أو بفعل فاعل مجهول علينا أن نبحث عنه ٠٠ ؟!

من المسئول عن تآكل صدر أبو الهول ورقبته أهي عوامل التعرية أم مياه الرشح أو السد العالي أو مجاري نزلة السمان لتحال المسئولة الى القضاء والقدر ٠٠ ؟!

وهل نرد له اعتباره وصحته بعملية ماكيساج أو عملية تجميل وشد جلد وحفلات الرقص والموسيقى والصوت والضوء لتعيد اليه الشباب ٠٠ ؟!

ام سننتظر هذه المرة حتى تسقط الراس ليتأكد المسئولون انها كانت فعلا في حاجة لعلاج لنبدأ بالبحث عن المسئول وتنتهي لجان البحث بقفل المحضر ويكون الفاعل مجهولا وننتظر ليأتي فاعل خير معلوم اسمه « اليونسكو » وخبراته الاجانب لانقاذ مايمكن انقاذه مما تبقى منه ٠٠

وحتى لا يضيع الوقت في دوامة مناقشات اللجان يجب أن نبدأ فورا بانقاذ رأس التمثال من السقوط وفقا للاقتراحات الفنية التي سبق تقديمها وعرضها على المسئولين وعند ذلك يكون أمام اللجان الوقت الكافي لاربعين سنة أخرى لدراسة أحسن الطرق العلمية والفنية والتكنولوجية والاثرية ٠٠ لصيانة أبو الهول ورد الاعتبار اليه تكون صيانته بترميمه وحمايته من عوامل التعرية الطبيعية والبشرية الحالية والمستقبلة ٠٠ أم بالعمل على اعادته الى أصله بعد الرجوع الى المراجع التاريخية وليست هناك صعوبة في الوصول اليها .

من سنوسرت الثالث
إلى قناة السويس !!

قناة السويس .. أول قناة صناعية شقتها يد الانسان على وجه الارض لتربط البحر الابيض بالبحر الاحمر ، فتربط الشرق بالغرب وتربط العالم بمصر مهد الحضارات ومهبط الاديان . فكانت وسيلة انفتاح مصر ومدنيتها على العالم أجمع على مر العصور ..

ان قناة السويس التي حفرها قدماء المصريين أول مرة من أربعة آلاف عام تقريبا تعرضت لمختلف عوامل العدوان والتخريب وأعيد حفرها تسع مرات .

وها هى بعد تحريرها تبدأ مرحلة جديدة من مراحل اعادة حفرها وتعميقها وتوسيعها وتزويدها بمتطلبات العصر الالكتروني الحديث تسجل صفحة جديدة من صفحات صمودها في صراعها مع تحديات الزمن .

سجل تاريخ مصر الفرعوني للملك سنوسرت الثالث أحد ملوك الاسرة الثانية العظام الذى حكم مصر من ١٨٨٧ الى ١٨٥٠ ق . م انه أول من حفر القناة الثلاثية التى تربط البحر الابيض المتوسط (بحر الشمال الاخضر العظيم) بالبحر الاحمر (بحر اروترى) بحفر قناة تصل كل منهما بالبحيرات المرة وربط البحيرات فى نفس الوقت بنهر النيل عند مدينة منف عاصمة البلاد حتى يتمكن أسطوله الحربى وسفنه التجارية من الانتقال من نهر النيل ومدينة منف الى كل من موانى البحرين الابيض والاحمر . بالبحيرات المرة وقد فسر المؤرخون توقف العمل فى حفر

القناة بعدة تفسيرات • فوصف هيرودوت قصة حفر نخاو للقناة بقوله :

« انجب بسماتيك ولدا هو « نيخوس » وهو أول من حفر القناة التي تؤدى الى بحر « اروترى » والتى اتم حفرها من بعده دارا الفارسى ، وطول القناة يساوى مدى ابحار اربعة أيام وقد حفرت عريضة حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنبا الى جنب •

ويؤتى اليها بالماء من النيل منصرفا من مكان فوق مدينة بوباسطس بالقرب من مدينة باتوموس وتنتهى الى بحر أروترى • حفر منها الجزء الذى فى السهل المصرى وهناك يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالى الى البحر الجنوبى •

وتبلغ المسافة من هذا المكان حتى الخليج العربى ألف ستاد أما القناة فهى أطول من ذلك بكثير بقدر ما هى أكثر تعرجا • وقد هلك من المصريين أثنـاء عملهم فيهـا مائة وعشرون ألف عامل وتوقف نيخوس فى منتصـف عملية الحفر لان نبوءة عاقته » •

قناة دارا الاول

يحكى التاريخ ان قمبيز بعد هزيمة جيوشه المعـروفة وخروجهم من مصر قام بتخريب ما قام نخاو بحفـره من قناة السويس حتى لا يهاجم المصريون فلول جيوشه عنـد خروجها الى البحر الاحمر • حتى أتى دارا الاول خليفـة قمبيز على عرش الامبراطورية الفارسية وثانى ملوك الاسرة ٢٧ بمصر (٥٢٢ ـ ٤٨٥ ق • م) فنهج سياسة جـديدة

لمصالحة المصريين على النقيض من سياسة سلفه التعسفية.

فذكر المؤرخ « ديودورس » عمـل دارا العظيم على استمالة نفوس المصريين بحسن معاملتهم واحترام عقائدهم فأقام لآمون معبـدا في واحة الخارجية . وقدر المصريون ذلك ورفعوه الى مراتب ملوكهم من فراعنة الوادى ، ولما لم تتمكن سفنه من الوصول الى مصر من البحر الاحمر فقد أمر باعادة حفر القناة وفتحها للملاحة كما كانت .

فذكر هيرودوت « ان دارا الاول ملك الفرس أتم حفر القناة التي شرع في حفرها نيخوس لتصل بحر الشمال ببحر ارترى الجنوبى ليربط منف بعاصمة الفرس ويرضى المصريين باعادة تعمير قناتهم المقدسة » .

وقام دارا الاول بحفرها عام ١٥٠ ق . م وسـجل تاريخ افتتاحها على لوحات داريوس المشهورة التى وضعت بالقرب من البحيرات المرة وتحمل النص التالى :

« ملك الملوك داريوس الاول ـ انا الفـارسى من بلاد الفرس غزوت مصر واصدرت اوامرى بحفر القناة من نهر يسمى النيل يخترق أرض مصر ويصلها الى البحر الذى يمتد من أرض مصر الى أرض الفرس ولما تم فتح القنـاة أبحر أسطول مكون من ٢٢ سفينة محملة بالتجارة والغنائم لتعبر النيل وتصل الى بحر الجنوب وتدور حول الجزيرة لتصل الى فارس » .

وذكر ديودورس « ان القناة التي كان نيخوس قد شرع في حفرها وضربها قمبيز الفارسى اعاد حفرها واصلاحها الحاكمان الفارسيان داريوس واجزركسيس الا انهـا لم تعمر طويلا وتوقفت الملاحة بها الى أن جاء الاسكندر واعاد حفرها » .

● قناة الاسكندر الاكبر :

دخل الاسكندر الاكبر مصر عام ٣٣٢ ق٠م بعد انهيار امبراطورية الفرس وتقرب الى المصريين باعتناق ديـانتهم ونسب نفسه للاله آمون بمعبد سيوه وتوج ملكا فى معبد الاله بتاح بمنف • واشتهر الاسكندر بمشرعاته الهندسية التى نسبت لنشأته الثقافية العالية •

وقد ذكر مؤرخو اليونان ان من أهم المشروعات التى قام بنفسه بالاشراف على تخطيطها وتصميمها مشروع مدينـة الاسكندرية التى جعلها عاصمة للبلاد والموانى الحـربية لاسطولى البحر الأبيض والاحمر ومشروع اعادة حفر قناة السويس وتوسيعها مع توصيلها بفـرع جديد يمتـد من أبى قير مخترقا الدلتا حتى البحيرات المرة وقد بدأ فعلا فى تنفيذ ذلك المشروع وغيره من بقية مشاريعه ، ولكنها توقفت بعد وفاته خصوصا واذا علمنا أن حكمه فى مصر لم يدم أكثر من سنة واحدة غادرها بعدها ليكمـل فتـوحاته الاسيوية ولم ير مصر بعد ذلك حيث نقلت جثته اليهـا لتدفن في منف وتنقل الى الاسكندرية عاصمة ملكه الجديدة بعد أربعين سنة عندما ظهرت مدينته الى حيز الوجود •

● قناة بطليموس الثانى :

تولى بطليموس الثانى (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق ٠ م) بعـد أن استتب الحكم فى البلاد أيام سلفه بطليمـوس الاول الذى اشتهر بفتوحاته العسكرية ومشروعاته العمرانية ، ولكنه كان مكروها من المصريين كأجنبى مستعمر •

ولذا فقد عمل بطليموس الثاني عندما تولى الحكم على استمالة المصريين باحترام عقائدهم وتشبه بالاسكندر الاكبر في سياسته حتى اعد شجرة للعائلة نسب نفسه فيها للاسكندر المقدوني وليس للاغريق وادعى بأن البطالسة هم الخلفاء الشرعيون لعرش مصر وانهم نسبة الى الاسكندر من سلالة الاله أمون رع •

وتمشيا مع التقاليد المصرية ورغبات الكهنة قام باصلاح المعابد ومنحها الهبات وحبس عليها الاوقاف وقرب العلماء والمثقفين من المصريين الى عرشه واستعان بهم في مشروعاته العمرانية وذكر المؤرخون ان أهم المشاريع التي قام بها فنار الاسكندرية ومكتبتها المشهورة وحفر قناة السويس واقامة منشآتها • وذكر بعض المؤرخين انه قام بحفر القناة المقدسة تنفيذا لوصية جده الاسكندر الاكبر •

وقد بدأ حفر القناة بانشاء ميناء اسطول البحر الاحمر « هيروبوليس » مكان ميناء السويس الحالى ـ كما انشأ مدينة أرسنوس (نسبة الى زوجته الملكة أرسنوس الثانية) وأقام لها معبدا بعد موتها على بحيرة كم اور (بحيرة التمساح) وامتد حفر القناة حتى البحيرات المرة لتصل بفرع النيل الشرقي ثم اعاد حفر الجزء الشمالى الموصل الى البحر الابيض •

واتم حفر القناة بأكملها في سنتين استعان فيها بالاسرى الذين جلبهم والده في حروبه الإسيوية وبالعبيد الذين اتى بهم من الجنوب •

وافتتح بطليموس الثاني بسفينته الخاصة التى ابحر بها من الاسكندرية لتدخل القناة وتعبرها الى بحر اروترى الجنوبي وكان طولها ٢٨٠ ذراعا وبها أربعون صفا من

المجدفين . وعن طريق القناة دخلت الجمال والجاموس الافريقي الى وادى النيل لأول مرة كما جلب الفيلة التى استخدمها مع قواته العسكرية فى الحروب .

● قناة الامبراطور تراجان

رغم ان عهد الامبراطور تراجان الرومانى فى مصر كان عهد قلاقل وثورات الا انه ذكر ان من أهم أعماله فى مصر اعادة حفر القناة التى قام بانشائها ملوك الفراعنة ودارا الفارسى واحتفل بافتتاحها وفتحها للملاحة عام ١١٧ م .

وقد سجل الملك سنوسرت افتتاح القناة الثلاثية فى لوحة منحوتة على الواجهة الخارجية للجدار الشمالى لمعبد الكرنك ـ وعبر الفنان المصرى القديم عن حفر القناة والاحتفال بافتتاحها فى تلك اللوحة أصدق تعبير فرسم فى الجزء الشمالى من القناة الذى يصلها بالبحر الابيض مختلف أنواع الاسماك البحرية المميزة له ، كما رسم فى الجزء الجنوبى منها الذى يصلها بالبحر الاحمر مختلف الاسماك التى اشتهر بها . كما رسم فى الفرع الذى يربطها بالنيل أسماك نهر النيل .

وتمثل اللوحة الملك سنوسرت الثالث وهو يقف بعربته الحربية عند قنطرة الحاجز الترابى الذى يفصل جزءى القناة عند مدينة حور (ثارو) مكان مدينة القنطرة الحالية حيث أقيمت أقواس النصر . وسجل تاريخ افتتاحها فى الشهر الثاني من فصل الفيضان في العام الثاني عشر من حكمه ـ بعد انتصاراته المجيدة على قبائل الشاسو والرنتو .

ان اللوحة تفسر أكثر من حقيقة . فبجانب انها تسجل ما قام به الفراعنة من تخطيط وحفر أول قناة صناعية على وجه الارض ، وأول مشروع متكامل لقناة السويس التى تربط البحرين الابيض والاحمر . فهى تفسر لغزا تضارب المؤرخون فى تفسيره وهو ما يقال عن تسخير الفراعنة لشعب مصر فى بناء الاهرامات وحفر القناة التى ذهب ضحيتها فى كل مرة عشرات الالوف من الضحايا فى أعمال السخرة .

فهذه اللوحة أكدت ما ذكره مانيتون وهيرودوت بأن المصريين كانوا يسخرون أسرى الحروب فى مشروعات حفر القناة والطرق واستصلاح وبناء الاهرامات - فصورت اللوحة الاسرى على اختلاف اجناسهم وهم يساقون لحفر القناة بينما وقف المصريون والكهنة على الضفة الاخرى من القناة يحيون الملك ويحتفلون بافتتاح القناة .

وقد وصف هيرودوت تسخير الاسرى فى حفر القناة بقوله :

« عندما عاد سيزوستريس (سنوسرت) من حروبه فى البلاد الاسيوية استخدم العدد الوفير من الاسرى الذين أحضرهم معه من البلاد التى أخضعها ، وهم الذين جروا الاحجار الضخمة التى نقلت فى عهده الى معبد هيفايستوس وهم الذين سخروا فى حفر القناة فقد كانوا أسرى وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا » .

وقد استمر الاحتفال بحفر قناة السويس كعيد من أعياد سنوسرت المقدسة حتى أواخر الاسرة الثامنة عشرة

لقد لعبت قناة السويس أو قناة سنوسرت دورا هاما فى تاريخ مصر العسكرى وتجارة مصر فى عصرها الذهبى

خلال الاسرة الثانية عشرة في كل من حروب وفتوحات احمس وتحتمس وامنحتب الثاني • كما ورد في وثائق حتشبسوت وسنموت واخناتون وامنحتب الثالث ذكر اسم القناة التي كانت تمر خلالها السفن الحربية في معاركهم وفتوحاتهم المشهورة وسفنهم التجارية الكبيرة التي كانت تنقل أخشاب الارز والاشجار والحيوانات ومواد البناء والبضائع من مختلف بلاد العالم عبر البحرين الابيض والاحمر وتنتقل بها من القناة الى مدينتي منف وطيبة على شواطيء النيل •

ومما هو جدير بالذكر ان أول رسوم فرضت على السفن والبضائع التي تمر بقناة السويس صدر بخصوصها مرسوم يرجع الى أواخر حكم الملك سنوسرت وكانت تحصل عند بوابة ثارو (مدينة القنطرة) للسفن التي تعبر القناة بين البحرين الابيض والاحمر ، وعند البحيرات المرة للسفن التي تدخل البلاد عبر الفرع الثالث لتصل الى نهر النيل • وقد ورد ذكر الرسوم ضمن قوانين الضرائب التي وضعها كل من رمسيس الثاني وامنحتب الثالث •

● قناة سيتي الاول :

تولى سيتي الاول (١٣١٩ ـ ١٣٠٠ ق • م) الحكم بعد وفاة رمسيس الاول وكان يلقب في حياة والده قائد الجيش ورئيس الرماة والمشرف على البلاد الاجنبية والكاتب الملكي المشرف على حصون الحدود فاتبع سياسة حور محب لاعادة سيادة مصر ومجدها الامبراطوري بعد انهيارها في أواخر الاسرة الثامنة عشرة •

واتخذ كلا من تحتمس الثالث وسنوسرت الثالث قادة يقتدى بهم فى سياسته وحروبه واصلاحاته ٠

ولما كانت قناة السويس قد أهملت وتخربت فى نهاية الاسرة الثامنة عشرة ولم تعد تصلح للملاحة البحرية أو انتقال السفن الحربية وانقطع اتصال البحر الابيض بالبحر الاحمر كما ورد فى بعض النصوص القديمة التى ترجع الى عهد رمسيس الاول فقد وجه سيتى الاول قبل أن يبدأ غزواته وفتوحاته المشهورة ، وجه اهتمامه لاعادة فتح القناة للملاحة وازالة الكثبان الرملية والمستنقعات التي كانت تعترض مجراها واعادة اصلاح القلاع التى تحصنها ثم بدأ فتوحاته فكتب له النصر فى حملاته الاربع ومعاركه الاربع والعشرين التى أعاد بها مجد الامبراطورية

وقد ورد فى ورقة انسطاسى الاول التى وصف فيها رحلات سيتى الاول قوله « أقام سيتى الاول قلعة على القناة التى حفرها لتفصل مصر عن الصحراء الشرقية » ورسمت البردية القناة بشاطئيها والاشجار التى زرعت لتحمى ضفتيها من زحف الرمال والعواصف والكثبان التى تردمها ، كما وصفت الورقة حفلات استقبال الملك عند عودته منتصرا من البلاد الاسيوية عند عبور القناة بالقرب من قلعة ثارو وتشبه الى حد بعيد لوحة سنوسرت الثالث بالكرنك ٠

● قناة نخاو الثانى

نخاو الثانى (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق ٠ م) ثانى ملوك الاسرة ٢٦ اشتهر بحملته التى قادها على فلسطين واستولى فيها

على سوريا بأكملها بعد هزيمة ومقتل يوشع ملك اليهود.

ولم تطل سيطرته عليها طويلا حيث هزم في موقعة قرقميش على نهر الفرات على يد بختنصر واضطر الى الانسحاب من سوريا والاهتمام بشئون بلاده الداخلية .
فاتبع سياسة سيتى الاول في اصلاحاته الداخلية فقام باصلاح المعابد تقربا لكهنة آمون الذين نصحوه بعدم المغامرة بحرب قرقميش (نبوءات ميليت) فوجه اهتمامه الى مشروعات الرى وحفر الترع وارسال البعثات التجارية حول أفريقيا وقام بحفر القناة التى تصل البحر الابيض بالبحر الاحمر التى كانت تعرضت للتخريب والاهمال التام خلال عصور الاضمحلال والغزو الاجنبي في العصر المتأخر من الاسرات الثانية والعشرين الى السادسة والعشرين .

وقد أجمع المؤرخون بأن الملك نخاو لم يتم حفرها بل توقف بعد أن أتم الجزء الجنوبى منها الذى يربط البحر الاحمر .

● قناة عمرو بن العاص :

وضع عمرو بن العاص مشروع قناة جديدة تربط مدينة فرما ـ كان موقعها مكان بورسعيد لتصل البحر الابيض بالبحر الاحمر ولكن الخليفة عمر بن الخطاب عارض المشروع خوفا من طغيان البحر الاحمر على أرض مصر واستبدلها بالقناة الرومانية القديمة التى تربط الفسطاط ببحر القزم وهو الاسم القديم لمدينة السويس (كليسما) وكان الغرض منها التبادل التجارى مع البلاد العربية ونقل الحجاج من الفسطاط الى بيت الله الحرام مباشرة .

استخدمت زهاء قرن ونصف الى أن قام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بردمها عندما تمرد عليه أهل المدينة ، حتى لا تستخدم في نقل المؤن اليهم وليمنع التجارة مع أهل الجزيرة العربية .

وقد بقيت القناة مهملة حتى العصر الحديث .

● قناة الخديوى اسماعيل :

ان مشروع قناة السويس الحالية وضعه المهندس الايطالى نيجريللى وعرضه على الحكومة المصرية وبعض الحكومات الاجنبية فوقفت فى سبيله مجموعة من الاعتراضات السياسية والاقتصادية .

ثم تقدم به المهندس الفرنسى ديليسبس مرة أخرى الى سعيد باشا والى مصر وعرض عليه قيام شركته بتنفيذ المشروع الذى قدرت تكاليفه بسبعة ملايين من الجنيهات موزعة على ٤٠٠ سهم وان يجعل لمصر مركزا ممتازا فى الشركة وادارتها وحصولها على ٤٥٪ من اسهمها .

وقد تعثر تنفيذ المشروع فى مواجهة حملات التشكيك التى قامت بها الحكومة البريطانية لدى الباب العالى ومختلف الدول الغربية . وتوقف المشروع بعد أن كان قد تم حفر القناة بعرض ٥٦ مترا وعمق ستة أمتار وبطول ١٦٠ كيلو مترا .

وعندما تولى اسماعيل باشا الحكم عام ١٨٦٢ ووجد أن المشروع وقد وصل الى مرحلة لا يمكن التراجع معها . فبعد أن كان ثورة الحكومة البريطانية والبرلمان الانجليزى مركزة على عدم صلاحية المشروع من النواحى الفنية وانه

سيعود بالخراب الاقتصادى على مصر والشركة الفرنسية والمساهمين الاجانب تحولت الحملة على الشركة لانها تسخر العمال المصريين فى أعمال الحفر وحمل الرمال بدون مقابل وفى ظروف لا انسانية ٠ كما ان الشركة وضعت يدها على أجزاء كبيرة من أرض مصر باسم المشروع فاستغل اسماعيل تنفيذ المشروع ٠

ونص الاتفاق الجديد الذى وقعه مع الامبراطور نابليون الثالث على ما يلى :

أولا ـ منع الشركة من تشغيل العمال المصريين ومن يرغب منهم العمل بالشركة ينال منها الغذاء والكساء والعلاج ويتقاضى أجرا يوميا ثابتا قدره فرنك واحد للبالغين ٠

ثانيا ـ تقوم الشركة باعداد الحفارات والجرارات الميكانيكية والقاطرات ومعدات الحفر (وتعتبر قناة السويس أول قناة حفرت فى العالم بالوسائل الميكانيكية)

ثالثا ـ اعادة الأراضى الزائدة عن حاجة العمل وقدرها ١٥٠ الف فدان الى الحكومة المصرية ٠

وهكذا بدأت أعمال الحفر بعد وصول المعدات الجديدة والآلات والقاطرات والمواعيد يوم ٨ يناير ١٨٦٥ واحتفل رسميا بافتتاح القناة يوم ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ ٠

واستمرت القناة الجديدة تقوم بدورها كشريان ملاحى حيوى يربط الشرق بالغرب خلال مائة عام حتى بدأ العدوان عليها وعلى أرض مصر عام ١٩٦٧ حيث طويت صفحة أخرى من صفحات تاريخ صراعها مع الزمن فتتوقف عن عملها بعد أن يتعرض مجراها للتخريب والمعوقات ٠

وتفتتح صفحة جديدة عام ١٩٧٤ يعـــاد فيها حفـرها وصيانتها وتعميقها واعادة تخطيطها بابعاد جديدة ومقاييس علمية وتكنولوجية جديدة • وافاق وآمال جديدة تتمشى مع احتياجات الامة ومطالب العصر •

لن تكون القناة فى هذه المرة هى الحد الفاصل بين وادى النيل وصحراء سيناء ، بل سيشمل تعميرها امتداد العمار لمنطقة سيناء والضفة الشرقية • ستصبح شريانا حيــويا لمنطقتى شاطئيها كما سيتمشى التخطيــط مع التطــور الحضارى للعصر الحديث ومقومات مشروعات التخطـيط السياحى والصناعى والعمرانى والزراعى •

لن تصبح فى هذه المرة كوسيلة للنقل لتصـــل البحر الابيض بالبحر الاحمر أو عالم الغرب بعالم الشرق • بل وسيلة انفتاح وتبادل حضارى بين مصر والعــــالم أجمع بمختلف اقتصاديات خدماته المتبادلة وربما اتجـه التفكير الى احياء تخطيطها الثلاثى الاول أى باعادة حفـر قنـــاة اتصالها بالنيل • حتى تصل القناة الى القاهرة عاصـــمة الشرق وقلبه النابض •

فهـــــرس

مقدمة ٧
شمشون ودليلة أصلها عملاق جزيرة الشياطين ١٦
اللى كتب الف ليلة كان فى الاصل فرعونى ٢٥
مونت كريستو .. وسر يذاع لأول مرة ٣٣
السندباد البحرى على الطريقة الفرعونية ٣٩
ليلى الفرعونية تعترف لأبيها سنوحى ابن عمى عندنا ٤٦
حكاية الشاطر حسن وست الحسن ٥٨
سندريللا الحلم المستحيل ٦٤
المعقول واللامعقول فى حكاية الزوجة الخائنة ٧٦
اللصان الشقيقان ولعنة الكنز ٨٨
كيف ضحك الفراعنة على المؤرخ هيرودوت ٩٦
التفاصيل الكاملة لتهريب المسلات المصرية ١٠٥
بعد أن أكلت البيضة هل تقرأ هذا ١١٥
الكاتب المصرى ١٢٢
إن صوت الناس يفنى ولكن صوت الكاتب يعيش أبد الدهر ١٢٤
رأس السنة عام ٥٥٥٧ قبل الميلاد................ ١٣٦
إنقاذ أبو الهول رغم أنفه ١٤٦
من سنوسرت الثالث إلى قناة السويس ١٢٥

رقم الايداع : ٤٤٢٢ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٢ - ٣٦٧ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣

13079 - تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا

سوريا ١٨٠٠ ق . س . لبنان ٣٥٠ ليرة ، الاردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، البحرين ١٢٠٠فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٥٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزه والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ١٣ ريالا ، عدن ١٤٤ سنتا ، الصومال ١٣٠ بنيا ، لاجوس ١٢٠ بنيا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

لايعرف التاريخ كاتبا أسوأ حظا من هذا الكاتب المصرى الجالس القرفصاء ، فهو المؤلف الحقيقي والمجهول لأشهر حكايات الدراما الخالدة ، وهو أول من ابتكر تلك « التيمات » الذى ينوع على أنغامها الروائيون على مر العصور . بداية من الاغريق حتى العصر الحديث ..

فمن منا يعرف أن :

سندريللا وعلى بابا ومجنون ليلى وشمشون ودليله والشاطر حسن وحكايات السندباد البحرى وألف ليلة وليلة وحتى الكونت دى مونت كريستو ، كلها خرجت من معطف التراث الفرعونى !

وجد الدكتور سيد كريم هذه الحكايات موزعة فى البرديات الفرعونية فعكف عليها وهو الذى يجيد اللغة الهيروغليفية ، وقدم هذه الدراسة البديعة ، التى تعتبر أول دراسة من نوعها ، والتى تكشف بداية هذه الروائع الدرامية ، وكيف سبق الكاتب المصرى القديم العالم كله ، وكما كان سكان أرض وادى النيل هم أول من عرفوا الضمير ، كانوا أيضا أول من هذب الوجدان عن طريق فن القص ..

إن هذا الكتاب بداية الطريق لدراسة أوسع ومازالت هناك نصوص أكثر تؤكد أن معظم معالم الأدب العالمى الخالد كان كاتبها الأول هو ذلك المصرى الجالس القرفصاء .

والدكتور سيد كريم فى هذا الكتاب يسجل للقارىء بعض النصوص الأصلية .. إنه كتاب ينبغى أن يُقرأ .

٧٥ قرشاً

عباس محمود العقاد



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ - سبعة خطوط

KITAB ALHILAL

العدد ٤٥٢ - ذو الحجة ١٤٠٨ - اغسطس ١٩٨٨

NO . 452 AUGUST 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
محمد أبو طالب

سعد زغلول

زعيم الثورة

بقلم

عباس محمود العقاد

•

دار الهلال

مقدمة

تسير الامم على هدى من غايتها كلما تبينت مواقع خطواتها بين ماضيها وحاضرها ، ويعظم رجاؤها فى النجاح كلما أحست أنها أدركت نصيبا منه في الماضي وانها خليقة أن تدرك نصيبا مثله أو يزيد عليه فى المستقبل ، ومصر لا تكسب شيئا من قول قائل أن جهادها كله عبث وأن زعماءها كلهم عجزة أو مقصرون . فان هذا ظلم للماضى وللمستقبل فى وقت واحد : ظلم للماضى لانه يخالف الواقع الذى تدل عليه المقابلة بين أمسنا ويومنا ، وظلم للمستقبل لانه يثبط عزائم العاملين له ويدخل اليأس على قلوب الآملين فيه ، ومن دواعى التفاؤل أن سجل النهضة المصرية يدل على نجاح أدركناه ونجاح سندركه ، اذا صدقت العزائم واطرد السير على الطريق المستقيم .

فى هذه الصفحات التالية سجل النهضة التى نهضتها مصر على أثر الحرب العالمية الاولى ، ويطيب لنا ونحن نقدمها ان نسأل : أين نحن اليوم وأين كنا ؟ فاذا بالجواب الواقع الذى تقرره شواهد العيان اننا تقدمنا ونرجو أن نتقدم ، وان التسوية بين مصر اليوم ومصر قبل ستين سنة أمنية لا يتمناها لمصر مصرى رشيد ، فان الفارق البعيد بين ماكناه وما صرناه هو المقياس الصادق الذى تقاس به خطواتنا من أمس الى اليوم ، ونتمنى أن تستقيم فى الغد الى مدى أوسع جدا مما أدركناه .

كيف كانت مصر في مستهل الجهاد الذى تسجله هذه الصفحات ؟

كانت الدولة كلها فى قبضة « المندوب السامى » أو قيصر قصر الدوبارة يصرفها كيف شاء ويتولى شئونها الداخلية والخارجية بغير حسيب •• وكان جيشها كله بقيادة « السردار » الانجليزى الذى يثور ويسوق الاساطيل اذا هم باصلاحه أمير أو وزير ، وكانت كل وزارة فى قبضة مستشارها الذى يأمر وينهى ويبرم وينقض بغير ارادة الوزير وبغير علمه فى كثير من الاحيان ، وكان كل اقليم فى قبضة المفتش الانجليزى الذى يختار الموظفين ويرشحهم للترقية أو للعزل من المدير الى العمدة الى الخفير ، وكانت كل محكمة عليا لها قاض من قضاة الانجليز ، وكل محافظة فى عواصم القطر الكبرى لها حكمدار من ضباط الانجليز ، وكان جيش الاحتلال من ورائهم يكظم منافس القاهرة والاسكندرية ويقبض مرتباته من ميزانية الدولة المصرية ، وكانت السياسة الاستعمارية تدير ميدان الاقتصاد المصرى كأنه ديوان من دواوين الحكومة ، فلا مصرف ولا شركة ولا مرفق من مرافق الثروة العامة بيد أحد من المصريين ، وكل ما بيدهم ديون ثقيلة كأنها الاغلال فى أيدى الاسرى والسجناء • وندع الفارق بين التعليم الذى تنفق عليه الدولة والامة أقل من نصف مليون والتعليم الذى تنفقان عليه أكثر من خمسين مليونا ، فان الارقام تغنى فيه عن الكلام •

ذلك مدى النجاح الذى أدركته مصر بنهضتها قبل ستين سنة ، وانها لسعيدة اذا تهيأت لها ستون سنة اخرى بمثل هذا الفارق العظيم بين ما نحن عليه اليوم وما نطمح اليه •

واعتقادنا أن النهضة لم توفق هذا التوفيق الا لانهـــا امتـــازت على تقدمها من النهضات بمزيتين ظاهـــرتين : أولاهما انها كانت نهضة أمة كاملة وجدت زعيمها ولم يكن زعيم رهط محدود أو طبقة بخاصة ، والثانية انهـــا طلبت الاستقلال حيثما وجدت اليه سبيلا ولم تقيده بوسيلة من الوسائل أو نظرية من النظريات .

وقد تغيرت ظروف العالم وفعلت سنة التطور فعلها فى تقدم الامة المصرية ، ومع هـــذا نرجع الى المشروعات التى كانت مقترحة قبل نيف وثلاثين سنة فنرى أنها ســبقت الزمن بشوط بعيد ، فلو نفذ مشروع منها لحقق لنا أمنية الجلاء والغاء الامتيازات قبل سنة ١٩٣٦ .. وهى ســـنة المعاهدة التى أبقت على بعض القيود ولم تحطم جميع تلك القيود ، ولا ينتهى العجب من غيرة الزعيم الشـــيخ سعد زغلول حين يعلم المطلع على هذه الصـــفحات انه لم يقبل مشروعا ناقصة الا وهو على مضض وبعد الرجوع الى مبدأ الاستفتاء والاجماع ، حرصا منه على وحـــدة الوفد ووحدة الامة من ورائه جهد المستطاع .

هذه الوقائع التى تحملها هذه الصفحات خليقة أن تعزز الثقة بما بلغناه والامل فيما سنبلغه بالمثابرة والاســـتقامة الى الغاية ، وقد اخترناها من كتاب « سعد زغلول » وافية على حدة بتجلية الحوادث التي اشتملت عليها ، وتوخينا فى اختيارها أن تنتظم صلة الحاضر بالماضى وأنه تستقيم بها الطريق على هدى التاريخ الصحيح ، ولعلها بهذا الحيز فى سلسلة الهلال أوجز سجل وأجمع ايجاز .

عباس محمود العقاد

سعد فى سطور

● فى أول يونيو سنة ١٨٦٠ ولد سعد زغلول فى قرية « ابيانة » وكان أبوه الشيخ ابراهيم زغلول عميد القرية ، وأمه بنت الشيخ عبده بركات من أسرة عريقة ٠

● ورث سعد من أبويه بنية الفلاح وصلابة الخلق وصدق العزيمة ٠ ولما مات أبوه وهو فى سن السادسة ، عنى بتربيته أخوه الاكبر ٠

● ألحق سعد بمكتب القرية حتى بلغ الحادية عشرة من عمره ، ثم أرسل الى الازهر حيث ثابر على حضور الدروس بين يدى المجددين من أساتذته ٠ وكان يتردد على مجلس جمال الدين فى داره ٠

● حينما استعانت الحكومة بالشيخ محمد عبده فى تحرير « الوقائع المصرية » سعى فى تعيين سعد لتحرير القسم الادبى ، فمكث محررا بها حتى نشبت الثورة العرابية ٠

● اشترك سعد فى الثورة العرابية وناله من أذى الاعتقال بلاء غير يسير ، وخسر وظيفته وبات فى قائمة أنصار عرابى باشا ٠

● اضطر الى احتراف المحاماة وكانت الدولة البريطانية قابضة على ناصية الامور ٠ فنمى الى المسئولين أن سعدا وزميلا له ألفا جماعة سرية باسم « جماعة الانتقام » فاعتقلا وظلا فى الاعتقال بعد الحكم ببراءتهما أكثر من ثلاثة أشهر

● وبعد ثمانى سنوات عرضت عليه وظيفة « نائب قاض » بمحكمة الاستئناف فى سنة ١٨٩٢ ، فقبلها • وبقى فى القضاء ١٤ عاما ثم عين وزيرا للمعارف ، ثم وزيرا للحقانية •

● اعتزل الوزارة وعزم على ترشيح نفسه للجمعية التشريعية ، فنجح فى الدائرتين اللتين رشح نفسه فيهما نجاحا فاق كل تقدير ، واختير وكيلا للجمعية التشريعية ، فكان وكليها المنتخب •

● نشبت الحرب العظمى فى يوليو ١٩١٤ ، وفى ديسمبر أعلنت الحماية البريطانية • ولم تمض أشهر حتى أطلق الانجليز أيديهم فى دواوين الحكومة ، وأمعنوا فى التضييق على أعداء الاحتلال •

● وبعد انتهاء الحرب تألف « الوفد المصرى » للسعى للحرية والاستقلال ، واختير سعد رئيسا للوفد ، فكان قائد النهضة المصرية الباسل ، وزعيمها العظيم ، وقد كافح وناضل ، ونفى فى سبيل بلاده •

● كان أول رئيس لوزارة شعبية بعد الاستقلال • وأول زعيم مصرى ألقى خطبة العرش الاولى حين افتتح الملك فؤاد البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ •

● تولى رياسة مجلس النواب حتى توفى فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وهو فى السابعة والستين من عمره •

القارعة

لابد لنا من قارعة !

تلك هي الكلمة التي كان يرددها سعد في الاسبوعين الاخيرين قبل نفيه ، لانه كان يرى بحق أن السكوت يتبعه سكوت وان الحركة تتبعهـا حركة ، ولم يكن جازما بأن الثورة آتية بعد القارعة التي كان يتصدى لها ويستبطىء وقوعها ، لان المعسكرات والقلاع والمطارات في مصر كانت تعج بالجيوش وتزدحم بالمدافع والدبابات والطيـارات • والمصريون مجردون من كل سلاح حتى الهـراوات والمدى وبنادق الصيد • والخطب ممنوعة والصـحف مراقبة والذهاب والاياب بمرصد من الجواسيس والعيون • فاذا تعذرت الثورة على المصريين فغير عجيب أن تتعـذر ، وغير لزام أن تثور أمة في هذه القيود ، وهي لا ترجو بالثـورة العزلاء أن تغلب الغالبين المزودين بكل سلاح •

لم يكن جازما بأن الثورة آتية ، ولكنه كان جازما بأنها اذا أتت فلن يكون مجيئها الا بقارعة تشعل نيران الغضب في الامة الوادعة المتحفزة • وفي وسعه هو أن يتصـدى للقارعة المرجوة المرهوبة فليتصد اذن لها ، وليعمل ما في وسعه • وعلى المقادير بقية التدبير •

وعندنا أن سعدا لو كان جازما بالثورة جزما لاتردد فيه لكانت بطولته دون هذه البطولة ونصيبه من الاقدام دون هذا النصيب ، لانه يقدم ولا يخشى أن يطول الخطر الذي

يقدم عليه ، ويجازف ويعلم أن غضب الثورة يحميه • فاما أن يقدم وهو لا يبالى أن يستهدف للنكال دون أن يتبعه أحد أو يقفو ضربته ضارب فتلك هي البطولة العليا ، لانها بطولة الواجب ، وهى أعلى وأقوم من بطـــولة الحســاب والتقدير •

ومضى يوم ولم تأت القارعة فاستبطأها ، وكان من عادته أن يخرج من مكتبه ليتمشى في الطرقة لحظة ثم يعود اليه، ففى مساء اليوم التالى لارساله البرقية الى رئيس الوزارة لقى عضوا من أعضاء الوفد في تلك الطرقة فقال له : «ان الجماعة لم يأتوا بعد • أتراهم لا يأتون ؟ » ثم قال : «هذا ليس بنافع • انهم اما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا والا فهم يتركوننا نموت في مواضعنا » •

بيد أن هذا القلــق لم يطــل أكثر من يوم آخر • لان « الجماعة » المنتظرين أتوا في مساء اليوم التــالى أى في اليوم الثانى من شهر أغسطس. فجاء الى بيت الأمة ـ عند الساعة الخامسة ـ ضابط بريطانى برتبة صــــاغ ومعه ضابط آخر برتبة الملازم ومترجم مصرى ، ووقف على جانبى الباب الخارجي جنديان بريطانيان يحمل كل منهما بندقية في طرفها حربة ، وكان طالب من طلاب المدارس العليا قد دخل الى بيت الامة قبل مجيئهم مهرولا فأبلغ الاستاذ فؤاد القصبجي (١) الذى كان يعمل يومئذ في قلم الكتـــــاب والمترجمين الملحق بالوفد المصرى أنه رأى ضابطا بريطانيا يستوقف محمد محمود باشا فيطريقه الى بيت الامة ويركبه سيارة من سيارات الجيش الانجليزى • فخرج الاســتاذ

«١» اعتمدنا على رواية الاستاذ فؤاد في تفصيلات ماحدث ببيت الامة في حضوره

فؤاد ليخبر سعدا بما أبلغه الطالب ، واذا به أمام الضابط البريطانى على باب الحجرة ، فارتد هذا وبادره بالانجليزية « انى أريد مقابلة سعد زغلول باشا فأين هو ؟ » فأجابه الاستاذ فؤاد بالفرنسية : « تفضــــل فانتظر فى حجرة الاستقبال ريثما أخبر الباشا » وأشار الى حجرة الاستقبال فلم يفهم الضابط قوله وظن أن الباشـا فى الحجرة التى أشار اليها ، وعاد يقول : « هل سعد باشـــا هنـــا فى الحجرة ؟ » فقال الاستاذ فؤاد : « لا ، وانما أنا ذاهب لابلاغه » . فنظر اليه الضابط نظرة فاحصة ، وقال له : « بل أنا أريد أن أراه بغير وساطتك » ، فاعتذر الاســـتاذ وهتف فى شىء من الاستغراب : « ان العرف هنا لا يبيح الزائر أن يقدم نفسه بنفسه ! » قال الضـابط متهكما : « فى هذه الزيارة لا بأس من المقابلة والتقـديم فى وقت واحد ! » والتفت الى الاستاذ فؤاد فرآه واضعا يده اليمنى فى جيبه فخيل اليه أنه يخرج منه سلاحا فناداه فى لهجة عسكرية : « ارفع يديك » . وأسرع الضابط الثـانى الى مسدسه يستعد لتجريده .

وكان سعد فى مكتبه قد شعر بما يجـرى على حجـرة الاستقبال فخرج الى باب المكتب ، ولمحه الاســـتاذ فؤاد والضابط هناك فى وقت واحد . فقال الاستاذللضابط : « ها هو سعد باشا » . فتركه الضابط واتجه الى الباشا وهو يحييه التحية العسكرية .

نظر الباشا الى الضابط مليا ثم دعاه الى المكتب ، فرفع قبعته ودخل معه ، ثم خرجا والباشا يتقدمه فى ثبـــاته المعهود الى درج السلم حيث وقف وقال له بالفرنسـية : « لست أذهب معك على قدمى . سأرسل فى احضـــــار

مركبة » فلم يفهم الضابط قصيد الباشا وردد قوله : «لدى أمر بالقبض على سعادتك » قال الباشا وهو يبتسم : « فهمت ذلك جيدا • ولكنى أريد احضار مركبة » ففهم الضابط عند ذلك بشيء من العناء ، وأشار الى حيث تقف السيارة العسكرية بالانتظار • وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الامة « تشجعوا » ••• قالها بالفرنسية وكررها مرات •

ولما هم بالنزول التفت الضابط الى الواقفين الذين تجمعوا فى هذه الفترة وسأل : « أين اسماعيل صدقى باشا ؟ » وكان صدقى باشا مع الواقفين فقال : « أنا هو» فقال الضابط : تفضل بالمجيء معى » فأجابه : « حسنا • ولكن تسمح لى بالرجوع لحظة الى المكتب » فوضع الضابط يده على كتفه وقال : « لا • انى أخشى أن تذهب ! » قال صدقى باشا : « لو كنت أريد الهرب لما أظهرت نفسى » ثم أفلت من يده ومضى الى المكتب • فانتظره الضابط الى أن عاد •• ثم سأل : « أين منزل حمد الباسل باشا ؟ » فلم يجبه أحد ، وبعد هنيهة أشار أحد الواقفين الى المنزل ودل الضابط عليه •

ولم يذكر لي الاستاذ فؤاد قصبجى فيم كانت عودة صدقى باشا الى المكتب تلك اللحظة ، ولكنى علمت بعد ذلك أنه عاد اليه ليقصي بعض الاوراق الهامة مخافة أن تأخذها القيادة العسكرية أثناء التفتيش •

ولما هم الضابط بالانصراف تقدم اليه عبد العزيز فهمى (بك) والاضطراب باد عليه ، وقال بالفرنسية : « اذا أردتم مرة أخرى استدعاء أحد منا فيكفى أن تكتبوا اليه وهو يحضر اليكم » •• واضطر الى أن يكرر عبارته مرة أو

مرتين لان الضابط لم يفهمها لاول مرة · فلما فهمها قال له « أشكرك » ·· ومضى ·

وبعد نحو ساعة حضر الى بيت الامة حمد الباسل باشا وكان قد علم بما حدث فخاطب مركز القيادة العليا بفندق سفواى سائلا : « الى أين تريدونني أن آتيكم ؟ » فأحالوه الى ثكنة قصر النيل ليسألها ·· وطلبت منه هذه الحضور على الاثر · فودع أصحابه وذهب الى الثكنة ·

وقد أدخل سعد وأصحابه فى الثكنة ، كل واحد منهم الى حجرة منفردة حتى المساء · ثم سمح لهم بالاجتماع ساعة العشاء · وقضوا الليلة فى الثكنة يتساءلون عن مصيرهم ، وفى الصباح أبلغهم ضابط كبير أنهم قد سمح لهم باستحضار ثياب من منازلهم تكفيهم لمدة شهر ،وبخادم لكل منهم ، اذا شاء ·

وفى اليوم الثالث سئلوا : « هل أنتم على استعداد للمسير ؟ » فأجابوا : « على أتم استعداد » ونزلوا مع الحراس الى فناء الثكنة فركبوا سيارتين تتبعهما سيارة بضاعة ، تحمل الاتباع والحقائب ·

وخرجت السيارات مسرعة الى محطة العاصمة · فلما نزلوا منها احاط بهم عشرون ضابطا انجليزيا ومعهم محمود صدقى باشا محافظ العاصمة ، وساروا بهم الى الرصيف الذى يقف عليه قطار بور سعيد ، وأدخلوهم جميعا الى ديوان واحد فى القطار ، ومعهم واحد من الضباط

لم يكن سعد وأصحابه يعلمون الوجهة التى يتجهون اليها ، فكانوا عند خروجهم من ثكنة قصر النيل يحسبون أنهم منقولون الى معسكر المعادى ·· فلما اتجهت السيارة يسارا وبلغوا قطار بور سعيد ظنوا أنهم منقولون الى رفح

أو الى السويس ، ثم وصلوا الى بورسعيد ووجدوا هناك ضابطا بريطانيا بالانتظار • فأركبهم معه سيارة الى الميناء وأصعدهم الى نقالة بريطانية تقل ألفين من الجنود الانجليز فى طريقهم الى بلادهم ، وأخذ البحـــارة فى تدريبهم على وسائل النجاة عند الخطر ، لان السفن كانت تصـــطدم بالالغام كثيرا فى بحر الروم •

علموا انهم منقولون الى جزيرة مالطة حيث كانت القيادة العســكرية تأسر المعتقلين من المصريين والترك والالمان ، ولكنهم لم يعلموا ذلك من ضابط النقالة الا بعد الخروج من الميناء • فقيل لهم فى عرض البحر انهم ذاهبون الى تلك الجزيرة ، ووصلوا اليها بعد ثلاثة أيام •

تســـاءل الكثيرون : على أى قاعدة جـرت الحكــومة الانجليزية باختيار أصحاب سعد الثلاثة فى هذا الاعتقال؟ وتعليل ذلك ما نرى أن القيادة العسكرية لاحظت التقاليد الرسمية فى اختيار كبراء الوفد الذين يعتقلون مع رئيسه فاسماعيل صدقى باشا وزير سابق ، ومحمد محمود باشا مدير سابق ، وحمد الباسل باشـــا من غير الموظفين هو رئيس قبيلة بدوية كبيرة يعرفه الانجليز من أيام الحـرب الطرابلسية ، وجميعهم يحملون لقب الباشوية ،فاختيارهم هو الاختيار الوحيد الصحيح من وجهة التقاليد الرسمية•

الثورة

سرى نبأ الاعتقال بطيئا متناقضا فى اليوم الاول ، لان القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره والتلميح اليه فعلم به أعضاء الوفد وأصدقاؤه وموظفوه فى يومه ، وعلم به طلبة المدارس العليا فى اليوم التالى لانهم يجتمعون فى أمكنة متقاربة وينتمى بعضهم الى أعضاء الوفد وأصدقائه بصلة القرابة أو المعرفة ، وتسامعت به أحيـــاء القاهرة شيئا فشيئا ، وانتقل منها الى الاقاليم بمثــل ذلك البطء والتناقض ، فلم يسر الى القطر كله الا بعد يومين أو ثلاثة .

أضرب طلاب المدارس العليا فى صباح اليوم العاشر من شهر مارس عن تلقى الدروس ، وخرجوا من مدارسهم فى مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاج على اعتقال الزعماء وعلى كبت شعور الامة وحرمانها الحق فى ابداء مشيئتها ، وهى تسمع كل يوم دعوة الامم كافة الى بيان حقها وتقرير مصيرها .

وأضرب عمال الترام بعد الظهر ، ثم اضرب الحوذية فى اليوم الحادى عشر ، وأصبحت الدكاكين مغلقة فى معظــم أنحاء المدينة الا الدكاكين الاوربية ، وتجددت المظـاهرات من طلاب المدارس وطلاب الازهر وطوائف شتى من الجمهور فقابلها الجنود البريطانيون باطلاق المدافع الرشـاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ، ولا بين مشترك أو غير مشترك فى المظاهرة .

وكانت نقابة المحـــامين قد أعلنت الاضراب فانقطـع المحامون عن المحاكم الا من كان يوفدهم المجلس اليها لطلب

تأجيل القضايا ، واستثارت القسوة في قمع المظاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلا من أن تقل واضطرمت وقدتها بدلا من أن تخمد . وطاش صواب الحراس العسكريين من جراء هذه المفاجأة فأصبحوا لا يميزون بين جمع وجمع ولا يطيقون النظر الى حشد من الناس ،ففي يوم الجمعة الرابع عشر من شهر مارس أطلقت السيارات المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني فقتلت منهم بضعة عشر وجرحت خلقا كثيرين ، ولم يكونوا في مظاهرة ولا قصدوا الى التظاهر ، ولكنهم كانوا خارجين من المسجدبعد أداء الصلاة ، وضابط الفرقة يجهل كل شيء الا أنهم قوم متجمعون ، وعنده أمر صريح باطلاق النار على كل قوم متجمعين !

وتعددت المظاهرات في مدن القطر فقوبلت بمثل ما قوبلت به في القاهرة ، وسرت أخبار القتل واطلاق الرصاص الى أنحاء الاقاليم ، فانفجر كمين السخط الذي طال كظمه في الصدور ، وانفجرت الثورة في كل مكان .

من الخطأ أن يقال أن المظاهرات كانت هي سبب الثورة الوحيد ، أو ان الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لولا مظاهرات العاصمة ، فانما كانت المظاهرات كالشرر الاول يتطاير من فوهة بركان يغلي وهو يهم بالانفجار ، فمن شهد تلك الثورة الجارفة التي اندفعت في حينها اندفاعا يدل على عمق مكامنها وتأجج وقودها ، أيقن أنها قوة لا تحبس طويلا، وانها هي سبب المظاهرات وليست نتيجةالمظاهرات.

فقد صبر الناس زمنا على مظالم الحرب ومضانكها ، ثم انتظروا الفرج بعد الهدنة فاذا بهم يعالجون مرارة الخيبة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ماأوجسوا من مخاوف

السنوات الماضية ، وزاد فى نكايتهم أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تعلو فيه دعوة الانصاف وتتجاوب فيه الاصداء بالظفر والرجاء ، وأنهم يطلبون أمرا يسيرا هو حق الشكوى والاحتجاج فيجابون بالتهديد والاقصاء عن البلاد ، ثم يستنكرون هذا العنت الغاشم فيعاقبون باطلاق الرصاص ، ولا يراد منهم الا أن يختنقوا وهم صامتون .

فلما شاع خبر اطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وشاعت أخبار الموتى والمعتقلين من الطلاب والشبان العزل المسالمين، طغى الغضب بعد أن طم وظهر بعد أن عم ، وكان ظهوره على نمط واحد فى جميع البلاد بغير تدابير ولا سبق اتفاق ، فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا فى اليوم الثالث عشر من الشهر ، ثم انقطعت فى جهات كثيرة دفعة واحدة ، وتناول التحطيم والتخريب أسلاك التلغراف والتليفون وقضبان السكة الحديد حيثما وصلت اليها أيدى الثائرين .

ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمده الثائرون بتدبير مقصود ، وهو تعويق القطارات المسلحة والفرق الجوالة عن الطواف بالمدن والقرى لجمع السلاح وتفتيش المنازل وايذاء الناس أثناء ذلك التفتيش .. فقد أمعنت السلطة العسكرية فى جمع السلاح من بداءة الحرب حتى جمعت المدى الكبيرة والعصى الغليظة وكل ما يصلح للتسلح به فى عراك أو مشاجرة ، ثم لمحت بوادر الثورة بعد اعتقال الزعماء فعادت الى حملة أخرى من حملات التفتيش ، وأوجس الناس من عواقب هذه الحملة شرا ، فخطر لبعضهم أن يعوقوها بقطع المواصلات .

الا أن الباعث الاكبر الى التحطيم والتخريب كان اندفاعا

جامحا بغير قصد مرسوم : اندفاع الســـاخط يحار فيما يصنع وهو ساخط .. كأنما هو فى هذه الفورة الجامحة صريع مكموم محبوس فى بيت مغلق يريد أن تسمعه الدنيا ولو بتدمير أثاثه واحراق داره . فجاءت عوارض الثـورة متفقة فى كل مكان لان هذه العوارض هى كل ما يستطاع فى تلك الحالة . ولو كان باعث التحطيم العدوان على الملك والنفس ولم يكن مجرد الاحتجاج وابلاغ الصوت الى العالم لاتجه الثائرون الى نهب خزائن الحكومة وأموال الاغنيـاء والمصارف ، وهو ما لم يحدث قط فى بلد من البلدان .

وظل الانجليز مضللين عن فهم شعور هذه الامة يفسرون أعمالها بأسباب المصالح ولا ينظرون الى بواعثها النفسية، كأنما البواعث النفسية عامل لا يحسب له حســـاب فى حركات الجماهير . فظنوا أن أعمال الثائرين لا تتفق هذا الاتفاق الا بتدبير مصطنع ودسيسة أجنبية . وربما طاب لرؤسائهم أن يفهموا ذلك لانهم أبلغوا حكومتهم فى لندن ان الامة هادئة فاترة،وأنها ضعيفة لا يخاف منها انتفاض.

وان أناسا كثيرين ـ ومنهم بعض المصريين ـ ليعجبون اذا عرفوا الآن أن هذه الثورة المفاجئة لم يقع فيها تنظيم ولم تكن فيها رآسة مدبرة على الاطلاق . وأن مظـاهرة الطلبة الاولى وقعت على غير علم سـابق من الوفد بل على خلاف النصيحة التى سمعها الطلبة من بعض أعضائه الذين بقوا فى القاهرة بعد اعتقال سعد وأصحابه الثلاثة .

لكنها هى الحقيقة التى نؤكدها بعـد آســتقرائها من مصادر عديدة . فان الطلبة أصبحوا مضربين فى مدارسهم يوم المظاهرة وهم مختلفون فى الخروج أو البقاء ، ثم خطر لفريق منهم أن الخروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد

عليه رأيا يفكر فيه أو خطة يتوخاها ، فبعثوا الى « بيت الامة » أفرادا منهم يستفسرون ويعودون اليهم بما يقر عليه رأى الاعضاء ، وهناك التقوا بالاستاذ « عبد العزيز فهمى بك ، فأفضوا اليه بقصدهم وأبلغوه هياج الطلبة وتحفزهم للخروج والتظاهر فى أحياء العاصمة ، فثار بهم الاستاذ وانتهرهم انتهارا شديدا وهو يقول لهم ما معناه : « أن المسألة ليست لعب أطفال .. دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا نار الغضب اشتعالا عند القوم » .

فتركوه وهموا بالانصراف متذمرين مغتمين ، واذا بالاستاذين محمود أبى النصر وعبد اللطيف المكباتى يلحقان بهم ليخففا عنهم أثر الكدر الذى خامرهم من تأنيب عبد العزيز بك ، فتلطفا فى التسرية عنهم والنصح لهم بالتزام السكون واجتناب المظاهرات ، وانصرف رسل الطلبة على أن يبلغوا زملاءهم ما سمعوه وهم مترددون بين الاغضاء عنه أو الاصغاء اليه ، ولكن زملاءهم كانوا قد استبطأوهم وتهايجوا بما سمعوا من كلام خطبائهم واستثارة دعاتهم فخرجوا قبل أن يعود اليهم رسلهم بنتيجة سؤالهم ، وتمت المظاهرة الاولى على هذا المنوال .

أما حوادث الاقاليم فقد تمت بغير ايحاء ولا تدبير ، اذ لم يكن للوفد فى ذلك الحين لجان يجوز أن يقال انها اتفقت على تنفيذ خطة مرسومة فى جميع الاقاليم ، ولم يكن خبر السكة التى قطعت بين طنطا وتلا قد شاع فى القطر حتى يقال انه جاء فى طليعة الحوادث بمثابة الايحاء والقدوة على عمد أو على غير عمد ، وانما نجمت الثورة من بديهة الامة كلها لانها كانت كلها على اتفاق فى الغضب المكظوم والتأفف الذى بلغ مداه .

ولقد أخطأت السلطة العسكرية فى كل تدبير فكانت تستفز الناس بكل عمل تقصد به الى البطش والارهاب ، وتدفعهم الى نقيض ما تريد من الخوف والطاعة ، وتثير النفوس الى التحدى والمعاندة بدلا من الاذعان والسكينة .

بالغت في قمع المظاهرات فزادت المظاهرات ، وأنذرت كل من يقطع المواصلات « بالاعدام رميا بالرصاص بمقتضى الاحكام العرفية » فكان جواب هذا الانذار اضراب عمال السكة الحديدية فى اليوم التالى وخروجهم من مصانعهم متظاهرين ، ثم اندفع الناس الى قطع القضبان وأسلاك التلغراف والتليفون غير مكترثين للعاقبة ،فانعزلت القاهرة والمدن الكبرى من جميع الجوانب ، واضطرت السلطة الى استخدام الجنود الانجليز لتسيير القطر وتنظيم المواصلات وبعد أن كانت تتوعد القرى التى تنقطع السكة على مقربة منها بالغرامة عادت الى نشر انذار تقول فيه أن كل حادث جديد من حوادث التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التى هى أقرب من سواها من مكان التدمير » ... واستدعى القائد العام بعض الوزراء والسروات فى اليوم العشرين وحذرهم من دفع السلطة الى « تدمير العمائر وتخريب القصور » وطلب اليهم أن يبذلوا جهدهم فى النصح للشعب بالهدوء والاقلاع عن « المشاغبات » .

كل ذلك والثورة تتفاقم ، والجماهير تقدم وتقدم ، ومنهم من أغاروا فى بعض البلدان على مراكز الشرطة فانتزعوا ما فيها من السلاح ،فاستخدمت السلطة الطيارات والبواخر النيلية لايصال المدد الى الجهات المعزولة ، وحدثت أثناء ذلك مناوشات قتل فيها خلق كثير .

على أن الثورة لم تكن فورة غضب بغير معنى كما أراد

أعداؤها والناقمون منها أن يتخيلوها ، فلو كانت كذلك لما ظهر فيها ما قد ظهر من نفحات النخوة القومية والاريحية الانسانية التى ترتفع اليها الشعوب كما يرتفع اليها الافراد فى ساعات السمو والاشراق والفداء • فان هذه النفحات لا تظهر فى سورات الغضب الحيوانى حين ينطلق على غير هدى وفى غير مطلب ، ولكنها تظهر حين تكون الثورة اعرابا عن شعور مكتوم ونزعة مشبوبة الى الكمال • وقد كانت الثورة المصرية كذلك فغلب فيها الروح القومى على كل عصبية وكل علاقة وكل فارق مشى فيها علماء الازهر يحملون بساط الرحمة فى تشييع جنازات الشهداء ، ويرفعون الاعلام وعليها شارة الهلال والصليب ، وقام القساوسة فى المساجد يخطبون المسلمون ويؤدون مايؤدى لها من الشعائر الدينية ، وخرج العقائل والاوانس من الخدور يسابقن الرجال والشبان الى المهالك والاخطار ويستهدفن للجند مسلحين متأهبين كانهم في ميدان قتال وغلبت فرائض الحمية الوطنية على كل فريضة وكل تقليد، فكان الضباط يسيرون الى جانب القضاة والمحامين وطلاب المدرسة الحربية يسيرون الى جانب الطلاب فى كل مدرسة وكانوا جميعا ينسادون باسم مصر ولا يذكرون الا أنهم مصريون •

وتجلت بسالة التضحية على مثال رائع نبيل كانبل ما سطرت تواريخ الجهاد والفداء في وثبات الامم • فمات أناس يحملون العلم أنفا من الفرار أمام نيران المدافع وهم عزل من السلاح ، ويرى اخوانهم مصرعهم فيبادرون الى رفع العلم ليستقبلوا مصرعا كمصرعهم طائعين متنافسين ، فى لحظة يطيقون فيهما رؤية الجثث المطروحة لقى ولا يطيقون رؤية العلم ملقى على التراب •

وقد أحاطت بالمصريين في تلك الايام موغرات كثيرة من فتك وارهاب وخشونة واستفزاز ، في بعضها ما يشفع للناس لو طغت بهم مرارة النقمة وجمحت بهم لواعج الضغينة . لكنهم مع هذا لم يقترفوا سقطة واحدة تشين صاحبها في غضبة أو رضاه ، ولم ينسوا أدب المروءة في أشد أوقات الهياج والاضطراب . فلم يعتد أحد قط على طفل أو على شيخ عاجز أو على امرأة ، وشهد اللورد اللنبي للثورة المصرية بهذا الادب في الكتاب الابيض حيث قال بعد ثلاث سنوات : « كانت سيدة انجليزية مستقلة مركبة مفتوحة فهاجمها الرعاع وقذفوها بالحجارة يوم الجمعة في حي بولاق ، وقد نجت من الاذى البليغ بأن اتخذت من مظلتها مخبأ فمزقت الاحجار المظلة ، وهذه أول مرة اعتدى فيها على امرأة في كل السنوات الثلاث الماضية » ... ولو ثبتت هذه الحادثة كل الثبوت لما كانت شيئا يذكر لانها لن تكون الا الندرة التي تؤكد القاعدة ولا تنفيها ، ولكن التحقيق لم يثبت بوجه من الوجوه أن السيدة كانت مقصودة بالاعتداء والاساءة .. والا فما الذي كان يحمي سيدة منفردة لا تحمل معها الا المظلة من عدوان العشرات والمئات الذين يقصدونها بالايذاء ؟ ان انفراد هذا الحادث في جميع سنوات الثورة لحقيق وحده بالجزم بنفيه لا بمجرد التشكيك فيه ، وقد سبقته الحوادث الكثيرة المشهورة في اعنف أيام الهياج فكان الثائرون يتورعون فيها جميعا على المساس بالسيدات والاطفال ، ومنها حادثة « بهيج » المشهورة على الحدود الغربية التي شهدت فيها صحف الاستعمار بترفع الثوار المصريين على هذه السقطات المرذولة ، وليست صحف الاستعمار بالتي تبرىء أمة ثائرة على المستعمرين ، وفي وسعها أن تلفق عليها التهم وتزور عليها العيوب .

لقد حدث أن أفرادا من الارمن أطلقوا الرصـــاص على المتظاهرين من نوافذ المنازل فلم يكن جزاء الثائرين لهم الا بمقدار ما يقتضيه دفع العدوان ومنع تكراره ، وحدث أن الغوغاء فى أثناء المظاهرات قذفوا زجاج الدكاكين بالحجارة • فحسب بعض الاجانب أنهم مقصودون بالسخط والعداوة والحقيقة أن القاء الحجـارة على تلك الدكاكين لم يكن عن شعور العصبية أو العداوة للامم الاجنبيـــة ، وانما كان استنكارا لفتحها فى أيام الاضراب ، واحساسا من الغوغاء بأن أصحابها يجبهون شعور الامة ويســـتخفون بمطالبها ويترفعون عن مجاملتها • فأصابوا دكاكين المصريين التى اتفق فتحها فى تلك الآونة كما أصابوا دكاكين الاجانب • ورجحت كفة الاجانب فى الخسارة لان متاجرهم أكثر عددا فى الاحياء الافرنجية التى تطوف فيها المظـاهرات • ومع هذا لم ينس الطلبة أن يعتذروا الى « الضيوف » من عمل الغوغاء فى بيان نشروه فى الصحف العربية والافرنجية ، وعلقوه على وجهات الدكاكين ووعدوا باتقاء تكـــراره فى المستقبل •

ولم يجد المســـتعمرون فى الواقع حادثا يســـتغلونه للتشهير والتشويه غير حادث ديروط أو دير مواس الذى قتل فيه ثلاثة من الضباط وخمسة من صف الضـــباط الانجليز ،وهو حادث على جسامته لا يذكر الى جانب الفظائع التى نزلت بالمصريين أثناء حملات التأديب والتفتيش ••• ومنها فظائع العزيزية والبدرشين والشبانات التى نترك تفصيلها الى غير هذا المقام • وسنضرب عنها صفحا فى هذا الكتاب • ولا نذكر من فضائع قمع الثورة الا مثلا صغيرا يغنى بالدلالة عن الشرح والاسهاب ، وهذه خلاصته بعـد التجاوز والتطليف •

في أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ نقلت الينا الانباء البرقية من لندن أن جنديا انجليزيا سيق الى المحاكمة لاتهامه بقتل عشيقته ، فكان من المحاســـن التى تشفع بها الى المحكمة واعتقد أنه يستحق بها العفو والرحمة أن قال بغير سؤال ولا مناسبة أنه كان صولا بالجيش البريطاني بمصر سنة الثورة فقتل ثلاثة من المصريين ،وأنه بعد بضعة أسابيع كاد صديق له أن يقتل فقتل هو مصريا آخر ، ثم عمل في شركة للسيارات رئيسا للمهندسين وعمل في خدمة أمير مصرى أربع سنوات ، وقد لخص القاضى الدعوى فقـال : « انه مهما يكن ما فعل تأفني ـ اسم الرجل ـ فان رؤساءه يومئذ لم يعدو ما فعله جريمة » .

فهذا جندى من قامعى الثورة يفاخر بما جنى بعد الثورة بخمس عشرة سنة ! وبعد أن أكل خبزه من خير أمير مصرى أربع سنوات ! وهو واحد من عشرات الالوف لا يســألون عمن قتلوا ولا يحتاجون اذا سئلوا الى عذر أكثر من ادعاء الخطر والدفاع عن الحياة ، وكل من لديه ذرة من التصور وذرة من الانصاف ليعلم بعد ذلك أن الفظـائع التى نزلت بالمصريين أثناء ثورتهم أكبر وأهول بما لا يقاس من فظيعة الاعتداء على فئة من الضباط والجنود كلهم مسلحون ، ولا يتكاثر عليهم الجمهور الاعزل من السلاح .

وندع فظائع الثورة جانبا ونسأل : لم كل هذا ؟ أكانت هذه الزوبعة الدامية ضرورة لا محيد عنها ؟ أكانت حادثا لا يمكن اتقاؤه ؟ كلا ! لم تكن ضرورة ولا مصلحة . وكان ميسورا أن تجتنب اجتنابا وأن يحقن كل ما سال فيها من دماء ويصان كل ما خرب فيها من عمار وضـــاع فيها من أموال لولا الاخطاء المتلاحقة التى ارتطمت فيها الســياسة

الاستعمارية ، لقلة اكترائها للعواقب ، والقاء اعتمادها كله على العدد الحربية وأنها تضمن لها قمع الامم الضعاف اذا ضاقت الصدور عن الاحتمال •

فهي أخطأت في البداءة باعلان الحماية واغتصاب أرزاق المصريين وأدوات معيشتهم في ابان الحرب العظمى • وكان في مقدورها أن تتقي كل ذلك بأن ترد الى المصريين استقلالهم وتكل اليهم أن يدبروا بأنفسهم مايعنيهم من أمر المعاونة في الحرب بما يطيقون •فان لم يوافقها ذلك فماذا كان يمنعها أن تعلن الاستقلال وترجيء النظر في تفصيل قواعده الى ما بعد الفراغ من القتال ؟

ثم أخطأت بحرمان زعماء المصريين ابداء مطالبهم والبحث في مستقبلهم ، مع أنهم لم يقصروا في المجاملة ولم يبدر منهم وهم يخاطبون رجالها هنا أو في انجلترا أثر من التحدي والاعنات •

ثم وقعت الازمة الوزارية التي لابد من وقوعها فألقت على الزعماء تبعتها وألقي الزعماء التبعة عليها • ولم يكن رد الزعماء من قبيل التراشق بالتهم والمجاوبة على الادعاء بمثله ، ولكنه كان هو الحقيقة بعينها في نظر المنصفين الواقفين على الحيدة لا في نظر الوفد المصري وحده •••
فالمسئول عن الازمة الوزارية وعن صعوبة تأليف الوزارة المصرية هو السياسة الاستعمارية أو هو كما قال الوفد « أولئك الذين وضعوا من هم أهل للوزارة في مركز حرج أمام ضمائرهم وأمام مواطنيهم » •

والا فماذا يقول الوزير المصري لابناء وطنه اذا فرضنا أنه أراد فعلا أن يخدم السياسة الاستعمارية ولا يحفل بمصير وطنه ؟ أيقول لهم اني خائن لا أبالي بغير الوصول

الى المنصب ؟ أم يقول لهم اننى اتولى المنصب لاحول بينكم وبين المطالبة بالاستقلال أو السفر الى حيث تشتركون فى تقرير مصيركم ؟ وهل يستطيع أن يقـــول لهم ذلك في الوقت الذى ينادى فيه ساسة الانجليز أنم لا يمنعون أمة متقدمة أو متخلفة أن تشترك في تقرير مصيرها ؟ ٠

فاحجام الساسة المصريين عن قبول الوزارة حتى لا حيلة لاحد فيه ، اذ ليس يوجد فى مصر ولا فى غير مصر مرشح للوزارة يشترى المنصب بهذه الخيانة الصريحة ولو كان مدخول الضمير ٠ لانها خيانة سمجة مبتذلة لا تستر فيها ولا مغالطة ولا عذر لمن يشاء أن ينتحل الاعذار ، ما دامت الامة تطلب حقها والوزارة التى أذعنت للحماية قد تحركت للبحث فيها والعالم كله ينادى بحقوق الشعوب وتقرير المصير ٠ ففى هذا العمل لو أقدم عليه المرشـــح للوزارة قضاء حياته السياسية ان لم يكن فيه قضاء على الحياة.

لكن القيادة العسكرية شاءت مع هذا أن تلقى التبعة على الوفد فى هذا الموقف الذى لا حيلة فيه للوفد ولا لاحد من المصريين ٠ فأخطأت خطأها الغاشم واعتقلت رؤساءه جزاء على السيئة التى أساءتها هى ولم يسيئوها ٠ ثم أخطأت بعد هذه السلسلة من الاخطاء فى بطشـــها الدموى بمن غضبوا لذلك العسف المبين عزلا من السلاح ، ومن نادوا بما كان ينادى به أقطاب الحلفاء فى مؤتمر السلام ، ولعلها لو فسحت لهم جو بلادهم ينادون فيه بما يشـــــاءون لما خرجت الثورة من طور الدعوة الى طور التخريب والتحطيم.

وأكبر أخطاء السياسة الاستعمارية جميعـــا ، بل هو الخطأ الذى يطوى فيه جميع الاخطاء ـ أنها أســاءت تقدير الشعور الذى كان يسور ويثور فى نفوس المصريين قاطبة

على تفاوت الطبقات والمشارب ، فليس فى وسع انسان سياسى أو غير سياسى أن يجهل هذه الامور كلها كما يجهلها نائب المندوب البريطانى ـ السير ميلن شيتهام ـ قبل الثورة بأقل من ثلاثة أسابيع ٠٠ فانه كتب الى حكومته فى الرابع والعشرين من فبراير يقول : « ان الوزيرين رشدى وعدلى فقدا الشهرة الموقوتة التى عادت عليهما من الاستقالة ، وان زغلولا لا يثق به أحد ، وأن هناك قلقا يسيرا بين أفراد الطبقة العليا الذين يطمعون في تعظيم مكانتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتية ، ولكن الحالة لا تختلف فى لبابها عن الحالة التى طرأت فى سنة ١٩١٤ عندما رفض الامير حسين وكبار الوزراء طويلا أن يقبلوا الحماية ما لم تكن مشفوعة ببعض المنح التى لم تكن على استعداد لاعطائها ، وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتي تضارع حركة مصطفى كامل أو بالتى يصح أن تؤثر فى قرارات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل الدستورية والواضع الذى توضع فيه الحماية»٠

ولما بدت طلائع الثورة لم يجد هذا السياسى النادر ما يدارى به غفلته وعجزه عن سبر غور الحرية الوطنية الا أن يعزوها الى أسباب أجنبية غير وطنية ٠٠ فأبرق فى التاسع من مارس يقول «ان الحركة معادية لبريطانيا معادية للعرش معادية للاجانب ، وفيها نزعات بلشفية نتيجة الى تخريب الاسلاك والمواصلات ، وهى منظمة مدبرة ولابد أن تكون مأجورة » ٠

وأذاعت الحكومة البريطانية مذكرتها عن الثورة بعد ذلك بشهر فجاء فيها « ان هناك شواهد تثبت أن الخطة مدبرة منظمة باحكام » ٠٠ ومما يستحق الملاحظة أن الخطة

التى نفذت تشابه البرنامج الذى رســمه الالمان والترك للغارة على مصر فى خريف سنة ١٩١٤ وهو البرنامج الذى أفضي به الى السلطات المصرية الجاســوس الالمانى مورس المقبوض عليه في الاسكندرية ‥ واذا حسبنا كل حساب للحالة العقلية أو لدواعي التذمر الناشئة بين الفــلاحين المشار اليها آنفا فكل هذا لا يكفى لتعليل هــذا الانفجار الخطير المنظم الذى تلوح فيه أصبع تركيا الفتاة كما قد تلوح فيه أصبع الالمان » ٠

أى والله ‥ ثورة تشمل اربعة عشر مليــونا يدبرها الترك والالمان فى الخارج أو فى الداخل ولا تعثر فيهــا الســلطات الانجليزية بدليل واحد على هذا التدبير غير التنجيم والتخمين ! وان الانسان لا يدرى أيضحك أم يحزن من هذا التفكير العجيب الذى يعلل ثورة مصرية تنفجر فى شهر مارس بأنها دسيسة أجنبية دبرتها حكومات منهارة مضى على هزيمة رؤسائها وتفرقهم في البلاد وانقطاع الصلة بينهم وبين أتباعهم عدة شهور ‥ وادعى من هذا الى الحيرة بين الحزن والسخر أن تكون الثورة من صــنع الطبقات العليا ومن صنع البلشفية في وقت واحد !

ولا نظن أن الغفلة وحدها هى سر هــذه التعــديلات المضحكة المبكية التى تعلقت بها السياسة الاستعمارية فى تلك الفترة ، ولكنها رأت وكلاءها قد وقعوا فى الجهــل الذى لا رجعة فيه فاستغلت جهلهم أحسن اســتغلال فى استطاعتها ، لانها وجدت لها فائدة من تشــويه الحركة المصرية بنسبتها الى جواسيس الترك والالمان ، ووجدت أنها قد تحول بهذا التشويه بين الدعاة المصريين ومسامع

الحلفاء والامة الانجليزية • فمزجت بين الغفلة والذكاء هذا المزيج الجديد بأساليب الاستعمار !

ولقد ظل القوم يتخبطون فى فهم الحركة وسبر اغوارها حتى بعد عمومها وانتشارها ، وطفقت الحوادث تتلقاهم مرة بعد مرة بتكذيب ظنونهم وتقديراتهم فلا تنجاب الغشاوة عن أبصارهم • ومن ذلك اعتقادهم بعد شبوب الثورة فى البلاد أنها ضرب من الشغب الذى يفرقون فيه بين طائفة من الامة وطائفة أخرى كما كانوا يصنعون فى العهد السابق تارة بين الباشوات ولابسى الجلاليب الزرقاء ، وتارة بين طلاب الوظائف وأصحاب المصالح الحقيقية وتارة بين المسلمين والمسيحيين •• فالقى اللورد كرزون بعد انفجار الثورة بنحو أسبوعين بيانا يثنى فيه على الموظفين المصريين لانهم ثابروا على أعمالهم فى ابان الهياج الذى غمر البلاد ، ويقول فيه أنهم صفوة المتعلمين من المصريين « فمسلكهم هذا يدل على أن عقلاء الامة لم يشتركوا فى الحركة الاخيرة» فكان جواب هذاالثناء المزرى أن أجمع الموظفون فى الدواوين كلها على الاضراب ثلاثة أيام اعلانا للتآزر بينهم وبين طبقات الامة فى المطالب الوطنية ، وكتبوا عرائضهم بهذا المعنى الى صاحب العظمة السلطان ، وأبلغوها الحكومة الانجليزية •

لم تنقطع هذه الاخطاء ولا جرائرها ، أيام الثورة ولا بعدها ، ولم يقع منها الضرر على أحد غير المظلومين فيها • ومن ذا الذى يحاسب الاقوياء حين يخطئون مع الضعفاء •

وهكذا يليق الخطأ ويليق التمادى فيه بالاقوياء لانهم فى غنى عن حسبان العواقب ! • ويستأثر الضعفاء بسوء العاقبة وان جهدوا فى اجتناب الاخطاء • لانهم ضعفاء !

سفر الوفد
إلى باريس

جلس سعد وأصحابه الثــــلاثة فى طريقهم الى المنفى يتساءلون ، وأول سؤال طبيعى يخطر لهم وهم مفـارقون البلاد هو السؤال عما عسى أن يجرى فيها بعد أقصـائهم عنها : هل تسمع بالخبر ؟ وهل تملك أسباب الثورة ؟ وهل تقوى القيادة العسكرية كظم النفوس طويلا بعد هــذه الضربة ؟ فأما سعد فكان رأيه أن الثورة عمل شاق على بلد أعزل مرهق بالاعباء مشحون بالجند والسلاح والارصاد . ولكنها اذا كانت واقعة فشعور الناس بالاختناق والتماسهم المنفس للجهر بالامهم المكبوتة كاف لانفجارها والاستيئاس فيها .

وقريب من هذا رأى اسماعيل صـــــدقى الى نزعة من شكوك الرجل الحديث .

أما حمد الباسل ومحمد محمود فقد كان رأيهما الرأى الطبيعى لزعيم قبيلة بدوية وصاحب عصبية فى الصعيد . فآخر شيء يطيب لزعيم القبيلة أن يفكــر فيه أن قبيلتــه لا تثور لاجله ولا تأخذ بثأره ، وكذلك صاحب العصبية فى الصعيد ، فاتفقا على ترجيح الثورة وان لم يتفقا على النتيجة .

ويظهر أنهم ــ سواء منهم من رجح الثورة العاجلة ومن لم يجزم بوقوعها العاجل ــ قد وطنوا النفس على البقـاء زمنا ليس بالقصير فى جزيرة مالطة ، ولم يخطــر لهم أن الافراج عنهم قريب . فبحث سعد عن منزل يســتأجره

وفكر فى استدعاء السيدة الجليلة قرينته الى الجزيرة ، لحاجته الى العناية الصـــحية التى لا يجدها هناك فى غير المنزل برعاية الزوجة الرءوم ، ولم يفكر صحبه الآخرون فى ذلك لانهم شبان أصحاء بالقياس اليه ·

وصلوا الى مالطة بعد أن قضوا فى النقالة ثلاثة أيام · وقد كان سعد متعبا من مشقة الانتقـال والدوار · وكان بين الشاطىء ومعتقل « بلفورستا » الذى اختـــاره حاكم الجزيرة لهم مسيرة نصف ساعة على القدم ، فبحثـــوا عن مركبات فى جوار الميناء فلم يجدوا الا مركبة صغيرة يجرها حصان واحد · ركبها سعد وسار رفاقه وراءه على الاقدام، ووصلوا الى المعتقل فوجدوا أن السلطة العسكرية قد أعدت لكل منهم حجرة للنوم واخرى للاستقبال ، وثالثة للمائدة ومكانا للحمام ·

وأراد سعد أن يكون أول عمل له فى منفاه اسـتئنافا لعمله فى القاهرة ، وتحديا للنفى والارهاب ، واستمرارا فى المطالبة بالاستقلال وانكار الحماية · فلم يكد يستريح من عناء سفره حتى كتب الرسالة البرقية الآتية الى رئيس الوزارة الانجليزية يكرر فيها المطالب التى جاء من أجلهـا الى هذه الجزيرة ·

« ان شرف الممالك يقدر بمقدار احترام ساستها ورجالها للمعاهدات السياسية التى يبرمونها والتصريحات الرسمية التى يفوه بها رجال تلك الحكومة الرسميون · ولما كانت انجلترا فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ قد ضمنت استقلال مصر · كما أقسمت الملكة فكتوريا والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢ أن الاحتلال لن يكون الا وقتيا وأعلن جلادستون عام ١٨٨٧ أن أوان الجلاء عن مصر قد آن · ولما كنتم جنابكم

الرئيس الممثل لحكومة جلالة ملك بريطانيا والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الامة الانجليزية الحرة فانى أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التى أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسرا لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادى النيل ، احتراما للمعاهدات والتصريحات التى ذكرناها وصيانة لشرف أمة أنت على رأس حكومتها ، وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر أن سياسة العنف والارهاق التى اتبعت معنا لا تزيدنا نحن المصريين كافة الا تمسكا بمطالبنا ، وثباتا فى موقفنا ، وانه خير لانجلترا أن تكون لمصر صديقة ، وهناك نستطيع أن نقطع على أنفسنا عهدا بأن نصون مصالحكم ونروج تجارتكم فى بلادنا » .

ولا شك أن آخر ما انتظرته الحكومة البريطانية ـ وهى تنفى زعيم مصر الى جزيرة مالطة عقابا له على طلب استقلالها أن لا تفيد من ذلك الا أن تصبح الجزيرة ميدانا آخر من ميادين المطالبة بذلك الاستقلال !

نزلوا فى المعتقل معزولين عن بقية الاسرى على خلاف السنة التى كانت متبعة فيه قبل وصولهم ، ولم يؤذن لهم بالخروج للرياضة فى الخلاء الا مرتين كل اسبوع بعد التوقيع على حلف كتابى يقسمون فيه بالشرف أن لا يهربوا ولا يساعدوا أحدا على الهرب ولا يعطوا أحدا نقودا ولا يعملوا شيئا فيه ايذاء لجنود جلالة الملك .. وبعد كل هذا لم تكن السلطة الانجليزية تسلمهم من مالهم الا بمقدار ما يلزمهم أول فأول لضرورة المعيشة ، وكانوا قد برحوا مصر وليس معهم من النقد الا قليل ، فأرسلوا ـ بوساطة السلطة ـ يطلبون مالا من ذويهم فى مصر ، فجاءهم خمسمائة جنيه لكل من سعد وحمد الباسل ومحمد محمود ،

ومائة جنيه لاسماعيل صدقي ، فأودعتها السلطة مصرف الجزيرة وأباحت لهم أن يشتروا ما يشـــاءون بتحويلات يقبضها البائع من المصرف ، ورخصت لهم في استخدام طاه ألماني وابقاء النور الكهربائي الى ما قبـــل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعـاون على تعلم اللغات التي يحسنها بعضهم ولا يحسنها الآخرون .

ولم يسمعوا شيئا عن مصر ولا عن ثورتها الا حين زارهم اللورد مثوين حاكم الجزيرة وهو يقول لهم عرضا :«أشعلتم النار في مصر وجئتم الى هنا ! » . فعلمـــوا أن في مصر أحداثا خطيرة ، وأدركوا أنها الثورة حين استطاع طاهيهم الالماني أن يدس اليهم بعض القصـــاصات من صـــحيفة التيمس ، عرفوا منها قبسا من مظـــاهرات الطلبة وثورة البدو في الفيوم ، ولكنهم لم يسمعوا بما يدلهم على مداها وتفصيلات وقائعها .

وبعد شهر في مالطة جاءهم النبأ بالافراج عنهم والسماح لزملائهم في القاهرة بالسفر الى حيث يشـــاءون ، وانهم مأذون لهم في السفر على الباخرة « كاليدونيا » التي تقل أولئك الزملاء ، وستصل الى الجزيرة صباح يوم الثلاثاء الموافق لنصف ابريل .

فكان لذلك النبأ في نفوسهم وقع عظيم ، لانه بشرهم بالحرية التي طالما تمنوها للسعي في قضية بلادهم ،وأثبت لهم أنهم يسعون في قضية تستحق عناءها ولا تخيب رجاء الساعين فيها .

فتفاءلوا بالافراج عنهم خيرا ، وفرحوا بمـــا أولاهم من الثقة وتأكيد العزيمة أضعاف فرحهم بالطلاقة من الاعتقال، وباتوا على شوق الى صباح يوم الثلاثاء لينعموا بلقاء أولئك

الزملاء الذين فارقوهم ولا يعلم منهم أحد متى يكون اللقاء وليسمعوا منهم تفصيل الحوادث التى لمحوا بصيصا منها فى شذرات الصحف الانجليزية ، وهى لا تصل اليهم الا بعد لأى فى خلسة من الرقباء .

ثم اذنت السلطة لهم بزيارة الاسرى من أبناء وطنهم ومن الترك والالمان،فلبوا دعوة المصريين المعتقلين بالمعسكرات الاخرى ، فاستقبلهم الاسرى الاجانب معجبين ،واستقبلهم الاسرى المصريون فخورين،وكان بعض القادة الترك يقولون لاصدقائهم المصريين : « اعتبرونا منكم فقد احببنا بلادكم واحببنا زعماءكم » ورحب بهم الامير هوهنزلرن ابن عم غليوم ، ورفع لهم بعض الالمان راية بيضاء مكتوبا عليها بالمداد الاحمر تاريخ « ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ » وهو تاريخ جلاء الجنود الانجليز عن مصر عندما طمعوا فى احتلالها للمرة الاولى ،وكان الاسرى الالمان قد أقاموا معرضا فنيا لمصنوعاتهم التى استطاعوا أن يصنعوها بما لديهم من الادوات القليلة تزجية لاوقات الفراغ ، فقدم أحدهم الى سعد تمثالا عسكريا بالعدة الحربية الكاملة للامبراطور غليوم ،مصنوعا من الورق المقصدر الذى تغلف به صناديق التبغ الصغيرة ، فحياه سعد وقال له : « انه لتمثال عظيم يمثل عظيما » . ثم قال : « ولكننا لا نملك عدة الحروب، وانما نحن أمة سلام » .

وقد رست الباخرة « كاليدونيا » فى ميناء مالطة ضحى يوم الثلاثاء ، وعليها أعضاء الوفد القادمون من القاهرة وهم حسب ترتيب الحروف الهجائية : أحمد لطفى السيد بك، وجورج خياط بك ، والدكتور حافظ عفيفى ، وحسين واصف باشا ، وسينوت حنا بك ، وعبد العزيز فهمى بك

وعبد اللطيف المكباتي افندى ، وعلى شعراوى باشا ، ومحمد على بك ، ومحمود أبو النصر بك . ومصطفى النحاس بك ، ومعهم مكتب الوفد وفيه كتابه ومترجموه ، ومنهم الاستاذ ويصا واصف الذى انتخب عضوا فى الوفد بعد وصولهم الى باريس .

ولما رست الباخرة على الميناء انتظر الاعضاء فيها قدوم اخوانهم المعتقلين فطال الانتظار ، واستحسن بعضهم النزول الى الجزيرة للقائهم فوجدوا الخدم قد سبقوا سعدوأصحابه الى الشاطىء بالحقائب ومؤنة السفر ، وما هى الا هنيهة حتى اقبل سعد وأصحابه الثلاثة يمشى معهم ضابط انجليزى وضابط من اهل الجزيرة لم يفارقهم الا عند صعودهم الى السفينة ، فكان للقاء الزعيم وأصحابه مشهد رائع لا ينساه من رآه ، وامتزجت فى لقائهم معانى شتى من الشوق والايناس ، وشعور الظفر والثقة والامل فى النجاح .

أما كيف تحولت السلطة البريطانية فى مصر من الحجر الشديد الى السماح للوفد بالسفر حيث شاء ، فخلاصة القول فيه انه تحول ضرورى قضت به الثورة فلم يسع السلطة الا أن تنقاد لحكمه فى النهاية ، لانها عجزت عن تيسير الامور بأيديها ، وعجزت عن تاليف وزارة وطنية تقبل الحكم والوفد محبوس عن السفر ، فلم تجد بدا من اطلاق سبيل الوفد عسى أن تفرج شيئا من حرج الموقف وتمحو شيئا من الحفيظة التى أفعمت قلوب المصريين وزادتها الفظائع فى ابان الثورة ألما على الم .

وقد أدركت القيادة العسكرية من اللحظة الاولى أنها اخطات التقدير ، والتهمت باعتقال الزعماء الى عكس ماتريد

لان اعتقالهم لم يردع السيل المتجمع وراء السدود ، وانما جاءه بمدد جارف أطلقه ودفع به شوطا وراء شوط ،ورسم للمصريين طريق المقاومة ، فمن شاء منهم أن يرجع فلا حيلة له في الرجوع ، ومن خطر له أن يتردد فليس أمامهموضع للتردد . وان أول من دعا الى الثبات والمثابرة لهم أول من أصيب باعتقال الزعماء ومن هدد بهذا الاعتقال ، وأول من ظن بهم أنهم يتقهقرون ويوجلون : قرينة سعد وخلفاؤه المتروكون فى القاهرة !

فالسيدةالجليلة قرينته لم تضيع لحظةواحدة في الحزن والجزع الذى لا يفيد .. عادت من زيارة احدى شقيقاتها حيث كانت ساعة الاعتقال فما هو الا أن علمت بما حدث أثناء غيابها حتى كان أول ما خطر لها ان أرسلت الى شعراوى باشا تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه فى غياب سعد كما كان في حضوره وترجوه وزملاءه أن يقبلوا دعوتها الى العشاء فى ذلك المساء ، وأن يعقدوا جلستهم الاولى فى مكان انعقادها المألوف ، لكى لا يطرأ على سير الدعوة أقل تغيير بعد ذلك الحادث الذى أريد به القضاء عليها . فقرر الاعضاء ان يلبوا رجاءها وأن يشكروها عليه ، واعتذروا من حضور العشاء لاشتغالهم باعداد الاحتجاج الذى يقابلون به اعتقال الزعيم ، واتخاذ الخطة التى تلائم الموقف الجديد .

ولم يكن شعور الاعضاء بعد الاعتقال شعور فزع وارتداع كما قدرت السلطة البريطانية ، بل كان شعور استياء لاعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة فى الخطر والاثر ، وشعور رغبة فى افهام السلطة البريطانية خطأها وتحديها واستفزازها باتيان العمل نفسه الذى من أجله

اعتقلت سعد وأصحابه • فكتب شعراوى باشا احتجاجا الى رئيس الحكومة البريطانية على اعتقالهم وأبلغه فيه أن الوفد مثابر على خطتهم ، ووجه مع زملائه فى اليوم التالى خطابا الى صاحب العظمة السلطان يلقى فيه تبعة أعراض الكبراء عن تأليف الوزارة على السلطة العسكرية : « فانما هو النتيجة الطبيعية للخطة التى اتخذت فى مسألة سفر الوفد ، فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه — حقيقة — أن يقبل الوزارة فى هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده » • وختم الخطاب بقوله : « اليكم يا صاحب العظمة — وأنتم تتبوأون أكبر مقام فى مصر ، وعليكم أكبر مسئولية فيها — نرفع باسم الامة أمر هذا التصرف القاسى ، فان شعبكم الان يحق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا فى صفه مدافعين عن قضيته العادلة » •

أما الحكومة البريطانية فقد أحبت أن تيئس المصريين من كل أمل فى اللين والهوادة ، فعينت الماريشال اللنبى مندوبا ساميا بعد نشوب الثورة بنحو أسبوع ، بدلا من السير ريجنالد ونجت الذى كان من رأيه السماح بسفر الوزيرين المصريين ، وقد تعمدت بتعيينه غرضا آخر هو ارهاب المصريين باسم القائد المنتصر فى أقرب الميادين اليهم وهو ميدان فلسطين • وأذاعت فى الوقائع المصرية انه « منح السلطة العليا فى جميع الامور المدنية والعسكرية وفى اتخاذ ما يراه من الاجراءات صالحا لاعادة النظام واحترام القوانين •• مع تثبيت حماية جلالة الملك فى مصر على أساس متين » •

وقد بدأ الماريشال اللنبى عمله بعد قدومه الى القاهرة

باستدعاء الكبراء والسراة قائلا لهم انه جاء الى مصر لينهى الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية،ويزيل منها مايقضى العدل بازالته . وطلب اليهم أن ينصحوا للناس بالهدوء والسكينة .

فتكررت هذه النصائح التى يوعز بها الانجليز فى غير جدوى ، ولم يزل متعذرا على « المستوزرين » أن يجترئوا على قبول الوزارة ، ولم يزل تسيير الادارة الحكومية فى البلاد من أصعب الامور .

ولجأ الماريشال اللنبى الى أعضاء الوفد المصرى ، فاستدعاهم اليه فى السادس والعشرين من مارس وطلب اليهم أن يبسطوا أسباب الشكاية فى تقرير يكتبونه ، فقدموا له التقرير بعد أربعة أيام وفيه تلخيص للمظلمة السياسية من بداءة اعلان الحماية . وقالوا فى ختامه : « غير أن السلطة العسكرية مع ذلك قد استدعتنا مرة أخرى فى يوم ١٦ الجارى وأعلنت الينا اننا مسئولون عن هذا الاضطراب ، واننا مسئولون عن ازالته ، ولكنها سمحت لنا هذه الدفعة أن نناقش أمر المسئولية ، فأجبناها بأن هذا الاضطرات ليس نتيجة متوقعة لعملنا ولا يسوغه برنامجنا بحال من الاحوال . بل نحن نأسف له . واما تسكين هذا الاضطراب فليس فى يدنا وسيلة فاعلة فيه ، ونصحنا بأن أنجع الوسائل فى تهدئة الخواطر بالطرق السلمية ، انما هو تأليف وزارة تعطى من الترضيات ما يرضى الشعب ، حتى تستطيع أن تقوم بأعباء الظرف الحاضر »

هذا رأى أعضاء الوفد الباقين بمصر فى الثورة ، وهذا رأيهم فى تفريج الازمة ، وهو رأى اتفقوا عليه مع كبار مصر الرسميين ومنهم علماء الازهر وبطريرك القبط

الارثوذكس وبعض الوزراء والنواب والسروات . وكتب به هؤلاء جميعا خطابا الى القائد العام فى الرابع والعشرين من شهر مارس ، أى قبل استدعاء أعضاء الوفد الى اللورد اللنبى بيومين،وكان تقديرهم أن الوزارة التى تؤلف تعمل لتهدئة الحال ،دون أن يشترطوا سلفا لهذه التهدئة افراجا على معتقلين أو سماحا لاحد بالسفر .

ثم قال أعضاء الوفد : « وفى اليوم التالى وهو يوم ١٧ مارس قابلنا الوزراء الثلاثة رشدى باشا وعدلى باشا وثروت باشا وأقنعناهم بأن يظهروا استعدادهم للمفاوضة فى تأليف وزارة تستطيع أن تقضى على هذه الحركة المخيفة التى تخشى عواقبها المجهولة ، فأظهروا هذا الاستعداد لرجال دار الحماية ولكن الامر لم يتم ، والاضطراب يأخذ نسبا وأشكالا ليس الحكم على نتائجها فى نفوس الناس بالشىء الميسور » .

وبعد أيام حان موعد صدور الميزانية وليس فى البلاد وزارة ولا نواب يناقشونها ، فلم ير المارشال اللنبى مخرجا من هذه الورطة الا أن يعتمد الميزانية باسم السلطة العسكرية ، فاصدر بلاغا بذلك فى أول ابريل ، ولكنه حل مشكلة وأثار مشاكل . فان هذا التحدى ألهب فى النفوس جذوة الغضب وشحذ فيها عزيمة المناجزة ، فعاد التجار الى اغلاق حوانيتهم ، واضرب بعض الموظفين ممن لم يكونوا مضربين ، وتمرد طلاب المدرسة الحربية ومدرسة الشرطة فخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات ، وكانوا قبل ذلك يحتجزون عن المظاهرات ، واشتدت ثورة الازهر وكثرت اجتماعاته ، حتى لجأت السلطة العسكرية الى مخاطبة شيخ الازهر فى اغلاقه دفعة واحدة أو الاكتفاء

باغلاقه في غير أوقات الصلاة ، فأبى واعتذر بأن الله ينهى المسلم عن اقفال مساجد الله .

وفي السادس من الشهر وزع على الناس منشور من عظمة السلطان يقول فيه : « انى أنشر بين قومي هذه الكلمات التى كانت تختلج بصدرى فى الوقت الذى أخذت تتوارد الى فيه ملتمسات الامانى القومية نحو مستقبل البلاد . وانى بالطبع لا أعنى بالبلاد الا بلادنا المباركة : لا أعنى بالبلاد الا وطننا العزيز : هذا الوطن الذى اقتضت حكمة الله أن يكون جدى الاكبر محمد على الكبير أكرم الله مثواه صاحب عرشه » وفي ختامه طالب عظمة السلطان « أبناءه المصريين بما له من حق الابوة عليهم أن يتناصحوا بعدم الاستمرار على المظاهرات التى كانت عواقبها غير محمودة في بعض الجهات » .

وبعد أن جربت السلطة العسكرية كل وسيلة وفشلت فى كل تجربة لم يسعها الا أن تجرب الوسيلة الوحيدة الباقية التى اقترحها المصريون من اللحظة الاولى ، وهى اطلاق الحرية للوفد المصرى ليسافر حيث شاء ، فان الحجر عليه هو سبب استقالة الوزارة وهو سبب الاحجام عن تأليف وزارة أخرى وهو سبب غليان النفوس وانفجارها ونشوب الثورة وانتشارها ، فأذاع المارشال اللنبي فى السابع من الشهر بلاغا يعلن فيه انه بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان « لم يبق حجر على السفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد يكون لهم مطلق الحرية » وان « كلا من سعد زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر »

فسرت نشوة الظفر والرجاء في نفوس الامة قاطبة ،

وقامت مغادرات الابتهاج في مكان مظاهرات الغضب والهياج ، واستولى على الناس شعور مقدس غسل حوبة النفوس فنسى المجرم اجرامه والموصوم وصمته ،وشوهدت جموع النسوة الشقيات المتبذلات على مركبات النقل يحيين وطنهن ولا ينظر اليهن ناظر بعين المهانة أو الريبة أو المجون الذي تثيره أمثال هذه الجموع في غير تلك المظاهرات .

وامتنعت حوادث السرقة على سهولتها بين ذلك اللجب اللاجب ، فخلت محاضر الاقسام من حوادث الطرارين واللصوص التي لم تكن تمتنع ساعة من أيام الشح والضيق ووفرة المال في جانب وندرته في جانب آخر ، ومشى أعظم الناس وأصغرهم على السواء في مظاهرات واحدة لا يتوقر عنها العالم الهرم ولا ينسى فيها الصغير دواعي الوقار ،ولم ينغص هذه المظاهرات الا اعتداء بعض الارمن عليها وشكاسة بعض الضباط والجنود البريطانيين الذين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين المتهللين في غير عداء ولا تنكر ، فقتلوا منهم اربعة وجرحوا كثيرين ، ولعل هذه الحادثة وحدها كافية لبيان ما وصلت اليه فوضى القمع والارهاب ، لان هؤلاء الضباط والجنود تطوعوا لفعلتهم دون أن يدعوهم رؤساؤهم اليها ، بل لقد كانت القيادة العليا تستبشر بمظاهرات الفرح التي أعقبت الافراج عن الزعماء لانها قد تلطف سورة الحنق والعداء وتهيىء جو السياسة للوفاق والمسالمة ، وتتيح للوزراء المصريين أن يقبلوا مناصب الحكومة ، ولكن الفوضى اخرجت أولئك الضباط عن طورهم فالسدوا هذه الدلائل وعكسوا الامر على القيادة العليا حتى كادت أن تفشل في تاليف الوزارة التي كان يجري الكلام في تاليفها حينذاك ، مما اضطر المارشال اللنبي الى

الاعتراف بخطا الجنود ونشر بيانا يقول فيه : « لقد تغيرت الحالة فجأة واطلقت الحكومة البريطانية الزعماء المعتقلين في مالطة ، وأذنت للمصريين أن يرسلوا مندوبيهم الى انجلترا ليعرضوا شكواهم • وقد سر المصريون لذلك بالبداهة وسمح لهم أن يقيموا الاحتفالات كما يسمح لابناء انجلترا بالاحتفال بأى نصر سياسى ، ومن سوء الحظ أن الجنود لا يفهمون هذا على ما يظهر لذلك حدث مرة أو مرتين أن نفرا من الجنود قاموا بمظاهرات ضد المصريين الذين كانوا قد أقاموا احتفالا غير موجه ضد سلطتنا بتة. وقد أدى عمل هؤلاء الجنود الى اضطرابات خطيرة والى خسارة فى الانفس من الجانبين • على أن المأمول الآن أن يلوذ الجنود بالهدوء ويلزموا السكينة ، ويتركوا القانون والنظام للقائد العام • ومما يجب أن يفهم أن كل عمل مستقل يقوم به الجنود يضاعف صعوبة مركزنا عشر مرات » •

بقى سفر الوفد فعلا بعد السماح بالسفر قولا •

والظاهر أن السلطات الانجليزية سمحت بسفره من جهة لتعرقله من جهة أخرى •• لانها تعللت بقلة البواخر وزعمت أن الاماكن فيها محجوزة سلفا ، وان الاماكن المطلوبة لا تتيسر قبل ثلاثة أشهر •• ! وعلم الوفد أن الانتظار الى ذلك الموعد مضيع لفرصة الحضور أمام مؤتمر الصلح أو الوصول الى باريس فى ابان انعقاده ، فالتمس الاذن بالسفر على « يخت » صاحب العظمة السلطان المسمى بالمحروسة ، واتصل نبأ هذا الخبر بالانجليز فخشوا أن يجاب بعد قيام الوزارة الرشدية التى يعلمون من سياستها الاولى أنها تشايع الوفد فى طلب السفر الى أوربا ، ورأوا

أن وصول الوفد المصرى الى أوربا على اليخت السلطانى يخوله « مظهرا رسميا » يتقونه ولا يحبون دلالته الواضحة عند أمم العالم • فدبروا أمر الاماكن المطلوبة على عجل ، وسرعان ما استطاعوا أن يحجزوا الاماكن كلها فى الباخرة « كاليدونيا » ومعها ستة أماكن أخرى لمن يشاء السفر من خصوم الوفد الى باريس !

برح أعضاء الوفد العاصمة فى الساعة الثامنة من صباح يوم « ١١ ابريل » فكان توديعهم الرائع بمثابة توكيل جديد من الامة قاطبة ، فازدحمت الطرقات والميادين بعشرات الالوف من جميع الطوائف والطبقات ، ووزعت محافظة العاصمة أكثر من الف تذكرة لعلية القوم ورؤساء الدين والسروات الذين رغبوا فى توديع الوفد على المحطة ، فلم تكف هذه التذاكر لتلبية جميع الرغبات ، وبلغ عدد المودعين أضعاف العدد المقدور ، وأوشك الناس ما بين العاصمة وبور سعيد أن ينظموا موكبا واحدا للحفاوة بالوفد وتأييده واظهار الابتهاج بسفره ، وما كانوا يعلمون بالسفر فى يومها لصعوبة المواصلات وانقطاع أسلاك البرق فى بعض الجهات ، ولكنهم كانوا يرون القطار المزين بالرايات والازهار وعليه التحيات التى كتبها المودعون فى محطة العاصمة فيعلمون الخبر ويتسامعون به فى لحظات معدودات ، ويهرولون الى لقائه داعين هاتفين •

ولما وصل القطار الى بورسعيد خرجت المدينة تستقبله وترحب به وتصحبه الى الباخرة التى بات فيها ليلته ، وأضاءت بور سعيد كلها فى المساء وحفت بالباخرة عشرات الزوارق المضاءة الصادحة بالموسيقات والهتافات الوطنية طول الليل ، وانثالت الرسائل البرقية من المدينة ومن

انحاء كثيرة فى القطر تشيع الاعضاء بالرجاء والتأييد ·

وفى اليوم الذى أقلعت فيه الباخرة ــ وهو اليوم التالى ــ تألفت في القاهرة لجنة مركزية كبرى تنوب عن الوفد فى غيابه وتتولى انشاء اللجان التى تنوب عنه فى الاقاليم ·

***

ويلي هذا الفصل فصل انتقادى عن العيوب التى لوحظت في تأليف الوفد ، ثم فصل عن خطة الوفد فى مسألة الامتيازات الاجنبية التى أراد بها التفرقة بين بريطانيا العظمى والدول صواحب الامتيازات ، ثم ينتقل الكلام الى عمل الوفد فى أوربا كما يلى :

الوفد في أوربا

عندما طلع الرئيس ويلسون على العالم ببشارة السلام ومبادىء الحرية والانصاف صـــدقه كثيرون ورحب به كثيرون ، لانهم استبعدوا أن يخرج بنو الانســان من تلك الاهوال والمآثم بغير عبرة ، وأن يقدموا على تكرار المأساة الجهنمية وهم لا يزالون يكتوون بنارها ويتلوون من آلامها

ولم يهزأ بدعوة ويلسون من أساسها الا طائفة من ثلاث طوائف : وهم المستعمرون الرجعيون ، لان الدعوة لاتوافق سياستهم ولا تحقق لهم مطامع القهر والاستغلال •

واليائسون من أخلاق بنى الانسان ،لأنهم يهزأون بجميع المبادىء ولا يحسبون الانسان صادقا فى شىء غير المصالح القريبة والشهوات الحيوانية •

والاشتراكيون لانهم يرون أن العوامل الاقتصــادية هى علة الدعوات الاجتماعية والمذاهب الاخلاقية ، فلا فائدة من أحاديث المروءة والرحمة وتقرير المصير ما دام نظـام رأس المال هو النظام القائم فى المعاملات ، وهو الحافز الى الغارات والحروب والمنافسة بين المستغلين والمستعمرين •

ولم يكن ســـعد مستعمرا رجعيا ولا يائســـا من بنى الانسان ولا اشتراكيا ولا قارئا متبعا لآراء الاشتراكيين ، ولكنه كان رجلا مطبوعا على نجدة الضعيف واغاثة المظلوم فلا غرابة عنده فى هذه العاطفة ، وكان قانونيـــا يقدس القوانين والشرائع فلا غرابة لديه فى التوســل بالتشريع

وحقوق المعاهدات لفض المشاكل واصلاح الآفات .

لذلك رحب بالدعوة الولسنية ولم يستبعد تحقيقها كما قال في خطابه بمنزل حمد الباسل باشا : « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا : حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنافع .. نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتور ويلسون في تطبيقه بحزمه المعروف . وانه لجاد. بل ارتقى الى إن أقول أن تطبيقه سهل متى صحت نيات أكثرية الدول التى أقرته بالاجماع . ذلك لان هذا المذهب غير مخالف لما ألف الانسان في الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية ، ثم هو متفق مع الافق الذى وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد .. »

وعلى هذه العقيدة كان يرجو الخير الكثير من الدعوة الولسنية ، وأقل ما يحق له أن يرجوه أن لا تنقلب هذه الدعوة في ابان الصلح عونا للاقوياء على الضعفاء وعقبة في وجه المطالبين بالحقوق ، فكان أول ما فكر فيه ساعة وصول الباخرة « كاليدونيا » الى مارسيليا أن أرسل الى الرئيس ويلسون يطلب منه الاذن في مقابلة خاصة للوفد المصرى المطالب بحقوق الامة المصرية . فلم يجئه الرد المنتظر من رسول السلام وانما جاءه رد لم يكن يخطر على بال متفائل ولا متشائم . فان الولايات المتحدة اعترفت بالحماية البريطانية على مصر في اليوم التاسع عشر من شهر ابريل .. أى بعد وصول الوفد المصرى الى مرسيليا بيوم واحد !

يحار الانسان ولا يدرى كيف استطاعت السياسة البريطانية أن تحمل ذلك الرسول المبشر بحقوق الضعفاء على نقض مبادئه رأسا على عقب ، واستباحة الفصل في

المسعى الذى سمته الحكـــومة البريطانية عنـــد الرئيس ويلسون لاقناعه بوجوبه .. فباسم الامن وكراهة العنف، وبعد الوعد بمنح المصريين قسطا آخر من الاســـتقلال الداخلى ، ظفرت الحكومة البريطـــانية بذلك الاعتـــراف وبادرت الى اذاعته فى مصر وأوربا وتعمدت أن تصـــدم به الوفد ساعة وصوله الى أوربا ليفت الخبر فى عضـــده ويزعزع ما عنده من ثقة وأمل ، ويريه خيبة المســـعى فى معارضة القوة البريطانية حيث ذهب .. فكان تدبيرها فى الافراج عن الوفد ولقائه بتلك الصدمة كتدبير الســـجان الذى يطلق أسيره ويرصد له على أبواب السجن من يدهمه ويغتاله ، ليحيق به الكيد فى ساعة الفرح والاستبشار .

ولم تبالغ السياسة البريطانية كثيرا فى وقع الصـــدمة المفاجئة على الوفد ساعة نزوله بالارض الفرنسية واقترابه من محكمة العدل والحرية . فقد بدا لســـعد أول وهلة أن العمل فى اوربا لا يجدى ،وان تركيز العمل فى مصر أجدى والزم . ولم يكن هذا ضعفا ولا نكوصـــا عن الكفاح لان مقاومة الانجليز فى مصر تحت الاحكام العســـكرية بعد الاعتراف بالحماية البريطانية أخطر وأعضل من مقاومتهم فى أوربا على العاملين الجادين فى المقاومة .. ولكنه كان رأيا رآه فيما هو أصلح للقضية المصرية على حسب ما تبين من خطواته الاولى بالبلاد الاوربية .

وقد لمس وقع الصدمة فى نفوس فريق من زملائه فاذا هو المدح والدح . فمنهم من كان قد دخل الوفد على تردد وريب فى سلامة العاقبة ، ومنهم من كان يؤثر اللجـــوء الى الحكومة الانجليزية ويؤمن فى قرارة نفسه باستحالة الغلبة عليها ، وقصارى ما طمعوا فيه من هوادتها أن تخفى

بعض المعارضة أو بعض المنافسة من الـدول الاخـرى فى مؤتمر الصلح فتغلق هذا الباب باستجابة بعض المطـالب المصرية • فاذا بمؤتمر الصلح فى قبضة يديها وعلى رأسه أكبر الدعاة الى الحرية وأكبر القائلين بمشـــاورة الامم المغصوبة فى تقرير مصيرها •• فمن البين اذن فى رأيهم أن « مهمة الوفد » انتهت ولم يبق له ما يرجوه من المؤتمر ولا من الحكومات المشتركة فيه • وقد صرحوا برأيهم هذا وهموا بالعودة وأشاروا بها على زملائهم الاخرين •

وقد أرادت الحكومة البريطانية أن تتبع هـذه الضربة بضربة أخرى تعجل بعمل التفكك والانخذال فى صـفوف الوفد والامة المصرية : فنشرت التيمس « اشاعة » تشـير فيها الى ارسال لجنة مستقلة الى القطر المصرى للبحث عن أسباب الهياج واقتراح الاصلاحات الدستورية التى يتسع بها نطاق الحكومة الذاتية ، وتوقعت أن يصـيب الخبر الوفد فى سمعته وعزيمته ان لم يصبه فى تكوينه ووحدة رأيه : فاذا عاد بعض رجاله الى مصر وبقى بعضهم فى أوربا فقد وقع الخلاف وهو بدء الانحلال ، واذا عاد الوفد جميعه فقد ملكته الحكومة البريطانية ورجعت به الى قبضة يديها وعرضته لسخرية أبناء وطنه ، واذا بقى الوفد كله فى أوربا فعندها فسحة من الوقت لارسال اللجنة الى مصر وسؤال المصريين عن مطالبهم وشكاياتهم بمعزل عن وفدهم الذى ينحى الوكالة عنهم •• فتلغى وكالته وتلقى درسها الصادع على الوكيل ومن أوكلوه ، وأى درس تشـتهيه السياسة الاستعمارية وتلقيه على الدعاة الوطنيين أنجع وأوجع من أن تضرب الوفد المصرى وتعاقبه هذه العقوبة القاصمة بيد الامة المصرية !

ومهما يكن من حساب الحكومة البريطانية فالشيء الذي لم تحسب حسابه كما ينبغي هو أثر السخرية في الطبيعة المصرية • فان المصري ليتقي السخرية أشد من اتقائه الضرر والخسارة ، وقد يستسلم للفجيعة ولكنه لا يستسلم للغفلة ولهذا كانت ضربتها للوفد المصري باعتراف ويلسون ضربة قوية بارعة ولكنها كانت خليقة أن تفشل بعد الصدمة الاولى لانها سخرية تعرضه لسخرية أخرى • ولو انها أبطأت برهة ولم يكن فيها معنى الكمين المدبر والهزء المرتب في لحظة الانتصار والتفاؤل ، لكان رجاء الحكومة البريطانية في نجاحها أصدق وأسرع •ولكنها كانت بمثابة الاستدراج الى كمين مضحك أو « مقلب » مهين •• فجمعت لها الطبيعة المصرية كل ما عندها من الكراهة للسخرية ومقاومة الشماتة المضحكة • وهما في الطبيعة المصرية قوة تعتصم بها في أحرج الاوقات •

ولم يلبث سعد وأصحابه بعد الخاطر الاول أن أعادوا النظر في الامر كله ، فوجدوا أن العمل في مصر قد يكون أولى وأصوب ولكن العودة الى مصر بعد كل هذه القيامة التي أقامتها الامة لتمكين الوفد من السفر ، هي خيبة أليمة لا تؤمن عقباها ،وقد تيئس الامة من رجالها وتشككها في دعاتها ، وتعجل بالتفرقة بين صفوفها •

ووجدوا كذلك أن البقاء في أوربا لا يمنع تركيز العمل في مصر والاعتماد عليه في الدعاية الاوربية ، وقد تنفع الدعاية الاوربية في تنبيه عزيمة الامة كلما احتاجت الى تنبيه •

ومن مبدأ الامر لم يكن رجاء سعد كله معقودا على الحكومات والوسائل الحكومية : اذا جاء الرجاء من هذا

الباب فذاك خير وأقرب سبيلا ، وان لم يجيء فالشعوب من وراء الحكومات والطريق الى الشعوب مفتوح لمن يحسن ولوجه ويقوى على صعابه ، وهو القائل أن الشعب فوق الحكومة ، وهو الذى أبى أن يسلم المطالب المصرية الى المندوب البريطانى والوزراء البريطانيين احتفاظا بالجانب الاهم منها « لاستنارة » الرأى العام البريطانى الذى يخضع له المندوب والوزارة . وهو الذى عرف أن النائب فى « الجمعية التشريعية » التى لا حقوق لها ولا نفوذ لاحكامها يملك من سلاح الحجة والبيان ما يكافح به الوزارة ويكافح به جبار قصر الدوبارة . فماذا حدث الآن ؟ هل حبط الرجاء في مؤتمر الصلح وفى ويلسون وفى لويد جورج ؟ حسن ان وراء هذه الاسماع أسماعا ووراء هذا المرجع مراجع : هناك الشعوب الاوربية ، وهناك شعب ويلسون وشعب لويد جورج .. ومن يدرى؟فلعل شعب ويلسون وشعب ما قال وسامع غير ماسمع ، وبالغ فى احراج السياسة البريطانية ما لم يبلغه رئيسه المخدوع بتلك السياسة .

يقول نيتشه : « كل ما لم يقتلنى يزيدنى قوة » ..وهذه قولة تصدق على كل رجل كبير الهمة مطبوع على الكفاح . فضربة الاعتراف بالحماية كانت ضربة نافذة ولكنها لم تكن مميتة ، ومن ثم كانت ضربة حافزة للعناد مثيرة للنخوة نافعة فى توطيد النفس على بعد الشقة .

قال جورج لويد فى كتابه عن مصر منذ كرومر : « لم تنفع الصدمة الا فى اقناع زغلول اقناعا جليا بأن العراك خليق أن يجرى الى مداه فى الحومة المصرية . فوجه همه على الفور الى تلك الحومة ، وطفق يدير المعركة من مقامه بباريس ويبعث إلى اتباعه بمشجعات منوهة !؟) ولكنها

أخاذة باهرة بما تحدثهم عن الانصـــار الذين يستميلهم للقضية الوطنية ، والنجاح الذى يصيبه رجاله » •

وقد أدار سعد المعركة فى باريس على أتم وجه يستطيعه وفد من الوفود الشعبية ، فان الوفد المصرى على اعتبـاره غريبا عن الاجناس الاوربية قد استطاع غاية ما يستطاع من نشر الدعوة الى جانب مؤتمر الصـــلح • فكتب الى المؤتمر يطلب استدعاءه لسماع أقواله لان « الغاء السيادة التركية يقتضى حتما تغييرا فى حالة مصر السـياسية التى التى قررتها معاهدة سنة ١٨٤٠ ولا يصح اجراء هذا التغيير فى غيبة المصريين » • واتصل الوفد بكل من تيسرت لهم مقابلته من رجال المؤتمر وأعضاء وفوده وكبار موظفيـه ، وأقام المآدب للساسة والكتـاب والصــحفيين الاوربيين والامريكيين ، ليشرح لهم الحـوادث التى كانت تهملهـا الصحف ويريهم صور المظـاهرات التى اشـترك فيها السيدات ورجال الجيش وظهرت فيها الاعـلام وعليهـا الصليب الى جانب الهلال ، ويذكر لهم ما استفاده الحلفاء من أموال مصر ورجالها مما كانوا يجهلـونه ولا يعرفون خبرا عنه •

واقنع الوفد بعض مشـاهير الكتاب بكتابة رايهم فى قضية مصر وحقوق أبنائها ، ومنهم فكتور مرجريت وأناتول فرانس ، فأصدر الاول رسالة فى موضوع القضية المصرية وقدمها الثانى بكلمات وجيزة على سبيل التزكية •

واجتهد الوفد فى اجتناب كل عمل يتيح للمستعمرين البريطانيين أن يتهموه كما فعلوا من قبل بمشـايعة دول الوسط أو النزوع الى المذاهب الفوضية والاشتراكية • فلم يتصل بالمغفور له محمد بك فريد حين تلقى خطـابه من

سويسرة ، لما كان معروفا من مقام فريد بك في المانيا وتركيا أثناء الحرب وبعدها • ولكنه اتصل بجميع المصريين المقيمين بفرنسا ، ولا سيما أعضاء الجمعية المصرية في باريس ، وكان لفريق من هؤلاء أثر نافع في بث الدعوة وتعريف الفرنسيين من جميع المذاهب بالوفد ومطالبه وصعوباته •

ولا نسهب في تفصيل المقابلات والخطب والولائم واحدة واحدة ، لان التفصيل لا يزيد القارىء شيئا على ما هو مفهوم بالاجمال ، وحسبنا أن نقول أن الوفد لم يدع في باريس ولا في مراكز الدعوة للسياسية أحد يؤبه له الا أبلغه مظلمة مصر • وأوجز له الحالة التي مرت بالقارىء في صفحات هذا الكتاب •

وقد كان المصريون في لندن ، ومعظمهم من الطلاب ، يعاونون الوفد كما عاونه زملاؤهم في العاصمة الفرنسية• فطبعوا الالوف من الرسائل وقابلوا النواب واستعانوا بالكتاب حتى ضاقت بهم الحكومة الانجليزية ذرعا فدهم الشرطة مكان اجتماعهم وصادروا الاوراق التي فيه وظنوا انهم قضوا عليها وكانوا سيقضون عليها فعلا ، لولا ان الطلاب أخذوا بالحيطة فاعادوا طبع الاوراق مما كان مدخرا عندهم من المحفوظات في مكان أمين •

وقد تجاهل الساسة الانجليز في باريس شأن الوفد المصري ما وسعهم أن يتجاهلوه • ولكنهم لم يحسنوا كتمان حنقهم في بعض الامور التي تقضي بها اللياقة ، فلم يات منهم من يرد الزيارة لسعد باشا حين ترك بطاقته للمستر لويد جورج كما ردها بعض وزراء الدول الاخرى، وتجاوزوا ذلك الى عمل فيه من الصبيانية ما ليس يليق

بكبار الرجال • فقد روى أحد أعضاء الوفد المصرى انهم أرسلوا مرة « مذكرة الى الوفد البريطانى فى مؤتمر السلام فردت اليهم ممزقة داخل غلاف وعليها عبارة قصيرة معناها : « مثل هذه الاقوال لاتستحق الرد » (١) •

وعلى الرغم من اعتراف الدول بالحماية فقد بدأت الحكومة البريطانية تشعر بالقلق بعد أن اتجهت أنظار الوفد الى نشر الدعوة فى الولايات المتحدة ، وظهرت دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين ذوى النفوذ من الشيوخ الامريكيين ورجال الصحافة •• حدث هذا دون أن يكون للرئيس ويلسون فضل فيه ، بل ربما كانت صدمته للوفد فى باريس من أسباب اتجاه الوفد الى الامة الامريكية رأسا ليثير فى هيئتها الرسمية بهذه الوسيلة بعض العناية التى فاتته من رئيس الجمهورية ومعاونيه فى المؤتمر • فان أقصى ما صادفه الوفد من النجاح عند رئيس الجمهورية الامريكية انه تلقى منه ردا على خطاب كتبه سعد يطلب فيه المقابلة مرة أخرى ، فاذا هو يعتذر فى رده لضيق الوقت ويرجو أن يتسع وقته فى المستقبل للمقابلة المطلوبة ! وكان الوفد قد ذهب إن استشارة « الرأى فى الولايات المتحدة لبحث القضية المصرية أمر مستطاع بعد ما أحسه من أثر الاخبار التى بعث بها المراسلون الى صحف أمريكا، وزاده أملا فى المزيد من الاهتمام انه كان قد استخدم بعض الايرلنديات والامريكيين فى أعماله الكتابية فالتقى هؤلاء بالساسة الامريكيين الذين حضروا الى باريس للدفاع عن استقلال ايرلندة وعرفوا منهم الرغبة فى تشديد النكير على

---

(١) البلاغ ، ٩ مارس سنة ١٩٣٤ فى بيان للاستاذ محمد على علوبه باشا •

الاستعمار البريطاني بذكر المسألة المصرية الى جانب المسألة الايرلندية ، ومن هؤلاء الساسة مستر « والش » رئيس الوفد ومستر « ريان » ومستر « دن » مساعداه .

وقد جرى الوفد المصرى من قبل على سنة ارسال البيانات والاحتجاجات الى المجالس النيابية مع ارسالها الى الوزراء وممثل الحكومات ، فوجدت بياناته واحتجاجاته في مجلس الشيوخ الامريكى صدى أقوى وأصرح مما وجدته في المجالس النيابية الاوربية .

ففي جلسة الحادي والعشرين من شهر يونيه اقترح الشيخ « ماسون » الاعتراف بالجمهورية الايرلندية ، فتصدى زميله مستر بوراه لفتح باب المسألة المصرية . وقال أن مصر تستحق الاستقلال كما تستحقه الامم الشرقية والاوربية التى اعترف مؤتمر السلام باستقلالها ، فجددت هذه الحملة رجاء الوفد في تحريك قضيته من جانب الامة الامريكية وشيوخها ، وأرسل يشكر المستر بوراه ويبلغه ان المصريين ليعتمدون اعتمادا تاما على مساعدة الشعب الامريكي محب الحرية في تحقيق الآمال القوية لشعب حكم عليه بالاستعباد من غير أن يسمع دفاعه » .

وعاد المجلس الى ذكر مصر بعد أيام فقام المستر «والش» واتهم الوفد الامريكى فى مؤتمر السلام بخيانة المبدأ الذى هام الامريكيون بدخول الحرب من أجله ، وقال ان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى اذا ارادتا أن تدلا على حسن النية فيجب عليهما ان تتركا جزائر الفلبين لاهل الفلبين وايرلندة للايرلنديين ، وهنا قام مستر « مكس كورك » وقال ان مصر أيضا يجب ان تكون لابنائها ، وأيده مستر بوراه سائلا : لماذا يعترف مؤتمر الصلح ببولونيا

ورومانيا ويغض عن ايرلندة ولا يصغي الى كوريا ومصر كما أصغي لغيرها فقال مستر شرمان : « ان معاهدة الصلح انما كتبت لخدمة المطامع البريطانية » .

كانت هذه الاقوال من أشد ما قيل وقعا في نفوس المستعمرين وفي نفوس المصريين على السواء ، فأما المستعمرون فقد أحسوا من عواقبها في الولايات المتحدة وفي مصر نفسها ، وأما المصريون فقد شعروا بفضل الدعوة واستبشروا بما وراء ذلك من صدى الحملة في الدوائر السياسية الامريكية والبريطانية ، وتبين الوفد أن الدعوة في تلك البلاد تستحق منه أن يضاعف العناية بها ويتابع اشهارها وترويجها ولا يتركها للمصادفة والمناسبات العارضة ، فانتهى بوساطة مستر « والش » الى توكيل مستر جوزيف فولك في نشر الدعوة هناك ، وكان الاختيار موفقا لان الرجل ممن سبقت لهم الوكالة في القضايا السياسية الكبرى وسبقت لهم ولاية المناصب وعلاج المشكلات ، فهو ذو منزلة مرعية بين النواب والرؤساء ، وله علاقة منتظمة برجال الدولة وأصحاب الكلمة المسموعة

وأوشكت الدعوة الخارجية لمصر أن تنحصر خلال تلك الفترة في الولايات المتحدة ، فعن لسعد باشا أن يسافر اليها مع بعض الاعضاء . ثم استقر الرأى على ايفاد محمد محمود باشا في هذه المهمة لمعرفته الانجليزية ، وتردد الوفد هنيهة بين هذه الفكرة وفكرة أخرى كانت ترمي الى سفر اثنين من الاعضاء الى البلاد الانجليزية يدافعان عن مطالب المصريين ويبسطان ما أصابهم من المظالم أما بالخطب او بالنشرات اذا احجمت الصحافة عن اذاعة ما يكتبان ، ويفعلان ذلك باسميهما لا باسم الوفد أو باسم رئيسه ،

ويعولان على الدعوة الشعبية دون الرجوع الى الهيئات الرسمية التى أعرضت عن الوفد وتجاهلت شأنه ، وكان الوفد يحرص على اجتناب الهيئات الرسمية فى انجلترا حتى تجيء المفاتحة من جانبها بعد أن قام هو بما يجب عليه من ايذانها بقصده ، ويقال ان رجال الحكومة الانجليزية وسطوا أناسا من سراة الاجانب المقيمين فى مصر لتيسير مقابلة بين سعد ومستر بلفور الوزير الفيلسوف الانجليزى المعروف ، فلم تتم هذه المقابلة لرغبة الوفد عنها ما لم تكن الدعوة صريحة من جانب القوم ، وتغلبت فكرة السفر الى الولايات المتحدة على هذه الفكرة .

ولم يستطع محمد محمود باشا أن يصل الى أمريكا الا فى منتصف اكتوبر بعد مشقة فى الحصول على جواز السفر لم تذلل الا بمساعدة مستر فولك وبعض الاصدقاء الاوربيين .

وقد كان مستر فولك أثناء ذلك يوالى الكتابة فى الصحف ويبسط وجهة النظر المصرية بين يدى مجلس الشيوخ ولجانه المنوط بها بحث هذه الامور ، وأهم ما أثمرته جهوده تصريح صرحت فيه لجنة الشئون الخارجية « ان مصر تعد من الوجهة السياسية غير خاضعة لانجلترا ولا لتركيا وانما يجب أن تكون مستقلة وزمامها بيدها » وخطاب ضاف ألقاه مستر بوراه عن مركز مصر السياسى والاطوار التى مر بها قبل الاحتلال وبعده والفظائع التى أصابت أهلها فى أثناء الحرب وبعد الهدنة ، على ما سلف من معونتهم للانجليز خاصة والحلفاء عامة .

فاهتمت المراجع البريطانية باخفاء ذلك جميعه عن المصريين وتهوين خطره عندهم ، ولا سيما تصريح لجنة

أدارت مدافعها بمهارة وكفاءة فساعدت على رد العدو ، وفي اعتقادي أن الخسائر كانت اثنين من القتلى وستة من الجرحى ، ولم تشترك في العمل خلال الحرب أية قوة مصرية أخرى مسلحة ، ولكن فى الادوار الاخيرة من الحرب قامت ثلاث فرق مصرية أو أربع بحراسة خطوط المواصلات فى سينا بينما كان الجنرال اللنبى يغزو سورية ، وحدث كذلك أن فصيلة مصرية كانت ببلاد الحجاز فى وقت من الاوقات ، لكن هذه القوات جميعها لم تتعرض لنيران القتال • وفضلا عن ذلك قد ضم عدد كبير من المصريين الى فرقة العمال الملحقة بالقوات البريطانية ، وكانوا يستخدمون لمدة قصيرة بين ثلاثة أشهر وستة ، وقد قاموا لقوات الجنرال اللنبى بالاعمال اليدوية التى لا تستدعى خبرة فنية ، وبهذه الصفة كان ما أدوه من الخدمات عظيم القيمة ، لانهم أتاحوا لعدد من الجنود الانجليز أن يكونوا فى خط القتال ولولا ذلك لاستخدموا فى ساقة الجيش ، ولست أستطيع أن أذكر عدد هؤلاء الرجال الذين ألحقوا بفرقة العمال ، ولكنهم بلغوا فى بعض الاوقات من ثمانين الى تسعين ألفا ، وكان بعضهم يستهدفون للنار وهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤمن والذخائر بمقربة من خط القتال فاصابهم بعض الخسائر • وليس فى وسعى أن اقول كم تبلغ هذه الخسائر على وجه التحقيق ولكنى اعتقد انها تبلغ فى الجملة ألفا وخمسمائة بين قتيل وجريح فى خلال سنوات الحرب الاربع » •

وعلى الرغم من محاولة السبك والدقة فى ظاهر هذا البيان، يرى القارىء انه قابل لمخالفة الواقع فى عدةموا

لان وصول العدد في الفوج الواحد من العمال الى تسعين الفا لا يمنع انهم يبلغون المليون ويتجاوزونه في جميع الافواج ، ولان احصاء القتلى والجرحى بالف وخمسمائة على وجه غير « وجه التحقيق » قد يفتح الباب لبلوغهم اضعاف ذلك على وجه التحقيق .

الا ان مستر فولك لم يتوان في الرد على هذا البيان بعد مراجعة الوفد في باريس ، فكتب الى وزير الخارجية بواشنطن خطابا يلفت فيه النظر الى العبارة التي وردت في سياق كلام المستر رونالد لندسى عن تحاشي المساس بالسيادة المصرية ، لكي لا يشق على الحكومة الامريكية الاعتراف باستقلال مصر عند بحث معاهدة الصلح في مجلس الامة ، وكتب الى رئيس لجنة الشئون الخارجية خطابا آخر ضمنه رد رئيس الوفد على بيان السفارة الانجليزية وفيه « ان مليونا ومائتي ألف مصرى جندوا لفرقة العمال وان الجيش المصرى نفسه قاتل على قناة السويس وفي شبه جزيرة سيناء وفي الحجاز وحارب على بن دينار في السودان ، وأن خسائر عظيمة نزلت بفرقة العمال وعلى الاخص من فتك الامراض » .

واستند مستر فولك الى عبارة « السيادة المصرية » فطلب توكيد الاخلاص في المقصود منها بتصريح رسمى من الحكومة البريطانية تعلن فيه موعد الجلاء ، وتفوض الى عصبة الامم ـ بعد تاليفها ـ تقرير مركز مصر ، وتتخلى عن كل معارضة في تمثيل الدولة المصرية عند الدول الاجنبية وعن كل معارضة في سفر وكلاء الامة المصرية الى الولايات المتحدة .

ولم تزل المسالة المصرية تتردد على السنة الاعضاء بمجلس الشيوخ تارة من حزب الحكومة وتارة من حزب

المعارضة ، حتى التفت اليها كثيرون ممن لا يسمعون بها ، ووجدت الصحف مسوغا لنشر الاخبار عنها وقبول المناقشة فيها ، وايقنت الحكومة البريطانية ان اطراد الدعوة على هذا المنوال كاف لاقلاقها وتوقع المتاعب التى قد تضر بمصالحها كما تمس سمعتها ، وان لم تعقبها نتيجة حاسمة فى موقف الحكومة الامريكية .

أما الدعوة فى باريس فقد كانت تنقطع حينا وتتصل حينا ، ويثابر الوفد اكثر الاحيان على خطة الدعوة الشعبية . لانه علم أن النجاح فيها أقرب من النجاح فى مخاطبة الحكومات والوزراء ، وطفق على الجملة يراسل المجالس النيابية واقطاب الساسة وكبار الادباء ويكتب الى الصحف ويلقى من ذوى الكلمة المسموعة من تيسر له لقاؤه ،ويجدد الاحتجاج والبيان كلما تجددت لذلك مناسبة من توقيع اتفاق أو عرض معاهدة أو وصول وفد أو غير ذلك ، فجرى ذكر الحماية البريطانية على مصر فى أكثر من مجلس من المجالس الاوربية على نحو لايبلغ فى القوة والافاضة ما جرى فى الولايات المتحدة ، ولكنه مع ضعفه واقتضابه اقلق الحكومة البريطانية وزاد مخاوفها من التمادى فيه الى أن يدرك المصريون شأن الدعاية ونفاذ سلاحها تمام الادراك . ولعل أكبر ما حدث من دعوة الوفد خلال هذه الفترة وليمته فى ثانى اغسطس فى فندق كلاردج بباريس ، وهى الوليمة التى خطب فيها وزير سابق للبحرية الفرنسية وحضرها الكاتب المشهور فكتور مرجريت وتليت فيها كلمة من أناتول فرانس ، وأجاب الدعوة اليها عدا هؤلاء بعض الشيوخ والنواب والصحفيين من أمم كثيرة

هذه الحركة التى كانت تؤذن بالاستفاضة والاتفاق على

تعاقب الايام قد افهمت الساسة الانجليز ان « التجاهل » سياسة لا تفيد الى زمن بعيد ، وانه لابد من « شيء » تعمله في هذه الحالة غير الاستخفاف الظاهر وطول البال ، ولكنها لم تقصد الى ارضاء المصريين بمقدار ما قصدت الى الخلاص من الوفد وتفريق شمله بين الآراء المتضاربة والمذاهب المتعارضة ، فعجلت بايفاد لجنة التحقيق برآسة اللورد ملنر الى القطر المصرى لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذى يحكمون به فى ظل الحماية ، ودعاها الى التعجيل بارسالها غير ما تقدم سببان آخران : « احدهما » ان رؤساء الوفد فى القاهرة أعلنوا العزم على مقاطعتها اذا هي حضرت في تلك الظروف ، لان اللجنة تريد المفاوضة على أساس الحماية وتستفتى البلاد وهى فى قبضة الاحكام العرفية ، وتدعى لحكومتها الحق فى نظر الشكايات المصرية كأنها صاحبة السيادة على البلاد ٠

وقد شعر محمد سعيد باشا ـ رئيس الوزارة يومئذ ـ باجماع الامة على مقاطعة اللجنة فنصح للورد اللنبى بارجاء ارسالها انتظارا للفراغ من عقد معاهدة الصلح مع الحكومة التركية ووضوح مركز مصر السياسى من حيث علاقتها بالدولة البريطانية ٠ فلم يشأ اللورد اللنبى أن يصغى الى هذه النصيحة مخافة ان يتهم بالضعف والتراجع أمام صيحة المقاطعة من اللجان الوفدية ٠

والسبب الآخر الذى دعا الى تعجيل الحكومة البريطانية بايفاد اللجنة فى تلك الآونة ، انها علمت ببوادر التفكك التي اصابت بعض أعضاء الوفد فى باريس ، وقد عاد فعلا بعض هؤلاء الاعضاء الى الاسكندرية فى الثانى عشر من شهر اغسطس وهم اسماعيل صدقى باشا وحسين واصف

باشـــا ومحمود أبو النصر بك ، وأذاعت لجنة الوفد فى السادس والعشرين منه أن على شعراوى باشا قادم لاعمال خاصة باذن من رئيس الوفد وزملائه ، وعاد قبـل ذلـك آخرون لاسباب من هذا القبيل • فحســبت الحكــومة البريطانية ان الفرصة سانحة للفصل بين الوفد والامة أو لتمزيق شمل الوفد وتشجيع المترددين من أعضــائه على تركه ، ورجح عندها هذا الحسبان انها علمت بما شاع عن آراء الاعضاء العائدين وأنهم يتشككون فى نجاح مســعى الوفد لاشفاقهم من مهاجمة الحكومة البريطـانية بالدعوة الاجنبية وايثارهم أن تكون الدعوة فى انجلترا وعلى رضى من رجالها الرسميين ، فطمعت فى توسيع مسافة الخلف وبث الغواية من طريق اللجنة الملنرية ، وما عسى أن تشير به من تحويل النظم والمناصب،وتقريب الآمال والرغائب •

من سفر الوفد إلى لجنة ملنر

استدعت الحكومة البريطانية السير ريجنالد ونجت توطئة لاقالته من منصبه فى دار الحماية وهو الرجل الذى أحسن لها النصيحة وأشار عليها بقبول سفر الوزيرين المصريين الى العاصمة البريطانية وعادت هى الى رأيه بعد فوات الاوان •

واستبدلت به المارشال اللنبى فاتح القدس ، لانها حسبت أنها تروع المصريين بهيبته العسكرية ، وهو خطأ غريب فى تقدير الحالة وجمود على أساليب التخويف الدارجة بغير معنى • لان مظاهر الهيبة العسكرية والسطوة الحربية كانت كثيرة على مسمع ومبصر من المصريين أثناء الحرب العظمى ، لا يرون فى بلادهم من الحكم الانجليزى الا المدافع والدبابات والجنود تغدو وتروح فى الحواضر والقرى بعشرات الالوف ، فاذا كانوا قد ثاروا وهم على هذه الحالة وجاءت ثورتهم على أعقاب انتصار الدولة البريطانية فى الحرب العظمى ، فما كانت الثورة اذن لانهم كانوا فى حاجة الى مذكرة بالهيبة العسكرية والسطوة الحربية ، وما كان اسم المارشال اللنبى عندهم الا كاسم كل قائد فى الميادين البعيدة أو القريبة ، بل هم كانوا يسمعون بغيره من قيادة الميادين البعيدة سنوات قبل أن يسمعوا به فى غزوة فلسطين •

جاء المارشال اللنبى الى مصر وهو يقدر أن الرهبة من

اسمه فوق كل كلام وتفكير ، والله لا خوفاً اذن من اتهامه بالضعف اذا هو تواضع الى سماع الشكايات ومخاطبة الشعب بلسان رجاله ، فخاطب المصريين باسم الشيوخ ورجال الدين ، كما خاطبهم باسم الوزراء والكبراء ، وصدرت النصيحة المطلوبة من هؤلاء وهؤلاء يحضونهم على السكينة والاستقرار وانتظار ما يقضي به ولاة الامور ، فلم يكن لها من اثر كبير ولا صغير ، لان الشعب لم يفهم من نصائحهم الا انهم مضطرون أو انهم متهمون في اخلاصهم ان لم يكونوا مضطرين .

وقد وقفنا بالقارىء من حوادث الثورة المصرية واحوال الحكومة في مصر على استقالة الوزارة الرشدية لرفض الحكومة البريطانية سفر الوفد الى أوربا .

فلما سافر الوفد عادت الوزارة الرشدية في التاسع من ابريل ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استقالت لانها شعرت بالحرج من مطالب الضباط والموظفين وهي معبرة عن مطالب المصريين أجمعين . فطلب الضباط الوطنيون أن تسند الحراسة اليهم ، لان اسناد الحراسة في الميادين العامة الى أناس لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون عاداتها كثيرا ما جر الى ازهاق الارواح بغير موجب حتى من وجهة النظر البريطانية . كما حدث حين أطلق الرصاص على المصلين الخارجين من المسجد أو على المتظاهرين ابتهاجا بالافراج عن الزعماء .

وألف الموظفون لجنة من اثنين وثلاثين عضوا لمخاطبة الوزارة في المطالب السياسية التي لا يتعرض لها الضباط وهي التصريح بصفة الوفد الرسمية وأن قبول الوزارة الحكم لا يفيد الاعتراف بالحماية ، والافراج عن المعتقلين مع ابطال الاحكام العرفية .

وجاءت الوفود تترى الى ديوان الوزارة تعزز هذه المطالب وتلح فى قبولها • وعم الاضراب الموظفين وأصحاب الاعمال الحرة انتظارا لتحقيقها • فاستقالت الوزارة ولما ينقض عليها أسبوعان ، لتعذر التوفيق بين مطالب الشعب والموظفين وارادة السلطة العسكرية •

وقد أنذر القائد العام الموظفين بالفصل ان لم يعودوا الى دواوينهم وتوعدهم بالمحاكمة العسكرية ان حرضوا على الاضراب ، فعاد منهم فريق وقبضت السلطة العسكرية على زعمائهم الذين لم يعودوا فى الموعد المحدد •

وفى الحادى والعشرين من ابريل ألف محمد سعيد باشا الوزارة وصرح لمندوبى الصحف يوم تأليفها « أنها وزارة ادارية » لا تبت فى شىء له مساس بمركز مصر السياسى •• وليست لها صبغة سياسية لان المسألة المصرية لم يبت فيها بعد فى مؤتمر الصلح ، وانها ستجتهد فى استدعاء الجمعية التشريعية والغاء الاحكام الاستثنائية ، ومنها قانون المطبوعات •

ولقد كان محمد سعيد باشا رئيس هذه الوزارة رجلا داهيا يحب بما استطاع من دهائه أن يجمع بين قضاء أغراضه واستبقاء سمعة سياسية يلبس لها لبوسها فى كل مجال وعند كل فرصة • وكانت العلاقة بينه وبين سعد باشا علاقة فتور وجفاء منذ كانا فى الوزارة معا ثم وقع بينهما ما وقع من الخلاف الشديد فى الجمعية التشريعية، ولهذا حاول سعيد باشا أن يجمع وفدا ثانيا الى جانب الوفد السعدى لينازعه قيادة الامة والدفاع عن القضية ، معتمدا فى أول الامر على الامير عمر طوسون وأفراد من بقايا الحزب الوطنى • ثم أحس نفور الامة من هذا المسعى

وصدود الامير عمر عن متابعته فتراجع وظل يرقب الاحوال الى أن عرضت عليه الوزارة • فقبلها ، واخترع صيغة الوزارة الادارية وحيلة تأجيل الوزارات السياسية الى ما بعد عقد الصلح وابرم معاهداته مع الدول المحاربة ومع الدولة التركية على الخصوص لانه رأى فى ذلك مخلصا من جميع الجوانب •

فهو ـ بهذه الحيلة ـ يريح نفسه من المطالب السياسية ولا يصادم الامة فى أمل من آمالها ، ثم هو يستبقى دعوة الحزب الوطنى الى وقت الحاجة لانه الحزب الذى يعتمد على حقوق السيادة التركية فى دعوته الوطنية ، ثم هو يدفع لجنة التحقيق البريطانية بهذه الحجة الى أقصى أمد ميسور حتى اذا جاءت بعد اعتراف الدولة التركية بالحماية البريطانية كما كان منظورا بين جميع العارفين استطاع أن يسوس الامر بغير مشقة مع أمة أشرفت على اليأس ونفضت يديها من جميع الدول ، ووفد بدا فشله للامة •• وحزب وطنى لم يبق له ما يتعلل به من السيادة التركية ولكن بقى له من المنافسة للوفد ما يحفزه لحربه ويطمعه فى الغلبة عليه ، وقد ظهرت للامة هزيمته واخفاقه •

وأقبل سعيد ـ بمثل هذا الدهاء ـ على علاج المشكلات التى خلفتها الحماية والثورة لوزارته ، فاجتهد فى اقناع الانجليز بتحويل قضايا الوطنيين من المحاكم العسكرية الى المحاكم الاهلية ، فاقتنعوا لانهم يضمنون من صداقته لهم واخلاصه فى النصح أنه على الاقل عدو الوفد المصرى ورئيسه •

وتشفع فى تخفيف بعض الاحكام الصارمة فقبلت شفاعته ، ورفع شيئا من الضغط على الصحافة والخطابة،

واستمال اليه الموظفين باغداق العلاوات عليهم وزيادة مرتباتهم حتى بلغت مثيلها .

غير أن الناس كانوا يستريبون بنياته وينظرون الى هذه الاعمال كأنها مخدرات ترمى الى تهدئة النفوس واضعاف الحركة الوطنية ، فأوغرت من صدور الناس عليه أكثر مما جذبتهم اليه ، ونقم الغلاة منه قبول الوزارة وتهيئة الخواطر للرضى بالحالة القائمة . فثار بعضهم عليه ورماه أحدهم بقنبلة لم تصبه ، وبلغ من كياسة الرجل انه ذهب الى المحكمة يؤدى شهادته فطلب الرحمة بالمعتدى عليه لانه انما اجترح فعلته بدافع من عقيدة خاطئة غلبته على صوابه .

واستمرت العلاقات بينه وبين المارشال اللنبى على وفاق الى أن اختلفا على مسألة لجنة ملنر ذلك الاختلاف النموذجي لكل اختلاف بين تفكير العسكرى وتفكير الوزير المحنك من المدرسة التركية . فاللورد اللنبى يرى ان امتعاض المصريين من قدوم اللجنة الى بلادهم سبب كاف لتعجيل قدومها !! وان اقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لاحساب لها ولا اكتراث بها هو المقدمة الصالحة لمجيء اللجنة التى كانت مهمتها الاولى ارضاء تلك العواطف والبحث عن تلك المطالب ! .. فاكراه الناس على قبول الاوامر هو المهم في السياسية العسكرية سواء نجحت اللجنة أو لم تنجح ، وعلى اللجنة وعلى المصريين بعد ذلك العفاء .

ورئيس الوزارة يرى كما علمنا مما سلف أن لا تحضر اللجنة قبل الفراغ من حل القضية المصرية بين الدولة العثمانية صاحبة السيادة والدولة البريطانية .. وهو رأى له قيمته من الدهاء والحصافة ولكن لا قيمة له الى جانب

الاوامر العسكرية ! •• وقد اختلف القائد والوزير فلا محيص اذن من أن يستقيل الوزير •

استقال سعيد باشا وخلفه يوسف وهبه باشا في الحادي والعشرين من نوفمبر فجرى على « السنة الادارية » التى استنها سلفة ، والتزم الحيدة مع اللجنة المقبلة فلم يتخذ له موقفا معها أو عليها • ولكنه لم يستطع أن يمنع بعض الرؤساء الانجليز من تكوين حزب مصطنع من المنبوذين وطلاب المنافع الذين لا خلاق لهم ، أسماه «الحزب المستقل الحر »وأعده للقاء اللجنةومداراة المقاطعة الاجماعية التى ستلقاها • ولم يفلح في هذه المحاولة على الرغم مما بذل فيها من المصروفات السرية والغوايات المختلفة •

أما اللجنة التى تفاقم حولها هذا الخلاف فقد وصلت في السابع من ديسمبر وهى محوطة بسوء الطالع من كل مطلع • وكانت ممثلة لجميع الاحزاب الانجليزية ومؤلفة من رجال قديرين مشهود لهم بمعرفة الشئون المصرية والمسائل السياسية عامة ، وهم اللورد ملنر وزير المستعمرات ، والسير رنل رود سفير انجلترا السابق في روما ، والقائد السير جون مكسويل الذى كان بمصر في أوائل الحرب العظمى ، والسير أوين توماس الخبير بمسائل الرى ، والمستر سبندر الكاتب الصحفى المعروف ، والسير سسل هرست الحجة في القانون الدولى ، ومعظمهم ممن عرفوا مصر بالخبرة والاطلاع •

لكنهم حضروا والفشل يسبقهم ، والصدور موغرة بما توالى على الناس من دواعى الكراهية والنفور ، ووظيفة رئيسهم توحى الى الناس انه سيجعل مصر احدى المستعمرات البريطانية •

وقبل أن ينقضى على اللجنة أسبوعان أو نحو أسبوعين سرى فى مصر نبأ القرار الذى اعتمده نواب الولايات المتحدة وهو رفض المعاهدة التي وقعها الرئيس ويلسون • فبدلا من أن تجيء اللجنة وتركيا معترفة بالمعاهدات كما كان يريد محمد سعيد ، جاءت الولايات المتحدة ـ وهي قبلة أنظار العالم فى ذلك العهد ـ تنقضها وتفتح الرجاء لابطالها وتحقيق آمال الشعوب المخذولة فيها •

وما استقرت اللجنة أياما حتى أحست أنها فى حصار محكم من المقاطعة الاجماعية لا يتخلله منفذ الى لقاء أحد يجديها لقاؤه ، ورأى اللورد ملنر من روح الوطنية المصرية غير ما كان يعهده فى أيامه السالفة بمصر كما قال لبعض أصحابه • فلجأ الى الملاينة والمصانعة ، وحاول أن يفسر غرض اللجنة تفسيرا يحافظ به على الحدود التى رسمتها الحكومة البريطانية ويجتنب فى ظاهره الكلمات المثيرة التى تنفر المصريين وأخصها ذكر الحماية ، فنشر على الناس فى التاسع والعشرين من ديسمبر بيانا قال فيه :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من الحقوق التى كانت لها الى الآن ، ولا أساس على الاطلاق لهذا الاعتقاد فان اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني لاجل التوفيق بين أمانى الامة المصرية والمصالح الخاصة لبريطانيا العظمى فى مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التى لجميع الاجانب القاطنين فى البلاد• ونحن على يقين من أنه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر

قائمة على اتفاق ودى يزيل أسباب الاحتكاك ويمكن الامة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شئون البلاد فى ظل أنظمة دستورية **Self Governing Institutions** وتنفيذا لهذه المهمة تريد اللجنة أن تقف على كل الآراء ، سواء صدرت من هيئات نيابية او أشخاص يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم ، ويمكن ابداء كل رأى بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة فى تقييد حدود المناقشة كما أنه لا يخشى أى فرد أن تعتبر مقابلته للجنة تنازلا منه عن معتقداته • فانه لا يعد متنازلا عن معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هى متنازلة بسماعها • وبغير الصراحة التامة فى المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم والوصول الى الاتفاق » •

ويلاحظ القارىء أن اللجنة ترجمت العبارة الانجليزية **Self governing** بالانظمة الدستورية وهى ترجمة غير دقيقة ، صححناها فى صحيفة الاهرام يومئذ بترجمتها الحرفية وهى أنظمة « حكم ذاتى » .

ولوحظ هذا الاختلاف فى الترجمة فكان له شأن فى اختلاف الرأى بين خطة سعد وخطة عدلى وأصحابه بمصر حيال اللجنة • فقد قال عدلى فى خطاب له الى سعد مكتوب فى التاسع والعشرين من يناير : « رأينا قبل عمل أى شيء أن نعجل بالكتابة لتوضيح نقطة هامة كان لها بحق أثر كبير فى قراركم الذى اتخذتموه • وهذه النقطة هى ما فهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق للغاية من المناقشة فجعلها (وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى) مما جعلكم تعتقدون انه مع هذا التحديد لا تنتقل المسألة المصرية من مركزها فلا ترتفع به الحماية بل تتأكد • والواقع انه حصلت بيدنا وبين اللورد ملنر مناقشة فى هذا

الموضوع وأكد لنا أن النص الانجليزى ليس معناه الحكم الذاتى الذى يعبر عنه بـ **Self governing**
بل معناه الحكومة الدستورية وان الفرض من ذكر هـذه العبارة في البلاغ بيان ان الحكومة الانجليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة حكومة لا تكون ذات نظام دستورى ، وكذلك كانت الترجمة العربية الرسمية وفق هذا التفسير ولولا هذا لكانت أحاديثنا مبنية على غير أساس ، ولما جاز لنا أن ننقلها اليكم ونستنتج منها ما استنتجناه » .

والقرار الذى اتخذه سعد وأشار اليه عدلى فى الخطاب المتقدم هو قراره الذى نشره فى بلاغ بعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها وقال فيه ما نصه :

« يحاول الاقوياء بجميع الوسـائل أن ياخذوا منكم رضـاه بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدوكم ضـعفا ، فلا تنخدعوا اذا وعدوكم ولا تخافوا اذا هددوكم ، واثبتوا على التمسك بحقكم فى الاستقلال التام فهو أمضى سـلاح فى أيديكم وأقوى حجة لكم ، فان لم تفعلوا ــ وليس فى قوة ايمانكم الوطنى ما يجعل احتمالا لذلك ــ خذلتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضـيكم وأنكرتم حاضركم ومددتم للرق أعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزلتم بأمتكم ذلا لا يرفع منه عز ، وأن تفعلوا ــ كما هو أكبر ظنى فى عظم اخلاصكم ومتين اتحـادكم وقوة وطنيتـكم ــ فقد استبقيتم لانفسكم قوة الحق وأعددتم لنصرتكم قوة العدل فلا تذلوا وان قهرتم ، ولا تخشوا وان ظلمتم ، ولابد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتتحقق باذن الله الاله القـدير آمالى وآمالكم فى الاستقلال التام » .

وصل هذا البلاغ الى مصر ونشر في صحفها عند منتصف يناير ، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعلنت بلاغا فى معناه عقيب صدور البيان المتقدم من لجنة ملنر ، وتعاقب على أثره صدور البلاغات فى هذا المعنى من ذوى الشأن والرأى فى مقدمتهم الامراء والعلماء ، وأيقنت اللجنة ـ لجنة ملنر ـ أن لا رجاء فى الاتصال بينها وبين الامة المصرية على قاعدة البيان الجديد ، لان هذا البيان لم يغير من الامر شيئا ، ولان الامة لا ترى لها مصلحة فى تجاهل وفدها النائب عنها فى قضيتها كما ترى السياسة الانجليزية المصلحة فى هذا التجاهل أو هذا التفريق بين الامة ودعاتها ، فلم يعد للجنة مناص من السفر أو من القناعة بما عندها من وسيلة لاستطلاع الآراء هنا وهناك وزيارة بعض أعضائها لبعض أصحابهم الذين كانوا يعرفونهم من سراة المصريين فى القاهرة أو الريف ، وشاع بين أبناء الريف أن أعضاء اللجنة الملنرية يطوفون البلاد خفية فأصبحوا يستريبون بكل سؤال يلقيه عليهم أجنبى غير معروف ، ورويت فى ذلك أحاديث شتى تدخل فى باب الملح والطرائف ولكنها تدل فى الوقت نفسه على الجد فى كراهة الحماية وحب الاستقلال والوفاء لزعيم الوفد والحذر من حيل الاستعمار . فكان الفلاح الساذج اذا سأله أجنبي لا يعرفه : أين الطريق ؟ بدر الى ذهنه انه عضو من أعضاء اللجنة يتخفى لاختلاس الآراء والاجوبة بغير علم الوفد فأجابه على الفور : عليك بسعد فى باريس يخبرك أين الطريق ؟ واذا سأله : هل لك أولاد ؟ أو سأله : كم أجرك فى اليوم ؟ لم يزد على أن يحيله الى سعد فى باريس فهو أعلم بالجواب ! ولا يبعد أن يكون أعضاء

اللجنة الذين اختلفوا الى الاقاليم قد صادفوا شيئا من هذه الاجوبة وعرفوا من دلالتها السياسية ما هو أدل وأجلى مما كانوا يقصدونه بالتحقيق والسؤال .

ولا ينبغي أن ننسى أناسا من الداعين الى مقاطعة اللجنة قد تشعبت بواعثهم ونياتهم فلم يكونوا جميعا على نية الامة في تأييد الوفد ورعاية حق نيابته أو صون كرامته عن مهانة التجاهل الذى قصدته الحكومةالبريطانية ، فكان ممن اتخذوا المقاطعة أناس اتخذوها احباطا لكل مفاوضة يجريها الوفد في الحاضر والمستقبل ، ومنهم خصوم له كانوا يرضون باليسير في حل القضية المصرية ولا يطمعون في استقلال تام ولا ناقص ، ولكنهم يصطنعون الغلو ويؤثرون التصعيب وتوسيع المسافة بين طرفي الاتفاق لاعتقادهم ان كل شرط يوضع للمفاوضة المقبلة انما هو عقبة فى طريق الوفد دون غيره من الرجال الرسميين ، فان هؤلاء الرجال الرسميين لا يلقون اعتمادهم على الثقة القومية والمبادىء السياسية ، بل يلقون أكثر اعتمادهم على قوة الحكومة ، ومن ورائها قوة الاحتلال .

أما الوزراء الذين كانوا معروفين يومئذ باسم أصدقاء الوفد ـ وهم رشدى وعدلى وثروت ـ فقد أخذوا بالحيطة فلم يغضبوا الوفد ولم يغضبوا اللجنة ، وكتبوا في السابع من يناير خطابا الى سعد يقترحون فيه عليه أن يعود هو وأصحابه الى القاهرة لمفاوضة ملنر بعد الوعود التي افضى بها اليهم ولا تخرج عن معنى البيان المتقدم ، فلما أجاب الوفد بامتناع ذلك لان بيان ملنر يحصر الغرض من المفاوضة فى الحكم الذاتى اجابوه بما أسلفنا من تفسير كلمة « الحكم الذاتى » كما جاءت فى الصيغة الانجليزية

٠٠ وقالوا ان اللورد ملنر لا يرى مانعا من دخول الوفد المفاوضة على أســاس الاســتقلال التام ، وان كان هو لا يستطيع الجهر بهذا الاساس ولا يزال يرجو بعد تمام المفاوضة أن يحسن « للرأى العام الانجليزى » قبول ماليس يقبله الآن ٠

وقد بسط سعد تفصيل رايه فى بيان رد به على التقرير الذى جاءه من لجنة الوفد المركزية مع على ماهر بك ، وفيه يقول « بتاريخ الحادى والعشرين من يناير :

« ٠٠ اننا لم نجد فى بلاغ ملنر شيئا يخالف التصريحات السابقة عليه الا خلوه من لفظ الحماية وحسن أسلوبه ٠ اما فى الجوهر فقد وجدناه متفقا معها تمام الاتفاق اذ هو مثلها يعتبر مصر تابعة لانجلترا ، ولجنة ملنر لجنة تحقيق موقف المصريين معها موقف المجيب من المستجوب ، وغاية أبحاثها الوصول الى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى ٠ ونحن لا نعترف بشىء من ذلك ،فلا تبعية لانجلترا علينا ولا نعرف لهذه اللجنة سلطة التحقيق فى بلادنا ، والغاية التى نسعى اليها هى التمتع بجميع حقنا فى الاستقلال التام ٠ نعم أن هذا البلاغ وسع مجال المناقشة ولكنه ضيق الغاية منها فجعلها وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى ؛ وبذلك هدم بيد ما بناه باليد الاخرى وزاد ان اشترط عدم ترتيب الالتزام على هذا التوسيع فحفظ بهذا الاشتراط لنفسه حرية العمل وهو تحديد الغاية الذى لا ينقل المسألة من مركزها ، فلا ترتفع به حماية بل تتأكد ، ولا يتم به استقلال بل يقل ، ولا يفيد الا شيئا واحدا وهو تسهيل مأمورية التحقيق على اللجنة، وما كان للمصريين أن يعرفوا لها هذه الصفة ولا أن يسهلوا

ليا هذه المأمورية • وأكبر ما نعطيه أو تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير • زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم وضد اجماعهم بأن استعملت كل وسائل الشدة معهم تمهيدا لوصولها وشكلت وزارة لم يرض الرأى العام بها •

« ان عودة الوفد أو بعض أعضائه على أثر هذا البلاغ لم يخطر ببالنا للاعتبارات السالف ذكرها ، ولان الانجليز لا يتأخرون أن يتخذوا منها حجة على فوز سياستهم ويبنون عليها كثيرا من الاقوال التى ينشرونها لتضليل الرأى العام فىأوروبا عموما وانجلترا خصوصا • وربما كان يسهل علينا أن نتعرض لمثل هذا الخطر ونعجل لهم ذلك الفوز لو أنهم وعدونا بشيء فى مقابلته وعدا صريحا يصح الاعتماد عليه • ولكنهم لم يفعلوا ، وليس لنا أن نتوهم أنهم سيفعلونه بعد عودتنا على غير وعد سابق • لو أنهم مع توسيع مجال المناقشة أطلقوا الغاية منها لصح لنا أن نتعشم أن نقنعهم بالبرهان الصادق والحجة الدامغة بصحة مطالبنا ، ولكنهم حددوها بما دون ما نطلب حتى فى ذلك البلاغ الذى نشروه بقصد استرضائنا • فكان مثلهم فى ذلك مثل بعض القوانين الالمانية القديمة التى كانت تقضى بسماع الشهود بعد الحكم فى الدعوى ، ولهذا رأينا أن العودة ارتكانا على البلاغ المذكور لا تكون الا عبثا مقرونا بالخفة والمخاطرة • ويصح للانجليز وغيرهم أن يقولوا انه كفى أن يغير شكل التصريح وأن يؤتى ببعض العبارات الطلية فى أن تغير الامة المصرية بتمامها خطتها نحو اللجنة فتخرج من مقاطعتها الى المفاوضة معها • كلا ! اننا لم نبلغ هذا الحد من البساطة والسذاجة : ان المسألة أكبر بكثير من أن يكون لاختلاف الصور والاشكال تأثير فيها • اننا

نقبل العودة للمفاوضة على شرط ان تكون بين متعادلين في حقوق المناقشة وطرفين كل منهما يمثل أمة ، وأن يكون الغرض منها الوصول الى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها التام ولانجلترا مصالحها التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل في عصبة الامم • فاذا صرح الانجليز بذلك رسميا هنالك لا نتأخر عن العودة لمباشرة المفاوضة متى الغيت الاحكام العرفية وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عندما نريد • أما المفاوضة في أوروبا فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ما دامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها الالتزام بشيء ما • وما دام أن العبرة بما يتم عليه الاتفاق في حدود التفويض لنا ، فاذا كان الانجليز يرغبون حقيقة في ودنا وفي بناء علاقاتهم على الاتفاق معنا فلا شيء أسهل عليهم من اتباع احدى هاتين الطريقين للوصول الى الغاية • وهم لابد أن يفهموا أن الامة المصرية وصلت من اليقظة والانتباه ومعرفة حقوقها الى درجة لا تركن معها الى الاقوال ولا تعتمد فيها الا على الاعمال ولا ترضى عن استقلالها التام بديلا • نعم أن في قوتهم ارغامها على النظام الذى يريدون وضعه فيها ، وقد لا يبعد عليهم أن يحملوا كل الدول على الاعتراف بحمايتهم علينا • ولكن حقنا لا يضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف • بل يبقى ثابتا ونبقى مستمرين على المطالبة به والسعي للحصول عليه ، واذا لم يكن في الحكومات الاجنبية الآن من يمد يد المساعدة الينا ففي شعوبها كثير من الاحرار يعطفون علينا وينتصرون لقضيتنا باقلامهم وخطبهم ، وما يدرينا أن يظهر غدا المساعد لنا ؟ وللزمان تقلبات تجعل الخليف عدوا والعدو حليفا • ولا يصح ان

أن نسقط من حسابنا اتساع ملك بريطانيا وتباعد اطرافه واضطراب الاحوال فى ممتلكاتها وجوارها وانتشار المبادىء الديمقراطية فى العالم عموما وفيها خصوصا ، وتهديد حزب العمال لحكوماتها بالاستيلاء عليها وقربه من هذه الغاية يوما فيوما كما تؤيده الانتخابات الجزئية والاعتصابات التى كثر تواليها فى هذه الايام · كل هذا يجعلنا أن لا نغامر بحقنا وأن نبقى متشددين فى التمسك به ومقاطعين باللجنة التى حضرت رغم أنوفنا لحملنا على الرضاء بانقاصه حتى تعود خائبة · فتعلم الانجليز ويعلم الامة العالم معها أن مصر متحدة تمام الاتحاد على الوصول الى استقلالها التام ، وأن ارادتها على ما تكره مخالف لشرف الوعود التى بذلتها انجلترا ومناقض للعهود التى سجلتها وغير منطبق على المبادىء التى قبلتها ومكدر على الدوام لسلمها ومقلق لراحتها ، وان خير سياسة تتبعها هى أن تبر بوعدها وتتخذ من مصر حليفة صادقة لها لا تابعة نافرة منها تترقب الفرص دائما للخروج عليها وتفضل الموت على الاستسلام لها ·· »

هذا بيان مفصل برأى سعد فى احتمالات الحالة من جميع أطرافها ، ومنه نعلم لماذا كان على خلاف رأى الوزراء ـ الاصدقاء ـ فى العودة الى القاهرة لمفاوضة ملنر ، ونعلم انه لم يكن يرفض المفاوضة اذا جرت فى أوربا لانها لاتكون هناك بمثابة تحقيق تجريه الدولة المتبوعة فى بلاد رعاياها فضلا عما فيها من اعتراف اللجنة بوكالة الوفد عن الشعب المصرى ، وهى لا تجهل نصوص ذلك التوكيل ولا مطالب الشعب المحدودة فيه ·

وبديه أن الوزراء الاصدقاء ـ لم يكونوا لينتظروا لهم

« دورا » يقومون به قبل تمام المفاوضة بين الوفد ولجنة ملنر وانتهائها الى صيغة محدودة يتفق عليها الطرفان أو يظهر منها على الاقل مبلغ استعداد الانجليز لاجابة المطالب الوطنية ، فأما قبل ذلك فليس فى وسع الوزراء أن يفاوضوا اللجنة فى تفصيلات الاتفاق بمعزل عن اجماع الامة وموقف الوفد بباريس ولجنته المركزية بالقاهرة فى وقت واحد ، ولو أنهم أقدموا على هذه المفاوضة العقيمة لخسروا الجانبين معا وأخفقوا فى تقرير الاتفاق المطلوب لا محالة ، ورجعوا وحدهم بتبعة الفشل أمام الامة وأما الانجليز ، فهم لم يخطئوا فى تقديرهم أن المفاوضة بين الوفد ولجنة ملنر لابد أن تسبق كل «دور» يقومون به فى هذه المرحلة ومن ثم اجتهدوا فى اقناع سعد بالحضور الى مصر أو ايفاد من ينوب عنه لمفاوضة اللجنة، وكانوا متعجلين ولا شك فيما اقترحوه ، لانه اقتراح أقل ما فيه أن يدل اللجنة الملنرية على تهافت المصريين وتراميهم على هذه الفرصة المدخولة ترامي المناضل الذى استنفد موارده الاخيرة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس فى شىء من هذا ما يغرى اللجنة بالتوسع فى اجابة المطالب المصرية أو يرجع عندها أن تتوقع رفضا لما تعرضه أيا كان الحل المعروض ، فلما تريث سعد ولم يقنعه تفسير العبارة الانجليزية ذلك التفسير الذى أسرع الوزراء الى قبوله دار الكلام فى ايفاد رسول من قبل اللجنة الى باريس لتمهيد المقابلة بينها وبين الوفد بعد عودتها من القاهرة .

وقد دارت المناقشة بين عدلى وسعد فى تفسير العبارة الانجليزية وما احتوته من الاشارة المزعومة الى الانظمة الدستورية فاعرب سعد عن شكوكه فى خطاب الحادى عشر

من فبراير الى عدلى باشا اذ يقول : « .. نعم ان ترجمتكم العبارة الانجليزية Self governing بالحكومة الدستورية هي الاصح ولكن صحة هذه الترجمة فى نفسها لا تحمل على تعديل قرارنا لان هناك أسبابا أخرى غيرها ، ولان ايرادها في المكان الذى وردت فيه من البلاغ مع عدم اقتضاء المقام لها بعد التصريح فيه بأن مأمورية اللجنة هى التي صورتها الحكومة ووافق عليها البرلمان يوقع فى الذهن بأن المقصود بها هو المعنى الذى فهمنـــاه · والقول بأن القصد منها انما هو الا يكون الاتفاق الا مع حكومة دستورية لا يتفق فى ظاهره مع كون هذه العبارة وردت على أنهـــا نتيجة للتعاقد لا وسيلة له ، ومع ذلك فاذا كان القصد منها هو كما يؤكد جنابه من أن الحكومة الانجليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة الا مع حكومة ذات نظام دستورى ـ لزم قبل كل شيء وضع هذا النظام لتشكيل حكومة دستورية تكون أهلا للتعاقد على تحديد العلاقات بين مصر وانجلترا »

ومن هذا الخطاب نفهم أن سعدا لم يأخذ بالتفسير كما جاء في حديث ملنر مع الوزراء ، ولكنه أراد أن يستفيدمن ملاراة ملنر والوزراء على تفسيرهم بأن يمهد به لانشـــاء الحياة النيابية وقيام الحكومة الدستورية ، ويجس النبض لاستطلاع ما هنالك من النيات والخطط المرسومة ، فـان جاء الدستور فذاك ، وان لم يجيء لسبب من الاســـباب فظهور ذلك السبب خير من كتمانه والمواربة فيه ·

قال سعد فى خطابه المتقدم بعد ما أسلفناه :« ولا أخفى عليكم ان فكرة هذا النظام خطرت أول الامر ببالنا على أنها

الوسيلة القانونية لحل المسألة • لذلك نحن نوافق كل الموافقة عليها بل نحبذها ، والطريقة المثلى للوصول الى هذه الغاية في رأينا هي أن يبدأ بتأليف وزارة من غير أعضاء الوفد موثوق بها ، ويكون البروجرام الذى تعلنه هذه الوزارة هو وضع ذلك النظام ثم المفاوضة مع الحكومة الانجليزية بغرض الوصول الى وضع اتفاق يضمن استقلال مصر التام ومصالح انجلترا الخصوصية• ثم عرض ماتنتهى المفاوضة اليه على الهيئة النيابية التى تتألف بموجب ذلك النظام للتصديق • ومتى تم تشكيل الوزارة على هذا النحو وأعلنت بروجرامها على هذه الصيغة أو بما فى معناها لا نتردد نحن وزملاؤنا في العودة الى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الامة والسعى فى أن تنتخب أعضاء لهذه الهيئة . اذا تم لكم أن تفعلوا ذلك خدمتم بلادكم أجل خدمة ، وخلدتم لكم فى التاريخ أحسن الذكرى » •

وزاد الموضوع تفصيلا بخطاب فى اليوم التالى (١٢ فبراير) قال فيه : « ان الطريقة التى عرضناها فيما كتبناه لكم هى فى اعتبارنا أمثل طريقة لحل العقدة الحاضرة ،لانه من الطبيعى أن تجرى مفاوضة مع هيئة رسمية موثوق بها خصوصا من الامة • وأن يصدق على ما تنتهى المفاوضة اليه من النواب الذين تختارهم لهذه الغاية ، وهى تقرب فى ظننا من التى يظهر أن اللورد ملنر يدلى بها فى محادثاته معكم •• وفيما أكد لكم من المقصود بالعبارة الانجليزية : السابقة التىأوردها فى بلاغه. ان لم تكن هى بذاتها. ولهذا يغلب على ظننا أنه يهش لها ويعمل على تنفيذها ولا يصعب عليه أن يتضمن بروجرامكم عبارة الاستقلال التى

أوضحناها فيما كتبناه لكم لانها لا تربط غيركم • وهى فوق ذلك ضرورية جدا حتى لا تقابلكم الامة بالنفور الذى تلاقى به كل وزارة لا يكون السعى الى هذه الغاية أول قصدها وأكبر همها ، نعم ان فيها مشقة عظيمة لكم ومسئولية كبرى عليكم ولكنها ليست فوق همتكم ، وأنتم أهل لتحمل كل هذه المسئولية فى خدمة بلادكم ، والوفد مستعد لان يعمل ما فى وسعه لتسهيلها عليكم ، ولهذا يرى أن يكون أعضاؤه خارجين عن هيئتكم حتى لا يساء الظن فى نزاهتكم • وتبقى الثقة فيهم يستعينون بها فى تأييدكم وتمهيد الطريق أمامكم . وبعد أن تتألف الهيئة الجديدة تحت رئاستكم ، وتعلن بروجرامها لا يترددون فى العودة ليكونوا قريبين منكم يعملون فى تنوير الافهام وصيانة الرأى العام من خطرات الاوهام ، التى لا يقصد ذوو الاغراض الفاسدة من بثها فيه وتسليطها عليه الا ترويجا لمقاصدهم الفاسدة وتحصيلا لمصالحهم الباطلة ، ولا يهمنا فيمن تختارونهم لمعاونتكم الا أن يكونوا محلا لثقتكم وأهلا لان يتضامنوا معكم فى تحمل تلك المسئولية الكبرى » •

وقد أجاب عدلى بخطاب فى الخامس والعشرين من فبراير قال فيه : « نعم أننا على رأيكم من أن وجود هيئة وزارة تعمل على تحقيق الامانى القومية وتثق بها الامة فى ذلك من أهم الامور • وربما كانت الوسيلة القانونية الوحيدة للحصول على الغاية التى ننشدها • ولكننا نرى أيضا انه لا يصح أن تستأثر هذه الهيئة بالمفاوضة وحدها وبوضع النظام الدستورى للبلاد ، بل يجب أن يكون هذا بالاشتراك مع الوفد ، وطريقة العمل فى ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى للوصول الى اتفاق يوفق

بين استقلال مصر والمصالح الانجليزية والاجنبية ووضع مشروع نظام دستورى للبلاد ثم تعهد المفوضة لهيئة تضم بعضا من أعضاء الوزارة ، وبعضا من أعضاء الوفد » .

بعد هذه الرسائل المتبادلة بين سعد وعدلى انجلت سياسة سعد وسياسة الوزارة « الاصدقاء » مع لجنة ملنر .. بل انجلت سياسة كل من الفريقين مع الفريق الآخر . وأصبح فى وسع الناظر الى ما وراء الظواهر أن يلمس النيات التى توحى الى كل فريق بسياسته ومقترحاته .

فسعد يريد حلا للقضية المصرية لا مغالطة فيه ، ويريد أن يترك للوزراء « الاصدقاء » ما هو للوزراء ويبقى للزعامة ماهو للزعامة . فليس عنده ما يمنع أن تفاوض الوزارة الصديقة الانجليز متى ضمن سلامة المفاوضة وعرض النتيجة على الامة . وهو لا يريد أن تسيطر الحكومة على الرأى العام أو تعرض الوفد للانقسام لانها اذا أدت عملها مستقلة به بقى للوفد عمل آخر عند عرض النتيجة على الهيئة النيابية المماثلة للامة ، ولا بأس فى أن يقوم به يومئذ متفقا مع الوزارة ، لان المرجع فى جميع ذلك الى ميدان الانتخاب الذى يجوز لاعضاء الوزارة كما يجوز لاعضاء الوفد أن ينزلوا اليه .

أما سياسة عدلى فهى قبول الوزارة مع التزام الخطة التى جرى عليها هو وزملاؤه من مبدأ الحركة الوطنية ، وهى خطة الانتفاع بنفوذ سعد والاحتراس منه فى وقت واحد . أو هى اشراك الوفد فى التبعة حذرا من رقابته وتعقيبه اذا استقل الوزراء بالمفاوضة والاتفاق على القضية العامة ! وهذه سياسة هى أدنى الى العداوة منها الى الصداقة وخلوص النية . فهم لا يريدون أن يدعوا سعدا حرا فى عمل واحد ، ولا يعنيهم الا أن يشركوه معهم فى

التبعة ويسوقوه حيث انساقوا ويقطعوا عليه سبيل التعقيب والملاحظة ويقدموه أمامهم خطوة خطوة ليحموا ظهورهم ويحفظوا لانفسهم طريق الرجعة ٠وكلما استطاعوا أن يهونوا عليه قبول ما قبلوه أسرعوا الى محاولة اقناعه لانهم لا يخسرون شيئا وانما هو الخاسر عند الجمهور ان قبل !! بل لعلهم يكسبون أن يقنعوا الناس كما أقنعوا أنفسهم بأنهم كانوا على صواب فى قبول الحماية ٠ وأن الامة لن تنال بالثورة أو بغير الثورة وبالزعامة أو بغير الزعامة ــ اكثر مما قبلوه ٠

فحسنوا لسعد أن يعود الى مصر ويرضى بمغالطة نفسه ومغالطة الامة فى الالفاظ التى لا تسمح بالمغالطة ٠ ثم حسنوا له أن يشترك بفريق من أعضاء الوفد فى هيئة المفاوضة ليدخلوه فى التبعة وهم قابضون على زمام الحكومة ومن قبل ذلك رحبوا فى أيام الحرب العظمى بدخوله معهم فى الوزارة ليعترف بالحماية كما اعترفوا بها ، ونظروا فى ذلك الى أنفسهم غير ناظرين الى البلد الذى كان يجوز أن يهيب بسعد أو يهيب سعد به الى بلوغ ما لم يبلغوا من استقلال وحرية ، وأبوا بعد الهدنة أن يسافروا الا اذا سافر هو يوم جاءهم الاذن بالسفر الى العاصمة البريطانية وكل ما صنعوه بعد ذلك فى مفاوضات ملنر وكرزون مطرد مع هذه الغاية ومنبعث من هذه النية ، وهى أن يقاسموا سعدا فى كل ما يدركه وأن يشركوه معهم فى كل ماوقعوا فيه ، وأن لا يتركوه حرا فى فرصة من الفرص ليطلب فوق ما طلبوه وينال فوق ما عسى أن ينالوه ٠

وهى خطة حافظ الوزراء « الاصدقاء » عليها أدق محافظة ، ولن يتأتى لهم أن يتبعوها على نمط واحد بغير

تفاهم وممالأه ، ولن يقع التفاهم عليها مع الصداقة وخلوص النية ، وسواء حسنت نتائجها أو ساءت فهذا الذى قصدوه بما بذلوا من مساعدة أو نصيحة ، وعلى حسب هذا القصد يكال لهم العذر أو الملام .

وقفت مسألة الوزارة التي دار الكلام عليها في الرسائل السابقة لان اللورد ملنر لم يستحسنها عندما فاتحه عدلى فيها ، وتعلل بقوله « ان الفكرة لاربأس بها . ولكنى لاأرى من المصلحة تغيير الوزارة الآن ، لانه اذا شكلت وزارة مهمتها المفاوضة فربما اعترض هذه صعوبات يكون من نتائجها سقوط الوزارة . على أن أعضاءها - وهم الذين سيكون عليهم المعول في ادارة البلاد - يجب أن لا يكونوا عرضة للتخلى عن خدمة البلاد بمجرد اشكال يمكن أن يحل فيما بعد » .

فقال عدلى : « لم يبق اذن سوى حل واحد وهو أن تتفاوضوا مع الوفد » .

وحوالى هذا الوقت ختمت لجنة ملنر أعمالها فى مصر وأصدرت في السادس من شهر مارس بيانا رسميا قالت فيه انها أنجزت بحوثها وأجلت عملها الباقى الى أن تجتمع بلندن بعد عيد الفصح لتحضير تقريرها ، وذهب رئيسها في رحلة الى فلسطين مكث فيها نحو أسبوعين ثم عاد الى الاسكندرية في السادس والعشرين ، وقفل منها الى بلاده

أما الحالة فى الفترة التى قضتها اللجنة بمصر فخلاصتها انها أسفرت عن اخفاق السياسة البريطانية في التفرقة بين الوفد والامة ، وعن نجاح الحركة الوطنية فى زعزعة الحماية التى كان الضعفاء يحسبونها قضاء مبرما لا يدفعه دافع ،ولاح من كلام الصحف المشهورة بنزعتها الاستعمارية

عقب رجوع لجنة ملنر من مصر أن الحكومة البريطانية لم تجد بدا من التفكير فى الغاء الحماية ، فصرح بعضها - ومنها الديلى ميل - بما يفيد تلك النية ٠

ولقد لمست الامة المصرية قوة اجماعها بيديها فى أيام اللجنة الملنرية ، وشعرت باستقلالها حقيقة ماثلة فى ضميرها وان جحدته المظاهر الرسمية ، فصمدت على التفاؤل واطمئنان الى المستقبل غير حافلة بما بدا من ضعف الاعضاء الوفديين الذين تراجعوا على أثر ما اصطدموا به من اعتراف الدول جميعا بالحماية ، وأعان المصريين على تحدى هذا الاجماع انهم رأوا مؤتمرا كالمؤتمر الامريكى يرفض معاهدة فرسايل ، فشعروا بأن اجماع الدول على توقيعها ليس بالسد المنيع الذى يستعصى اختراقه ويحق عليهم اليأس من تداعيه يوما بعد يوم كلما تبدلت أطوار الشعوب وعلاقات الحكومات ٠

وظل النفور مستحكما بين الحكام العسكريين والامة المصرية فى ابان زيارة اللجنة الملنرية ٠ وكأنما كان يهم هؤلاء الحكام العسكريين أن يوقعوا فى اخلاد المصريين ان حضور اللجنة الى هذا البلد لا يعنى أن الدولة البريطانية تبالى بشعورهم وتكترث لرفضهم أو قبولهم ٠ فدأبوا على الغطرسة والعناد وعز عليهم أن يغيروا ما عودوا الناس من سطوة وارهاب ٠ ولولا قليل من الحرية فى نشر بعض الآراء لظلت الحالة كما كانت عليه قبل حضور اللجنة بلا اختلاف ٠

وزاد الجو اكفهرارا لجاج حكومة السودان فى مشروعات الرى والزراعة ، وهى المشروعات التى ترمى الى بناء خزان على النيل الازرق وخزان آخر على النيل الابيض واستدراج

الحكومة المصرية الى القيام بتكاليف هـذه المشروعات ، ليستفيد منها أصحاب الاموال فى انجلترا ، ويستعينوا بها على اصلاح الارضين الواسعة وزرع القطن الذى يزاحم قطن مصر ولا ينتفع به أهل السودان • فبلغ الحنق من هذه المشروعات أقصاه ، وساء تأويل كل ما يقال وكل ما يراد فى هذا الباب ، وتعرضت حياة وزيرين مصريين من رجال الهندسة والرى ـ وهما اسماعيل سرى باشا ومحمد شفيق باشا ـ للخطر من جراء البحث فيها ، اذ ألقى بعض الشبان على كل منهما قنبلة فى طريقه ، واتفقت الحادثتان معا فى أثناء زيارة اللجنة الملنرية ، فدلتا على اكفهرار الجو أثناء زيارتهما أيما اكفهرار •

المفاوضة فى لندن

بعد اخذ ورد قبل عدلى باشا ان يقدم موعد سفره الى باريس اجابة لطلب سعد فى العشرين من شهر مارس

ولم تكن هذه الدعوة ابتغاء الوساطة فى لقاء بين الوفد واللجنة كما أشاع بعضهم فى تلك الايام . فقد كان ملنر فى الشرق حتى ذلك اليوم ، وكان محتملا أن يمر بباريس عند عودته خلال ذلك الاسبوع ، قبل ذهاب عدلى الى باريس على أى تقدير .

وانما دعاه سعد لانه اراد أن يعرف بالمحادثة ما لايعرف بالمراسلة ، وأن يطلع على الحقيقة قبل ان يبت بالرأى الحاسم فى مسألة اللجنة ، عن يقين لا تشوبه الظنون

وهنا بدرت من عدلى بادرة جديدة من البوادر التى لا تنى تدل على نيات الوزراء « الاصدقاء » فيما يتخذون من علاقة بسعد خاصة وبالوفد عامة ، فلما أبرق سعد الى عدلى يرجوه « تقديم موعد حضوره الى باريس بقدر المستطاع » كان هم عدلى الاول أن يتمسك على سعد وعلى الوفد بوثيقة مفصلة قبل أن يجيب هذه الدعوة ! . . فأبرق اليه يقول انه « قبل تعيين ميعاد السفر يكون سعيدا لو تسلم خطابا تفصيليا منكم » ... وليس هذا مسلك تعاون خالص ولكنه مسلك تقييد بالاسانيد المكتوبة ... قد يكون فيه مصلحة لعدلى ولكن لا مصلحة فيه للقضية المصرية ولا للمساعى المنتظرة فى المستقبل .

فان القضية المصرية لا تستفيد من وثيقة يبسط فيها الوفد أغراضه المفصلة قبل الاطلاع على فحوى الحالة كلها من محادثة عدلى والموازنة بين المعلومات الاخرى

لقد كان عدلى ينتظر من الوفد خطابا « مفصلا » يكشف فيه نياته نحو اللجنة ونحو مستقبل المفاوضة أن كانت هناك مفاوضة . فأى مصلحة وطنية فى كشف هذه النيات ؟ ولماذا هذا الحرص على تقييد الوفد بخطة مفصلة قبل تعيين موعد السفر ؟ ليس فى ذلك الا انه دليل على بواطن السرائر وعلى الفرق بين مسلك المعاونة الخالصة ومسلك التمسك بالوثائق والقيود كما يتمسك الخصوم .

وغنى عن القول أن سعدا لم يجب هذا الطلب الغريب، ولكنه كرر الرجاء على عدلى بالاسراع فى السفر « لتبادل الاراء » .

فبرح الاسكندرية فى السادس عشر من ابريل ، ووصل الى باريس فى الثانى والعشرين منه ، وفى هذا دليل على أن الغرض الاول من دعوته لم يكن هو السعى فى تدبير مصادفة للقاء بين الوفد واعضاء اللجنة الملنرية اثناء اجتيازهم بالعاصمة الفرنسية ، وانما كان الغرض الاكبر منه استيفاء المعلومات التي ينبنى عليها رسم الخطة التالية بعد تجربة اللجنة فى البلاد المصرية .

اما اللورد ملنر فقد عاد من مصروهو يعتقد أن مفاوضة الوفد امر لا محيص منه قبل تقرير النظام الذى يوصى الحكومة البريطانية باتباعه ، لانه اذا فرض نظامه فرضا على الأمة المصرية قابلته لا محالة بالنفور والمقاومة وضاعت المنح التى لعله يوصى بها هدرا فى تيار هذه المقاومة ، فلا

هو احتفظ بها للمساومة والاخذ والعطاء ولا هو ارضى الامة المصرية ، ولا هو جرى على سنة تقرير المصير التى يهم الدولة البريطانية ان تجرى عليها بعد شيوعها على الالسنة فى اثناء مؤتمر الصلح ، والتحـــدث بمبادىء الرئيس ويلسون ، وقيام عصبة الامم الجديدة بما لها من حق الاشراف على الوصاية والانتداب وما اليهما من العلاقات بين الدول القوية والامم التى لا تملك استقلالها وسيادتها . وخير للحكومة البريطانية ان تعامل مصر على اساس التعاهد والاتفاق من ان تحسبها غنيمة مملوكة تدخل فى حساب المقايضات والمنافســـات بين الدول الاستعمارية . فان معاملة مصر على هذا الاساس تخرج بها من حساب المقايضات والمنافسات وتحفظ لبريطانيا العظمى سمعة الديمقراطية وحسن العلاقة بينها وبين الشعوب العزلاء المطالبة بحقوق الحرية

ورأى اللورد ملنر انه لو اهمــل الوفد المصرى كل الاهمال ، ومضى فى وضع تقريره بغير اكتراث به ولا رجوع اليه ، لأوجب على الوفد خطة المقاومة وعلى الامة ان تجاريه فى هذه الخطة ، وقطع الرجاء فى اعضـــائه « المعتدلين » والمتطرفين على السواء فلا ينشط منهم احد ـ بعـد اهمـــالهم اجمعين ـ لترويج المقترحات المعروضة على الامة وجلب الانصار اليها ، ولو وافقته تلك المقترحات

ثم ما العمل فى الوزارة التى تبرم المعاهدة وتستفتى فيها الامة ؟ .ايؤلفها الانجليز من المنبوذين الذين لا مطمع لهم فى انصار كثيرين أو قليلين ؟ ان فعلوا ذلك فرفض المعاهدة محقق بغير جدوى ، وقد يجر ذلك الى مجافاة

« الوزراء الاصدقاء » ايضا والجائهم مختارين أو غير مختارين الى مسايرة الوفد والاجماع ، والوقوف من المقترحات موقف المعارضة او الاعراض

اما ان كان الانجليز يؤلفون الوزارة من عدلى ورشدى واصحابهما ، فهل يرجو اللورد ملنر منهما ان يقبلا تاليفها بمعزل عن الوفد كله دون ان يطمعا فى تأييده أو تأييد فريق من اعضائه ؟ انهما لا يقدمان على ذلك كما يعلم اللورد ملنر ، وخير ما يرجوه أن ينتظرا حتى تكون هناك مفاوضات مع الوفد ويكون هناك امل فى استمالة بعض الاعضاء الموافقين على المقترحات ، فهما يقدمان حينئذ على تاليف الوزارة بتأييد من أولئك الاعضاء

فكل عمل كان يعمله ملنر قبل مفاوضة الوفد عبث :
عبث أن يلقى الى الامة بمقترحات يقاطعهـا الوفد بالاجماع وهو معذور لديها ولدى جميع المنصفين
وعبث أن يسلم المقترحات الى وزارة منبوذة تجنى عليها من الخطوة الاولى
وعبث أن يطمع فى قيام وزارة عدلية تناصب الوفد العداء ولا تعتمد من اعضائه على احد

فمفاوضة الوفد هى الطريق الوحيد الذى لا طريق غيره ، وعلى هذه العزيمة عاد ملنر من القـاهرة بغير جدال . فلا اعتداد بما قيل يومئذ عن وساطة الوسطاء وكياسة الاكياس الذين جذبوا اللورد ملنر الى مفاوضة الوفد على غير قصد منه ولا ارتياح ، ولا يزالون ينقذون سعدا من الورطات كلما احتاج الامر الى وسـاطة او كياسة !

غير أن اللورد ملنر يعلم أن سعدا يرفض المفاوضة

مع لجنة يقال انها لجنة تحقيق تبحث عن شكايات المصريين وتنظر فى تنظيم الحماية ، ولكنه يفاوضها على اعتباره وكيلا عن الامة يطلب لها الاستقلال التام ويسعى فى الغاء الحماية . فلابد من تمهيد يصحح الامور وينفى عن المفاوضة صبغة الاعتراف بالحماية والخروج عن حدود التوكيل ، ولهذا أوعزت الحكومة البريطانية الى احد النواب ان يلقى سؤالا فى نحو منتصف شهر مايو يقول فيه : « هل صحيح أن لجنة اللورد ملنر قد ذهبت الى مصر لتثبيت الحماية البريطانية عليها ومن أجل ذاك كان معقولا أن يجفل المصريون منها ؟ » فأجابه مستر بونارلو قائلا : « كلا لم يكن هناك شىء من ذلك ، ولكن اللجنة قصدت الى مصر لتشير باحسن النظم الصالحة لحكم البلاد »

وفى تلك الجلسة بعينها القى مستر كنورثى سؤالا فى هذا الموضوع فقال مستر بونارلو جوابا عليه : « لو كان المثلون المصريون على استعداد للمناقشة فى الضمانات المعقولة الكافية لصيانة المصالح البريطانية فيما يتعلق بقناة السويس والمصالح التجارية والمالية مقابلة لوعد بريطانيا العظمى باحترام استقلال مصر لكانوا اغتنموا فرصة بلاغ اللورد ملنر الذى نص على اطلاق حدود المناقشة »

وقد سال المستر كنورثى بعد ذلك : « هل من الممكن مع هذا أن يفتح باب المناقشة من جديد حتى يتيسر الوقوف على راى هؤلاء السادة المصريين فى الاتفاق الذى سيعقد بين البلدين ؟ »

فقال مستر بونارلو : « اننى على يقين من أن كل

مناقشة يكون من ورائها نتيجة مرضية تقبل بلا ابطاء . ولكن يجب أن تقدر الحكومة فائدة هذه المناقشة والنتائج التى تنتظر من ورائها »

وقابل سعد هذه التصريحات بما يناسبها فقال لمراسل صحيفة الجورنال حين سأله فى هذا الصدد : « لا انكر قيمة هذه التصريحات ولا انكر أن فيها مايقرب المسافة بين وجهة النظر الانجليزية ووجهة النظر المصرية ، على شريطة أن يصاحبها مايجعلنا نترقب لها نتائج فعلية ، ومن الصعب مع هذا أن يعرف الان ما تراه مصر فى هذه التصريحات . اذ يجب أن لا يغرب عن الذهن أن انجلترا عدلت اخيرا بمحض ارادتها وبغير استشارتنا ، نظام وراثة العرش بمصر ، وليس هذا بخير السبل للتقريب بين البلدين بأواصر الثقة والمودة ، وانما تكسب مودة المصريين وثقتهم بالاعتراف باستقلالهم والكف عن التعرض لخاصة شئونهم »

ثم قال سعد : « انه لا يوافق مستر بونارلو على قوله ان المصريين ضيعوا فرصة المناقشة مع لورد ملنر » وأضاف الى ذلك أنهم لم يتلقوا دعوة من لورد ملنر للمفاوضة باعتبارهم ممثلين للامة المصرية ، ثم سأله المراسل : هل هو استعداد للمفاوضة على أساس اعطاء الضمانات المعقولة لمصالح انجلترا فى قناة السويس ومصالحها التجارية والمالية اذا هى وفت بعهودها ؟ فقال : « اننا مستعدون لاعطاء كل الضمانات المعقولة للتوفيق بين مصالح انجلترا واستقلال مصر ، ولا نرفض الدخول فى المفاوضات اللازمة باعتبارنا وكلاء الامة المصرية اذا كان من وراء ذلك الوصول الى هذه النتيجة »

وعقب ذلك بأيام وصل الى باريس مستر سسل هيرست احد زملاء ملنر لدعوة الوفد الى الاجتماع باللجنة فى لندن للمناقشة فى قواعد الاتفاق بين مصر وبريطانيا العظمى ، ففضل الوفد ــ كما جاء فى رسالة سعد الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة ــ ان ينيب عنه محمدمحمود باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى ماهر بك ، فى السفر الى لندن لاستطلاع الحالة والتحقق من استعداد بريطانيا العظمى نحو استقلال مصر ، قبل الانتقال بهيئته الكاملة الى العاصمة الانجليزية . وقد لقى هؤلاء الاعضاء اللورد ملنر فذكر لهم أن انجلترا تعترف باستقلال مصر التام اذا هى ضمنت مصالحها الخاصة وانتهت من المفاوضة الى هذه النتيجة ، فكتبوا الى سعد بما سمعوه وشفعوا ذلك باستحسان حضور الوفد كله الى لندن للبدء فى المفاوضة ، فلبى الدعوة وابرق الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة يعلن للامة اعتزام السفر فى الخامس من شهر يونية عسى أن يصلوا بالمفاوضات الى حل مرضى « مستمدين القوة من اتحاد الامة وحكمة ابنائها ، والحجة من وضوح الحق والمعونة من الله ناصر الضعفاء »

ـ ولسنا نعرف مبلغ ما كان يرجوه سعد للقضية المصرية من وراء هذه المفاوضة ، ولكنه لم يكن مستطيعا أن يرفضها دون ان يعرض الوفد للانشقاق والتنازع ويهيىء للمفرضين اسباب اتهامه بتضييع الفرص وسوء السياسة ، والخوف من مواجهة الحقيقة التى اضطلع بها دون أن يعتمد على وسيلة أخرى مضمونة الفلاح والجدوى . وهو لو رفض المفاوضة مكتفيا بنشر الدعوة بين الشعوب الاوربية لم يعدم هنالك من يلقى عليه اللوم

ويبرىء بريطانيا العظمى من التهمة ، لانها مهدت له سبيل التفاهم والمناقشة الحرة فأعرض هو عنها واشفق على نفسه وعلى امته من مناقشتها ومساجلتها !! وفى وسعه أن يعود الى نشر الدعوة متى احتاج اليها يوم ينجلى سوء النية من جانب السياسة البريطانية ، وينجلى عذر المصريين فى رفض مفاوضتها بعد الاستجابة اليها . ولكن ليس فى وسعه أن يقنع الناس جميعا باخفاق المفاوضة قبل الدخول فيها ، ولا أن يمنع الفتنة أن تدب دبيبها بين أعضاء الوفد ، ومنهم من ود لو رجع سعد الى القاهرة وقبل نصيحة « الوزراء الاصدقاء » حين زينوا له مفاوضة اللجنة الملنرية قبل رجوعها الى بلادها ، فاذا رفض مفاوضتها فى هذه المرة واغلق باب المفاوضة اغلاقا لا رجعة فيه فماذا ينتظرون وعلام يصبرون ؟

ومن العجز أن يتهم الانسان نفسه ويتهم قومه بالخوف من المناقشة لاظهار حقهم واثبات مطالبهم . فاذا كان مقدرا للوفد أن يختلف لا مناص فخير للامة المصرية الا يختلف قبلها ، لان الخلاف يومئذ يكون على أمور مذكورة مسطورة تظهر من ورائها النيات والدعاوى ويسهل الدفاع عنها وبيان وجه القوة والضعف فى جانبيها ، ولكن الخلاف قبل المفاوضة انما تقوم به حجة من يقبلونها وتسقط به حجة من يرفضونها ، ويتاح لمن يشاء أن يتهم الرافضين بالعبث والتعنت واهمال الوسائل المعروضة ، لاسباب مبهمة أو لغير سبب على الاطلاق

وقد وازن سعد بين جميع الدواعى والموانع فاستقر رايه على اجابة الدعوة واعتزم السفر ووصل الى لندن

فى مساء الخامس من شهر يونية ومعه زملاؤه .

فاستقبلهم المصريون هناك أحسن استقبال . وتمت المقابلة الاولى بينهم وبين لجنة ملنر فى اليوم السابع ، فقام بالتعريف بين الفريقين عدلى باشا الذى كان قد سبق أعضاء الوفد الى العاصمة الانجليزية . وبدأت المفاوضة فى اليوم التاسع ، فبسط اللورد ملنر غرض الحكومة البريطانية منها ، وهو عقد اتفاق ودى بين الامتين الانجليزية والمصرية تعترف فيه باستقلال مصر وتطمئن به الى الضمانات الضرورية لمصالحها ومصالح الاجانب واستقرار النظام والسكينة ، ومن هذه الضمانات اقامة حامية عسكرية فى أماكن يقررها الخبراء، وابداء الرأى فى التشريع الذى يمس الاجانب الى أن ينزلوا لبريطانيا العظمى عن امتيازاتهم التى تعوق استقلال البلاد ، وتوطيد حكومة ملكية دستورية ينص عليها فى المعاهدة .

ثم دارت المناقشة بجلسة اخرى فى مسألة المستشارين الانجليز وغيرها من المسائل التى تلحق بها ، وكان وكلاء الوفد فى جلسات المناقشة : رئيسه ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ووكيلا اللجنة الملنرية : رئيسها ومستر رنل رود . ويحضر عدلى باشا الاجتماعات برضى من الطرفين

ولا نطيل فى سرد التفصيلات ، فالخلاصة أن البحث انتهى منتصف شهر يوليو الى تدوين كلا الطرفين مذكراته بما فهمه كلاهما من نتائج المناقشات السابقة . فاشتملت مذكرة اللجنة الملنرية على ما يأتى :

« أن تستبدل بالحالة الحاضرة معاهدة تحالف دائم

بين بريطانيا العظمى ومصر يشترط فيها :

« أولا » تتعهد بريطانيا العظمى بضمان سلامة مصر واستقلالها باعتبارها دولة ملكية ذات أنظمة دستورية

« ثانيا » تتعهد مصر من جهتها بأن لا تعقد معاهدة سياسية ما مع دولة أخرى بغير موافقة بريطانيا العظمى

« ثالثا » نظرا للتبعة التى أخذتها بريطانيا العظمى على عاتقها فى المادة السابقة ، ونظرا لما لبريطانيا العظمى من المصلحة الخاصة فى حماية المواصلات فى أملاكها بالشرق والشرق الاقصى تمنح مصر بريطانيا حق ابقـاء قوة عسكرية على الارض المصرية واستخدام الموانىء والمطارات المصرية لضمان الدفاع عن مصر وحماية مواصلات بريطانيا العظمى مع تلك الأملاك . اما الموضع او المواضع التى يعسكر فيها الجنود فتعين فى المعاهدة

« رابعا » توافق مصر على تعيين مستشار مالى بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك تعهد اليه جميع السلطات التى لاعضاء صندوق الدين الان لحماية حملة الاسناد المصرية ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لكل امر آخر ترغب فى استشارته فيه

« خامسا » تتعهد بريطانيا بمساعدة مصر فى تحرير نفسها من القيود التى تقيد حريتها فى التشريع والادارة بسبب الامتيازات والضمانات التى يتمتع بها الاجانب فى مصر . وأن تساعدها فى اقامة نظام يكون من شأنه تطبيق القانون المصرى على المصريين والاجانب على حد سواء

« سادسا » نظرا لتخلى الدولة الاجنبية عن الامتيازات الخاصة التى يتمتع بها رعاياها حتى الان ، ولضرورة

تامين تلك الدول على ان حقــــوق الاجانب المشروعة ستحترم مع هذا ، تمنح مصر بريطانيا العظمى حــق التدخل بواسطة معتمدها فى مصر لتوقف تنفيذ اى قانون يخالف حقوق الاجانب المشروعة او يخـالف المتبع فى البلاد المتمدنة واذا ادعت الحكومة المصرية فى حالة من الحالات أن حق التدخل هــذا استخدم استخداما لا ينطبق على العقل فيصح عرض الامر على عصـــبة الامم

« سابعا » يبقى نظام المحاكم المختلطة او اى نظام آخر مساو له يحل محله ويوسع بحيث يتناول القضــايا الجنائية وجميع القضايا الاخرى التى تمس الاجانب فى مصر

« ثامنا » توافق مصر على تعيين موظف بريطانى فى وزارة الحقانية بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك ، يكون له مركز وسلطة تكفى لتمكينه من ضمان تنفيذ القــانون تنفيذا عادلا فيما له مساس بالاجانب

« تاسعا » ترضى حكومة جلالة الملك بان تاخذ على عاتقها تمثيل مصر فى اية دولة لا يعين فيها معتمد مصر ، ولكن مصر لا تعهد بتمثيلها على هذا النحو الى اية دولة غير بريطانيا العظمى

« عاشرا » تعترف الحكومة المصرية بان لمركز المعتمد البريطانى فى مصر صفة خاصة ، وأنه باعتباره ممثــل دولة حليفة تكون له الاولوية على جميع المعتمــدين الاخرين

« حادى عشر » يسوى مركز من عدا المذكور فى المواد السابقة من الموظفين البريطانيين والاجانب بالتفاق

خاص يعقد بين الحكومتين البريطانية والمصرية بعد جزءا من الاتفاق الذى يعقد بينهما »

وظاهر من هذا المشروع انه لم يخرج بمصر عن الحماية الصريحة فى أضيق حدودها ، وان اللجنة لم تتقرب به خطوة واحدة الى موقف المصريين ولم تزد على ان جمعت فيه ماتريده بريطانيا العظمى بحذافيره الى أقصى مداه ، وليس فيه شىء يصح أن يقال انه كان موضع تفاهم واتفاق بين المندوبين الانجليز والمندوبين المصريين ، لانه دون المطالب من جانب واحد ولم يتزحزح فيها قيد انملة الى جانب المطالب الاخرى

اما مذكرة الوفد التى ارسلها بعد وصول هذه المذكرة اليه بيوم واحد فقد لاحظ فيها الرغبة الصحيحة فى الاتفاق ولم ينس حدود وكالته التى يجب عليه التزامها ، وقد صدرها سعد بكتاب قال فيه :

« ... انى ابادر فاعرض على فخامتكم طى هذا مشروع اتفاق يحوى النقط التى جرت المناقشة بشانها فى احاديثنا ، وهى النقط التى يلوح لى انكم تقبلونها » ..

« ونحن نعتقد أن هذا المشروع ـ بالصفة التى هو عليها ـ من شانه ان يرضى الطرفين . فعلى هذه القواعد يمكننا ان نضع دعائم صداقة متينة ، وتعاون عماده الاخلاص بين الشعبين الانجليزى والمصرى . ومن المتفق عليه بيننا أن النقط التى لم تبحث بعد تكون موضوع اتفاق يعقد فيما بعد »

ثم قال : « ولى الثقة التامة بأن اعمالنا التى توليتم رآستها بتلك الكياسة يمكن أن تنتهى قريبا بحيث يتيسر لى السفر الى شاتل وفيشى قبل فصل الخريف

للاستشفاء الذى لابد منه لصحتى على ما يظهر »
واتبع ذلك بالمذكرة وهذه ترجمتها :

« أولا » تعترف بريطانيا العظمى باستقلال مصر . وتنتهى الحماية التى أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر والاحتلال العسكرى البريطانى . وبهذا تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستورى

« ثانيا » تسحب بريطانيا العظمى جنودها من الارض المصرية فى مدة .. ابتداء من وقت نفاذ المعاهدة الحالية

« ثالثا » تتعهد الحكومة المصرية بأنها عند استخدام حقها فى الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز تعامل هؤلاء الموظفين المعاملة الممتازة التالية : فيما عدا الاقالة لبلوغ نهاية سن الخدمة او عدم القدرة على العمل او الاحكام التأديبية او انتهاء مدة التعاقد والاستخدام — يمنح الموظف الذى يقال من الخدمة تعويضا اضافيا مقداره مرتب شهر عن كل سنة من سنى خدمته . وتتناول هذه المعاملة الممتازة الموظفين الذين يتركون خدمة الحكومة المصرية من تلقاء أنفسهم فى بحر سنة من نفاذ هذه المعاهدة

« رابعا » لتخفيف وطأة نظام الامتيازات الى حين الغائها تقبل مصر أن تستخدم بريطانيا باسم الدول حقوق الامتيازات التى لهذه الدول الان ويكون ذلك بالصفة الاتية :

« أ » تكون الاضافات والتعديلات فى النظام القضائى المختلط معلقة على موافقة بريطانيا العظمى

«ب» جميع القوانين الاخرى التى لا يمكن ان تسرى

الان على الاجانب المتمتعين بالامتيازات الا بعد موافقة الدول او مداولة الجمعية التشريعية للمحكمة المختلطة او جمعيتها العمومية ، تصير نافذة عليهم بموجب قرار يسن لذلك . الا اذا عارضت الحكومة البريطانية في ذلك ، وتبلغ هذه المعارضة لوزير الخارجية المصرية في مدة ... من نشر القرار في الجريدة الرسمية . ولا تكون المعارضة الا فيما يحتويه القانون من امور لا مثيل لها في اي تشريع من تشريعات الدول المتمتعة بالامتيازات ، او اذا كان القانون خاصا بضرائب وكان في هذه الضرائب اجحاف بالاجانب دون الوطنيين

وفي حالة اختلاف الحكومتين على احقية هذه المعارضة يكون مصر ان تعرض المسألة على عصبة الامم للبت فيها

« خامسا » في حالة الغاء محاكم القنصليات واحالة النظر في الجرائم والجنح التي يرتكبها الاجانب الى المحاكم المختلطة توافق مصر على تعيين احد رجال القضاء البريطانيين في مركز النائب العام لدى المحاكم المختلطة

« سادسا » تقر الحكومة البريطانية بانها على استعداد لان تنظر مع الحكومة المصرية بعد خمس عشرة سنة في مسألة ابطال تقييد سيادة الحكومة المصرية الداخلية الناشيء من الامتيازات التشريعية والقضائية التي للاجانب وتحفظ مصر لنفسها الحق عند الاقتضاء في عرض هذه المسألة على عصبة الامم بعد مضي المدة المتقدمة

« سابعا » في حالة الغاء لجنة الدين العمومي تعين مصر موظفا ساميا تقترحه بريطانيا العظمى وتكون له الاختصاصات الحالية التي للجنة الدين . ويكون الموظف السامي المذكور تحت تصرف الحكومة المصرية لكل

الاستشارات او المهمات التي ترى تكليفه بها فى المسائل المالية

« ثامنا » للحكومة البريطانية ـ اذا رات ضرورة ـ ان تنشىء على نفقتها نقطة عسكرية على الضفة الاسيوية لقناة السويس للاشتراك فى دفع اى اعتـداء أجنبى يحتمل حدوثه على القناة . وتعين حدود هذه النقطة فيما بعد بواسطة لجنة من خبراء حربيين يعين كل فريق نصفهم . ومن المتفق عليه ان اقامة هذه النقطة لا يخول بريطانيا اى حق للتدخل فى شئون مصر ولا يمكن ان يمس باية حالة من الحالات حقوق السيادة التى لمصر على المنطقة المذكورة التى تبقى خاضعة لسلطة مصر محكومة بقوانينها ، كما ان اقامة النقطة لا يقيد السلطات التى اعترف بها لمصر بموجب اتفاق الاستانة المعقود فى سنة ١٨٨٨ خاصا بحرية قناة السويس . وبعد مضى عشر سنوات من تاريخ سريان المعاهدة الحالية يفحص الطرفان المتعاقدان مسالة ما اذا كان بقاء تلك النقطة لم يصبح غير ضرورى ، وما اذا كان يصح ان يترك لمصر وحدها تولى حماية القناة ، وفى حالة الخلاف تعرض المسالة على عصبة الامم

« تاسـعا » فى حالة ما اذا لم تجد مصر التى لها الحق المطلق فى تعيين سفراء لها ـ ضرورة لتعيين ممثـــل سياسى مصرى فى اى بلد من البلدان تعهد بالمصالح المصرية فى هذا البلد الى ممثل بريطانيا العظمى الذىيتبع تعليمات وزير الخارجية المصرية

« عاشرا » يعقد الطرفان المتعاقدان بالعقد الحـــالى محالفة دفاعية للغايات التالية :

« ا » تتعهد بريطانيا العظمى بالمساعدة على الدفاع من الارض المصرية ضد كل اعتداء تقوم به دولة اجنبية

«ب» فى حالة وقوع اعتداء من دولة اوربيـــة على الامبراطورية البريطانية تتعهد مصر ـ ولو لم تكن سلامة ارضها مهددة مباشرة ـ بان تقدم لبريطانيا العظمى فى ارضها تسهيلات المواصلات والنقل لحاجاتها الحربية ، ويحدد اتفاق خاص طرق هذه المساعدة

« حادي عشر » تتعهـــد مصر ايضا بان لا تعقد اية معاهدة تحالف مع دولة اخرى دون اتفاق سابق مع بريطانيا العظمى

« ثاني عشر » هذه المحالفة معقودة لمدة ثلاثين عاما يمكن الطرفين المتعاقدين بعد انتهائها النظر فى امـــر تجديدها

« ثالث عشر » تكون مسألة السودان موضوع اتفاق خاص

« رابع عشر » جميع النصوص المخالفة للمواد الحالية والواردة فى جميع المعاهدات الاخرى خاصة بمصر تعتبر ملغاة وكانها لم تكن

« خامس عشر » تودع المعاهدة الحالية فى مكتب عصبة الامم لتسجيلها بها . وتقر الحكومة البريطانية من الان بانها توافق فيما يختص بها على دخول مصر عصبة الامم دولة حرة مستقلة

« سادس عشر » تصير المعاهدة الحالية سارية المفعول بمجرد تبادل عقود ابرامها بين الطرفين المتعـاقدين . ويكون ابرامها فيما يختص بمصر على اثر اقرارها بواسطة

جمعية قومية تعقد للاقتراع على الدســــتور المصرى الجديد »

هذا هو مشروع الوفد كما لخصه فى مذكراته ، وظاهر منه كما أسلفنا أنه مشروع اناس يجدون فى طلب الوفاق ما استطاعوا ولا يلعبون بالالفاظ فى التقريب بين حقوق الاستقلال ومصالح بريطانيا العظمى التى لا تفرضها على مصر وعلى العالم الا بحكم القوة . وقد احتفظوا مــن معالم السيادة الوطنية بالقسط الضرورى الذى لا ترضى امة تطلب الاستقلال باقل منه ، فمن يطالبهم بالتبرع من عندهم بقبول قسط اقل من هذا فهو كانما يطالب الامة المصرية بالثورة والتضحية لغير نتيجة الا ان تصحح مركز بريطانيا العظمى فى مصر وتزودها بقوة النصوص المشروعة والموافقة الودية فوق ما لها من قوة السلاح والسطوة ! وهو أمر لا يعقل ان يكون موضــع اتفاق ومفاوضة بين طرفين وفيه الربح كل الربح من جانب والخسارة كل الخسارة من الجانب الاخر .. وانمــا المعقول المفهوم أن يكون ما قبله الوفد أقل ما يســـعه قبوله مادام المرجع فيه الى الاختيار والاتفاق ، فاذا تجاوز هذا الحد فهو يعطى بريطانيا العظمى كل مزايا الاتفاق الحر ويبوء ـ والامة المصرية معه ـ بكل مساوىء الاكراه ، ومع هذا استغربوا فى انجلترا « جراته » ـ كما سموها وقالوا ان ســـعدا يحسب أنه هزم الدولة البريطانية ويملى عليها شروطه املاء الظافر فى ميدان القتال !

***

توقفت المفاوضات .. وقيل انها تنقطع او انقطعت لان

الوفد رفض مذكرة اللجنة كما رفضت اللجنة مذكرة الوفد . ثم توسط عدلى يكن باشا فى الامر . فاضطر سعد الى ارجاء السفر ريثما تتم هذه الوساطة ، وبقى فى لندن حتى تسلم مذكرة اللجنة الثانية فى الخامس من شهر اغسطس فانفتح بها باب جديد للمناقشة وجرى التعديل مرة اخرى فى بعض العبارات ، وتعذر الاتفاق على جميع المسائل فاستمر البحث فيها الى منتصف اغسطس ، وهنا أختلفت آراء الاعضاء بين القبول والرفض ومعظمهم الى القبول . واقترح بعضهم عرض المشروع الاخير على الامة لتبدى ملاحظتها عليه ثم يعاد بحثه بين الوفـــد واللجنة بعد الوقوف على جملة الاراء ومواضع الملاحظة والاستدراك

ويغلب ان يكون هذا الاقتراح انجليزيا فى منشئه ، اوحاه الى اللجنة ما كانت تسمعه من سعد وزملائه من الاعتذار بوكالة الامة وتعذر الخروج عن حدود هــذه الوكالة ، لان الامة ترفض كل مايخرج على تلك الحدود لا محالة ولو قبله الاعضاء . فكان أعضاء اللجنة يقولون انما الوكالة برنامجكم انتم وفى أيديكم ان ترجعوا اليــه بالتعديل والتحوير ان أقتنعتم بصواب ماتعرضونه على الامة التى اوكلتكم ، وكان من الطبيعى أن يخطر للجنة اقتراح الرجوع الى الامة تخلصا من هــذا الاعتذار ، وسعيا وراء الخلاف أن لم يكن سعيا وراء الاقناع

فتردد سعد فى العمــل بالاقتراح مخــافة الانقسام والشتات . ولكنه رأى بوادر الانقسام والشتات تبدو فى داخل الوفد ، فآثر ان يتداركها وأن يرجىء ظهورها ما استطاع ، وهو يرجو ان يستعين بجلاء رأى الامة على

معالجة تلك البوادر املا فى رأب الصدع وتوحيد الصفوف فتقرر ايفاد أربعة من الاعضاء الى القاهرة وهم محمد محمود واحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى وعلى ماهر ، ينضم اليهم فى القاهرة مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى ، لعرض الموضوع على طوائف الامة واستطلاع رأيهم فيه وتقييد ملاحظاتهم عليه ، والرجوع بها الى الوفد فى النهاية لاستئناف البحث فيها جميعا مع اللجنة الملنرية ، وان كان رئيسها قد أعلن ان المشروع تضمن أقصى ماتوصى به اللجنة وتطمع فى اقراره من لدن الحكومة البريطانية ، وانها تشك فى اقرارها لبعض مافيه .

وعلى هذا سافر سعد من لندن فى السادس عشر من شهر اغسطس وتبعه الاعضاء فى اليوم التالى وتبعهم عدلى فى اليوم الذى بعده ، وهذه صيغة المذكرة التى تم الاتفاق على استطلاع رأى الامة فيها :

قواعد الاتفاق

(١) لاجل ان يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديدا دقيقا ، ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتيازات فى مصر من المزايا وجعلها أقل ضررا بمصالح البلاد

(٢) ولا يمكن تحقيق هذين الفرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للفرض الاول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين من الحكومة المصرية . ومفاوضات تحصل للفرض الثانى بين الحكومات

البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتياز . وجميع هذه المفاوضات ترمي الى الوصول الى اتفاقات بنيت على القواعد الاتية :

(٣) اولا : تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية ، وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ، ولتمكينها من تقديم الضمانات التى يجب ان تعطى للدول الاجنبية لتحقيق تخلى تلك الدول من الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

ثانيا : تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى ومصر تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى ان تعضد مصر فى الدفاع عن سلامة ارضها . وتتعهد مصر انها فى حالة الحرب ، حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة ارضها ، تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي فى وسعها لبريطانيا العظمى ومن ضمنها استعمال ما لها من الموانىء وميادين الطيران ووسائل المواصلات للاغراض الحربية

(٤) تشمل هذه المعاهدة احكاما للاغراض الاتية :

اولا : تتمتع مصر بحق التمثيل فى البلاد الاجنبية ، وعند عدم وجود ممثل مصرى معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل البريطاني ، وتتعهد مصر بان لا تتخذ فى البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة او توجد صعوبات لبريطانيا العظمي ، وتتعهد كذلك بان لا تعقد مع دولة اجنبية اى اتفاق ضار بالمصالح البريطانية

ثانيا : تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية فى الارض المصرية لحماية مواصلات الامبراطورية. وتعين المعاهدة المكان الذى تعسكر فيه هذه القوة ، وتسوى ماستتبعه من المسائل التى تحتاج الى التسوية ، ولا يعتبر وجود هذه القوة باى وجه من الوجوه احتلالا عسكريا للبلاد ، كما أنه لا يمس حقوق حكومة مصر

ثالثا : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشارا يعهد اليه فى الوقت عينه بالاختصاصات التى لصندوق الدين ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته فيها

رابعا : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير ، ويجب احاطته علما على الدوام بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالاجانب ، ويكون ايضا تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته فى أى أمر مرتبط بحفظ الامن العام

خامسا : نظرا لما فى النيـــــة من نقل الحقوق التى تستعملها الى الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية ، تعترف مصر بحق الاجانب فى رفض أى قانون مصرى يستدعى الان موافقة الدول الاجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها الا تستعمل هـــذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون جائرا على الاجانب

صيغة أخرى لهذه الفقرة :

نظرا لما فى النية من نقل الحقوق التى تستعملها الان

الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية ، تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى فى التدخل بواسطة ممثليها فى مصر لتمنع أن ينفذ على الاجانب اى قانون مصرى يستدعى الان موافقة الدول الاجنبية ، وتتعهدبريطانيا العظمى من جانبها أن لاتستعمل هذا الحق ، الا فى حالة القوانين التى تتضمن تمييزا جائرا فى مادة فرض الضرائب ، او لا توافق مبادىء التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات

سادسا : نظرا للعلاقات الخاصة التى تنشأ من المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطانى مركزا استثنائيا فى مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الاخرين

سابعا : الضباط والموظفون الاداريون ، من بريطانيين وغيرهم من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة ، يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية فى اى وقت خلال سنتين بعد العمل بالمعاهدة ، وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذى يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ماهو مخول لهم بمقتضى القانون الحالي . وفى حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى احكام التوظف الحالية بغير مساس

(٥) تعرض هذه المعاهدة على جمعية تاسيس . ولكن لا يعمل بها الا بعد نفاذ الاتفاقات مع الدول الاجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الاوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة

(٦) يعهد الى جمعية التاسيس فى وضع قانون نظامى

جديد تسير حكومة مصر فى المستقبل بمقتضى احكامه ، ويتضمن هذا النظام احكاما تقضى بجعل الوزراء مسئولين امام الهيئة التشريعية ، وتقضى أيضا باطلاق الحرية الدينية لجميع الاشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الاجانب

(٧) تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات ، وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الاجنبية لكى يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية دونه التشريع الذى يفرض الضرائب على جميع الاجانب فى مصر

(٧) تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة ، بمقتضى نظام الامتيازات

وتشمل ايضا احكاما تقضى بما يأتى :

اولا : لا يسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا اى دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ، ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بنفس المعاملة التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون

ثانيا : يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة الشعب ، فيتمتع الاولاد الذين يولدون فى مصر لاجنبى بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم مصريين

ثالثا : تخول مصر موظفى قنصليات الدول الاجنبية نفس النظام الذى يتمتع به القناصل الاجانب فى انجلترا

رابعا : المعاهدات او الاتفاقات الحالية التى اشتركت مصر فى التعاقد عليها فى مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول . أما فى المسائل التي ينالها مساس من جراء أبطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية صاحبة الشأن . مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين ، وكذلك المعاهدات التي لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين اطراف عدة او بين طرفين . مثال ذلك اتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب ، وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفا فيهـــا

خامسا : تضمن حرية ابقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الاجنبية صاحبة الشأن ، على شرط أن تخضع جميع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الاوربية بمصر

سادسا : تضمن أيضا حرية ابقاء أو انشاء معــاهد دينية وخيرية كالمستشفيات الخ وتنص المعاهدة ايضا على التغييرات اللازمة فى صندوق الدين وعلى ابعــاد العنصر الدولى عن مجلس الصحة فى الاسكندرية

(٩) التشريع الذى تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية ، يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية ، وفى الوقت عينــه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التى اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة

(١٠) تقضى المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتخويل هذه المحاكم كل الاختصاص الذى كان مخولا الى الان للمحاكم القنصلية الاجنبية ويترك اختصاص المحاكم الاهلية غير ممسوس

(١١) بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها فى البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الاجنبية ، وتعضد الطلب الذى تقدمه مصر للدخول فى جمعية الامم

مسالة السودان

اما مسالة السودان فلم تطرح تحت البحث ولكن الوفد قد حصل على تاكيدات تضمن الطمانينة على مياه النيل لرى الارض المصرية المزروعة الان والقابلة للزراعة فى المستقبل

وقد بين الاعضاء المندوبون مهمتهم فى هذه المرحلة بكلمة ذيلوا بها المذكرة وقالوا فيها :

« اما مهمة اعضاء الوفد المندوبين فبيانها انه لما وصلت المفاوضات بين الوفد ولجنة ملنر الى ان قدمت اللجنة هذه القواعد على انها نهائية فى الاساسات التى بنيت عليها — راى الوفد اخذا بالاحوط واستمساكا برأى الوكالة على اطلاقه — ان لا يبت فى الموضوع برفضه او قبوله . بل راى ان الحكمة تدعو الى عرض الامر على البلاد . فاذا قالت البلاد ان هذه القواعد صالحة اساسا للمعاهدة ، دخلت المسالة فى دورها النهائى ووضعت معاهدة على القواعد المذكورة وعرضت على الجمعية الوطنية التى هى صاحبة

الرأى الاعلى فى الامر ولها دون غيرها الكلمة الاخيرة فى الموضوع . فبعد أن تدرس تفاصيل المعاهدة وصيغتها تقرر قبولها او رفضها »

وقد رأى سعد أن يجعل رايه فى المشروع للاساتذة : مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى ، لانهم لم يحضروا البحوث فيه بالعاصمة الانجليزية كما حضرها زملاؤهم القادمون من أوربا . فكتب اليهم فى الثانى والعشرين من أغسطس ما يأتى :

« أهديكم أطيب تحياتى . وبعد فانكم تجدون طى هذا بلاغا لنواب الامة وأرباب الراى فيها تعلمون مضمونه من تلاوته ، واظنكم تستشفون منه انى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الامة أنتم والقادمون اليكم من اخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لانه — واريد أن يكون الامر بينى وبينكم — مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحمـاية وتقريرها . ففيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشىء الكثير كالقوة العسكرية والتدخل فى التشريع للاجانب وفى القضاء المختص بهم والتدخل فى المالية وفى الحقانية بواسطة موظفين انجليز. وجعل المعتمد الانجليزى ذا مقام خاص وله التقدم على غيره من وكلاء الدول الاخرى ، وتقييد حرية مصر فى عقد المعاهدات وفى اختيار وكلائها السياسيين وفى التجاء هؤلاء لممثلى انجلترا وتولى انجلترا دون مصر عقـد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الاخرى . وفضلا عن ذلك فان ما اشترط من تعليق تنفيذه على قبول الدول لالغاء المحاكم القنصلية وصدور الدكريتات باعادة تنظيم المحاكم المختلطة ، يجعل الفوائد التى تعود

منه على المصريين وهمية . اذ قد ينقضى الدهر ولا تقبل الدول ذلك الالغاء ولا تصدر الدكريتات بذلك التنظيم .
ولكن اخوانى لا يرون فيه رأيى ، ولم ارد ان اظهرالخلاف بينى وبينهم حرصا على الوحدة التى هى قوتنا ، ولكى لا يشمت الاعداء بنا . ولو أن اخوانى اصغوا الى قولى أو لو لم اكن اخشى على هذه الوحدة من الانقسام لفارقت الندوة فى يوم ٢٢ يونية الماضى وهو اليوم الذى وردنا فيه خطاب من اللورد ملنر عن مشروع سابق وضعته لجنته ورفضناه لكونه كان يرمى الى ما يخالف مبدأنا وتوكيلنا ، وكان رفضنا له بالاجماع . ومن الغريب أن المشروع الثانى جاء ابلغ فى باب الحماية لاشتماله على كثير من مميزاتها . ومع ذلك راى الاخوان صلاحية عرضه على نواب الامة ، ولا اريد أن اشكو منهم اليكم لانهم انما رأوا ذلك لاسباب قامت عندهم واقنعتهم بصحة آرائهم ، اهمها تغير ظروف الحال وعدم وجود السند والنصير لنا فى الخارج ، وانفراد الدولة الانجليزية بالعزة والسلطان وعدم قوة الامة على متابعة المعارضة والمقاومة ، وانى اعترف بأهمية هذه الاسباب ، ولكنها لا يمكن ان تقلب حقيقة المشروع من حماية الى استقلال ، ولا ان تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقمنا للمطالبة ببطلانه ، وما ضحت الامة فى سبيل النفور والقضاء عليه بدماء الكثير من ابنائها وحرية العدد العديد من شيوخها وفتيانها ، ولا يحملنا نحن دعاة الاستقلال وحملة الوية والصائحين به فى كل صقع وناد على ان نتحول الى تأييد ماهو بعيد منه فى الواقع وان كان قريبا منه فى الظاهر ، أما اذا قبله غيرنا وكان الانجليز معهم فذلك شىء آخر لا تقع

تبعته علينا ، ولهذا رايت أن اكتب لكم بفكرى حتى تكونوا فى مستوى واحد مع اخوانكم الذين ستشتركون معهم فى عرض المشروع ، وأن يكون مركزكم اذا استحسنتم من الذين تستشيرونهم مركز الشارح للحقائق العارض للوقائع من غير تاويل ولا تفسير . لكي لا يجد خصومكم سبيلا للطعن عليكم ، ولا حسادكم حجة يقيمونها ضدكم ، وسوف تطلعون على جميع المكاتبات التى دارت بيننا وبين لجنة ملنر وعلى المشروعات الثلاثة التى ورد فى البلاغ ذكرها . وتقفون من الاخوان على جميع المعلومات التى يهمكم الوقوف عليها فى هذا الشأن . وانى على ثقة تامة بانكم ستكونون فى عرض هذا المشروع مثال الدقة والنزاهة والبعد عن مزالق القدم ، وانى مستعد لان ارسل اليكم كل ما تشاءون من الاوراق ، ولان اجيبكم عن كل ماتشاءون الوقوف عليه من المسائل . والله يكون فى عونكم ويقيكم شر خائنة الاعين وما تخفى الصدور »

وبدهى أن هذا الخطاب لم يعلن للامة ولا لأحد غير الاعضاء الذين خوطبوا به واصدقائهم المقربين . ولكن الرئيس مهد لتقديم المذكرة الى الامة ببيان منه وصف به المشروع الوصف الذى ينبغى فى هذا المقام . فقال فيه : « ... وانتهت المناقشة بوضع ثلاثة مشروعات : أولها من لجنة ملنر رفضناه بتاتا ، والثانى منا ورفضته هذه اللجنة كذلك ، والثالث منها وهو الاخير قد صرح رئيسها لنا عند البحث فيه انه غير قابل للمناقشة فى الاساسات التى بنى عليها وانه يلزم اما اخذه كله أو رده كله . لانه تضمن فى اعتباره اقصى مايمكن انجلترا الاتفاق مع مصر عليه ، بل زاد ان هناك شكا فى جواز التساهل فى بعض

ما اشتمل عليه ، ولكنا وجدناه مع ذلك معلقا بتنفيذه على غير ارادتنا وغير واف بمطالبنا . فلم يسعنا قبوله لخروجه عن حدود توكيلنا وأظهرنا للجنة ملنر عدم رضائنا به . غير انه ـ نظرا لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، ولتغير الظروف التى حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الامة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التى بينه وبين امانيها ـ رأى اخواننا معنا خروجا من كل عهدة وحرصا على كل فائدة واستبقاء لكل فرصة ، الا يبت فيه رسميا بما يقتضيه توكيلهم قبل عرضه عليكم انتم نواب الامة المسئولين وأصحاب الرأى فيها »

ثم قال : « فاذا رفضتم اعلن الوفد رسميا رفضه ، واذا قبلتم دخلت المسألة فى دورها النهائى ووضعت معاهدة على القواعد التى تضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظام دستورى للبلاد »

وهذه الخطة التى سلكها سعد فى التوفيق بينه وبين اعضاء الوفد هى غاية ما كان فى وسعه من الموافقة والمجاراة ، فلم يكن مستطيعا أن يعلن استحسان المشروع وهو لا يستحسنه ولا يرى فى ضميره انه محقق لالغاء الحماية واقامة الاستقلال ، ولم يكن مستطيعا أن يقدم المشروع بغير بيان ، ولا أن يقول فى البيان غير ما قال من وصف صادق لجميع نواحيه فى جانبى المزايا والنقائص، مع اطلاق الرأى لمن يشاء فيما يشاء

ووصل الاعضاء المندوبون الى الاسكندرية فى اليوم السابع من سبتمبر بعد نشر البيان بيومين ، فاحتفى بهم الشعب فى الاسكندرية والقاهرة وعلى طول الطريق بينهما ، وبدأ الاستفتاء بعد يومين . فعرض المشروع على

المحامين واعضاء الجمعية التشريعية ورجال الدين ورجال القضاء واعضاء مجالس الاقاليم والمجـــالس المحلية ، واجمعت الطوائف فى جملتها ـ ما عدا انصار « الوزراء الاصدقاء » ـ على وجوب التعديل والتنقيح فى بعض قواعده وتضمينه النص الصريح على الغاء الحماية وحذف ما جاء فيه عن امتيــاز المنـدوب البريطانى « بمركز استثنائى » غير مركز المندوبين الاخرين ، وطلب الاكثرون تعيين حدوده المبهمة ومواعيده المرسلة ، واخلاءه من كل لبس واشتباه فى مسالة السيادة القومية ، وذهب كثيرون الى رفضه بتاتا وفى مقدمتهم فريق من الامراء وذكروا السودان ووجوب الاحتفاظ بحقه وحق مصر فيه ، نشروا على الملأ بلاغا قالوا فيه « اننا لا نبرر عقد اى اتفاق ينافى او ينقص استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما حقيقيا بلا قيد ولا شرط » ثم فوضــوا الامر الى الامة صاحبة الراى الاعلى

وبعد عشرين يوما مضت فى عرض المشروع والتعقيب عليه فى الصحف والمجالس اكتفى الاعضاء المندوبون بمــا اطلعوا عليه من الاراء وكتبوا بيانا شكروا فيه الامة على ما قابلتهم به من الحفاوة ونوهوا بالاستنارة التى « خلقت فرصة جديدة ظهر فيها رشد الشـعب وحسن تقديره لجميع الظروف السياسـية التى تحيط الآن بالفصــل فى مصيره .. »

وفى هـذه العبــارة ما لا يخفى من دلالة على نتيجة الاستفتاء عند المندوبين وهى نتيجة يعتبرونها تمهيـدا للقنوع والقبول لا تمهيدا للرفض أو التعديل

ويلى هذا الفصل فصول عما حدث فى مصر خــلال

المفاوضة ، وبعد عودة أعضاء الوفد المندوبين لاستفتاء الامة ، الى قيام الوزارة العدلية وعودة سعد الى مصر والخلاف على تأليف لجنة المفاوضة ، ثم ذهاب عدلى باشا الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية واستقالته لتعذر الوصول الى اتفاق مقبول ، ثم مساعى سعد فى توحيد الصفوف ونشره البيان الذى حمل السلطة الفعلية على التعجيل بنفيه ، وفى ختامه يقول :

« انكم انبل الوارثين لاقدم مدنية فى العالم ، وقد حلفتم أن تعيشوا احرارا او تموتوا اكراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم : (أقسموا ولم يبروا بالقسم) ، فلنثق اذن بقلوب كلها اطمئنان ونفوس ملئها استبشار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام »

وقد نفى سعد وخمسة من صحبه الى جزائر سيشل فى أواخر سنة ١٩٢١ ونقل منها الى جبل طارق ، ولم تكد السياسة البريطانية تطمئن الى أبعاده من ميدان الحركة الوطنية فى مصر حتى بادرت الى اعلان تصريح ٢٨ فبراير المشهور

تصريح ٢٨ فبراير

ارسل المركيز كرزون فى الثالث والعشرين من ديسمبر البرقية الاتية الى الفيكونت اللنبى كما جاء نص ترجمتها فى الكتاب الابيض :

« ليس ثمة اعتراض من جانب وزارة المستعمرات على ابعادك زغلولا وانصاره الى سيلان فى أول فرصة كما اقترحت فى تلغرافك المؤرخ فى ٢٢ ديسمبر . والتعليمات مرسلة الى حاكم سيلان طبقا لذلك . ولكن اذا ظهر أنه من غير المرغوب فيه حجزهم هناك لاعتبارات محلية ، فان فى الوسع ارسالهم الى سيشل . ومعلوم لدينا ان الاستعداد اللازم لهم يمكن توفيره فى سيشل . وينبغى الابراق الى حاكم سيلان مباشرة بالتفاصيل الوافية عن تاريخ الابحار من السويس وعن تأليف القوم المبعدين »

فاستطير الفيكونت اللنبى فرحا بهذه الموافقة كما بدا من برقيته التى بادر بارسالها ليشكر المركيز كرزون كثيرا ... وانتظر ابعاد زغلول واصحابه الى سيلان ليوقع الياس فى قلوبهم وقلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاء القوم المبعدين فى عالم السياسة المصرية . ولأمر ما ــ لا يعنينا بحثه هنا ــ تغير المنفى واستبدلت جزائر سيشل بجزيرة سيلان ، ولبث سعد واصحابه فى انتظار النقل الى المكان المقدور ، حتى أعلن تصريح ٢٨ فبراير فى مصر فكان يوم اعلانه ــ اعلان الاستقلال ! ــ

هو يوم انتقال « القوم المبعدين » من عدن الى منفاهم السحيق

ولولا الحرص الشديد على الانتقام من سعد والتشفى منه ومن أنصاره ، لكان التمهيد بنفيهم لتأسيس النظام الجديد من أعجب ما يخطر على العقول ، وكان رجاء النجاح بعد ذلك التمهيد من أغرب الاحلام التى يحلم بها الساسة العمليون ، وهى أغرب من مخترعات الخيال

فان النفى ليصلح عنوانا لكل شيء الا أن يكون عنوانا للحرية والاستقلال ودليلا على أن البلاد قد ظفرت بحكم نفسها وتحقيق مشيئتها ، وان بلدا يضيق برعمائه فى يوم اعلان حريته واستقلاله لأعجوبة من أعاجيب النقائض والاضداد . وما كان بدعا من المصريين أن يتشـــاءموا بتصريح يمهد له ذلك التمهيد ، ولا أن يسمعوا فى يوم واحد بنفى سعد الى سيشل وباستقلالهم هم فى وطنهم بما يرومون ومن يرومون .. فلا يستطيعون التوفيق بين الامرين ولا يجدون بدا من الشك فى احدى الروايتين . وانما البدع أن تؤكد لهم النفى والاستقلال فى وقت واحد وان لا تتركهم ينسون نبأ النفى فى ذلك اليوم خاصة ثم تطمع منهم فى اعتقاد غير ما اعتقدوه ويقين غير ما أيقنوه ، وتريدهم على أن يستبشروا بالتصريح وبالعهد الذى يليه

ولو كان التصريح استقلالا حقا لما عيب على المصريين ان يتشاءموا به ويوجسوا منه ويعرضوا عنه وعن دعاته ومروجيه ، لأن نسيان الاعزاء المنكوبين والانتصـــار لخصومهم الظافرين اغتباطا بغنيمة سياسية او منفعة وزارية أمر قد يفهمه الساسة ويحمدونه فى حســاب

وقيل ان بعض اولئك الوزراء قد لجت به الضغينة على سعد حتى اقترح محاكمته واعدامه بتهمة الثورة والخيانة العظمى/ وقيل ان الفيكونت اللنبي لم يرفض ذلك الاقتراح ولم يحجم عن الرجوع به الى الحكومة البريطانية، وانها هي التي ساومته في الصفقة المعروضة الى أن قنع من الاعدام بالابعاد !

ومما يعزز أن اللورد اللنبي نفسه طلب لزعماء الوفد جميعا الاعدام في هذه المناسبة أو غيرها ، ما رواه السفير الامريكي الدكتور مورتون هول عن مقابلة اللورد اللنبي ومستر اسكويث بعيد مقتل السردار ، حيث قال في كتابه مصر « ماضيا وحاضرا ومستقبلا » : « عندما لقيته قدمني الى مستر اسكويث وكنا جميعا واجمين واللورد اللنبي بصفة خاصة مهتاج الشعور ، وكان يقول ان الاطباء الان يفحصون حالة الحاكم العام وانه يخشى أن تكون الاصابة قاتلة . ثم قال ان زغلولا باشا رئيس الوزراء حضر قبيل ذلك ليعرب عن أسفه لهذه الفعلة الشنيعة ولكنه لم يجد متسعا من الوقت ولا من الكلام لهذه المقابلة . ثم ختم كلامه عن هذه المسألة بقوله : انني قد أردت أن أشنق جميع هؤلاء الناس في وقت قبل هذا فلم توافق الحكومة ، وكأنه يعني كما فهمت ساعتئذ انه لو أجيب الى طلبه وترك لرأيه لما وقعت هذه الفاجعة »

فالانتقام من زغلول ومن — هؤلاء الناس — كان اذن غرضا يراد لذاته او كان هو الغرض الاول من قضية التصريح والاستقلال المزعوم ... لعله بعد نفي زغلول يعين على نسيانه واهماله

وبعد الفراغ من هذا الفرض الاول تفرغ اللورد اللنبي والوزراء المصريون اصدقاؤه لما بقي لهم من الفرض الاخر الذي لا يهم النجاح فيه كما يهم النيل من زغلول والغض من مكانته وكبريائه ، ونعني بالغرض الاخر ارضـاء مصر بالتسوية الجديدة من طريق اقناع المعتدلين واجبار المتطرفين على الاعتدال ، فلم تطل الايام حتى وجدوا ان « التصريح » كان عبثا باطلا وجهدا ضائعا من حيث تحقيق هذا الغرض الاخر ... لانهم قد اضطروا الى اتباع الخطة التي كانوا مضطرين الى اتباعها لو لم يوجد هذا التصريح ، وهي خطة القمع والتجسس والمحـاكمات العسكرية تقابلها من الجانب المصري المظاهرات وسلسلة من حوادث القتل السياسي لم تكن معروفة قبل ذلك في تاريخ الثورة المصرية ، لإن الانجليز الذين أصيبوا قبل تصريح ٢٨ فبراير انما كانوا يصابون في أثناء المظاهرات او في أثناء الصدام والمقاومة وكانوا جميعا من الجنود ، ولكن حوادث الاعتداء بعد ذلك التصريح كانت تصيب الجنود والموظفين وغير الموظفين ، وكان القائمون بهـا اناسـا يتآمرون ويدبرون ويقدمون عليهـا للحفيظـة والانتقام

وانقلب العداء الى عناد والعناد الى مناجزة يبذل فيها كل فريق قصارى ما عنده لتحدى الفريق الآخر واحباط مسعاه ، فاذا منعت الحكومة الاجتمـاعات والمظاهرات التي تهتف بحياة سعد زغلول ، نابت عنها الاغاني الشعبية في الشوارع والازقة والحواضر والقرى وكل مكان يتسع فيه الفضاء للغناء والترنم والانشاد ، واذا حظرت الحكومة على الصحف ان تذكر سعدا او

تشير الى اسمه او اسم الجزيرة التى هو منفي فيها ، استورد الناس الآنية الخزفية من اوربا وعليها رسمه ، وكتبوا اسمه على الجدران وعلى ورق النقد الذي كانت تتداوله الايدى بمئات الالوف فى تلك الايام لانتشار الاوراق الصغيرة من جميع الفئات ، واذا اعتقلت الحكومة اعضاء من الوفد ، قام فى مكانهم على الاثر اعضاء غيرهم يعرضون انفسهم للاعتقال والجزاء وهم مستبشرون ، فاصبحت العلاقة بين الفريقين علاقة غالب او مغلوب ومنتصر او منهزم ، وهذا كل ما ظفر به التصريح من « التقريب » و « تسوية » العلاقات بين البلدين .

وقد ظهر من سفر اللورد اللنبى الى لندن أيام المفاوضة فى التصريح - كما ظهر بعد ذلك من الوثائق الرسمية - ان الوزارة البريطانية لم تخل من أناس يعارضونه معارضة شديدة ويستكثرونه على مصر كأنه غنيمة لا ينبغي لها ان تطمح اليها . وراق الوزراء المصريين ان يحسبوه كذلك من الغنائم التى لا تنال الا بالدهاء « والمرونة » ولطف المدخل على عقول الانجليز ، بل راقهم اتباعهم أن يحسبوا أنفسهم خادعين ويحسبوا الفيكونت اللنبى ومستشاريه الانجليز مخدوعين فى هذه المساومة التى ما كانت لتفلح فى زعمهم لولا ما وهبوه من قدرة على طرق الابواب وتذليل الصعاب ، ومن الطبيعي أن يكون هذا رايهم أو زعمهم فى تعظيم ما عملوه وتسويغ ما فعلوه ، ومن الطبيعى كذلك ان تمانع الحكومة البريطانية فى المبادرة باعلان التصريح ما دامت تستطيع ان تمانع وتساوم وتعطى بالثمن الكبير ما هى خليقة ان تعطيه بالمجان ، ولكن الحقيقة ان الدولة البريطانية

كانت وشيكة ان تفرض ذلك التصريح او ما شابهه على مصر بغير جهد من الفيكونت اللنبى ولا مخادعة من الوزراء المصريين . لانها ابتدعت هذه السنة فى كل امة شرقية غير مصر بعد الحرب العظمى وبعد رواج المبادىء الولسنية التى استغلتها بريطانيا العظمى فى سياستها الاستعمارية ، كدابها فى جميع المبادىء والدعوات الصالحة للاستغلال . فاعترفت بمملكة الحجاز ومملكة العراق وخولتهما مظاهر الملك والقابه وحقوق الدول والعروش دون أن يزعم زاعم أن وزيرا بارعا او غير بارع ضحك من عقول الانجليز هناك فساقهم بدهائه ولباقته الى التسليم بالاستقلال من حيث لا يدرون ولا يشعرون . وعمم الانجليز هذه السياسة حتى اعترفوا بالحكومات الوطنية فى مستعمرات افريقيا التى لا نصيب لها من الحضارة . فهناك اليوم امراء وطنيون ومحاكم وطنية ورؤساء وطنيون ومراسم من هذا الطراز تخدع من يعبرون بالبلاد عبور السائح ولا ينفذون فيها الى بواطن الامور . ولم تخسر بريطانيا العظمى كثيرا ولا قليلا بهذه البدعة الطريفة من بدع الحرب العظمى بل استفادت كل ماتبغيه وفوق ماتبغيه من السطوة والمصلحة والدعاية. لانها كسبت سمعة الحرية والانصاف بين امم العالم على اثر الدعوة الولسنية ، وكسبت ايقاع الفتنة بين الوطنيين وتدويخهم بالمنازعات الداخلية بدلا من الاتفاق بينهم على السيطرة الاجنبية ، وكسبت القاء التبعة عن كاهلها والقائها على كواهل الوطنيين لتعود فى يوم من الايام فتتخذ من سوء الادارة الذى لابد منه فى جو المنازعات والدسائس وتغليب المفسدين وطلاب الفرص والمغانم

حجة لها على اولئك الوطنيين ، وكسبت ارضاء الاغرار وذوى الاغراض الذين ترضيهم المظاهر والصور الخلابة فيحسبون انهم مستقلون لانهم يوصفون باوصاف المستقلين . ونجحت هذه السياسة نجاحا اغرى الدول الاستعمارية باقتباسها والحذو على مثالها فاقتدت بها فرنسا فى سورية والبلاد المغربية واليابان فى الاقطار التى اقتطعتها من الصين .

ومعلوم ان بريطانيا العظمى احتفظت لنفسها فى تصريح ٢٨ فبراير بشروط اربعة هى : (١) تامين مواصلات الامبراطورية فى مصر و (٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء او تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة و (٣) حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات و (٤) مسألة السودان ، وهى لو لم تحتفظ بهذه الشروط الاربعة لكان فى جيشها المقيم بالبلاد الكفاية لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضييع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة ، فاذا اضيفت الى القوة العسكرية هذه الشروط او هذه الحقوق كما تريدها الحكومة البريطانية فالذى يبقى من الاستقلال لا يساوى عناءه ، والذى يبقى من الحماية أو من الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذى ليس يعنى القوم شىء سواه .

تحدث سعد بعد عودته من المنفى عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على اسلوبه فى سرد الامثال : « هو ناقة البدوى التى تباع بمائة درهم وتباع التميمة التى فى رقبتها بالف ، ولكن لا تباع الناقة بغير التميمة ... فما املحها من صفقة (لولا الملعونة فى رقبتها) .. » !!

من المنفى الى الوزارة

كان عدلى هو الذى قطع المفاوضات مع كـرزون وكان سعد هو الذى نفى الى سيشل بعد قطع هذه المفاوضات !

وليس هذا كل ما هنالك ، بل كان اللورد اللنبى حريصا على بقاء الوزارة العدلية فى الحكم ، ولما استقالت واكدت استقالتها مرة اخرى كان حريصا على « اقناع اعضاء من حزب عدلى بالانضمام الى الحكومة » لانه يشعر كما قال فى برقية العشرين من ديسمبر الى حكومته « بان هذا الحزب لا محالة ممزق ما لم يتقدم الآن »

وهذا تصرف من جانب الانجليز لا معنى له الا انهم يعتقـدون أن المعارضـة التى احبطت المفاوضات هى معارضة زغلول وان ما عداها انما هو معارضة «المظاهر» والمراسم ومقتضيات الاحوال

وقد اجتمعت المعارضة الحقيقية ومعارضة المظاهر بعد نفى زغلول واصحابه فى صف واحد ، فاجترفت كل ما دبرته السياسة الانجليزية وخيبت رجاءها فى كل ما قدرته من تخويف المصريين بتهديد اللورد كرزون فى كتابه الى السلطان ، وشملت المعارضة السياسيين وغير السياسيين فاشترك فيهـا كبار القضـاة والمحـامين والأطباء ، و « حزب » عدلى كما يسميه اللورد اللنبى

وسائر الاحزاب التى تنضوى الى هذا الجانب او ذاك ؛ او تقف بين بين فى انتظار الطوارىء والتقلبات .

استقال عدلى واكد استقالته مرة أخرى بعد اعتقال سعد وأصحابه لكى لا ينسب اليه الاشتراك فى هذا التصرف ، وأسرع الى اللورد اللنبى « يؤكد أنه شخصيا سيظل مؤيدا لحكومة السلطان ولقوى القانون والنظام » اى للأحكام العسكرية البريطانية بطبيعة الحال ، لأنها هى القوى التى تدعى حفظ القانون والنظام فيما عدا حكومة السلطان !

واستحال تأليف وزارة جديدة بعد المعارضة الإجماعية من جميع الطبقات للسياسة التى رسمها اللورد كرزون فى كتابه

وبعد مفاوضات بين ثروت واللنبى أعلن فى الثامن والعشرين من فبراير التصريح المنسوب الى هذا التاريخ لأن أحدا لم يستطع أن يسميه تصريح الغاء الحماية أو تصريح الاستقلال ، أو ما الى ذلك من الصفات ، لا فرق بين أنصاره المرحبين به ، وخصومه المعترضين عليه !

تألفت الوزارة الثروتية عقب هذا التصريح ، وارسلت وزارة الخارجية المنشأة حديثا منشورا فى منتصف شهر مارس الى وكالات الدول السياسية تبلغها النطق الملكى المعلن استقلال مصر واتخاذ ولى الأمر لقب صاحب الجلالة ملك مصر .

وفى الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية الدول ان كل معاملة بينها وبين مصر على غير الخطط التى رسمتها لاستقلالها تنظر اليها بريطانيا العظمى كأنها عمل من أعمال العداء

وبقيت الأحكام العسكرية وبقي اللورد اللنبي صاحب السلطان الأكبر في مصر المستقلة !. وبمقتضى هذه الاحكام كانت تغلق الصحف وتمنع الاجتماعات وتصادر الحريات في كل صباح ومساء . بل بمقتضى هذه الاحكام العسكرية حوكم سبعة من اعضاء الوفد بعد اعلان الاستقلال بنصف سنة لانهم اصدروا منشورا فيه اغراء وتحريض ضد نظام الحكم الحاضر .. اى ضد الاستقلال ! فوقف حمد الباسل باشا(١) وكيل الوفد اذ ذاك يتلو على المحكمة الكلمة الوحيدة التي قبلوا أن يلفظوا بها في هذه المحاكمة . ومنها قولهم : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحا جديا وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة لكان حقا عليها ان تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . لكم ان تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا . نحن لا نعرف مهيمنا علينا غير ضمائرنا وتوكيل الأمة التي يروقكم أن شرفتنا وقوانين بلادنا ومحاكمنا : فمهما تكن العقوبة التي ترقكم أن تشرفونا بها فاننا سنقابلها بالسرور والفخار ، لانها خطوة الى الامام في طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد »

وقد حكمت المحكمة العسكرية عليهم بالاعدام . ثم عدل الحكم الى سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه على كل منهم ... وابلغوا حكم الاعدام أولا فهتفوا « لتحى مصر » قبل أن يسمعوا ما وراء ذلك . ثم تليت

« ١ » السته الاخرون هم : مرقص حنا بك ، واصف غالى بك ، وعلوى الجزار بك ، ومراد الشريعى بك ، والاستاذ ويصا واصف .

عليهم تتمة الحكم وفيها ذلك التعديل ، فكرروا الهتاف لمصر بالحياة

اما الوفد بعد اعتقال سعد فقد عاد اليه بعض اعضائه المنفصلين ، ثم تركوه بعد أيام لسبب ظاهره أنهم اختلفوا على اختيار عضو من الأعضاء الجدد ، وباطنه أنهم عرفوا السياسة التى رسمت للمستقبل وهى سياسة « حزب عدلى » كما سماه اللورد اللنبى ، فرجعوا الى تأييد هذه السياسة

وقد اصدر الأعضاء الباقون منشورا مفصلا ببرنامج المقاطعة ، وسياسة عدم التعاون مع الانجليز فى الحكومة وخارج الحكومة ، فقبض عليهم ثم أفرج عنهم ، وعادوا فاصدروا منشورا حضوا فيه الأمة على بذل ما فى الطاقة لاعادة سعد واصحابه من منفاهم ، فقبض عليهم فى الرابع والعشرين من شهر يوليو وحوكموا فى التاسع من شهر اغسطس . وانتهت المحاكمة بعد ثلاث جلسات وجيزة ، لأن الأعضاء رفضوا بتاتا ان يجيبوا على أى سؤال

اما الوزارة الثروتية فاهم ما صادفها من العقبات ــ غير مقاومة الامة ــ احتجاج الحكومة البريطانية على كثرة الجرائم السياسية التى كانت تقع على الموظفين وغير الموظفين الانجليز ، ومنها ما كان يقع نهارا فى أعمر الأحياء بالسكان . وقد قالت الحكومة البريطانية فى احتجاجها :

« ان عدم الاهتداء الى مرتكبى تلك الجرائم وبقاءهم بعيدا عن طائلة العقاب يدل أوضح الدلالة على عدم كفاية التدابير التى اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وان الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض

من يقع به اعتداء من الاجانب او تعويض ورثته ان ادركته الوفاة ، كما انها تحتفظ بحق تقدير ما اذا كان التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية كافيا أو غير كاف »

وفيما عدا ذلك الاحتجاج الرسمى كانت العلاقات بين الانجليز والوزارة الثروتية علاقة مودة وتأييد متبادل ، وكانت العقبة الكبرى التى تلقاها الوزارة انما هى الخلاف المتعاظم بينها وبين الملك فؤاد على مسألة الدستور

وخلاصة المسألة الدستورية أن الوزارة انشأت برأيها ورأى أصدقائها لجنة مؤلفة من ثلاثين عضوا برئاسة « حسين رشدى باشا » لوضع الدستور الجديد ، تمهيدا لانتخاب الهيئة التى تبرم الاتفاق بين مصر وانجلترا على القضية المصرية . ودعت الوزارة عضوين او ثلاثة من الوفد المصرى الى الاشتراك فى اللجنة فلم يجيبوا الدعوة لان تمثيل الوفد بهذا العدد القليل بين ثلاثين من انصار الوزارة المعادية للوفد ورئيسه عبث لا يناله منه الا التبعة وتصحيح مركز الوزارة تصحيحا يقويها ويضعفه ويفل سلاحه ، ولانه كان من ناحية أخرى يقترح انتخاب جمعية تاسيسية لوضع الدستور برأى نواب البلاد لا برأى الوزارة ومن يشايعها ، ولانه كان يستريب بمقاصد عبد الخالق ثروت ويناصبه العداء مقابلة لعدائه بمثله وتطبيقا لسياسة عدم التعاون التى اعلنها بعد اعتقال سعد واصحابه .

وارتسمت الخطة التى كان ينويها ثروت باشا واصدقاؤه ويطمئنون الى جريان الامور فى مجراها الى الغاية المنشودة : وهى تنفيذ الاتفاق بينهم وبين الانجليز باسم النواب المنتخبين وضمان الحكم على القواعد الدستورية .

لسعد واصحابه فى المنفى ، والبقية الباقية من اعضاء الوفد البارزين فى السجون او المعتقلات ، والانتخابات تجرى على الاسلوب الذى يحسنه ثروت باشا وجرى عليه فى جميع التوقيعات ، وهو واصدقاؤه من « حزب مدلى » ينزلون الى ميدان الانتخاب بغير منازل او يقهرون منازليهم بمعونة الحكومة وما عندها من وسائل الترهيب والترغيب وقضاء المصالح من هنا ومنعها من هناك . ولا يبقى الا النجاح والاستئثار بالامر الى زمن طويل

ولهذا كانت الوزارة وانصارها يقررون المبادىء التى تلائمهم فى الدستور وهى مبادىء التبعة الوزارية والاعتراف بالأمة وحدها مصدرا للسلطات ، بدلا من حصر السلطة الدستورية فى ايدى الملك وهو الجانب الذى كانوا لا يامنونه ولا يرجون منه المساعدة على نجاح الخطة المرسومة وجريانها فى ذلك المجرى المعلوم . وكان يشايعهم المخلصون من اعضاء اللجنة الذين لا ينظرون الى المآرب الحزبية ويؤثرون المبادىء الديمقراطية فى الدستور على مبادىء الاستبداد

فاستفاد الدستور كثيرا من حيطة الوزارة واخلاص المخلصين ، وجاء على الجملة دستورا لا باس به فى القواعد والنصوص

لكن الملك فؤاد كان يريد الدستور على غير هذه القواعد فيما يرجع الى التبعة الوزارية ومصدر السلطات ، ومجمل ما يريده فى هذا الباب ان تكون الوزارة مسئولة بين يديه وأن لا ينص فى الدستور على ان الأمة مصدر السلطات جميعا . فتوترت العلاقات بين القصر والوزارة الثروتية ، ولاح فى الأفق ان الملك فؤادا يترقب الفرصة

التى يتخلص فيها من تلك الوزارة دون أن يفتح للانجليز باب التدخل فى الموضوع ، وقد سنحت هذه الفرصة بعد زمن وجيز بما نقله محمد سعيد باشا الى الملك من حديث رواه حسن صبرى « بك » المحامى عن الخديو السابق ، وفحواه أن الخديو يعتبر ثروت باشا من رجاله ولا يخشى منه أن يقيم الصعوبات فى تسوية ما له من المسائل المالية ... وواجه الملك ثروت باشا بهذه الرواية فلم يبق للرجل الا أن يستقيل بعد قيام هذه الشبهة ، ثم قضى على تردده فى نية الاستقالة انه دعى للصلاة مع الملك فى الجامع الأزهر وسمع من المصادر المختلفة ان مظاهرة كبرى ستلقاه فى داخل المسجد وخارجه بما يكره من هتافات التشهير والاتهام على مسمع ومشهد من ولى الأمر والحاشية الملكية ، فعجل بالاستقالة ولم يذكر فيها من أسبابها الا أنه قال فى ختامها : « وقد كنت ارجو أن أمضى مع زملائى فى تنفيذ برنامجنا حتى تمامه ولكن ارى ان اترك الأمر لغيرى »

فجاءه الأمر الملكي بقبول الاستقالة بعد نصف ساعة من رفعها ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من نوفمبر

وفى اليوم التالى قامت الوزارة النسيمية وغرضها الاول تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك فى التبعة الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ

أما وسيلتها الى هذه الغاية فهى التقرب من الوفد واسترضاؤه بما يجنح به الى السكوت عن التعديل المقصود ، فلا يرى الانجليز وجها للاعتراض مع موافقة الملك والشعب على المبادىء الدستورية التى يستقر عليها القرار

ولهذا اكثر من دعوة الوفد الى القصر الملكي والى الصلاة فى المساجد التى يحضرها الملك أيام الجمعة . وكتب ردا على مذكرة اللورد اللنبى التى يحتج فيها على حوادث الاعتداء السياسى قال فيه أن « تكرارها المؤلم منذ نحو سنة يحمل على الاستنتاج ان هناك رد فعل ضد سياسة لا تراعى عواطف الأكثرية من الأهلين المراعاة الكافية ، وهو رد فعل يؤسف له كما انه صادر عن قلة روية من قبل بعض العناصر المتهوسة غير المسئولة ، كما يوجد لسوء الحظ فى كل بلد . والذى يزيد فى ترجيح هذا الافتراض أمر يستوقف النظر وهو أنه فى كل المدة التى يؤمل فيها الوصول الى اتفاق ودى بين لسان حال تلك الأكثرية والحكومة البريطانية ليس فقط لم ترتكب جريمة من تلك الجرائم بل ان العلاقات بين المصريين والانجليز لم تكن قط اكثر ثقة واوفر ولاء مما كانت فى تلك الفترة ، مع ان الأمر صار على العكس من ذلك من يوم ما اصبحت الحكومة البريطانية غير متصلة بممثلى الاكثرية المصرية بسبب المفاوضات غير الرسمية اولا ثم بسبب تدابير العنف التى تلت قطع المفاوضات الرسمية ، واخيرا بسبب التدابير التى صاحبت الاتفاق مع أقلية لا تأثير لها حقيقة فى الأمة فزادت الحالة تحرجا والعواطف تألما مما جعل الاتفاق المرغوب فيه أكثر صعوبة »

بيد أن هذا التقرب الى « الأكثرية » لم ينفع الوزارة النسيمية طويلا فى تخدير الأمة وتهيئة الجو لتعديل الدستور ذلك التعديل الذى يضيق من حدوده ويكاد ينقضه من أساسه ، وهو الاعتراف بسلطة الأمة والتبعة الوزارية

فقد كانت الأمة ايقظ من ان تؤخذ بهذه الاساليب او

تستمع فيها الى راى احد ، وزادها يقظة وحذرا ان الوزارة لم تصنع شيئا فى مسالة المنفيين والمعتقلين كما كان منتظرا منها ، ولم تصنع شيئا لتمثيل مصر فى مؤتمر لوزان الذى كان منعقدا للنظر فى مسائل الشرق وتنقيح المعاهدات بين الحلفاء والدولة التركية صاحبة السيادة القديمة على مصر ، فاذاع الوفد المصرى بيانا فى العشرين من يناير قال فيه : « ما زالت الوزارة ملتزمة خطة الصمت وما زالت مصالح البلاد معطلة ، فلا مثلت مصر فى مؤتمر لوزان تمثيلا شعبيا ولا الغيت الاحكام العرفية ولا احترم حق الامة فى ان يكون الدستور وليد ارادتها ، ولا عاد الوكلاء المنفيون ولا اطلق سراح الزعماء المسجونين، وهذا سر ما استولى على النفوس من الحيرة والقلق » ثم قال : « والاخبار متواترة ايضا على وقوع امور خطيرة بشان مشروع الدستور ، فانهم يؤكدون ان هناك اخذا وردا بين الوزارة والانجليز متعلقين بالنص الخاص بالسودان ، وان الوزارة قد ادخلت من جهتها تعديلا جديدا على نص المشروع يقضى بزيادة عدد الاعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ الى النصف وتقرير مسئولية الوزارة امامه »

واتبع هذا البيان بيانات اخرى فى معناه

ثم استقالت الوزارة النسيمية لأن الانجليز تخطوها ووجهوا الى الملك انذارا يطلبون فيه حذف النص الخاص بالسودان من الدستور والاكتفاء فيه بلقب « ملك مصر » بدلا « من ملك مصر والسودان » ... فقبل نسيم باشا هذا الطلب واستقال بعد قبوله وتنفيذه !

وهنا يجب أن نلخص الحالة من حيث المناورات

الوزارية لنفهم حقيقة الموقف الذى وقفه سعد باشا من هذه الوزارة ، لانه موقف فى حاجة الى التوضيح

وذاك انه لما احس رؤساء الوزارات والمرشحون لرياسة الوزارة أن رشدى وعدلى وثروت واصحابهم قد احتكروا الميدان فى السياسة المصرية تألبوا حزبا واحدا على مقاومة هذا الفريق ، وأصبحوا فريقا آخر يراسهم محمد سعيد واحمد مظلوم وتوفيق نسيم ويوسف وهبة واخوان هذا الطراز ، وأصبح فى مصر على هذا التقسيم فريق وزارى يصح ان يسمى بالمدرسة المتفرنجة وهم عدلى وأصحابه ، وفريق آخر يصح أن يسمى بالمدرسة التركية وهم محمد سعيد واصحابه

وبحكم العداء بين الفريقين أصبح لزاما على « المدرسة التركية » أن تخطب ود الوفد وتتقرب اليه ، وتلوذ بالقصر الملكى لتستند اليه فى وجه المعاونة المكشوفة من الانجليز لعدلى واصحابه

وهذا سر الصداقة التى كان يبديهـا محمد سـعيد وتوفيق نسيم وأحمد مظلوم لسعد زغلول بعد ان كانوا جميعا يحاربونه او لا يتقدمون الى مساعدته بعمل من الاعمال . فسعى محمد سعيد فى انشاء وفد غير الوفد السعدى ، وابى توفيق نسيم أن يوقع التوكيلات القومية، ولبث احمد مظلوم على صداقته للاثنين .

فلما جاء توفيق نسيم عقب عبدالخالق ثروت المجاهر بعداء سعد وانصاره ، واتبع سياسة التقرب الى الوفد ، وكتب مذكرته يطلب فيها الاعتراف بالكثرة القومية ، واستقال قبل أن ينسخ الدستور وتنكشف اغراضـه الخفية بلغ ذلك كله الى سعد فى جبل طارق وهو بعيد

من مجرى الحوادث ووسائل الاستقصاء الوافية فكتب اليه البرقية التى يقول فيها « انكم بعملكم الشريف المفعم بالوطنية والحكمة استحققتم تقدير الوطن » ونظر الى الموقف فى جملته بين ان ينصر حزب ثروت أو ينصر حزب نسيم ، فاختار ما اختاره بعد هذه الموازنة المجملة ، وحدا به الى حسن الظن بالرجل وعدم استغراب سياسته الجديدة انه كان صهرا له اذ كانت شقيقة نسيم زوجا لشقيق سعد المرحوم احمد فتحى زغلول

ولسنا نقول هذا لتسويغ ذلك التقدير فاننا لا نسوغه الآن كما لم نسوغه فى حينه ، ولكننا نقوله لتبيين الاسباب التى باعدت بين حكم سعد على الوزارة النسيمية وما تستحقه هذه الوزارة بما عملته وبما تنويه

بعد سقوط الوزارة النسيمية اتجهت الانظار الى عدلى يكن باشا لاستئناف الخطة التى اقتضبت على ثروت قبل تمامها ، وكان عدلى باشا قد انشأ حزبا ينزل به الى ميدان الانتخاب وسماه من أجل ذلك «حزب الاحرار الدستوريين»

ولكن الملك كان لا يرغب فى استيزاره ولا يزال يرجو ان تقوم وزارة من رجاله تعيد النظر فى الدستور على المبادىء التى يريدها ، وتعاظمت المصاعب امام عدلى بين مقاومة الوفد ومقاومة القصر وكثرة الجرائم السياسية فى ايام ترشيحه وصعوبة اصلاح الخطأ الذى وقعت فيه الوزارة النسيمية وانجاز الوعود التى لم تنجزها ، فاعتذر عن تأليف الوزارة واصر على اعتذاره ، وانتهى الامر فى منتصف شهر مارس ١٩٢٣ باسنادها الى يحيى ابراهيم باشا وهو قاض نزيه ولكنه رجل ضعيف كان يخشى كثيرا أن يتم تعديل الدستور المطلوب على يديه ، وضاعف هذه الخشية

قوله فى اليوم التالى لتاليفه الوزارة : « ان كان الناس قد تكلموا كثيرا عن التعديل الذى ادخل على الدستور وتساءلوا عما اذا كانت وزارتنا تسلم بالتعديل الذى قد ادخلته الوزارة النسيمية فتصدر الدستور كما عدلته ام ترجعه الى أصله كما وضعته اللجنة ، فان ما وضعناه نصب عيوننا هو ان يحقق الدستور رغبات الامة كل التحقيق »

وهذا كلام ليس فيه من نفى التعديل بقدر ما فيه من ترجيحه . فاسترابت الاحزاب بما وراء هذه الفاتحة ، وكتب الوفد المصرى بيانا يقول فيه : « ان ما نشر عن رئيسهم - رئيس الوزراء - كله تنصل وابهام .. ففى الدستور لم تكن سيادة الامة وارادتها موضع عناية بل انه اقر من سبقه على اغتصاب حق الامة فى وضعه ، ورفع الاحكام العرفية ليس لديه الا مجرد أمل من الامال ، واصدار قانون التضمينات بالقيود التى يود الانجليز ان يقيدوا بها سيادة البلاد وحرية ابنائها قضاء محتوما لا يرجو فيه كما قال سوى لطف فخامة اللورد والتخفيف . أما مسألة السودان على أهميتها فقد اكتفى بانها ستكون موضع مباحثاته مع زملائه »

واحتج حزب الاحرار الدستوريين على التعديلات التى قيل انها ادخلت على الدستور فى عهد الوزارة النسيمية ، وابلغ الوزارة الجديدة مطالبه فى السياسة العامة واهمها العمل على اتباع سياسة الاتحاد والوئام ، لانه أيقن ان مجاملة الكثرة خير من مجافاتها ، ومن ثم طلب رفع الاحكام العرفية فى الحال وفك المعتقلين والافراج عن المبعدين والمسجونين السياسيين ، كما طلب اصدار الدستور كاملا

شاملا للمبادىء التى قررتها لجنة الدستور

ونشر الاستاذ عبد العزيز فهمى بك خطابا مفتوحا الى رئيس الوزارة سرد له فيها المبادىء التى لا يستغني عنها فى الدستور ، وقيل انها مست بالتعديل فى عهد الوزارة النسيمية ، وهى سلطة الامة ، واشتراك الوزارة فى الانعام بالرتب والنياشين ،واقتصار حق الحل على مجلس النواب دون مجلس الشيوخ ، وابقاء عدد الشيوخ المعينين دون عدد المنتخبين ، واشراك مجلس الشيوخ فى تعيين رئيسه، وعدم اصدار مراسيم اثناء دور انعقاد البرلمان قبل عرضها عليه ، وعرض معاهدات التجارة والملاحة على البرلمان ، واشراف الوزارة على المعاهد الدينية ، وترك القيود التى قيد بها تنقيح الدستور على ماهى عليه

امام هــــذا الاجماع من الاحزاب المختلفة تراجعت الوزارة ، وافضى وزير الحقانية فى الوزارتين النسيمية والابراهيمية بحديث الى الصحف اعترف فيه بحذف المادة التى تنص على ان الامة مصدر السلطات وقال فيه عن عدد الشيوخ : « اؤكد لكم اننا قبل ان تخطر لنا فكرة الاستقالة عدلنا عن تعديل كنا عدلناه فى المادة الخاصــة بمجلس الشيوخ بالنسبة الى عددهم ، لان اللجنـــة الاستشارية لفتت نظرنا اليها ولم تزل هذه المسالة باقية تحت البحث كغيرها من المسائل »

ثم سرت الحملة فى مسالة الدســـتور من مصر الى الصحافة الانجليزية فقالت التيمس بالعبارة الصريحة ان القصر هو المؤخر لصدور الدستور ، وساندتها صحف اخرى من صحف الاحرار والمحافظين ، وتماوج الراى العام فى مصر حول هذه المسالة ، فثبت للوزارة ان

التعديل على المبادىء التى يريدها القصر عسير غير مأمون العواقب ، وصدر الدستور بغير تعديل ذى بال فى التاسع عشر من شهر ابريل

وفى خامس يوليو صدر قانون التضمينات ، وهو قانون تعويضات الموظفين الاجانب أهم ما اصـــدرته الوزارة الابراهيمية بعد الدستور ، وقد افرغ فى قالب اتفاق بين مصر وانجلترا ليمتنع تعديله على البرلمان ، واعترف بالحالة الفعلية فيما يتعلق بالارض التى استولت عليها الحكومة البريطانية ، وعهد بالاشخاص المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية الى لجنة يسود فيها راى الانجليز دون المصريين ، ولم تقبل الحكومة الانجليزية فيه أن تحمل التبعة فيما اتخذته من التدابير ايام الحرب وما بعدها بل اكتفت بوعد مبهم « أن تكون مستعدة على الدوام للاتفاق مع الحكومة المصرية على الحل الذى تقتضيه الحالة بروح العدل والانصاف » اذا حدثت حالة من الاحوال التى تعود فيها الخسارة من جراء التدابير الانجليزية

وبصدور هذا القانون تم التمهيد لالغاء الاحكام العرفية الانجليزية فالغيت « مع استمرار السلطات العسكرية على مباشرة الحقوق التى خولتها اياها الاعلانات المختصــة بتنفيذ معاهدات الصلح فيما عدا الحقوق الجنائية ، وذلك الى أن تتم التدابير المقررة فى تلك الاعلانات ، وتبقى القضية المنظورة امام المحاكم العسكرية الى ان يحكم فيها »

ومن القوانين التى اصدرتها الوزارة الابراهيمية ولا تقل عن هذا القانون فى الخطر والضرر قانون تعويضات الموظفين الانجليز ، وهو الوثيقـــة التى تعهدت مصر

بموجبها باداء ما لايقل عن عشرة ملايين من الجنيهات لتعويض الموظفين الاجانب ، ثمنا لحريتها فى الاستغناء عنهم واختيار غيرهم ، وهى لاتملك الى الساعة هذه الحرية !

قبل صدور قانون التضمينات بثلاثة اشهر افرجت الحكومة البريطانية عن سعد فى جبل طارق وقالت فى بلاغها أن الطبيب المعالج لزغلول باشا قرر « أن تغيير نظام الحياة والاستحمام بالمياه المعدنية فى أوربا ضروريان لصحة الباشا . ولهذه الاسباب قررت الحكومة بعد استشارة المندوب السامى أن تفرج عن زغلول باشا من جبل طارق »

وكانت الاسباب الصحية فى الواقع من اقوى الاسباب التى حملت الحكومة البريطانية على هذا القرار ، لان الدكتور موريسون الذى زار سعداً فى الثانى والعشرين من اكتوبر رأى أن الحالة الصحية على جملتها مقلقة معرضة للمفاجآت على الرغم من أنه لم يجد عنده اثرا للسكر او الزلال أو الاسيتون ، واخفى الخبر عن سعد فلم يطلعه على تقريره المفصل بعد كتابته ، تفاديا من ازعاجه

وكان فى النية التعجيل بالافراج عنه عقب ذلك ، ولكن اللورد اللنبى ظل يعارض أمر الافراج ويتوعد بالاستقالة، وصرح مستر بونارلو بذلك لاحد النواب المهتمين بالسؤال عن حالة سعد وقرار الحكومة بشأنه فى السابع عشر من شهر ديسمبر ، فقال للنائب : « تريدون الافراج عنه ! حسن . ولكن ذلك معناه اقالة اللورد اللنبى على الاثر »

الا أن الاسباب الصحية لم تكن هى كل الباعث الى

شروع الحكومة البريطانية فى اطلاق سعد زغلول . ففى مقدمة الاسباب الاخرى اقتناعها بفشل اللورد اللنبى فى المقاصد التى كان يرمى اليهـــا باعتقاله وتأييد ثروت واشياعه ، فقد ساءت العلاقات بين المصريين والانجليز اشد ما يتاح لها من سوء ، وبلغت من الحرج ما لم تبلغه قط فى وقت من الاوقات ، وتعاقبت اعمال القمع والقضايا العسكرية من جهة وحوادث الاعتداء ومظاهرات الاحتجاج من جهة حتى اصبحت مصر المستقلة المطلوب منها الرضى والاستقرار كأنها ميدان حرب دائمة بين عدوين متناحرين، وليس هذا هو المقصود بسياسة التصريح ولا يمكن أن يكون مقصودا بسياسة اخرى فى بلد من البلدان

ولما سقط ثروت واخفق عدلى فى تأليف وزارة بعـد الوزارة النسيمية وصار الوزراء والاحزاب يقدمون طلب الافراج عن سعد وسائر المنفيين والمعتقلين على كل طلب آخر فى البرامج الوزارية والحزبية ، شـعرت الحكومة البريطانية بأن نجاح كل سياسة فى مصر مستحيل مع بقاء هذه الحال أو بقاء سعد فى منفاه ، وشعرت قبلها ــ او بايعاز منها ــ صحف الاحرار والعمـــال وبعض صحف المحافظين بخطل السياسة التى سار عليها اللورد اللنبى فانحت باللائمة عليه ، واجمعت كلها على وجوب النظر من جديد فى عواقب تلك السياسة الخرقاء

ومن الاسباب التي دعت الى الافراج عن سـعد تلك القضيةالتى رفعها وكيل سعد فى أنجلترا طالبا الحكم فيها ببطلان أمر اعتقاله لانه سجن بغير محاكمة ولا تهمة معروفة

نعم ان الحكم من المجلس الاعلى قد صدر برفض هذه الدعوى ولكنه لم يصدر الا بعد جهد شديد من النائب

العام السير ديجلاس هوج « اللورد هليشام » لاقناع الاعضاء باجتناب هذه السابقة الخطيرة فى معاملة الثائرين على الامبراطورية ، ويغلب على الظن أن اعضاء المحكمة كانوا يفهمون بالايحاء أن الافراج حاصل عما قريب فلا ضرورة لتسجيل المبدأ الخطير من أجل تحصيل الحاصل . وقد نمى الى بعض المطلعين ان الوزارة البريطانية قررت الافراج فى أول فبراير وارجائه الى ان ينتهى الفصل فى القضية وقد انتهى فى التاسع من شهر مارس ، وليس معنى ذلك أن القضية لم تفعل فعلها فى تقرير الافراج ، بل معناه أن الوزارة اهتمت بها واهتمت فى الوقت نفسه بحسن التخلص منها ومن مثيلاتها ، لئلا يقال أن الحكم هو الذى اكرهها على اتخاذ ذلك القرار

وربما كان أهم الاسباب جميعا ــ الى جانب سبب الصحة ــ تلك الحركة التى أحسن توجيهها الدكتور حامد محمود بين فريق كبير من نواب الاحرار والعمال بلغت عدتهم تسعة وتسعين . فقد كثر الكلام فى الدوائر البرلمانية عن فشل السياسة الانجليزية المصرية وعن وصمة العار التى تصم الدولة البريطانية باعتقالها ذلك الشيخ العظيم وتعريضه للموت فى منفاه ، فترددوا على الوزارة سائلين ملحين فى وجوب الافراج ، واجمعوا آخر الامر على كتابة عريضتهم المشهورة فقدموها فى التاسع والعشرين من شهر مارس وأذيع الامر بالافراج بعدها بيومين

يضاف الى ذلك أن قانون التضمينات سيصدر ، وان الاحكام العسكرية ستلغى ، وان الانتخابات ستجرى ،

ولابد أن تسفر عن انتخاب نواب مجمعين على المطالبة بعودة سعد الى بلاده ، لان خصومه واصدقاءه كانوا يعلمون علم اليقين أن رضاء الشعب بغير هذه الوسيلة من وراء كل رجاء ، ولا معنى لالغاء الاحكام العسكرية فى مصر واجراء الانتخابات فيها وزعيم النواب المنظورين خاضع للاحكام العسكرية فى منفاه

ولقد كان الرجاء قويا فى تحضير الانتخابات على الوجه الذى يهواه اللورد اللنبى أيام ثروت واشياعه ، ولكن أى رجاء هناك فى هذه النتيجة بعد سقوط ثروت واحجام عدلى عن تاليف الوزارة وصعوبة المضى فى هذه السياسة من جميع الانحاء ؟

فالافراج عن سعد كان كجميع الحوادث التاريخية متعدد الاسباب غير محصور فى سبب واحد . وانما كانت المسالة مسألة الزمن ، او الانتظار حتى تتفق جميع هذه الاسباب

غادر سعد جبل طارق بعد خمسة أيام من اعلان الافراج عنه الى طولون ومعه السيدة الجليلة صفية زغلول وكانت قد وافته فى منفاه لما اشتد عناؤه من الوحدة مع انحراف الصحة والحاجة الى حسن الرعاية

فتلقاه الطلبة المصريون فى عرض البحر بالترحيب والتهليل ، ومنهم مندوبون عن زملائهم فى جامعات فرنسا وسويسرا حضروا خصيصا لتحيته وتجديد عهده . وخطبوا يذكرون مآثره ، وخطب فيهم راجيا أن ينسوه فى تلك اللحظة ليفكروا فى الذين لا يزالون يرسفون فى قيود السجن والاعتقال ثم قال : « ان مصدر قوتى هو أنى لست الا معبرا عن شعور الامة وآرائها معربا عن تصميمها على أن تعيش حرة مستقلة »

ثم توالى الافراج عن المعتقلين فى مصر فافرج اولا عن اعضاء الوفد الذين كانوا معتقلين بقصر النيل ، ثم افرج فى الرابع عشر من شهر مايو عن المعتقلين فى صحراء المساظة « المخزن » وهم حمد الباسل باشا وأصحابه الذين كتبوا منشور المقاطعة والاستبسال فى رد سعد الى وطنه ، ثم افرج فى آخر مايو عن المنفيين الى سيشل ، ثم سمح بزيارة بيت الامة بعد اغلاقه برهة مع منع الاجتماعات فيه ، ثم نشرت الحكومة المصرية بلاغا فى العشرين من شهر يوليو صرحت فيه « بامكان عودة جميع المبعدين » ومنهم سعد باشا لانه كان الى ماقبل صدور قانون التضمينات ممنوعا من العودة الى بلاده

وفى الثالث عشر من سبتمبر ابحر سعد من مرسيليا فوصل الى الاسكندرية فى السابع عشر منه ، ووصل الى القاهرة فى غده ، وتكررت مظاهر الحفاوة الكبرى التى قوبل بها فى العودة الاولى ، وزاد عليها فى هـــذه المرة اشتراك الاجانب فى الاستقبال بما كانوا ينثرون عليه من الازهار والرياحين بأيدى السيدات والاطفال ، حتى امتلأت بها السيارة

وقد انحلت مشكلة الاستقبالات الرسمية هذه المرة لان القصر الملكى لم يعد مقاطعا الوفد كما كان فى المرة الاولى ، ودار المندوب البريطانى لم تعد دار الحماية بعد الغائها ، فزار سعد القصر وزار دار المندوب

ونشطت مساعى التوفيق بين القصر وسعد على يدى توفيق نسيم ومحمد سعيد واحمد مظلوم ، فتمت المقابلة الاولى بين الملك فؤاد وسعد فى تاسع نوفمبر بعد ظهور نتيجة الانتخابات الثلاثينية ، وتحقق النجاح للوفديين

فيها ، وكان المظنون يومئذ ان سعدا لا يشكل الوزارة وانه قد يعهد بها الى توفيق نسيم او احمد مظلوم على الارجح او الى محمد سعيد على احتمال بعيد ، وكان هو لا يبوح بنياته لمن يسألونه فى هذا الموضوع ، والى ذلك اشارت صحيفة التيمس فى بعض مقالاتها فزعمت أن سعدا لا يقدم على تأليف الوزارة لانها « مقبرة الشهرة » .. ولا يبعد أن يكون هذا الاحتمال ملحوظا فى مساعى التوفيق

وقد جرت الانتخابات الثلاثونية فى السابع والعشرين من سبتمبر لان الانتخاب كان على درجتين لا على درجة واحدة ، وجرت الانتخابات لمجلس النواب فى الثانى عشر من يناير ١٩٢٤ فاسفرت عن نجاح مائة ونيف وتسعين نائبا وفديا من مائتين واربعة عشر عدة الاعضاء فى مجلس النواب ، ومن حسنات الوزارة الابراهيمية أن رئيسها كان قاضيا نزيها فى مباشرة الانتخاب كما كان قاضيا نزيها فى المحاكم ، فادار المعركة الانتخابية بالحيدة الواجبة ، وشهد الكثيرون من رجال الاحزاب المختلفة ان الانتخابات فى عهده كانت انزه الانتخابات فى جميع العهود ، حتى لقد اخفق هو نفسه فى دائرته ولم يظفر بالنيابة التى كان يبتغيها

بقيت انتخابات الشيوخ وتعيين الخمسين من الاعضاء الذين تعينهم الوزارة القائمة فلم يبق مناص من تأليف الوزارة الدستورية لمباشرة هذا التعيين ، وعلى هذا أعرب سعد لمكاتب روتر عن رأيه حين سأله فقال : « اذا اتبعت القواعد الدستورية وجب على يحيى ابراهيم باشا أن يستقيل امام حقيقتين كبيرتين : الاولى أن البلاد أوضحت

رأيها بشكل لايمكن الشـك فيه ، والثانية أن رئيس الوزراء قد هزم فى الانتخابات »

وبدا من هذا جليا أن سعدا زعيم الكثرة البرلمانية لا يؤيد بقاء الوزارة الى ان تتولى اختيار الشيوخ المعينين، فاستقال يحيى ابراهيم باشا فى السابع عشر من يناير ، وتأجل النظر فى قبول استقالته الى أن يعود الملك من السويس ، فلم تقبل الا بعد عشرة أيام

وقبل اعلان قبولها بيومين أدب النواب لسعد مأدبة كبرى فى فندق شبرد خطب فيها مظلوم باشا وسعيد باشا راجيا أن يقبل سعد رئاسة الوزارة اذا عرضت عليه ، فنهض سعد وتلا خطابا مكتوبا لم يشر فيه الى شىء فى قبول الوزارة ولـكنه لم يشر فيه كذلك الى رفضها ، وعرض على السـامعين ما يصح أن يسـمى برنامجا وزاريا يسير عليه

وفى اليوم التالى لقبول استقالة الوزارة الابراهيمية دعى سعد الى القصر الملكى فمكث فى حضرة الملك نحو نصف ساعة ثم خرج وتلا على الجموع المحتشدة فى بيت الامة نص الامر الملكى الصادر بتاليف الوزارة واسناد رتبة الرئاسة اليه .

وفى ذلك اليوم كتب سعد بيانه الوزارى وهذا نصه :

مولاى صاحب الجلالة

ان الرعاية السامية التى قابلت بها جلالتكم ثقة الامة ونوابها بشخصى الضعيف توجب على والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام ارادتها ، وارتكان حـكومتها على ثقة وكلائها أن لا انحى عن مسئولية الحكم التى طالما تهيبتها فى ظروف أخرى ، وان اشكل الوزارة التى

شاءت جلالتكم تكليفى بتشكيلها ، من غير ان يعتبر قبولى لتحمل أعبائها اعترافا بأية حالة او حق استنكره الوفد المصرى الذى لا ازال متشرفا برئاسته

« ان الانتخابات لاعضاء مجلس النواب اظهرت بكل جلاء اجماع الامة وتمسكها بمبادىء الوفد التى ترمى الى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعى فى الاستقلال التام لمصر والسودان مع احترام المصالح الاجنبية التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال . كما اظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسيا ، ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التى صدرت بعد ايقاف الجمعية التشريعية وانقصت من حقوق البلاد ، وحدت من حرية أفرادها ، وشكواها من سوء التصرفات المالية والادارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الامن وتحسين الاحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران ، فكان حقا على الوزارة التى هى وليدة تلك الانتخابات وعهدا مسئولا منها ، أن توجه عنايتها الى هذه المسائل ، الأهم فالمهم منها ، وتحصر أكبر همها فى البحث عن احكم الطرق وأقربها الى تحقيق رغبات الامة فيها وازالة أسباب الشكوى منها ، وتلافى ما هنالك من الأضرار مع تحديد المسئوليات عنها وتعيين المسئولين فيها ، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب الا بمساعدة البرلمان . ولهذا يكون من اول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد ما يلزم لانعقاده فى القريب العاجل وتحضير ما يحتاج الامر اليه من المواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمة خطيرة الشأن

« ولقد لبثت الأمة زمنا طويلا وهى تنظر الى الحكومة

نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديرا يدبر الكيد لها لا وكيلا امينا يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيرا سيئا فى ادارة البلاد وعاق كثيرا من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة فى الحكومة ، وعلى اقناع الكافة بانها ليست الا قسما من الامة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام . ولذلك يلزمها أن تعمل ما فى وسعها لتقليل اسباب النزاع بين الافراد وبين العائلات واحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، كما يلزم أن تبث الروح الدستورية فى جميع المصالح وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لاحكامه ، وذلك انما يكون بالقدوة الحسنة وعدم السماح لاى كان بالاستخفاف بها والاخلال بما تقتضيه .

« هذا هو بروجرام وزارتى وضعته طبقا لما أراه وتريده الأمة شاعرا كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهينات خصوصا مع ضعف قوتى واعتلال صحتى ، ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمنا طويلا . ولكنى أعتمد فى نجاحه على عناية الله وعطف جلالتكم وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهالى البلاد ونزلائها .

« فأرجو اذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامى بتشكيل الوزارة على الوجه الآتى مع تقليدى وزارة الداخلية :

« محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، واحمد

مظلوم باشا لوزارة الاوقاف ، ومحمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة ، ومصطفى النحاس بك لوزارة المواصلات ، ومحمد نجيب الغرابلى أفندي لوزارة الحقانية ، ومحمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، وحسن حسيب باشا لوزارة الحربية والبحرية ، ومرقص حنا بك لوزارة الاشغال العمومية ، وواصف بطرس غالى أفندى لوزارة الخارجية

« وانى على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم »

ومن الملاحظات على هذا البيان ما لوحظ فى القصر الملكى وهو أن رئيس الوزارة ذكر « الرعاية السامية التى قابل بها جلالة الملك ثقة الامة ونوابها » فجعل الاصل فى ولاية الوزارة ثقة الناخبين

وانه قال : « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » ولم يقل كما جرت العادة « عبدكم الخاضع او خادمكم المطيع »

ولوحظ فى الدوائر القضائية تعيين الاستاذ الغرابلى لوزارة الحقانية وفيها قدماء المستشارين وكبار الموظفين من رجال القانون ، وقد كان لهذه الملاحظة صداها فنقل الاستاذ الى وزارة الاوقاف ، كما لوحظ فى الصحف والدوائر السياسية تعيين سعيد باشا لوزارة المعارف ، وهو رئيس وزارة قديم وهى من الوزارات التى لا تعد فى الصف الاول بين وزارات الحكومة ، وفهم من ذلك أن اشتراك سعيد وصاحبيه مظلوم ونسيم فى الوزارة انما كان فى مقابلة الدور الذى داروا به لمعاونة الوفد على خصومه والتقريب بين الوفد والقصر بعد سقوط الوزارة الثروتية ، وليس اشتراكهم فيها عن تجانس اصيل فى الميول والافكار

ومن قبل ذلك لاحظ بعض الناقدين ان دخول سعد فى ميدان الانتخاب يعد اعترافا بتصريح ٢٨ فبراير الذى انكره واحتج عليه ، وهى ملاحظة لا محل لها من الاعتبار ، لان تمثيل المصريين فى الحكومة حق لا نزاع فيه ، فاذا اعترف به الانجليز فليس ذلك سببا داعيا لصاحب الحق الى النزول عنه واسقاطه بيديه ، وقد دخلت جميع الاحزاب المصرية ميدان الانتخاب حتى ما كان منها منكرا للمفاوضات والمعاهدات مع الحكومة الانجليزية ، فلا موجب اذن لانفراد الوفد بمقاطعة الانتخاب ، وهو لو قاطعه لما كان لذلك من نتيجة الا تمكين خصومه من ادعاء النيابة عن الامة ، وأن يبرموا باسمها ما يأباه الوفد وتأباه

ولاحظ بعض الناقدين أن سعدا قبل الوزارة وكان عليه أن لا يقبلها ، وأن يعهد بها الى أحد أنصاره وحلفائه لئلا يضطر وهو فى الوزارة أن يجيز ما لا يجيزه الزعيم الوطنى فى حل القضية المصرية ، وفات هؤلاء ان مجرد التنحى عن رئاسة الوزارة لهذا الفرض معناه اعلان الاستعداد للرضى بما دون المطالب الوطنية ، واتخاذ المناورات المصطنعة لتسهيل النزول عن تلك المطالب ، ثم ماذا يكون اذا تطلب الامر موافقة النواب وسعد رئيس النواب ؟ فليس هنا من ضرر يتقى باجتناب سعد رئاسة الوزارة عقب الانتخابات الاولى ، ولكن الضرر كل الضرر فى ذلك الاجتناب . انما ينبغى للزعيم الوطنى أن يتنحى عن الانتخاب أو يتنحى عن رئاسة الوزارة اذا حبطت وسيلة الدستور لتحقيق المصالح العامة والمطالب القومية وذلك تقدير لا يطالب سعد بافتراضه فى ذلك الحين ،

ولو كان يعلم الغيب العلم القاطع الذى لا مراء فيه لوجب عليه أن يقنع الجماهير بما هو مقتنع به ، وأن يضع أيديهم على الحقيقة بتجربة لا تحتمل الجدل

وخير مقياس نقيس به خطة من الخطط ان ننظر الى الخطة التى تناقضها ونذهب معها الى جميع نتائجها لكي نوازن بين النتائج فى الحالتين ، وليس فى نتائج رفض الانتخاب ورفض الوزارة فى ذلك الحين ما هو اجدى واحق بالاطمئنان من نتائج القبول على اسوا الفروض

ومن ثم نحن من المعتقدين أن سعدا اصاب فى قبول الوزارة هذه المرة وانه كان يخطىء لو رفضها بعذر من تلك الاعذار ، وليس منها ما يستحق المبالاة

فى اثناء وضع الدستور كان الملك فؤاد ينوى ان يجعل نصف مجلس الشيوخ من المعينين وان يكل الى هذا المجلس حق النظر فى الثقة بالوزارة

وبعد الانتخاب كان يأمر باستدعاء النواب الناجحين الى القصر واحدا بعد واحد ، لينشىء بينه وبينهم الصلة التى ينال بها من السلطان النيابى ما لم ينله بنصوص الدستور

فلما استقر حكم الدستور على تعيين الخمسين من اعضاء الشيوخ وحرمان هذا المجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة كان من راى الملك بداهة أن يتولى هو حق اختيار الاعضاء ولا يكون للوزارة الا التنفيذ ، وهكذا نجم اول خلاف بين الملك فؤاد وسعد فى عهد الدستور ، وانحسم الخلاف فى حينه بتقرير المبدأ الذى يخول الوزارة حق الاختيار ، واجابة الرغبة الملكية فى ترشيح فئة من الاعضاء

ثم جاءت ازمة أخرى من ازمات المراسم والاشكال ،

ولكنها تمس الخلاف بين الوفد وخصومه فى صميم المبادىء الاصيلة ، ساقها التقويم السنوى فى ركابه ولم يسقها احد باختياره

وذلك ان اليوم الخامس عشر من شهر مارس يقترب والحكومة القائمة وفدية والبرلمان وفدى وتصريح ٢٨ فبراير نظام بغيض لجميع هؤلاء . فكيف يحتفلون بهذا اليوم ؟ لقد احتفلوا به فى السنة الماضية لانه عيد الاستقلال ، والرأى الغالب بين المصريين أن الاستقلال لم يترتب ولن يترتب على ذلك التصريح ، فهل يحتفلون به هذه السنة على هذا المعنى أو يهملونه مع ما يرتبط به من تبليغات مصر الى الدول واعلان لقب صاحب الجلالة ؟ مشكلة بحق من مشاكل الايام . وقد حلها سعد باختيار ذلك اليوم لافتتاح البرلمان . فاذا تعطلت فيه دواوين الحكومة فلمن شاء أن يفهم انها تتعطل احتفالا بعيد الدستور ، وافتتاح الهيئة النيابية الاولى فى البلاد !

وهكذا كان ، وخرج سعد فى ذلك اليوم الى جانب الملك يفتتحان البرلمان الأول ، وتلاحمت الجماهير والجند بين قصر عابدين ودار النيابة . وسمع لاول مرة هتاف الجماهير بحياة الملك وسعد فى صوت واحد ، وكان شعار ذلك الموكب « يعيش الملك ويحيا سعد » وهى كلمة لم تسمع قبل ذلك فى انحاء وادى النيل ، اذ كان الحجاب كثيفا بين القصر والرعية ، ولم يزل كذلك الى ان عاد سعد من منفاه ، فعود الجماهير كلما هتفوا بحياته أن يجيبهم قائلا بل نادوا : « لتحيى مصر ، وليحيى الملك » فكانوا يجيبون عليه موفقين بين الامرين : « يعيش الملك ويحيا سعد » ... وكذلك كان هتافهم يوم اجتمع الملك وسعد فى موكب واحد ، ومن عجائب التقادير ان هذه البدعة الناشئة لم تقع من المسامع الملكية موقع الاستحسان.

فى رئاسة الوزارة

كان سعد باشا يقول اذا ذكرت وزارة الشعب الاولى وازماتها ومعضلاتها : « أن عيبنا الاكبر فى تلك الوزارة اننا اخذناها جدا وصدقنا اننا مستقلون !! »

وهذا عيب من وجهة النظر الانجليزية لا شك فيه ، لان الذى كان مطلوبا من سعد – على ما يظهر – هو ان يصدق أنه رئيس حكومة مستقلة ولكن بمقدار ما يؤدى ثمن الاستقلال ويحمل ما فيه من المغارم والتكاليف ، ثم ينسى الاستقلال كلما كان للسياسة البريطانية مطلب لبتفيه ، وهو وشأنه بعد ذلك فى تمثيل هذا الدور ذى الوجهين

لكنه لم يخلق لتمثيل دور ذى وجهين فى رواية طويلة كرواية الاستقلال ، فاكتفى بتمثيل الدور من جانب واحد وهو جانب الاستقلال الصحيح ، ومضى فى وزارته كما يمضى كل رئيس حكومة فى أمة مستقلة ، وترك للسياسة البريطانية أن تقنع بهذا الدور الصريح أو تعلن اغراضها الخفية من وراء الظواهر والمراسم ، فتقوم هى بتمثيل

الدور ذى الوجهين

بدأ وزارته بالافراج عن جميع السجناء السياسيين والغى نفقات جيش الاحتلال الانجليزى التى كانت تدرج فى الميزانية المصرية ، كأن بقاء الاحتلال مطلب من مطالب البلاد !

ورجع بالموظفين الانجليز الى حدودهم القانونية التى ترسمها لهم صفتهم الرسمية . وهى صفة المستشارين والخبراء الفنيين ، الذين هم موظفون يخدمون الحكومة المصرية لا الحكومة الانجليزية ، يسالون فيجيبون بما يعلمون ، ويتركون الرأى الاخير للوزير المسئول

واصبح هؤلاء الموظفون خاضعين للقوانين بعد ان كانت ارادتهم وحدها هي القانون . فلما ظهر الخلل في اعمال بعضهم بوزارة المالية ووزارة المواصلات أمر بتحقيق التهم المنسوبة اليهم وقدم واحدا منهم الى مجلس التأديب ، واصر على تقديمه للمحاكمة على الرغم من احتجاج دار المندوب

وكان على الحكومة المصرية ان تتلقى الاوامر من كل انجليزى له مصلحة او هوى فى السيطرة عليها ولو لم يكن من الموظفين ، فكان مستر كارتر يعمل ــ مثلا ــ فى تنظيف مقبرة « توت عنخ آمون » ويستبد بفتحها واغلاقها حين يشاء ولمن يشاء ولا يبالى بما تقرره مصلحة الآثار من مواعيد الفتح والاغلاق . وكل حقه فى المقبرة انه رجل مرخص له فى التنقيب عن الآثار بالشروط التى تسمح بها الحكومة لجميع المنقبين . فلما نبهته الحكومة الى خطئه لم يكترث لها وارسل الى سعد باشا برقية ينذره فيها « باقفال المدفن ومقاضاة الحكومة المصرية » ... وهو ينتظر فى هذه الحالة ما ينتظر من كل حكومة مصرية ينتهى اليها تهديد واحد من السادة المحتلين كيفما كان ، لان المرجع فى الوزارات لمستشار او مفتش انجليزى ، وهو لا يقبل من المصريين أن يسمعوا هذا التهديد ولا يسرعوا الى الخوف والاذعان ، فلما وصل

الانذار الى سعد كتب اليه يقول : « لكم الحرية فى ان تقاضوا الحكومة ، ولكن الحكومة تريد أن تكون مواعيد الزيارات مصونة ومحترمة ، وأما ما يتعلق باغلاق المدافن كما تقولون ، فانه يشق على أن اضطر الى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكا لكم ، وأن العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم باقدامكم مع زملائكم — من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون تمييزهم ، على ترك التنقيبات العلمية ، التى لا تهتم بها مصر وحدها أعظم اهتمام ، بل يهتم بما العالم كله أيضا »

انه جواب لا يعدو حدود الانصاف ولا حقوق الحكومة ، ولكنه قوبل بالاستياء بين الجالية الانجليزية ، لانه يخالف ما تعودوه ، لا لانه يخالف الانصاف

ولما نمى الى سعد أن السودان سيمثل رسميا فى معرض « ويمبلى » مع المستعمرات البريطانية كتب الى حاكم السودان يسأله : « على أى قاعدة دعى السودان للاشتراك فى هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ؟ وكيف قبلتم أن تشركوا فيه من غير اذن الحكومة المصرية ؟ »

فجاءه الرد من دار المندوب البريطانى بأن حاكم السودان أبلغه نبأ تلك البرقية وأنه كتب الى حكومته يستفسر عن المسألة ، وسيكتب الى الحكومة المصرية بفحوى جوابها

فكتب سعد مرة أخرى الى حاكم السودان يسأله ما سبب تأخير رده ؟ ويقول له « ان المسائل التى كلفتموها من شأنكم دون سواكم لتعلقها بأعمال هى من خصائصكم . وانى ما زلت فى انتظار الرد منكم ، وأرجو ان لا يتأخر الرد زيادة عما مضى »

وابرق الى وزير مصر المفوض بالعاصمة الانجليزية ليبلغ حكومتها احتجاج مصر على دعوة السودان الى معرض خاص بالمستعمرات البريطانية بدون علم الحكومة المصرية ، وعلى قبول حاكم السودان الدعوة بغير اذن من تلك الحكومة ، وفى كلا الأمرين اعتداء على حقوق مصر وعمل غير ودى موجه للحكومة المصرية »

وقد جاءه الرد من الحاكم العام بالاعتذار من التأخير لأنه ابلغ المعلومات المطلوبة الى المندوب السامى الذى هو الطريق المعتاد للمخاطبة بين الحكومة المصرية وحكومة السودان عملا بالاجراءات المتبعة »

وجاءه الرد بهذا المعنى من اللورد اللنبى مشفوعا ببيان عن دعوة السودان الى المعرض يقول فيه : « ان الحكومة البريطانية لم يكن ليخطر لها ان تطلب اخذ رايها اذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتشترك فى معرض تجارى شبيه بهذا يعقد فى مصر . وقد سبق أن قبلت حكومة السودان مباشرة ودون رجوع الى دار المندوب السامى أو الحكومة البريطانية ماعرضته الحكومة المصرية من تخصيص حجرة لمعروضات السودان فى المكتب المصرى للتجارة والصناعة بالقاهرة وذلك فى يونية سنة ١٩٢٠ . ومن جهة اخرى فان معرض ويمبلى ليس وقفا على الامبراطورية البريطانية بل ان فيه اشياء اخرى متنوعة ذات فائدة عامة ، مثل صورة لمسجد فارسى ونماذج لشلالات نياجرا ومعرض من التبت ، والسودان موصوف فى الخرائط والفهارس المعروضة فى القسم الخاص بافريقيا الشرقية باسم السودان الانجليزى المصرى ، ولذلك لا محل لتساؤل الزائرين للمعرض عن اشتراك السودان فيه »

وقد اجاب سعد بخطابه الى اللورد اللنبى يقول فيه :
« يتضح جليا من نص المادة الثالثة من الاتفاق المذكور — اتفاق سنة ١٨٩٩ — أن حاكم السودان العام موظف يعينه ملك مصر ويستمد سلطته من هذا التعيين ذاته ، ولنص المادة الرابعة صراحة على ان كل اعلان للقوانين والأوامر واللوائح يجب ان يبلغ فى الحال الى المعتمد البريطانى فى القاهرة والى رئيس مجلس نظار سمو الخديو المعظم ، وبناء عليه يكون الطريق الطبيعى الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام انما هو الطريق المباشر وهذا ما قصده واضعو اتفاق سنة ١٨٩٩ . وفعلا كانت الحكومة المصرية وحاكم السودان العام يتخاطبان مباشرة فى غضون المدة التى تلت توقيع الاتفاق .. »

ثم قال : « اما من جهة تمثيل السودان بمعرض ويمبلى فقد بينت انه بالنظر الى الظروف التى حدث فيها لا يمكن ان يبرره الحكم الثنائى فى ادارة السودان الداخلية ، كما أوضحت انه ما كان يوجد لدى الحكومة المصرية اى اعتراض على أن يمثل السودان فى معرض صناعى أو تجارى بحت ، وليس هذا حال معرض ويمبلى، ولذلك احتججت على تمثيل السودان فى معرض المستعمرات البريطانية . ولا شك أنه كان يسرنى الا يكون تمثيل السودان فى هذا المعرض الا فى نفس الموضع الذى وضع فيه تمثيل العجم والولايات المتحدة وتيبت فى المعرض المذكور . ولست فى حاجة لأن ازيد على ما تقدم انى آسف لأن الحادث وقع ونحن على أبواب المفاوضات . نعم ان مسألة السودان كلها سيدور البحث عليها بينى وبين المستر مكدونالد ولكن من واجبى أن أحتج على كل عمل اعتبره ماسا بحقوق مصر »

ولما حان موعد المفاوضات بين سعد ومكدونالد كان الاستقلال هو الحق الاول الذى بنى عليه المفاوضة وجعله مبتدأ الحديث فيها ، ليكون ملحوظا بعد ذلك فى كل دعوى او مطلب عن المصالح البريطانية ، وفى ذلك يقول مستر مكدونالد من الكتاب الابيض الذى صدر فى سابع اكتوبر:

« اثناء محادثاتى مع رئيس الوزارة المصرية اوضح لى زغلول باشا ما هى التعديلات التي لا يرى بدا من ادخالها فى الحالة الحاضرة فى مصر . فاذا كنت قد فهمته حق الفهم فهذه التعديلات هى كما ياتى :

اولا — سحب جميع القوات البريطانية من الاراضى المصرية

ثانيا — سحب المستشار المالى والمستشار القضائى

ثانيا — زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية، ولا سيما فى العلاقات الخارجية التى ادعى زغلول باشا انها تعرقل بالمذكرة التى ارسلتها الحكومة البريطانية الى الدول الاجنبية فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . قائلة ان الحكومة البريطانية تعد كل سعى من دولة اخرى للتدخل فى شئون مصر عملا غير ودى

رابعا — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الاجانب والاقليات فى مصر

خامسا — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك باية طريقة كانت فى حماية قناة السويس

اما فى شان السودان فانني الفت النظر الى بعض البيانات التى فاه بها زغلول باشا باعتباره رئيس مجلس الوزراء امام البرلمان المصرى فى الصيف فى ١٧ مايو . ويؤخذ مما علمته فى هذا الصدد ان زغلول باشا قال :

« ان وجود قيادة الجيش المصرى العامة فى يد ضابط اجنبى وابقاء ضباط بريطانيين فى هذا الجيش ، لا يتفق مع كرامة مصر المستقلة » فابداء مثل هذا الشعور فى بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصرية المسئول لم يقتصر على وضع السردار السر لى ستاك باشا فى مركز صعب بل وضع جميع الضباط البريطانيين الملحقين بالجيش المصرى أيضا فى هذا المركز

ولم يفتنى ايضا انه قد نقل لى أن زغلول باشا ادعى لمصر فى شهر يونيو الماضى حقوق ملكية السودان العامة ، ووصف الحكومة البريطانية بأنها غاصبة

« فلما حادثت زغلول باشا فى ذلك قال لى ان الاقوال السابقة التى قالها لم يكن مرددا فيها صدى راى البرلمان المصرى فقط ، بل راى الامة المصرية ايضا ... »

وبعد العودة من المفاوضات أوشكت مدة المستشار القضائى أن تنتهى فرفض سعد ابقاء هذه الوظيفة وابى تجديد العقد لمن كان يشغلها ، وكان ذلك فى الثانى عشر من شهر نوفمبر لذلك العام ، لانه لم يذهب الى المفاوضة ليكون كل ما كسبه منها أن يعود متطوعا لتنفيذ السياسة الانجليزية ، قابعا من قضيته بطلبات لا تجاب

لا جرم صدق سعد اننا مستقلون وعمل بما صدق !! لكننا نسأل هل كان فى وسعه ان لا يصدق ؟ وهل كان ينفعه عند الانجليز ـ فضلا عن المصريين ـ ان يمثل الدور على وجهين

ان الكثيرين ليفهمون انه لم يفعل بمسلكه هذا فى الوزارة الا ما ينبغى لزعيم ينادى بقضية وطنية ، ولكنهم لو نظروا الى الموقف من جميع جوانبه لفهموا كذلك انه فعل ما ينبغى للسياسى اللبق الذى يلمس الواقع ويحذر

العواقب ، ولا يفرط فى شيء قل أو كثر من اجل الاشياء

ولا حاجة الى القول بأن سعدا لم يكن يطمع من المفاوضات فى الوصول الى كل ماجاء فى الكتاب الابيض من المطالب ، وهو نزول الانجليز دفعة واحدة عن كل دعوى يدعونها وتهاونهم فى كل مصلحة يرومونها ، ولكنه كان مسئولا ان يقر الامور فى نصابها ويضع القضية المصرية فى موضعها . وليس فى استطاعته أن يأمل النجاح من مفاوضة يكون الاساس فيها أن مصر هى المطالبة وانجلترا هى صاحبة الحق فى المنع والاعطاء ، وانما الاساس الصالح للمفاوضة ان مصر هى صاحبة الحق فى بلادها وانها اذا قبلت ان تراعى بعض المصالح البريطانية فذلك من حسن نيتها ورغبتها فى السلام والصداقة . وقد سأل مستر مكدونالد سعدا فى بداءة المفاوضة : ماذا تطلبون فكان الجواب الطبيعى اننا لا نطلب من انجلترا سخاء ولا مبرة . وانما شأن البلاد المستقلة ان تكون على الصفة التى تقدمت فى الكتاب الابيض : لا املاء ولا سيطرة على الحكومة فى سياستها الداخلية والخارجية ، وكل مانقص من ذلك فهو عطاء من مصر ، ودليل على الهوادة والرغبة فى الوفاق

هذا من جهة .. ومن جهة اخرى يعلم سعد ان الانجليز لم يخلوا بينه وبين الوزارة ليمكنوا له فى الحكم ويثبتوا مركزه من الزعامة ، ولكنهم اخلوا بينه وبين الوزارة عسى أن تكبحه اعباء الحكم ومطامعه وتكف من غيرته وشأنه ، فيسمعوا من سعد الحاكم غير ماسمعوا من سعد الزعيم ، ولا يلبث المصريون أن يروا زعيمهم على حال غير الذى عهدوه وضعف غير الذى توقعوه .

فيقال ليم ان الزعامة الوطنية ليست الا جعجعة فى الخلاء يلغط بها غير المسئولين طمعا فى المناصب ومنافسة على المآرب ، ثم يصبح الزعماء وغير الزعماء سواء فيما يقبلون ويرفضون ، وفيما يعملون ويقولون ، ويذهب عناء الامم وجهادها مع الريح !

وعلى كون هذه النية واضحة من سوابق الانجليز مع سعد وازدادت وضوحا فى أيام الحكم وبعد تلك الايام — لم يقتصر الامر فيها على الظن والاستقراء بل فاه بهما اللورد اللنبي فعلا فى السودان بعد قيام الوزارة السعدية، حيث راح يقول لمن يلقاه من رؤساء الانجليز الناقمين على تلك الوزارة : « لقد وضعت زغلولا فى قفص ! وسنرى كيف يخرج منه أو يبقى فيه »

ولعله كان يقول ذلك ليحفظ مهابته ويدخل فى روع مرؤسيه انه لم ينهزم ولم يكن رجوع زغلول الى مصر ثم الى الوزارة على كره منه وبغير تدبير مقصود على حسب رأيه ، ولكنه لم يقل فى الحقيقة غير ماينويه ، وينويه معه رجال دوننج ستريت

ولا شك أن مستر مكدونالد كان يود — بل كان يتمنى — لو ينجح فى حل القضية المصرية وابرام الاتفاق بصددها مع سعد زغلول ، الا أنه كان يود ذلك لنجاحه هو فى توطيد وزارته المتداعية وارضاء المحافظين والاحرار عن بقائه ، والحل الذى يرضى المحافظين عن وزارة عمال متداعية يريدون اسقاطها لن يكون نجاحا لسعد ولا نجاحا للقضية المصرية

ولقد دلت الطوالع من احاديث مكدونالد وتصريحاته

متى العواقب التي يرجى او يخشى ان تؤدى اليها ، فان مكدونالد كان يعلم ان سعدا لا يقر تصريح ٢٨ فبراير وان هذا التصريح لم يتيسر اعلانه فى مصر الا بعد أن يمهد بنفيه الى سيشل ، وانه اذا جرت مفاوضات مع سعد فليس بالمعقول ان يقبل دخولها على اساس هذا التصريح ومع هذا كان مكدونالد لا يفتأ يعلن مرة بعد مرة ان التصريح هو اساس ما يدعو اليه من مفاوضات ، وان السياسة البريطانية لا تتحول فى هذا الموضوع ، ولو انه قال ان المفاوضات حرة من كل قيد لما اعتبر ذلك نزولا من الحكومة البريطانية عن تصريحها ، ولكنه كان ييسر للزعيم المصرى دخول المفاوضات على ذلك الاساس . فكأنما كان المقصود هو اضطرار سعد عاجلا الى الاعتراف بما لم يكن يعترف به قبل الوزارة ، وهو يقدم على مفاوضات لا يضمن فيها النجاح ، وقد يكون كل مايصيبه منها أن ينقض موقفه بيديه وان يقيم الحجة عليه لخصومه ، وأن يسجل على نفسه التقلب من اجل المناصب الحكومية من النقيض الى النقيض

وما جاءت هذه المفاوضات الا بعد مطاولة فى المواعيد وتقاذف بالخطب والتصريحات وحوادث مدبرة فى مصر والسودان ، وعزى فى اثناء ذلك الى مستر مكدونالد حديث جاء فيه أنه « حدثت فى الوقت نفسه حوادث يؤسف لها فى السودان ، تقع المسئولية فى حدوثها على الحكومة المصرية بلا جدال . وانى معتقد تمام الاعتقاد أن القلاقل الحديثة دبرها بعض اعضاء الحكومة المصرية، وأن دولة زغلول باشا غض الطرف عن اعمال المتطرفين » ثم انتهى الحديث بوعيد جاء فيه أنه « لا يمكن بحال ما

ان يكون هناك محل للكلام فى جلاء الجنود البريطانية عن مصر او ابعاد القوات البريطانية عن منطقة القناة وفى استطاعتى أن اقول اننا أعددنا العدة التامة لجميع الطوارىء » فأغضى سعد عن هذا الوعيد ، واكتفى بأن صرح فى حديث مع مراسل الديلى اكسبرس بانه اخذ تذكرة العودة الى مصر فى يوم ١٧ سبتمبر ـ وكان يومئذ فى باريس ـ ثم قال : انه ظل ينتظر أن تعين الحكومة البريطانية الزمان والمكان للاجتماع ولكنه لا يرغب أن ينتظر اكثر من ذلك الان وبعد أن صرح مستر مكدونالد بأن مواعيده المقبلة لا تسمح له بترتيب موعد قريب للمقابلة »

فكان لهذا التصريح اثره ، وكذب مستر مكدونالد الحديث المعزو اليه قائلا : « انه دهش أشد الدهش لسماع ما عزى اليه ... ووصف اقوال المراسل بانها مناورة خبيثة مما يسمونه صحافة » !

وكتب مستر مكدونالد الى سعد قائلا : « انه يرغب رغبة شديدة فى الاشتراك فى اعادة حسن التفاهم فى العلاقات بين البلدين ، وانه يكون مسرورا لمقابلته بلندن فى أواخر هذا الشهر

وعلى ذلك سافر سعد الى لندن فكان من المصادفات التى لها دلالتها ان وفد السودان الذى استقدمته الحكومة الانجليزية لتمثيل السودان فى معرض ويمبلى كان بين المستقبلين على المحطة عند وصول سعد الى العاصمة الانجليزية وكان أشد الهاتفين هتافا لاستقلال وادى النيل، وشارك السودانيين رهط من ابناء الهند وفارس ، فجعلوا

يهتفون بلغاتهم وباللغة الانجليزية لزعيم الشرق الكبير ، وكذبوا بذلك ما يقال من ان هذه المظاهرات لا تحصل حيث حصلت الا بتدبير وتحضير

انذرت الظواهر بالفشل من اول لقاء ، وكان مستر مكدونالد لم يكفه ما هنالك من النذر والعلامات فعمد الى « مناورة » صبيانية لا خير فيها غير التذكير والاساءة والاغراء بالتشاؤم والعناد . فبعد أن استقبل سعدا فى حجرة بيته معتذرا بالمرض والاعياء ، جاءته رسالة على حين غرة فوثب مهرولا الى الديوان ونسى مرضه واعياءه ، وخرج يعتذر فى غير اكتراث وكأنه يقول : « هنالك مسائل لحجرة البيت ومسائل للديوان !! » ولعله استكثر من رئيس وزارة مصرية أن يأنف من مطاولة المواعيد ويستوثق من اساس المفاوضة قبل البدء فيها كما فعل سعد .. فأراد أن يريه بهذه المناورة الصبيانية مبلغ ما تستحقه قضية مصر عند رئيس وزارة بريطانيا العظمى من الاحتفاء والاهتمام

وانقطعت المفاوضات فى أوائل اكتوبر ولم تكد تستغرق الاسبوع . وقال سعد لمراسلى الصحف الانجليزية : « ... لاحظت مع ذلك أن وزارة مكدونالد ترتطم الان بصعاب عديدة جعلتها مهددة بالسقوط . وقال لى مستر مكدونالد بالرغم من كثرة شواغله انه على استعداد للمناقشة واياى ، ولكنى أختار المناقشة مع رجل اكثر حرية واقل مشغلة منه ، وهو محاط بالشواغل من كل جانب

ولا يظن ظان اننى اتيت الى لوندرا لأوقع على اتفاق يمس حقوق مصر ! فمن ظن هذا وقع فى الخطأ . اننى

اتيت لاكسب لا لاخسر . فاذا كنت لم اكسب شيئا فانني لم اخسر شيئا »

وقال فى حديث مع الماتان بعد عودته من باريس : « ان المحادثات فشلت نظرا للتمسك بحفظ قوات بريطانية على قناة السويس ... وانما اذا كانت حماية القطر المصرى للقناة تلوح غير كافية فقد يقبل المصريون ان يضعوا القناة تحت حماية عصبة الامم . وان مصر لا يسعها ان تتخلى عن السودان »

وقال فى حديث مع البتى باريزيان : « انى قبل الدخول فى المحادثة اشترطت ان الشروع فى المباحثات لا يمكن على اى وجه من الوجوه أن يمس حقوق مصر او يضر بها . ثم ان هناك أمرا تم التسليم به ، وهو انه اذا افضت المحادثات الى مفاوضات ، فان هذه المفاوضة تجرى على حد المساواة التامة ، أو تكون مفاوضة الند للند »

نرى من جميع ماتقدم أن سعدا الزعيم لم يسلك فى الوزارة الا كما ينبغى أن يسلك الوزير المحنك الخبير بعواقب الامور . انهم كانوا يسوقونه الى شرك لا مفر له من الوقوع فيه او النجاة منه ، وقد اختار هو النجاة واختار لها آمن طريق ، وليس فى مقدور ناقد أن يدله على طريق آمن ولا اجدى عليه وعلى القضية الوطنية مما توخاه

نعم كان فى الوسع تأجيل المفاوضة الى موعد آخر . ولكن ماذا عسى أن يفيد هذا التأجيل ؟ ان مستر مكدونالد اذا سقط فليس الذى يليه باسهل قيادا منه ولا اقرب الى اجابة المصريين ، فالدخول فى المحادثات كان ضربة لازب . وكان ضربة لازب ان تفشل ، وكان ضربة لازب

مع هذا التقدير ان يسلك سعد فى مفاوضاته وفى علاقاته بالسياسة البريطانية مسلك الزعيم ، وهو بعينه مسلك الوزير القدير والسياسى الخبير

على ان المتاعب قد صادمت الوزارة السعدية من اللحظة الاولى ولا سيما فى مسألة السودان . فلما أراد أن ينص فى خطاب العرش على الاستقلال التام لمصر والسودان ، حال بينه وبين ذلك عبرة الانذار الذى وجهته بريطانيا العظمى الى جلالة الملك مباشرة — فى عهـــد الوزارة النسيمية — لاشتمال الدستور على اسم « ملك مصر والسودان » . ولم يشأ صاحب العرش أن يستهدف لأزمة أخرى من ذلك القبيل . فاستغنى سعد عن عبارة تحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان بعبارة « تحقيق الامانى القومية بالنسبة لمصر والسودان »

وهى العبارة التى اوشكت أن تدفع بســعد الى الاستقالة ، حين تعرض النواب لها بالتعديل والتفسير ، وقد اتبعها فى بعض احاديثه بتفسير يقول فيه ان الامال القومية هى الاستقلال التام

ومازالت مسألة السودان مثار الســؤال والجدل والاحراج والتعنت من خصوم سعد الانجليز والمصريين فى وقت واحد ، كلا الفريقين يريد أن ينقلب المنصب الوزارى على سعد شركا مرديا ، وكلاهما يريد أن يرى كيف يعجز ويفشل ، ولا يريد أن يرى كيف يقتدر وينجو بكرامة الزعامة وكرامة القضية

فالمعارضون فى مجلس النواب يطالبونه بعرض ميزانية السودان كما كانت تعرض على مجلس الشورى ، وهى أحرى أن تعرض على أول برلمان

والموظفون الانجليز فى الســــودان يجمعون الاذناب والاتباع ليعلنوا ولاءهم للحكومة البريطانية دون غيرها ، واستمساكهم بالتبعية والاخلاص لتلك الحكومة العادلة المحبوبة تعريضا بحكومة المصريين

واذا قوبلت هذه المظاهرة بمظاهرة من السودانيين المتعلقين بوحدة وادى النيل حل بهم البطش الشـديد وحاق بهم العذاب الاليم

فاذا شكوا الى الحكومة السعدية ، وليس لهم من يشكون اليه غيرها ، فخصوم سعد الانجليز يمعنون فى احراجه بزيادة البطش والتعذيب ، وخصومه المصريون يمعنون فى احراجه بطلب الافراج عن المعاقبين وتعجيل الحساب والعقاب للموظفين المسئولين ، وكان من هذا وذاك انه استقال ولم يكد يمضى على الوزارة ثلاثة اشهر

استقال بعد تصريح اللورد بارمور باســم الحكومة البريطانية ـ حكومة العمال ـ « بأن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأى معنى كان »

فأجاب سعد على هذا التصريح بتصريح مثله فى مجلسى النواب والشيوخ جاء فيه :

« اننى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعــه ، وفى حضرتكم الموقرة ، اصرح بأن الامة المصرية لن تتنازل عن السودان ما حييت وما عاشت ... ان حقوق الامم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب انى اريد ان اتمتع بها دون أصحابها ... نعم ايها السادة لا يمكننا مطلقا أن نتنازل عن السودان ، لا لانه مستعمرة ، بل لانه جزء من كياننا ، بل لانه منبع حياتنا ، بل لانه لايمكن لمصر أن تعيش بدون السودان اصلا »

وربما ظنت الحكومة البريطانية انها تبيح نفسها مثل ذلك التصريح دون أن يجسر سعد على اباحة مثله لنفسه، لانه قائم فى منصب الوزارة ، فيسمعه ويغضى عنه ويذهب الي المفاوضة وهو مسلم به سكوتا قبل ان يسلم به مقالا ! فكانت اجابته على التصريح بمثله حتما ، وكان حتما معها ان يعرب عن زهده فى الوزارة التى يحسبونها قيدا له يجبره على الاغضاء ، وقد استقال فرفض الملك قبول استقالته ، وابدى له كما ابدى الشيوخ والنواب ان فيما صرح به الكفاية للرد على التصريحات الانجليزية

لم يكن المقصود اذن أن يرى خصـــــومه الانجليز والمصريون كيف يعمل فى الوزارة ، بل كان المقصود ان يروا كيف يعجز عن العمل وكيف يتغير فى الوزارة ويخل بامانة الزعامة فلا هو وزير ولا زعيم ، وليس له وهو محاط بهذه النيات المدخولة أن يصنع غير ما صنع وان يعالج الشرك المنصوب بغير ما عالجه به من ثبات ومراس، هما فى وقت واحد اقدام الزعامة وحيلة السياســة ، واخلاص المجاهد وحيطة الاريب

ولقد اصيبت وزارة ســـعد بالاجرام كما اصيبت بالاحراج ، فوقعت فى عهدها جنايتان وبيلتان ، احداهما موجهة الى حياته والاخرى موجهة الى وزارته ، وكلتاهما فى اعتقاد سعد من تدبير واحد

اما الجناية الاولى فهى حادثة الاعتداء عليه فى محطة العاصمة حين كان ينتوى السفر الى الاسكندرية لحضور تشريفات عيد الاضحى (١٢ يوليه سنة ١٩٢٤)

اعتدى عليه شاب مفتون من أعداء المفاوضات لانها فى رايهم تصد الامة عن سبيل الجهـاد الناجع ، وقال فى

التحقيق أنه تعمد ارهاب سعد لانه يرغب فى المفاوضة ، ولانه قال ان الانجليز خصوم شرفاء معقولون »

وقد أصابته الرصاصة فى الساعد الايمن ثم فى صدره، وحاول الجانى ان يطلق غيرها فتكاثرت عليه الجماهير ، وهموا بتمزيقه لولا رجال الشرطة الذين احاطوا به فانقذوه ، ومن غرائب ما حدث فى هذا الاعتداء أن المسدس الذى كان مع الجانى اختفى عقب الاعتداء فلم يعثر له على اثر ، وشهد محام كان على مقربة من الجانى أنه رأى ضابطا انجليزيا من ضباط الشرطة يخفيه فى جيبه ، وانكر الضابط ذلك واعترف بانه اخفى شيئا فى جيبه ولكنه كان مقبض المنشة التي كان يحملها وانكسرت فى الزحام

واشرف على التحقيق بعض الوزراء ، واستمر على الاشراف عليه حسن نشأت باشا وكيل وزارة الاوقاف يومئذاك ، وبعد بحث طويل أحيل الجانى الى الكشف الطبى فقرر الدكتور ددجن كبير الاطباء العقليين انه مجنون وتقرر اعتقاله فى مستشفى المجاذيب ، وهو المعتدى الوحيد على الوزراء الذى صار الى هذا المصير

لقد تبينت شجاعة سعد منذ صباه فى شدائد السجن والنفى والاضطهاد كما تبينت شجاعته بالجهر برأيه وامضاء عزمه ولو تصدى لاغضاب أقوى الاقوياء .. ففى هذه الجناية تبينت منه شجاعة اخرى قد لا يتاح ظهورها كثيرا فى حياة الابطال المجاهدين بسلاح الحجة والايمان لا بسلاح النار والحديد ، وتلك هى شجاعة الرجل فى وجه الموت الداهم وهو منه على يقين . فقد نفذت الرصاصة الى صدره وهو مصاب بشتى الامراض

التى لا تؤمن معها الجراح اذا نجا صاحبها من الموت بفتك الرصاص ، فما وجم ولا تردد ولا فكر لحظة فيما اصابه ، ولبث كانه ينظر الى مصاب احد لا يعنيه ، والتفت الى الوزراء الباكين حوله يقول لهم : « لا تحزنوا .. ولا تبتئسوا .. اذا مات سعد فمبدأ سعد باق لا يموت .. اعملوا من بعدى وثابروا على تحقيق سعيى »

ولما قال بعض الوزراء : ان الله أرحم بمصر من أن تصاب بسوء ، عاد يقول : « وماذا فى ذلك ؟ نحن ميتون. فلنمت نحن وليحى الوطن »

ونظر الى جماهير الطلبة والشبان وهى تندفع على باب الحجرة التى نقل اليها ، فوثب على قدميه وجرحه لا يزال ينزف ، وناداهم بصوت جهير يضرم الحمية فى النفوس « لا تكتئبوا ولا تهتموا . الى الامام . دائما الى الامام ! » ثم قالها بالفرنسية Enavont Enavont

أما الجناية الثانية — وهى التى اعتبرها سعد موجهة « ضده » كما قال عند سماع خبرها — فهى حادثة الاعتداء على « السردار » لى ستاك باشا بعد عودته من المفاوضة بنحو شهر واحد

فقد عاد سعد من المفاوضات فوجد خصومه مجدين فى محاربته بالشغب تارة ، والدسيسة تارة اخرى ، وسعى هؤلاء الخصوم بالوقيعة عند الازهريين لانهم يعلمون من ماضى سعد انه هو صاحب الرأى قديما فى انشاء مدرسة القضاء الشرعى التى تخرج القضاة الشرعيين ، وأن الازهريين كانوا ينقمون من نشأة هذه المدرسة لانهم يطلبون ان تنحصر فيهم وظائف القضاة وما اليها من وظائف التعليم الدينى وتعليم اللغة العربية

قبل السماح باجراء الاصلاح فى برامج التعليم الازهرية ، وكانوا قد عرضوا على الوزارة السعدية مطالب لتحسين احوالهم فألفت الوزارة لجنة خاصة لدرسها والاشارة بما تراه فيها ، وعاد سعد من المفاوضات فاستثارهم خصومه مدخلين فى روعهم ان مدرسة القضاء عائدة وان مطالبهم غير مجابة . فخرجوا فى الطرقات يتظاهرون ويهتفون ويعرضون بسعد فى هتافهم مهددين متوعدين ، ونسوا او نسى صغارهم ان أمر المعاهد الدينية بيد الملك لا بيد الوزارة ، فاذا تأخرت اجابة المطالب فليست الوزارة صاحبة الرأى الفصل فى التأخير او فى الرفض والقبول

ثم تعاقبت امثال هذه الدسائس والسعايات واجترأ بعض الموظفين على الخوض فيها والحض عليها لاعتقادهم أن الجهات العليا ترحب باضعاف الوزارة السعدية وتنفير الناس منها ولا سيما رجال الدين والموظفين

وكان يساعد على سريان التذمر بين طبقة الموظفين ان الوزارة فكرت فى اصلاح نظام الدرجات والترقية والتعيين ، فخشى جمهرة منهم أن يتبع ذلك نقص المرتبات او الاستغناء عن بعض الوظائف ، واستقال أحد احد الوزراء وهو محمد توفيق نسيم باشا المعروف بعلاقاته بالقصر الملكي فكان هذا وأشباهه من دواعى الظن بقرب أيام الوزارة وسهولة الخروج عليها والاساءة اليها

وهكذا توالت الازمات والمشكلات والمساعى الظاهرة والخفية ، فبرم سعد بما يلقاه من كل ذلك وقدم استقالته الى جلالة الملك فى منتصف شهر نوفمبر مبينا لجلالته الاسباب الصريحة التى تدعوه الى الاستقالة ،

وفيها أن اناسا من كبار الموظفين المنسوبين الى القصر يستخدمون اسم جلالته لمحاربة الوزارة فى الخفاء .. فقال له جلالته انه يثق به ويعتمد عليه ، ورغب فى عدوله عن عزمه ، فاعتذر بأنه قد فرغ من التفكير فى هــذا الموضوع

فقال الملك لنبق المسألة اذن الى غد . وحدث فى هذه الأثناء ان الشيوخ والنواب أوفدوا الى جلالة الملك من يتوسل اليه ان لا يقبل الاستقالة ، واوفدوا الى سعد من يرجوه العدول عنها . فقبل اخيرا أن يستعفى من الاستعفاء كما قال . ولكنه طلب الى جلالة الملك توكيدا للثقة وقطعا لدسائس الدساسين ، أن تدخل مســائل الازهر والمعاهد الدينية ومنــاصب السلك السياسى ومناصب القصر والرتب والنياشين فى اختصاص مجلس الوزراء . ولكل طلب من هذه الطلبات سبب من الحوادث التى مرت بالوزارة السعدية وبخاصة فى الايام الاخيرة

فهو يريد ان تنظر الوزارة فى مسائل الازهر ليكون مسئولا حقا عن الاصلاح لا ليحرجه المحــرجون بطلب الاصلاح ويمنعوه عمدا مبالغة فى الاحراج ، وهم يتظاهرون بصداقة الازهريين

ويريد ان تنظر الوزارة فى مناصب السلك السياسى لئلا يتمادى الوزراء المفوضون والسفراء فى احراجها مع الدول ـ كما حدث من بعضهم فى أوائل قيام البرلمان ـ وهم آمنون ما يستحقون من جزاء

ويريد ان تنظر الوزارة فى مناصب القصر والانعــام بالرتب والنياشين ، لانه طلب اقصاء حسن نشأت باشا من وكالة الاوقاف فنقل الى القصر ، وجاء على أثر ذلك

الى شرفات مجلس النواب وهو يتشح بالوشاح الاكبر من نوط النيل ، وقد أنعم به عليه بغير راى الوزارة

فأجاب الملك سعدا الى هذه الطلبات ، ووعده أن تضاف الى الدستور ، وان يشرع فى ذلك عقب رد الاستقالة اذا شاء

هذا فى اليوم السادس عشر من نوفمبر ، وفى اليوم السابع عشر اعلن سعد فى مجلسى النواب والشيوخ أنه « تشرف أمس بمقابلة جلالة الملك فأعرب له أنه متفق تمام الاتفاق مع الامة ومجلسى الشيوخ والنواب فى الثقة بالوزارة ، وانه امام هذا الاجماع لا يسعه قبول استعفاء الوزارة ، وبناء على هذا وعلى التصريحات التى لطفت من عبء العمل عليه ومن عنائه ، لم ير بدا من سحب الاستقالة والعود الى العمل فى حدود صحته »

سبق الى بعض الظنون ان الوزارة سوف تستريح برهة بعد عودتها الى العمل ، لتتفرغ لشئون الاصلاح التى شغلتها عنها الازمات السياسية ، ولكن لم يمض يوم واحد حتى وقع الاعتداء على حياة السردار « لى ستاك باشا » وهو خارج من وزارة الجربية ، ولسوء الحظ كان الرجل على نية السفر الى السودان قبل ذلك بيوم ، ثم ارجأ سفره لحضور مادبة اقيمت له فى القاهرة ، فصادفته المنية على ايدى اولئك الجناة

ولو شاءت السياسة البريطانية لعلمت ان جناية كهذه قد وقعت فى العاصمة الانجليزية ــ وهى قتل المارشال ولسون ــ فلم يقل احد انها دليل على خلل الحكومة او سوء النية او التقصير فى حفظ الامن والنظام .

ولو شاءت لعلمت أن سعدا خليق أن يكره وقوع هذا

الاعتداء اشد ـ كراهة الحكومة البريطانية ، لانه امتداء يصيبه هو ويصيب وزارته ويصيب الحكومة النيابية التي يمثلها ، ولا ينفعه فى شيء بل ينفع خصومه من الانجليز والمصريين

ولو شاءت لعلمت أنه قد أصيب باعتداء على حياته من جراء المفاوضات قبل أن ينزع الجناة الى اصابة حاكم السودان

ولو شاءت لعلمت أن حاكم السودان هو قائد الجيش المصرى ولا مانع يمنعه من « تقدير الظروف » وحماية حياته بما لديه من الحراس والجنود ، وليس بالانصاف ولا بالميسور أن تطالب الوزارة السعدية بعناية أكبر من عناية الرجل نفسه ، وفى البلاد « ادارة أوربية » للامن والاستعلامات لا يفوتها الانتباه والتحذير

ولكن السياسة البريطانية لم تشأ أن تعلم شيئا من ذلك وهو معلوم غير مجهول ، وكل ما شاءته أنها اغتنمت الفرصة كأنها كانت فى انتظارها او كانت تشفق أن تضيع منها ، وهى قد كانت حقا فى انتظار فرصة تزعج بها الوزارة السعدية جهد ما استطاعت من ازعاج

قال اللورد جورج لويد فى الجزء الثانى من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » :

« تخلت وزارة مستر رامزى مكدونالد عن الحكم فى نهاية أكتوبر وخلفتها وزارة محافظة تولى فيها مستر أوستن شمبرلن وزارة الخارجية وكان مستر مكدونالد يفكر ـ بمعاونة المندوب البريطانى ـ فى توجيه تبليغ الى الحكومة المصرية يسرد لها المخالفات المكررة التى خالفت بها النظام المتبع أو الحالة الواقعة . فواصل مستر

تشمبرلن بحثه مع القاهرة فى الصيغة التى يفرغ فيها هذا التبليغ ، وكانت هذه المخالفات تزداد اثناء ذلك وآخرها رفض زغلول فى الثامن عشر من نوفمبر بقاء وظيفة المستشار القضائى وامتناعه من تجديد العقد للمستر م . ابموس الذى كان يشغلها اذ ذاك »

سنحت الفرصة اذن فينبغى أن لا تضيع ، وبلغ من التهافت على انتهازها ، انهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة اخفاء النية المبيتة وراءها ، فجاء فى الانذار البريطانى انهم يطلبون من الحكومة المصرية « أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التى تزرع فى الجزيرة ، فبدلا من ان تكون ثلثمائة الف فدان تكون غير معينة المقدار على نسبة ما تقتضيه الحاجة » ... وجاء فى ملحق الانذار « أن القوانين والشروط الخاصة بخدمة الموظفين الاجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية وتاديبهم وخروجهم من الخدمة ، يجب ان يعاد النظر فيها وتنقح طبقا لرغبة الحكومة البريطانية » وانه « الى أن يتم الاتفاق بين الحكومتين على موضوع حماية مصالح الاجانب فى مصر تحافظ الحكومة المصرية على مركز المستشار المالى ومركز المستشار القضائى . وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليهما عند الغاء الحماية ، وتحترم بالمثل مركز المكتب الأوروبى فى وزارة الداخلية ، ومهام المالية كما حددت بالقرار الوزارى ، وتاخذ بعين الاعتبار المشورة التى يقدمها مديره العام فى الأمور الداخلة فى اختصاصه »

اما الطلبات الأخرى فمنها الاعتذار الوافى الكافى ، وقمع كل مظاهرة شعبية سياسية ، ودفع نصف مليون

جنيه ، واصدار الأوامر برجوع الضباط المصريين والوحدات المصرية البحتة فى الجيش المصرى من السودان خلال اربع وعشرين ساعة .. ومهد لهذه الطلبات بعبارة جاء فيها أن حكومة جلالة الملك « ترى أن هذا الاغتيال ـ الذى يعرض مصر بالحالة التى تحكم بها الآن الى ازدراء الشعوب المتمدينة ـ هو النتيجة الطبيعية لحملة عدوانية على حقوق بريطانيا العظمى وعلى الرعايا البريطانيين فى مصر والسودان »

وعلم اللورد اللنبى ان امنيته المرقوبة قد حانت آخر الأمر فاحتفى ما شاء بمظاهر التخويف والتشفى والارهاب ، وذهب فى ركب يتقدمه مئات من حاملى الرماح الى مجلس الوزراء ، واعلن وصوله بنفخ الأبواق وقعقعة السلاح ، فلم يتمالك سعد كعادته أن يلمح الجانب المضحك من هذه المبالغة فى استغلال فاجعة اليمة ، وقال واللورد اللنبى يدخل عليه : « ماذا ؟ هل أعلنت الحرب ؟! »

اما جواب الحكومة المصرية على الانذار فقد قبلت فيه ماله علاقة بالجريمة كالاعتذار ودفع التعويض واقتفاء أثر الجناة ومنع المظاهرات المخلة بالنظام ، ولم تقبل ما عدا ذلك من المطالب التى لا علاقة لها بسبب الانذار ، فما هى الا ساعات حتى أخذت البلاغات تتعاقب من اللورد اللنبى بانه أمر حكومة السودان أن تسرح الضباط المصريين وأن تطلق يدها فى زراعة الجزيرة ، وأنه سيتخذ ما شاء لحماية الاجانب ، وانه سيحتل الجمارك ويتبع ذلك بضروب أخرى من النذر والقوارع

وكانت الوزارة قد رفعت استقالتها الى جلالة الملك

فلما تعاقبت هذه التبليغات كتبت الى جلالته عريضة تقول فيها انها « ازاء هذه التعديات المتتالية المضرة بالبلاد لا يسع الوزارة الا ان تلح على جلالتكم بأن تتفضل بالاسراع فى قبول الاستقالة ؛ لانه ربما كان فى هذه الاستقالة وفى ثبوتها ما يقى شر الاضرار المتوالية » فقبل جلالته الاستقالة واعلن سعد فى المجلسين قبولها ، وعقب على ذلك بقوله : « كذلك اصرح لكم انا وزملائى باننا مستعدون بكل اخلاص لان نؤيد فى مجلس النواب الذى نحن اعضاء فيه كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد ، ليس فينا عاطفة معارضة الا فيما يختص بالمصلحة العامة ؛ فاننا نخدم هذه المصلحة ونؤيد كل من يؤيد هذه المصلحة »

وبذلك تم للسياسة البريطانية ما ارادته من اقصاء سعد ، وان لم يتم لها ما هو افضل لديها من الاستقالة العاجلة ، وهو قبول المطالب ثم معاودة الاحراج لاقصائه بعد حين

وان الانسان لا يدرى بعد ذلك هل تعتبر السياسة الاستعمارية هذه الحوادث من المصادفات السعيدة او من الفواجع المحذورة !

فمقتل غردون فى الخرطوم – وانما قتل لان الانجليز القابضين على الحكومة المصرية لم يبادروا الى انقاذه – قد اكسب السياسة الاستعمارية نصف السودان وهو القطر الذى يعدل القارات فى الاتساع وخصوبة الموارد ولا تنال الدول مثله الا بسفك دماء العشرات من القواد وعشرات الالوف من الجنود

وقالت السياسة الاستعمارية يومئذ انها لا تشارك

مصر فى السودان لانها تدعى حقا فى ملكه او السيادة عليه ، ولكنها تريد هذه الشركة توسلا بها الى منع سريان الامتيازات الاجنبية عليه ، وهى تسرى على كل قطر تابع للدولة العثمانية ، وقد يكون فى سريانها على السودان تعطيل لاصلاحه وتقييد لحرية المصريين فى حكمه .. وفيما عدا ذلك لا مطمع للدولة البريطانية فى الحكم ولا فى الاستغلال!

وباسم مصر وحقها احتجت انجلترا على فرنسا حين احتل القائد مرشان فاشودة لان التعليمات قد صدرت « بتوطيد السلطة المصرية على ذلك الاقليم »

وباسم مصر وحقها دفعت الخزانة المصرية اكثر من عشرين مليونا من الجنيهات لتعمير السودان وحراسته وتحصينه وتسديد العجز فى موارده !

ثم جاء مقتل لى ستاك بعد مقتل فردون بنحو اربعين سنة فضيع على مصر كل ما بذلته من مالها ودمها فى العصور القديمة والحديثة ، ونقل ذلك حلالا زلالا سائغا الى ايدى السياسة الاستعمارية تتخذه ذريعة الى نزع ما تشاء من الارض ، واقصاء جميع الموظفين المصريين ، وطرد الجيش المصرى كله ، مع تكليف الخزانة المصرية سبعمائة وخمسين الف جنيه للدفاع عن السودان !

ان السياسة الاستعمارية لو راجعت نفسها لحارت كما نحار نحن فلم ندر هل هذه الحوادث من المصادفات السعيدة او من البلاء المحذور !

ونعود الى مصاعب الوزارة السعدية فنقول ان الشواغل والازمات لم تكن موقوفة على العلاقات المصرية الانجليزية وحدها وما يتفرع عليها . فان الوزارة السعدية

لم تقم فى الحكم اياما حتى قابلتها مشكلة صغيرة مع الحكومة الايطالية، وهى الحاح هذه الحكومة فى تسليم عشرة من اللاجئين السياسيين من اهل طرابلس قدموا الى مصر واعتقلتهم الوزارة الابراهيمية قبل قيام الوزارة السعدية . وكانت حكومة موسولينى تأبى ان تقنع بما دون التسليم ، وثارت ثائرة الامة المصرية لهذه المطاردة العنيفة لأناس لم يقترفوا من وزر الا الدفاع عن حرية بلادهم كما يحق لكل انسان ، بل كما يجب على كل انسان . واحتدمت النفوس غيظا من هذا اللدد الغريب فى ملاحقة اللاجئين بالعقاب بعد أن هجروا ديارهم والقوا سلاحهم وذاقوا مرارة الخيبة والهزيمة ، كأنما هم الواترون وآيطاليا هى الموتورة المعتدى عليها التى لا ينبغى لها ان تنسى جزاء الوتر والعدوان

والطرابلسيون بعد جيران المصريين واخوانهم فى اللغة والدين وفى قضية الحرية والاستقلال ، والوزارة السعدية لا تشعر الا بهذا الشعور ولا يجمل بها وعلى راسها زعيم المجاهدين الوطنيين فى الشرق العربى ان تسلم بيديها اولئك الغرباء المساكين للموت والبلاء . فرفضت تسليمهم واصرت على الرفض كل الاصرار ، وخشيت فى الوقت نفسه أن يتفاقم الخلاف بينها وبين الحكومة الايطالية تفاقما يجر الى دخول الحكومة البريطانية فى القضية .. لأنها مسئولة — كما تدعى — عن حماية الاجانب وعن علاقات مصر الخارجية حيث يؤذن الخلاف بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من أحدى الدول القوية ! ! فتوسط سعد فى فض هذه المشكلة بحل لا يسخط الحكومة الايطالية كل السخط وان كان لا يرضى المصريين كل

الرضا ، واكتفى باطلاق اللاجئين المعتقلين ليبرحوا القطر الى حيث يشاءون

ولم ينته الخلاف مع ايطاليا بهذه المشكلة ، بل نشبت بعدها مشكلة أخرى لاكراه الحكومة المصرية على ضم واحة جغبوب الى البلاد الطرابلسية ، وقد استغرب الناس هذا التحرش بالوزارة السعدية من الحكومة الايطالية حتى بدر الى ظنهم انها مغراة بذلك من اناس يتصلون بها ويجوز أن يحرضوها على خلق الازمات لاحراج سعد وتكبير المصاعب عليه ، وطال الاخذ والرد في هذه المشكلة ، حتى انتهت بالاتفاق بين قائد السلوم ومندوب الحكومة الايطالية على حد موقوت بين مصر وطرابلس تدخل به جغبوب والسلوم فى الارض المصرية ، وسرعان ما عادت الحكومة الايطالية وحدها الى تغيير هذا الحد بغير مشاورة ولا استئذان !

يضاف الى هذه المشاكل كلها شواغل البرلمان الاول التى لابد منها ، فقد كان على الوزارة البرلمانية الاولى أن تعرض عليه جميع القوانين والمعاهدات التى حدثت بعد فض الجمعية التشريعية ، وكان عليها وعلى البرلمان أن يشتركا فى ترتيب نظامه الداخلى وعلاقته بالوزارة ومصالح الحكومة ، وأن يشتركا فى تعديل قانون الانتخاب على الوجه الذى يرضاه السعديون ، وهم لا يرضون عن قانون الدرجتين.

والبرلمان هل كان يخلو من صعوباته ؟ وهل كانت الوزارة السعدية لا تحسب حسابه الا لتستعين به على خصومها فى جميع قراراته ومناقشاته ؟

كلا ! فقد كانت لأبى الديمقراطية المصرية صعوباته

ومساجلاته ايضا مع البرلمان بمجلسيه من نواب وشيوخ، وكان يحتاج احيانا الى قوته كلها ليروض بها قوة هذا البرلمان . ولا نعنى المعارضة وحسب فانها لم تكن تتجاوز عشر المجلسين فى عدد الاعضاء ، ولكننا نعنى الاعضاء الوفديين وهم أنصار سعد وأبناؤه ومريدوه ، وكانت تتالف منهم الهيئة الوفدية التى اكتمل تاليفها بعد انعقاد البرلمان بنحو شهرين لتنظيم المناقشات ومنع الاحتكاك بينها وبين الوزارة ، وقال سعد فى خطابه لاعضائها من مجلس النواب : « النظام يتطلب من كل منكم ان ينزل عن جزء يسير من حريته حتى تجتمع الحرية كاملة من هذه الاجزاء للهيئة التى قبلتم العمل تحت لوائها ، والحرية متوافرة من قبل فى اختيار الهيئة التى تتضامنون معها واختيار النظام الذى تسيرون عليه ، فلا معنى للقول بأن الحرية تنعدم مع النظام . ان الحكومة منكم وأنتم عضد الحكومة ، فيجب أن تكون هيئتكم منظمة ليمكن ان يكون سير الحكومة منظما »

ومع هذا لم تخل جلسات الشيوخ والنواب من معارضة للحكومة فى أمور أصرت فيها الحكومة على رايها وأصروا فيها على رايهم ، فلم يرجعوا عنه بعد طول المساجلة والجدال

اودعت الحكومة القوانين التى صدرت قبل اجتماع البرلمان مكتب مجلس النواب ، وفيها قانون الاجتماعات المنظم لحق الاجتماع المباح بحكم الدستور فى حدود القانون ، فنظر مجلس النواب هذا القانون فى غيبة الوزارة دون أن يكون مدرجا بجدول الاعمال ، وقرر الغاءه بلا تقييد ولا تعديل .. فجاء سعد فى الجلسة

التالية (٢ يوليو) ولاحظ على مبدأ نظر القوانين فى غيبة الحكومة المصرية قائلا أن : « المسألة التى اريد عرضها على حضراتكم هى انكم نظرتم قانون الاجتماعات مع أنه غير وارد بجدول الاعمال ، ولم تكن الحكومة حاضرة فهل يجوز أن يتخذ مثل هذا القرار فى غيبة الحكومة ؟ هذا ما اردت طرحه على حضراتكم لابداء الراى فيه »

فقال احد الاعضاء : « المجلس صاحب الحق المطلق فى جدول اعماله ، فموضوع البحث هو : هل للمجلس اذا لم تكن الحكومة ممثلة أن يغير جدول أعماله قبل أن يخطرها بذلك أم لا . فيجب أن نقرر أولا أن الحكومة تعمل على تمثيل نفسها دائما فى المجلس لتتوقى مثل هذه المسائل ، والذى أفهمه ان مكتب المجلس كان يجدر به أن يخطر الحكومة من باب المجاملة .. »

فقال سعد : « ليست المسألة مسألة مجاملة . انى لا أقبل المجاملة فى هذا ! ومحل ذلك فى المسائل الشخصية . ولكنى أعرض المسألة الآن رسميا ، وليس هذا حق الحكومة فقط بل حق كل عضو علم بجدول الاعمال ولم يحضر الجلسة ثم عدل جدول الاعمال ، فله أن يعترض ، وأولى بالحكومة أن تعترض على ذلك باعتبارها الطرف الآخر « طرفا مهما » ... وأن مصلحة المجلس تقضى باعلانها ، لانها اذا كانت لا تقبل قرارا صدر فى غيبتها فلها أن ترده للمجلس لا من باب المجاملة بل من باب الالزام »

واحتدت المناقشة طويلا ثم اصرت الحكومة على رايها واصر المجلس على رايه ، وغاية ما سمح به أن تنتظر

الحكومة الفرصة التى تسنح عند اعادة القانون فى مجلس الشيوخ اذا أعاده الى مجلس النواب ، أو تتقدم الى مجلس النواب بقانون اجتماعات جديد ، أما الالغاء فلا رجوع فيه

وعرض القانون على مجلس الشيوخ فعدل بعض أحكامه ولا سيما فى العقوبات ، وعلم وكيل الداخلية أن الحكومة ستنهزم فى المناقشة فاستنجد بوزير الداخلية محمدتوفيق نسيم باشا ، ووجد هذا ان لا قبل له بصد التيار فارسل فى طلب سعد باشا ، ودارت المناقشة بعد حضوره كاشد ما تكون بين خصمين متناجزين ، ثم سأل رئيس المجلس : ما هو راى الحكومة النهائى فى هذه التعديلات ؟

فقال سعد باشا : ان الحكومة لا تزال عند رايها

واخذت الاصوات فاذا المجلس يؤيد التعديلات ويخذل الحكومة ، ولم يكن سعد يتوقع هذا ولكنه اغتبط به بعد ذهاب سورة المناقشة وحمد الله « أن فى مصر نوابا وشيوخا لا يقولون نعم نعم ولا لا كلما قالها الحاكم أو الزعيم »

هذه الصعوبات البرلمانية كانت تتعب الوزارة فى بعض الاحايين ، فاصطلحت فيها الوزارة والبرلمان على حد سواء بين الفريقين : فاما المسائل التى يتازم بها مركز الوزارة والبرلمان معا فقد كان سعد يعتصم فيها بالثقة وكان البرلمان يجاريه فيها لانه يعلم أن ليس وراء قدرة الوزارة فيها قدرة قصرت فى استخدامها . كذلك حدث فى مسألة خطبة العرش وتفسير الامانى القومية ، وكذلك حدث فى مسألة الجزية التركية التى راى سعد ان يبطل التزام مصر بها ويودعها فى الوقت نفسه احد المصارف

انتظارا للفصل فيها محافظة على سمعة البلاد المالية ، ورأى المجلس غير ذلك ثم ثاب الى رأى سعد فى ختام المناقشة ، وان لم يعرض سعد مسألة الثقة فى هذه الجلسة

واما المسائل الاخرى فقد كان موقف سعد فيها كموقفه فى قانون الاجتماعات يدلي برأيه ويصغى الى راى النواب والشيوخ ، ويعمل بما يقررون

وبعد هذه الشواغل جميعها ، لا عجب اذا كان وقت الوزارة لم يتسع لانجاز أعمال الاصلاح التي كانت فى نيتها وفى مقدورها . وهى لم تلبث فى الحكم الا تسعة اشهر تحسب منها ايام البطالة وأيام السفر وأيام الاستشفاء والعلاج . فحسبها مع هذا جميعه انها استطاعت ان تحقق معنى الحكومة الاول وهو اطلاق الحرية للمحكومين فى أوسع الحدود . فقد كان المصرى يستمتع فى عهد الوزارة السعدية بحرية واسعة لا يستمتع الانجليزى ولا الفرنسى بأوسع منها ، وكان الانصار والمعارضون فى هذه الحرية على حد سواء . فمن قرأ ما كانت تكتبه صحف المعارضين عن سعد وآل سعد ووزارة سعد ، علم أن الحرية المنشودة لا تتسع فى بلد فى البلدان لاكبر من هذه الحقوق فى النقد والمعارضة ، بل فى المهاجمة والتجريح

واستطاعت الوزارة السعدية أن تشرع فى اصلاح ميناء السويس وفى مد السكك الحديدية بالوجه البحرى والتمهيد لتوسيعها بين الاقصر واسوان ، وفى انشاء الطرق الهامة بالقاهرة كطريق الازهر وطريق الامير فاروق وما شابه ذلك من أعمال العمران ، وأن تشرع فى تعميم التعليم الاجبارى حسبما تتهيأ له موارد الدولة ، ولم

تحجم عن تشييد الجامعة المصرية ، الا لأنها كانت تفهم من معنى الجامعة أن تجعلها شيئا غير اجتماع المدارس العليا فى صعيد واحد ، كما قال سعد فى حديثه مع كاتب هذه السطور عندما كان ناظرا للمعارف العمومية ، أو كما قال وهو رئيس للوزارة « ان الذى أفهمه أن الجامعة ــ بمعنى اجتماع المدارس العليا ــ موجودة الان وهى وزارة المعارف ! » وهو يعنى أن الجامعة التى يريد انشاءها ــ وقد وضع حجرها الاول يوم كان قاضيا بمحكمة الاستئناف ــ هى الجامعة التى تعلم الطلاب الاستقلال بالبحث والتوسع فى الاحصاء ، ولا تكتفى بالبرامج المعهودة فى المدارس العالية قبل انشائها

ترى ماذا كان شعور سعد بسلطان الحكم الذى جلب عليه جميع هذه المتاعب وحمله جميع هذه الاعباء وأحاطه بجميع هذه الدسائس والنكايات ؟ أسرور ؟ نعم لاشك انه تقبل سلطان الحكم فى بادىء الامر بشىء غير قليل من السرور والرجاء . ولكنه سرور غير سرور الضعيف المزهو بمرتبة رفعته أو ارتفع هو لها بين سائليها والمتطلعين اليها ، وانما هو سرور الانتصار على الذين حسبوا انهم حائلون بينه وبين هذا المكان عنوة وقهرا ، فاذا هو يدركه بحوله وقدرته ولا يحتاج فيه الى شفاعة شافع أو معونة معين . فهو شعور الظافر فى الميدان والرابح فى الرهان ، لا شعور الكسب أو المتعة بالعطاء !

ولكنه سرعان ما فقد حتى هذا السرور قبل أن يستقيل ببضعة أيام ، ففى الليلة التى استرد فيها استقالته كنت أتناول العشاء على مائدته مع بعض المدعوين ، وكانت الطرقات حول « بيت الامة » تموج بالهاتفين والمهنئين ،

وهو فى موقف خليق أن يحسبه انتصارا على الخصوم ونجاحا فيما طلب وفاتحة لعهد جديد . فتحولنا بالحديث الى الحكم ومتاعب الحكام الدستوريين والمستبدين على السواء ... فقال رحمه الله وهو يزم شفتيه فى امتعاض واسف : « ان أردتم الحقيقة ... أنا غير ملدوذ ! » ... وهكذا حوافز الحياة : أقوى ما فيها من عزاء للاقوياء العاملين أنهم قادرون على النهوض بها وقادرون على احتمال صدماتها وعقابيلها ، ولولا ذلك لما ثابروا على رجائها ولا ثابروا على عنائها والعودة اليها ، أما سرورها فهباء لا فرق فيه بين الاقوياء العاملين والضعفاء الحالمين

ويلي هذا الفصل فصل من العلاقات بين الملك فؤاد وسعد ، يليه تلخيص الحوادث التى جرت فى مصر بعد استقالة الوزارة السعدية الى عودة الحياة النيابية كما يأتى :

من رئاسة الوزراة
الى رئاسة النواب

فكر سعد فى بقاء الدستور بعد ذهاب الوزارة فاعلن فى خطابه الذى القاه على النواب تبليغا للمجلس باستقالة الوزارة : « انه مستعد مع اصدقائه الكرام من اعضاء هذا المجلس لان يؤيدوا كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد »

واعلن مثل ذلك فى ندائه الى الامة باعتباره رئيسا للوفد ، وفى خطاب القاه على الجموع الذين وفدوا الى بيت الامة بعد استقالته حيث قال : « انني مستعد لتأييد كل وزارة تاتي وتكون حائزة للرضاء العام ، عاملة على تحقيق امانى البلاد ، فان الموقف دقيق جدا وانا واثق من انى وانا خارج الوزارة ساستطيع خدمة البلاد اكثر الف مرة مما لو كنت داخلها . وتأكدوا ان الله معنا ، ولابد أن تفوز الامة فى النهاية ان شاء الله »

ولكن الغرض الاكبر فى تلك الايام لم يكن هو الخلاص من حادث السردار بوسيلة من الوسائل المرضية ، بل هو استغلال ذلك الحادث المظيم لتحطيم سعد ومن يواليه ، ولا سبيل الى هذا التحطيم مع بقاء البرلمان وسريان احكام الدستور

وقد احتج البرلمان بمجلسه الىعصبة الامم علىاستغلال الحكومة البريطانية لحادث السردار فى اهتضام السودان وتمزيق الاستقلال المصرى ، فلم يجد هذا الاحتجاج صدى له بين اعضاء العصبة الا مندوبى ايران والسويد وارجواى

الامريكية ، وتعلل مندوبو الدول الكبرى بان الاحتجاج لم يعرض على العصبة من قبل حكومة قائمة ، لان الوزارة السعدية كانت قد استقالت والوزارة الزيورية التي تلتها لا تحب أن تحتج على شيء من مطالب الانجليز ، ولا ترى للمسألة حلا مستطاعا عندها الا الاذعان لما طلبوه

واذعنت الوزارة الزيورية فعلا لجميع المطالب البريطانية، وارسلت من مصر رسولا الى الضباط المصريين في السودان تامرهم بالجلاء والعودة الى بلادهم ، لانهم كانوا قد امتنعوا عن العودة وتسليم السلاح حين بلغهم نائب الحاكم العام امره باسم الحكومة البريطانية ، ردوا عليه بانهم لا يطيعون غير ملك مصر واوامر حكومتها ، فجاءهم هذا الامر من الوزارة مع رسول في طيارة بريطانية ، فاطاعوا راغمين وتمسكوا بالعودة حاملين السلاح والاعلام ، غير مخفورين بالجنود الانجليزية في طريقهم الى الحدود

وقد ترك زيور باشا رئيس الوزارة كل شيء للانجليز من جانب ، ولحسن نشأت باشا وكيل القصر الملكي من جانب ، ولاسماعيل صدقي باشا وزير الداخلية فيما بقي له من شئون الوزارة ، فلا رأى له ولا برنامج ولا ارادة ، وسلمت الوزارة للانجليز في مسألة جغبوب بالصحراء الغربية ومسألة نهر الجاش في السودان ، وهما الهديتان اللتان ساومت عليهما بريطانيا العظمى صديقتها ايطاليا على حساب الحقوق المصرية والسودانية ، وسلمت على الاجمال في كل ما اراده الانجليز واستباحوا به نصوص الدستور والقانون التي لا تقبل التأويل ، ومنها القبض على النواب وهم في كنف الحصانة البرلمانية قبل أن يعرض الامر على مجلس النواب ، وحملت شكوى النواب من

مدوانها على الدستور والقانون وتفريطها فى حقوق البلاد ذريعة الى حل المجلس وتعطيل البرلمان قبل أن تتقدم انيه

ولم تعارض فى مطلب من المطالب الانجليزية الا التوسع فى زراعة القطن بالسودان ، لانه المطلب الذى فضح المناورة الاستعمارية واحست الحكومة البريطانية ان اللورد اللنبى اخطأ خطأ فاحشا فى تضمينه انذاره النهائى الى سعد زغلول ، وكان له دخل كبير فى اقالة اللورد اللنبى بعد ذلك بشهور ، فاهتمت بمداراته واصلاحه واوعزت الى احمد زيور باشا بالمراجعة فيه ، ولولا ذلك لما تحرك هو لمراجعة أو استدراك ، لانه رجل أشهر ما اشتهر به قلة الاكتراث وفلسفة المعيشة الرخية وعلى الدنيا بعد ذلك السلام . فما كلف نفسه قط قراءة الصحف المعارضة او الموالية ، واعجب من ذلك انه لم يكلف نفسه قراءة الدستور ... فاذا عرضت عليه حملة فى احدى الصحف على الوزارة قال : اغلقوها . اغلقوها . ونسى أن الدستور يمنع اغلاق الصحف بالوسائل الادارية ، وان اغلاقها بهذه الوسائل مما تضيق عنه دائرة الاحتيال على النصوص ويعرض الحكومة للمطالبة بالتعويضات ، وكلما كرروا له التنبيه كرر هو النسيان !

ولم يكتمل لوزارته فى الحكم شهران حتى كان « حزب الاتحاد » قد ظهر فى عالم الوجود وظهرت له صحيفة عربية وصحيفة فرنسية باموال ليست امواله على كل حال . واصبح معيار الترقية عند عمال الادارة عدد الاعضاء الذين ينضمون على ايديهم الى حزب الاتحاد وينفضون من الهيئة الوفدية ، وأبيح لهم فى ذلك كل ما يباح ، وتمادى بعضهم فى حرب الدعوة لهذا الحزب

ولغيره تماديا يزرى بشرف الانسان فضلا عن شرف الموظف الامين ، ومن أمثلة ما استباحوه فى أضطهاد الوفديين ، فظائع الدقهلية التي عرفت بفظائع اخطاب ، وضجت منها أرجاء البلاد والهبت فى صدور المصريين كافة ذحولا لا ينطفىء لها أوار ولا يرجى معها فلاح لحكومة من الحكومات ، وصدر فيها حكم القضاء على ملاحظ البوليس بالسجن خمس سنوات جزاء له على ما ثبت من جناياته وهو أيسر ما اتهم به ونسب اليه ، ومنه اجهاض الحوامل وقص شوارب الفلاحين بمقصات الحمير ، واكراههم على التسمى بأسماء النساء ، واهراق الماء على الارض وتمريغ انفسهم بأنفسهم فى الوحل الذى صنعوه

اما الانتخابات فقد كان الواجب أن تتم فى ميعاد لا يتجاوز الشهرين على حسب نص الدستور ، وان ينعقد المجلس الجديد فى خلال الايام العشرة التالية ليوم الانتخاب ، ولكن الوزارة تعللت بتعديل قانون الانتخاب وتنقيح الجداول للمطاولة فى هذه المدة ، فلم تحصل الانتخابات الا فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس ولم ينعقد المجلس الا فى الثالث والعشرين منه ، ويكفى لبيان الاساليب التى جرت عليها الانتخابات أن يعرف أن سعد زغلول أخفق فى الانتخابات الثلاثينية ولم يظفر بخمسة عشر صوتا تجعله مندوبا ثلاثينيا فى الحى الذى هو فيه ! وعلى هذه الطريقة جرت الوزارة فى تقسيم الدوائر حسبما يروق مرشحيها وكتابة أسماء الناخبين وحذفها كما يملى أولئك المرشحون ، واقامة الحراس فى الطرقات ليصدوا اناسا من الصناديق ويدفعون اليها بأناس آخرين وبعد هذا كله ظهرت النتيجة فاذا بسعد قد فاز بمائة

واحد عشر صوتا فى اليوم الاول ولا تزال فى الدوائر بقية لم تظهر لها نتيجة . ثم ادب النواب السعديون مأدبة لزعيمهم فى فندق سميراميس فحضرها مائة وثلاثة عشر نائبا واعتذر ثلاثة بمرضهم مع تأييدهم للزعيم ، وفى هؤلاء وحدهم الكثرة اللازمة لاسقاط الوزارة المهزومة .

الا ان الوزارة زعمت انها هى الفائزة بالكثرة المطلقة وحسبت من اصواتها اصوات جميع الاحزاب الاخرى وهى حزب الاحرار الدستوريين وحزب الاتحاد والحزب الوطنى مضافا اليهم المستقلون وهم بطبيعة الحال لا يرجحون فريقا على فريق الا بعد اجتماع البرلمان والاقتراع على الثقة ، وبهذه الدعوى استقالت الوزارة لتتالف مرة أخرى من جميع الاحزاب وفاقا لما ظهر لها من نتيجة الانتخاب ، وقال زيور باشا فى خطابه الى جلالة الملك : « لما كان البرلمان قد أوشك أن ينعقد فان الوزارة ستعلن خطتها السياسية عند تقدمها اليه . وانى أتشرف بأن اعرض على سدتكم أسماء حضرات الوزراء الذين قبلوا معاونتى فى هذه المهمة محتفظا لنفسى بمنصب وزارة الخارجية ، وهم يحيى ابراهيم باشا لوزارة المالية واسماعيل صدقى باشا لوزارة الداخلية وموسى فؤاد باشا لوزارة الحربية ، وعبد العزيز فهمى بك لوزارة الحقانية وتوفيق دوس بك لوزارة الزراعة ، واسماعيل سرى باشا لوزارة الاشغال العمومية ويوسف قطاوى باشا لوزارة المواصلات وعلى ماهر بك لوزارة المعارف العمومية ومحمد على بك لوزارة الاوقاف »

ومن هؤلاء الوزراء اربعة من الاحرار الدستوريين ، واربعة من الاتحاديين والبقية من المستقلين ، واحتفظ

زيور باشا لنفسه بوزارة الخارجية خلافا للعرف الذى أطرد بالجمع بين رآسة الوزارة ووزارة الداخلية ، ودليل على أن وزير الداخلية لا يزال فى هذه الوزارة منوطا بمهمة خاصة للاشراف على الانتخابات وتسخير الادارة فى ضم الانصار وتشتيت الخصوم ، لا يضطلع بها كل وزير ولا يضطلع بها زيور باشا من باب أولى

وألحت الوزارة فى دعواها الى أن كان يوم انعقاد البرلمان وانتخاب رئيس مجلس النواب ، فلم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت باشا بأكثر من خمسة وثمانين صوتا وبلغت أصوات سعد مائة وثلاثة وعشرين صوتا عدا صوته ، لانه انصرف قبل الاقتراع لانتخاب الرئيس

وتأجلت الجلسة الى المساء لاتمام انتخاب المكتب ، والوزارة فى هذه الاثناء تعد المرسوم بحل مجلس النواب، للسبب الاول الذى حلته من أجله فى السنة الماضية وهو الاصرار على تلك السياسة التى كانت سببا لتلك النكبات التى لم تنته البلاد من معالجتها » !.. وهو مناقض لنص الدستور الذى يحرم حله مرتين بسبب واحد

وجاء المساء فدخل زيور باشا ومعه ثلة من الجند وقرأ المرسوم وانصرف ، وكان يلتفت قبل تلاوته الى منصة الرآسة ليرى سعدا عليها وينعم هو وشركاؤه بما رتبوه من رؤيته نازلا من المنصة بعد انتصار الصباح ، ولكنه كان قد ذهب الى حجرة الرآسة ولم يعد الا فى أثناء تلاوة المرسوم

غاية مايقال تلخيصا للحرب الانتخابية فى هذه المرة انها كانت حربا بين من استفادوا بحادثة السردار ، ومن أصيبوا بهذه الحادثة ومنهم الامة بحذافيرها ، فلا جرم أن تكون الامة فى الجانب الذى ينبغى ان تكون فيه ولا

يعقل ان تنحاز الى غيره . ومن خطأ اللورد اللنبى وحلفائه انهم قدروا للانتخابات المصرية مآلا غير المآل

ويظهر ان اقالة اللورد اللنبى عقب الخطأ الفاحش الذى ارتكبه فى الانذار النهائى كانت امرا مبتوتا فيه منذ اوائل العام ، ولكنهم اجلوه فى الوزارة البريطانية ريثما تنجلى المعركة الانتخابية عن مصيرها ، خوفا على اصدقائه الوزراء المصريين من الفشل والهزيمة من جراء تلك الاقالة او الاستقالة ، واملا فى الظفر بمجلس نيابى يساعده ويتوج سياسة التصريح ـ تصريح ٢٨ فبراير ـ بالنجاح . ولكن الانتخابات اسفرت عن خيبة جديدة وتقويض لسياسة الرجل لا امل بعده فى الترميم والتلفيق : فعادت الصحف الانجليزية تتحدث باستقالته وهو ينفيها من القاهرة ويوعز الى الصحف الاحتلالية بتكذيبها . وتحققت الاشاعة بعد اسابيع ، فابلغها اللورد اللنبى الى جلالة الملك فى التاسع عشر من شهر مايو ، وغادر البلاد بعد ايام

ان السياسة المصرية ـ على التخصيص بين السياسات العالمية ـ لا تتغير لسبب واحد . ولكننا اذا اردنا أن نعرف لها قاعدة واحدة تتكرر فى جميع التغييرات الهامة فالأغلب أن الانجليز يشرعون فى التغيير كلما انحصر النفوذ فى ناحية واحدة سواء أكانت ناحية القصر ام ناحية الامة . وعلى هذا غيروا سياسة الوفاق بعد ماتبين لهم فى عهد السير الدون غورست أن نفوذ الخديو عباس ينبسط فى انحاء الامة والحكومة ، وغيروا سياسة الحكم الدستورى بعدما تبين لهم انه يقوى سعدا ولا يضعفه كما كانوا يقدرون . وانشأوا حكومة زيور وهم يظنون

انها حكومة مترنة يتعارض فيها نفوذ القصر ونفوذ الاحرار الدستوريين . وأن هؤلاء جميعا يسلطون نفوذهم على سعد زغلول ، فلا يرجح جانب على جانب من نفوذ الامة او نفوذ القصر او نفوذ الوزارة ... فسرعان ما ظهر لهم ان تعطيل الدستور قد حصر النفوذ بأيدي القصر وهيأ له أن يستبقيه بين يديه فى غياب الدستور وفى وجود الدستور . وانكشف لهم ما وراء انشاء حزب الاتحاد من المقاصد والتدبيرات ... ان الانتخاب الاول بعد استقالة سعد قد اشترك فيه الاتحاديون والدستوريون من جماعة الوزراء . أما الانتخاب الثانى فلن يتسع لحزب غير الاتحاديين لانهم سيوحدون فيه جميع الاحزاب !!

وبرزت هذه النية بعد تشكيل الوزارة الزيورية الثانية وانطلاق حسن نشأت باشا وكيل القصر الملكى فىالسيطرة على دواوين القاهرة وفروع الاقاليم . فكانت اوامره تصدر الى المأمورين مباشرة فى المراكز بغير وساطة الوزير أو المدير ، وكانت اوامر الوزراء تلغى ولا تطاع ، ولم يلبث الاشتراك أن أفضى الى الاحتكاك بين الاحزاب وبين أشخاص الوزراء ، ثم سنحت الفرصة أخيرا للخلاص من الدستور بضربة واحدة ترمى الى هدفين . فقد ألف الاستاذ على عبد الرازق ـ وهو عالم دينى من أبناء بيوتهم الكبيرة ـ رسالة فى الاسلام وأصول الحكم ادحض بها القول القائل بوجوب الخلافة فى الاسلام ، فاهتم الاتحاديون بتجريد هذا العالم من صفة العالمية لان تجريده يرضى القصر بما يقتص من رجل يعوق المسعى الى الخلافة ، ويرضيه من طرف آخر بما يحرج الاحرار الدستوريين

ويضطرهم الى اعتزال الحكومة . فتم هـذا التجريد واستقال الوزراء من الاحرار الدستوريين ، واستعد الاتحاديون لخوض معركة الانتخاب منفردين

فلما وصل السير ـ اللورد جورج اويد خلف اللورد اللنبي ـ الى مصر وصل وله وجهة مرسومة في السياسة المصرية لا يطول فيها التردد والاضطراب . نفوذ القصر يجب أن يقف عند حد محدود . والحياة النيابية يجب أن تعود ، ولكن هل تعود الحياة النيابية ليعود سعد زغلول الى نفوذه الحكومي القديم ؟ كلا . بل تعود الحياة النيابية في برلمان مؤتلف من جميع الاحزاب . فيحول البرلمان دون انفراد القصر بالسلطان ، ويحول الائتلاف دون انفراد سعد بالوزارة والبرلمان . ولا ينحصر النفوذ في يد واحدة من ايدي المصريين ...

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة البريطانية تتجه الى هذا الاتجاه كانت الاحزاب المصرية تشعر بالخطر الواحد يهددها جميعا وتعلم أن لا نجاة لها بغير الائتلاف . فتحدث رجالها في توحيد الصفوف وتزاوروا لتقريب ما بينهم من شقة الخلاف ، وازف موعد انعقاد البرلمان بحكم الدستور في السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فعول الاعضاء على الاجتماع مدعوين أو غير مدعوين ، واعلنت الوزارة انها تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو في مكان آخر واحتلت دار النيابة بنحو الفين من الجنود . ولكن النواب والشيوخ اجتمعوا في فندق الكنتننتال وباتوا من اجل ذلك في الفندق لكي لا يحال بينهم وبين دخوله في الصباح . ومن طرائف زيور باشا انه ـ وهو يسكن

ذلك الفندق ـ لم يدر بما كان يجرى فيه واستغرب هذه الضجة هناك على خلاف المألوف !

وافتتحت الجلسة قبل الظهر فانتخب سعد رئيسا ثم أصدر المجلسان قرارا بالاحتجاج على تصرفات الوزارة وعلى منع الاعضاء من الاجتمـــاع فى دار البرلمان بقوة السلاح ، وباعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات المجلس فى المواعيد والامكنة التى يتفق عليها الاعضـاء »

ثم ندب الحاضرون وفدا من حضرات فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا وعبد الحميد سعيد أفندى لرفع القرار الى جلالة الملك وتبليغه الى الوزارة

أما الوزارة فقد كان كل ما وسعها بعد هذا الاجتماع انها كتبت الى مفتش الجيش العام تلفته الى مســـلك الضباط والجند الذين أدوا التحية العسكرية لسعد وهو يمر بمجلس النواب فى طريقه من بيت الامة الى فندق الكنتننتال !

وقد اجتمع أصحاب السمو الامراء بعد اجتماع البرلمان واتفقوا على كتابة عريضة الى جلالة الملك يؤيدون فيها اعادة الحياة النيابية اجابة لقرار الشيوخ والنواب

وبين هذه المآزق التى لا تعيش معها وزارة فى بلد مستقل لم ينقطع رجاء الوزارة الزيورية فى التعمير وحكم البلاد بالدستور أو بغير الدســتور ، بل راحت تشرع القوانين لفض الاحزاب وتمحو وتثبت فى قانون الانتخاب، وعندها انها بخير مادامت لا تسمع من الانجليز شرا ولا تحس منهم نفورا ، والانجليز لم يســمعوها الشر ولم يشعروها النفور لانهم كانوا ينتظرون منها الخدمة الاخيرة

وهي تسليم جغبوب الى الحكومة الايطالية ، فسلمتها ووقعت المعاهدة فى سادس ديسمبر ، وظنت انها قد اشترت البقاء من الانجليز بهذا الثمن الفادح ، ولم تدر انها قد ختمت بيديها على كتاب موتها وكتبت وصيتها حين كتبت تلك الوثيقة

ففي اليوم السادس أمضيت المعاهدة ، وفى اليوم الثامن قابل اللورد جورج لويد جلالة الملك وطلب الى جلالته اقصاء حسن نشأت باشا عن القصر ، متذرعا بما حام حول اسمه من الاقاويل فى قضية مقتل السردار ، فأجيب الى طلبه بعد ممانعة قصيرة الاجل ، واقصى نشأت باشا الى وظيفة فى السلك السياسى لم تكن مما يرتضيه

وقد استمر التحدى والنضال بين الوزارة والإحزاب فاجمعت الاحزاب على تجاهل قوانينها واضرب العمد عن تنفيذ قانون الانتخاب وحكم القضاء ببراءتهم حين احيلوا اليه بتهمة عصيان القوانين ومخالفة الاوامر . وازداد التقارب بين الاحزاب بهذه الوحدة بينها فى محاربة الوزارة فكان أقوى مظاهرها مأدبة النادى السعدى التى أدبها سعد للنواب والشيوخ على اختلاف احزابهم « ليتم التعارف بينهم ويزول ما يكون فى نفوس بعضهم لبعض من نفرة وجفاء ويحل مكانهما ماتقضى به روح التسامح من عطف وولاء »

ثم اعلنت الاحزاب فى أوائل السنة الجديدة (١٩٢٦) اجماعها على مقاطعة الانتخابات على غير القانون الذى تريده ، وخطا الزعماء خطوة أخرى فى سبيل الوفاق فزار معظمهم بيت الامة ورد لهم سعد الزيارة فى بيوتهم ،

واتفقوا على الدعوة الى مؤتمر وطنى يجمع الوزراء السابقين والشيوخ والنواب ورجال الاحزاب واعضاء مجالس المديريات والمجالس المحلية وسائر الجماعات النيابية فى القطر كله ، ليقنعوا الوزارة باجماع المرشحين على مقاطعة الانتخابات حسب قانونها الجديد . فعجلت الوزارة قبل انعقاد المؤتمر باجابة طلب الاحزاب (فى ١٨ فبراير) وبلغته الى المؤتمرين ، وقالت فى بلاغها انه « توخيا لخطة الاتفاق التى سلكتها الحكومة الحاضرة فى اعمالها على الدوام وابتغاء التعجيل باجتماع البرلمان قرر مجلس الوزراء فى مساء هذا اليوم أن يعرض مشروع مرسوم على حضرة صاحب الجلالة الملك للتصديق على ايقاف العمل بقانون الانتخاب الصادر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ واجراء الانتخابات على مقتضى القانون نمرة ٤ لسنة ١٩٢٤ »

أما المؤتمر الوطنى فقد التام بمنزل محمد محمود باشا ، وجلس سعد على منصة الخطابة وعلى يمينه عدلى وعلى يساره ثروت . ثم تكلم فى الحالة العامة فلخصها تلخيصا سريعا منذ استقالت وزارته الى قبول الوزارة الزيورية قانون الانتخاب المباشر الذى يرضاه الوفديون ولا ترضاه الاحزاب الاخرى ... واشار الى أن الوزارة عجلت بقبوله لتوقع الشقاق بين الاحزاب قبل انعقاد المؤتمر ، فقال فى ختام خطابه ليقضى على رجائها هذا : « اذاعوا بأن الانتخاب على أساس ذلك القانون أريد به ايقاع الشقاق بين الاحزاب المؤتلفة لتنحل رابطتهم وتنقسم وحدتهم ، ولكنهم واهمون فى زعمهم لان الاتحاد متين بين هذه الاحزاب »

ثم دارت مناقشة طويلة فى دخول الانتخابات أو عدم دخولها اعتمادا على ان المجلس القديم قائم والحل باطل، فاتفق الحاضرون على دخولها ما عدا أربعة ، وتلى عليهم اقتراح فحواه المطالبة باقامة وزارة موثوق بها للاشراف عليها . ثم انفضت جلسة المؤتمر بعد تاليف لجنة من الاحزاب المختلفة لانفاذ القرارات وبحث المقترحات

على ان الوزارة لم تستقل ولم يصر المؤتمرون على استقالتها لعلمهم بعجزها عن مقاومة الاحزاب المؤتلفة فى المعركة الانتخابية ، واكتفوا باستعجال يوم الانتخاب فصدر المرسوم بدعوة الناخبين فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو لانتخاب أعضاء مجلس النواب ... وليس فى المرسوم موعد لانعقاد البرلمان !

وكانت الاحزاب قد تفاهمت مع الوفد المصرى على الدوائر التى يتركها لها ولا يرشح فيها أحدا من أنصاره. فلما كان يوم الانتخاب أسفرت النتيجة عن انتخاب مائة وخمسة وستين وفديا وتسعة وعشرين حرا دستوريا وخمسة من الحزب الوطنى وستة من المستقلين وخمسة من الاتحاديين الخ

على هذا وجب أن يدعى سعد باشا لتاليف الوزارة الدستورية . ولكن الوزارة الزيورية لم تستقل ، وهى لم تعلن من قبل ذلك موعد انعقاد البرلمان ... فهل قصدت اغفاله لانه كان من الجائز عندها — أو عند من أوعزوا اليها — أن يحصل الانتخاب ولا يحصل الانعقاد أو يحصل ولكن بشروط ؟

تداولت الالسن أن زيور باشا فاتح اللورد جورج لويد فى أمر الاستقالة بعد الانتخاب توا فاستمهله بضعة أيام

ريثما يتم الاتفاق على اختيار الخلف ، وتحقق أن الانجليز يريدون عدلي يكن ولا يريدون سعد زغلول فى رآسة الوزارة ، وتقابل سعد وجورج لويد فى هذه الاثناء فسأله جورج لويد : « هل ينضم عدلى الى وزارتك اذا الفتها ؟ » قال سعد : « أعتقد ذلك » . فقال جورج لويد : « ولكن الاحساس الذى عندى لا يسمح لى بهذا الاعتقاد ! »

غير أن سعدا هو زعيم الكثرة الغالبة على الرغم من تجاوزه عن بعض الدوائر فى الانتخابات ، فكيف السبيل الى منعه بمشيئة حكومة اجنبيــــــة ان يلى الوزارة الدستورية ؟

لا سبيل الى ذلك لو جرت الامور فى حدود الصراحة ، ولكن قضية الاغتيالات السياسية باقية ، ولا تزال فيها بقية صالحة للاستغلال . فلتكن هذه القضية اذن وسيلة امتناعه من تاليف الوزارة ، كما كانت قضية مثلها بالامس وسيلة اعتزاله الوزارة وهو قائم فيها

أصدرت محكمة الجنايات حكمها فى قضية الاغتيالات السياسية اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو (١٩٢٦) فقضت « بالنسبة لمحمود افندى عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله ، والدكتور أحمد ماهر ، والاستاذ محمود فهمى النقراشى ، والاستاذ حسن كامل الشيشينى ، وعبد الحليم البيلى بك ببراءتهم من التهمة التى نسبت اليهم وبالافراج عنهم فورا الا اذا كانوا محبوسين رهن قضايا أخرى »

وعلى هذا يكون اتهام الوفد بتدبير هذه الجنايات باطلا بحكم القضاء كما بطل من قبل اتهامه بتدبير مقتـــــل السردار ، لان الرجلين البارزين من رجال الوفد اللذين

كانا بين المتهمين ـ وهما الاستاذان ماهر والنقراشي ـ قد برئا من التهمة ، ولم تعد للوفد صلة بهذه القضـــايا على جميع الاعتبارات

الا أن ما يبطل بحكم العقل أو يبطل بحكم القضاء قد تشاء السياسة أن لا تبطله ، فيكون لها الحكم النافذ متى كان من ورائها الجيوش والاساطيل

فبعد أسبوع من صدور الحكم ـ أى بعد قيام مشكلة الوزارة ـ كتب مستر كرشو أحد القضاة الثلاثة الذين كانوا فى محكمة الجنايات خطابا الى وزير الحقانية استهله بقوله :

« آسف لاضطرارى الى ابلاغ معاليكم اننى ـ بعـــد مداولة مع زميلى دامت خمسة أيام ـ اجدنى لا استطيع الموافقة على الحكم الصادر فى قضية محمد فهمى على وآخرين الا فيما يتعلق بمحمد فهمي على المحكوم باعدامه، ومحمود فهمي النقراشي المحكوم ببراءته وعبد الحليم البيلى المحكوم ببراءته . فان الادلة على الاثنين الاخيرين كانت غير كافية ، أما باقى الحكم فهو لزميلى وعندى ان حكم البراءة فى تهمة محمود عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله وأحمد ماهر وحسن كامل الشيشينى يناقض وزن الادلة الى حد الاخلال بتنفيذ العدالة . وقد بلغت خطورة هذا الاخلال فى رايى وخطورة النتائج التى تنجم عنه حدا جعلنى أعتبر أن من واجبى الخروج فى هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سر المداولة وتوجهت بعد اصدار الحكم الى دار المندوب الســـامى فأطلعت فخامته على رايى باعتباره حاميا للاجانب »

ويرى من هذا الخطاب أن مستر كرشو خالف أمانة

القضاء ، وانه قاض واحد من ثلاثة قضاة ، وانه نسى انه قاض مصرى لا شأن له بدعوى المندوب السامى فى المسائل السياسية ، ومع هذا كان من رأى الحكومة البريطانية أن حكمه وحده هو الحكم الصحيح وأن ما عداه لغو لا يجوز الاستناد اليه . فكتب اللورد جورج لويد الى زيور باشا بلاغا يعلنه فيه : « بأن حكومته حسب النصيحة المقدمة اليها فى الوقت الحاضر ترفض أن تعتبر الحكم دليلا على براءة الاربعة المذكورين كائنة ما كانت الاسباب التى بناه عليها القاضيان المصريان »

وسيلة صالحة ـ سواء كانت حسنة أو غير حسنة ـ لاستغلال القضايا فى الازمات السياسية . فاذا ألف سعد الوزارة فهناك هذا البلاغ كفيل بخلق المشكلات واكراه الوزارة على الاعتزال العاجل ، لانه قد يؤدى الى قبض السلطة البريطانية على « الاربعة المذكورين » واعنات الحكومة الجديدة اعناتا لا حيلة فيه الا أن تطلق أولئك السجناء وهى لا قوة لها على اطلاقهم ، أو تستقيل

هذا اذا ألف سعد الوزارة . أما اذا ألفها غيره فلا ضرورة لاتخاذ عمل من الاعمال ولا خطر من الاخلال بتنفيذ العدالة وتبرئة الجناة !

وهكذا كان . فان سعدا تنحى عن الوزارة وعدلى يكن ألفها ، فلم يسمع أحد بعد ذلك بخبر ذلك البلاغ ، أو الانذار ، ونفعت قضايا الاغتيال سياسة الاستعمار نفعها السريع فى اقصاء سعد زغلول عن الحكومة

والواقع أن سعدا لم يكن يأبى أن يتولى عدلى تأليف الوزارة ، وانه صرح بذلك لبعض أصحابه قبل الانتخابات وبعد الانتخابات ، ولكنه بعد الانباء التى نشرتها الصحف

الانجليزية وصحف القصر فى مصر بأنه مرغم على ذلك وانه لن يتولى الوزارة ابد الابدين لان حزبه منهم فى مقتل السردار وغيره من الانجليز ، أحب ان يكشف الرياء حول هذه المسألة كلها ، ولا سيما وقد صدر الحكم ببراءة الاستاذين ماهر والنقراشى من كل تهمة . فاذا شاء الانجليز ان يقصوه عن الحكم فليظهروا بعد ذلك بالسبب الصحيح من مقاصدهم السياسية المكشوفة ، لا بما يتعللون به من التعلات

فلما حدثت الازمة وانكشفت الحيلة كلها تنحى عن الوزارة ورجع الى الرأى الذى ارتضاه أولا وصارح به اصحابه وهو اسناد الوزارة الى عدلى باشا واختيار اعضائها من النواب والشيوخ المؤتلفين

والراى عندنا فى موقف سعد من تاليف الوزارة فى هذه المرحلة أن ولايته الوزارة لم تكن ضرورة لازمة ولم يكن فيها كذلك ضرر محذور على المصالح الوطنية لولا تلك الازمة التى خلقها اللورد جورج لويد فى آخر لحظة ، وعلى هذا لا ملامة عليه فى طلبها ولا فى التنحى عنها

أما تاليف الوزارة العدلية الجديدة فكان على النحو الاتى :

عدلى يكن باشا للرآسة والداخلية ، وعبد الخالق ثروت باشا للخارجية ، ومحمد فتح الله بركات باشا للزراعة ، ومحمد الغرابلى باشا للاوقاف ، وأحمد محمد خشبة بك للحربية والبحرية ، ومحمد محمود باشا للمواصلات ، وأحمد زكي أبو السعود باشا للحقانية ، ومرقس حنا باشا للمالية ، وعلى الشمسى افندى للمعارف العمومية ، وعثمان محرم باشا للاشغال العمومية

ومن تآليفها على هذا النحو يبدو لنا مقدار التساهل الذى ارتضاه سعد لرعاية الائتلاف . اذ لم يكن فى هذه الوزارة أكثر من خمسة وزراء على اتصال صحيح بالوفد، والباقون كلهم من غير الوفديين . ولم يعهد بوزارة هامة الى أحد من وزراء حزب الكثرة ، وهم أكثر من ثلاثة ارباع النواب

وقد وصف سعد هذه الوزارة بانها وزارة «اندماج» Amalganation لا وزارة ائتلاف Coalition كما شاع اسمها فى الصحف واروقة البرلمان ، فدل بذلك على نظره البعيد وتفريقه الدقيق بين الاوضاع البرلمانية ، فان وزارة الائتلاف قد أقيلت اقالة بعد بضعة عشر شهرا لخروج حزب القلة منها ، وليس خروج القلة بالعذر الصالح لاقالة الوزارة لو كانت وزارة اندماج فى حزب الكثرة النيابية

رايته سعدا فى أوقات كثيرة منذ قيامه بالدعوة الوطنية، فما أعرف وقتا تسرب فيه السأم والتعب الى بنيته والى نفسه كما كان يتسرب احيانا خلال الفترة من مقتل السردار

كانت هذه الفترة أقل أوقاته حركة ولهذا كانت أكثرها سأما وتعبا ، وكان قصارى ما اهتدى اليه خصومه من محاربته أن يحاصروه فى بيت الامة بالجند والسلاح ويمنعوا وفود الناس اليه ، فكان يراقب الحالة على بعد ولا يملك النهوض لها بجهد من جهوده ... وكان يؤلمه فى الوقت نفسه ان يستطيع الموظفون الاداريون كل ما اجترحوه من ارهاق الناس واستفزازهم دون أن ينالهم جزاؤهم الذى يستحقونه ... وفى أكثر الايام كان يسأل:

« ما الذى يوغر صدور هؤلاء الموظفين على الامة ؟ وما الذى يبغضهم فى أيام الوزارة الشعبية ؟ » وقد قلت له يوما انهم تعودوا ان يكونوا طوال حياتهم مأمورين وآمرين. ووزارة الشعب فرضت لهم حرية وفرضت للناس حرية فلا هم مأمورون ولا هم آمرون . ولو عرفوا أنها دائمة لخافوها وعلقوا رجاءهم برضائها . ولكنهم لا يحسبونها تدوم ... قال لا يبعد ان يكون كذلك . فقد كنا نعامل هؤلاء الموظفين معاملة الشركاء فى الحكومة ولا نعاملهم معاملة الالات ، وكنا ننتظر منهم غيرة وطنية ولا ننتظر منهم طاعة عمياء . فوجدوا منا غير ماتعوده

وذات ليلة كان يسأل : « ما الذى يبعث القوة فى الشعب ؟ » وكنا ثلاثة على مائدته : محاميا معروفا والاستاذ عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور . فقال المحامى وظن انه يرضيه بما قال :

ـ يا باشا كلمة منك تبعث فيه القوة ... كلمة مثك تبث فيه الحياة الفنية ... واسترسل فى مثل هذا الكلام

فنظر اليه سعد هنيهة ثم قال : « ما هذا ؟ أتريد أن تخطب ؟ اتريد أن تتحمس ؟ طيب : تفضل اخطب وتحمس . وانتظر من يسمع ! »

وكانت نفسه برمة جدا بمن يعبثون بهذا الموضوع لانه كان مهموما به لا يطيق الهزل فيه . بل كثيرا ما سمعته يتضجر فى تلك الايام من حب النكتة فى الطبيعة المصرية ويقول : « لولا أن المصريين يضحكون من زيور وغرائبه لما احتملوه هذا الزمن الطويل ! »

وفى أوائل هذه الفترة زرته بفندق « مينا هوس »

وكان يأوي اليه أحيانا أيام الشتاء . فرأيته كثير التفكير كما يكون حين يلتبس عليه وجه العمل وطريق الحركة ، وسألنى وهو ينظر الى الصحف على مقربة منه : « ماذا يقولون ؟ »

قلت : « وماذا غير قولتهم المعهودة ! ان سعدا ترك الميدان واستقال ! »

قال : « لو بقيت فى الحكم لقالوا انه يخرب البلد تشبثا بالمنصب ... هؤلاء لا يعتد لهم بكلام ! »

ثم نشط كعادته حين ينبعث الكلام فى موضوع نضال بينه وبين خصومه ومضى يقول : « وهذه الصحف الانجليزية ما بالها تمسي وتصبح وهى تلغط بزغلول ؟... ان زغلولا يدبر ... ان زغلولا يتربص .. زغلول . زغلول . نعم يا هؤلاء انكم لن تستريحوا من زغلول ! »

وهكذا كان فى هذه الفترة ، يسأم ويتعب ويخيل الى من رآه انه يهم بأن ينفض يديه ، ثم يتحداه متحد فاذا هو واقف على قدميه لا يسره أن يستريح منه الخصوم

رئاسة مجلس النواب

كانت رئاسة مظلوم باشا لمجلس النواب الاول مشهورة بضرب الجرس لحفظ النظام . بحيث يصح أن يقال ان الجلسات ـ ما لم يحضرها رئيس الوزارة أو تحتدم فيها المناقشة لامر يشغل النواب ـ كانت مقسومة بين لغط الرئيس بدق الجرس ولغط النواب بالكلام

واذكر ان زميلنا الاستاذ محمود عزمى حرمه مجلس النواب تذكرته التى يحضر بها المجلس لما كان يكتبه عنه من القوارص والغمزات . فانتقل الى مجلس الشيوخ واستمر على نشر أخبار مجلس النواب وهو يزعم أنه يتلقى تلك الاخبار من طريق المكاشفة والتنويم ! فلقيته يوما بمجلس الشيوخ وسألته أن يرينا معجزة من معجزاته على سبيل الداعبة ... فيذكر لنا ما يجرى الساعة فى المجلس الاخر ، فهام بنظره قليلا كانما كان يستطلع الغيب وقال : مظلوم باشا يدق الجرس ...! قلنا جميعا : آمنا لك بالمكاشفة .. ما فى ذلك جدال !

ففى عهد رئاسة سعد للمجلس بطل دق الجرس أو كاد . ولاحظ المختلفون الى المجلس فى العهدين ان الجرس قد أصبح من الادوات النيابية الملغاة . وكان الاجانب والمصريون على السواء يقولون : ليس هنا مجلس ورئيس ، ولكنه معلم محبوب بين تلاميذ مطيعين

ولم يكن سعد يستعين فى حفظ النظام بنصوص القانون

ولا يحق الرئاسة فى منع الكلام وفض المناقشات . انما كان يستعين بسلطان هو اشد رهبة من جميع النصوص والحقوق وهو سلطان العارضة القوية والفكاهة الحاضرة، فكان العضو من الاعضاء يقول قولا سديدا أو يصمت . لانه يخشى اذا اطلق لسانه بغير السداد أن يستهدف على الاثر لجواب مفحم أو نكتة لاذاعة من منصة الرئاسة

حدث لما ذهب ثروت باشا الى لندن لمصاحبة جلالة الملك والتماس الفرصة الملائمة لفتح باب المفاوضة فى القضية المصرية ، أن عضوا من الاعضاء الذين يخالفون مبدأ المفاوضة من أساسه وجه استجوابا الى نائب رئيس الوزارة يستوضح فيه موقف ثروت باشا فى لندن ويحرج الوزارة احراجا لا تملك الجواب فيه ، لان المفاوضة لم تكن هى الغرض الرسمى لسفر ثروت باشا ، وانما كانت بغية متفقا عليها بين ولاة الامر يرجى أن تتاح لها الفرصة الملائمة بعد جس النبض واستطلاع الاحوال . فاذا قالت الوزارة ـ ردا على الاستجواب ـ انها ستفاوض أو انها لا تفاوض فليس فى ذلك تسهيل لما كانت تنويه

والح كثير من الاعضاء على صاحب الاستجواب أن يلغى استجوابه فلم يفعل ولم يستمع وجنح الى الاحراج والعناد . وأشار الوزراء بالمطاولة والمراوغة فى عرض الاستجواب فابى عليهم سعد أن يخالف نظام المجلس ، وقال لهم : بل يعرض الاستجواب ، ونعالجه بما يستحقه الاحراج والعناد

وجاء الموعد المحدد وتلى الاستجواب ، وانتظر العضو المحترم جواب الوزارة وهو موقن بانه قد وضعها فى الفخ الذى لا خلاص منه بغير احباط المفاوضات . ولكنه لم يكد

يتهيأ لسماع الجواب المأمول حتى فاجاه وزير الحربية ـ باتفاق سابق مع سعد ـ قائلا : « ان هذا الاستجواب موجه الى شخص غير موجود »

وقال سعد : « ما قول حضرة العضو المحترم فى ذلك ؟ فى الواقع انه لا نائب لجلالة الملك ولا لرئيس مجلس الوزراء ! » فساله صاحب الاستجواب : « ايؤخذ من ذلك ان الحكومة لا تريد أن تجيب ؟ » فقال سعد : « ليست المسالة مسالة ارادة او عدم ارادة ، وانى الفت حضرة العضو فضلا عما ذكرته الى ان الاستجواب يحتاج الى ثمانية ايام حتى لو كان مستوفيا جميع الشروط ، والدورة البرلمانية على وشك الانتهاء . فهل لا يرى العضو المحترم ان تأجيله أولى » ؟

اما سر الغلطة فى شكل الاستجواب فهو كما رأى القارىء انه كان موجها الى « نائب رئيس الوزراء » ولم يصدر عند سفر ثروت باشا أمر رسمى بانابة أحد عنه فى رئاسة الوزارة اكتفاء بأن يؤدى عمله فى وزارة الداخلية أقدم الوزراء الموجودين عهدا بالمناصب الوزارية

قال صاحبنا : « كيف ؟ أليس هنا فلان باشا ؟ »

فقال سعد : « نعم . ولكنه ليس بنائب رئيس الوزراء ! »

فتردد صاحبنا وصاح مذهولا : « اذن من نسأل ؟ »

قال سعد : « اسأل محاميا ! »

وقعد الرجل بين القهقهة والضجيج ، وتأجل الاستجواب الى موعد غير مسمى بموافقة العضو المحترم !

وتناقش المجلس فى قانون خلط الاقطان . وفيه عقوبة

مفروضة على من يخلطون صنفا منها بصنف . فنهض أحد الاعضاء وقال :

« ولكن الا يتفق ان يسهو أحد فيحصل الخلط على غير قصد منه ؟ »

فضحك سعد ضحكته المعروفة وقال : « نعم ياحضرة العضو المحترم .. يتفق ! ولكن اتقدر حضرتك أن تقول لنا : كم كيسا من القطن تملؤه وانت ساه عن نفسك ؟! »

وطلب بعض الاعضاء انارة طريق مقفل وعزز طلبه بأن القتيل يقتل هناك فى وضح النهار

فعاجله سعد سائلا : « ولماذا تطلب أن ينار ؟! »

وبهذه الاجوبة الحاسمة وهذه الفكاهة السريعة ، كان يحفظ النظام فى المجلس ويحفظ الالسنة فى الافواه

واستطاع من ثم أن يقف فى ميدان الفصل بين جميع السلطات وجميع الهيئات ، فيفصل بين الاعضاء من انصاره ومعارضيه ، ويفصل بين المجلس والوزارة ، ويفصل بين الوزارة والانجليز ، ويمشى بالوئام بين القصر والنواب والوزراء ، ويأخذ من كل لكل حسبما تتجه الحوادث ، وتتبدل الاحوال

ومن أخطر الازمات التى وقعت فى اثناء رئاسته لمجلس النواب وعالجها بما له من النفوذ والحنكة ازمة الوزارة العدلية ، وازمة ميزانية الازهر ، والمخصصات الملكية ، وازمة الجيش التى أثارها اللورد جورج لويد عقب الحملة التى حملها عليه مجلس النواب

فاما ازمة الوزارة العدليـة فقد نجمت من اقتراح اقترحه بعض النواب لشكر الوزارة على مساعدتها بنك مصر ، ثم قيل فى الرد على هذا الاقتراح ان الشكر غير

لازم لانه من قبيل تحصيل الحاصل .. فاغتنم عدلى باشا هذه المناسبة واستقال لانه كان على ضجر وامتعاض من مطالب اللورد جورج لويد التى لا تجرى على قانون ولا اتفاق

وبذل سعد باشا زغلول جهده فى اقامة وزارة أخرى ـ هى الوزارة الثروتية ـ قبل أن يتسع الافق للدسائس والمناورات التى لاتنقطع فى السياسة المصرية

والذى نعتقده نحن أن ازمة الوزارة العدلية وافقت رضى من سعد فى تلك الاونة لانه لم يستحسن من عدلى تهديده بالاستقالة اذا تعرض المجلس لتصرفه فى مسالة كتاب « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين ولم يكل اليه الراى كله فى هذا التصرف . وقد كان على الشمسى باشا وزير المعارف من قبل الوفد وكان رايه كراى عدلى باشا فى هذه المسالة على خلاف المظنون والمقدور ، فكان نصيبه أيضا من المجلس تجريح قوانينه التى عرضها لتعديل برامج الدراسة وافهامه من ثم ان اضطرار وزير الى الاستقالة امر غير عسير ، ولو دخل فى حماية رئيس الوزراء وحسب له حسابا قبل حسابه لزعيمه

وسلك سعد فى مسالة ميزانية الازهر ومسالة المخصصات الملكية مسلك المجاملة للقصر مع المحافظة على نص الدستور . فقد كان كثير من النواب يلحون فى وجوب عرض الميزانية الازهرية على المجلس ، وكان المجلس يكاد أن يتخذ قرارا بتأييد هذا الطلب . فذكر لهم سعد أن الدستور ينص على أن المعاهد الدينية تنظم بقانون . فالاقتراح سابق لاوانه قبل وضع ذلك القانون

وفى مسالة المخصصات الملكية ، كان بعض الاعضاء

ينسى الدستور ويطالب الحكومة بنقصها فى الميزانية وهو ما لا يجوز لانه مخالف للمادة المائة والحادية والستين من الدستور ، فكان سعد يسمح للاعضاء بالمناقشة فى هذه المسألة ويمنع الشطط فيها ، ويكتفى بتوجيه المجلس الى التماس تعديل المخصصات من جلالة الملك رعاية للاقتصاد . ويصبغ احترام النصوص التى لا محيص عنها بصبغة المجاملة على هذا المنوال

اما ازمة الجيش فهى اعجب الازمات وادلها على العنت الذى يلقاه الساسة المصريون من الاعيب السياسة البريطانية حيث تعمد الى خلق الازمات . فكل ما حدث من أسباب هذه الازمة ان لجنة الحربية فى مجلس النواب اقترحت زيادة عدد الجيش وتحسين سلاحه ، وهو اقتراح قديم عرضه سبنكس باشا نفسه فى عطلة الدستور وليس فيه خروج على حدود النيابة ولا سوابق الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية

الا ان المندوب السامى كان موتورا من المجلس ومن الشعب لانهم استنكروا منه ان يباشر عمله دون أن يقدم اوراقه كسائر السفراء والوزراء المفوضين ، كما استنكروا رحلاته الى الاقاليم واستقباله الاعيان والوجهاء كانه ملك يستقبل رعاياه . وليس للمجلس بد من هذا الاستنكار ، لان سكوته عنه أمر غير مفهوم الا على معنى الاقرار والتفريط فى امانته الوطنية وامانته الدستورية ، ولكن اللورد جورج لويد لا يعرف عذرا لاحد فى معارضة أهوائه وبدواته ، ولا يرى للمصريين ـ حكومة ونوابا وشعبا ومتطرفين ومعتدلين ـ الا ان يذعنوا لتلك الاهواء والبدوات .... فكظمها فى صدره حتى سنحت مناسبة

كأنها لا مناسبة على الاطلاق ... وراح يمطر الحكومة المصرية باحتجاجاته الشفوية والكتابية ، ويطلب منهـا ما لا طاقة لحكومة فى الدنيا بقبوله ، وهو مد خـدمة سبنكس باشا ثلاث سـنوات ومنحه رتبة الفريق ، وتخويله السيطرة على الضباط فى الترقية والتعيين ، واتصاله المباشر بجلالة الملك ، وتعيين وكيل له ووكيل للوكيل من الانجليز ! وغير ذلك من المطالب التى أقلقت الحكومة والمجلس واضاعت عليهما الوقت فى غير طائل .. فان خضعت الحكومة لهذا ، والا فالبوارج البريطانية على شاطىء الاسكندرية ، وأرواح الاجانب فى خطر داهم ! وان قالوا هم ونادى بعض سفرائهم بأنهم فى أمان يعيشون بين المصريين معيشة الاخوان !..

وقام وزير الخارجيـة البريطانية السـير أوستن شامبرلن بمجلس النواب البريطانى فقال فى بيان أسباب الازمة : « ان أنظار فريق من رجال السياسة فى مصر اتجهت الى الجيش منذ زمن وهم يرمون « أولا » الى زيادة الجيش الحالى ، و « ثانيا » الى اتخاذه سـلاحا فى يد حزب سياسى . ولا ريب أن هـذه المساعى من المسائل التى تهم الحكومة البريطانية مباشرة ، لان الدفاع عن القناة من المصالح الجوهرية ، وحماية الاجانب من العهود التى قطعناها على أنفسنا »

الى أن قال : « والحكومة البريطانية على استعداد للشروع توا فى فتح باب المفاوضات للوصول الى هـذه الغاية ــ وهى الاتفاق على المسائل المختلف عليها ، ولكن علينا الى أن يتم ذلك الاتفاق أن نصر على بقاء الضمانات التى دلت الخبرة الماضية على أنها فعالة ! » . نعم ...

وعلى المصريين طبعا ان يفهموا انه لا سلامة من هـذه الازمات حتى يساقوا سوقا الى المفاوضات !

وبعد محال وجدال استقر الراى على اجابة بعض المطالب ، وهى ترقية سبنكس باشا ومد خدمته وتعيين وكيل له . وانتهت ازمة من تلك الازمات التى تخلق من الهباء ويضاع فيها الوقت على ساسة المصريين ثم لا يسلمون بعدها من اللوم والاتهام بالتقصير فى أعمال الانشاء والاصلاح ! ! وقد بذل سعد من الجهد فى تهدئة النواب والجمهور ما ليس يقدر على بذله سواه ، وكان موضع الملاحظة عليه من بعض انصاره — ومنهم كاتب هذه السطور — انه يشترى الدستور باغلى من ثمنه ويطيل المسالة حيث لا يرجى ان تقابل بمثلها او يكف من العدوان

وكنت فى امثال هذه المناسبات اقول واكتب مؤكدا لهذا المعنى كما قلت فى اواخر مايو سنة ١٩٢٦ من مقال فى صحيفة البلاغ :

« ويلوحون لنا بعهد كرومر والغاء الدستور وما عهد كرومر بشر من دستور كهذا لا ينال المصريون منه الا التبعات الجسام ، ولا يجنون منه الا الاباطيل والاوهام . فاما ان نسلم للانجليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه ، واما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان . ثم ماذا ناخذ نحن من هذا الدستور الذى يسوموننا فيه هذا السوم الجفشوم؟ لا شيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعا بالفرقة والانقسام »

وانما ذكرت هذه الملاحظات لاذكر رد سعد عليها

وحجته فى ردها ، فقد كنت اذا حدثته فيما يلاحظ من فرط الحرص على الدستور امام التهديد والوعيد يقول لى : « ليذهب الدستور حيث يذهب ... هذا حسن . ولكن يجب أن نذكر أن الانجليز قادرون على تضييع جهودنا كلها فى طلب الدستور ، وانهم لولا رغبتهم فيه لضاع علينا ما سلف من جهود . يا فلان ! ان فى صلب الدستور كلمات لا تزال مكتوبة بخط موظف انجليزى فى دار المندوب »

وحجته فى موقفه من ازمة الجيش خاصة ، أن تضييع الدستور من اجلها عجلة لا تقضى بها الضرورة . ومتى كان القوم يشيرون الى المفاوضة بلسان وزيرهم فلا ضرر من ارجاء الخلاف كله بضعة اشهر الى ان نتفق على قرار أو يذهب الدستور الى حيث يذهب كما تقول

وعلى ضيق الوقت وغلبة الشواغل السياسية والازمات المصطنعة ، قد اتسع المال لأعمال شتى ومقترحات صالحة ، كالغاء السخرة وتعميم التعاون بين الفلاحين وفتح الطرق ودرس مشكلة العمال ، وما الى ذلك من مطالب الاصلاح الاجتماعية

غير اننا لا نريد هنا أن نسرد سجلا للاعمال والمقترحات التى أشرف عليها سعد فى أثناء رئاسته لمجلس النواب ، فان هذه الاعمال والمقترحات قد يشرف عليها كثيرون من رؤساء المجالس النيابية ثم لا يمتازون بقدرة غير معهودة فى الرؤساء عامة . الا أن الغاية التى ما بعدها غاية فى هذه الصناعة أن يستوى المرء فيها على مستوى الواجب كما يتخيله المتخيل ويصبو اليه المتامل .

والمثل الاعلى فى الرئاسة هو الرئيس الذى يملك القدرة

على القصد فى أوقات المجلس والقصد فى جهوده ، ويملك القدرة على حفظ نظامه بغير حاجة الى زواجره وقوانينه، ويملك القدرة على تعليم أعضائه وهدايتهم الى أكبر ما يستطيعون من صواب وأقل ما يتعرضون له من خطأ

ويكون مع صيانته لحقوق مجلسه قائما بالقسط بينه وبين جوانب الحكومة الاخرى ، مانعا للصدام بينه وبين ما يحيط به من القوى والعراقيل ، فبهذه القدرة استحقت رئاسة سعد أن تحسب مزية من مزاياه وصفحة من صفحاته ، لا أن يكون مبلغها من الذكر استقصاء جزء من تاريخه والالمام بعام أو عامين من حياته

زعامة سعد وأثرها

يقول لنا علماء التوحيد أن المعجزة الكبرى لنبى من الانبياء هى المعجزة التى تطابق خلائق الامة المبعوث فيها . فموسى بعث بالعصا الساحرة فى أمة السحر والكهانة ، وعيسى بعث بآية الشفاء فى أمة المصابين والضعفاء ، ومحمد بعث بالقرآن فى أمة الفصاحة والبيان ، فلكل منهم معجزة تطابق احوال قومه وتستمد الاقناع من معدنه واصله

فما اصدق ما يقول العلماء فيما رأيناه فى عصرنا من سير الزعماء ! فغاندى كان خير زعيم على اهل الهند لانه ناسك من أمة النساك ، ومصطفى كمال باشا كان خير زعيم بين الترك لانه جندى من أمة الجنود ، وسعد كان خير زعيم فى مصر لانه فلاح من أمة الفلاحين . وحسبك أن تعمد الى نموذج الفلاح المصرى فتضاعف ما فيه من خلائقه وعاداته وخصائص بيئته لترى امامك سعدا ماثلا فى عظمته المصرية ، قائما على مرتقى المثل الاعلى لتلك الخصائص القومية ، وليست آية أفصح من هذه الاية على صدق النهضة السعدية وجريانها مع طبائع الامور

وقد اجتمعت لسعد من مزاياه الشخصية ومن توفيقات العصر فى حياته صفة الزعامة الواجبة على المصريين ، أو الزعامة الملائمة لأطوار النهضة الاخيرة فى هذه الامة

فهو لانه كان فلاحا من أصحاب المراتب العالية ، قد

استطاع ان يجمع حوله السواد والعلية من أبناء الفلاحين، وهم قوام الأمة المصرية

ولانه كان صديقا لقاسم امين على رايه فى تهذيب المرأة قد استطاع ان يقود النهضة الاولى التى اشترك فيها الرجال والنساء وشملت الامة كلها لانها شملت البيت كله

ولانه كان يطلب الاستقلال من الترك كما يطلبه من الانجليز قد استطاع ان يمحو الفوارق الدينية والعصبية المذهبية فى الحركة الوطنية ، لان المسيحيين والاسرائيليين قد علموا أنهم شركاء فى دعوة واحدة ، وليسوا مسوقين مع حركة دينية يطلب دعاتها سيادة الترك لانهم مسلمون، وانما الحق أن يطلبوا السيادة المستقلة لانهم مصريون

ولانه كان حاضر الفتوة ، وافر الحماسة فى الشباب والكهولة والشيخوخة ، قد استطاع أن يقود الشبان المتلهبين كما يقود الشيوخ المحنكين ، أو استطاع أن يجمع الجيلين فى ثورة واحدة ، وقلما يجتمعان

قالت صحيفة التيمس وهى ترثيه : « مما عهد فى الزعماء الشرقيين انهم يعتزلون العمل قبل زملائهم الغربيين . الا زغلولا ، فانه احتفظ بنشاطه الغزير الى النهاية ، وليس بين الثائرين المتطرفين فى التاريخ الا عدد قليل بقيت له عقيدته السياسية على شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عندما ناهز الستين ، وكأنما كان تقدمه فى السن يزيد من حماسة الشباب ونزواته ! على ان مفاجآت طبيعته واطوار حياته وتقلبه فى تحصيل العلم بين الفقهاء العرب والاساتذة الفرنسيين ، ومضاء عزيمته وفصاحته وما كان من الاثر على تربية ذهنه لاناس بينهم من الاختلاف مثل ما بين جمال الدين داعية الجامعة

الاسلامية واللورد كرومر ـ كل هذا لا يكفى لتفسير قبضته الغريبة على شعب كثير التحول . فان وراء كل هذا ، وفوق كل هذه العوامل المؤهلة للنجاح قدرة خاصة قيضت له ذلك النفوذ على ابناء وطنه ، ومغناطيسية شخصية تجذب اليه الالوف من التابعين »

وقد ادى البحث فى أصل سعد الى اختلاف الاقاويل بين قائل يزعم انه من البدو وقائل يزعم أنه من المغاربة وقائل يزعم انه ليس من هؤلاء ولا هؤلاء ، ولكنه يشبه الترك فى بعض الملامح والاخلاق ، فليختلفوا ما شاءوا وليعزز كل منهم أقاويله بما شاء ، فان الحقيقة التى لا تقبل الجدل الكثير أن صفات سعد التى لا شك فيها هى أصلح الصفات لزعامة المصريين . وان مزاياه الشخصية ، وتوفيقات زمانه السياسية والاجتماعية قد جعلته الزعيم المصرى الذى ليس بين معاصريه احد اجدر منه وأولى بالزعامة ، وذلك وحده كفيل بتقرير مكانه كما قرره لنفسه وقررته الاحداث والتوفيقات

فهو فى طبيعته العملية ، وفصاحته المقنعة ، وفكاهته المرتجلة ، وعزيمته الماضية ، وسماته المهيبة ، ومنزلته الرفيعة ، خير من ترشحه مصر لزعامتها من صميم تكوينها ، وانه لأصل فى زعامة الشعوب ليس بعده رسوخ ولا عمق فى الاصول

كان ساحرا للفلاح الساذج وابن البلد الظريف : سمعه فلاح من قنا فى الاحتفال بعيد النيروز فبكى . ثم افاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود أن يبكى الا لحادث يصيبه فى آله او ماله ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله : ما بالى أبكى ؟ أمات أبى ؟ أماتت أمى ؟ أغرقت مراكبى ؟ اجدب زرعى ؟ وما لهذا الرجل يبكينى ؟ أساحر هو ؟

افائن هو ؟ والله لا ادرى !! ولكن الفلاح الساذج الحائر فى بكائه قد بين لنا أوجز البيان ان سلطان سعد على النفوس المصرية حادث كحوادث القضاء والقدر أو هو من قبيل الحوادث التى تحرك تلك النفوس وتهزها فى اعماقها ، أو هو من قبيل تلك العوامل التى ظن الفلاح الساذج انها هى وحدها خليقة ان تسيل الدموع من عينيه

وسمعه مصرى من أبناء البلد يخطب فى نادى «سيروس» ويضحك ضحكته العالية من خصومه . فما تمالك أن صاح : « ياسلام ياباشا ! ضحكتك حلوة . حلوة جدا . الله ! الله ! » . فما ترك سعد هذا التعقيب « البلدى » على ضحكته الساخرة او الساحرة دون أن يشفعه بتعقيب من جنسه ، وهتف بالحاضرين فى طلب السكوت كما يناسب المقام : « سمع . سمع . هس ! »

فمواقف الخطابة او مواقف الزعامة لم تكن عند هذا الزعيم الا تيارا جارفا ينبعث من قرارة وجدانه ، فيحتوى الحاضرين فى غمراته ويردهم الى عنصرهم الاصيل فيشعرون على البديهة انهم وهذا الزعيم من موطن واحد فى الشعور وموطن واحد فى الارادة ، وموطن واحد فى الجد والفكاهة ، غير انه يقدر من حيث لا يقدرون ، أو يقدر وهم من ورائه تابعون

والزعامة اذا بلغت هذا المبلغ من الاصالة كانت قوة مطبوعة ــ بل فرصة الهية ــ لا تفرط فيها امة رشيدة ، ولا تقدر على التفريط فيها امة ولو كان ديدنها التفريط . لان الامر فى هذه الزعامات من وراء المشيئة والتدبير

وقد يكون فى الامة عشرات أو مئات يقاربون ذلك

الزعيم فى جملة الصفات او يفوقونه فى بعض الصفات ، لكنهم لا يغنون عنه ولا يعوضونه وهو واحد وهم عشرات او مئات ، لان الفضل فى الزعامة للدرجة والنوع لا للعدد والكثرة ، والشأن هنا كالشأن فى درجات الجمال . لو اجتمع الف وجه على أعتدال فى المحاسن لما بلغت كلها من الاثر والفتنة ما يبلغه الوجه الواحد الفائق فى حسنه ، ولا لوم على القلوب اذا هى آثرت أن تفتتن بذلك الوجه الواحد اضعاف ما تفتنها تلك الوجوه الشتى ، لان الطبيعة لا تحس الا هكذا ولا يحسن بها ولا ينفعها أن تنحرف عن سوائها ، وكل احساس مطبوع فهو قوة مطبوعة نافعة فى ايقاظ قوى الافراد وقوى الشعوب ، ومتى كان سبب التأثير طبيعيا فالتأثير لا جرم طبيعى لا اصطناع فيه ، وانما الافة الكبرى أن تكون الزعامة من توليد الاصطناع والمواربة والتمويه والتواطؤ على الغش والمغالطة والانتفاع ، فانها تكون حينئذ كالصحة التى تصنعها المخدرات ليست من الصحة وليست من الشفاء، ولكنها من السقام

لما نهض سعد بالدعوة الوطنية ، لم تكن مصر خالية بطبيعة الحال من أولئك « المحكمين » الازليين او أولئك المتحذلقين احلاس القهوات الذين يخطئون كل عمل ويخطئون كل رجل ويخطئون كل راى ، ولا يحسبون الامور فى الدنيا تجرى ابدا الا على خلاف ما يحكمون ويستحسنون .. ثم لا يعرفون بعد ذلك انهم هم المخطئون

كان هؤلاء المحكمون الازليون يرون كل انسان فى مصر صالحا للزعامة الا الزعيم القائم بها فى حينها . لان اصول الصناعة تقضى بذلك ، والا لم تكن هناك صناعة ولم تكن

هناك قهوات ... ولم يكن هناك محكمون

أفما كان زيد أولى بحل القضية المصرية لانه مقرب من الانجليز ؟ أفما كان فلان أولى منهم جميعا لانه خليفة فلان . ولعلهم لو طولبوا بالاتفاق فيما بينهم لما انتهوا الى اتفاق ، لان الثرثرة لم تكن قط وسيلة الاتفاق . وانما كانت وتكون ابدا وسيلة المحال والشقاق

وأوجز ما يوصف به هؤلاء ـ على أحسن الظنون بهم ـ انهم كسماسرة الزواج : كل خطيب عندهم غير أهل لخطيبته وكل خطيبة عندهم غير أهل لخطيبها . الا ان يكون لهم نصيب في الوساطة والمهر والوليمة . وعندئذ يكون كل خطيب وخطيبة في الدنيا على مايرام

واذا حاورتهم باصطلاح سماسرة الزواج فليس بالنادر ان يصيبوا من حيث يخطىء الازواج والاصهار . فهذا الفتى الممقوت خير من جميع الفتيان لانه يملك المستقبل وينتظر الميراث ، وهذه الفتاة الدميمة السقيمة خير من جميع الفتيات لانها تدخل الى بيت قرينها والوظيفة معها بجاه أبيها أو ذويها ، وهذا الشيخ خير من جميع الشبان لانه غدا يموت ، وهذه المرأة النصف لا تضارع في بيت القرين لانها تفنيه ولا تحاسبه على ما يبقيه ويفنيه : نصائح نافعة من حيث ينظر السمسار واشباه السمسار ، ولكن النصائح التي هي أنفع منها واغلى هي النصائح التي يستمع اليها الناشىء الصغير بالهامه والناشئة الصغيرة بالهامها ، لانها هي النصائح التي توحي بها الفطرة الخالدة وتنوط بها بقاء الحياة وتقدم الاحياء

وهذا الالهام هو الذى استمعت اليه الأمة المصرية ولم تستمع الي حكمة السماسرة وأحلاس القهوات ، فما كانت تلبية سعد الى ندائه سبيلا الى المنافع او سبيلا

الى الوظائف او سبيلاً الى الراحة والاطمئنان ، ولكنها كانت على نقيض ذلك مضيعة للمنفعة والوظيفة ، مجلبة للمحنة والبلاء . فطاعتها هي من قبيل الطاعة التي يلهمها الناشيء والناشئة لصوت الفطرة ودعاء السريرة . يخطيء من يسمعها في بعض الاحايين من الوجهـــة الدنيوية ، ويخطيء الف مرة من يصم عنها اذنيه من وجهة الحيـاة الباقية والحكمة الخالدة ، وان كان خطأه لا يظهر له ولا للآخرين . لان الذي يفقد الكمال لا يشعر بفقد الكمال ، او لا يعترف بخسارته كما يعترف فاقد الخبز والحطام

واذا ظفرت الامة بالزعيم الذي تكون طاعته من قبيل هذا الالهام فتلك هي الزعامة التي تنتظرها الاجيال بعد الاجيال ، وتلك هي الفرصة التي يخشى عليها الضياع . لان الزعامة التي تكون طاعتها من قبيل الاهتداء بحكمة السماسرة واحلاس القهوات هي فرصة لن تضيع ، اذ هي فرصة موجودة كوجود المنافع وعلم الحساب في كل مكان

هذا الالهام الفطري هو الاثر الاكبر لزعامة ســـعد زغلول ، وهو شيء لا يدخل في الاحصاء والارقام ، ولكنه مع هذا شيء لا غنى عنه لكل منفعة او مصلحة يدركهـا الاحصاء وتحصرها الارقام

والزعيم لا يحاسب في التاريخ بحساب الدفتر الذي يحمله الاجير فلا يعطى فيه درهما الا بما يقابله من عمل في ساعات النهار ، ان الرجل الذي لا تظهر مآثره الا بهذا الحساب لهو انقص الناس في صـــفات الزعامة وقيادة الشعوب ، لانه اذن يعمـــل بيديه كما يعمل الاخرون ويتلقى جزاءه كما يتلقاه سائر الناس ويحاسب بمفرده بما يدعو الناس اليه ، وانما يحاسب الزعيم حســاب

الشمس التي تشرق على الحقول ، أو حساب النهر الذي يجرى بين الاعشاب والاشجار . لا يضرب كلاهما فأسا ولا يفرس جذرا ولا يخط سطرا بهندسة ولا يبنى جدارا على حوض أو خزان ، ولكن الضاربين بالفؤس جميعا والفارسين للجذور جميعا والعاملين في الهندسة والبناء جميعا لا ينبتون سنبلة واحدة بغير الشمس والماء

فاذا استطاع هذا الزعيم ان يبث هذا الروح أو يوقظه او يجمعه حواليه ، فكل ما تنشئه الامة وهى مأخوذة بهذا الروح فهو من عمله وصنع يديه ؟ أما اذا كان عمله كله هو ما يعمله بنفسه ويرسم عليه طابع يديه فما هو بزعيم

وسعد زغلول قد بث في مصر هذا الروح ، أو هو قد ايقظه ، أو هو قد جمعه حواليه . فكل ما نهضت به الامة من اشتغال بالصناعات أو مصارف الاموال أو شركات التجارة أو معاهد التعليم أو مجامع السياسة مما لم يكن فيها قبل تلك النهضة ، ففيه سهم لا ينكر لزعامة سعد زغلول

هذه الزعامة هي التى التقى حولها المصريون فعلموا انهم امة ، وعلموا انهم مسلمون ومسيحيون ولكنهم امة ، وانهم رجال ونساء ولكنهم أمة ، وانهم شيب وشبان ولكنهم أمة ، وانهم حضريون وريفيون ولكنهم امة ، فانبعثت للامة حياة ماثلة الى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل جنس وكل دين ، ورأينا الايام التى نسى فيها اللص انه سارق ولم يذكر الا انه مصرى من المصريين ، ونسيت فيها البائسة الموصومة انها متاع مهين ولم تذكر الا انها مصرية تطالب بقضية ، وفهم حتى هؤلاء أن هنالك معنى من معانى الرفعة الانسانية يسمى

الشرف ويسمى الحياء ، بل رأينا السنين التي لبثت فيها المئات والالوف يسامون الخسار فيقبلون الخسار ولا يقبلون المراء فى العقيدة ، ويخيرون بين منفعة النفس ومنفعة الامة التي يدينون بها فيختارون منفعة الامة ولا يحفلون بمنفعة النفس ولا بمنافع الال والبنين . وتلك غنيمة قومية لا تدخل فى حساب الارقام ، ولكن الامة التي تهملها وتبخس قدرها لا تدخل هى نفسها فى حساب

وسرى قبس من روح الوحــدة المصرية الى كل امة فى الشرق تعلم ان شأنها فى طلب الحرية كشأن المصريين ، وان حاجتها الى الوحدة الوطنية كحاجة المصريين . فظهر الوفاق بين الطوائف فى بلدان لم تعرف قط وفاقا ولا رغبة فى وفاق ، واصبح سعد زغلول علما للنهضة الشرقية باسرها لا للنهضة المصرية وحدها ، ورمزا لدعوة الوحدة فى كل بلد ممزق بين العصبيات الداخلية والمطالع الاجنبية

روى موظف مصرى انه لقى المهاتما غاندى فى لندن حين زارها لحضور المؤتمر الهندى فيها فجرى الحديث بينهما عن القضية المصرية واستطرد الى ذكر سعد فقال المهاتما: « اننى لتبعت سيرة هذا الرجل القدير من سنة ١٩١٩ الى الان ، ولا يزال له فى نفسى اثر عظيم ، وانا أعده قدوة واراه بمثابة أستاذ »

قال الموظف المصرى : « ذلك تواضع منك ولا ريب . ان الامة المصرية اربعة عشر مليونا وانت قد شـــملت حركتك ثلاثمائة وخمسين مليونا من الناس » .

قال المهاتما : « على هذا التقدير يكون سعد هو صاحب الفضل فى السبق والابتداء . ثق ان الحركة الهنــدية سارت على اعقاب الحركة المصرية . انى اقتديت بسعد فى اعداد طبقة بعد طبقة من العاملين فى القضية الهندية ،

فلا تعتقل طبقة منهم الا لحق بها خلفاؤها على الاثر ، ومن سعد اخذت توحيد العنصرين ولكنى لم انجح بعد كما نجح فيه ... ان سعدا ليس لكم وحدكم ولكنه لنا اجمعين »

وايا كان نصيب هذه الرواية من الصحة فالحقيقة التي لا تحتاج الى اثبات ولا استشهاد هى أن الوحدة المصرية سابقة لكل وحدة فى دعوات الشرق الوطنية ، وان الوحدة المصرية مدينة لسعد بمزاياه التي توافرت له أو توافرت حوله ، فجعلته دون غيره أصلح الزعماء للزعامة على جميع المصريين .

لقد كانت الزعامة بداهة فيه تقابلها التلبية البديهة من الجماهير . كان يدبر ويقدر ويأخذ الامور بالروية والنظر البعيد ولكنه لا يعول على التقدير والتدبير بعض تعويله على البداهة التى ترتجلها الشعوب فى غير تكلف ولا استقصاء ، وعنده أن العناية الالهية تعمل فى هذه البداهات المرتجلة ما ليس يخطر على بال ، ومن ثم كانت كلمته التى يرددها كلما اتجهت الحوادث الى غير اتجاهها المنظور او انفرجت الازمات من غير مظنة الفرج المقدور : « انها العناية .. انها العناية ! » ويرفع بصره الى السماء ولا يزيد

اذكر فى الايام التى اعقبت عودته من المفاوضات مع مستر مكدونالد ، اننا زرناه وعنده الاستاذ حامد جوده المحامى يقترح عليه بعض الاراء .

فقال سعد بدعابته المعهودة : « يا حامد . انا ختمت العلم ! فهاتوا العمل الناجع ، فلا حاجة بى الى اقتراح »
ثم قال : « ماذا تروننا صانعين فى مواجهة الانجليز ؟ »
قال احد الحاضرين : « الاضراب العام يشترك فيه

الموظفون حتى تجاب مطالب البلاد »

فسأل الباشا : « وهل يقع هذا الاضراب ؟ »

فقال بعض الحاضرين : « يقع عاما » . وقال غيرهم : « يقع فى بعض الجهات » . وخالفهم آخرون فقالوا انه لا ينتظم ولا يطول

قال سعد : « الدليل على انه لا يقع ولا يصمد طويلا أن وقع انكم مختلفون فيه ... ان هذه الحركات لا تأتى الا عفوا » . وقالها بالفرنسية **Spontanement** وعندما يكون الجو مهيئا لن تختلفوا فيها بل تجيبوا بلسان واحد : «انها امر واقع لا ريب فيه »

ولتعويل سعد على هذه البداهة كان لا يكرب ذهنه كثيرا بهموم المستقبل ولا يزيد على أن يعطيها حقها من التفكير والروية ثم يدع البقية للمفاجاة او للبداهة أو العناية كما يقول . واطمئنانه الى المستقبل من هذه الناحية كاطمئنان التاجر الغنى الوطيد المكان الذى يعمل عمل الرجاء ولا يضيره أن تفاجئه السوق بالهبوط أو الكساد ، لانها كيفما تقلبت واضطربت لن تجده الا على استعداد للصعود والهبوط ، وغيره قد يطمئن الى المستقبل هذا الاطمئنان فيضيع ويبور ، أما هو فالثروة التى لديه ضمان لا يعتريه خذلان ، فمن فضول الوهم أن يكرب نفسه طويلا بالوساوس والهموم

كان لقومه مدد من عزمه وكان لعزمه مدد من قومه ، وكانا كالشحنتين الكهربائيتين كلتاهما بمفردها فى سكون . ولكنهما لا يلتقيان حتى تندفع القوة الكامنة التى لا تندفع على انفراد

ولم يكن أقدر منه على الاتجاه والتوجيه أن لم يكن

يوحي البداهة فبالكلام الذى يبلغ مبلغ البداهة من اخلاد سامعيه

كان خصومه يدسون عليه فى بيت الامة اناسا من المشاغبين الذين لا خلاق لهم ليلغطوا فى مواقف التأثير والاحتدام ، فيفسدوا الخطاب عليه وعلى السامعين ، وكان الجمهور يحار فى تأديب هؤلاء لانه لا يدرى هل يتركهم فيفوته حظ السماع أو يجاوبهم فينقطع الخطاب. وتمادى سليط من هؤلاء يوما فضاق الجمهور به ذرعا واخذوا بتلابيبه وبهم اشفاق من ضياع الخطابة فهم يترددون ولا يدرون كيف يصنعون : هل يضربونه فيقع الاضطراب او يرسلونه فيعود ويجترىء أمثاله السلطاء على مثل عمله .. وكخطف البرق تبدر الكلمة من سعد فيكون فيها فصل الخطاب مع هذا السليط ومع من تحدثه نفسه من زملائه بركوب هذا المركب العسير ، ويقول سعد : « لا يضرب فى بيتى ! » . ويترك مقام الخطابة ! وكخطف البرق يفهم الجمهور ما يريد... وينقطع دابر هؤلاء السلطاء فلا يرجعون

كتب سعد وهو فى نحو العشرين من عمره فى الوقائع المصرية ــ صحيفة الحكومة ــ يشهر بالاستبداد ، ويحض الناس على دفعه ويستشهد بقول النبى عليه السلام : « ان الناس اذا راوا الظالم فلم يأخذوا على يديه اوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده » ويختم كتابته بقوله : « ان شريعتنا شريعة سمحة تأبى ان يتولى أمور ذويها من لا يراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة . وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعا . ذلك هو الحق والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل »

ويروى عن السيد جمال الدين الافغانى انه امر تلاميذه بالكتابة فى موضوع الحرية فكان سعد وهو اصغر التلاميذ سنا احسنهم كتابة فى هذا الموضوع . فقال السيد : « ان من علامة نشأن الحرية فى هذه الامة ان لا يجيد الكتابة فيها الا ناشيء كهذا الفتى ! »

وحضرته اثناء الحرب العظمى يسمع قصيدة حافظ العمرية فما استعاد ولا صفق فيها لابيات كما استعاد ابيات الشورى وصفق لها ، حتى مال اليه محمد محمود باشا يداعبه قائلا : «معلوم !.. وكيل الجمعية التشريعية»

فكراهة الاستبداد فى طبعه
وقيادة الشعوب فى طبعه

ولو لم يكن حبه الحرية مصلحة عامة وعقيدة راسخة لكان مصلحة خاصة تقوم عنده مقام العقيدة ، فهو يذود عن كبريائه حين يقضى للفلاح بحق الحرية ، ولا يرى فيه راى الزملاء من حكام الترك الذين يقضون عليه بالخضوع ويقضون لانفسهم بالسيادة . ومن اتفقت له كراهة الاستبداد ، والقدرة على دفعه ، واستنهاض الشعب الى صدع قيوده ، والشعور مع الشعب بعزته وهوانه ، فقد رشحته ارادة الغيب ولم ترشحه ارادة الناس للزعامة والاضطلاع بهذه الامانة ، واصطلحت هداية الالهام وهداية التفكير على تقديمه لهذا الامر الكبير

لقد وجدت الامة المصرية نفسها على يدى سعد ، ولم يكن لها قط وجود اكمل من وجودها الى جانب هـــذا الزعيم ، وهذا اثر لزعامته لا شك فيه ! وهذا وحده فى عالم السياسة اثر يعلو على جميع الآثار .

فهرس

ص

● مقدمة ٧
● سعد فى سطور ١٠
● القارعة ١٢
● الثورة ١٨
● سفر الوفد الى باريس ٣٣
● الوفد فى أوربا ٤٨
● من سفر الوفد الى لجنة ملنر ٦٧
● المفاوضة فى لندن ٩١
● تصريح ٢٨ فبراير ١٢٢
● من المنفى الى الوزارة ١٣٠
● فى رئاسة الوزارة ١٥٧
● من رئاسة الوزارة الى رئاسة النواب ١٩١
● رئاسة مجلس النواب ٢١١
● زعامة سعد وأثرها ٢٢١

رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٨٣٩ ـ ١٩٨٨
الترقيم الدولى : ٠ ـ ١٣٧١ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيولى زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٥٠ ليرة ، دبى ١٠ دراهم ، لبنان ٧٠٠ ليرة ، ابوظبى ١٠ دراهم ، الاردن ٦٠٠ فلس ، اليمن ١٠ ريالات ، الكويت ٥٠٠ فلس ، تونس ١٧٥٠ مليما ، العراق ٤٥٠٠ فلس ، مسقط ١ ريال ، السعودية ٧ ريالات ، المغرب ١٨ درهما ، الدوحة ١٠ ريالات ، غزه والضفة ١ دولار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة

هـــــــذا
الـــكـتـــاب

« زعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول » سجل واف عن النهضة المصرية التى نهضتها مصر على أثر الحرب العالمية الأولى ، وهى نهضة عظيمة وجدت زعيمها العظيم فى سعد زغلول الذى لم يكن زعيم رهط معين ، او حزب محدود ، أو طبقة خاصة .. بل كانت الأمة ممثلة فى زعامته الفذة ، وكانت زعامته معبرة عن أمانى الأمة كلها .

ولهذا امتزجت ثورة ١٩١٩ بحياته ـ كما ترى فى هذا الكتاب القيم الذى دبجته يراعة الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ـ فلم يكن سعد قائدها فقط ، بل كان روحها الباعث لما فيها من كوامن الحياة ، وحوافز النهضة والتوثب .

وقد حلل المؤلف عبقرية هذه الزعامة تحليلا بليغا على ضوء تلك الثورة ، وتحدث عن شخصية سعد القائد الثائر ، وما كان له من صفات عظيمة بعثت فى الأمة القوة والشجاعة والأقدام ، فلم تخش جبروت الانجليز ، ووثبت تطالب بحقوقها ، وتدافع عن حريتها وكرامتها ، حتى أدركت ظفرا ونجاحا ، ومازالت متوثبة ناهضة تعمل للهدف الأسمى والنجاح الكامل .

ودار الهلال تعيد نشر هذا الكتاب بمناسبة ذكرى الزعيم سعد زغلول ، والذكرى المئوية للأستاذ عباس محمود العقاد .

١٥٠ قرشا

كتاب الهلال

جوائز الأوسكار

محمود عبد الرحمن الزواوى



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ - سبعة خطوط

KITAB ALHILAL

العدد ٤٥٣ ★ محرم سنة ١٤٠٩ - سبتمبر سنة ١٩٨٨

NO 453 — Sebtember 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربي والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر موسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
محمد ابو طالب

جوائز الأوسكار

بقلم

محمود عبد الرحمن الزواوى

دار الهلال

مقدمة

تحتل جائزة الاوسكار مكانة خاصة بين الجوائز السينمائية والفنية فى العالم • وقد اتخذت هذه الجائزة على مر السنين طابعا عالميا متزايدا تخطى حدود الولايات المتحدة • وهى بحق أهم وأشهر الجوائز السينمائية فى العالم •

وقد الفت عشرات الكتب باللغة الانجليزية عن جوائز الاوسكار واصبحت هذه الكتب جزءا أساسيا من المكتبة السينمائية الامريكية • الا أن المكتبة العربية تفتقر الى كتاب واف عن جوائز الاوسكار . ويمثل هذا الكتاب محاولة لسد هذا الفراغ ولتزويد القارىء العربى والمكتبة العربية بكتاب واف وشامل عن هذه الجوائز السينمائية الهامة •

يتالف هذا الكتاب من جزئين رئيسيين • الاول يتضمن عرضا مفصلا لجوانب متعددة لجوائز الاوسكار ، بما فى ذلك أسباب أهميتها وتاريخها وعمليتا اختيار المرشحين والفائزين بها ، كما يسلط الضوء على الفئات المختلفة لجوائز الاوسكار ويروى بعض الحكايات والمفارقات المتعلقة بها • والجزء الثانى يشتمل على قائمة مفصلة باسماء

المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار الرئيسية الست وأسماء الفائزين بجميع جوائز الاسكار الاخرى خلال الستين سنة التى مضت منذ تأسيس الجوائز وحتى عام ١٩٨٨ . كما يشتمل هذا الكتاب على عدد من القوائم الاحصائية المفصلة المتعلقة بجوائز الاوسكار وعلى ترجمة لنص مقابلة مع المدير الادارى للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما التى تمنح جوائز الاوسكار .

والمرجو أن يقدم هذا الكتاب للقارىء العربى معلومات مفيدة وممتعة عن جوائز الاوسكار وأن يوفر للباحثين والسينمائيين والطلاب وهواة السينما مرجعا نافعا وموثوقا لكل ما يتعلق بهذه الجوائز . والله ولى التوفيق .

العوامل المتعددة لأهمية جائزة الاوسكار

في الحادى عشر من ابريل / نيسان عام ١٩٨٨ قدمت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في هوليود جوائز الاوسكار لافضل الانجازات السينمائية لعام ١٩٨٧ واحتفلت بالذكرى السنوية الستين لتقديم جوائز الاوسكار وقد نقل التليفزيون فقرات تلك الحفلة في سائر أنحاء الولايات المتحدة وفي عشرات الدول الاخرى ، وقدر عدد مشاهديها في شتى انحاء العالم بأكثر من بليون شخص

وقد أصبح ذلك تقليدا سنويا في كل ربيع • فحفلة توزيع جوائز الاوسكار هي ذروة شهور من التغطية الاعلامية التى تبدأ في الاسابيع الاخيرة من كل عام مع اقتراب الموعد النهائى لتأهيل الافلام للترشيح للجوائز في نهاية العام • وتشتد هذه التغطية الاعلامية فى أواسط شهر فبراير / شباط من كل عام عند الاعلان عن أسماء المرشحين لجوائز الاوسكار ، وتكشف مرة أخرى فى الايام الاخيرة التى تسبق الاعلان عن أسماء الفائزين بالجوائز، والذى يتم عادة فى أواخر شهر مارس \ آذار أو أوائل ابريل \ نيسان من كل عام •

وليست هناك جائزة فنية أخرى ، سينمائية أو مسرحية أو تليفزيونية أو غيرها ، تحظى بمثل هذا الاهتمام بين الجمهور أو بمثل هذه التغطية فى وسائل الاعلام • وهناك ٣٢ منظمة سينمائية امريكية تقدم جوائز سنوية

لافضل الانجازات السينمائية و ١٧٠ منظمة أمريكية تقدم جوائز تليفزيونية ومسرحية وموسيقية واذاعية وراقصة سنوية ، الا أن عددا قليلا منها فقط ينقل على التليفزيون على الصعيد القومي فى الولايات المتحدة ، كجائزة الكرات الذهبية التى تمنحها رابطة الصحفيين الاجانب في هوليود وجائزة ايمى التليفزيونية وجائزة تونى المسرحية وجائزة جرامى الموسيقية وجوائز الموسيقى الريفية الامريكية .

ولكن ليس بين هذه الجوائز الفنية ما يضاهى جائزة الاوسكار في استئثارها باهتمام الجمهور ووسائل الاعلام فى الولايات المتحدة أو بشهرتها فى بقية أنحاء العالم . وهى دون شك أهم واشهر جائزة سينمائية فى العالم . ومما قاله النجم السينمائى والمسرحى البريطانى الشهير السير اليك جينيس الذى فاز بجائزة الاوسكار عن دوره فى فيلم « جسر على نهر كواى » فى عام ١٩٥٧ : « رغم تكاثر الجوائز السينمائية فان هناك جائزة واحدة يعرفها الجميع وهى جائزة الاوسكار . انهـا أهم وأرقى تلك الجوائز » .

ولعل من المفارقات فعلا أن تقديم جوائز الاوسكار كان فكرة ثانوية عابرة بين الاهداف التى وضعها مؤسسو الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما التى تمنح جوائز الاوسكار ، عندما قاموا بتأسيس الاكاديمية فى عام ١٩٢٧ . ومع أن الاكاديمية تقوم بفعاليات ونشاطات متعددة فى خدمة الفن السينمائى ، فان شهرتها تعزى الى جوائز الاوسكار وما اكتسبته هذه الجوائز من أهمية على مر السنين . وقد أقيمت أول حفلة لتقديم جوائز الاوسكار

في السادس عشر من مايو / ايار عام ١٩٢٩ بعد مضي ثلاثة أشهر على الاعلان عن أسماء الفائزين بها • وغلب على تلك الحفلة جو بسيط خال من التغطية الاعلامية والاثارة التي تحيط بتقديم جوائز الاوسكار في هذه الايام ، والتي جعلتها أهم حدث تليفزيوني سنوى فى الولايات المتحدة •

وما من شك فى أن التغطية التليفزيونية لحفلات توزيع جوائز الاوسكار والتي بدأت في عام ١٩٥٣ أسهمت اسهاما كبيرا فى أهمية جوائز الاوسكار وشهرتها •

ولكن ما هو سبب الاهمية التى تتمتع بها جوائز الاوسكار ؟ وما هو سبب الاهتمام الذى يوليه لها الجمهور ووسائل الاعلام ؟ من الصعب جدا الفصل بين هذين السؤالين عند محاولة التوصل الى أجوبة كافية ومقنعة لهما • فهما سؤالان مترابطان ارتباطا مباشرا ، وتكمن الاجابة عنهما فى عوامل عديدة متداخلة غرست ونشأت وتطورت على مر السنين •

فجائزة الاوسكار رمز هام للانجازات الفنية والتقنية السينمائية • وهى تجسيد للانجازات المتفوقة فى مختلف الميادين السينمائية ، من الابداع فى التمثيل والتأليف الى الانجازات التكنولوجية الرائعة فى التصوير والمؤثرات الخاصة • وتقدم جوائز الاوسكار دليلا على أن الفيلم الرفيع المستوى يجمع بين الابداع الفنى والبراعة التكنولوجية • ولا يظهر الترابط بين هذه المواهب المتعددة كما يظهر أثناء تقديم جوائز الاوسكار حين يتم تكريم ومكافاة جميع المواهب المشتركة فى المحصلة النهائية للفيلم السينمائى •

وجائزة الاوسكار بالنسبة للفائزين بها ـ عدا حالات استثنائية قليلة ـ أعلى وأهم ما يصبو اليه الممثلون وغيرهم من العاملين فى صناعة السينما الامريكية من فنانين وفنيين ، وهى تتويج للانجازات السينمائية والفنية لاصحاب المواهب وأصحاب الحظ أحيانا قد لا يتحقق الا مرة واحدة فى العمر ولم يتحقق لكثيرين من كبار نجوم السينما وعمالقة السينمائيين • وحين قدمت جائزة الاوسكار للنجم السينمائى الراحل جون وين عن دوره فى فيلم « تروجريت » فى عام ١٩٦٩ ، وهو عملاق سينمائى عرف برجولته وحيويته على الشاشة ، لم يتمالك نفسه وانهارت دموعه أمام أنظار عشرات الملايين من مشاهدى التليفزيون • فقد كانت جائزة الاوسكار لجون وين تتويجا لسجل سينمائى كان قد بدأ قبل اربعين عاما •

وقد بدا التأثر على الممثل جريجورى بيك ـ كغيره من الفائزين ـ حين منح جائزة الاوسكار عن دوره فى فيلم « مقتل طائر محاكى » فى عام ١٩٦٢ بعد أن كان قد رشح للجائزة أربع مرات من قبل • وقد سئل جريجورى بيك عن أهمية فوزه بجائزة الأوسكار فقال : « اننى لاأستطيع مهما تظاهرت ان اقلل من أهمية حصولى على الجائزة • فبعد وفاتى سيكون فوزى بجائزة الاوسكار من أول الامور التي ستذكر فى تابينى » •

وجائزة الاوسكار تكريم وتقدير واعتراف من أقران الفنان الفائز ببلوغه درجة الامتياز فى عمله • وهذا التكريم من الاقران هو أكثر ما يؤثر فى الفنانين الفائزين الذين دأبوا على مر السنين على الاستشهاد بذلك كاهم عامل بين عوامل الفوز بجائزة الاوسكار •وحين تلقى الفنان

الكبير الراحل أورسون ويلز جائزة أوسكار فخرية فى عام ١٩٧١ قال أمام عشرات الملايين من مشاهدى التليفزيون : « أرجو أن يدرك الجمهور سبب الاهمية الخاصة لهذه الجائزة بالنسبة لى • فهى لا تقدم لى من الجمهور أو النقاد بل من السينمائيين أنفسهم الذين يعشقون السينما أكثر من غيرهم » •

وجائزة الاوسكار تكون فى معظم الاحيان نقطة تحول هامة فى الانجازات السينمائية للفائزين بها • فكثيرا ما ترفع هذه الجائزة مكانة الفائزين بها ، وخاصة الممثلين وتكسبهم شهرة فورية واسعة وتكون سببا فى تهافت المخرجين والمنتجين عليهم للظهور فى أفلامهم الجديدة • وكثيرا ما يتيح الفوز بجائزة الاوسكار فرصة جديدة للممثلين المغمورين أو المنسيين ويمهد لهم الطريق للوصول الى آفاق جديدة •

وجائزة الاوسكار وسيلة للثراء الى جانب الشهرة • فهى تجلب ملايين الدولارات لمنتجى الافلام الفائزة بالجائزة كما تجلب الثراء للممثلين الفائزين • وتلعب التغطية التليفزيونية لحفلة توزيع جوائز الاوسكار دورا هاما فى هذا المضمار • اذ يشاهد الحفلة ملايين الناس الذين يتوافدون فى الايام التالية على دور السينما لمشاهدة الافلام الفائزة ، مما يؤدى الى اضافة ملايين الدولارات الى دخل هذه الافلام على شباك التذاكر • وتشير جميع الدلائل الى زيادة اقبال الجمهور على مشاهدة الافلام التى ترشح لجوائز الاوسكار فى الايام التالية لترشيحها ، والى زيادة أكبر فى اقبال الجمهور على مشاهدة الافلام التى تفوز بجوائز الاوسكار فى الاسابيع التالية لفوزها •

ويقدر الدخل الاضافي في دور السينما للفيلم الذي يفوز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم في هذه الايام بخمسة وعشرين مليون دولار ، ولكنه قد يزيد عن ذلك كثيرا في بعض الاحيان • فنتيجة لفوز فيلم « أحدهم حلق فوق عش الوقواق » بجائزة الاوسكار في عام ١٩٧٥ زادت ايراداته في دور السينما أكثر من ٥٠ مليون دولار • كما يقدر استديو يونيفرسال أن فوز فيلم « اللدغة » بجائزة الاوسكار في عام ١٩٧٣ أدى الى زيادة في ايراداته بلغت ٣٠ مليون دولار • وقد ارتفعت ايرادات فيلم « العلاقة الفرنسية » بنسبة أربعة أمثال بعد فوز الفيلم بجائزة الاوسكار لافضل فيلم في عام ١٩٧١ • كما تضاعفت ايرادات فيلمي « صياد الغزلان » ١٩٧٨ و « أشخاص عاديون » ١٩٨٠ بعد فوزهما بجائزة الاوسكار لافضل فيلم •

كما يجلب الفوز بجائزة الاوسكار الثراء لمعظم الممثلين الذين يفوزون بها • وقد رفع الممثل جين هاكمان أجره عن الفيلم من ٢٠٠,٠٠٠ دولار الى ٥٠٠ ألف دولار بعد فوزه بجائزة الاسكار عن أفضل دور يقوم به ممثل في فيلم « العلاقة الفرنسية » في عام ١٩٧١ • وكان جين هاكمان قد رفع أجره الى ١٠٠ ألف دولار عن الفيلم بعد أن رشح لجائزة الاوسكار عن أفضل دور مساعد يقوم به ممثل عن دوره في فيلم « بوني وكلايد » في عام ١٩٦٧ • الا أن الممثل البريطاني توم كورتني سجل رقما قياسيا في هذا المضمار • فقد رفع أجره عن الفيلم من ١٠٠ الف دولار الى مليون دولار بعد أن رشح لجائزة الاوسكار لافضل دور يقوم به ممثل في فيلم « روبين ، روبين » في عام ١٩٨٣

ومن الامثلة الاخرى على ذلك الممثل جورج كنيدى الذى رفع أجره عن الفيلم من ٢٠ ألف دولار الى ٢٠٠ الف دولار بعد فوزه بجائزة الاوسكار عن أفضل دور مساعد يقوم به ممثل في فيلم « لوك .. الهادىء الاعصاب » في عام ١٩٦٧ ويقدر بعض المحللين السينمائيين أن فوز الممثل بجائزة الاوسكار عن أفضل دور مساعد يؤدى فى المعدل الى زيادة فى دخله قدرها مليونا دولار خلال المدة الباقية لعمله السينمائي ٠

ولا يخفى الاثر المادى للفوز بجائزة الاوسكار على استديوهات السينما أو المنتجين السينمائيين أو الممثلين الذين يشترك كثيرون منهم بشكل متزايد فى حملات اعلامية ـ وخاصة فى صحف مدينة لوس أنجيليس ـ للتأثير على أصوات أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين يصوتون للمرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار ٠ ورغم معارضة الاكاديمية لمثل هذه الحملات ونداءاتها المتواصلة لاعضائها بتجاهل هذه الحملات ، فهى مستمرة ويصعب وقفها ، ولا شك فى أنها تؤثر فى بعض أصوات أعضاء الاكاديمية ٠

وجائزة الاوسكار حدث فنى وشعبى مهم ٠ فقد بدأ حفل توزيع جوائز الاوسكار تستأثر باهتمام الجمهور منذ بدء تغطيتها الاذاعية محليا فى مدينة لوس انجيليس فى عام ١٨٣٠ ، وازداد هذا الاهتمام أضعافا مضاعفة مع بدء التغطية الاذاعية لحفلات توزيع جوائز الاوسكار فى سائر انحاء الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٤ ، وتصاعد مع بدء التغطية التليفزيونية القومية فى عام ١٩٥٣ الى أن أصبح

أكبر حدث تليفزيونى سنوى فى الولايات المتحدة فى هذه الايام •

وجائزة الاوسكار دراما انسانية • فالحفلة السنوية لتوزيع جوائز الاوسكار ، بما تشتمل عليه من مشاعر وعواطف وانفعالات انسانية ، تنقل صورة صادقة الى مئات الملايين من مشاهدى التليفزيون فى سائر أنحاء العالم عن جانب انسانى لاهل الفن لم يكونوا يعرفونه على شاشة السينما ، وتسلط الاضواء على الالاف من نجوم السينما ومعبودى الملايين الذين يشتركون فى الحفل السنوى لتوزيع جوائز الاوسكار •

وأخيرا وليس آخرا ، فان تطور جوائز الاوسكار خلال الستين سنة الماضية يقترن بتاريخ السينما الناطقة فى الولايات المتحدة منذ بداية عهدها • فقد تم تكييف الفئات المختلفة لجوائز الاوسكار وتغييرها وزيادتها على مر السنين وفقا للتطورات الفنية والتكنولوجية التى طرأت على الافلام السينمائية ، كظهور الافلام الناطقة والافلام الموسيقية وانتشار شعبيةالافلام الملونة وما تحقق منتقلم تكنولوجى فى المؤثرات الخاصة والبصرية والصوتية • وبوسع من يدرس جوائز الاوسكار منذ نشوئها أن يجد فيها مرآة تعكس جانبا هاما ومثيرا لتاريخ السينما الامريكية •

تأسيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما

في احدى أمسيات شهر يناير / كانون الثاني عام ١٩٢٧ ولدت فكرة انشاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في منزل لويس ماير رئيس شركة مترو جولدوين السينمائية أثناء حديث دار بينه وبين ثلاثة من ضيوفه على العشاء ، وهم الممثل كونراد ناجيل والمخرج فريد نيبلو والمنتج فريد بيتسون • واتفق هؤلاء الرجال الاربعة على ضرورة وجود منظمة شاملة تمثل جميع قطاعات السينما الامريكية • فحتى تأسيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما كانت صناعة السينما الامريكية تفتقر الى وجود منظمة واحدة وموحدة تنطق بلسان جميع العاملين فيها •

وقد اصبح وجود مثل هذه المنظمة ضرورة ملحة نتيجة العديد من التطورات الفنية والتقنية والاقتصادية •فبحلول عام ١٩٢٨ وصل الانتاج السينمائي في هوليود الى أكثر من ٥٠٠ فيلم روائي طويل في السنة بالاضافة الى عدة مئات من الافلام القصيرة ، ووصل عدد دور السينما الامريكية الى ٢٣٫٠٠٠ دار يباع فيها كل أسبوع مائة مليون تذكرة ، واصبحت صناعة السينما رابع أكبر صناعة

فى الولايات المتحدة ، وتحولت هوليود الى عاصمة السينما فى العالم بدون منازع .

وقد رافقت هذا الازدهار والنمو مشاكل جسيمة أكدت ضرورة وجود منظمة تمثل جميع قطاعات السينما . وشملت تلك المشاكل مصاعب اقتصادية نجمت عن انتشار شعبية التنظيمات العمالية وظهور العديد من نقابات العمال فى هوليود ، ومصاعب فنية تولدت نتيجة ظهور الافلام الناطقة وما رافق ذلك من ثورة تكنولوجية ، مما ادخل هوليود فى أهم مرحلة انتقالية تمر بها حتى ذلك الوقت.

وقد رأى لويس ماير وضيوفه الثلاثة أن مثل هذه المنظمة الموحدة الجديدة ستكون قادرة على حل مثل هذه المشاكل الجسيمة وغيرها من المشاكل التى قد تنشأ فى المستقبل .

وفى الحادى عشر من يناير \ كانون الثانى عام ١٩٢٧ دعى ستة وثلاثون من أقطاب هوليود الى اجتماع عقد فى فندق الامباسادور بمدينة لوس أنجيليس وبحثوا تلك الفكرة ووافقوا عليها،وبذلك أصبحوا المؤسسين الرسميين للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ، التى اشتهرت فيما بعد بتقديم جوائز الاوسكار . وتم انتخاب الممثل دوجلاس فيربانكس أشهر نجوم السينما الصامتة أول رئيس للاكاديمية .

وفى الرابع من مايو /ايار عام ١٩٢٧ وافقت ولاية كاليفورنيا على ميثاق الاكاديمية كشركة لا تبغى الربح . وبعد أسبوع أقيمت مادبة عشاء كبرى للاحتفال رسميا بتأسيس الاكاديمية حضرها ٣٠٠ شخص ، انضم ٢٣١ منهم الى عضوية الاكاديمية .

أهداف الاكاديمية وجوائز الاوسكار

في العشرين من يونيو/حزيران عام ١٩٢٧ أعلن مؤسسو الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الاهداف الرئيسية لمنظمتهم الجديدة • وصدر عن الاكاديمية بيان تضمن الخطوط العريضة لتلك الاهداف التي تركزت في معظمها على أهمية نشر التآلف والتضامن بين أعضاء الفروع المختلفة للاكاديمية وحماية صناعة السينما والدفاع عنها واعلاء شأنها •

وتضمنت تلك الاهداف الرئيسية أيضا الهدف التالي :

« ستشجع الاكاديمية رفع شأن وتقدم فنون وعلوم السينما عن طريق تبادل الافكار البناءة ومنح جوائز الاستحقاق عن الانجازات السينمائية المميزة » •

وكانت هذه أول اشارة الى منح جوائز سينمائية من الاكاديمية ، وهي الجوائز التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم جوائز الاوسكار •

فروع الاكاديمية وعضويتها

تألفت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في بادىء الامر من خمسة فروع مثلت بالتساوي في مجلس ادارتها • وهذه الفروع هي المنتجون والممثلون والمخرجون والكتاب والفنيون • الا أن عدد هذه الفروع ازداد تدريجيا على مر السنين بشكل يعكس توسع وتنوع المهن المختلفة التي تسهم في انتاج الافلام السينمائية ، وأصبح العدد حاليا اثني عشر فرعا هي الممثلون والمدراء الفنيون

والمصورون والمخرجون والمدراء الاداريون ومدراء المونتاج والموسيقيون والمنتجون والكتاب ومهندسو الصوت والعلاقات العامة والافلام القصيرة .

وقد تقرر منذ البداية أن تكون عضوية الاكاديمية مقتصرة على نخبة من الفنانين والفنيين الذين توجه اليهم الدعوة للانتماء الى عضوية الاكاديمية والذين يشترط فيهم أن يكونوا قد قدموا انجازات سينمائية متميزة .

ولابد لكل مرشح لعضوية الاكاديمية أن يزكى من قبل اثنين من أعضاء الفرع الذى يؤهل الشخص للانتماء اليه . ويجب أن توافق اللجنة التنفيذية لذلك الفرع على الترشيح قبل أن يقدم اسم المرشح الى مجلس ادارة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما للموافقة على عضويته . اما أصحاب المهن الفنية الذين لا ينتمون الى أحد الفروع الاثنى عشر التى تتألف منها الاكاديمية فيمكن لمجلس الادارة دعوتهم لعضوية الاكاديمية بصورة مباشرة . وليست الموافقة على العضوية تلقائية بمجرد تزكية المرشح من قبل عضوين . اذ يرفض مجلس الادارة الكثير من الاسماء المرشحة .

وقد تفاوت عدد أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما فى السنوات الاولى لتأسيسها وازداد على مر مر السنين . فقد ازداد من ٢٣١ عضوا عند تأسيسها الى ٣٧٤ عضوا فى أواخر عام ١٩٢٨ وارتفع الى أكثر من ٨٠٠ عضو فى عام ١٩٣٢ . الا أنه انخفض الى ٥٠ عضوا فى عام ١٩٣٣ بعد انسحاب عدد كبير من الممثلين والمخرجين والكتاب السينمائيين والموسيقيين من عضوية الاكاديمية نتيجة الخلافات والانقسامات الحادة التى نشأت بين

أصحاب الشركات السينمائية من جهة وبين فئات الممثلين والمخرجين والكتاب السينمائيين الذين كانوا يحاولون تشكيل نقابات تمثلهم وتحمي مصالحهم • ونجحت هذه الفئات في تشكيل نقاباتها ، واستمرت الخلافات داخل صفوف الاكاديمية قرابة ست سنوات كانت الاكاديمية خلالها مهددة بالانهيار •

وفي عام ١٩٣٩ انتهت الازمة وعاد مئات الممثلين والمخرجين والموسيقيين والكتاب الى صفوف الاكاديمية لفنون وعلوم السينما بعد أن وقعت عقود جديدة بين نقاباتهم المختلفة وبين شركات الانتاج السينمائي • وعندئذ أعيد تنظيم الاكاديمية على أسس جديدة وأعيد تحديد أهدافها بحيث تكون مؤسسة ثقافية ولا تتدخل في عمليات التحكيم والمفاوضات بين شركات الانتاج السينمائي وأعضاء النقابات المختلفة •

وهكذا بدأت الاكاديمية عهدا جديدا تجددت فيه حيويتها واستهلت مرحلة جديدة من الازدهار والنجاح المتجدد الذي حالفها منذ ذلك الوقت • وتوسعت عضويتها تدريجيا على مر السنين وبلغت ١٦٠٠ في عام ١٩٤٧ وأكثر من ٣٠٠٠ عام ١٩٧٠ • وفي عام ١٩٨٨ بلغ عدد أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ٤٣٢٦ عضوا عاملا بالاضافة الى ٥٠٠ عضو منتسب • ولا يحق التصويت في عمليتي ترشيح واختيار الفائزين بجوائز الاوسكار الا للاعضاء العاملين في الاكاديمية • أما الاعضاء المنتسبون فهم أشبه بأعضاء فخريين • ويلاحظ أن الممثلين يشكلون أكبر فئة بين فروع الاكاديمية الاثنى عشر ، كما نرى في الجدول التالي لعام ١٩٨٨ :

الفروع	عدد الاعضاء
الممثلون	١٢٦٥
الكتـــاب	٣٧٨
المنتجون	٢٥٠
المدراء والاداريون	٢٢٠
مهندسو الصوت	٣١٧
العلاقات العامة	٢٨٨
المدراء الفنيون	٢٥٧
الموسيقيون	٢٤٤
المخرجون	٢٥٧
الافلام القصيرة	٢٠٣
مدراء المونتاج	١٨١
المصورون	١٩١
أعضاء جميع المهن الاخرى	٣٥٥
المجمـــوع	٤٣٢٦
الاعضاء المنتسبون (لا يصوتون)	٥٠٠
المجموع الاجمالى	٤٨٢٦

مولد جوائز الاوسكار

اذا كانت العلاقات بين مدراء شركات الانتاج السينمائى والنقابات المختلفة قد هددت الاكاديمية الامريكية لشئون وعلوم السينما بالفنـــاء فى وقت من الاوقات فان جوائز الاستحقاق التى أصبحت تعرف فيما بعد بجوائز الاوسكار والتى تمنحها الاكاديمية أثارت اهتمام الجمهـــور المتزايد بالاكاديمية على مر السنين واكسبتها شعبيتها الفريدة . ولم يكن مؤسسو الاكاديمية الاوائل يدركـون الاهميـــة البالغة التى اكتسبتها تلك الجوائز أو يحلمون بهـا حين أسست الاكاديمية فى عام ١٩٢٧ . فقـد كانت لجنـــة جوائز الإستحقاق واحدة من عدة لجان شكلت عند تأسيس الأكاديمية ، بل ان منح تلك الجوائز كان فكـرة ثانوية طارئة .

وقد ضمت لجنة جوائز الاستحقاق سبعة أعضاء برئاسة سيدريك جيبونز ، وهو مدير فنى قام فيما بعد بتصميم جائزة الاوسكار وفاز خلال السنوات اللاحقة باحدى عشرة من تلك الجوائز . وقد بحث أعضاء اللجنة فى اجتماعاتهم الاولى فكرة تقديم جوائز من الاكاديمية ، الا أن الفكـرة

طرحت جانبا بعد أن عرضت على اللجنة أمور أكثر الحاحا في نظر الاكاديمية آنذاك ٠

وفي مايو / آيار عام ١٩٢٨ ، أى بعد مرور عام كامل على تأسيس الأكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما طرحت فكرة الجوائز من جديد ، ولكنها قوبلت في هذه المرة بمزيد من الجدية ٠

وفي شهر يوليو /تموز من نفس العام قامت اللجنة بتقديم فكرة الجوائز رسميا الى مجلس ادارة الاكاديمية الذى قام بدوره بالموافقة عليها ٠ وتقرر آنذاك تقديم اثنتى عشرة جائزة في الفئات التالية : أفضل فيلم ، افضل ممثل ، أفضل ممثلة ، أفضل مخرج لفيلم دراما ، افضل مخرج لفيلم كوميدى ، افضل مصور ، أفضل مدير مفنى ، افضل مؤثرات هندسية ، أفضل كاتب قصة أصلية ، افضل كاتب قصة مقتبسة ، أفضل عناوين مطبوعة على فيلم ، أفضل انتاج فنى رفيع المستوى ٠

وتم الاتفاق على أن تمنح الجوائز الاولى لافلام صدرت وعرضت في مدينة لوس أنجليس بين ١ أغسطس /آب عام ١٩٢٧ و ٣١ يوليو / تموز عام ١٩٢٨ ٠ ولكى تؤخذ جميع الافلام السينمائية بالاعتبار طلب من شركات الانتاج السينمائى تزويد الاكاديمية بقوائم تضم جميع الافلام التى صدرت خلال تلك الفترة ، وأرسلت تلك القوائم الى أعضاء الاكاديمية لكى يقوموا بترشيح أفلامهم المفضلة وحدد الخامس عشر من اغسطس / آب موعدا نهائيا لاستلام الترشيحات ٠ وبعد ذلك تم تعيين خمس لجان من الكام تمثل فروع الاكاديمية الخمسة لاختيار المرشحين العشرة الاوائل الذين حازوا على أكبر عدد من الاصوات من

كل فئة • وبعد ذلك قامت لجنة مركزية من الحكام شكلت من خمسة أعضاء يمثل كل منهم فرعا من فروع الاكاديمية باختيار الفائزين بالجوائز •

ولم تكن أسماء المرشحين تعلن قبل اعلان أسماءالفائزين فى بداية عهد الاكاديمية كما يحدث فى هذه الايام • وقد تم اختيار أسماء الفائزين بأول مجموعة من جوائز الاوسكار فى الخامس عشر من فبراير \ شباط عام ١٩١٩ ، أى بعد مرور ستة أشهر بالضبط على اغلاق موعد الترشـــيح ، وأعلنت النتائج للصحافة بعد ذلك بثلاثة أيام • الا أن الجوائز لم تقدم للفائزين بها حتى الخامس عشر من مايو آيار عام ١٩٢٩ •

وفى العام الثانى اقتصر عدد جوائز الاكاديمية على سبع وأصبحت الافلام الناطقة مؤهلة للترشيح والفوز بعد أن كانت قد حرمت من ذلك الحق فى العام الاول لان أعضـاء اللجان لم يتمكنوا من تقييمها وفقا لمعـايير تقييم الافـلام الصامتة • وكان فيلم « لحن برودواى » أول فيلم ناطق يفوز بجائزة الاوسكار •

وقد استمرت مواعيد الفترة التى تؤهل فيها الافـلام للترشيح ، وهى ٨/١ من كل سنة الى ٧/٣١ من السـنة التالية حتى السنة السادسة لتقديم جوائز الاوســكار • فقد تقرر فى عام ١٩٢٣ أن تبدأ فترة التأهيـل مع بداية السنة وأن تنتهى مع نهايتها (أى من ١/١ الى ١٢/٣١) ، وتم اجراء التعديل الملائم لضم الفترة الزائدة من ٨/١ حتى ١٩٣٢/١٢/٣١ الى فترة التأهيـل لعام ١٩٣٣ • أى أن الافلام التى صدرت فى مدينة لوس أنجيليس خلال الاشهر الخمســة الاخيرة لعام ١٩٣٢ ضمت الى الافلام المؤهلـة

للترشيح لجوائز الاوسكار خلال عام ١٩٣٣ • وبذلك تكون فترة تأهيل الافلام المرشحة لجوائز الاوسكار السنوية السادسة قد شملت سبعة عشر شهرا ومنذ عام ١٩٣٤ أصبحت السنة الرسمية للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما هي السنة العادية ، أي انها تبدأ في ١/١ وتنتهي في ١٢/٣١ ،وتؤهل فيها لجوائز الاوسكار جميع الافلام التي تعرض خلال تلك الفترة من كل سنة في مدينة لوس أنجيليس وضواحيها لمدة أسبوع على الاقل •

ولتوضيح عملية تأهيل الافلام لجوائز الاوسكار ، فيما يلي ترجمة لنص الشرط الاول من شروط تقديم جوائز الاوسكار السنوية الستين الخاصة بأفلام عام ١٩٨٧ :

« تمنح جوائز الاكاديمية للاستحقاق للانجازات السينمائية للافلام الروائية الطويلة (يحدد طولها بأكثر من ٣٠ دقيقة) التي تم عرضها على شريط ٣٥ ملم او ٧٠ ملم لقاء تذاكر مباعة (لا يشمل ذلك العروض المسبقة) في احدى دور السينما التجارية بمنطقة لوس انجيليس ، بين الاول من يناير /كانون الثاني عام ١٩٨٧ ومنتصف ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر / كانون أول عام ١٩٨٧ ، على أن يكون ذلك العرض متواصلا لمدة لا تقل عن أسبوع » •

وتستثنى من هذا الشرط الافلام الاجنبية والافلام الوثائقية والافلام القصيرة •

ولكي يؤهل الفيلم الاجنبي للترشيح لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ يجب أن يكون قد عرض في بلده الاصلي بين الاول من نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٩٨٦ والحادي

والثلاثين من اكتوبر /تشرين أول عام ١٩٨٧ ، وأن يكون عرض في دار سينما تجارية من أجل الربح • وليس من الضروري أن يكون الفيلم قد عرض في الولايات المتحدة •

ولكي تؤهل الافلام الوثائقية للترشيح لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ يجب أن تكون قد عرضت في مهرجان سينمائي معترف به خلال سنتين من انتاجها بين الاول من نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٩٨٦ والحادي والثلاثين من اكتوبر / تشرين اول عام ١٩٨٧ ، أو أن تكون قد عرضت في دار سينما تجارية لقاء تذاكر مباعة في منطقة لوس أنجيليس أو أن تكون قد حصلت على اعتراف مجلس الاحداث غير المسرحية بمنحها جائزة نسر ذهبي ؟

وتنطبق نفس الشروط الثلاثة لتأهيل الافلام الوثائقية على تأهيل الافلام القصيرة ، سواء كانت أفلام الكرتون أو الافلام العادية ، باستثناء فترة العرض ، وهي بين الاول من ديسمبر / كانون أول عام ١٩٨٦ والثلاثين من نوفمبر تشرين الثاني عام ١٩٨٧. • الا أن هذه الافلام لا تستثنى من التأهيل اذا كانت قد عرضت خارج منطقة لوس أنجيليس قبل الاول من ديسمبر / كانون أول عام ١٩٨٥ على أن تكون قد عرضت في دار سينما تجارية أو في مهرجان سينمائي معترف به •

الفعاليات والنشاطات الاخرى للاكاديمية الامريكية للفنون وعلوم السينما

للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما عدة أهداف رئيسية تتعلق بصناعة السينما والعاملين فيها هي دعم

فنون وعلوم الافلام السينمائية وازدهارها ، وتعزيز التعاون بين العقول الخلاقة الرائدة فى سبيل اعلاء التقدم الثقافى والتربوى والتكنولوجى ، وتقديم الجوائز تقديرا للانجازات السينمائية الفذة ، والتعاون فى الأبحاث الفنية وتحسين الوسائل والمعدات السينمائية ، وتوفير منبر مشترك لالتقاء أعضاء الفروع والمهن السينمائية المختلفة ، وتمثيل العاملين فى كافة القطاعات السينمائية والتعبير عن آرائهم ، وتقوية أواصر النشاطات التربوية والتعليمية بين العاملين فى صناعة السينما والجمهور . ولا تشتمل فعاليات ونشاطات الاكاديمية على أى مسائل أو قضايا اقتصادية أو سياسية أو متعلقة بالنقابات المهنية ومشاكلها .

ولا شك فى أن أهم ما تشتهر به الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما هو جوائز الاكاديمية أو جوائز الاوسكار التى تقدمها الاكاديمية فى ربيع كل عام ، والتى تعد أهم وأشهر جوائز سينمائية فى العالم . الا أن تقديم جوائز الاوسكار ليس سوى جانب واحد من نشاطات الاكاديمية فى سبيل دعم فنون وعلوم السينما وازدهارها .

ويقع مقر الاكاديمية منذ عام ١٩٧٥ فى بيفرلى هيلز بلوس أنجيليس على مقربة من هوليود ويضم مكتبة واسعة للافلام والكتب السينمائية أسست فى عام ١٩٣١ وتشتمل على واحدة من أكبر مجموعات الابحاث والمراجع المتعلقة بتاريخ وتطور الافلام السينمائية .

وتضم المكتبة ٨٫٠٠٠ فيلم بينها جميع الافلام الفائزة بجوائز الاوسكار و ١٨٠٠٠ كتاب تشتمل على مجموعة من الكتب النادرة و ١٫٠٠٠ من المطبوعات والنشرات الدورية.

وأكثر من ١٢٥٫٠٠٠ ملف للقصاصات الصحفية المتعلقة بالسينما والشخصيات السينمائية و ٥ ملايين صورة تشتمل على مجموعات كاملة لصور أفلام عدد من استديوهات السينما الكبرى مثل مترو جولد وين ماير وباراماونت آر ٠ كى ٠ أو ٠ و ٥٫٥٠٠ نص سينمائى و ٦٫٠٠٠ من الملصقات الجدراية السينمائية التى يعود بعضها الى عام ١٩١١ وملفات مفصلة تتعلق بانتاج أكثر من ٦٠٫٠٠٠ فيلم سينمائى تشتمل على معلومات وافية وصور لجميع الافلام السينمائية الامريكية التى أنتجت حتى الان ولعدد كبير من الافلام الاجنبية ٠ وجميع محتويات المكتبة مفتوحة للباحثين وللجمهور مجانا ٠

وتقوم الاكاديمية بحفظ أفلامها بأحدث الطرق العلمية لحمايتها من التلف ، وتحفظ نسخا منها فى مكتبة الكونجرس بواشنطن ٠

وتضم مكتبة الاكاديمية أكثر من ٢٠٠ من المجموعات الفنية الخاصة التى تبرع بها عدد من كبار العاملين فى السينما وبعض الصحفيين والكتاب على مر السنين ، كالممثلتين مارى بيكفورد وكولين مور والمخرجين جورج كيوكر وجورج ستيفنس وجون هيوستن ولويس مايلستون والفريد هتشكوك وفريد زينيمان ومصممة الازياء أيدت هيد والملقتين السينمائيتين لوبلابارسونز وهيدى هوبر

وتصدر الاكاديمية مجموعة من المطبوعات والنشرات بينها نشرة سينمائية دورية عن أهم الانجازات السينمائية توضع فى متناول الباحثين السينمائيين والمعاهد العلمية والجمهور . وتشتمل هذه النشرة الدورية على قائمة كاملة لجميع الافلام السينمائية التى يتم انتاجها فى

هوليود مزودة بقوائم مبوبة تضم أسماء جميع العاملين في تلك لافلام •

وتشتمل مكتبة الاكاديمية على قسم الاعلام السينمائي القومي الذي يقدم المساعدة والخدمات للباحثين والمدرسين والطلاب الذين يعيشون خارج منطقة مدينة لوس انجيليس

كذلك تقدم الاكاديمية سلسلة من المحاضرات والندوات العلمية التي تتعلق بمختلف أوجه صناعة السينما • وتشتمل نشاطات الاكاديمية أيضا على برنامج محاضرات متجول يقوم فيه عدد من السينمائيين البارزين بالتجول بين الجامعات الامريكية لالقاء المحاضرات والتحدث مع الطلبه والباحثين والمدرسين المهتمين بصناعة السينما والاجابة على أسئلتهم •

كما تقدم الاكاديمية سلسلة أسبوعية من عروض الافلام السينمائية التي فازت بجوائز الاوسكار منذ عام ١٩٢٧ حتى الوقت الحاضر • وجميع هذه العروض مفتوحة للجمهور مجانا • كما تقيم الاكاديمية معارض سنيمائية تشتمل على تصميم الازياء والخداع السينمائية والتصوير وما الى ذلك

كذلك تقدم الاكاديمية جوائز تقديرية خاصة للافلام السينمائية التي يخرجها الطلبة ، ويطلق على هذه الجوائز اسم جوائز الاوسكار الصغيرة ، وتقدم معها جوائز مالية تشجيعية • وتتاح فرصة التنافس على هذه الجوائز في الوقت الحاضر للطلبة الاجانب •

إختيار المرشحين والفائزين
بجـــوائـز الاوســـــــكار

أدخلت تعديلات عديدة على عملية التصويت لاختيـــار المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار على مر السـنين . وطبقت فى السنة الثانية نفس عملية اختيــــار المرشحين والفائزين التى اتبعت فى السنة الاولى ، الا أنها توسعت فى السنة الثالثة بحيث اشترك جميع أعضــــاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما فى عمليتى اختيارالمرشحين والفائزين بالجوائز ، واستمر ذلك حتى السنة الثامنة . الا أن الاعضاء المنتسبين لا يشتركون فى التصــــويت . غير أن العملية تغيرت مرة أخرى فى عام ١٩٣٦ حين أوكلت مهمة اختيار المرشحين الى لجنة خاصة بالترشيح للجوائز، قام بتعيين أعضائها رئيس الاكاديمية آنذاك المخرج فرانك كابرا ، ثم اشترك جميع أعضــــاء الاكاديمية بالتصـويت لاختيار الفائزين بجوائز الاوسكار .

وفى عام ١٩٣٧ ، وعملا بمبدأ تطبيق الديمقراطيـة ، قامت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السـينما بتغيير أنظمة التصويت لاختيار المرشحين والفـــائزين بجـوائز الاوسكار ، فدعت لاول مرة أعضاء جميع النقـــابات ذات العلاقة بالافلام السينمائية الى الاشتراك مع أعضـــــاء

الاكاديمية فى اختيار المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار وبذلك ساهم ١٢٫٠٠٠ شخص فى التصويت • وقد استمرت هذه السياسة لمدة ثمانى سنوات ، أى حتى عام ١٩٤٤ حين تم استثناء ممثلى الكومبارس من التصويت • الا أن أنظمة التصويت تغيرت مرة أخرى عام ١٩٤٦ ، بحيث اشترك فى اختيار المرشحين أعضاء النقابات السينمائية المختلفة وأعضاء الاكاديمية ، فى حين اقتصر التصويت للفائزين على أعضاء الاكاديمية وحدهم • واستمرت هذه السياسة حتى عام ١٩٥٧ حين أصبحت عمليتا التصويت للمرشحين وللفائزين بجوائز الاوسكار مقتصرتين على أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما •

عملية التصويت

تتم جميع مراحل عمليات التصويت لجوائز الاوسكار بالاقتراع السرى • ويقوم جميع أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بالتصويت للترشيح لجائزة أفضل فيلم ، وهى الجائزة الوحيدة التى يشترك جميع الاعضاء فى عملية ترشيحها • أما بالنسبة للجوائز الاخرى فيقوم أعضاء كل فرع من فروع الاكاديمية بالاشتراك فى عملية الترشيح فى الفئة التى يمثلها فرعه ، أى أن الممثلين يرشحون الممثلين والمخرجين يرشحون المخرجين والكتاب يرشحون الكتاب والمصورين يرشحون المصورين ، وما الى ذلك • ويقوم كل عضو بترشيح خمسة مرشحين فى كل فئة يشترك فى التصويت فيها • فالممثلون يشتركون فى الترشيح لاربع فئات ، ولذلك يرشحون خمسة ممثلين لجائزة أفضل دور يقوم به ممثل ويرشحون خمس ممثلات

لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة ، ويرشحون خمسة ممثلين لجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل ، ويرشحون خمس ممثلات لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة . كما يقوم الموسيقيين بترشيح خمس أشخاص في ثلاث فئات هي جائزة أفضل موسيقى تصويرية أصلية وجائزة أفضل موسيقى تصويرية مقتبسة وجائزة أفضل أغنية . ويقوم المخرجون بترشيح خمسة مخرجين لجائزة الاوسكار لافضل مخرج . كما يقوم الكتاب باختيار خمسة مرشحين لجائزة أفضل سيناريو أصلي وخمسة مرشحين لجائزة أفضل سيناريو مقتبس ، ويقوم المصورون باختيار خمسة مرشحين لجائزة أفضل مصور . وينطبق ذلك على أعضا الفروع الاخرى الذين يختارون خمسة مرشحين في كل فئة .

وتستثنى من ذلك الافلام الاجنبية والافلام الوثائقية والافلام القصيرة والمؤثرات الخاصة والمؤثرات البصرية والماكياج التي تقدم ترشيحاتها من قبل لجان كبيرة يشترك في عضويتها أشخاص يمثلون جميع فروع الاكاديمية .

ويشترك جميع أعضاء الاكاديمية في المرحلة الثانية للتصويت ، وهي اختيار الفائزين من بين قوائم الترشيح، بما في ذلك فئات الافلام الاجنبية والافلام الوثائقية والافلام القصيرة . أما الجوائز الفخرية والتقديرية ، بما فيها الجوائز العلمية والتقنية ، فيصوت على منحها أعضاء مجلس ادارة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين يبلغ عددهم ستة وثلاثين عضوا . ويمثل كل فرع من فروع الاكاديمة الاثنى عشر بثلاثة أعضاء في مجلس الادارة يتم اختيارهم عن طريق الانتخاب .

منظمة مستقلة تشرف على عـد الاصـوات

تشرف على عملية ارســال أوراق الاقتراع بالبريد الى جميع أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السـينما واستلامها وفرزها وعدها مؤسسة محاسبة حيادية مستقلة خاصة هي شركة برايس واترهاوس التى يقع مقـرها فى مدينة لوس انجيليس • وتتولى هذه الشركة تلك المسئولية منذ عام ١٩٥٣ •

وتعتمد عملية فرز الاصوات على السرية التــامة حتى لحظة فتح الظروف التى تحتوى على أسماء الفـائزين فى حفل توزيع جوائز الاوســكار • وقد عهدت مســئولية الاشراف على هذه المهمة منذ عام ١٩٧٧ الى الســيد فرانك جونسون ، وهو محاسب قانونى واحد اصـــحاب شركة برايس واترهاوس • ويقوم السيد جونسون فى كل عام باختيار موظف واحد من موظفى الشركة ليشــترك معه فى جميع مراحل عملية فرز الاصوات لمعرفة أسماء الفائزين بجوائز الاوسكار ، التى تحاط بسرية تامة ولا يعرفها الا السيد جونسون والموظف الذى اختاره للاشتراك معه فى هذه العملية •

ويقول السيد جونسون ان عملية افشــاء السر المتعلق

باسماء الفائزين شبه مستحيلة لان معرفة النتيجة تقتصر على شخصين فقط هو أحدهما • ويقوم السيد جونسون كل عام بتغيير الموظف الذى يشترك معه فى عملية فرز الاصوات وعدها واستبداله بموظف اخر فى سبيل المحافظة على تلك السرية • ويتم تحذير الموظف الذى يتم اختياره من العواقب الخطيرة المترتبة على تسرب أية معلومات تتعلق بنتائج التصويت •

وتشرف شركة برايس واترهاوس على كافة مراحل عملية التصويت من بدايتها حتى نهايتها • ففى كل عام تتلقى الشركة من الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما قائمة رسمية مصدق عليها بأسماء جميع الاعضاء وعناوينهم • وبعد التأكد من صحة تلك العناوين ، توضع أوراق الاقتراع داخل مظروف وتنقل باليد الى دائرة البريد • وتعطى كل ورقة اقتراع رقما معينا • لماذا فقدت احداها يتم استبدالها بورقة اقتراع اخرى تحمل رقما جديدا • واذا لم يتلق أحد أعضاء الاكاديمية ورقة اقتراعه يمكنه الاتصال بشركة برايس واترهاوس واشعارها بذلك لكى يحصل على ورقة اقتراع بديلة • ويحدد كل عام موعد نهائى لاستلام أوراق الاقتراع من أعضاء الاكاديمية بعد قيامهم بالتصويت لمرشحيهم المفضلين على قوائم المرشحين لجوائز الاوسكار •

وبعد استلام أوراق الاقتراع يقوم السيد فرانك جونسون باختيار خمسة موظفين من موظفى شركة برايس واترهاوس لمساعدته فى فرز وعد أجزاء معينة من أوراق الاقتراع ، ولكن هؤلاء الموظفين لا يشتركون الا فى جزء من عملية الفرز والعد ، ولا يعرفون النتائج النهائية التى

تقتصر على السيد جونسون والموظف الاخر الذى عهد اليه بمسئولية الاشتراك فى جميع مراحل عملية فرز الاصوات وعدها • وتوضع النتائج المتعلقة بأسماء الفائزين داخل ظروف مغلقة ومختومة لا يتم فتحها الا لحظة الاعلان عن أسماء الفائزين بجوائز الاوسكار أمام أنظار الملايين الذين يشاهدونها على شاشات التليفزيون فى سائر أنحاء العالم.

الاستديوهات الكبرى ودورها فى التصويت فى بداية عهد الاكاديمية

حتى عام ١٩٥٣ ، وهو العام الذى عهدت فيه الى شركة برايس واترهاوس مهمة الاشراف على مراقبة عملية التصويت لجوائز الاوسكار ، كانت هناك اشاعات كثيرة حول تبادل الاصوات لبعض المرشحين والفائزين بين الاستديوهات الكبرى فى هوليود ، وحول التلاعب فى عمليات التصويت • وقد هيمنت على جوائز الاوسكار فى سنواتها الاولى تلك الاستديوهات التى كانت تهيمن على قيادة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما •

ويعتقد البعض بان لويس ماير رئيس استديو مترو جولدوين ماير كان يتحكم الى حد كبير فى الاكاديمية منذ أن قام بتأسيسها عام ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٣٥ • ومن الامثلة التى يستشهد بها كدليل على ذلك أن استديو مترو جولدوين ماير حصل على ١٣٣ ترشيحا وفاز بثلاث وثلاثين من جوائز الاوسكار خلال السنوات العشر الاولى لتوزيع تلك الجوائز ، أى ضعف ما حصل عليه أى استديو آخر • وحين لم ترشح الممثلة بيتى ديفيس لجائزةالاوسكار

عن دورها الرائع فى فيلم « حول عبودية الانسان » عام ١٩٣٣ ، استشهد كثيرون فى هوليود بذلك كمثل آخر على التلاعب فى التصويت .

كما يستشهد بالممثلة جريتا جاربو ، وهى — فى نظر الكثيرين — اقدر ممثلة ظهرت على الشاشة السينمائية ، بأنها الضحية المثالية لمناورات استديوهات هوليود الكبرى اذ انها لم تفز بجائزة الاوسكار مع أنها رشحت لها أربع مرات . ويعتقد البعض بأنها كان يجب أن تفوز بجائزة الاوسكار مرتين ، فى عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٨ ، كما كان يجب أن ترشح ثلاث مرات أخرى لو لم يقف لويس ماير فى طريقها ويجند أصوات أعضاء الاكاديمية فى شركته ضدها ففى عام ١٩٣٠ قام ارفنج ثالبيرج مدير الانتاج فى شركة مترو جولدوين ماير بتعبئة الاصوات لصالح زوجته الممثلة نورما شيرر التى فازت بجائزة الاوسكار فى ذلك العام عن دورها فى فيلم « المطلقة » . وكررت الحملة ضد جريتا جاربو فى عام ١٩٣٧ حين جندت أصوات العاملين فى شركة مترو جولدوين ماير لصالح الممثلة لويس راينر التى فازت بالجائزة فى ذلك العام — للعام الثانى على التوالى — عن دورها فى فيلم « الارض الطيبة » . وقد حاولت هوليود التكفير عن خطيئتها بمنح جريتا جاربو جائزة أوسكار فخرية فى عام ١٩٥٤ .

تمثال الاوسكار

تتخذ جائزة الاوسكار شكل تمثال مصنوع من خليط من معدني النحاس والقصدير ومطلي بالذهب . ويبلغ طوله ٣٤ سنتيمترا ويزن ٨ر٥ رطل ، أو حوالى ٩ر٣ كيلو جرام . ويمثل التمثال فارسا يحمل سيفا ويقف على بكرة فيلم تمثل اشعتها الخمسة الفروع الخمسة الاصلية للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما والتي تمثل الممثلين والكتاب والمخرجين والمنتجين والفنيين .

وقد قام بتصميم تمثال جائزة الاوسكار المدير الفنى سيدريك جيونز عام ١٩٢٨ وقام بمنحته المثال جورج ستانلى لقاء ٥٠٠ دولار . والتغيير الوحيد الذى ادخل على التمثال منذ ذلك الوقت هو زيادة طول القاعدة التى يقف عليها لتتناسب مع شكل التمثال وطوله .

وقد كلفت شركة « دودج تروفى » الواقعة فى بلدة كريستال ليك بولاية الينوى بصنع تماثيل جوائز الاوسكار عام ١٩٢٨ ، وانتقلت مهمة انتاج هذه التماثيل عام ١٩٥٩ الى فرع الشركة فى بلدة كارسون بولاية كاليفورنيا ،ولكن المهمة عادت الى مقر شركة « دودج تروفى » بولاية الينوى بعد الزلزال الذى وقع فى ولاية كاليفورنيا عام ١٩٦٩ .

وتتقاضى هذه الشركة من الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ٢٠٠ دولار ثمنا لتمثال الاوسكار الواحد • وينقش على كل تمثال رقم متسلسل • وبعد توزيع جوائز الاوسكار على الفائزين يتم استرجاع تماثيل الاوسكار منهم لنقش أسمائهم عليها ثم تعاد اليهم مرة أخرى • ويشترط على كل من يقبل جائزة الاوسكار أن يوقع اتفاقا مع الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما يتعهد فيه بعدم بيع الجائزة أو اتلافها قبل أن يعرضها أولا على الاكاديمية لقاء مبلغ عشرة دولارات ويسرى مفعول هذا الاتفاق على كل من يحصل على جائزة الاوسكار من أحد الفائزين بها عن طريق الارث أو كهدية •

وتقوم شركة « دودج تروفى » كل عام بصنع ستين تمثالا ، وهو الحد الاقصى لعدد الفائزين بجوائز الاوسكار بالنظر لتعدد المرشحين لنفس الجائزة فى نفس الفئة * فمثلا قد يتقاسم جائزة أفضل مدير فنى ـ مهندس ديكور ثلاثة أو أربعة أشخاص ، وقد يتقاسم جائزة أفضل أغنية شخصان • ويقوم ممثلو شركة « دودج تروفى » بنقل تماثيل الاوسكار الى مقر توزيع الجوائز واعطائها لمقدميها ثم جمعها من الفائزين لنقش اسمائهم عليها قبل اعادتها اليهم • كما يقوم بارجاع تماثيل الاوسكار غير المستعملة الى مقر الشركة بولاية الينوى لاستخدامها فى السنة التالية •

* فى عام ١٩٦٢ تقاسم جائزة الاوسكار لافضل مدير فنى ـ مهندس ديكور بالالوان عن فيلم « كيلو باكرا » عشرة أشخاص.

كيف جاء اسم "أوسكار" ؟

حين بدأت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما تقديم جوائز الاوسكار عام ١٩٢٩ كانت هذه الجوائز تعرف باسم « جوائز الاستحقاق » أو «جوائز الاكاديمية» والاسم الاخير ما زال يطلق عليها حتى الآن • الا ان اسما جديدا هو « أوسكار » بدأ يطلق عليها عام ١٩٣١ ــ وسرعان ما أصبح الاسم المفضل والشائع لها فى الاوساط الفنية والشعبية على حد سواء ، وذلك رغم معارضة الاكاديمية لهذا الاسم فى البداية • الا أن الاكاديمية تراجعت بعد سنة وتبنت اسم « أوسكار » لجوائزها ، وهو اسم شاع انتشاره منذ عام ١٩٣٢ •

وهناك ثلاث روايات مختلفة تتعلق بأصل هذه التسمية• اذ أن هناك ثلاثة أشخاص ينسب كل منهم الى نفسه الفضل فى اطلاق اسم « أوسكار » على هذه الجوائز • أول هؤلاء الاشخاص هى مارجريت هيريك ، وهى أول أمينة لمكتبة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ومديرتها الادارية فيما بعد • فقد ادعت مارجريت أنها صرخت ذات يوم قائلة ان التمثال يذكرها بعمها « أوسكار » • والثانية هى الممثلة بيتى ديفيس الحائزة على اثنتين من جوائز

الاوسكار والتي تدعي انهـا أطلقت على التمثـال اسم « اوسكار » حين لاحظت أن مؤخرته تذكرها بمؤخرة زوجها هارمون « أوسكار » نيلسون • والثالث هو المعلق الصحفي والفني سيدني سكولسكي الذى قال انه هو الذى أطلـق اسم « أوسكار » على التمثال حين سقم من استخدام كلمة « تمثال » في مقالاته الصحفية ، ثم شاع استعمال هـذا الاسم فيما بعد •

وقد سـألت السـيد بروس ذيفيس المدير الادارى للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في مقابلة معه في مكتبه عن موقف الاكاديمية الرسمى من صاحب تسمية جوائز الاكاديمية « بالاوسكار » ، فقال انه ليس للاكاديمية رواية مفضلة بين هذه الروايات الثلاث ، وأشار الى أن كلا منها قابلة للتصديق •

جائزة أفضل فيلم

جائزة الاوسكار لافضل فيلم هى الجائزة الوحيدة التى يشترك جميع أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما فى عملية ترشيحاتها وكذلك فى عملية اختيار الفيلم الفائز بها • ولا تضم هذه الترشحات حاليا أى فيلم يرشح لجائزة أفضل فيلم وثائقى طويل ، ولكنها تضم الافلام المرشحة لجائزة أفضل فيلم أجنبى • وقد تم تعديل هذه القاعدة ، اذ كان يسمح حتى عام ١٩٦٩ بترشيح الفيلم الاجنبى لجائزة أفضل فيلم وجائزة أفضل فيلم أجنبى فى نفس الوقت ، كما حدث لفيلم « ز » الذى قدم باسم الجزائر والذى رشح للجائزتين عام ١٩٦٩ وفاز بجائزة أفضل فيلم أجنبى • الا أن هذه القاعدة غيرت فى عام ١٩٧٠ حيث لم يسمح بترشيح الفيلم الاجنبى للجائزتين فى نفس الوقت • ولكن القاعدة عدلت مرة أخرى فى عام ١٩٨٧ وأصبح من الممكن ترشيح الفيلم الاجنبى لجائزة أفضل فيلم وجائزة أفضل فيلم أجنبى فى نفس الوقت •

كما رشح لجائزة أفضل فيلم فيلمان اخران غير ناطقين باللغة الانجليزية هما الفيلم الفرنسى « الوهم الكبير »

١٩٣٨ والفيلم السويدى « صرخات وهمسات » ١٩٧٣ . وفاز بجائزةأفضل فيلمثمانية أفلام بريطانية هي «هامليت» ١٩٤٨ و « لورنس العرب » ١٩٦٢ و « توم جونز »١٩٦٣ و « رجل لجميع الفصول » ١٩٦٦ و « أوليفر » ١٩٦٨ و « مركبات النار » ١٩٨١ و « غاندى » ١٩٨٢ والامبراطور الاخير ١٩٨٧ .

وتضم قائمة الترشيح لجائزةأفضل فيلم الافلامالخمسة التي تحصل على أكبر عدد من الاصوات ، والتى يختار منها أعضاء الاكاديمية الفيلم الفائز بجائزة أفضل فيلم فى المرحلة الثانية للتصويت . وتمنح جائزة الاوسكار لافضل فيلم لمنتج أو منتجى الفيلم ، ولكنها لا تمنح للمنتجين التنفيذيين أو لمساعدى المنتجين أو المنتجين المشاركين .

والسؤال الذى قد يخطر على بال البعض هو : ما الذى يميز الافلام التى فازت بجائزة الاوسكار لافضل فيلم حتى الان عن غيرها من الافلام السينمائية ؟ وما هى العوامل التى يجب أن تتوفر فى الفيلم لكى يفوز بجائزة الاوسكار ؟

عند القيام باستعراض سريع لتلك الافلام نجد أنها تتميز بخصائص معينة تضعها فى كثير من الاحيان فى مكانة خاصة بها وتطغى على الافلام التى تنافسها ، كفيلم « ذهب مع الريح » ١٩٣٩ . الا أن بين الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار أفلام تفتقر الى هذه الخصائص ، وتبدو عند الرجوع الان الى الوراء أنها أضعف من أى من الافلام التى نافستها على الجائزة فى قائمة الترشيح كفيلم « روكى » ١٩٧٦ . وبين الافلام التى رشحت لجائزة الاوسكار ولم تفز بها أفلام تبدو الان أفضل بكثير من الافلام التىنافستها على الجوائز كفيلم « المواطن كين » .

١٩٤١ الذى يتفق معظم السينمائيين ونقاد السينما فى العالم على أنه أفضل فيلم أنتج فى تاريخ السينما • ومن الافلام التى لم ترشح لجائزة الاوسكار أفلام تبدو الان أفضل من الافلام التى فازت بجائزة الاوسكار فى نفس العام الذى صدرت فيه ، كالفيلم الغنائي والاستعراضي « غناء تحت المطر » ١٩٥٢ • ففى ذلك العام منحت جائزة الاوسكار لفيلم « أعظم استعراض فى العالم » الذى انتزع الجائزة من فيلم « قطار الظهر » لاسباب سياسية فى عام مثل فيه كاتب سيناريو فيلم « قطار الظهر » كارل فورمان امام لجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة فى مجلس النواب الامريكى بسبب اتهامه بالشيوعية • أما فيلم « غناء تحت المطر » فلم يرشح لجائزة الاوسكار ، علما بانه يعتبر الان أعظم فيلم موسيقى واستعراضى امريكى انتج حتى الان •

ولا يقل عن ذلك غرابة عدم ترشيح فيلم « ٢٠٠١ : رحلة فى الفضاء » عام ١٩٦٨ ، وهو العام الذى فاز فيه بجائزة الاوسكار الفيلم الموسيقى البريطانى «اوليفر» الذى يعتبره كثير من النقاد اضعف الافلام التى رشحت لجائزة الاوسكار فى ذلك العام • والاهم من ذلك أن الفيلم « ٢٠٠١ رحلة فى الفضاء » للمخرج ستانلى كوبريك ، والذى لم يرشح لجائزة الاوسكار ، يعتبر الان واحدا من افضل عشرة أفلام أنتجت فى تاريخ السينما •

ولعل فيلم « بن هير » الذى فاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم عام ١٩٥٩ يقدم نموذجا للافلام التى تتوفر

فيها شروط الفوز بجائزة أفضل فيلم • فقد فاز هـذا الفيلم باحدى عشرة من جوائز الاوسكار ، وهو انجـاز لم يحققه أى فيلم اخر حتى الان • ويشتمل فيلم « بن هير » على الكثير من مقومات الفيلم الجيد • فقصة الفيلم قـوية ومشوقة ومثيرة ، وانتاجه ضخم وأداء ممثليه ممتـاز ، والمستوى الفنى للفيلم مثير للاعجاب •

كما حظى الفيلم بثناء من النقاد ففيلم «بن هير» يجمع بين مقومات الفيلم السينمائى الناجح فنيا وتجاريا •

وتشترك معظم الافلام الفائزة بهذه الجـائزة مع فيلم « بن هير » بالعديد من خصائصه الاخرى ، وفى مقدمتهـا توفر قصة قوية • اذ تتناول معظم الافلام الفائزة موضوعات هامة وذات مغزى • وقد حالفـ بعضها الحظ لانها عرضت فى الوقت المناسب كفيلم « أفضل سنوات حياتنا » ١٩٤٦ الذى كان أول فيلم يفوز بجائزة الاوسـكار بعد انتهـاء الحرب العالمية الثانية • فقد عالج هذا الفيلم مشكلة تكيف الجنود العائدين من الحرب مع الحياة المدنية ، وهى تجربة كان يعيشها مئات الآلاف من الجنود الامريكيين •

ومن الامثلة الاخرى على ذلك فيلم « فى ذروة الليـل » الذى عالج مشكلة التعصب العنصرى والذى فاز بجـائزة الاوسكار فى نفس الاسبوع الذى أغتيل فيه زعيم حـركة الحقوق المدنية الامريكية القس مارتن لوثر كنج •

غير أن ذلك لا يعنى أن موضوع قصـة الفيلم يجب أن يكون جادا لكى يفوز بجائزة الاوسكار • فقد فاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم حتى الان تسعة أفلام موسـيقية

وسبعة افلام كوميدية . الا أن هذه الافلام تناولت قصصا عميقة ومؤثرة وعالجت موضوعات اجتماعية هامة . مثال ذلك الفيلم الموسيقى « قصة الحى الغربى » ١٩٦١ للمخرج روبرت وايز ، والفيلم الكوميدى الساخر « آنى هول » ١٩٧٧ للمخرج وودى الين .

وعند استعراض الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار لافضل فيلم نجد أن معظم قصصها ليست مكتوبة للسينما أصلا بل مقتبسة من مصادر أخرى . اذ تزيد القصص المقتبسة على القصص السينمائية الاصلية بنسبة أربعة الى واحد . وقصص الافلام المقتبسة قد تستند الى روايات كفيلم « أشخاص عاديون » ١٩٨٠ أو الى مسرحيات كفيلم «الموكب» ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ، أو الى مسرحيات موسيقية عرضت على مسارح برودواى كفيلم « سيدتى الجميلة » ١٩٦٤ أو حتى مسرحية تليفزيونية كفيلم « مارتى » ١٩٥٥ .

وما من شك فى أن هذه القصص نقحت وصقلت وتحسنت خلال المراحل التى مرت بها قبل وصولها الى الشاشة السينمائية ، وفى أن النجاح الذى حققته فى صيغها وأشكالها السابقة أسهم فى التأثير على آراء أعضاء الاكاديمية الاميريكية لفنون وعلوم السينما الذين يختارون الافلام المرشحة والفائزة بجوائز الاوسكار .

ومع ذلك فان الافلام المبنية على قصص أصليه تكتب خصيصا للشاشة فازت بعدد كبير من جوائز الاوسكار كفيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ ، وفيلم « روكى » ١٩٧٦ وفيلم « مركبات النار » ١٩٨١ ، وفيلم « غاندى » ١٩٨٢

كما أن ضخامة الانتاج تلعب دورا هاما فى فوز الافلام بجائزة الاوسكار فى كثير من الاحيان لان مثل هذه الافلام نتميز بجمالها واثارتها • ومن الامثلة على ذلك فيلم « ذهب مع الريح » ١٩٣٩ ، وفيلم « حول العالم فى ٨٠ يوما » ١٩٥٦ وفيلم « لورنس العرب » ١٩٦٢ •

كذلك نجد أن الافلام الفائزة بجوائز الاوسكار تكون عادة أطول من غيرها من الافلام • اذ يزيد معدل طول الفيلم الفائز بجائزة الاوسكار من غيره بحوالى نصف ساعة ، كما تزيد تكاليف الفيلم الفائز عادة على الفيلم العادى • لكن ضخامة الميزانية لا تضمن فوز الفيلم بجائزة الاوسكار واكبر دليل على ذلك أن أيا من الافلام الثمانية عشرة الاولى من حيث التكاليف فى تاريخ هوليود لم يفز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم • وعلى النقيض من ذلك ، فقد فاز فيلم « مارتى » ١٩٥٥ الذى بلغت تكاليفه ٣٥٠٫٠٠٠ دولار فقط بتلك الجائزة •

كما يتضح أن أعضاء الاكاديمية الذين يختارون الفائزين يفضلون الافلام التى تحقق شعبية كبيرة فى دور السينما وبعد أن يفوز الفيلم بجائزة الاوسكار لافضل فيلم يزداد الاقبال على مشاهدته فى دور السينما وتزداد شعبيته • فبين الافلام الستين التى فازت بجائزة أفضل فيلم حتى الان خمسة وعشرون بين الافلام المائتين الاولى التى حققت أعلى الايرادات فى دور السينما ، كما أن ثلثيها وردت على القائمة السنوية لافضل عشرة أفلام فى صحيفة النيويورك تايمز •

ويلاحظ أن الفيلم الذى يفوز بجائزة أفضل فيلم يفوز

عادة بعدد من جوائز الاوسكار الاخرى • ويبلغ المعدل اربع جوائز أوسكار اضافية للفيلم الفائز ، وخاصة جائزتى أفضل مخرج وأفضل سيناريو • فمن بين الافلام الفائزة بجائزة أفضل فيلم حتى الان ٤٥ فيلما فازت أيضا بجائزة أفضل مخرج و ٣٩ فيلما فازت بجائزة أفضل سيناريو • كما فازت هذه الافلام باثنتين وعشرين جائزة أفضل مهندس فنى و ١٩ جائزة أفضل مونتاج و ١٨ جائزة أفضل مصور • وفاز ممثلو الافلام الفائزة بجوائز الاوسكار لافضل فيلم حتى الان بسبع وسبعين جائزة ، منها ٢١ جائزة لافضل ممثل و ١١ جائزة لافضل دور مساعد يقوم به ممثل و ٧ جوائز لافضل ممثلة و ٨ جوائز لافضل دور تقوم به ممثلة • اى أن معظم هذه الجوائز منحت لممثلين ذكور • ولعل سبب ذلك هو ان الكثير من الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار تتعلق بقصص حربية أو بمغامرات يهيمن عليها الرجال عادة •

وما من شك فى ان كل فيلم حائز على جائزة الاوسكار لافضل فيلم لايقاس بعدد جوائز الاوسكار التى يحوز عليها فحسب ، بل بالافكار التى يشتمل عليها • وقد وصف المنتج السينمائي المخضرم سام سبيجل الحائز على ثلاث من جوائز الاوسكار ذلك بقوله « ان أفضل الافلام السينمائية هى تلك التى ترفه عن المشاهدين والتى تترك لدى المشاهد انطباعا يثير تفكيره فى الفيلم بعد أن ينتهى عرض الفيلم ويغادر دار السينما • والفيلم الذى لا يثير افكار المشاهد لا يكون فيلما جيدا على العموم ولا يرفه عن المشاهد » •

الأفلام ذات المواضيع الحربية فى المقدمة

كان اول فيلم يفوز بجائزة الاوسكار هو فيلم « اجنحة » وهو فيلم صامت اشتمل على العديد من المعارك الجوية المدهشة التى صورت أحداث الحرب العالمية الاولى • وقد حصل حتى الان ثلاثة عشر فيلما تتعلق بالحروب واثرها على حياة الناس بجائزة الاوسكار لافضل فيلم ، وبذلك تكون القصص ذات العلاقة بالحروب واثرها ، والتى لا تكون بالضرورة أفلاما حربية ،فى مقدمة مواضيع الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار •

ومع أن بعض هذه الافلام تشتمل على معارك تقدم بصورة فنية مدهشة ، فانالموضوع الاساسى الذى تشترك فيه جميع هذه الافلام هو أثر الحروب على حياة الناس والذى يتركز عادة على حياة مجموعات صغيرة منهم • وتشدد الافلام الفائزة عادة على مرارة الحرب ومفارقاتها بدلا من التاكيد على أمجادها • ويقدم كل من فيلم « كل شيءهادى على الجبهة الغربية » ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ وفيلم « صياد الغزلان » ١٩٧٨ وفيلم « فصيلة » ١٩٨٦ صورة واقعية لمآسى الحرب العالمية الاولى وحرب فيتنام •

ومع أن فيلمى « ذهب مع الريح » و « لورنس العرب » يركزان على شخصيتيهما الرئيستين ، وهما سكارليت أوهارا وتوماس لورنس ، فان هذين الفيلمين يستخدمان الحرب الاهلية الامريكية والحرب العالمية الاولى كخلفيتين لاضفاء العنف والاثارة على قصتيهما البطوليتين •

ونلاحظ أن الافلام الستة المتعلقة بالحرب العالمية الثانية بين الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار تتناول

بالتحليل مشاعر الناس فى مراحل مختلفة من الحرب . وتقدم هذه الافلام مجتمعه صورة متكاملة للحرب واحداثها ففيلم «مسز منيفر» ١٩٤٢ يسلط الضوء على حياة أسرة بريطانية فى بداية الحرب . وفيلم « الدار البيضاء » ١٩٤٣ يتناول قصة حب عاصفة فى ظل الحرب التى تمتد رقعتها بسرعة .

اما فيلم « أجمل سنوات حياتنا » ١٩٤٦ فيركز على حياة ثلاثة عسكريين عائدين من الحرب والصعوبات التى يواجهونها أثناء محاولة التكيف مع الحياة المدنية فى بيئتهم الاصلية . ويصور فيلم « من هنا الى الابد » ١٩٥٣ حياة الجنود فى الثكنات العسكرية فى هاواى قبل هجوم اليابان مباشرة على بيرل هاربر وبعد الهجوم . ويقدم فيلم « جسر على نهر كواى » ١٩٥٧ صورة للحياة فى معسكرات أسرى الحرب فى أدغال آسيا . أما فيلم « باتون » ١٩٧٠ فيسلط الضوء على شخصية جنرال عظيم وانتصاراته العسكرية ومحنته الشخصية . والعامل المشترك فى جميع هذه الافلام هو العنصر الانسانى وأثر الحرب على حياة الانسان فى مراحل وظروف مختلفة .

الافلام ذات المغزى الاجتماعى

تحتل الافلام ذات المواضيع الاجتماعية مكانة هامة بين الافلام الفائزة بجائز افضل فيلم . فقد فاز اثنا عشر فيلما من الافلام ذات الرسائل الاجتماعية بهذه الجائزة حتى الان . وتتميز هذه الافلام بمعالجتها الجريئة للقضايا التى تواجه المجتمع كالادمان على الكحول وتهريب المخدرات

والفساد السياسي والطلاق والانتحار والتعصب العنصرى وتفشى الفساد بين النقابات العمالية •

ومع أن هذه الافلام غير قادرة على حل المشاكل الاجتماعية فان الافلام الجيدة قادرة على القاء الضوء عليها ومعالجتها بطريقة بناءة • وقد أسهمت الافلام الاجتماعية الفائزة بجائزة الاوسكار في تعزيز وعى الجمهور وتفهمه للمشاكل الهامة التى تواجه المجتمع ، وهى الخطوة الاولى نحو التوصل الى حل لهذه المشاكل •

الافلام الموسيقية والاستعراضية

تقدم الافلام الموسيقية والاستعراضية ، رغم انخفاض شعبيتها خلال العقدين الماضيين ، مثالا جيدا على الافلام التى تروق لرواد السينما ولاعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين يصوتون للافلام الفائزة • فهذه الافلام تتميز عادة بضخامة انتاجها وجمال الحانها واستعراضاتها وقصصها الغرامية ونهايتها السعيدة التى تحببها الى الجمهور •

وقد فاز تسعة من هذه الافلام حتى الان بجائزة الاوسكار لافضل فيلم • وكان أول فيلمين موسيقيين يفوزان بجائزة الاوسكار ، وهما « لحن برودواى » ١٩٢٩ و « زيجفيلد العظيم » ١٩٣٦ مبنيين على قصتين تتعلقان بالمسرح • أما الفيلمان الثالث والرابع ، وهما « ذاهب فى طريقى » ١٩٤٤ و « أمريكى فى باريس » ١٩٥١ فقد استندا الى قصص تدور بعيدا عن المسرح ، وبذلك شكلا تحديا أكبر عند تقديم الاغانى فى سياق سرد قصة الفيلم •

وتشكل فترة العشر سنوات الممتدة بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٨ ذروة نجاح الافلام الموسيقية ، سواء فى دور السينما أو فى الفوز بجوائز الاوسكار • فبين الافلام الاحد عشر التى فازت بجائزة أفضل فيلم خلال تلك الفترة خمسة أفلام موسيقية واستعراضية هى « جيجى » ١٩٥٨ وفيلم « قصة الحى الغربى » ١٩٦١ وفيلم « سيدتى الجميلة » ١٩٦٤ وفيلم « صوت الموسيقى » ١٩٦٥ وفيلم « أوليفر » ١٩٦٨ • ومما يذكر أن فيلم « أوليفر » هو أحدث فيلم موسيقى يفوز بجائزة الاوسكار •

جائزة افضل ممثل

يشترك فى عملية الترشيح لجائزة أفضل ممثل أعضاء فرع الممثلين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما وتضم قائمة المرشحين لجائزة أفضل ممثل الممثلين الخمسة الذين يحصلون على أكبر عدد من الاصوات ، ثم يقوم جميع أعضاء الاكاديمية باختيار الفائز بجائزة أفضل ممثل فى المرحلة الثانية للتصويت •

وتمنح جائزة أفضل ممثل منذ السنة الاولى لتقديم جوائز الاوسكار ، وقد استمر تقديمها منذ ذلك الوقت ، وهى دون شك من أهم جوائز الاوسكار •

ويأخذ أعضاء الاكاديمية بالاعتبار عمق اداء الممثل واهمية الدور ووقعه على المشاهدين عند التصويت للفائزين ولربما كانت وسامة الممثل أو جمال صوته وعمقه من العوامل التى تثير اعجاب هواة السينما ، الا أن من يصوتون للمرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار لايأخذون

مثل هذه الامور بالاعتبار ، بل تمنح الجوائز لاصحاب المواهب الذين يقومون بأدوار سينمائية هامة .

ونجد بين الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار طائفة متنوعة من الاشكال والاعمار . فبينهم ممثلون وسماء فارعو القامة مثل جارى كوبر وجريجورى بيك وجيمس ستيوارت وكلارك جبل وبينهم من يفتقرون الى هذه السمات كتشارلز لوتون وأرنيست بورجناين وريتشارد درايفس وبين كنجسلى . ولكن جميع الفائزين يشتركون بالقيام بأدوار شخصيات قوية ومؤثرة تواجه تحديات قد تكون كبيرة أو صغيرة ، ولكنها تثبت وجودها، كما نرى فى أدوار مثل دور برودريك كروفورد فى فيلم « جميع رجال الملك » وهمفرى بورجارت فى فيلم « ملكة أفريقيا » .

كما يتمتع الفائزون بجائزة أفضل ممثل بقسط كبير من الكرامة والنبل والوقار ويقومون عادة بأدوار رجال أصحاب مبادىء لا يتخلون عنها أمام المصاعب ، كما نرى فى أدوار مثل دور جارى كوبر فى فيلم « قطار الظهر » وجريجورى بيك فى فيلم « مقتل طائر محاكى » وسيدنى بوتييه فى فيلم « زنابق الحقل » .

ويقوم الفائزون بجائزة أفضل ممثل بأدوار شخصيات تاريخية كدور سير توماس مور للممثل بول سكوفيلد فى فيلم « رجل لجميع الفصول » ودور الجنرال جورج باتون للممثل جورى سى . سكوت فى فيلم « باتون » ، ودور المهاتما غاندى للممثل بين كنجسلى فى فيلم « غاندى » .

وهناك فائزون قاموا بأدوار رجال دين مثل سبنسر تريسى فى فيلم « بلدة الاولاد » وبنج كروسبى فى فيلم

« ذاهب في طريقى » ، أو قاموا بأدوار ملوك مثل تشارلز لوتون في فيلم « الحياة الخاصة لهنرى الثامن » وبول بريمر في فيلم « الملك وأنا » ، أو قاموا بأدوار أشخاص عاديين يواجهون محنا شخصية كبيرة مثل راى ميلاند في فيلم « نهاية الاسبوع الضائعة » ورونالد كولمان في فيلم « حياة مزدوجة » وكليف روبرتسون في فيلم « تشارلى »

وإذا كان للحظ أى دور في اختيار الممثل الفائز بالجائزة فهو في اختياره للدور الذى أتاح له فرصة الابداع في أداء دوره والفوز بالجائزة ،وهى فرصة سمحت له بتجسيد سمات عقلية وانسانيةحفظت على الشريط السينمائى الى الابد • ومن الامثلة على الاشخاص الذين لعب الحظ دورا في اختيارهم لادوارهم واتاح لهم فرصة الابداع والفوز الممثلان تشارلتون هيستون وريكس هاريسون اللذان فازا بجائزة الاوسكار عن دوريهما في فيلم «بن هير »«وسيدتى الجميلة » بعد أن كان هذا الدوران قد عرضا على ممثلين آخرين وقوبلا بالرفض •

ويمكن القول باختصار ان كل ممثل فاز بجائزة الاوسكار لافضل ممثل قام بالدور الملائم في الوقت الملائم

ولعل دور الممثل جارى كوبر في فيلم « قطار الظهر » الذى فاز عنه بجائزة الاوسكار الثانية في عام ١٩٥٢ يقدم نموذجا للدور الذى تتوفر فيه معظم السمات المطلوبة للدور الفائز بجائزة الاوسكار • اذ يؤدى جارى كوبر دور المارشال ويل كين في الفيلم بحساسية نادرة في السينما ويجسد شخصية بطل الفيلم ويعبر عن انفعالاته ومشاعره الانسانية بدقة متناهية •

وتتوفر في شخصية بطل الفيلم معظم السمات المطلوبة

لفوز من يؤدى دوره بجائزة الاسكار • فهو شخص قوى يواجه تحديا كبيرا ولكنه ينتصر فى النهاية • كما انه يتمتع بقسط وافر من الكرامة والنبل والوقار ، وهو صاحب مبدأ يحارب من أجل مبدئه ولا يتخلى عنه رغم الصعاب الجمة التي تواجهه • ويشير النقاد الى التشابه الكبير بين شخصية الممثل جارى كوبر وشخصيات معظم الابطال الذين قام بأدوارهم فى أفلامه ، والتى يقدم فيلم « قطار الظهر » مثلا عليها ، مما يسهل عليه بث الحياة فى أبطال أفلامه بصورة طبيعية •

تغير شخصية « بطل » الفيلم الفائز بجائزة الاوسكار

حين فاز مارلون براندو بجائزة الاوسكار لافضل ممثل لعام ١٩٥٤ عن دوره فى فيلم « ذئاب الميناء » بدأ بذلك عهدا جديدا لادوار أبطال الافلام الذين يفوزون بجائزة الاوسكار • فقد كان الابطال التقليديون الذين يفوزون بجائزة الاوسكار على العموم حتى ذلك الوقت أشخاصا فاضلين معروفين باستقامتهم • وقد تخصص جارى كوبر وجيمس ستيوارت مثلا بالقيام بأدوار رجال تقترن شخصياتهم بعناصر الخير • الا أن شخصية «تيرى مالوى» الذى قام مارلون براندو بدوره في فيلم « ذئاب الميناء » شذت عن تلك القاعدة • فقد كان شخصا مختلفا تمام الاختلاف عن البطل التقليدى لانه جسد رجلا يحمل العديد من العيوب ونقاط الضعف التى لم تكن مألوفة قبل ذلك في شخصية الفائز بجائزة الاوسكار •

ومع أن مارلون براندو لم يبتكر هذه الشخصيات

المعقدة المثيرة لاهتمام المشاهدين ، فقد أسهم فى نشر شعبيتها • وقد فاز بجائزة الاوسكار للمرة الثانية عن القيام بدور شخص شرير هو زعيم عصابات المافيا فيتو كورليونى فى فيلم « العراب » عام ١٩٧٢ •

وعلى أثر فوز مارلون براندو بجائزة الاوسكار الاولى عام ١٩٥٤ فتح بذلك الطريق أمام عشرات الترشيحات لجائزة الاوسكار أو الفوز بها عن ادوار مماثلة خارجة عن المألوف ، سواء لافضل ممثل أو لافضل دور مساعد يقوم به ممثل •

ومن الامثلة الكثيرة على المرشحين والفائزين منذ ذلك الوقت رود ستايجر فى فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ وفيلم « ذروة الليل » ١٩٦٧ ، وجيمس دين فى فيلم « شرقى عدن » ١٩٥٥ وفيلم « العملاق » ١٩٥٦ ، وسال مينيو فى فيلم « متمرد بدون سبب » ١٩٥٥ ، وبول نيومان فى فيلم « هاد » ١٩٦٣ وفيلم « الحكم » ١٩٨٢ وفيلم « لون النقود » ١٩٨٦ ، وستيف مكوين فى فيلم « حصى الرمل » ١٩٦٦ ، ودستن هوفمان فى فيلم « الخريج » ١٩٦٧ وفيلم « كاوبوى منتصف الليل » ١٩٦٩ وفيلم « لينى » ١٩٧٤ ، وجاك نيكولسون فى فيلم « الراكب المتمهل » ١٩٦٩ وفيلم « خمس قطع سهلة » ١٩٧٠ وفيلم « شرف بريتزى » ١٩٨٥ وروبرت دينيرو فى فيلم « صياد الغزلان » ١٩٧٨ وفيلم « الثور الهائج » ١٩٨٠ ، وآل باشينو فى فيلم « العراب » ١٩٧٢ وفيلم « العراب - الجزء الثانى » ١٩٧٤ ، وفريد مرعى ابراهيم فى فيلم « أماديوس » ١٩٤٨ ، والبيرت فينى فى فيلم « تحت

البركان » ١٩٨٤ ، ووليام هيرت فى فيلم « قبلة المرأة العنكبوت » ١٩٨٥ وغيرهم كثيرون .

وقد شابت شخصيات هؤلاء الابطال عيوب كثيرة ومتنوعة ، ولكنها تميزت بناحية ايجابية هامة وهي ازدراؤها للزيف والنفاق والتظاهر بجميع اشكاله . وتميز هؤلاء الاشخاص بصدقهم مع أنفسهم وعدم اكترائهم بنظرة الناس اليهم رغم عيوبهم الكثيرة .

وقد رافق ظهور هذه الشخصيات أسلوب جديد في التمثيل يعرف باسم « الاسلوب المنهجى » الذى يعود الفضل الى مارلون براندو فى نشر شعبيته . ويقترن الاداء القوى لمعظم هؤلاء الممثلين بهذا الاسلوب فى التمثيل الذى تبناه المخرج ايليا كازان فى فيلم « ذئاب الميناء » والممثل الراحل لى ستراسبيرج مدير استديو الممثلين فى نيويورك والذى درس فيه عدد كبير من ابرز ممثلى الخمسينات الذين لمعوا على مسارح برودواى فى نيويورك قبل أن ينتقلوا الى السينما .

ويتلخص « الاسلوب المنهجى » فى التمثيل فى ايجاد الممثلين للعواطف والاحاسيس الدفينة فى كيانهم ثم « العيش » في ادوارهم بدلا من ترجمتها بأسلوب مسرحى مفتعل .

وقد أسهم هذا الاسلوب فى التمثيل وشخصيات الابطال العادية التى تشوبها بعض العيوب فى مصداقية أصحابها . ومع أن هذه الشخصيات كانت سيئة فى كثير من الاحيان فقد كانت جذابة من نواح عديدة ومثيرة للاهتمام .

وفى حين أن شخصيات الابطال التى قام جارى كوبر

وجيمس ستيوارت وهنرى فوندا بأدوارها كانت فاضلة ومحبوبة وملهمة للاخرين ، فان شخصيات الابطال التى قام بها مارلون براندو وروبرت دينيرو ودستن هوفمان وجاك نيكولسون لم تكن محبوبة أو مكروهة ، الا ان مشاهدى الاقلام السينمائية وجدوا فى شخصياتها عوامل وخصائص تربطهم بها .

وقد أدرك أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما المجهود الاضافى المطلوب للقيام بهذه الادوار والصعوبة المقترنة بذلك . فدور البطل الفاضل أو عنصر الشر الاثيم قلما يكون على نمط واحد مستقر ، ولكن شخصيات الابطال العاديين التى تشوبها بعض العيوب تقع فى الوسط بين نقيضين ويتعين على من يقومون بأدوارها الجمع بين خصائص وانفعالات متباينة تتطلب حساسية ومواهب خاصة .

جائزة الاوسكار لافضل ممثل كتقدير للانجازات السينمائية لمدى الحياة

كثيرا ما يفوز الممثلون بجائزة الاوسكار فى مرحلة متقدمة من حياتهم الفنية ، وبذلك تكون الجائزة قد منحت لهم تقديرا لانجازاتهم السينمائية على مدى فترة طويلة . اى أن جائزة الاوسكار تكون فى بعض الاحيان تتويجا لحياتهم الفنية .

ولعل الممثل جون وين قد عبر عن مشاعر ممثلين كثيرين غيره بعد فوزه بجائزة الاوسكار حين قال لقد أمضيت قرابة ٥٠ عاما فى مطاردة هذه الجائزة المراوغة بالقيام

بادوار سينمائية جيدة وسيئة . ولذلك كانت سعادتى بالغة عندما سلمتنى اياها باربرا سترايساند . وكان عمر جون وين ٦٢ عاما حين فاز بجائزة الاوسكار عام ١٩٦٩ عن دوره فى فيلم « تروجريت » وهو فيلمه الرابع والثمانون . وما من شك فى أن بعض هذه الادوار السينمائية السابقة لجون وين لم تقل جودة ان لم تكن افضل من دوره فى فيلم « تروجريت » ، ولكن المقارنة لم تعد ذات أهمية فى نظر أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين كانوا يدركون أن جون وين قد تحول الى مؤسسة فى هوليود وفى سائر أنحاء الولايات المتحدة ، فضلا عن شهرته فى شتى أنحاء العالم . ولذلك كان منح جائزة الاوسكار لجون وين عن دوره فى فيلم « تروجريت » اعترافا وتقديرا لانجازاته السينمائية لمدى الحياة .

ومن الممثلين الاخرين الذين فازوا بجائزة الاوسكار فى مرحلة متقدمة من حياتهم السينمائية همفرى بوجارت الذى كان عمره ٥٣ سنة وكان قد ظهر فى ٦١ فيلما عندما حصل على الجائزة فى فيلم « ملكة أفريقيا » عام ١٩٥١ ، وكان ذلك قبل وفاته بأربع سنوات . وقد سبق لهمفرى بوجارت أن رشح لجائزة الاوسكار مرة عام ١٩٤٣ ، ورشح بعد ذلك مرة أخرى عام ١٩٥٤ .

وكان أكبر ممثل سنا يفوز بجائزة الاوسكار هو هنرى فوندا الذى كان عمره ٧٦ عاما حين منحت له الجائزة فى سريره بالمستشفى عن دوره فى فيلم « فوق بحيرة ذهبية »

في عام ١٩٨١ ، وذلك قبل وفاته بعدة أشهر • وقد أجمع النقاد على الاشـادة بدوره في ذلك الفيلم ، الا أن كثيرين منهم أكدوا أنه كان يجب أن يفوز بتلك الجائزة قبل سنين كثيرة بالنظر لتعدد أدواره السينمائية المتميزة • وقد ظهر هنري فوندا في ٨٣ فيلما ورشح لجائزة الاوسـكار مرة واحدة قبل فوزه بها • ويقدم فوز هنرى فوندا بجـائزة الاوسكار في ذلك العمر المتقدم مثلا جيدا على تقدير أعضاء الاكاديمية للانجازات السينمائية لممثل عظيم لمدى الحياة •

وقد تمنح جائزة الاوسكار لافضل ممثل بعد وفاته كما حدث للممثل بيتر فينش ، الذى فاز بالجائزة عن دوره في فيلم « شبكة تليفزيونية » عام ١٩٧٦ بعد وفاته بعدة أسابيع • وقد رشح ممثلان اخران لجائزة الاوسكار بعد وفاتهما ولكنهما لم يفوزا ، وهما جيمس دين الذى رشح في عـامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ عن دوريه في فيلمى « شرقى عدن » و « العملاق » والممثل سبنسر تراسى الذى رشـح في عام ١٩٦٧عن دوره في فيلم « خمـن من سيـأتى الى العشاء ؟ » ، علما بأن سبنسر تراسى كان فاز بجـائزة الاوسكار مرتين من قبل عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ •

ومما يذكر أن جائزة الاوسكار منحت في سنتها الاولى لنفس الممثل عن دورين سينمائيين مختلفـين • فقد فاز الممثل الالمانى اميل جاننجز عن دوريه في فيلمى « الامر الاخير » و « طريق الشهوات » •

كما تقاسم جائزة افضـل ممثل في عام ١٩٣١/١٩٣٢ ممثلان هما والاس بيرى عن فيلم « البطـل » وفريدريك

مارش عن فيلم « دكتور جيكل ومستر هايد » ، وهى المرة الوحيدة التى حدث فيها ذلك ·

ويحتل المركز الاول بين الممثلين فى عدد الترشيحات لجوائز الاوسكار السير لورنس أوليفييه الذى رشح للجائزة عشر مرات ، وفاز بها مرة واحدة عن دوره فى فيلم « هامليت » ١٩٤٨ · ويتعادل فى المركز الثانى ممثلان هما سبنسر تراسى الذى رشح للجائزة تسع مرات ، وفاز بها مرتين عن فيلم « القباطنة الشجعان » ١٩٣٧ وفيلم « بلدة الاولاد » ١٩٣٨ ، والممثل جاك نيكولسون الذى رشح للجائزة تسع مرات أيضا وفاز بها مرتين عن فيلم « أحدهم حلق فوق عش الوقواق » ١٩٧٥ وفيلم « شروط المحبة » ١٩٨٣ · ويأتى بعد ذلك الممثل مارلون براندو رشح للجائزة سبع مرات ، وفاز بها مرتين عن فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ وفيلم « العراب » ١٩٧٢ ·

وهناك ممثلان يتعادلان فى أكبر عدد من الترشيحات دون الفوز بجائزة الاوسكار وهما الممثلان البريطانيان ريتشارد بيرتون وبيتر أوتول اللذان رشح كل منهما للجائزة سبع مرات ·

جائزة أفضل ممثلة

لا تختلف عملية ترشيح واختيار الفائزات بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة عن جائزة أفضل ممثل • اذ يشترك اعضاء فرع الممثلين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما فى عملية الترشيح •• وبعد اختيار الممثلات الخمس اللاتى يحصلن على أكبر عدد من الاصوات يشترك جميع أعضاء الاكاديمية فى التصويت للفائزة بجائزة أفضل ممثلة فى المرحلة الثانية للتصويت •

وكجائزة أفضل ممثل ، تمنح جائزة أفضل ممثلة منذ السنة الاولى لتقديم جوائز الاوسكار ، وقد استمر تقديمها منذ ذلك الوقت ، وهى من أهم جوائز الاوسكار •

وتتميز الفائزات بجائزة أفضل ممثلة بخصائص معينة متعددة من أبرزها قوة الارادة والاعتماد على النفس والنزعة الى الاستقلال ، وهى خصائص تبدو فى الشخصيات الفعلية لهؤلاء الممثلات وفى الشخصيات السينمائية التى فزن بأدوارها • ولعل القاسم المشترك بين الممثلات الفائزات هو الجاذبية الشخصية التى ترافق عمق الاداء السينمائى • وهذه الجاذبية الشخصية تبدو بشكل واضح على الاخص فى الممثلات اللاتى فزن بجائزة الاوسكار أكثر من مرة وهن كاثرين هيبرن وانجريد بيرجمان وجليندا جاكسون

وبيتى ديفيس وأوليفيـــا دى هافيـــلاند وجين فونـــدا وفيفيان لى ولويز راينر واليزابيث تيلور وسالى فيلد •

ويتضح عند استعراض هذه القائمة أن الجمال ليس من ضروريات فوز الممثلات بجائزة الاوســكار • وتتعـــدى الجاذبية لهؤلاء الممثلات الجاذبية الجنسية لملكات الاغـراء مثل مارلين مونرو وجين هارلو اللتين لم ترشـــحا لجائزة الاوسكار • ويظهر أثر الجاذبية الشخصية لهؤلاء الممثلات فى قدرتهن الفائقة على الاستئثار باعجاب الجمهور بمختلف قطاعاته وأعماره •

وفى حين أن كثيرا من الممثلـين الذين فازوا بجـــائزة الاوسكار لافضل ممثل حققوا ذلك فى أدوار تتطلب براعة بدنية فى أفلام مشحونة بالمغامرات ، فان معظم الممثـلات اللاتى فزن بجائزة الاوسكار لافضـــل ممثلة قمن بأدوار تعتمد أساسا على أهمية التعبير عن العواطف والمشاعر •

ويلاحظ فى كثير من الاحيان أن صاحبات تلك الادوار خضن صراعا للدفاع عن أنفسهن أو عن غيرهن فى عالم ملىء بالمتاعب والمشاكل بحثا عن الطمأنينة والسكينة • فالممثلة جون فونتين فى فيلم « ارتياب » ١٩٤١ وانجريد بيرجمان فى فيلم « نور الغاز » ١٩٤٤ وجو آن وود وارد فى فيلم « ثلاثة وجوه لحـــواء » ١٩٥٧ ولويز فليتشر فى فيـلم « أحدهم حلق فوق عش الوقواق » ١٩٧٥ وميريل ستريب فى فيلم « اختيار صوفيا » ١٩٨٢ قمن بأدوار نســـاء تعرضن لمحن كبيرة ودخلن فى صراع نفسى قبل استجماع قواهن والتغلب على المصاعب فى بعض الحالات •

وهناك طائفة متنوعة من الادوار التى قامت بها الممثلات الفائزات بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة كدور سالى فيلد كعاملة فى مصنع فى فيلم « نورما راى » ١٩٧٩ ، ودور

فيفيان لى كشابة جميلة من الجنـــوب الامريكى فى فيلم « ذهب مع الريح » ١٩٣٩ ، ودور لايزا مانيلى كمغنية فى ناد ليلى فى فيلم « كباريه » ١٩٧٢ ، ودور جنيفر جــونز كقديسة فى فيلم « اغنية بيرناديت » ١٩٤٣ • وقد تطلبت هذه الادوار مستوى رفيعا فى الاداء وقدرا كبيرا من المواهب والذكاء والرقة والانوثة •

جائزة الاوسكار لافضل ممثلة كتقدير للانجازات السينمائية لمدى الحيـــاة

بين الممثلات الفائزات بجائزة الاوسكار لافضـــل ممثلة اربع عشرة ممثلة فزن بالجائزة بعد أن تجـــاوزن ســـن الاربعين • وبين الفائزات عدد من الممثلات اللاتى حصـلن على الجائزة بعد سنين عديدة من الانجـازات السينمائية المتميزة ، وبذلك تكون جائزة الاوســـكار قد منحت لهن تقديرا لانجازاتهن السينمائية لفترة طويلة ، كما هو الحال فى كثير من الاحيان بالنسبة لجائزة الاوسكار لافضـــل ممثل • ومن الامثلة العديدة على ذلك الممثلة جيرالدين بيج التى فازت بجائزة الاوســـكار فى فيلم « رحلة الى مكان وافر » ١٩٨٥ بعد أن رشحت لجائزة الاوســـكار ثمانى مرات ، ابتداء بعام ١٩٥٣ ، والممثلة شـيرلى ماكلين التى فازت بالجائزة فى فيلم « شروط المحبة » ١٩٨٣ بعد أن رشحت للجائزة خمس مرات ابتداء بعام ١٩٥٩ ، والممثلة فاى داناوى التى فازت بالجـــائزة فى فيلم « شـــبكة تليفزيونية » ١٩٧٦ بعد أن رشحت للجائزة ثلاث مـــرات ابتداء بعام ١٩٦٧ ، والممثلة ســوزان هيوارد التى منحت الجائزة فى عام ١٩٥٨ عن دورها فى فيلم «أريد أن أعيش»

بعد أن رشحت للجائزة خمس مرات ابتداء بعام ١٩٤٧.

عامل السن بين الممثلين والممثلات

يلاحظ أن جوائز الاوسكار تمنح للممثلات فى سن أصغر على العموم من الممثلين وأن عدد من حصلن منهن على أكثر من جائزة يزيد كثيرا على عدد الممثلين الذين فازوا بأكثر من جائزة . وقد فازت ثماني ممثلات بجائزة الاوسكار عن أول أدوارهن السينمائية ، ولكن ذلك لم يتحقق الا لممثل واحد هو بين كنجسلى عن دوره فى فيلم « غاندى » فى عام ١٩٨٢ . ويقل معدل سن الممثلة الفائزة بجائزة الاوسكار تسع سنوات عن معدل سن الممثل الفائز بالجائزة ، كما يقل معدل عدد افلام الممثلات الفائزات بالجائزة بعشرة أفلام عن معدل عدد أفلام الممثلين الفائزين وفى حين أن عشر ممثلات فزن بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة أكثر من مرة ، فان ذلك لم يتحقق الا لاربعة ممثلين فقط هم سبنسر تراسى وفريدريك مارش وجارى كوبر ومارلون براندو .

شعبية المرأة « السيئة الطيبة » فى جوائز الاوسكار

منحت أول جائزة أوسكار لأفضل ممثلة فى عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ للممثلة جانيت جينور عن دورها كغانية فى فيلم « السماء السابعة » . الا أن قصة الفيلم تظهر أن هذه الغانية انحرفت عن الطريق المستقيم نتيجة ظروف قاهرة وأنها فى حقيقة الامر انسانة طيبة عندما تعطى الفرصة

المناسبة • وبذلك أصبحت الممثلة جانيت جينور أول ممثلة تفوز بجائزة الاوسكار عن دور « المرأة السيئة الطيبة » وهو دور أثار اهتمام رواد السينما وأعضـــاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين يختارون المرشحات والفائزات بجائزة الاوسكار • لذلك نجد أن العـديد من الفائزات بجائزة الاوسكار فزن بها عن أدوار غانيات طيبات او عاشقات مكرهات ولكنهن ذوات نوايا حسنة •

ومن الامثلة على الممثلات الفائزات بجائزة الاوسكار عن القيام بادوار غانيات كل من ســـوزان هيوارد فى فيلم « أريد أن أعيش » ١٩٥٨ واليزابيث تيلـــور فى فيـــلم « بترفيلد ٨ » ١٩٦٠ وجين فوندا فى فيـــلم « كلـــوت » ١٩٧١• كما فازت بالجائزةعن أدوار عاشقات كل من جودى هوليداى فى فيلم « مولودة بالامس » ١٩٥٠ وســـيمون سينيوريه فى فيلم « غرفة عالية »١٩٥٩ وجولى كريستى فى فيلم « حبيبتى » ١٩٦٥ وجليندا جاكســون فى فيلم « نساء عاشقات » ١٩٧٠ •

الا أن جميع هؤلاء « الخاطئات » يتميزن بجـــوانب ايجابية تحببهن الى الجمهور وتستهويه • وقد اســتغلت هوليود هذه الناحية باعتبار أن هذه الادوار ليست جنسية أو مبنية على الاغراء الجنسى ، ووجدت فيها وسيلة للتحايل على مقص الرقيب • فهؤلاء النساء ذوات شخصيات متعددة الابعاد ويرفضن الخضوع كضـحايا ســاليات ويتحملن مسئولية حياتهن •

كاثرين هيبرن وجائزة الاوسكار لأفضل ممثلة

المثلة كاثرين هيبرن هى صاحبة الرقم القياسى بين جميع الممثلين والممثلات فيما يتعلق بجائزة الاوسكار ، سواء من حيث الفوز أو الترشيح • فهى الممثلة الوحيدة الفائزة بأربع من جوائز الاوسكار ، وذلك عن فيلم « مجد الصباح » ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ، وفيلم « خمن من سيأتى الى العشاء ؟ » ١٩٦٧ ، وفيلم « الاسد فى الشتاء » ١٩٦٨ وفيلم « فوق بحيرة ذهبية » ١٩٨١ • كما أنها رشحت لجائزة الاوسكار اثنتي عشرة مرة ، وهو عدد لم يضاهيها فيه أى ممثل أو ممثلة •

وتأتى بعدها فى المركز الثانى الممثلة بيتى ديفيس التى رشحت لجائزة الاوسكار عشر مرات ، وفازت بالجائزة مرتين عن فيلم « خطر » ١٩٣٥ وفيلم « جزيبيل » ١٩٣٨ أما بين الممثلين فيحتل المركز الاول بين المرشحين الممثل لورانس أوليفييه الذى رشح للجائزة عشر مرات وفاز فيها مرة واحدة عن فيلم « هامليت » ١٩٤٨ •

وتتميز الممثلة كاثرين هيبرن بشخصية سينمائية فريدة تجمع بين قوة الشخصية والارادة من جهة وبين الرقة والانوثة من جهة أخرى • وقد قامت كاثرين هيبرن خلال

أكثر من ٥٥ سنة من الظهور على الشاشة بأدوار متنوعة تثبت مقدرتها التمثيلية الفائقة وأبعادها الفنية المتعددة ٠ فقد رشحت لجائزة الاوسكار عن قيامها بدور كوميدى خفيف فى فيلم « قصة فيلادلفيا » ١٩٤٠ ، وعن قيامها بدور مبشرة دينية فى افريقيا تقوم برحلة نهرية خطيرة مع الممثل همفرى بوجارت فى فيلم « ملكة أفريقيا » ١٩٥١ وبدور سائحة أمريكية تقع فى حب رجل ايطالى فى فيلم « أجازة صيف » ١٩٥٥ ، وبدور أم لشابة بيضاء تتزوج من شاب أسود فى فيلم « خمن من سيأتى الى العشاء » ١٩٦٧ ، وبدور شخصية تاريخية فى فيلم « الاسد فى الشتاء » ١٩٦٨ ٠ وتدل هذه الترشيحات لجوائز الاوسكار على المواهب الفنية المتعددة للممثلة كاثرين هيبيرن ، وهى مواهب صقلتها على مسارح برودواى فى مسرحياتها الكثيرة على مر السنين ٠

وقد تقاسمت كاثرين هيبيرن بطولة تسعة من أفلامها من صديقها القديم والحميم الممثل سبنسر تراسى الذى رشح هو نفسه لجائزة الاوسكار تسع مرات وفاز بالجائزة مرتين عن فيلم « القباطنة الشجعان » ١٩٣٧ و « بلدة الاولاد » ١٩٣٨ ٠ والفيلم الوحيد الذى رشح عنه كلاهما لجائزة الاوسكار هو فيلم « خمن من سيأتى الى العشاء ؟ » ١٩٦٧ ، وهو اخر أفلام سبنسر تراسى الذى توفى بعد أسابيع قليلة من التقاط اخر مشاهد الفيلم ٠ وقد عرض الفيلم بعد وفاته ٠

ومما يذكر ان كاثرين هيبيرن ـ على عكس معظم الممثلين والممثلات ـ لم تكن موجودة فى حفلات توزيع جوائز الاوسكار لاستلام أى من جوائزها الاربع ٠ وحين منحت

جائزة الاوسكار الرابعة عن فيلم«فوق بحيرة ذهبية »١٩٨١. مسجلة بذلك رقما قياسيا جديدا ، لم تكن موجودة في حفل توزيع جوائز الاوسكار الصاخبة فى هوليوود بل كانت تقوم ببطولة مسرحية فى مدينة واشنطن • وقد ظهرت كاثرين هيبيرن فى حفلة واحدة لتوزيع جوائز الاوسكار ، وذلك للاشتراك فى تكريم شخص عزيز عليها كان ذلك فى عام ١٩٧٤ حين قدمت بنفسها جائزة ارفنج ثالبيرج التذكارية لصديقها المنتج لورانس واينجارتن الذى انتج لها فيلم « ضلع آدم » ١٩٥٠ •

الا أن مجرد ظهور كاثرين هيبيرن على مسرح صالة دوروثى تشاندلر التى قدمت فيها جوائز الاوسكار فى الثانى من ابريل / نيسان عام ١٩٧٤ أحدث موجة من الاثارة التى اعترت الاف الحاضرين الذين وقفوا اجلالا واحتراما لواحدة من أساطير هوليوود •

جائزتا افضل دور مساعد لممثل وممثلة

تقدم جائزتا أفضل دور مساعد يقوم به ممثل وأفضل دور مساعد تقوم به ممثلة منذ عام ١٩٣٦ ، وهو العام التاسع لتقديم جوائز الاوسكار • ويشترك فى عملية الترشيح لهاتين الجائزتين أعضاء فرع الممثلين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ، كما هو الحال بالنسبة لجائزتي أفضل ممثل وأفضل ممثلة ويقوم جميع أعضاء الاكاديمية باختيار الفائز والفائزة بجائزتى أفضل دور مساعد يقوم به ممثل وأفضل دور مساعد تقوم به ممثلة من قائمتى الممثلين الخمسة والممثلات الخمس الذين

يحصلون على أكبر عدد من الاصوات ، وذلك فى المرحلة الثانية للتصويت •

ما هو الدور السينمائى المساعد ؟

فى عام ١٩٤٤ حدث غير مألوف بالنسبة لجوائز الاوسكار حين رشح الممثل بارى فيتزجيرالد عن نفس الدور فى فيلم « ذاهب فى طريقى » لجائزة الاوسكار لافضل دور يقوم به ممثل ولافضل دور مساعد يقوم به ممثل • وقد فاز بارى فيتزجيرالد بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل عن دوره فى ذلك الفيلم ، ولكن جائزة أفضل دور يقوم به ممثل منحت فى ذلك العام لبطل الفيلم الممثل بنج كروسبى •

الا أن الانظمة الحالية للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما تحظر ترشيح نفس الممثل لجائزتين عن نفس الدور • وقد أقرت الاكاديمية باستحالة تحديد الدور الرئيسى والدور المساعد فى الفيلم ، ولذلك امتنعت عن وضع نص مكتوب لذلك أنظماتها • وتنص قاعدة التصويت السابعة على أن « تحديد ما اذا كان الدور رئيسيا أو مساعدا يتم بصفة فردية من قبل أعضاء فرع الممثلين فى الاكاديمية وقت التصويت » •

ويتحدد ذلك عادة فى مرحلة التصويت للمرشحين • اذ يقوم كل عضو فى فرع الممثلين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بترشيح خمسة اشخاص فى كل من فئات الممثلين الاربع ، وهى جائزة أفضل دور يقوم به

ممثل وأفضل دور تقوم به ممثلة وأفضل دور مساعد يقوم به ممثل وأفضل دور مساعد تقوم به ممثلة • واذا ورد اسم ممثل أو ممثلة فى فئتين ، يتم ترشيح ذلك الشخص فى الفئة التي يحصل فيها على عدد أكبر من الاصوات •

ونتيجة لعدم وجود تعريف محدد للدور الرئيسى أو المساعد فى أنظمة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ، فقد يتم ترشيح الشخص لاحدى الفئتين أحيانا على أسس اعتباطية غير دقيقة • ففى عام ١٩٦٣ مثلا قام الممثل ملفين دوجلاس بدور الاب فى فيلم « هاد » ،وقامت الممثلة باتريشيا نيل بدور الخادمة ، مع أن طولى الدورين كانا متشابهين فقد فازت باتريشيا نيل بجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة ، وفاز ملفينى دوجلاس بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل • ولا يعتبر التساوى فى ظهورأسماء أبطال الفيلم على الشاشة أساسا كافيا لتحديد فئة الترشيح • ففى فيلم « البداية الجديدة » ١٩٧٥ ظهر اسما الممثلتين جيل كيلبيرج وكانديس بيرجين على قدم المساواة الا أن الاولى رشحت لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة فى حين رشحت الثانية لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة •

ويتبين من هذه الامثلة انه ليس هنالك عامل معين يحدد ما اذا كان دور الممثل فى الفيلم رئيسيا أو مساعدا • ولابد اذن من تحديد كل دور وفقا لعوامل متعددة • ففى فيلم « خمن من سيأتي الى العشاء » ١٩٦٧ فازت الممثلة كاثرين هيبيرن بجائزة الاوسكار الثانية عن واحد من أقصر أدوارها السينمائية ، وهو دور يمكن أن يكون دورا مساعدا • وفى عام ١٩٨٠ رشح الممثلان تيموشى هاتون وجاد هيرش لجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل عن

دوريهما فى فيلم « أشخاص عاديون » ، علما بأن تيموثى هاتون كان بين أبطال الفيلم الرئيسيين وأن دور جاد هيرش كان دورا صغيرا • ولم يقل دور تيموثى هاتون فى الفيلم عن طول دور الممثلة مارى تيلر مور التى رشحت لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة • وكان تيموثى هاتون هو الفائز بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد يقوم به ممثل فى ذلك العام •

وفى نفس العام أعربت الممثلة سوزان ساراندون عن دهشتها عندما رشحت لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة فى فيلم « أتلانتيك سيتى » لانها كانت تتوقع ترشيحها لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة • ومن المفارقات أنها ــ كعضوة في الاكاديمية ــ صوتت لنفسها على هذا الاساس ، أى لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة •

ومن الامثلة الهامة الاخرى على صعوبة التمييز بين الدور الرئيسى والدور المساعد ما حدث فى الفيلم الشهير « ذهب مع الريح » ١٩٣٩ • فقد رشحت الممثلة أوليفيا ديهافيلاند لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة علما بأن دورها كان من الادوار الرئيسية فى الفيلم • وقد نافستها على الجائزة الممثلة هاتى ماكداتيال التى فازت بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة ، وبذلك أصبحت أول ممثلة سوداء تفوز بجائزة الاوسكار •

غير أن منتج فيلم « ذهب مع الريح » ديفيد سيلزنيك الذى كان معروفا بنفوذه فى هوليوود وفى أوساط الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما انذاك ، لم يرد ترشيح الممثلة أوليفيا ديهافيلاند لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة لكى لا تنافس على تلك الجائزة الممثلة فيفيان لى

التى قامت بدور بطلة الفيلم سكارليت أوهارا والتي فازت بالفعل بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة • ومما يذكر أن الممثلة أوليفيا ديهافيلاند عادت وفازت بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة مرتين فى عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٩ •

وتكمن موهبة الممثلين والممثلات الفائزين بجوائز أفضل الادوار المساعدة فى القدرة على تحويل دور سينمائى صغير نسبيا الى دور متميز يغطى فى كثير من الاحيان على الادوار الرئيسية فى الفيلم • ومع أن أسماء بعض هؤلاء الممثلين قد طواها النسيان ، فان أدوارهم الفذة لا تنسى •

وقد اختفى بعض الفائزين بجوائز أفضل الادوار المساعدة من الظهور على الشاشة السينمائية بعد فوزهم بالجائزة • فبعد فوز الممثل جيمس دان بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل عن دوره فى فيلم « شجرة تنمو فى بروكلين » ١٩٤٥ لم يظهر الا فى خمسة أفلام فقط خلال الاثنتين والعشرين سنة الاخيرة من حياته • ولم تظهر الممثلة اليابانية ميوشى أوميكى الا فى أربعة أفلام بعد فوزها بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن دورها فى فيلم « سايونارا » ١٩٥٧ • وقد أمضت الممثلة كاتينا باكسينو معظم وقتها على خشبة المسرح بعد فوزها بالجائزة عن دورها فى فيلم « لمن تقرع الاجراس ؟ » ١٩٤٣ • كما أن الممثلتين شيرلى جونز وباتى ديوك ركزتا جهوردهما على المسلسلات التليفزيونية بعد فوزهما بالجائزة عن فيلمى « ايلمر جانترى » ١٩٦٠ و « صاحبة المعجزة » ١٩٦٢ • كما لم يحقق الممثل جورج شاكيريس نجاحا سينمائيا يذكر بعد فوزه بالجائزة عن دوره فى فيلم « قصة الحى الغوبى » ١٩٦١ •

وقد أسهم الفوز بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد يقوم به ممثل فى تعزيز مكانة ممثلين كثيرين ، كالممثلة جين دارويل التى استمر عملها السينمائى ٥١ سنة ، والممثل دونالد كريسب الذى ظهر فى ٧٩ فيلما وأخرج ٥٠ فيلما ، والممثل جون مليز الذى ظهر فى ٨٤ فيلما ، والممثلة مارى آستور التى ظهرت فى ١١٥ فيلما ، والممثل والتر برينان الذى ظهر فى ١١٩ فيلما ٠

ومما يذكر أن والتر برينان هو الممثل الوحيد الذى فاز بجائزة الاوسكار لافضل ممثل يقوم بدور مساعد ثلاث مرات ، وذلك عن فيلم « تعال وخذه معك » ١٩٣٦ وفيلم « كينتكى » ١٩٣٨ وفيلم « الغربى » ١٩٤٠ ٠ كما فاز ثلاثة ممثلين بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل مرتين هم انتونى كوين عن فيلم « يحيازاباتا » ١٩٥٢ وفيلم « شهوة الحياة » ١٩٥٦ ، وملفين دوجلاس عن فيلم « هاد » ١٩٦٣ وفيلم « الوصول الى هناك » ١٩٧٩ ، وجاسون روباردز عن فيلم « جميع رجال الرئيس » ١٩٧٦ وفيلم « جوليا » ١٩٧٧ ٠

والممثلة الوحيدة التى فازت بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة مرتين هى الممثلة شيلى وينترز عن فيلم « مذكرات آن فرانك » ١٩٥٩ وفيلم « بقعة زرقاء » ١٩٦٥ ٠ أما الممثلة صاحبة الرقم القياسى فى عدد الترشيحات لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة فهى الممثلة ثيلما ريتر التى رشحت لتلك الجائزة ست مرات بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٢ ، ولكنها لم تفز بالجائزة ٠ كما رشحت لهذه الجائزة الممثلة آجنس مورهيد أربع مرات دون أن تفوز بها ٠ كذلك رشح ثلاثة ممثلين هم آرثر

كيندى وكلود رينز وبيرجيس ميريديث لجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل أربع مرات دون الفوز بها . كما رشح الممثل آرثر كنيدى مرة أخرى لجائزة أفضل دور يقوم به ممثل .

الفوز بجوائز الاوسكار للادوار المساعدة قبل أو بعد الفوز بجائزة أفضل ممثل أو أفضل ممثلة

جاك ليمون وروبرت دينيرو هما الممثلان الوحيدان بين لذكور اللذان فازا بجائزة أفضل ممثل بعد الفوز بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل في السنوات الاولى لعملهما السينمائى . والممثلة ميريل ستريب هى الممثلة الوحيدة التى حققت هذا الانجاز . فقد فازت بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عام ١٩٧٩ وفازت بجائزة أفضل ممثلة عام ١٩٨٢ .

وهناك عدد من الممثلات اللاتى تحركن فى الاتجاه المعاكس . فقد فازت انجريد بيرجمان وهيلين هيز وماجى سميث بجائزة أفضل ممثلة أولا ثم فزن بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة . والممثل الوحيد الذى فاز بجائزة أفضل ممثل ثم فاز بجازة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل هو جاك نيكولسون .

وهناك بعض الممثلين الذين فازوا بجائزة أفضل دور مساعد بعد أن كانوا قد رشحوا لجائزة أفضل ممثل أو أفضل ممثلة . وتضم هذه القائمة ثلاث ممثلات هن ويندى هيلر وفينيسا ريد جريف وشيلى وينترز ، وممثلا واحدا هو والتر هيوستن . وهناك بعض الممثلين الذين فازوا

بجائزة افضل دور مساعد ثم رشحوا لجائزة أفضل ممثل أو أفضل ممثلة • وتضم هذه القائمة اربعة ممثلين هم ملفين دوجلاس ووالتر ماثا وآنتونى كوين وفرانك سيناترا وممثلة واحدة هى آن باكستر •

ولا يعنى انتقال الممثل من فئة أفضل ممثل الى أفضل دور مساعد يقوم به ممثل أن مواهب ذلك الممثل أو مكانته الفنية قد انخفضت • وكثيرا ما تمنح جوائز الادوار المساعدة لممثلين مخضرمين يقومون بأدوار مساعدة بعد تقدمهم فى السن • ويتعاطف أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين يرشحون ويختارون الفائزين بجوائز الاوسكار مع مثل هؤلاء الممثلين بعد أن يثبتوا وجودهم على مدى فترة زمنية طويلة • وقد منحت جائزة أفضل دور مساعد لتسعة ممثلين وممثلات بعد أن تجاوزو السبعين ، وهم جورج بيرنز وملفين دوجلاس وجون جيلجد وروث جوردون وجون هاوسمان وهيلين هيز ومارجريت رووز فورد وبيجى آشكروفت ودون أميشى •

وقد أصبحت لهؤلاء الممثلين بعد تقدمهم فى السن شعبية واسعة فى هوليوود بفضل ماضيهم السينمائى العريق • الا أن كبر السن وحده لا يضمن الفوز بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل أو ممثلة • فقد كانت الممثلة تاتوم أونيل ابنة الممثل ريان أونيل فى العاشرة حين فازت بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن دورها فى فيلم « القمر الورقى » ۱۹۷۳ ، وبذلك أصبحت أصغر فنانة بين الممثلين والممثلات تفوز بجائزة الاوسكار •

اللهجات والشخصيات الاجنبية
وجوائز التمثيــل المســاعدة

كثيرا ما تتطلب أدوار الشخصيات التى تفوز بجـائزة الاوسكار لافضل الادوار المساعدة ملامح ولهجات أجنبية . وعند استعراض أسماء الفائزين بهذه الجـــائزة على مـر السنين نجد بينهم طائفة منوعة من الخلفيات العــرقية . وتضم القائمة عشرين ممثلا وممثلة ولدوا فى دول أجنبية هى بريطانيا « جون جيلجد ووينـدى هيلـر وجون ميلز وفينيسا ريدجريف وهيو جريفيث وادموند جوين ومارجريت روذر فورد وبيتر يوستينوف ودونالد كريســب ومايكل كين وبيجى آشكروفت » والنمسا «جوزيف شيلدكراوت» واليونان « كاتينا باكسينو » واليابان « ميوشى أوميكى» وكمبوديا « هاينج نجور » والمكسيك « انتونى كوين » ورومانيا « جون هاوسمان » وروســـيا « ليلا كيدروفا وجورج ساندرز » والسويد « انجريد بيرجمان » .

كما كان عدد من الفائزين والفائزات من ابناء مهاجرين الى الولايات المتحدة .ومثلت بعض الاقليـــات الامريكيـة بعض الفائزين مثل هاتى ماكدانيال التى كانت أول ممثلة امريكية سوداء تفوز بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن دورها فى فيلم « ذهب مع الريح » ١٩٣٩ ولوجوسيت الابن الذى كان أول ممثل أمريكى أسود يفوز بجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل عن دوره فى فيلم « ضابط وجنتلمان » ١٩٨٢ ، وريتا موريـنـو ، وهى من مواليد بورتوريكو ، والتى فازت بجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن دورها فى فيلم « قصة الحى الغــربى » ١٩٦١ .

جائزة أفضل مخرج

يشترك فى عملية الترشيح لجائزة أفضل مخرج أعضاء فرع المخرجين فى الاكاديمية الامريكية لفنـــون وعلـــوم السينما ، وتضم قائمة المرشحين لجائزة أفضـــل مخرج المخـــرجين الخمسة الذين يحصلون على أكبـر عـدد من الاصوات ، ثم يقوم جميع أعضاء الاكاديمية باختيار الفائز بجائزة افضل مخرج فى المرحلة الثانية للتصويت ٠

وتمنح جائزة أفضـــل مخرج منذ السنة الاولى لتقديم جوائز الاوسكار ، الا انها قدمت فى السنة الاولى كجائزتين الاولى لافضل مخرج فيلم دراما والثانية لافضل مخرج فيلم كوميدى ٠ غير أن ذلك توقف بعد الســـنة الاولى لمنـح الجوائز ، واقتصر الامر على تقديم جائزة واحدة لافضـــل مخرج منذ السنة الثانية لتقديم جوائز الاوسكار ٠ وما من شك في أن جائزة الاوسكار لافضل مخرج من أهم جوائز الاوسكار ٠

ويقترن الفوز بجائزة الاوسكار لافضـــل مخرج عادة بمخرجى الافلام التى تجمع بين المستوى الفنى الرفيع وبين النجاح التجارى فى دور السينما والذى يتحقق بطبيعـة الحال مع اقبال الجمهور على مشاهدتها ٠ وتتسم مثل هذ

الافلام عادة بالوضوح وعدم التعقيد ، مما يحببها الى الجمهور ويؤدى الى تجاوبه معها ٠

وقد تجنب معظم المخرجين الفائزين بجائزة الاوسكار اللجوء الى المهارة الفنية المصطنعة والنظريات الفلسفية المتعلقة بالتكنيك ٠ وفى مقدمة هؤلاء المخرجين المخرج جون فورد ، وهو المخرج الوحيد الفائز بأربع جوائز الاوسكار وقد أظهر استطلاع أجرى فى عام ١٩٨٦ بين النقاد ومدرسى مادة السينما فى الجامعات الامريكية أنه أبرع مخرجى السينما الامريكية ٠

وقد أثبت المخرج جون فورد براعته كمخرج سينمائى منذ أيامه السينمائية الاولى ٠ فقد أخرج فى بداية عهده السينمائى سلسلة من الافلام الرفيعة المستوى والناجحة تجاريا ، مما أكسبه ثقة المنتجين الذين منحوه الحرية التامة لاخراج فيلم عزيز عليه هو فيلم « المخبر » الذى فاز عنه بأولى جوائز الاوسكار الاربع ٠ وفاز جون فورد بالجوائز الثلاث الاخرى عن كل من فيلم « عنب الغضب » ١٩٤٠ ، وفيلم « الوادى الاخضر » ١٩٤١ ، وفيلم « الرجل الهادىء » ١٩٥٢ ٠

وفاز مخرجان آخران بجائزة الاوسكار ثلاث مرات هما فرانك كابرا ووليام وايلر ٠ وقد فاز المخرج فرانك كابرا عن كل من فيلم « حدث ذات ليلة » ١٩٣٤ ، وفيلم «مستر ديدز يذهب الى المدينة » ١٩٣٦ ، وفيلم « لا تستطيع أخذها معك » ١٩٣٨ ٠ وفاز المخرج وليام وايلر عن فيلم « مسز منيفر » ١٩٤٢ ، وفيلم « أجمل سنوات حياتنا » ١٩٤٦ ، وفيلم « بن هير » ١٩٥٩ ٠

كما فاز اثنا عشر مخرجا بجائزة الاوسكار لافضل مخرج

مرتين ، وهم فرانك بورزاج وفرانك لويد وايليا كازان وديفيد لين وجوزيف مانكيويكز وليو مكارى ولويس مايلستون وجورج ستيفنس وبيلى وايلدر وروبرت وايز وفريد زينيمان وميلوش فورمان • وبذلك يكون خمسة عشر من مخرجي هوليوود قد فازوا بأربع وثلاثين من جوائز الاوسكار ورشحوا لها ٧٥ مرة • ويلاحظ أن عدد الفائزين بأكثر من جائزة بين المخرجين يزيد على عدد الفائزين بأكثر من جائزة فى جميع الفئات الاخرى التى تمنح فيها جوائز الاوسكار •

ويحتل المركز الاول بين المرشحين لجائزة أفضل مخرج المخرج وليام وايلر الذى رشح لجائزة الاوسكار الثنتى عشرة مرة وفاز بها ثلاث مرات • يليه المخرج بيلى وايلدر الذى رشح للجائزة ثمانى مرات وفاز بها مرتين ، ثم كل من ديفيد لين وفريد زينيمان اللذين رشح كل منهما للجائزة سبع مرات وفاز بها مرتين •

ويلاحظ أن المخرجين الحائزين على جائزة الاوسكار لافضل مخرج أخرجوا طائفة متنوعة من الافلام التى تشمل شتى المواضيع • وقد فاز المخرج فرانك كابرا بالجائزة ثلاث مرات عن أفلام كوميدية عاطفية ، وفاز المخرج ايليا كازان عن فيلمي دراما عالجا موضوعات اجتماعية ، وفاز المخرج ديفيد لين عن فيلمين ضخمي الانتاج ، وفاز المخرج روبرت وايز عن فيلمين موسيقيين •

وبين المخرجين الفائزين بجائزة الاوسكار مخرجون كثيرون فازوا عن أفلام حققت ايرادات عالية على شباك التذاكر ،الا أن النجاح التجارى للفيلم لا يضمن لمخرجه الفوز بالجائزة • كما لا يضمن اعجاب النقاد بالفيلم لمخرجه

الفوز بالجائزة • وهناك عوامل متعددة لابد أن تكون متوفرة في الفيلم لفوز مخرجه بجائزة الاوسكار • ولذلك نرى أن جائزة أفضل مخرج وجائزة أفضل فيلم تقدمان لنفس الفيلم في معظم الحالات • وقد شذت هذه القاعدة ١٥ مرة فقط منذ عام ١٩٢٧ ومرتين فقط منذ عام ١٩٥٧، وذلك في عامي ١٩٧٢ و ١٩٨١ حين منحت الجائزة لمخرج يختلف عن مخرج الفيلم الفائزة بجائزة الاوسكار •

ويعد منح جائزة أفضل مخرج لمخرج الفيلم الفائز بأفضل جائزة شيئا منطقيا في نظر أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما لانهم يريدون تكريم الشخص المسئول أساسا عن هذا الانجاز الفني الخاص كفنان وحرفي واداري بارع تمكن من تنسيق عناصر الفيلم المختلفة وتقديمها في اطار فني متكامل •

المخرجون الممثلون

هناك ممثلون كثيرون يعتقدون أنهم يملكون القدرة على اخراج الافلام ببراعة لا تقل ان لم تزد عن براعة المخرجين الذين يقومون باخراج أفلامهم •ويبدو أن أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما يتفقون في الرأى مع بعض هؤلاء الممثلين الذين تحولوا الى مخرجين سينمائيين • اذ منحت جائزة الاوسكار ثلاث مرات منذ عام ١٩٧٧ لمخرجين معروفين أيضا كنجوم سينمائيين • فقد منحت جائزة الاوسكار لافضل مخرج في عام ١٩٧٧ للممثل الكوميدى والمخرج وودى ألين عن فيلم « آني هول » • ورشح وودى الين لتلك الجائزة منذ ذلك الوقت ثلاث مرات أخرى عن

فيلم « صـــــور داخلية » ١٩٧٨ وفيلم « برودواى دانى روز » ١٩٨٤ وفيلم « حنا وشقيقاتها » ١٩٨٦ ٠

ومنحت جائزة أفضـــــل مخرج فى عام ١٩٨٠ للممثل روبرت ريد فورد عن أول فيلم من اخــراجه ، وهو فيلم « أشخاص عاديون » ١٩٨٠ ٠ وكان مخرج واحد قبله قد فاز بجائزة الاوسكار عن اخراج فيلمه الاول وهو المخــرج ديلبيرت مان الذى فاز بالجائزة عن فيلم « مارتى » ١٩٥٥

ومنحت جائزة أفضـــل مخرج فى عام ١٩٨١ للممثل وارين بيتى عن فيلم « حمر » ، وهو ثانى فيلم من اخراجه وكان وارين بيتى قد رشح فى عام ١٩٧٨ لجائزة الاوسكار فى أربع فئات هى الاخراج والانتاج والتمثيـل وكتـــابة السيناريو ٠ وأصبح بذلك ثانى شخص يحقق هذا الانجاز بعد أورسون ويلز الذى رشح لهذه الجـــوائز الاربع عن فيلم « المواطن كين » ١٩٤١ ٠

ورغم الاختلافات العديدة بين المخـــرجين الممثلين فهـم يتميزون بموهبتين مشتركتين ، هما براعتهم فى اختيــار الممثلين الملائمين للادوار فى أفلامهم ،وتوفير التوجيه الكافى لهؤلاء الممثلين للارتقاء بادائهم الى المســـتوى المطلوب ٠ وكدليــــل على ذلك نجد أن ممثـــلى أفلام « آنى هول » و « أشخاص عاديون » و « حمر » رشـحوا لتســـع من جوائز الاوسكار ٠

كما نجد بين المخرجين السينمائيين مخرجين كثيرين لهم خبرة سابقة فى التمثيل على المسرح مثل مايك نيكولز الذى فاز بجائزة الاوسكار عن اخراج فيلم « الخريج » ١٩٦٧ وايليا كازان الفائز بجائزتين عن اخراج فيلم « اتفاق بين جنتلمين » ١٩٤٧ وفيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ ، أو فى

السينما مثل جون هيوستن الفائز بالجائزة عن اخراج فيلم « كنز سييرا مادري » ١٩٤٨ ·

ويتميز هؤلاء المخرجين بالعناية الخاصة التى يوجهونها نحو أداء الممثلين فى أفلامهم · ولذلك نجد أن أفلام هؤلاء المخرجين تحظى بنصيب كبير فى ترشيح وفوز ممثليها بجائزة الاوسكار · ومن الامثلة العديدة على ذلك ان خمسة من ممثلى فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ للمخرج ايليا كازان رشحوا لجوائز الاوسكار ، كما رشح لهذه الجوائز اربعة من ممثلى فيلمين آخرين له هما فيلم « اتفاق بين جنتلمين » ١٩٤٧ وفيلم « عربة اسمها اللذة » ١٩٥١ · كما رشح للجوائز أربعة من ممثلى فيلم « من يخاف من فرجينيا وولف » ١٩٦٦ للمخرج مايك نيكولز وثلاثة من ممثلى فيلمه « الخريج » ١٩٦٧ · كذلك رشح للجوائز ثلاثة من ممثلى فيلم « بريتزى » ١٩٨٥ للمخرج جون هيوستن ·

وهناك عدد قليل من المخرجين الذين قاموا ببطولة أفلام من اخراجهم وتأليفهم كاورسون ويلز ووارين بيتى وودى الين الذين أسلفنا ذكرهم والذين ينضم اليهم أيضا تشارلى تشابلين وسيلفستر ستالون ·

وكان الممثل روبرت ريد فورد قد ظهر فى ٢٣ فيلما قبل أن يخرج فيلم « أشخاص عاديون » ١٩٨٠ ، اعتقادا منه بأن معظم المخرجين الذين قاموا باخراج أفلامه لم يقدموا له أى توجيه يذكر للتأثير على أدائه ، أو « لالهامه » فى الاداء على حد تعبيره · وقد نجح روبرت ريد فورد فى توفير هذا « الالهام » فى فيلم « أشخاص عاديون » على حد رأى بطلة الفيلم الممثلة مارى تيلر مور التى أكسبها دورها فى الفيلم ترشيحها الاول لجائزة الاوسكار · كما رشح

اثنان من ممثلى الفيلم لجائزة أفضل دور مساعد يقوم ممثل ، هما تيموشى هتون الذى فاز بالجائزة وجاد هيرش

وقد ازداد عدد المخرجين الممثلين فى فترة السبعينات وانضم اليهم كلينت ايستورد وبيرت رينولدز وسيلفستر ستالون • وأظهر معظمهم حساسية خاصة نحو أداء الممثلين فى أفلامهم ،وهى حساسية كانوا قد اكتسبوها كممثلين،

جائزة أفضل كاتب

يشترك فى عملية الترشيح لجائزة أفضل كاتب سيناريو أصلى وجائزة أفضل كاتب سيناريو مقتبس أعضاء فرع الكتاب فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما وتضم قائمة المرشحين لهاتين الجائزتين المرشحين الخمسة الذين يحصلون على أكبر عدد من الاصوات فى كل من الفئتين ، ثم يقوم جميع أعضاء الاكاديمية باختيار الفائز بالجائزة فى كل من الفئتين فى المرحلة الثانية للتصويت •

وقد تعرضت جائزة الاوسكار لافضل كاتب على مر السنين لتغييرات لم تتعرض لمثلها أية جائزة أوسكار فى أية فئة أخرى • فمنذ بدء تقديم جوائز الاوسكار تغيرت الاسماء التى تطلق على هذه الجائزة بمعدل مرة كل ثلاث سنوات • وقد شملت فى عامها الاول ١٩٢٧/١٩٢٨ ثلاث جوائز هى جائزة أفضل كاتب قصة مقتبسة وجائزة أفضل كاتب قصة أصلية وجائزة أفضل كاتب عناوين مطبوعة على الفيلم ، وذلك لان أفلام العام الاول لجوائز الاوسكار كانت أفلاما صامتة •

وفى العامين التاليين قدمت جائزة واحدة فقط لافضل

كاتب قصة سينمائية • وكان العام الثانى لتقديم جوائز الأوسكار ١٩٢٨/١٩٢٩ هو بداية تنافس الافلام الناطقة• ومع بداية عام ١٩٣٠/١٩٣١ قدمت جائزتان لافضل كاتب قصة مقتبسة ولافضل كاتب قصة أصلية ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٤ • وفى عام ١٩٣٥ استبدل لقب افضل كاتب قصة أصلية بلقب أفضل كاتب سيناريو ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٧ •

وفى عام ١٩٣٨ قدمت ثلاث جوائز أوسكار لافضل كاتب قصة مقتبسة وأفضل كاتب قصة أصلية وافضل كاتب سيناريو • الا أن جائزة أفضل كاتب قصة أصلية اختفت مرة أخرى عام ١٩٣٩ • وفى عام ١٩٤٠ غيرت التسمية مرة أخرى وقدمت ثلاث جوائز لافضل كاتب قصة اصلية وافضل كاتب سيناريو أصلى وافضل كاتب سيناريو ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٤٧ •

وفى عام ١٩٤٨ قسمت جائزتان فقط لافضل كاتب قصة سينمائية وافضل كاتب سيناريو ، الا أن جائزة ثالثة أضيفت لهما عام ١٩٤٩ ، وهى جائزة أفضل كاتب قصة وسيناريو • واستمر تقديم هذه الجوائز الثلاث حتى عام ١٩٥٥ •

وفى عام ١٩٥٦ أضيفت كلمة مقتبس للجائزة الثانية فاصبحت تعرف بجائزة أفضل كاتب سيناريو مقتبس ، واضيفت كلمة أصلى للجائزة الثالثة ، فأصبحت تعرف بجائزة أفضل كاتب سيناريو أصلى • الا أن ذلك تغير فى العام التالى ، أى عام ١٩٥٧ الذى قدمت فيه جائزتان فقط هما جائزة أفضل كاتب قصة وسيناريو أصلى وأفضل كاتب سيناريو مقتبس ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٧٣ •

وفى العام التالى ، أى عام ١٩٧٤ اختفت عبارة « قصة » من الجائزة الاولى واصبحت الجائزتان تعرفان بجائزة أفضل سيناريو أصلى وجائزة أفضل سيناريو مقتبس . ويستمر تقديم الجائزتين بهذين الاسمين حتى هذه الايام .

ويتبين من التغييرات المتتالية فى تسمية جائزة الاوسكار لافضل كاتب صعوبة تحديد الادوار المختلفة لكتاب القصص السينمائية الاصلية أو القصص المقتبسة من روايات ومسرحيات ، والاختلاف بين سيناريو الفيلم وقصته ويعكس ذلك الى حد كبير المكانة المتقلبة لدور الكاتب السينمائى فى عصر هوليوود الذهبى والصعوبات التى كان يواجهها الكتاب السينمائيون فى تلك الفترة على أيدى المنتجين السينمائيين بصورة عامة وعلى أيدى بعض المخرجين فى بعض الاحيان .

المخرجون ـ الكتاب

من الممكن القول بان الكاتب السينمائى كان شخصية منسية أو مغفلة الى حد كبير فى عصر هوليوود الذهبى ، أى فى فترة الثلاثينات والاربعينات • فالنجم السينمائى يتمتع عادة بحب الجمهور له ، والمخرج الجيد يتمتع بولاء هواة السينما الاصليين • أما الكاتب السينمائى فقد ظل شخصية مغمورة فى أغلب الاحيان ، يعمل بصمت وراء الكواليس ، وتتعرض أعماله لتدخل المنتجين والمخرجين • ويقترن عصر هوليوود الذهبى بنقمة الكاتب السينمائى على مديرى الاستديوهات ومنتجيها •

وقد حمل ذلك بعض الكتاب السينمائيين ، وخاصة فى فترة الثلاثينات ، على دخول ميدان الاخراج السينمائى لتقديم قصصهم السينمائية بالشكل الذى يريدونه مناسبا ومن أبرز الكتاب السينمائيين الذين تحولوا الى الاخراج السينمائى فى تلك الفترة جون هيوستن وبيلى وايلدر وجوزيف مانكيويكز ، وجميعهم من الكتاب السينمائيين المتميزين الذين أصبحوا مخرجين مرموقين وفازوا بجائزة الاوسكار ككتاب وكمخرجين • وقد سئل جون هيوستن عن سبب تحوله من التاليف السينمائى الى الاخراج السينمائى فقال انه لم يعد يحتمل ما كان يفعله المخرجون السينمائيون الاخرون لقصصه السينمائية فقرر أن يأخذ ذلك على عاتقه ويحول قصصه السينمائية الى أفلام سينمائية

بطريقته الخاصة التي تعبر عن فلسفته السينمائية • وقد واصل جون هيوستن كتابة سيناريو أفلامه أو الاشتراك في كتابتها حتى وفاته في عام ١٩٨٧ •

وقد فاز حتى الآن عشرة أشخاص بجائزتي الاوسكار لافضل مخرج وأفضل كاتب عن نفس الفيلم • وكان أولهم المخرج ـ الكاتب ليومكارى الذى فاز بهاتين الجائزتين عن اخراج وكتابة قصة فيلم « ذاهب فى طريقى » ١٩٤٤ • وبين هؤلاء المخرجين ـ الكتاب العشرة شخصان حققا هذا الانجاز مرتين ، وهما المخرج ـ الكاتب بيلى وايلدر ، وذلك عن فيلم « نهاية الاسبوع الضائعة » ١٩٤٥ وفيلم « الشقة » ١٩٦٠ ، والمخرج ـ الكاتب جوزيف مانكيويكز وذلك عن فيلم « رسالة الى ثلاث زوجات » ١٩٤٩ وفيلم « كل شيء عن حواء » ١٩٥٠ • أما المخرجون ـ الكتاب الاخرون الذين فازوا بجائزة أفضل مخرج وأفضل كاتب فى نفس الفيلم فهم جون هيوستن عن فيلم « كنز سييرا مادرى » ١٩٤٨ ، وفرانسس فورد كوبولا عن فيلم « العراب ـ الجزء الثانى » ١٩٧٤ ، ووودي ألين عن فيلم « آنى هول » ١٩٧٧ ، وروبرت بنتون عن فيلم « كريمر ضد كريمر » ١٩٧٩ ، وجيمس بروكس عن فيلم « شروط المحبة » ١٩٨٣ ، وأوليفر ستون عن فيلم « فصيلة » ١٩٨٦ وبرناردو بيرتولوشي عن فيلم « الامبراطور الاخير » ١٩٨٧

كما فاز خمسة من المخرجين ـ الكتاب بجائزة الاوسكار لافضل كاتب ورشحوا لجائزة أفضل مخرج فى نفس الفيلم ، وهم وليام ويلمان عن فيلم « مولد نجمة » ١٩٣٧ وأورسون ويلز عن فيلم « المواطن كين » ١٩٤١ ، وكلود ليلوش عن فيلم « رجل وامرأة » ١٩٦٦ ، وفرانسس فورد كوبولا عن فيلم « العراب » ١٩٧٢ ، وروبرت بنتون عن فيلم « أماكن فى القلب » ١٩٨٤ •

جائزة أفضل فيلم أجنبى

بدأت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بتقديم جوائز أوسكار خاصة للافلام الاجنبية فى عام ١٩٤٧ ، أى أن هذه الجوائز كانت آنذاك أشبه بجوائز فخرية • وكان الفيلم الايطالى « شو ـ شاين » أول فيلم أجنبى تمنح له الجائزة • واستمر تقديم جوائز أوسكار خاصة للافلام الاجنبية حتى عام ١٩٥٥ • الا أن جائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى أصبحت جزءا أساسيا من جوائز الاوسكار منذ عام ١٩٥٦ • وتكتسب هذه الجائزة أهمية خاصة فى الولايات المتحدة وفى الخارج •

ويسمح لكل دولة بترشيح فيلم واحد يمثلها فى التنافس على جائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى • وتقوم لجنة موسعة مؤلفة من حوالى ٢٠٠ عضو تدعى لجنة الافلام الاجنبية وتمثل جميع فروع الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما باختيار خمسة من هذه الافلام لترشيحها لجائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى • ويتراوح عدد الافلام الاجنبية المقدمة بين ٣٠ و ٣٢ فيلما كل عام • ويتعين على أعضاء هذه اللجنة أن يكونوا قد شاهدوا ٨٠ بالمائة على الاقل من هذه الافلام ليكونوا مؤهلين للاشتراك فى

عملية الترشيح • ويشترك فى التصويت لاختيار الفيلم الفائز أعضاء الاكاديمية الذين شاهدوا الافلام الخمسة المرشحة • ولا يجوز لاى عضو من أعضاء الاكاديمية الاشتراك فى التصويت لاختيار الفيلم الاجنبى الفائز بجائزة الاوسكار الا اذا برهن على أنه شاهد جميع الافلام الخمسة المرشحة •

وتتبع الاكاديمية طريقتين للتحقق من ذلك • اذ تحفظ سجلات بأسماء الاعضاء الذين يشاهدون العروض الرسمية للافلام الاجنبية المرشحة تحت اشراف الاكاديمية • أما اذا ادعى العضو أنه شاهد الافلام فى دور سينما تجارية أو فى عروض خاصة ، فيتعين عليه أن يوقع على بطاقة خاصة يحدد فيها المكان الذى شاهد فيه كل فيلم •

وتتصدر فرنسا الدول الفائزة بأكبر عدد من جوائز الاوسكار لافضل فيلم أجنبى • فقد فازت بالجائزة ثمانى مرات •وتأتى فى المركز الثانى ايطاليا التى فازت بالجائزة سبع مرات • وقد فاز الاتحاد السوفييتى بالجائزة ثلاث مرات وفازت بها كلا من تشيكوسلوفاكيا والسويد واسبانيا مرتين • وفازت بها مرة واحدة كل من الجزائر والمجر وساحل العاج وألمانيا الغربية وهولندا وسويسرا والارجنتين والدانمارك •

كما فازت كل من فرنسا وايطاليا بثلاث جوائز أوسكار خاصة قبل عام ١٩٥٦ • وقد رشحت اليابان للجائزة عشر مرات ولكنها لم تفز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى على الاطلاق • الا أن ثلاثة أفلام يابانية منحت جوائز أوسكار خاصة قبل عام ١٩٥٦ •

ومن المعروف أن الافلام الفرنسية والايطالية تحظى

بشعبية كبيرة بين الافلام الاجنبية التى تعـرض فى دور السينما الامريكية . وكما أن السـينما الامريكية تاثرت بالسينما الالمانية فى فترة العشرينات فان السـينمائيين الامريكيين تاثروا بالسينمائيين الفرنسيين والايطاليين فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان اول فيلم فرنسى يفوز بجائزة الاوسكار لافضـل فيلم أجنبى هو فيلم « عمى » ١٩٥٨ ، وهو فيلم كوميدى عاطفى قام باخراجه وانتاجه وتاليف قصته وبطولته جاك تاتى . أما الافلام الفرنسية الاخرى التى فازت بالجائزة فهى فيلم « أورفيوس الاسود » ١٩٥٩ للمخرج مارسـيل كامو وفيلم « أيام الاحد مع سـيبل » ١٩٦٢ للمخـرج سيرجى بورجوانو ، وفيلم « رجـل وامـرأة » ١٩٦٦ وهو فيلم غرامى تمتع بشعبية واسعة للمخرج كلود ليلوش ، وفيلم « الفتنة الخفية للبورجوازيين » ١٩٧٢ للمخـرج السريالى لويس بنيويل ، وفيلم « يوم لليلة » ١٩٧٣ لرائد أفلام الموجة الجديدة فرانسوا تروفو الذى يحظى بشعبية واسعة بين جمهور السينما والنقاد والسينمائيين الامريكيين وفيلم « مدام روزا » ١٩٧٧ للمخرج موشى مزراحى ، وفيلم « اخرجوا مناديلكم » ١٩٧٨ للمخرج بيرتراند بلييه .

أما جوائز الاوسكار التى منحت للافلام الايطالية فقـد هيمن عليها مخرجان هما فيتوريو ديسـيكا وفيديريكو فيللنى . وقد فاز ديسيكا بجائزتى أوسكار خاصتين قبل عام ١٩٥٦ عن فيلم « شو ـ شاين » ١٩٤٧ وفيلم « سائق الدراجة » ١٩٤٩ ، وفاز بجائزتى أوسكار لافضل فيلم اجنبى عن فيلم « أمس واليوم وغدا » ١٩٦٤ وفيلم « حديقة الفنزى ـ كونتينيس » ١٩٧٥ . وفاز المخـرج فيديريكو

فيليني بالجائزة أربع مرات عن فيلم « لاسترادا » ١٩٥٦، وفيلم « ليالى كابيريا » ١٩٥٧ ، وفيلم « ثمانية ونصف » ١٩٦٣ وفيلم « أماركورد » ١٩٧٤ — أما الفائز الايطالى الاخر فكان المخرج ايليو بيترى عن فيلم « تحقيق حول مواطن فوق الشبهات » ١٩٧٠ .

المشاكل المقترنة بترشيح الافلام الاجنبية لجائزة الاوسكار .

من المشاكل التقليدية التى يواجهها ترشيح الافلام الاجنبية لجوائز الاوسكار الاعتبارات الداخلية التى تؤثر فى اختيار الدولة المرشحة للفيلم الذى يمثلها . اذ تدخل أحيانا اعتبارات غير فنية قد تكون اعتبارات سياسية فى اختيار الفيلم الذى يمثل دولة معينة . وليس من الضرورى فى تلك الحالة أن يكون الفيلم المقدم للترشيح فى سنة ما هو افضل الافلام التى أنتجتها تلك الدولة فى تلك السنة .

وتكون الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما فى مثل هذه الحالات عاجزة عن القيام بأى شىء عدا قبول ذلك الفيلم كالممثل الرسمى لتلك الدولة . الا أن دور الاكاديمية يظهر فى حكمها على المستوى الفنى لذلك الفيلم عند مقارنته بالافلام التى تمثل الدول الاخرى ، سواء فى مرحلة الترشيح أو فى مرحلة اختيار الفيلم الفائز بجائزة افضل فيلم أجنبى .

ومن الامثلة الكثيرة على ذلك ما حدث سنة ١٩٨٥ حين رشحت اليابان فيلم « الغروب الرمادى » للمخرج شونجا

ايتو كممثل رسمى لها ، متجاوزة بذلك فيلم « ران » ، وهو فيلم متميز من اخراج أجدر وأشهر المخرجين السينمائيين اليابانيين وهو أكيرا كوروساوا الذى وشح فى نفس العام لجائزة أفضل مخرج عن فيلم « ران » • وقد فاز فيلم « ران » فى نفس العام أيضا بجائزة الاوسكار لافضل مصمم أزياء • أما الفيلم الرسمى الممثل لليابان فلم يكن فى المستوى الفنى الكافى لترشيحه لجائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى •

وهناك نقاد كثيرون يعتقدون أنه لو تقدمت اليابان بفيلم « ران » كممثل رسمى لها لرشح الفيلم لجائزة الاوسكار لافضل فيلم أجنبى وفاز بها • وقد فاز بتلك الجائزة فى عام ١٩٨٥ الفيلم الارجنتينى « القصة الرسمية » •

ويعزى سبب عدم اختيار اليابان لفيلم « ران » كممثل رسمى لها فى عام ١٩٨٥ الى الحزازات الشخصية بين مخرجه أكيرا كوروساوا وبين بعض السينمائيين اليابانيين المتنفذين الاخرين الذين شنوا عليه حربا شخصية الى درجة أرغمته على البحث عن تمويل لبعض أفلامه خارج اليابان •

وقد أثارت الطريقة المتبعة فى اختيار بعض الدول للافلام التى تمثلها للتنافس على جوائز الاوسكار قلق الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما التى قام مجلس ادارتها بدراسة هذه المشكلة بصورة جدية خلال العامين الماضيين للنظر فى احتمالات تغيير الطريقة المتبعة فى اختيار الدول للافلام التى تمثلها فى المنافسة على جوائز الاوسكار • وقد اقترح مثلا أن يشترط فى الفيلم الاجنبى

المقدم أن يكون قد عرض على دور السينما الامريكية أو في مهرجانات سينمائية • الا أن بعض أعضاء مجلس ادارة الاكاديمية أعربوا عن تحفظهم ازاء هذين الشرطين خشية أن يزيد عدد الافلام المؤهلة للترشيح عن الحد المعقول • ولذلك لم يبت مجلس ادارة الاكاديمية في هذه المسألة حتى الان ، علما بأنها ما زالت قيد البحث وتلقى قدرا كبيرا من الاهتمام •

وما من شك في أن تقديم جوائز الاوسكار لافضل الافلام الاجنبية أسهم في تحقيق هدفه الاصلى ، كما أعلنه الممثل جين هيرشولت رئيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما عام ١٩٤٧ ، وهو « تعزيز العلاقات الوثيقة بين السينمائيين الامريكيين والسينمائيين في الدول الاخرى » •

وتضم قائمة الافلام الاجنبية الفائزة بجائزة الاوسكار نخبة من الافلام الخلاقة المتميزة الرفيعة المستوى • وقد أسهم فوز هذه الافلام بجوائز الاوسكار في زيادة اقبال جماهير السينما الامريكي على مشاهدتها ، وتعريف الامريكيين على أعمال عدد من السينمائيين الاجانب المجددين الذين اكتسب بعضهم شعبية واسعة في الولايات المتحدة • ولم يعد عرض هذه الافلام يقتصر على دور السينما « الفنية » الموجودة في بعض المدن الامريكية الكبرى كنيويورك ولوس أنجيلس وشيكاغو ، بل أصبح متوفرا على نطاق أوسع في عشرات المدن الاخرى •

جوائز الاوسكار للموسيقيين والملحنين

يشترك في عملية الترشيح لجوائز الاوسكار لافضل الموسيقيين ومحلني ومؤلفي الاغاني أعضاء فرع الموسيقيين في الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ، وتضم قائمة المرشحين لافضل موسيقى تصويرية وأفضل أغنية الموسيقيين والملحنين والمؤلفين الخمسة الذين يحصلون على أكبر عدد من الاصوات ، ثم يقوم جميع أعضاء الاكاديمية باختيار الفائزين بالجوائز في المرحلة الثانية للتصويت .

وتمنح جائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية وافضل أغنية منذ عام ١٩٣٤ ، وقد تراوحت منذ ذلك الوقت بين جائزتين وثلاث جوائز في العام قدمت لفئات مختلفة من التأليف الموسيقي الاصلي والمقتبس وتلحين وتاليف الاغاني .

وكانت جائزة أفضل موسيقى تصويرية تقدم في بداية عهدها لاقسام الموسيقى في استديوهات هوليوود ، ولكنها أصبحت فيما بعد تقدم للمؤلفين الموسيقيين أنفسهم . أما جائزة أفضل أغنية فقد قدمت دائما لملحن الاغنية والمؤلف لكلماتها ، أي أنها منحت في أغلب الاحيان لشخصين ، ولكنها منحت في بعض الحالات لعدة أشخاص وفي أحيان أخرى لشخص واحد قام بتاليف كلمات الاغنية وبتلحينها

وقد شهدت جائزة الاوسكار لافضل الاعمال الموسيقية تغيرات مستمرة في الاسماء بلغ عددها ثماني عشرة مرة منذ تقديم هذه الجوائز عام ١٩٣٤ . ومع أن هذه التغييرات

تبدو بسيطة أحيانا ، الا أن تكررها يدل على عدم تحديد اهمية الدور الذى يقوم به مؤلف الموسيقى التصويرية أو الموسيقى الذى يقتبس موسيقى مسرحية موسيقية أو عمل موسيقى اخر ، واهمية دور الاغنية والحانها أحيانا فى الموضوع الاساسى للفيلم • ويذكرنا ذلك الى حد كبير بالغموض الذى ساد جائزة الاوسكار لافضل كاتب وصعوبة تحديد دور مؤلف القصة الاصلية ومقتبسها وكاتب السيناريو •

وفيما يلى عرض مقتضب للتغييرات التى طرأت على تسمية جوائز الاوسكار لافضل الاعمال الموسيقية والغنائية منذ بدء تقديمها • بدأت هذه الجوائز بجائزتى أفضل موسيقى تصويرية وأفضل اغنية فى عام ١٩٣٤ واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٧ • وفى عام ١٩٣٨ أصبحت الجائزة الاولى تعرف باسم جائزة أفضل موسيقى تصويرية أصلية الى جانب جائزة أفضل أغنية ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٤٠ •

وفى عام ١٩٤١ أصبح عدد الجوائز الموسيقية ثلاث جوائز • اذ فصل بين الافلام الدرامية والموسيقية وقدمت جائزة منفصلة للموسيقى التصويرية فى كل منهما ، واستمر تقديم جائزة أفضل اغنية • وفى عام ١٩٤٢ أضيفت الى الفئة الاولى الافلام الكوميدية أيضا وأصبحت الجائزة تعرف بجائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم دراما او كوميدى ، ولم يتغير اسما الجائزتين الموسيقيتين الاخريين • واستمر تقديم هذه الجوائز الموسيقية الثلاث حتى عام ١٩٤٨ •

وفى عام ١٩٤٩ اختفت جائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية لفيلم موسيقى ، الا أنها عادت عام ١٩٥٠

واستمر تقديم الجوائز الموسيقية الثلاث بتلك الاسماء حتى عام ١٩٥٦ .

الا ان عام ١٩٥٧ شهد تغيرا مفاجئا . فقد قدمت جائزتان موسيقيتان فقط هما جائزة أفضل موسيقى تصويرية وجائزة أفضل أغنية . غير أن هذا التغيير لم يدم طويلا . ففي عام ١٩٥٨ عادت الجوائز الموسيقية الثلاث بأسمائها القديمة ، وهي جائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم موسيقي وجائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم دراما أو كوميدى وجائزة أفضل أغنية . واستمرت هذه الجوائز بتلك الاسماء حتى عام ١٩٦١ .

لكن عام ١٩٦٢ شهد تغيرات أخرى في أسماء الجوائز الموسيقية ، اذ أصبحت تعرف بجائزة أفضل موسيقى تصويرية وجائزة أفضل موسيقى تصويرية مقتبسة وجائزة افضل أغنية . واستمر ذلك حتى عام ١٩٦٧ . الا أن هذه الاسماء تغيرت من جديد عام ١٩٦٨ ، وأصبحت تعرف باسم جائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم غير موسيقى وجائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم موسيقى وجائزة أفضل أغنية . واستمر ذلك حتى عام ١٩٦٩ فقط ففي عام ١٩٧٠ أصبحت الجوائز الموسيقية الثلاث تعرف بجائزة أفضل موسيقى تصويرية أصلية وجائزة أفضل موسيقى أغنية أصلية ، وجائزة أفضل أغنية . ويمكن التمييز ببساطة بين الجائزتين الثانية والثالثة في ذلك العام ، فقد قدمت الجائزة الثانية ، وهي أغنية LET ITBE لفريق الخنافس عن الحان أغنية رئيسية في فيلم موسيقى ، في حين أن جائزة أفضل أغنية قدمت لاغنية في فيلم غير موسيقى ، وهي أغنية

FOR ALL WE KNOW في فيلم « عشاق وغرباء » ·

وفي عام ١٩٧١ تغيرت أسماء جوائز الاسكار الموسيقية الثلاث مرة أخرى ، وأصبحت تعرف بجائزة أفضل موسيقى تصويرية لفيلم دراما وجائزة أفضل موسيقى لاغنية أصلية أو مقتبسة وجائزة أفضل اغنية · واستمرت هذه الاسماء حتى عام ١٩٧٤ · وفي العام التالى ، أى عام ١٩٧٥ ، أضيفت كلمة « أصلية » الى الجائزة الثالثة وأصبحت جائزة أفضل اغنية أصلية · واستخدم نفس الاسم في عام ١٩٧٦ ، الا أن كلمة « أصلية » حذفت من التسمية عام ١٩٧٧ ·

وفي عام ١٩٧٨ غيرت الاسماء مرة أخرى وأصبحت تعرف بجائزة أفضل موسيقى تصويرية أصلية وأفضل موسيقى تصويرية مقتبسة وأفضل اغنية أصلية · واستخدمت هذه الاسماء في العام التالى ، أى عام ١٩٧٩ ، الا أن الجائزة الثانية ، وهى جائزة أفضل موسيقى تصويرية مقتبسة حذفت في عامى ١٩٨٠ و ١٩٨١ · غير أن هذه الجائزة قدمت من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٨٤ كجائزة أفضل موسيقى اغنية أصلية أو مقتبسة · لكن هذه الجائزة لم تقدم في السنوات الثلاث التالية ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧ بسبب عدم وجود أفلام مؤهلة لها ، وقدمت خلالها جائزتان موسيقيتان فقط هما جائزة أفضل موسيقى تصويرية وجائزة أفضل أغنية ·

أهمية الموسيقى التصويرية
فى الافلام السينمائية

تتطلب موسيقى الافلام السينمائية دقة متناهية فى التوقيت لكى تتزامن مع الصورة والحوار ، كما تتطلب قدرا كبير من الجهد بالاضافة الى موهبة التاليف الموسيقى وقد واجه عدد من كبار المؤلفين الموسيقيين صعوبة كبيرة فى التكيف مع تأليف الموسيقى التصويرية للافلام السينمائية كالموسيقار آرون كوبلاند رغم فوزه بجائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية عن فيلم « الوريثة » ١٩٤٩ والموسيقار لينارد بيرنستاين رغم ترشيحه لجائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية عن فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ .

ومن أهم متطلبات الموسيقى التصويرية أن تكون متزامنة مع الشريط السينمائى وأن تخلق جوا معينا يناسب القصة والاحداث . فهى عنصر أساسى من مقومات الفيلم ، وباستطاعة المؤلف الموسيقى البارع أن يلعب دورا هاما فى اضفاء الحيوية على الشكل النهائى للفيلم .

ولكى ندرك أهمية الدور الذى تلعبه الموسيقى التصويرية فى الفيلم ما علينا الا أن نشاهد فيلما سينمائيا خاليا من الموسيقى التصويرية . فعندئذ ندرك حاجة الفيلم الماسة

الى عنصر الموسيقى الذى يدب الحياة فى كثير من مشاهده ويحرك عواطف المشاهد ·

ومع أن الجمهور العادي قد لا يدرك أهمية دور الموسيقى التصويرية فى الفيلم ، فان هذه الموسيقى كثيرا ما تسيطر على أحاسيس المشاهد وتتحكم فى عواطفه · وهى تعزز الاثر السيكولوجى للفيلم ·

وقد اكتشف مؤلفو الموسيقى السينمائية من انجاز هذه المهمة منذ بداية عصر السينما الناطقة · ونقل هؤلاء الموسيقيون عن اوبرات فاجنر فكرة « الموضوع الموسيقى » أو اللحن الموسيقى المقترن بشخص أو مكان أو شىء الى الافلام السينمائية · ومع تطور القصة السينمائية تجمع هذه الالحان الموسيقيةمعانى وذكريات جديدة ، ومع نهاية الفيلم يكون لهذه الالحان وقع كبير على المشاهد وقد توحى بافكار خاصة بها تكون أحيانا مخالفة لما يراه المشاهد على الشريط السينمائى ·

وقد قطع مؤلفو الموسيقى التصويرية للافلام السينمائية شوطا كبيرا فى براعة استخدامها على مر السنين · ففى بداية عهدها كانت تعالج المواقف السينمائية معالجة مباشرة ولا تترك مجالا لاستخدام خيال المشاهد · فمثلا فى فيلم « المخبر » الذى فاز بجائزة أفضل موسيقى تصويرية عام ١٩٣٥ نجد ان المواضيع أو الالحان الموسيقية للموسيقار ماكس ستاينر ترافق مشاهد الفيلم بدقة متناهية · ولكن مع التقدم الذى تحقق فى براعة استخدام الإلحان الموسيقية لم يعد تزامن الموسيقى والحدث ضروريا، وأصبح المؤلفون الموسيقيون يعالجون المواضيع السيكولوجية بسهولة · فقد نجح الموسيقار مكلوس روزا فى فيلم

« سبيلباوند » الحائز على جائزة أفضل موسيقى تصويرية لعام ١٩٤٥ فى تقديم موسيقى تصويرية مشحونة بالتوتر تعبر عن قلق ومتاعب بطل الفيلم • أما الموسيقار هيوجو فريد هوفر فقد تمكن فى فيلم « أفضل سنوات حياتنا » الحائز على جائزة أفضل موسيقى تصويرية لعام ١٩٤٦ من استخدام ألحان موسيقية تجمع بين مشاعر الفخر والحزن للجنود العائدين من الحرب •

وقد حدث تغير هام فى عام ١٩٥٢ حين فاز فيلم « قطار الظهر » ، وهو فيلم رعاة بقر ذو موضوع جاد ، بجائزة أفضل موسيقى تصويرية وجائزة أفضل اغنية • فقبل ذلك التاريخ كانت جائزة أفضل اغنية تقتصر فى أغلب الاحيان على أغانى الافلام الموسيقية • ففى فيلم « قطار الظهر » فاز الموسيقار ديميترى تيومكين بجائزة أفضل موسيقى تصويرية وتقاسم جائزة أفضل أغنية عن تلحين أغنية DO, NOT FORSAKEME, OHMY DARLING مع مؤلف كلماتها نيد واشنطن • والشىء الجديد فى تلك الاغنية هو انها قمت مع الموسيقى التصويرية للفيلم فى افتتاح الفيلم كما ترددت مع موسيقاه التصويرية طوال عرض الفيلم ولم يغنيها أحد شخصيات الفيلم •

وقد انتشرت شعبية الاغانى الفائزة بجائزة الاوسكار على نطاق واسع فى فترة الستينات وتستمر حتى هذه الايام •

وقد فاز الملحن هنرى مانسينى ومؤلف الاغانى جونى ميرسر بجائزة الاوسكار لافضل أغنية فى عامين متتاليين هما عاما ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن أغنية MOON RIVER فيلم « فطور عند تيفانى » وعن أغنية DAYS OF

عن فيلم « أيام النبيذ والورود » WINE AND ROSES -
وفى عام ١٩٦٩ كانت الاغنية الفائزة بجائزة الاوسكار أغنية قدمت مع الموسيقي التصويرية أيضا ، وهى أغنية RAINDROPS KEEP FALLIN' ON MY HEAD فى فيلم « بوتش كاسيدي وسندانس كيد » • وقد لحنها بيرت باكاراك وألف كلماتها هال ديفيد •

وقد انتشرت خلال السنوات الاخيرة مبيعات الالبومات الموسيقية للافلام السينمائية والتى تجمع بين الموسيقى الشعبية والجادة • وقد بيع الملايين من الالبومات الموسيقية لبعض الافلام التى صدرت خلال السنوات القليلة الماضية كفيلم « حرب النجوم » ١٩٧٧ الذى ألف موسيقاه الموسيقار جون وليامز ، وفيلم « مركبات النار » ١٩٨١ للمؤلف الموسيقى فانجيليس •

الموسيقار الفريد نيومان وجائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية

الموسيقار ألفريد نيومان هو صاحب الرقم القياسى فى عدد مرات الفوز والترشيح لجائزة الاوسكار لافضل موسيقى تصويرية • فقد فاز بالجائزة تسع مرات ورشح لها ٣٣ مرة • وقد تمكن من الحصول على هذا العدد الكبير من الترشيحات لان عدد المرشحين للجوائز الموسيقية لم يكن يقتصر على خمسة أشخاص بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٤٦ فقد رشح فى عام ١٩٣٩ وحده أربع مرات •

وقد ظهرت المواهب الموسيقية لالفريد نيومان منذ

الطفولة ، وقام بتقديم أولى حفلاته العامة فى العزف على البيانو حين كان فى الثامنة • وحين وصل الى هوليوود فى عام ١٩٣٠ في سن التاسعة والعشرين كان قائدا معروفا للفرق السيمفونية وللفرق الموسيقية على مسارح برودواى

وقام الفريد نيومان خلال الاربعين سنة التالية بتاليف الموسيقى التصويرية أو الاشتراك فى تاليفها لمائتى فيلم ، وفاز بجائزة الاوسكار ـ كما أسلفنا ـ تسع مرات ، وذلك سبعة أفلام موسيقية وعن فيلمى دراما ، مما يشير الى مواهبه الموسيقية المتعددة •

والافلام التسعة التى فاز بجائزة الاوسكار عن تاليف موسيقاها التصويرية هي فيلم « فرقة اليكساندر الموسيقية » ١٩٣٨ ، وفيلم « زقاق تين بان » ١٩٤٠ ، وفيلم « أغنية بيرناديت » ، وفيلم « الام ذات الرداء المحكم » ١٩٤٧ ، وفيلم « أغنية فى قلبى » ١٩٥٢ ، وفيلم «ادعونى مدام » ١٩٥٣ ، وفيلم « الحب شيء رائع » ١٩٥٥ ، وفيلم « الملك وأنا » ١٩٥٦ ، وفيلم « كاميلوت » ١٩٦٧ •

وتتأكد مواهب الموسيقار الفريد نيومان أيضا فى تنوع الافلام التى رشح عن تأليف موسيقاها التصويرية لجائزة الاوسكار • فقد جمعت بين أفلام الكوارث والمغامرات والدراما والافلام العاطفية والغرامية والتاريخية •

وقد قام الموسيقار الفريد نيومان بدور هام فى ارساء قواعد أساسية جديدة فى توزيع الموسيقى ، وكان مولعا فى اجراء التجارب مع وضع الميكروفون فى مواقع مختلفة لابراز أصوات آلات موسيقية معينة بشكل غير ممكن فى مسارح الحفلات الموسيقية •

وقد عارض الفريد نيومان التفسير الموسيقى الحرفى الذى يتزامن مع الصورة على الشريط السينمائى كما كان يحدث فى بداية عصر السينما الناطقة ، وقام باستخدام الموسيقى التصويرية بحرية وطلاقة ، وبذلك كان مجددا ومبتكرا فى تاليف الموسيقى التصويرية وفى توزيع الموسيقى ، وأصبح قدوة يحتذى بها غيره من الموسيقيين •

ورغم الدور الطليعي الذي قام به الفريد نيومان فى عالم الموسيقى التصويرية السينمائية ، فقد عرف بتواضعه الشديد • ومما قاله ذات مرة « اننى لو أردت أن أؤلف موسيقى عظيمة لما كان لى الحق فى أن أكون هنا • فمصدر الهام الموسيقى السينمائية الجيدة هو الصورة وليست رغبة الموسيقار فى التعبير عن نفسه » •

الا أن الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما وجدت المؤلفات الموسيقية لالفريد نيومان معبرة حتى النهاية • فقد رشحت الموسيقى التصويرية لآخر افلامه لجائزة الاوسكار ، وهو فيلم « مطار » فى عام ١٩٧٠ بعد مضى اكثر من اربعين سنة على قدومه الى هوليوود • وقد توفى الفريد نيومان فى نفس العام ، تاركا وراءه ذخرا موسيقيا خالدا •

جوائز الاوسكار للعاملين وراء الكواليس

ليس هناك شخص يستطيع بمفرده أن « يقدم » فيلما سينمائيا روائيا • « فصناعة الافلام » فن تعاوني يعتمد على العمل الجماعي الفعال لعدد كبير من المتخصصين في كافة الحرف السينمائية العاملين وراء الستار •

ولكن الاضواء تسلط عادة على الممثلين السينمائيين الذين يظهرون على الشاشة ، وخاصة كبار نجوم السينما وعلى عدد قليل من المخرجين المتميزين • الا أن الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما أسهمت في تسليط الاضواء على الفنيين المتخصصين كالمصورين والمديرين الفنيين ومهندسي الديكور ومديري المونتاج ومصممي الازياء ومهندسي الصوت والمهندسين المسئولين عن المؤثرات الخاصة ، وذلك بمنحهم جوائز الاوسكار التي يستحقونها عن جدارة •

ويرجع تاريخ اثنتين من هذه الجوائز ، وهما جائزة أفضل مصور وجائزة أفضل مدير فني ـ مهندس ديكور الى السنة الاولى لتقديم جوائز الأوسكار • وقد بدأ منح جوائز مهندسي الصوت في العام الثالث ، ومنح جوائز مديري المونتاج في العام السابع ، وجوائز المؤثرات الخاصة في العام الثاني عشر ، وجوائز أفضل مصممي الازياء في العام الحادي والعشرين لتقديم جوائز الاوسكار ولم يبدأ تقديم جوائز المونتاج حتى عام ١٩٨١ • وقد

قدمت جوائز المصورين والمديرين الفنيين - مهندسي الديكور ومصممي الازياءفي بعض الاحيان - كجوائزمنفصلة للافلام الملونة وأفلام الابيض والاسود قبل عام ١٩٦٧ .

وتشتمل قائمة الفائزين بجوائز الاوسكار في الفئات الفنية المختلفة على عدد من الاشخاص الذين فازوا بالجائزة او رشحوا لها مرارا عديدة ، الا أن أسماءهم ظلت مغمورة بين الجمهور . فقد فاز مهندس الصوت دوجلاس شيرر - مثلا - بجائزة الاوسكار خمس مرات كأفضل مهندس صوت ومرتين عن افضل مؤثرات صوتية ، ولكن اسمه ليس معروفا على نطاق واسع خارج الوسط السينمائي الامريكي . وينطبق الشيء ذاته على المهندس أ . ارنولد جيليسبي ول . ب . أبوت اللذين فاز كل منهما بجائزة الاوسكار أربع مرات عن أفضل مؤثرات خاصة ، ومصممة الازياء ايدث هيد التي فازت بجائزة الاوسكار ثماني مرات ومصممة الازياء ايرين شرف التي فازت بالجائزة خمس مرات ، ومدير المونتاج دانيال مانديل الذى فاز بالجائزة ثلاث مرات ومهندس الديكور إدوين ويليس الذى فاز بالجائزة ثماني مرات . فشهرة هؤلاء الفنيين تقتصر على الوسط السينمائي وعلى هواة السينما الاصيلين فقط .

غير أن هؤلاء الفنيين المتميزين الذين يعملون وراء الكواليس يستحقون المزيد من التقدير الذى تحاول الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما توفيره . فهؤلاء الفنيون هم المسئولون عن الجانب الفنى للافلام السينمائية وهو شيء يعتبره المشاهدون ، وخاصة فى الولايات المتحدة شيئا مسلما به . ويلعب هؤلاء الفنيون دورا هاما فى تقديم الشكل النهائي لصورة وصوت الفيلم ، وفى تقرير نجاح الفيلم أو فشله .

جائــزة الاوســكار
والتصوير السينمائى

يعد التصوير السينمائى ـ كما يقول البعض ـ ضربا من ضروب الرسم باستخدام الضوء ، وهى مهمـة فى غاية الصعوبة • فالتصوير السينمائى فن متنوع ولا يعـرف حدودا •

وتتميز الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار لافضل مصور بتعقيد مهمة التصوير الملقاه على عاتق مصوريها ونجاحهم فى مواجهة هذا التحدي ببراعة فائقة • ومن الامثلة على ذلك المناظر الطبيعية التى يغمرها الضباب فى فيلم « مرتفعات وذرنج » الذى فاز فيه المصور جريج تولاند بجـائزة الاوسكار لعام ١٩٣٩ ، والاوضاع الناجمة عن الحرب فى فيلم « ساحة القتال » الذى فاز فيه المصـور بول فوجيل بالجائزة لعام ١٩٤٩ ، والمشاهد الداخلية الخافتة الضـوء فى فيلم « المخادع » الذى فاز فيه المصور يوجين شـوفتان بالجائزة لعام ١٩٦١ •

ويتميز كل مصور بأسلوبه الخاص فى تصـوير كل مشهد • ولبعض المصورين الفائزين بجائزة الاوسكار طابع خاص يقترن بأسلوبهم فى التصوير لا تقل مكانته عن طابع الاخراج الذى يميز بعض المخرجين المرموقين • فالمصـور

روبرت كراسكر ـ مثلا ـ استخدم الامالة التعبيرية والظلال في فيلم « الرجل الثالث » ١٩٥٠ ، كما اعتمد المصور هاسكيل ويكسلر أسلوب الافلام الوثائقية في فيلم « طريق المجد » ١٩٧٦ ، واستعمل المصوران جيفري آنسوارث وغيسلين كلوكيت أسلوبا شاعريا في تصوير فيلم «تيس» ١٩٨٠ .

وتميز مصورون كثيرون ببساطة الاسلوب . فقد اقترنت أفلام المصور ليون شامروى بالاقتصاد في استخدام الضوء ، وفاز هذا المصور بجائزة الاوسكار أربع مرات عن فيلم « الاوزة السوداء » ١٩٤٢ ، وفيلم « ولسون » ١٩٤٤ وفيلم « أتركها للسماء » ١٩٤٥ ، وفيلم « كليوباترة » ١٩٦٣ .

كما حاول المصور جيمس وونج هاو المحافظة على استقاء الضوء من مصادره الطبيعية وفاز بجائزة الاوسكار مرتين عن فيلم « وشم الوردة » ١٩٥٥ وفيلم « هاد » ١٩٦٣ .

اما المصور لى جارمز الذى فاز بجائزة الاوسكار عن فيلم « قطار شنجهاي السريع » ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ . فقد عبر عن بساطة التصوير بقوله « انني لا أريد أن يهيمن التصوير على المشهد السينمائي » .

وقد أمكن تحقيق انجازات هامة في التصوير السينمائي في عصر السينما الصامتة رغم عدم توفر الاجهزة والمعدات المتقدمة المستخدمة في هذه الايام . وقد منحت أول جائزة أوسكار لافضل مصور لكل من تشارلز روشر وكارل ستراس عن تصوير الفيلم الصامت « الشروق » ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ . وقام هذان المصوران البارعان في أحد مشاهد الفيلم بمحاكاة مراحل ازدياد ضوء الشمس سطوعا بازالة

طبقات من الشاش الذى وضع أمام عدسة الكاميرا ٠

وقد سببت بعض التغييرات التى أدخلت على تكنولوجيا الافلام السينمائية مصاعب جمة للمصورين فى أيامها الاولى ففى بداية عهد استخدام الصوت فى الافلام السينمائية كان لابد من ايجاد وسيلة جديدة لكتم الاصوات الصادرة عن الكاميرا لكي لا تسجل مع أصوات الفيلم ٠ كما أن استخدام الالوان فى الافلام السينمائية تطلب مزيدا من الضوء ، مما زاد صعوبة الحصول على شكل طبيعي للمشهد ورافق استخدام الشاشة السينمائية العريضة فى فترة الخمسينات مشاكل تتعلق بصعوبة التركيز وازدياد التشويه فى الصورة ٠

الا أن المصورين السينمائيين نجحوا فى حل جميع هذه المشاكل ، وتكيفوا بسرعة مع التقدم التكنولوجي الذى استفادوا منه بمهارة كبيرة نتيجة مواصلة اجراء التجارب في ظروف صعبة ٠

وقد أدى استخدام الافلام المتقدمة الحساسة الى ازدياد التصوير على الطبيعة فى مواقع الاحداث وخلال الليل ٠ اذ كثيرا ما كانت المشاهد الليلية فى الماضى تلتقط أثناء النهار باستخدام المرشحات على الكاميرا ٠

ويدل كل ذلك على براعة المصورين السينمائيين وقدرتهم على التكيف مع الظروف ومع التقدم التكنولوجى ،مما مكنهم من القيام بدور أساسى فى تقديم الفيلم السينمائى كأروع وأجمل صوره ٠

ايدث هيد ملكة مصممى الازياء وجوائز الاوسكار

بدأ تقديم جائزة الاوسكار لافضل مصمم أزياء عام ١٩٤٨ ، وقدتم ترشيح مصممة الازياء ايدث هيد لهذه الجائزة على مدى تسع عشرة سنة متتالية حتى عام ١٩٦٦ وهو انجاز لم يحققه أحد في اية فئة لجوائز الاوسكار . وقد رشحت ايدث هيد مرتين في تسع من تلك السنوات ، ورشحت ثلاث مرات في عام ١٩٦٣ . وفازت ايدث هيد بجائزة الاوسكار ثماني مرات ورشحت لها ثلاثا وثلاثين مرة .

وقد لا يدرك المشاهد العادى الدور الذى يلعبه مصمم الازياء في الفيلم السينمائي على العموم ، مع أنه قد يلاحظ ذلك في الافلام التاريخية الضخمة الملونة كفيلم « شمسون ودليلة » ١٩٥٠ للمخرج سيسيل بي . ديميل والذى فازت ايدث هيد بجائزة الاوسكار فيه عن تصميم الازياء الرائعة التى ظهرت في ذلك الفيلم .

غير أن ايدث هيد فازت بجائزة الاوسكار أيضا في افلام عصرية الاحداث تتميز أزياؤها بالبساطة كفيلم « مكان في الشمس » ١٩٥١ ، وفيلم « حقائق الحياة » ١٩٦٠ ، وهما من الافلام التى صورت بالابيض والاسود . وقد أطلق على ايدث هيد لقب « مصممة الازياء الصحفية » بسبب ما تميزت به أعمالها من دقة ووضوح وواقعية في التفاصيل .

وكانت ايدث هيد من مصممي الازياء القلائل في هوليوود

الذين صمموا الازياء للرجال والنساء على حد سواء . وقد فازت بجائزة الاوسكار عن تصميم أزياء الممثل مونتجمرى كليفت والممثلة أوليفيا ديهافيلاند فى فيلم « الوريثة » ١٩٤٩ ، وعن تصميم أزياء الممثلة بيتى ديفيس والممثل جورج ساندرز فى فيلم « كل شىء عن حواء » ١٩٥٠ ، وعن تصميم أزياء الممثلة أودرى هيبرن والممثل جريجورى بيك فى فيلم « أجازة غرامية » ١٩٥٣ ، والممثل همفرى برجارت والممثلة أودرى هيبرن مرة أخرى فى فيلم « سابرينا » ١٩٥٤ ، والممثلين بول نيومان روبرت ريدفورد فى فيلم « اللدغة » ١٩٧٣ .

ومما قالته ايدث هيد عند تسلمها جائزة الاوسكار عن تصميم أزياء فيلم « اللدغة » ان الجائزة لم تكن ضرورية لمكافأتها على مهمة « تصميم أزياء أكثر رجلين وسامة فى العالم » .

وكانت ايدث هيد تعتز بالدور الذى لعبته فى الافلام السينمائية عن طريق ازيائها التى مثلت عهودا واشكالا متعددة ، كما كانت تؤكد على أهمية الازياء فى أدوار الممثلين . وقد كتبت فى سيرتها الذاتية « طبيبة الازياء » تقول : « ان للملابس علاقة بالسعادة والشخصية والمشاعر فالمرء لاينسى ثوبا أو بذلة تحسن مظهره وتشعره بالارتياح وتذكره بلحظات جميلة » .

وقد عرفت ايدث هيد بتواضعها الشديد رغم انجازاتها السينمائية العظيمة وجوائز الاوسكار العديدة التى فازت بها . وقد ربطتها صداقات حميمة بعدد كبير من نجمات السينما اللاتى قامت بتصميم أزيائهن السينمائية واللاتى يجدن فيها أختا أو اما يرتحن لها ويثقن بها ويبحن لها بأسرارهن وينشدن فيها العطف والمحبة .

جوائز الاوسكار
والمؤثرات الخاصة

يعد استخدام المؤثرات الخاصة في الافلام السينمائية قديما قدم السينما نفسها . فقد استخدم المخرج الفرنسى جورج ميلى المؤثرات الخاصة فى عام ١٩٠٢ فى فيلم «رحلة الى القمر» لمحاكاة مشاهد يعتبر تصويرها صعبا جدا ان لم يكن مستحيلا ، بالاضافة الى كونه باهظ التكاليف وبالغ الخطورة .

وقد اكتسب استعمال المؤثرات الخاصة في السينما أهمية متزايدة . وفى عام ١٩٣٩ قررت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما تقديم جائزة أوسكار لافضل مؤثرات خاصة ، وتقاسمها فى عامها الاول ى . ه . هانسين وفريد سيرسين عن فيلم « جاءت الامطار » ، وهو من أفلام الكوارث التى تطلبت براعة سينمائية خاصة في تصوير زلزال أرضى ووابل من الامطار الغزيرة .

وفي عام ١٩٦٣ قسمت جائزة الاوسكار للمؤثرات الخاصة الى جائزتين ، جائزة المؤثرات البصرية وأخرى للمؤثرات الصوتية . الا أن جائزة المؤثرات الصوتية لم تمنح بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٢ ، كما انها لم تمنح سوى أربع مرات منذ عام ١٩٧٢ . كذلك لم تمنح جائزة الاوسكار للمؤثرات البصرية أو الصوتية فى عامي ١٩٧٣ و ١٩٨٣

أى ان هاتين الجائزتين ليستا تلقائيتين ، بل تتوقفان على تقييم انجازات المؤثرات الخاصة لكل عام على حده ·

وقد حقق مهندسو المؤثرات الخاصة تقدما متواصلا على مر السنين باستخدام وتطوير كافة الوسائل الميكانيكية والتكنولوجية المتوفرة لديهم ، وهى انجازات تحظى باعجاب الجمهور وأصبحت شيئا مسلما به · فجمهور السينما لا يدرك البراعة الفنية التى تدخل فى المؤثرات الخاصة والصعوبات التى يواجهها الفنيون فى تحقيقها · فحين يرى المشاهد ممثلا أو ممثلة تطير فى الهواء ، كما هو الحال فى فيلم « مارى بوبنز » الحائز على جائزة الاوسكار لافضل مؤثرات بصرية لعام ١٩٦٤ ، لا يدرك أن الشخص يصعد عن الارض باستخدام أسلاك غير مرئية · وحين يرى المشاهد جنودا تنفجر بهم الالغام على الشاطىء فى فيلم « أطول الايام » الحائز على جائزة أفضل مؤثرات خاصة لعام ١٩٦٢ لا يدرك مدى الاستعدادات المضنية لتلك المشاهد ·

الا أن الاساليب المستعملة فى المؤثرات الخاصة بلغت حدا بالغ التقدم فى السينما ، وهى تشتمل فى هذه الايام على استخدام أجهزة الكمبيوتر وأشعة الليزر والرسوم المتحركة المسيرة اليكترونيا وأحدث الوسائل والمعدات البصرية والصور المؤلفة أو المركبة والنماذج الميكانيكية المتعددة الاحجام والمنمنمات ·

وقد أحدث فيلم « ٢٠٠١ : رحلة فى الفضاء » الحائز على جائزة الاوسكار لافضل مؤثرات بصرية لعام ١٩٦٨ ثورة فى براعة الاساليب الفنية للمؤثرات الخاصة بفضل

الاساليب المبتكرة العديدة التى استخدمت فى تصـوير مشاهد هذا الفيلم العلمى الخيالى الرفيع المستوى .

ومن الوسائل المبتكرة التى قدمت فى هذا الفيلم التى تم تقليدها فى عشرات الافلام الاخرى ما يعـرف « بممر النجوم » ، وهو اسلوب تستخدم فيه الكاميرا لعرض صورة واحدة من صور فيلم سينمائى ثم تتحرك الاضواء المسلطة على شاشة ، وعندما يكرر عرض الصورة مرارا عديدة ينشأ عن ذلك عرض مثير للاضواء يخلق الانطباع لدى المشـاهد بأنه يرى شيئا ينطلق بسرعة عبر الفضاء .

ويعزى الفضـل فى هذا الابتكار الفنى الى المهندس دوجلاس ترمبيل ، علما بأن جائزة الاوسـكار لافضـل مؤثرات خاصة عن فيلم « ٢٠٠١ : رحلة فى الفضاء » منحت رسميا لمخرج الفيلم ستانلى كوبريك . وقد رشح دوجلاس ترمبيل لجائزة الاوسكار لافضل مؤثرات خاصة عن ثلاثة أفلام أخرى ، ولكنه لم يفز بالجائزة .

وقد منح تلميذه جون ديكسترا جائزة أوسكار فنية فى عام ١٩٧٧ تقديره بتطوير كاميرا ديكسـترا فليكس التى سهلت وسائل التحكم الموجودة فيها والتى توجه بواسطة الكمبيوتر عملية مطابقة الصور المتعددة فى المعركة الختامية المثيرة بفيلم « حرب النجوم » الذى فاز بجائزة الاوسـكار لافضل مؤثرات بصرية لعام ١٩٧٧ . واستخدمت أجهزة مماثلة فى فيلم « الثقب الاسود » الذى رشـح لجـائزة الاوسكار لافضـل مؤثرات خاصة لعام ١٩٧٩ ، وفى فيلم « الامبراطورية ترد الهجوم » الذى فاز بجائزة أفضل مؤثرات خاصة لعام ١٩٨٠ .

وقد لعبت صــــور الكمبيوتر دورا متزايدا فى الافــلام الفائزة بجائزة الاوسكار لافضل المؤثرات بصرية خلال السنوات الاخيرة ، كفيلم « حرب النجوم » وفيلم « الثقب الاسود» فبعد برمجة أبعاد وألوان جسم ما يستطيع جهاز الكمبيوتر أن يحسب أى زاوية ممكنة للكاميرا • ويمكن للكمبيــوتر قلب أو تحريك أو تغيير اشكال الاجسام بسهولة أكثر من استخدام الرسوم المتحركة • وما من شك فى أن أجهــزة الكمبيوتر استهلت عصرا جديدا ، للمؤثرات الخاصة فى الافلام السينمائية •

جوائز الأوسكار
للأفلام القصيرة

قبل أن يغزو التليفزيون المنازل الامريكية ويتحول الى وسيلة رئيسية للترفيه والاعلام فى الولايات المتحدة فى أواخر فترة الاربعينيات ، كانت الافلام القصيرة جزءا اساسيا من برامج الترفيه التى تسبق عرض الافلام الروائية فى دور السينما . وتضمنت هذه البرامج أفلام الكرتون والافلام الوثائقية والافلام الاخبارية وأفلام الطبيعة والرحلات السياحية .

وقد بدأت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بتقديم جوائز الاوسكار للافلام القصيرة فى العام الخامس لتقديم جوائز الاوسكار ١٩٣١/١٩٣٢ ، وللافلام الوثائقية فى عام ١٩٤١ . وتنص قواعد وأنظمة الاكاديمية على ألا يتجاوز طول الفيلم القصير ٣٣ وثلث دقيقة ليكون مؤهلا للترشيح . ويقوم فرع الافلام القصيرة فى الاكاديمية بترشيح الافلام القصيرة من بين الافلام التى يقدمها المنتجون السينمائيون ، ويقتصر التصويت للافلام الفائزة على الاشخاص الذين يشاهدون جميع الافلام المرشحة .

وفى بعض الاحيان يصعب التمييز بين الافلام العادية القصيرة والافلام الوثائقية القصيرة . فقد رشح الفيلم الكندى « جيران » عام ١٩٥٢ للجائزتين وفاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم وثائقى . كما فاز فيلم « حراس الصمت » بكلتا الجائزتين فى عام ١٩٧١ . وعلى اثر ذلك

تم تغيير القواعد والانظمة بحيث يملع ترشيح نفس الفيلم لجائزة أفضل فيلم قصير وأفضل فيلم وثائقى •

وقد هيمنت استديوهات هوليوود الكبرى على الفوز بجوائز الاوسكار للافلام القصيرة طوال فترة الثلاثين عاما تقريبا التى كانت هذه الافلام تعرض خلالها فى دور السينما قبل عرض الافلام الروائية الطويلة • وحظيت شركة والت دزنى السينمائية بنصيب الاسد من تلك الجوائز ومن جوائز أفلام الكرتون بشكل خاص •

وعندما أخذ عرض الافلام القصيرة فى الاختفاء من دور السينما وتحول هذا النوع من الافلام بصورة متزايدة الى افلام تجريبية أو أفلام شخصية تعبر عن أفكار ومواهب اصحابها ، بدا الفوز بجوائز الاوسكار لهذه الافلام يعكس هذا التغيير • واصبح معظم الفائزين بها من السينمائيين المستقلين • وتحول التركيز فى أفلام الكرتون من اهمية فن الرسوم المتحركة الى الافكار المجردة التى تعبر عنها تلك الافلام •

ومن الامثلة على الافلام القصيرة وأفلام الكرتون التى فازت بجائزة الاوسكار خلال الخمس والعشرين سنة الماضية فيلم « حدث على جسر أوال كريك » ١٩٦٣ الذى يعالج فيه المخرج الفرنسي روبرت انريكو مأساة الحرب الاهلية الامريكية ،وفيلم الكرتون«فيلمصريح» ١٩٧٣ الذى يتناول فيه المخرج فرانك موريس قصة حياته بأسلوب فريد ، وفيلم الكرتون « مغلق أيام الاثنين » ١٩٧٤ الذى تستخدم فيه المنحوتات الطينية فى تصوير شخصيات الفيلم ، وفيلم « الطعام والعناية » ١٩٧٩ الذى يقدم لمحة عن حياة طفلة متخلفة عقليا ، وهو فيلم من اخراج شقيقها

هيمنة والت ديزني على جوائز الاوسكار للأفلام القصيرة والافلام الوثائقية

يحتل والت دزني مؤسس شركة والت دزني السينمائية المركز الاول بين الفائزين بجائزة الاوسكار · فحتى وفاته عام ١٩٦٦ حصل على ٣٠ من جوائز الاوسكار ، بما في ذلك واحدة من جوائز ارفنج تالبيرج التذكارية وثلاث جوائز فخرية أخرى · كما فاز عدد من الاشخاص الذين يعملون في شركة والت دزني بالعديد من جوائز الاوسكار الاخرى

وقد هيمن والت دزني على جوائز الاوسكار للافلام القصيرة ، وخاصة أفلام الكرتون · فقد فاز هو أو الاستديو الذى يملكه بجائزة الاوسكار للافلام القصيرة ١٩ مرة ورشح لها ٣٠ مرة أخرى ·

وقد فاز دزني بجائزة أفضل فيلم كرتون ١٢ مرة ، وكان هو الفائز بهذه الجائزة ١٠ مرات خلال السنوات الثلاث عشرة الاولى لتقديم هذه الجائزة · وفاز بالجائزة في سنتها الاولى عن فيلم « زهور وأشجار » ١٩٣٢/١٩٣١ وهو أول فيلم يتم تصويره بالالوان الطبيعية · ومن بين افلام الكرتون التى فاز دزني عنها بجائزة الاوسكار فيلم « الخنازير الصغيرة الثلاثة » ١٩٣٣/١٩٣٢ ، وفيلم « الثور فيردناند » ١٩٣٨ ، وفيلم « البطة الصغيرة

القبيحة » ١٩٣٩ ، وفيلم « وجه ديرفوهير » ١٩٤٢ ·
ولعل من الغريب فعلا أن فيلم « الطاحونة القديمة » ١٩٣٧ هو فيلم « ميكى ماوس » الوحيد الذى فاز بجائزة الاوسكار ، الا أن والت دزنى منح جائزة أوسكار خاصة فى عام ١٩٣١/١٩٣٢ عن ابتكار شخصية « ميكى ماوس » الشهيرة ·

وقد تضمنت أفلام والت دزنى العادية القصيرة التي فازت بجائزة الاوسكار أربعة من أفلام المغامرات الطبيعية التي تتعلق بالحيوانات والطيور البرية ، وهى فيلم « فى وادى بيفر » ١٩٥٠ ، وفيلم « نصف فدان الطبيعة » ١٩٥١ ، وفيلم « الطيور المائية » ١٩٥٢ ، وفيلم « بلاد الدببة » ١٩٥٣ ، وقد فازت أفلام أخرى لوالت دزنى تتناول موضوعات مشابهة بجوائز الاوسكار للافلام الوثائقية سبع مرات أخرى ·

وتمتع والت دزنى بمواهب فنية متعددة كرسام وسينمائى ونجح فى الترفيه عن الناس من كافة الاعمار بشكل لم يضاهيه فيه أحد · وقد تعددت وتنوعت اسهاماته فى تقديم الافلام السينمائية الترفيهية والتعليمية ، وليس من الغريب اذن أن والت دزنى احتل المركز الاول فى الفوز بجوائز الاوسكار ·

ولعل ما قالته الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما عن والت دزنى عند منحه احدى جوائز الاوسكار الفخرية فى عام ١٩٣٨ يعبر أصدق تعبير عن اسهاماته وانجازاته السينمائية · فقد وصفت الاكاديمية أعماله عند منحه تلك الجائزة تقديرا لفيلم الكرتون « سنو وايت والاقزام السبعة » بقولها « انها أعمال سينمائية خلاقة وهامة استهواها ملايين الناس » ·

جوائز الاوسكار للأفلام الوثائقية

يقترن بدء تقديم جوائز الاوسكار للافلام الوثــائقية بالحرب العالمية الثانية ، وهى الفترة التى شــهدت ذروة ازدهار الافلام التســجيلية • وكانت قواعد وأنظمــة الاكاديمية لفنون وعلوم السينما من عام ١٩٤١ حتى عــام ١٩٧٤ تشترط أن تكون الافلام الوثائقية المؤهلة للترشيح لجائزة الاوسكار من أفلام ٣٥ مليمترا • وهــذا يعنى أن الكثير من الافلام التى أنتجت بميزانية منخفضة لم تكــن مؤهلة للترشيح ولذلك كان معظم الافلام الفــائزة من من انتاج استديوهات السينما الكبرى فى هوليوود أو من انتاج الوكالات الحكومية التى نشطت فى انتاج الافــلام الوثائقية •

الا أن تلك القواعد والانظمة عدلت منذ عام ١٩٧٥ • واصبح من الممكن اشتراك افلام ١٦ مليمترا أيضا ،شريطة أن تكون قد اشتركت قبل ذلك فى مهرجان سينمائى دولى معترف به لا تتنافس الافلام المشتركة فيه على جوائز ، أو أن تكون قد فازت بجائزة فى مهرجان ســينمائى دولى تتنافس الافلام المشتركة فيه على جوائز ، أو أن تكون قد عرضت فى دار سينما تجارية لقاء تذاكر مباعة فى منطقة

لوس انجيليس ، أو أن تكون قد حصـــلت على اعتراف لمجلس الاحداث المسرحية بمنحها جائزة نسر ذهبى .

وليس فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلـوم السينما فرع للافلام الوثائقية ، لذلك تقوم لجنة مؤلفة من أعضاء فى فروع الاكاديمية المختلفة بترشـــيح الافلام الوثائقية المؤهلة على ان يكون اعضاؤها قد شـــاهدوا جميع الافلام المرشحة .

وقد اقتصرت الافلام الفائزة بجائزة الاوسكار لافضـل افلام وثائقية فى السنوات الست الاولى لتقديم الجـائزة على الافلام الحربية التي أنتجتها الحكـــومة الامريكية أو احدى الدول الحليفة لهـا آنذاك . وكانت تـلك الافـلام الوثائقية تقدم صورة عن تقدم الحرب العـــالمية الثانية ، وكان الهدف من انتاجها هو عرضـها للجمهـــور فى دور السينما . وقد فاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم وثائقى اربعة أفلام فى عام ١٩٤٢ ، هى الفيلمـــان الامريكيـــان « معركة ميداوى » و « مقدمة لحرب » والفيلم الاسـترالى « جبهة كوكودا الامامية » والفيلم الروسى « موسكو ترد الهجوم » .

وابتداء من عام ١٩٤٣ قسمت الجائزة الى جائزتين هما جائزة الافلام الوثائقية القصيرة وجائزة الافلام الوثائقية الطويلة . الا انه لم يرشح لجائزة الافلام الوثائقية أى فيلم فى عام ١٩٤٦ . وقد منحت جائزة الاوسكار للافلام الوثائقية القصيرة لفيلمين فى عام ١٩٤٩ ، ولم يرشح أى فيلم لتلك الجائزة فى عام ١٩٥٧ .

وتم تصوير معظم الافلام الوثائقية خلال العشرين سنة الاولى لتقديم جائزة الاوسكار لهذه الافلام بدون تسـجيل

صوتى متزامن مع الصورة • وتمت اضافة صوت الراوى والموسيقى والمؤثرات الصوتية فى الاستديو • الا أن صنع أجهزة تسجيل الصوت المتزامن المتقدمة والسهلة الحمل فى فترة الستينات سهل على فرق التصوير الصغيرة عملية تسجيل الصوت على الطبيعة أثناء تصوير الاحداث • ولم تكن هناك فى كثير من الاحيان حاجة الى صوت راو للفيلم •

ويعرف هذا الاسلوب الجديد باسم 'CINEMA VERITE' أى « السينما الواقعية » • ويوضح هذا الاسلوب الطريقة المختلفة التى صورت فيها حرب فيتنام وبمقارنتها بالحرب العالمية الثانية • ومن الامثلة الجيدة على السينما الوثائقية الواقعية الفيلم الفرنسى « فصيلة الدرسون » الفائز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم وثائقى طويل لعام ١٩٦٧ • ويتعلق هذا الفيلم بوحدة عسكرية أمريكية تحارب عدوا غير مرئى فى فيتنام • وقد استخدمت المخرجة السينمائية باربرا كوبيل هذا الاسلوب السينمائى فى تقديم صورة حية لكفاح عمال المناجم المضربين بولاية كنتكى فى فيلم « مقاطعة هارلان الامريكية » الفائز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم وثائقى طويل لعام ١٩٧٦ •

وتتعلق جميع الافلام الوثائقية الفائزة بجائزة الاوسكار بشخصيات وأحداث وأماكن وعمليات مثيرة فى سائر أنحاء العالم • ومن الامثلة على ذلك فيلم « كون ـ تيكى » ١٩٥١ الذى يتعقب عبور الرحالة ثور هيردال للمحيط الهادى على متن عوامة ، والفيلم البريطانى « أطفال يوم الخميس » ١٩٥٤ الذى يقوم فيه الممثل ريتشارد بيرتون بدور الراوى والذى يتعلق بحياة طلاب فى احدى مدارس الصم البريطانية ، وفيلم « العالم الصامت » ١٩٥٦ ، وهو

أو فيلم للمستكشف البحرى الفرنسى جاك ـ ايف كوستو ويكشف فى هذا الفيلم أسرار العالم الموجود تحت البحر •

ويقدم الفيلم الهولندى « زجاج » ١٩٥٩ صــورة حية وممتعة لعمال نفخ الزجاج فى مصنع للزجاج بهولنـــدا • ويستخدم الفيلم البريطانى « لعبة الحرب » ١٩٦٦ مشاهد مدبرة لتصوير العواقب المرعية للحرب النووية على الاحياء السكنية البريطانية • ويقدم المخرج سول باس فيلم « لماذا يبتكر الانسان ؟ » ١٩٦٨ تقديرا لخيال العلماء والفنانين ومواهبهم الفياضة • ويحتفل فيلم « وود ستوك » ١٩٧٠ بموسيقى وحيوية أشهر وأكبر حفلة لموسيقى الروك • أما فيلم « انسجام حميم » ١٩٨١ فيصـــور أهمية تأليف الموسيقى فى نشر روح الانســـجام بين تلاميذ المدارس الصغار والمسنين فى نيويورك •

ومع أن مخرجى الافلام الوثائقية الفـــائزة بجـــائزة الاوسكار يؤكدون على أهمية محتوى الافلام والحقائق التى تعرضها فان أساليبهم السينمائية متنوعة ومختلفة وحافلة بالابتكار والتجديد •

جوائز الاوسكار
العلمية والفنية

تقوم الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ـ كما يشير اسمها ـ بدور علمي وثقافي هام متعدد الجوانب . ويشتمل ذلك على الابحاث الفنية والبرامج التعليمية وتقديم المنح الدراسية ونشر الكتب والنشرات وحفظ الإفلام القديمة ومكتبة مارجريت هيريك التى تعد واحدة من اكبر المكتبات السينمائية فى العالم ، كما يشتمل على تقديم جوائز الاوسكار العلمية والفنية السنوية .

وقد بدأ تقديم جوائز الاوسكار العلمية والفنية فى عام ١٩٣٠/١٩٣١ ، وهو العام الرابع لتقديم جوائز الاوسكار وهى مقسمة الى ثلاثة أصناف . يقدم الصنف الاول للانجازات الاساسية . وهذا الصنف من الجوائز بالغ الاهمية ولا يقدم الا نادرا ،ويقدم الصنف الثانى للانجازات التى تظهر مستوى رفيعا للاستحقاق الهندسى أو الفنى أما الصنف الثالث فيقدم للاسهامات القيمة .

وتمنح جائزة الصنف الاول بشكل جائزة أوسكار عادية ، أى تمثال الاوسكار . وتمنح جائزة الصنف الثانى بشكل لوحة ، كما تمنح جائزة الصنف الثالث بشكل شهادة . ويقوم باختيار الفائزين مجلس ادارة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بناء على توصيات من لجنة

الجوائز العلمية والفنية التى يعين أعضاءها رئيس الاكاديمية .

وتقدم جوائز الاوسكار العلمية والفنية للافراد والمؤسسات تقديرا لاسهامهم فى تقديم «الاجهزة والوسائل والصيغ والاكتشافات والاختراعات» التى تسهم فى أية خطوة من خطوات انتاج وعرض الافلام السينمائية . فعلى سبيل المثال ، منحت شركة استديو يونايتد آرتستس جائزة أوسكار علمية فى عام ١٩٣٦ بفضل تطوير آلة ريح هادئة وفعالة وعملية ، ومنح مجلس الابحاث السينمائى جائزة اوسكار علمية فى عام ١٩٥٧ بفضل تحسين معامل انعكاس شاشات دور السينما المكشوفة التى يشاهد الناس الافلام التى تعرض فيها وهم جالسون فى سياراتهم

وقد منحت معظم جوائز الاوسكار العلمية والفنية للاشخاص المسئولين عن تطوير أجهزة ومعدات تسجيل وانتاج الصوت . ومنحت فى فترة الثلاثينات ، التى أعقبت ظهور السينما الصامتة، ٢٥ جائزة لمخترعى ومطورى الاجهزة والمعدات التى أسهمت فى تحسين دقة التسجيل وتخفيف الضجيج والتحكم فى قوة الموسيقى عند مزجها بالصوت وتحسين صوت الفيلم بشكل عام .

ومنحت معظم الجوائز الاولى لمخترعى أجهزة ميكانيكية وكهربائية . الا أن معظم جوائز الاوسكار العلمية والفنية منحت خلال السنوات الاخيرة لاختراعات تتعلق بالاليكترونيات وأجهزة الكمبيوتر . ويتضح ذلك بشكل خاص فى ثانى أكبر فئة للفائزين وهم المهندسون المسئولون عن المؤثرات الخاصة . فقد منحت الاكاديمية جائزة الاوسكار لمخترعى طائفة متنوعة من الاجهزة والمعدات التى

تحاكى مؤثرات خاصة كالغيوم والضباب واطلاق نيران الرشاشات • ومنحت جوائز عديدة فى حقل التصوير ، كجائزة الاوسكار التى قدمت للمهندس جون ديسكترا فى عام ۱۹۷۷ بفضل قيامه باختراع كاميرا لافلام الكرتون يتم التحكم فيها بواسطة الكمبيوتر • وقد استخدمت هذه الكاميرا فى فيلم « حرب النجوم » ۱۹۷۷ • وفى عام ۱۹۸۱ منحت الجائزة لدنيس مورين وستوارت زيف وشركة الضوء والسحر الصناعية بفضل اختراع محرك للاشكال السينمائية لتصوير افلام الكرتون •

وقدمت بعض جوائز الاوسكار العلمية والفنية اعترافا بما أدخل من تحسينات على أجهزة تحميض وطبع الافلام، وما ادخل من تحسينات على الكاميرات والعدسات والاضاءة والمعدات الكهربائية وأجهزة العرض والشاشات السينمائية وأجهزة التحكم والقياس وأجهزة المونتاج وعمليات الالوان ومنحت شركة ايستمان كوداك ١٢ جائزة أوسكار علمية وفنية اعترافا بما أدخلته من تحسينات على الافلام الخام وعلى عمليات تحميضها • وفى فترة الخمسينات منحت جائزة أوسكار علمية وفنية لخمس مؤسسات أسهمت فى تطوير أجهزة ومعدات تصوير وعرض الافلام على الشاشات العريضة •

ومع أن جوائز الاوسكار العلمية والفنية لا تحظى بالابهة التى تحاط بها جوائز الاسكار الاخرى ، فهى تلعب دورا بالغ الاهمية فى مواصلة تسيير العجلة الفنية والتكنولوجية لصناعة السينما التى توفر الاختراعات والابتكارات والاكتشافات التى تسهم فى تطوير الفيلم السينمائى وتقديمه فى أحسن أشكاله الفنية

جوائز الاوسكار الفخرية

جوائز الاوســـكار الفخرية ، بما فيها جـائزة أرفنج ثالبيرج التذكارية وجائزة جين هيرشولت الانسانية وجائزة جوردون سوير الفنيـة ، هى جـوائز خاصـــة ليس من الضرورى أن تمنح كل عام • ويختار الفائزين بالجـوائز الفخرية مجلس ادارة الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما •

وتتيح جوائز الاوسكار الفخرية للاكاديمية الفرصـــة لتكريم الاشخاص الذين قد لا تنطبـــق على انجـــازاتهم الســـينمائية المعايير التقليدية للفئـــات المختلفة لجوائز الاوسكار •وقد منح عدد قليل من الاشخاص جائزة الاوسكار الفخرية بعد فوزهم بجائزة أوسكار عادية مثـــل الممثلين جارى كوبر ولورانس اوليفييه ومارى بيكفورد والمنتـــج السينمائى والت دزنى ، الا أن معظم الحائزين على جـوائز الاوسكار الفخرية لم يفوزوا بجوائز أوسكار عادية •

وقد منح العديد من جوائز الاوسكار الفخرية لرواد عصر السينما الصامتة الذين قدموا معظم انجازاتهم السينمائية قبل بدء تقديم جوائز الاوســـكار فى عـــام ١٩٢٧ • ومن الامثلة على ذلك تشارلى تشابلين الذى منح جائزة أوسكار فخرية مرتين فى عام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ وعام ١٩٧١ ، وديفيد

وارك جريفيث ١٩٣٥ وماك سينيت ١٩٣٧ وهارولد لويد ١٩٥٢ وبستر كيتون ١٩٥٩ وليليان جيش ١٩٧٠ ومارى بيكفورد ١٩٧٥ ٠

كما منحت جوائز اوسكار فخرية عديدة لعدد من كبار السينمائيين الذين قدموا انجازات عظيمة فى عصر السينما الناطقة ولكنهم لم يفوزوا بجائزة الاوسكار ٠ ومن الامثلة على ذلك الممثل فريد أستير ١٩٤٩ والممثل جين كيلى ١٩٥١ والممثلة جريتا جاربو ١٩٥٤ والممثل دانى كاى ١٩٥٤ والممثل جارى جرانت ١٩٦٩ والمخرج هوارد هوكس ١٩٧٤ والممثلة باربرا ستانويك ١٩٨١ ٠ وصاحب الرقم القياسى فى عدد جوائز الاوسكار الفخرية هو النجم الكوميدى بوب هوب الذى منح هذه الجائزة خمس مرات فى سنة ١٩٤٠ و ١٩٤٤ و ١٩٥٢ و ١٩٥٩ و ١٩٦٥ ٠ وكانت جائزة عام ١٩٥٩ هى جائزة جين هيرشولت الانسانية ٠

كما منحت جوائز أوسكار فخرية لعدد من نجوم السينما الاطفال تقديرا لادوارهم السينمائية المتفوقة ، وملهم شيرلى تمبل ١٩٣٤ وميكى رونى ١٩٣٨ و ١٩٨٢ ، وجودى جارلاند ١٩٣٩ ، وهايلى ميلز ١٩٦٠ ٠

وقد تحولت جوائز الاوسكار الفخرية التى قدمت لفئات معينة كالافلام الاجنبية والمؤثرات الخاصة والماكياج الى جوائز أوسكار عادية بعد تقديمها كجوائز فخرية أو خاصة لعدد من السنين ٠

وبين الفائزين بجوائز الاوسكار الفخرية طائفة منوعة من الاشخاص كالمخترع لى ديفوريست ١٩٥٩ ومديرة المونتاج مارجريت بوث ١٩٧٧ ومنظمات مثل متحف الفن الحديث ١٩٣٧ ، وجمعية مهندسى الافلام السينمائية والتليفزيونية

١٩٥٧ ، وشركات مثل شركة بيل وهاويل ١٩٥٣ وشركة بوش ولومب ١٩٥٤ ٠

جائزة ارفنج ثالبيرج التذكارية

تقدم جائزة أرفنج ثالبيرج التذكارية تكريما للمنتجين المبدعين الذين تعكس أفلامهم السينمائية مستوى رفيعا متواصلا من الانتاج السينمائي ٠ وقد شغل ارفنج ثالبيرج ١٨٩٩ ـ ١٩٣٦ الذى تسمى الجائزة باسمه ، منصب المشرف الفنى لشركة مترو ـ جولدوين ـ ماير السينمائية منذ تاسيسها فى عام ١٩٢٤ وحتى وفاته فى عام ١٩٣٦ ٠ وقد أسهم ثالبيرج فى ازدهار ونجاح الاستديو حين كان واحدا من أكبر استديوهات هوليوود ٠

جائزة جين هيرشولت الانسانية

بدأ تقديم جائزة جين هيرشولت الانسانية في عام ١٩٥٩ وذلك تقديرا للافراد الذين تعد خدماتهم الانسانية مفخرة لصناعة السينما ٠ وتحمل هذه الجائزة اسم ممثل ولد فى الدانمارك وظهر فى مئات الافلام السينمائية ٠ وقد شغل جين هيرشولت الذى توفى فى عام ١٩٥٦ منصب رئيس صندوق الاغاثة السينمائى على مدى ٢٨ عاما ، كما شغل منصب رئيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما٠

جائزة جوردون سوير

جائزة جوردون سوير هى أحدث الجوائزة الفخرية التى تقدمها الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ٠ فقد بدأ

تقديمها فى عام ١٩٨١ وهى مسماه باسم مهندس للصوت كان يشغل منصب مدير قسم الصوت فى استديوهات ساموبل جولدوين • وقد توفى جوردون سوير فى عام ١٩٨١ ، وهو نفس العام الذى بدأ فيه تقديم الجائزة التى تحمل اسمه • وتمنح هذه الجائزة تقديرا للافراد الذين يقدمون اسهامات تكنولوجية فذة لصناعة السينما عبر فترة طويلة من الزمن • وتنطبق على هذه الجائزة نفس القواعد التى تطبق على جائزة ارفنج تالبيرج التذكارية وجائزة جين هيرشولت الانسانية ، ومنها أنها لا تمنح لاى شخص أكثر من مرة واحدة ، ولا تمنح لاى عضو من أعضاء مجلس ادارة الاكاديمية أثناء وجوده فى منصبه ، كما لا تمنح لاى شخص بعد وفاته •

اشخاص افلام مستحقون جائزة الاوسكار ولكنهم لم يفوزوا بها

يحفل تاريخ جائزة الاوسكار باسماء المرشحين الذين لم يفوزوا بالجائزة ، الا أن ذلك لا ينتقص من مكانتهم • فالترشيح للجائزة بحد ذاته ينطوى على اعتراف من أقران الفنان بأنه حقق انجازا سينمائيا هاما • وبالفعل يمنح المرشحون شهادات خاصة تؤكد ترشيحهم لجائزة الاوسكار

وهناك الكثير من السينمائيين المعروفين بمواهبهم الفياضة الذين لم يرشحوا لجائزة الاوسكار • الا أن عدم ترشيحهم أو فوزهم بجائزة الاوسكار لم يقلل من مكانتهم الفنية •

وسنستعرض فى هذا الفصل أسماء بعض الافراد والافلام الذين يثير غيابهم عن قوائم الفائزين بجائزة

الاوسكار دهشة الكثيرين . ولابد من الاشارة الى أن بعض هؤلاء الاشخاص منحوا جوائز أوسكار فخرية تقديرا لانجازاتهم السينمائية ولكنهم لم يفوزوا بجوائز أوسكار عادية .

الممثلون والممثلات غير الفائزين

يتصدر قائمة الممثلين الذين رشحوا لاكبر عدد من جوائز الاوسكار دون الفوز بها الممثلان البريطانيان ريتشارد بيرتون وبيتر أوتول اللذان رشح كل منهما للجائزة سبع مرات . كما رشح لها كل من الممثلين آل باشينو وآرثر كينيدى خمس مرات ورشح لها مونتجمرى كليفت وتشارلز بوييه وكلود رينز وألبيرت فينى أربع مرات ، ولكن لم يفز أحد منهم بجائزة الاوسكار .

وتتصدر قائمة الممثلات اللاتى رشحن لاكبر عدد من جوائز الاوسكار دون الفوز بها الممثلة البريطانية ديبورا كير والممثلة الامريكية ثيلما ريتر اللتان رشحت كل منهما للجائزة ست مرات . كما رشحت الممثلة ايرين دان خمس مرات ورشحت لها باربرا ستانويك وجريتا جاربو وروز اليند راسيل وآجنس مورهيد أربع مرات ، ولكن لم تفز أى منهن بجائزة الاوسكار .

وبين الممثلين البارزين الذين لم يرشحوا أبدا لجائزة الاوسكار الممثل جون باريمور ، الذى يعتبره كثيرون أقدر ممثل أمريكى ظهر على الشاشة السينمائية ، وجوزيف كوتن وايرول فلين وبوريس كارلوف ودونالد سوذرلاند وادوارد جى . روبنسون .

وبين الممثلات البارزات اللاتى لم يرشحن أبدا لجائزة الاوسكار جين هارلو وأيثيل ميرمان وبيتى هاتون ودروثى لامور وأيستر وليامز ٠

المخرجون غير الفائزين بجائزة الاوسكار

من أبرز المخرجين السينمائيين الذين لم يفوزوا بجائزة الاوسكار المخرج البريطانى المولد ألفريد هيتشكوك الذى رشح للجائزة أربع مرات ٠ ومع أن فيلمه « ريبيكا » فاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم لعام ١٩٤٠ فان هيتشكوك لم يرشح للجائزة عن اخراج ذلك الفيلم ٠

ومن بين المخرجين الذين جمعوا بين المواهب الفنية والنجاح التجارى الكبير والذين لم يفوزوا بجائزة الاوسكار ستيف سبيلبيرج الذى رشح للجائزة ثلاث مرات وجورج لوكاس وروبرت ستيفنسون اللذان رشح كل منهما مرة واحدة وجورج سيدنى الذى لم يرشح أبدا للجائزة ٠

وبين المخرجين المرموقين الاخرين الذين لم يفوزوا بجائزة الاوسكار روبرت آلتمان وسيسيل بى ٠ ديميل وهوارد هوكس وأروسون ويلز الذى رشح كل منهم للجائزة مرة واحدة ، والمخرجة الايطالية لينا فيرتميولر ، وهى المرأة الوحيدة التى رشحت لجائزة الاوسكار لافضل مخرج حتى الآن ، علما بأن أورسون ويلز تقاسم الفوز بجائزة الاوسكار لافضل كاتب سيناريو عن فيلم « المواطن كين » ٠

الافلام غير الفائزة بجائزة الاوسكار

تشتمل الافلام التى رشحت لجائزة الاوسكار لافضل

فيلم دون أن تفوز بهـــا على فيلم « المواطن كين » ، الذى يعتبره كثير من نقاد السينما في جميع أنحاء العالم أفضل فيلم أنتج حتى الآن • وقد أخرج أورسون ويلز هذا الفيلم وقام ببطولته وانتاجه واشترك فى كتابة السيناريو له حين كان فى الرابعة والعشرين ســـنة من العمر ، وكان فيلم « المواطن كين » باكورة أفلامه السينمائية بعد نجاح كبير حققه فى الاذاعة والمسرح • ورشح أورســـون ويلز أربع مرات لجائزة الاوسكار فى فيلم « المواطن كين » ، وكان أول فنان يحظى بهذا الشرف فى نفس الفيلم • ولم يحقق ذلك غيره سوى الممثل والمخرج وارين بيتى فى فيلم «حمر» فى عام ١٩٨١ • واشترك أورسون ويلز بالفوز بجـــائزة الاوسكار لافضل كاتب سيناريو مع الكاتب الســـينمائي هيرمان مانكيويكز عن فيلم « المواطن كين » فى عام ١٩٤١ •

وقد اكتسب فيلم « المواطن كين » أهمية فنية متزايدة على مر السنين بفضل ما أدخله من ابتكارات سينمائية طويلة الامد ، وخاصة فى التصوير والاضاءة ، علاوة على توفر كافة المقومات الاخرى لجعله فيـلما متميزا ، حتى أصـــبح من متطلبات الدراسة فى أقسام دراسة السينما فى الجامعات المختلفة •

ومع أن فيلم « المواطن كين » رشح لتســـع من جوائز الاوسكار فى عام ١٩٤١ ،فقد فاز بجائزة واحدة، وهى جائزة أفضل سيناريو أصلى • وكان الفيلم الفائز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم فى ذلك العام فيلم « الوادى الاخضر » ، وهو فيلم يقل مستواه الفنى عن المستوى الفنى لفيلم « المواطن كين » فى جميع المعايير • وهناك تفسيرات عديدة لعدم فوز فيلم « المواطن كين » بجائزة الاوسكار لافضل فيلم ، منها

خلافات أورسون ويلز المعروفة مع « المؤسسة السينمائية التقليدية » فى هوليوود وخروجه عن خطها ونزعته الاستقلالية ثم الجدل الذى أثير حول الفيلم نتيجة القضية التى رفعها الناشر الصحفى المعروف جورج راندولف هيرست فى المحاكم بسبب التشابه بين شخصيته وشخصية بطل الفيلم « كين » ، مما أدى الى تأجيل عرض الفيلم لعدة أشهر بالاضافة الى عدم تقييم الاهمية الفنية والواقع الفورى المباشر لفيلم « المواطن كين » على صناعة السينما ، وهو شيء ظهر فى السنين اللاحقة ٠

وليس فيلم « المواطن كين » هو الفيلم الوحيد الذى خسر جائزة الاوسكار امام فيلم أضعف منه ٠ ومن الافلام الاخرى التى رشحت لجائزة الاوسكار لافضل فيلم والتى لم تفز بالجائزة ، ولكن النقاد يعتقدون أنها تستحق الجائزة فيلم « سنسيت بوليفارد » ١٩٥٠ ، وفيلم « قطار الظهر » ١٩٥٢ ، وفيلم « دكتور سترينج لاف » ١٩٦٤ ، وفيلم « الخريج » ١٩٦٧ ، وفيلم « نقطة التحول » ١٩٧٧ وفيلم « حمر » ١٩٨١ ٠

وتقدم قائمة الافلام التى رشحت لجائزة الاوسكار لافضل فيلم فى عام ١٩٣٩ مثلا جيدا على المنافسة الشديدة التى واجهتها أفلام ذلك العام ٠ فقد رشحت عشرة أفلام للجائزة فى ذلك العام قبل أن تعدل قواعد وأنظمة الترشيح وتحدد بخمسة أفلام ، وتنافست تسعة منها مع الفيلم الرائع الشهير « ذهب مع الريح » الذى فاز بالجائزة ٠ وكان بين الافلام المرشحة فى ذلك العام عدة أفلام كان من الممكن أن تفوز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم فى أى عام آخر ٠ وتضمنت قائمة الافلام المرشحة فى ذلك العام الى جانب

فيلم « ذهب مع الريح » كلا من فيلم « نصر كئيب »، وفيلم « وداعا يا مستر تشيبس » ، وفيلم « عـلاقة غراميـة » ، وفيلم « مستر سميث يذهب الي واشنـطن » ، وفيـلم « نينوتشكا » ، وفيلم « عن الفئران والرجال » ، وفيـلم « مركبة الجياد » وفيلم « ساحر أوز » ، وفيلم « مرتفعات وذرنج » •

وهناك أفلام عديدة يصر النقاد وهواه السينما علي أنها كانت تستحق الترشيح لجائزة الاوسكار لافضـل فيلم ، وربما الفوز بها أيضـا ، كفيلم « لورا » ١٩٤٤ ، وفيلم « الرجل الثالث » ١٩٥٠ ، وفيلم « ملكة افريقيا » ١٩٥١ وفيلم « غناء تحت المطر » ١٩٥٢ ، وفيلم « سايكو » ١٩٦٠ وفيلم « رحلة يوم طـويل عبر الليـل » ١٩٦٢ ، وفيـلم « ٢٠٠١ : رحلة في الفضاء » ١٩٦٨ ، وفيلم « مانهاتان » ١٩٧٩ •

الا أن عدم ترشيح هذه الافلام لجائزة الاوسكار لافضل فيلم لم يقلل من مكانتها الفنية • وكما حدث لفيلم « المواطن كين » ، فان أفلاما عظيمة أخرى لم تفز بجائزة الاوسكار أو لم ترشح لها احتلت مكانها الطبيعي فيما بعد وسـط روائع الافلام السينمائية ، كفيلم « مركبة الجياد » ١٩٣٩ الذي يعد واحدا من أفضل أفلام رعاه البقر التي أنتجت في تاريخ السينما ، وفيلم « غنـاء تحت المطر » ١٩٥٢ الذي يتفق النقاد الآن على أنه اعظم فيلم استعراضي أنتج حتى الآن علما بأنه لم يرشح لجائزة الاوسكار ، وفيـلم « ٢٠٠١ : رحلة في الفضاء » ١٩٦٨ الذى تحول في نظر معظم النقاد الى واحد من أفضل عشرة أفلام أنتجت في التاريخ ، علما بأنه لم يرشح لجائزة الاوسكار أيضا •

أثـر التليفزيون فـي انتشار جوائز الاوسكار

في التاسع من مارس / آذار عام ١٩٥٣ شاهد قرابة ثمانين مليون أمريكي الحفلة السنوية الختامية والعشرين لتوزيع جوائز الاوسكار التي نقلت من هوليوود على شاشات التليفزيون • وقد استهلت أول تغطية تليفزيونية لحفلة توزيع الجوائز عهدا جديدا لانتشار شعبية جوائز الاوسكار بين الجمهور وازدياد أهميتها كجائزة فنية مرموقة •

وكانت حفلات جوائز الاوسكار في بداية عهدها في أواخر فترة العشرينات تقام كمادبات عشاء خاصة يحضرها قرابة ٣٠٠ شخص دون أي تغطية صحفية •وفي عام ١٩٣٠ بدأت احدى المحطات الاذاعية المحلية في لوس انجيليس بتغطيتها ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٤٤ حين بدأت شبكات الاذاعة الامريكية بنقل تلك الحفلات في سائر أنحاء الولايات المتحدة ، مما زاد جمهور مستمعيها أضعافا عديدة •

الا أن التغطية التليفزيونية لعام ١٩٥٣ جعلت حفلة توزيع جوائز الاوسكار واحدة من أكثر البرامج التليفزيونية الامريكية شعبية • وازداد عدد مشاهدي الحفلة على شاشات التليفزيون في السنين اللاحقة حيث أصبحت

تشاهد في عدد من الدول الاخرى • وقد قدر عدد مشاهدى حفل توزيع جوائز الاوسكار لعام ١٩٨٦ والتى أقيمت فى الثلاثين من مارس/آذار عام ١٩٨٧ بألف مليون شخص فى ٨٩ دولة • وتدفع شبكات التليفزيون الامريكية أكثر من مليونى دولار للاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما مقابل حقوق نقل حفلة توزيع جوائزالاوسكار التى تستغرق ثلاث ساعات تقريبا •

ومن المفارقات فعلا أن يسهم التليفزيون فى نشر شعبية جائزة الاوسكار • فقد بدأت التغطية التليفزيونية لحفلة توزيع جوائز الاوسكار فى الولايات المتحدة خلال فترة ساد فيها عداء مستحكم بين هوليوود ممثلة لصناعة السينما الامريكية وبين شبكات التليفزيون ، بالنظر للاثر السلبى لانتشار شعبية التليفزيون على اقبال الناس على دورالسينما الامريكية فبين عامى ١٩٤٦ ، ١٩٥٢ انخفض الاقبال على دور السينما فى الولايات المتحدة بنسبة ٤٥ بالمائة لان الاسر الامريكية وجدت فى جهاز التليفزيون مصدرا جيدا ورخيصا للتسلية والترفيه ولا يتطلب عناء مغادرة المنزل للذهاب الى دار السينما •

وقد اقترنت السنوات الاولى لعرض حفلة توزيع جوائز الاوسكار على شاشات التليفزيون بالانتقاد اللاذع من قبل مقدمي الجوائز للتليفزيون واستهزائهم به كجهاز صغير يشتمل على شاشة صغيرة تقدم البرامج بالابيض والاسود وتتخلل برامجه الاعلانات الدعائية ، مشيرين الى أن الافلام السينمائية تعرض بالالوان على شاشة ضخمة واسعة •

ومما يذكر أن أول تغطية تليفزيونية بالالوان لحفلة توزيع جوائز الاوسكار تمت فى عام ١٩٦٦ فى حين أن أول

فيلم سينمائى بالالوان الطبيعية ـ عدا أفلام الكرتون ـ عرض فى عام ١٩٣٤ ، وهو فيلم « لا كوكاراتشا » الذى فاز بجائزة الاوسكار لافضل فيلم كوميدى قصير ٠

الا أن العداء بين التليفزيون من جهة والسينما وجوائز الاوسكار من جهة اخرى لم يستمر طويلا ، بل أن العلاقة بينهما أثبتت أنها ذات فائدة متبادلة ٠ فقد استفادت هوليوود من دخول كبار نجومها الى منازل ملايين الاسر الامريكية عن طريق شاشة التليفزيون ٠

واكتشف مشاهدو التليفزيون جانبا انسانيا جديدا لاولئك الممثلين الذين كانوا يعبرون عن مشاعر وعواطف شخصية طبيعية ويقومون بتصرفات عفوية عند تقديم جوائز الاوسكار والفوز بها ،وهو جانب لم يكن المشاهدرن يرونه على شاشة السينما لان الممثلين فى السينما يقومون بادوار لا تعبر عن شخصياتهم بل عن الشخصيات التى تسند اليهم أدوارها ٠ فقد رأى مشاهدو التليفزيون الممثلين والممثلات يعانقون أزواجهم عند الفوز بالجائزة أو يشكرون آباءهم أو يعبرون عن مشاعرهم بالدموع والابتسامات ٠ ولذلك أسهم التليفزيون فى تقديم صورة صادقة للنجم السينمائى ولعلاقته بأسرته ، وهى صورة لم يراها الجمهور فى الماضى ٠

وقد شهدت حفلات توزيع جوائز الاوسكار وما يرافقها من استعراضات غنائية وراقصة تحسنا متواصلا وملحوظا على مر السنين ٠ ففى السنوات الاولى كانت الاستعراضات تقدم أمام ستار المسرح ، ولكنها أصبحت الآن تضاهى ما كان يقدم فى الافلام الاستعراضية الفخمة التى اشتهرت بها فترة الثلاثينات ٠ والفرق الرئيسى بينهما هو أن

الاستعراضات التى تقدم فى حفلة توزيع جوائز الاوسكار فى هذه الايام تقدم حية على التليفزيون أمام أنظار الف مليون مشاهد ،علما بأنها تسبق بالبروفات والاستعدادات التقليدية •

مفاجآت حفلات توزيع جوائز الاوسكار على شاشات التليفزيون

رغم كل البروفات والاستعدادات والاحتياطات التى تتخذ فان حفلات توزيع جوائز الاوسكار لا تخلو من المفاجئات • وقد شهدت التغطيات التليفزيونية لتلك الحفلات ، وخاصة فى فترة السبعينات ، أحداثا مفاجئة عديدة ، بعضها ذو طابع سياسى • فقبل اعلان أسماء الفائزين بجوائز الاوسكار فى عام ١٩٧١ أعلن الممثل جورج سى • سكوت الذى كان مرشحا لجائزة الاوسكار لافضل ممثل أنه لن يقبل الجائزة اذا منحت له عن دوره فى فيلم « باتون » ، قائلا انه يرفض فكرة جوائز الاوسكار باكملها • وقد أثار ذلك الكثير من التكهنات ، وعندما حان موعد الاعلان عن اسم الفائز بتلك الجائزة أعلنت مقدمة الجائزة الممثلة جولدى هون ـ خروجا على العرف ـ أن جائزة الاوسكار لافضل ممثل لا تكرم الممثل الفائز ولكنها تكرم الانجاز نفسه • وعندما فتحت جولدى هون الظرف الذى يحتوى على اسم الفائز أعربت عن دهشتها ثم أعلنت اسمه ، وكان جورج سى • سكوت • وعندئذ قبل منتج فيلم « باتون » فرانك مكارثى نيابة عن سكوت ، قائلا أن ذلك يثبت عدم تحيز أعضاء الاكاديمية عند اختيارهم للفائزين •

وكان الممثل مارلون براندو ثاني شخص يرفض قبول جائزة الاوسكار لافضل ممثل عن دوره فى فيلم «العراب» ١٩٧٢ ، علما بانه كان قد قبل الجائزة قبل ذلك عن دوره فى فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ • الا أنه اتبع أسلوبا مختلفا عن أسلوب الممثل جورج سى • سكوت • فعندما أعلن عن فوزه بالجائزة لعام ١٩٧٢ صعدت الى خشبة المسرح شابة هندية حمراء اسمها ساشين ليتيلفيذر وقرأت جزءا من خطاب أعده مارلون براندو مسبقا وهاجم فيه الطريقة التى صورت فيها صناعة السينما الهنود الحمر فى الافلام على مر السنين • واتهم براندو صناعة السينما بانها « تتحمل مسئولية الحط من قدر الهندى الاحمر والاستهزاء من شخصيته ووصفه بانه متوحش وعدائى وشرير » •

وقد رد الممثل كلينت ايستوود على ذلك متهكما فى وقت لاحق من الحفلة حين سأل الحاضرين عما اذا كان بينهم من يود الدفاع عن رعاة البقر الذين قتلوا فى مئات الافلام التى أنتجتها هوليوود •

وفى العام التالى شهدت حفلة توزيع جوائز الاوسكار اغرب حدث فى تاريخها • فقد نجح شاب اسمه بوب أوبيل فى التحايل على رجال الامن والوصول الى المسرح الخلفى وراء الستار بهوية صحفى مزورة ثم خلع ملابسه بأكملها ومر بسرعة عاريا تماما على خشبة المسرح خلف عريف الحفلة الممثل ديفيد نيفين أمام أنظار مئات الملايين من مشاهدى التليفزيون •

وفى عام ١٩٧٥ انصب الاهتمام فى حفلة توزيع جوائز

الاوسكار على قضية فيتنام • فبعد فوز المخرجين بيتر ديفيس وبيرت شنايدر بجائزة الاوسكار لافضل فيلم وثائقى طويل عن فيلم « قلوب وعقول » لعام ١٩٧٤ ، وهو فيلم معاد للحرب فى فيتنام أحيط به الكثير من الجدل ، قاما بقراءة برقية تحمل تحيات ودية من زعيم فيتنامى شمالى •

وبعد ذلك رد عليهما عريف الحفلة الممثل والمغنى فرانك سيناترا بقراءة بيان مقتضب قال فيه « اننا غير مسئولين عن اية اشارات سياسية فى برنامج هذا المساء ، كما أننا نأسف لحدوثها » •

وفي عام ١٩٧٨ كانت موضع الجدل الممثلة البريطانية فينيسا ريد جريف المعروفة بتعاطفها مع الفلسطينيين • فقد رشحت لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن دورها فى فيلم « جوليا » ١٩٧٧ الذى يصور فى بعض أجزائه الكفاح السرى لبعض اليهود ضد ألمانيا النازية • وكانت فينيسا ريد جريف قد ظهرت بعد ذلك بفترة قصيرة فى الفيلم الوثائقى « الفلسطينيون » الذى ادعى البعض بأنه معاد لليهود • وقد شنت بعض المنظمات الصهيونية الامرلايكية هجوما عنيفا على فينيسا ريد جريف رافقته تغطية اعلامية واسعة ، واستقبلها عدد من الشباب اليهود المتطرفين المتظاهرين لدى وصولها الى القاعة التى اقيمت فيها حفلة توزيع جوائز الاوسكار بعبارات القذف والشتائم • وعندما أعلن فوزها بجائزة الاوسكار وقفت على خشبة المسرح وأكدت دفاعها عن حقوق الانسان فى كل مكان ثم شنت على المتظاهرين هجوما لاذعا ووصفتهم بأنهم زمرة من السفاحين وقطاع الطرق •

وكان التليفزيون الوسيلة الوحيدة القادرة على نقل

جميع هذه الاحداث عند وقوعها الى الجمهور ٠وبذلك تمكن التليفزيون من نقل صـــورة متكاملة وحية وواقعية لكل ما يحدث فى حفلات توزيع جوائز الاوسكار ٠

وقد اكتسبت حفلات توزيع جوائز الاوســـكار طابعا عفويا تلقائيا رغم دقة تنظيمها ٠فتجاوب الفائزين بالجوائز وتأثرهم والتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم أشياء يصــعب التكهن بها ، وتقدم فى كثير من الاحيان صـــورة انسانية صادقة لما يجول فى صدور أهل الفن فى لحظات مشحونة بالعواطف الجياشة والاثارة والتوتر تعبر عن تحقيق أهم إنجاز فنى فى حياتهم ، وهو الفوز بجائزة الاوســـكار ٠ وقد أسهم التليفزيون فى نقل هذه الصورة الى الجمهور وعزز ولعه بجوائز الاوسكار وبالفائزين بها ٠

النجم الكوميدى بوب هوب أشــــهر مضيفى حفلات توزيع جوائز الاوسكار

لقد قام النجم السينمائى الكوميدى الشهير بوب هوب باستضافة وتقديم حفلات توزيع جوائز الاوسكار ١٦ مرة كان آخرها فى عام ١٩٧٥ حين كان عمره ٧٥ عاما ٠ وقد نقل وقائع تلك الحفلات بأسلوبه المرح الى عشرات الملايين من المشاهدين عن طريق التليفزيون ٠

ومع أن الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم الســـينما استعانت بنجوم كثيرين غيره لاستضافة هذه الحفـــلات كالنجم التليفزيونى جونى كارسون والممثل والمغنى فرانك سيناترا ، أو مجموعات كبيرة من الفنانين ، فان أحدا منهم لم يحقق النجاح الذى حققه بوب هوب المعروف بخفة دمه وشعبيته الواسعة بين الجمهور ، حتى اقترنت حفـــلات توزيع جوائز الاوسكار بشخصيته الظريفة ٠

وقد ساعد بوب هوب فى ذلك النجاح الكبير الذى حققه

فى أفلامه السينمائية وبرامجه التليفزيونيــة ، علاوة على شخصيته المحبوبة .

ومنح هذا النجم الكوميدى البريطــانى المولد خمس جوائز أوسكار فخرية فى سنة ١٩٤٠ و ١٩٤٤ و ١٩٥٢ و ١٩٥٩ و ١٩٦٥ . وكانت الجائزة الرابعة التى قدمت له فى عام ١٩٥٩ جائزة جين هيرشولت الانسانية ؛ ولم يكرم أى شخص آخر بمثل هذا العدد من جوائز الاوسكار الفخرية . ومما يذكر أن بوب هوب لم يرشــح أو يفــز بجائزة أوسكار عادية عن أدواره السينمائية العديدة .

وقد حقق بوب هوب انجازات فنية تكاد تكون فريدة فى نوعها . فقد نجح كنجم كوميدى فى عصر « الفودفيل » الذى اشتهر بالمنوعات الكوميدية وعلى مســارح برودواى وفى الاذاعة والسينما والتليفزيون . كما اشتهر فى تقديم الحفلات الخيرية والترفيه عن القوات المسلحة الامريكية ومنادمة الرؤساء الامريكيين ومرافقتهم على ملاعب الجولف

وقد ظهر بوب هوب فى ٧١ فيلما سينمائيا بينها أفلام « الطريق » السبعة الشهيرة التى تقاســم بطــولتها مع صديقه الحميم الممثل والمغنى بنج كروســـبى والممثلــة دوروثى لامور ، وفيلمان قاما فيهما بدورين جادين همــا فيلم « فوى السبعة الصـــغار » فى عام ١٩٥٥ وفيــلم « بوجيس » فى عام ١٩٥٧ .

ويتميز بوب هوب بمونولوجاته الساخرة اللاذعة التى تشتمل عادة على وابل من النكات السريعة المتلاحقة التى يتعرض فيها بالسخرية لكبار الشــخصيات ـ بمن فيهم الرؤساء الامريكيون ـ ولموضوعات الساعة ، وفى مقدمتها القضايا السياسية . كما يتميز بملامحه الشخصية التى جعلته واحدا من أشهر نجوم الفن فى الولايات المتحدة وفى سائر أنحاء العالم .

اسطورة نحس الاوسكا

لاشك فى أن جائزة الاوسكار تجلب الشــهرة والثراء لمعظم الفائزين بها ، وخاصة الممثلين الفــائزين • الا أن جائزة الاوسكار اقترنت منذ أواسط فترة الثلاثينـــات باسطورة يدعى مروجوها بأنها تجلب لمن يفوز بها ســوء الطالع أو ما يعرف بالاوســاط الســينمائية الامريكية « بنحس الاوسكار » • وكان أول من ابتكر فكرة « نحس الاوسكار » وروجها عميدة المعلقين الصحفيين السينمائيين وصاحبة القلم واللسان اللاذعين لويلا بارسونز بسبب سوء الحظ الذى حالف الممثلة النمساوية لويز راينر بعد فوزها بجائزة الاوسكار فى عامين متتاليين هما ١٩٣٦ و ١٩٣٧•

ومع أن هناك بعض الحالات الثابتة لعدم وجود أى أثر ايجابى للفوز بجائزة الاوسكار على الحيــاة الفنية لبعض الممثلين أو لفشل بعضهم بعد الفوز بالجائزة ، فان هناك أضعافا مضاعفة من الامثلة التى تؤكد الدور الايجابى الهام للفوز بجائزة الاوسكار فى الحياة الفنية للممثلين الذين صعد نجم بعضهم الى آفاق جديدة بفضل الفوز بالجائزة•

وهناك فى الحقيقة تفسير منطقى لكثير من الحالات التى أعقبت فيها الفوز بجائزة الاوسكار بعدم النجاح المرتقب للفائزين ، منها استغلال مدراء الاستديوهات السينمائية

لأسماء الفائزين بجائزة الاوسكار بعد فوزهم بالجـائزة مباشرة عن طريق اشراكهم في أفلام ضعيفة المستوى يتم انتاجها على عجل أملا فى اجتذاب الجمهور لهـذه الافلام لمشاهدة نجومها قبل أن تخبو حمى الدعاية المحيطة بالفوز بجائزة الاوسكار • وقد أثبتت رسالة لشهادة الدكتوراه أعدت فى جامعة تمبل هذه الحقيقة بالاحصائيات •وأظهرت الدراسة وجود نسبة عالية للافلام الضعيفة التى يظهـر فيها الممثلون بعد فوزهم بجائزة الاوسكار مباشرة •

وكثيرا ما يشكو الممثلون الفائزون بجائزة الاوسكار من ضعف مستوى القصص السينمائية التى تعـرض عليهم بعد فوزهم بالجائزة مباشرة ، مما يؤكد محاولة استغلال أسمائهم في الاعمال السينمائية الضعيفة المستوى •

وقائمة الممثلين الذين حدث لهم ذلك طويلة ، وسنكتفى هنا بسرد بعض الامثلة التى تعطى فكرة جيدة عن ذلك • وقد واجه هذه المشكلة مثلا الممثل كليف روبرتسون الذى فاز بجائزة الاوسكار عن دوره فى فيلم « تشارلى » ١٩٦٨ ويقول روبرتسون ان نفس المنتجين السـينمائيين الذين عارضوا انتاج فيلم « تشارلى » وتنبأوا بفشله ،وهو عكس ما حدث ، جاءوا اليه في اليوم التالى لفـوزه بجـائزة الاوسكار وقدموا له عروضا مالية سخية مرفقة بعـدد من القصص السينمائية التافهة التى رفضها جميعا وهو على يقين بأن العملية لا تتعدى كونها استغلالا لفوزه بجـائزة الاوسكار •

ومن الضحايا المعروفين لهذه الظـاهرة الممثلة دوروثى ماكون التي فازت بجائزة الاوسكار عن أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة فى فيلم « مكتوب على الريح » • فلقد تنبأ

وكلاؤها الذين كانوا يتحكمون تحكما كاملا فى عقدها السينمائى بأنها ستفوز بالجائزة قبل انتهاء تصوير الفيلم نتيجة أدائها الفائق فيه ، وقاموا على الفوز باستغلالها فى عدد من الافلام الهزيلة ، حتى انها قامت ببطولة ١٥ فيلما فى غضون ١٨ شهرا • ولم تستعد الممثلة دوروثى ماليون مكانتها الفنية التى سبقت فوزها بجائزة الاوسكار نتيجة هذه الافلام الاستغلالية الضعيفة السريعة الانتاج التى وجهت ضربة قاضية لحياتها السينمائية •

ومن الامثلة الاخرى على وقوع الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار فريسة لجشع مدراء الاستديوهات الممثلة جون فونتين التى فازت بجائزة الاوسكار عن دورها فى فيلم « ارتياب » ١٩٤١ • فقد كانت جون فونتين فى ذلك الوقت تعمل بموجب عقد لحساب المنتج السينمائى ديفيد سيلزنيك الذى تشتمل الافلام التى أنتجها على الفيلم الشهير « ذهب مع الريح » • وبعد فوز جون فونتين بجائزة الاوسكار كلف ديفيد سيلزنيك مساعديه بشن حملة دعائية واسعة لاستغلال اسم جون فونتين • الا أن هذه الحملة بلغت درجة التشبع وتركت أثرا سلبيا فى المدى البعيد • كما قام ديفيد سيلزنيك باستغلال جون فونتين على صعيد اخر حين رفع ما كان يتقاضاه كأجر لاعارتها لشركات السينما الاخرى من ٢٥٫٠٠٠ دولار الى ١٠٠٫٠٠٠ دولار عن الفيلم بعد أن رشحت لجائزة الاوسكار فى فيلم « زيبيكا » ١٩٤٠ ، ثم رفعه الى ٢٠٠٫٠٠٠ دولار بعد فوزها بالجائزة فى فيلم « ارتياب » ١٩٤١ • وتقول جون فونتين انها لم تحصل على سنت واحد من هذه الاجور الضخمة • فقد كان أجرها الاسبوعى ١٢٫٥٠٠ دولار

بمقتضى عقدها السينمائى ، وظل على حاله بعد فوزها بجائزة الاوسكار • وكان المستفيد الوحيد من فوزها بالجائزة هو ديفيد سيلزنيك مدير الاستديو الذى كانت تعمل لحسابه •

وتقول جون فونتين فى كتابها «ليست فرشا من الورود» الذى تتحدث فيه عن حياتها فى هوليوود انها لم تقم باى دور سينمائى طوال ستةأشهر بعد فوزها بجائزة الاوسكار لان ديفيد سيلزنيك كان يحاول الحصول على أكبر أجر ممكن عن خدماتها •

وقد قام ديفيد سيلزنيك باستغلال ممثلات أخريات متعاقدات مع شركته السينمائية برفع أجور اعارتهن لشركات سينمائية اخرى بعد فوزهن بجائزة الاوسكار كالممثلة انجريد بيرجمان والممثلة جنيفر جونز التى اصبحت فيما بعد زوجته •

ويتضح بجلاء أن الممثلين يدركون هذه المحاولات الاستغلالية تمام الادراك ، ولكنهم يكونون أحيانا مكرهين لانهم فى وضع ضعيف لا يمكنهم من الوقوف فى وجوه مدراء الاستديوهات المتنفذين • وينطبق ذلك بشكل خاص فى عصر هوليوود الذهبى فى فترتى الثلاثينات والاربعينات حين كان ما يعرف بنظام الاستديوهات هو النظام المعمول به فى هوليورد • فقد كان الممثلون آنذاك يعملون بموجب عقود مقيدة تسمح للاستديو المتعاقد معهم بالتحكم فى مصائرهم الفنية ، وتعطى لمدراء الاستديوهات الحق فى املاء ما يريدون على كبار نجوم السينما ، بما فى ذلك حق اعارتهم لاستديوهات سينمائية أخرى للظهور فى بعض أفلامها لقاء أجر كبير يدفع للاستديو المتعاقد مع الممثل •

وقد أصبحت امكانية ظهور الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار فى أفلام استغلالية هزيلة بعد فوزهم بالجائزة مباشرة موضوعا مثيرا للحساسية لدى كثير من الممثلين • ومن الامثلة التى تعبر عن ذلك أن الممثلة شيرلى ماكلين التى قدمت جائزة الاوسكار عن أفضل دور يقوم به ممثل للممثل الامريكي المنحدر من أصل عربى فريد مرعى ابراهيم الذى فاز بالجائزة عن دوره فى فيلم « أماديوس » ١٩٨٤ همست فى أذنه ببعض العبارات أمام أنظار مئات .الملايين الذين شاهدوا حفلة توزيع جوائز الاوسكار على شاشات التليفزيون • وقد سئل فريد مرعى ابراهيم فى مقابلة صحفية أجريت معه فيما بعد عما قالته له شيرلى ماكلين فأجاب قائلا انها نصحته بعدم قبول أول عرض سينمائى يقدم له بعد فوزه بالجائزة مشيرا الى أن ذلك العرض سيحاول استغلال فوزه بالجائزة •

وقد أخذ هذا الممثل المسرحى والسينمائى المتميز بنصيحة زميلته التى كانت قد فازت بجائزة الاوسكار لافضل ممثلة فى العام السابق عن دورها فى فيلم « شروط المحبة » ، وواجهت نفسها عدة محاولات لاستغلال فوزها بالجائزة • فقد أمضى فريد مرعى ابراهيم الشهور العديدة التالية لفوزه بجائزة الاوسكار فى تدريس مادة التمثيل فى احدى الجامعات الامريكية لقاء أجر بسيط وقرأ أثناء ذلك العديد من القصص السينمائية التى عرضت عليه قبل أن يقع اختياره على فيلم « اسم الوردة » الذى تقاسم بطولته مع الممثل شون كونيرى ، وهو فيلم رفيع المستوى حاز على اعجاب النقاد والجمهور على حد سواء •

وهناك أيضا عامل الجشع الذى يتمثل فى استغلال الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار من قبل مدراء أعمالهم أو وكلائهم برفع أجورهم السينمائية الى مستويات غير معقولة في بعض الاحيان بعد فوزهم بالجائزة • ومن الامثلة على ذلك أن الممثل جورج كنيدى رفع أجرة من ٢٠ ألف دولار الى ٢٠٠ ألف دولار عن الفيلم بعد فوزه بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد يقوم به ممثل فى فيلم « لوك الهادىء الاعصاب » ١٩٦٧ • كما أن الممثل جين هاكمان رفع أجره من ٢٠٠ ألف دولار الى ٥٠٠ ألف دولار عن الفيلم بعد فوزه بالجائزة لافضل دور يقوم به ممثل فى فيلم « العلاقة الفرنسية » ١٩٧١ •

ولعل الممثل مارلون براندو يقدم مثلا جيدا على الارتفاع فى أجور الممثلين بعد الفوز بجائزة الاوسكار • فقد بلغ أجره ٧٥٠٠٠ دولار عن دوره فى فيلم « عربة اسمها اللذة » ١٩٥١ • ولكن بعد فوزه بجائزة الاوسكار عن دوره فى فيلم « ذئاب الميناء » ١٩٥٤ ارتفع أجره الى ١ر٢ مليون دولار عن دوره فى فيلم «تمرد على السفينة باونتى» ١٩٦٢ • وبعد الفشل الذريع والخسائر المالية الجسيمة التى تكبدها هذا الفيلم والمشاكل التى سببها مارلون براندو أثناء تصوير مشاهد الفيلم بسبب تصرفاته الشخصية انخفض أجره فى فترة الستينات • ولكن بعد فوزه بجائزة الاوسكار الثانية عن دوره فى فيلم « العراب» ١٩٧٢ ارتفع أجره مرة أخرى وتقاضى ٥ر١ مليون دولار عن دوره فى فيلم « أمواج الميزورى » ١٩٧٦ ، وهو فيلم فشل فنيا وتجاريا • الا أن أجر مارلون براندو تضاعف الى ثلاثة ملايين دولار عن دوره فى فيلم « سفر الرؤيا الآن » ١٩٧٩ •

وارتفع الى ٤٫٥ مليون دولار عن ظهوره فى دور شرف قصير فى فيلم « سوبرمان » ١٩٧٨ *٠ولا تتضمن هذه الاجور النسبة المئوية الاضافية من ارباح الفيلم التى دفعت لمارلون براندو ٠

ويتبين عنه الرجوع الى الوراء أن ارتفاع أجور الممثلين بعد فوزهم بجائزة الاوسكار قديم قدم الجائزة نفسها ٠ فقد ازداد أجر الممثلة جانيت جينــور التى كانت أول من يفوز بجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة الى ثلاثة أمثـــال ما كان عليه بعد أن فازت بالجائزة ٠ ومن الامثلة العديدة الاخرى على ذلك الممثل جيمس كاجنى الذى ارتفع أجـره من ١٤٠٫٠٠٠ فى السنة قبل فوزه بجائزة الاوسكار عن فيلم « يانكى دودل يانكى » ١٩٤٢ الى ٣٦٢٫٠٠٠ دولار فى السنة بعد فوزه بالجائزة ٠ وارتفع الاجر الســـنوى الممثل والاس بيرى من ٧٥ الف دولار الى ٢٠٠ الف دولار بعد فوزه بجائزة الاوسكار عن دوره فى فيلم « البطـــل » ١٩٣٢/١٩٣١ ٠ وازداد الاجر السنوى للممثلة كلوديت كولبير من ١٠٠ الف دولار الى ٣٥٠ الف دولار بعد فوزها بالجائزة فى فيلم « حدث ذات ليلة » ١٩٣٤ ٠ وارتفـع الاجر السنوى للممثلة كاثرين هيبيرن من ١٢٠ الف دولار الى ٢٠٦ آلاف دولار بعد فوزها بالجائزة عن فيلم « مجد الصباح » ١٩٣٣/١٩٣٢ ٠ وارتفع الاجر السنوى للممثل فيكتور مكلاجلين من ٥٠ الف دولار الى ١٦٥ الف دولار بعد فوزه بالجائزة فى فيلم « المخبر » ١٩٣٥ ٠

---

* عرض فيلم « سوبرمان » قبل فيلم « ســفر الرؤية الان » بسبب المصاعب الهائلة التى تعرض لها الفيلم الثانى اثناء تصويره فى الفليبين ٠

وكثيرا ما تؤدى الزيادات في أجور الممثلين الى تردد المنتجين أو عزوفهم عن تقديم العروض السينمائية لبعض الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار تفاديا لارتفاع تكاليف انتاج أفلامهم • وقد ينجم مثل هذا العزوف فى بعض الاحيان عن افتراض خاطىء من قبل بعض المنتجين السينمائيين بأن الممثل الفائز سيزيد أجره السينمائى تلقائيا دون أن يكون الممثل قد فعل ذلك •

وتقول الممثلة ساندى دنيس التى فازت بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن فيلم « من يخاف من فرجينيا وولف ؟ » ١٩٦٦ : « عندما يفوز الممثل بالجائزة يعتقد البعض أنه سيطالب بزيادة كبيرة في الاجر دون أن يستفسروا منه عن ذلك » •

ويضيف الممثل جيج يونج الفائز بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد يقوم به ممثل عن فيلم « انهم يقتلون الخيول ، اليس كذلك ؟ » ١٩٦٩ قائلا : « ان المنتجين ظنوا أننى سأطالب بأجر سينمائى أكبر وان تعاملى سيكون صعبا بعد فوزى بجائزة الاوسكار • ولكن الحقيقة هى أن الفوز بالجائزة لا يمنح الشخص أية امتيازات خاصة ولا يضمن له حتى دخول السينما مجانا » •

يستشهد دعاة « نحس الاوسكار » بأسماء نجوم سينمائيين معينين لم يسهم الفوز بجائزة الاوسكار في جلب النجاح الفنى لهم • ومن الامثلة على ذلك الممثلة النمساوية لويز راينر التى فازت بجائزة الاوسكار عن فيلمى « زيجفيلد العظيم » ١٩٣٦ و « الارض الطيبة » ١٩٣٧ • فبعد فوزها بالجائزة الثانية قامت ببطولة خمسة أفلام ضعيفة المستوى خلال عام واحد ، ثم اختفت عن

الشاشة السينمائية باستثناء ظهورها فى فيلم واحد فى عام ١٩٤٣ • وتقول لويز راينر حول ذلك : « ان فوزى بجائزتى الاوسكار عاد على بالضرر • فقد قمت بعد ذلك ببطولة فيلم ضعيف ، وبسببه عوملت وكأننى لم أظهر فى فى فيلم سينمائى جيد فى حياتى » •

وما حدث للويز راينر ليس « نحســـا » بقدر ما هو محاولة استغلال مدراء استديو مترو جولدوين ماير لفوزها بجائزة الاوسكار •

ومن الامثلة الاخرى التى يضرب بها المثــل كضـــحية للفوز بجائزة الاوســـكار الممثلة ريتا مورينو التى فازت بالجائزة لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن فيلم «قصة الحى الغربى » ١٩٦١ ، ولكنها لم تظهر الا فى فيلم واحد فقط خلال السنوات السبع التى تلت فوزها بالجائزة • الا أن الحقيقة هى أن ريتا مورينو تلقت عروضا سينمائية كثيرة بعد فوزها بجائزة الاوسكار ، غير أنها رفضتها لان معظم الادوار التى عرضت عليها اقتصرت على قيامها بدور الشابة الاسبانية السريعة الغضب • ولم ترد ريتا مورينو أن توضع فى قالب سينمائى معين وتقوم بأدوار سينمائية متكررة ، ووجهت اهتمامها بدلا من ذلك نحو مجالات فنية أخرى وحققت نجاحا كبيرا فى التليفزيون وعلى مســارح برودواى ، فضلا عن فرقتها الغنائية الراقصة المتجولة • وبعد انتظار دام ثمانى سنوات للدور السينمائى المناسب ظهرت فى فيلم « ليلة اليوم التالى » ١٩٦٩ وأعقبته بالعديد من الادوار السينمائية الناجحة • واصبحت الممثلة ريتا مورينو الفنانة الوحيدة التى تفوز بجــائزة الاوســـكار

السينمائية وجـــائزة ايمى التليفـــزيونية وجائزة تونى المسرحية وجائزة جرامى الموسيقية •

ويتضح من جميع هذه الامثلة أن «نحس الأوسكار» ليس سوى أسطورة واهية ، وأن هناك تفســيرا منطقيا لحالات الفشل القليلة التى تلت فوز بعض الممثلين بجائزة الاوسكار ، والتى توازنها عشرات الامثلة على الحظ السعيد الذى حالف الممثلين الفائزين بجائزة الاوسكار •

الصراع على جائزة الاوسكار

يحفل تاريخ جائزة الاوسكار بالنزاعات والخـــلافات الشخصية وظواهر الغيرة والحسد التى تذهب أحيانا الى أقصى الحدود ، فتثير الضغينة بين الاصدقاء وتخلق العداء بين الاخوة وتولد الكراهية بين المخرجين والممثلين وتسىء العلاقات بين نجوم السينما ومدراء أعمالهم ، وهى ظواهر تلقى على جائزة الاوسكار ظلالا سلبية ، ولكنها تؤكد فى نفس الوقت أهميتها بالنسبة للفائزين ولغير الفائزين .

وسنسرد فى هذا الفصل بعض الامثلة الشهيرة على هذه الصراعات ، وهى أمثلة تعطى القارىء فكرة عمـا يدور فى الواقع أو وراء الكواليس أحيانا حول جائزة الاوسكار وعن المواقف الشخصية والعواطف المتأججة التى ترافق جوائز الاوسكار فى بعض الاحيان .

الصراع بين الممثلتين بيتي ديفيس وجون كروفورد على الاوسكار

ومن أشهر الامثلة على الصراع على جائزة الاوســـكار ما حدث بين الممثلتـــين المعـــروفتين بيتي ديفيس وجون كروفورد اللتين عرفتا بالعداء المستحكم القديم بينهما ،

وهما من أقدر وأشهر نجمات العصر الذهبي في هوليوود ومن الممثلات الفائزات بجائزة الاوسكار • فقد فازت بيتى ديفيس بالجائزة مرتين عن فيلم « خطر » ١٩٣٥ وفيلم « جيزيبيل » ١٩٣٨ ورشحت لها ثمـــانى مرات أخرى ، وفازت بها جون كروفورد مرة واحدة عن فيلم « ميلدريد بيرس » ١٩٤٥ ورشحت لها مرتين أخريين •

وفي عام ١٩٦٢ اشتركت هاتان الممثلتان ببطولة فيلم « ما الذى حدث لبيبى جين ؟ » الذى رشحت بيتى ديفيس عن دورها فيه لجائزة الاوسكار لافضل دور تقوم به ممثلة وكانت المرشحات الاربع الاخريات لتلك الجائزة فى ذلك العام هن آن بانكروفت عن فيلم « صـــاحبة المعجـزة » وكاثرين هيبيرن عن فيلم « رحلة يوم طويل عبر الليل » وجيرالدين بيج عن فيلم «طير الشباب الجميل » ولى ريميك عن فيلم « أيام النبيذ والورود » •

ولم تكد جون كروفورد ـ التى كانت تقيم آنـذاك فى مدينة نيويورك ـ تسمع أسماء المرشحات لجائزة الاوسكار فى ذلك العام حتى سارعت الى ارسال رســائل تهنئـة للممثلات الاربع المنافسات لبيتى ديفيس على الجـائزة وضمنت رسائلها لهن استعدادها لاستلام الجائزة نيابة عن كل منهن اذا لم تتمكن من حضـــور حفلة توزيع جـوائز الاوسكار •

وكانت آن بانكروفت تقوم آنذاك ببطولة مسرحية « الام الشجاعة » على أحد مسارح برودواى فى نيويورك ، كمـا أنها كانت قد كلفت الممثلة باتى ديوك التى شاركتها بطولة فيلم « صاحبة المعجزة » باستلام جائزة الاوسكار فى حالة فوزها • الا ان الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما

اعتذرت عن الموافقة على ذلك لان باتي ديوك كانت مرشحة لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن نفس الفيلم، ولم تر الاكاديمية أن من المناسب أن تســـتلم بيتى ديوك جـائزتين فى نفس الحفلـة فى حالة فـوزها وفـوز آن بالكروفت بالجائزتين •

وخلال الاسابيع الســتة التي أعقبت اعلان أسمـــاء المرشحين لجوائز الاوسكار قامت جون كروفورد بشـــن حملة شعواء بين أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما المقيمين في مدينة نيويورك ـ وهم كثيرون ـ لحثهم على التصويت للممثلة آن بانكروفت التى لم تكن تعرفهـا شخصيا • وفي الحقيقة ان تلك الحملة كانت موجهه ضد بيتي ديفيس أكثر من كونها موجهه لصالح آن بانكروفت

وعندما حان موعد تقديم جوائز الاوسكار لعام ١٩٦٢ كانت بيتى ديفيس وجور كروفورد موجودتين فى الحفلة • وكانت بيتى ديفيس قد كلفت بتقديم جائزة أفضل كاتب، كما أنها كانت موجودة لاستلام جائزة الاوسكار فى حالة فوزها بها • كما أن آن بانكروفت ، التى تأثرت برســالة جون كروفورد ، كانت قد وافقت على أن تســـتلم جون كروفورد جائزة الاوســـكار نيابة عنها في حالة فوزها بالجائزة بعد أن لم يسمح للمثلة باتى ديوك باســـتلام الجائزة نيابة عنها •

وانتهزت جون كروفورد هذه المناسبة لتصفية الحساب مع بيتي ديفيس على خلافاتهما القديمة الســـابقة التى استفحلت أثناء تصوير مشاهد فيلم « ما الذى حدث لبيبى جين ؟ » • وعندما أعلنت أسماء المرشحات لجائزة الاوسكار لافضل دور تقوم به ممثلة كانت بيتي ديفيس تنتظر بنفاد

صبر عليها تسمع اعلان أسمها كالفائزة بالجائزة • ولكن عندما حانت اللحظة الحاسمة أعلن اسم آن بانكروفت كفائزة بجائزة الاوسكار • وفجأة أحسست بيتي ديفيس يدا تلمس كتفيها فالتفتت لترى جون كروفورد وراءها وتقول لها بلهجة تنم عن الحقد « اسمحي لى بأن أمر لان هناك جائزة أوسكار في انتظارى » •

وقد ترك ذلك أثرا سيئا فى نفس بيتى ديفيس ورفضت أن تغفر لجون كروفورد ما فعلته • وبعد مضى ثلاث وعشرين سنة على ما حدث فى تلك الليلة ، وبعد مرور قرابة عشر سنوات على وفاة جون كروفورد ، كانت بيتى ديفيس ما زالت تشعر بالمرارة ورفضت أن تصفح عن جون كروفورد • فاثناء مقابلة أجراها معها النجم التليفزيونى جونى كارسون فى عام ١٩٨٦ ، قالت بيتى ديفيس ردا على سؤال عن جائزة الاوسكار انها كانت تستحق الفوز بالجائزة عن دورها فى فيلم « ما الذى حدث لبيبى جين؟ » وذكرت بيتى ديفيس أن جون كروفورد اعربت للمرشحات الاخريات عن استعدادها لاستلام الجائزة نيابة عنهن ، وقالت أن الحملة التي شنتها جون كروفورد أثرت على أصوات العديد من أعضاء الأكاديمية، كما أن جون كروفورد عندما استلمت الجائزة نيابة عن الممثلة آن بانكروفت احتفظت بالجائزة لمدة سنة كاملة • وبعد ذلك أقامت حفلة فى المسرح الذى كان يستمر فيه عرض مسرحية « الام الشجاعة » لآن بانكروفت منذ العام السابق وقدمت لها الجائزة فى تلك الحفلة •

ولعل هذه القصة تصور المستوى الذى يمكن لاثنتين من أبرز نجمات هوليوود وأقدر ممثلاتها الانحدار اليه

والاساليب التى يمكن اللجوء اليهـا فى الصراع المرير على جائزة الاوسكار ٠

الصراع بين الشقيقتين اوليفيا ديهافيلاند وجـون فونتين على جـائزة الاوســـكار

من أشهر النزاعات التى شهدتها هوليوود على جـائزة الاوسكار وأكثرها مرارة ومدعاة للغيرة والحسد الصراع الطويل الذى نشب بين الشقيقتين أوليفيا ديهافيلاند وجون فونتين ، وهو صراع امتدت آثاره أكثر من أربعين سـنة وأدى الى تعكير صفو العـديد من حفـلات توزيع جوائز الاوسكار ٠

وقد فازت أوليفيا ديهافيلاند بجائزة الأوسـكار مرتين عن فيلم « كل حسب مشيئته » ١٩٤٦ وفيلم « الورثة » ١٩٤٩ ورشحت لها ثلاث مرات أخرى ، وفازت شقيقتها الصغرى جون فونتين بجائزة الاوسكار عن فيلم « ارتياب » ١٩٤١ ورشحت للجائزة مرتين أخريين ٠

وتمتد جذور هذا الصراع الى عام ١٩٣٩ حين رشـحت أوليفيا ديهافيلاند عن دورها فى فيلم « ذهب مع الريح » لجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد تقـوم به ممثلة ٠ ويعتقد كثير من النقـاد أن أداءها المؤثر فى دور ميـلانى هاميلتون بفيلم « ذهب مع الريح » أفضل من أداء فيفيان لى فى دور سكارليت أوهارا التى فازت عنه بجـــائزة الاوسكار لافضل دور تقوم به ممثلة وأفضل من أداء كلارك جيبل فى دور ريت بتلر الذى رشح عنه لجائزة أفضل دور يقوم به ممثل ٠

وبعد أن عرض فيلم « ذهب مع الريح » اتضح من ثناء النقاد على أداء أوليفيا ديهافيلاند أن هناك فرصة جيدة لفوزها بجائزة الاوسكار • وقد اتصلت ذات مساء بصديقها الحميم الممثل ايرول فلين الذى تقاسمت معه بطولة أفلام عديدة لتستطلع رأيه فى فرصة فوزها بجائزة الاوسكار، فاعرب ايرول فلين عن رأيه بصراحة قائلا إن فرصتها فى الفوز ضعيفة جدا لانها كانت معارة من شركة الاخوة وارنر لمنتج الفيلم ديفيد سيلزنيك الذى أراد تسليط الاضواء على الممثلة فيفان لى التى قامت بدور بطلة الفيلم الرئيسية • وأكد ايرول فلين لاوليفيا ديهافيلاند أن شركة مترو جولدوين ماير منتجة فيلم « ذهب مع الريح » لن تبذل أى مجهود للترويج لفوزها بجائزة الاوسكار لان أوليفيا ديهافيلاند متعاقدة للعمل مع شركة الاخوة وارنر • وبعد ذلك بأيام قام المنتج ديفيد سيلزنيك بابلاغ أوليفيا ديهافيلاند أنه سيرشحها لجائزة أفضل دور مساعد لكى لا تنافس فيفيان لى على الفوز بجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة ، وذلك رغم قيامها بأحد الادوار الرئيسية فى الفيلم •

وكان يحق لمنتج الفيلم آنذاك تحديد الفئة التى يرشح لها الممثل أو الممثلة لجائزة الاوسكار ، أى للدور الرئيسى أو الدور المساعد ، قبل أن تعدل أنظمة وقواعد الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما المتعلقة بالترشيح لجوائز الاوسكار •

وبذلك أصبحت أوليفيا ديهافيلاند منافسة للممثلة السوداء هاتى ماكدانيال التى رشحت لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة عن قيامها بدور المربية فى فيلم « ذهب مع

الريح » • الا أن أوليفيا ديهافيلاند ظلت متفائلة وتوقعت تغلبها على المرشحات الاربع الاخريات ، بمن فيهن هاتى ماكدانيال ، والفوز بالجائزة • غير أن ذلك لم يتحقق ، ومنحت الجائزة لهاتى ماكدانيال التي أصبحت أول ممثلة سوداء تفوز بجائزة الاوسكار •

وكانت أوليفيا ديهافيلاند تجلس بجوار ديفيد سيلزنيك وزوجته الاولى ايرين ابنة المنتج السينمائى لويس ماير عند الاعلان عن فوز الممثلة هاتى ماكدانيال بجائزة الاوسكار لافضل دور مساعد تقوم به ممثلة • وعندما بدأت هاتى ماكدانيال بالقاء كلمة قبول الجائزة ، بدأت دموع أوليفيا ديهافيلاند تنهمر وأخذت تجهش بالبكاء • وعندما عجزت عن ضبط أعصابها رافقتها ايرين سيلزنيك الى مطبخ قريب من القاعة وحاولت تهدئة أعصابها وذكرتها بأن جائزة الاوسكار ستقدم مرارا عديدة أخرى في المستقبل • وبعد أن احتضنتها وجففت دموعها طلبت منها العودة الى القاعة وتهنئة هاتى ماكدانيال على الفوز بالجائزة •

وهذا هو ما فعلته أوليفيا ديهافيلاند وهى تتظاهر بالسعادة • وقد اعترفت اوليفيا ديهافيلاند فى مقابلة صحفية أجريت معها بعد أكثر من أربعين سنة بأنها تصرفت في تلك الليلة بطريقة غير لائقة ، بل وبشىء من التعصب العنصرى ، وأعربت عن أسفها عما حدث •

ولكن ما حدث فى تلك الليلة غرس فى نفس أوليفيا ديهافيلاند بذور الغيرة والحسد ، وتملكها منذ تلك الليلة هوس الفوز بجائزة الاوسكار • الا أنها لم تكن تدرك آنذاك أن منافستها الرئيسية على الجائزة ستكون شقيقتها الصغرى جون فونتين •

وفى الحقيقة أن دخول جون فونتين ميدان التمثيل السينمائى جاء نتيجة تحد من شقيقتها الكبرى أوليفيا ديهافيلاند التى شككت فى قدرة شقيقتها الصغرى على النجاح كممثلة • الا أن جون فونتين فاجأت الكثيرين بالمواهب التى أظهرتها وبالنجاح السريع الذى حققته فى هوليوود • وفى عام ١٩٤٠ رشحت لجائزة الاوسكار عن دورها فى فيلم « ريبيكا » • ومن المفارقات أن مخرج الفيلم الفريد هيتشكوك كان قد اختار الشقيقة الكبرى أوليفيا للقيام ببطولة الفيلم ، ، الا أن جاك وارنر رئيس شركة الاخوة وارنر السينمائية رفض اعارتها للمنتج السينمائى ديفيد سيلزنيك كما كان قد فعل فى فيلم « ذهب مع الريح » •

وقد أغضب ذلك أوليفيا ديهافيلاند وخلق شيئا من التوتر فى علاقاتها مع شقيقتها الصغرى • وعلى أثر ذلك أصبح موضوع جائزة الاوسكار من المواضيع المحرمة فى الجلسات العائلية لاسرة أوليفيا ديهافيلاند وجون فونتين بامر من والدتهما •

وفى عام ١٩٤١ رشحت الشقيقتان لجائزة الاوسكار لاول مرة معا فى نفس العام •

فقد رشحت أوليفيا عن دورها فى فيلم « أجل بزوغ الفجر » ورشحت جون للجائزة عن دورها فى فيلم « ارتياب » • وقد اتصلت المعلقة الصحفية السينمائية الشهيرة لويلا بارسونز بأوليفيا ديهافيلاند فور ظهور اسمها على قائمة المرشحات وأكدت لها أنها المرشحة المفضلة للفوز بالجائزة •

وفى اليوم السابق لحفلة توزيع جوائز الاوسكار قررت

جون فونتين عدم حضور الحفلة ، وكانت حجتها في ذلك أنها حديثة العهد في مثل هذه الحفلات كما أن فرصة فوزها بالجائزة شبه مستحيلة . الا أن أوليفيا ديهافيلاند أكدت لشقيقتها الصغرى أهمية وجودها في الحفلة لان تغيبها سيؤثر على مكانة أوليفيا نفسها في هوليوود . وعندئذ تذرعت جون فونتين بأنها لم تشتر ثوبا مناسبا للحفلة . فما كان من أوليفيا الا أن حضرت في سيارة فخمة خاصة محملة بسبعة أزياء جديدة من واحد من أفخم محلات الازياء في هوليوود لكي تختار جون أحدها . وبعد أن قامت جون باختيار أحد هذه الازياء أرسلت اليها أوليفيا في مساء اليوم التالى سيارة فخمة لتقلها الى فندق بلتمور الذى أقيمت فيه حفلة توزيع جوائز الاوسكار في ذلك العام .

وكانت المتنافسات الثلاث الاخريات لاوليفيا ديهافيلاند وجون فونتين على جائزة الاوسكار لافضل دور تقوم به ممثلة في ذلك العام هى باربرا ستانويك وبيتى ديفيس وجرير جارسون . وبعد لحظات مشحونة بالترقب والتوتر فوجىء الجميع حين أعلن اسم الفائزة وكان جون فونتين .

وفي تلك اللحظة سلطت الاضواء وتوجهت الانظار نحو جون فونتين التى أصيبت بالذهول ولم تتحرك من مكانها الى أن مالت نحوها أوليفيا ديهافيلاند التى كانت تجلس على بعد مقعدين منها وقالت لها « انهضى وتوجهى الى المسرح واستلمى جائزتك » .

وبعد لحظات التقطت صورة مشتركة للشقيقتين ، ظهرت فيها جون فونتين وهى تحمل تمثال الاوسكار والى جوارها أوليفيا ديهافيلاند وعلى محياها ابتسامة عريضة .

وكانت تلك الابتسامة تخفي وراءها شعورا بالمرارة والغليان وتؤذن ببداية حرب شعواء بين الشقيقتين لم تنطفيء جذوتها بعد مضى أكثر من اربعين عاما .

وقد رافق فوز جون فونتين بجائزة الاوسكار فترة نجاح طويلة وحققت انتصارا تلو الآخر ، وعملت فى بريطانيا وفرنسا الى جانب هوليوود وكان دخلها السنوى يبلغ عدة ملايين من الدولارات .

أما اوليفيا ديهافيلاند فقد عادت الى شركة الاخوة وارنر السينمائية للعمل وفقا لاهواء رئيس الشركة جاك وارنر الذى كان معروفا كواحد من أسوأ مدراء الاستديوهات فى هوليوود فى معاملة الممثلين . وقد فرض عليها جاك وارنر التقيد بعقدها مع الشركة بالظهور فى عدد من الافلام التاريخية التى تقاسمت بطولة عدد منها مع الممثل ايرول فلين قبل وبعد ترشيحها لجائزة الاوسكار للمرة الثانية . ومع أن أوليفيا ديهافيلاند اعترفت بعد سنين عديدة بأن ايرول فلين كان حبها الكبير فى حياتها فقد أدركت أن أفلامها التاريخية العديدة معه لم تسهم كثيرا فى تعزيز مكانتها السينمائية . وفى النهاية أضربت أوليفيا ديهافيلاند عن العمل ورفعت دعوى قضائية ضد استديو الاخوة وارنر لالغاء عقدها بموجب قانون فى ولاية كاليفورنيا يقضي بعدم تطبيق أى عقد عمل لمدة تزيد على سبع سنوات . وبعد معركة قضائية حامية ربحت أوليفيا ديهافيلاند القضية التى أقرتها فيما بعد المحكمة العليا لولاية كاليفورنيا . وقد أثار هذا القرار غضب مدراء الاستديوهات المتنفذين فى هوليوود وأسعد الممثلين والفنيين الذين تحرروا من

القبضة الحديدية لمدراء الاستديوهات • واصبح هذا القرار الشهير يعرف « بقرار ديهافيلاند » •

وبعد توقف أوليفيا ديهافيلاند عن العمل السينمائى مدة دامت ثلاثين شهرا عادت الى الشاشة فى فيلمين هامين فى عام ١٩٤٦ ، هما فيلم « المرآة الداكنة » وفيلم « كل حسب مشيئته » الذى فازت عن دورها فيه بجائزة الاوسكار •

وكان من المنطقى أن يضع فوز أوليفيا ديهافيلاند بجائزة الاوسكار حدا للتنافس المرير بينها وبين شقيقتها الصغرى على جائزة الاوسكار ، وهو تنافس خيم على جو أسرتهما وشمل اصدقاءهما الذين أرغموا على الاختيار بين الشقيقتين واشتدت حدة النزاع بينهما بعد أن اتهمت أوليفيا شقيقتها جون بانها هنأتها بعد فوزها بالجائزة لكى تنتزع منها الاضواء التى سلطت عليها • واستمر النزاع بين الشقيقتين على صفحات الجرائد ، واشتدت حدته نتيجة المقالات المبالغ فيها لكبيرتى المعلقات الصحفيات فى هوليوود لويلا بارسونز وهيدا هوبر •

وقد عادت أوليفيا ديهافيلاند لتفوز بجائزة الاوسكار مرة ثانية عن دورها فى فيلم « الوريثة » ١٩٤٩ ، ولكن التنافس بينها وبين شقيقتها جون فونتين الذى سببته جائزة الاوسكار لم يهدأ وادى الى تعكير صفو العشرات من حفلات توزيع جوائز الاوسكار واصبح واحدا من أشهر النزاعات فى تاريخ هوليوود •

جوائز الاوسكار
والافلام البريطانية

يعتبر ترشيح وفوز الافلام البريطانية بجائزة الاوسكار شيئا عاديا ومألوفا فى هذه الايام لانها تستوفى شرطا أساسيا للترشيح والفوز وهو انها ناطقة باللغة الانجليزية كما أن المستوى الفنى الرفيع للعديد من الافلام البريطانية يؤهلها للترشيح للعديد من جوائز الاوسكار والفوز بها. ومما يسهم فى تقبل الافلام البريطانية فى الولايات المتحدة بصورة عامة التعاون المتبادل والقديم بين صناعتى السينما الامريكية والبريطانية ، وهو تعاون وطيد ومتعدد الجوانب من أبرز مظاهره الدور الهام الذى يلعبه الممثلون البريطانيون فى السينما الامريكية بعد اكتسابهم الشهرة فى السينما البريطانية ، وظهور العديد من الممثلين الامريكيين فى الافلام البريطانية • وقد أصبح من الصعب أحيانا التمييز بين الافلام البريطانية والامريكية الانتاج بسبب التداخل المتعدد الوجوه بينهما •

ومع أن الافلام البريطانية أصبحت عنصرا مسلما به فى التنافس على جوائز الاوسكار فى هذه الايام ، فان الحالة لم تكن كذلك دائما • فقد قوبل ترشيح عدد من الافلام البريطانية لجوائز الاوسكار فى عام ١٩٤٦ بحملة معارضة شديدة من قبل مدراء كبريات شركات الانتاج السينمائى

في هوليوود . الا أن هذه المعارضة لم تلق آذانا صاغية من معظم أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذين قاموا بترشيح الفيلم البريطاني « هنري الخامس » لاربع من جوائز الاوسكار بينها جائزة أفضل فيلم في ذلك العام .

وقد هدد هؤلاء المدراء بسحب دعمهم المادي لحفلات توزيع جوائز الاوسكار ،وهو دعم كان قد بدأ منذ عام ١٩٣٩ اذا استمر ترشيح وفوز الافلام البريطانية بجوائز الاوسكار . ومما يذكر أن الفيلم البريطاني « الحياة الخاصة للملك هنري الثامن » كان قد رشح لجائزة أفضل فيلم في عام ١٩٣٢/١٩٣٣ وفاز بطله الممثل تشارلز لوتون بجائزة الاوسكار لافضل ممثل في ذلك العام دون أية معارضة من قبل استديوهات هوليوود في وقت كانت الاستديوهات الكبرى تحكم قبضتها على جوائز الاوسكار .

وتقترن بداية علاقة السينما البريطانية بجائزة الاوسكار والى حد كبير بهوليوود نفسها بالممثل المسرحي والسينمائي البارز لورنس أوليفييه الذي كان قد دعي الى هوليوود في عام ١٩٣١ وقام ببطولة ثلاثة أفلام لم تحقق نجاحا يذكر ثم عاد الى بريطانيا . وفي عام ١٩٣٣ دعي لورنس أوليفييه الى هوليوود مرة أخرى للاشتراك في بطولة فيلم « الملكة كريستينا » مع النجمة السينمائية جريتا جاربو التي رفضت الاشتراك معه في الفيلم وأصرت على اسناد الدور لعشيقها الممثل جون جيلبيرت الذي تقاسم معها بطولة عدد من أفلامها الصامتة والناطقة والذي كان واحدا من نجوم السينما الصامتة الكثيرين الذين فشلوا بعد ظهور السينما الناطقة . وقد لبى طلب جريتا

جاربو وأسند الدور لجون جيلبيرت وعاد لورنس أوليفييه خائب الظن الى لندن .

الا أن المنتج السينمائي ساموبل جولدوين دعاه الى هوليوود مرة أخرى حيث قام ببطولة فيلم « مرتفعات وذرنج » الذى رشح عن دوره فيه لجائزة الاوسكار فى عام ١٩٣٩ . وخلال زيارته لهوليوود فى عام ١٩٣٢ لتصوير مشاهد فيلم « مرتفعات وذرنج » رافقته فى رحلته عشيقته وزوجته المقبلة الممثلة فيفيان لى التى وقع الاختيار عليها بمحض الصدفة للقيام بدور « سكارليت أوهارا » فى الفيلم الشهير « ذهب مع الريح » رغم تنافس المئات من نجمات هوليوود على ذلك الدور .

وبين عشية وضحاها أصبح لورنس أوليفييه وفيفيان لى من أشهر نجوم السينما في الولايات المتحدة وبريطانيا . وأسند للورنس أوليفييه عدد من الادوار السينمائية الهامة فى أفلام متميزة مثل فيلم « ريبيكا » الذى رشح عن دوره فيه لجائزة الاوسكار ، وفيلم « فخر وتعصب » .

وبعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية خدم لورنس اوليفييه كطيار فى سلاح البحرية الملكية البريطانية وكادت هوليوود تنساه كليا . الا أنه عاد بعد انتهاء خدمته العسكرية الى حبه الاول « مسرحيات شكسبير » ثم قام بانتاج واخراج وبطولة الفيلم الرائع « هنرى الخامس » بميزانية صغيرة جدا .

واقتصرت مشاهدة هذا الفيلم فى دور السينما بلوس انجيليس فى بادىء الامر على عدد صغير من رواد السينما ولكن سرعان ما انتشرت شعبية الفيلم وتوافد على مشاهدته عدد كبير من أهل الفن فى دور السينما وفى العروض

الخاصة • واعجب بالمستوى الفنى لفيلم « هنرى الخامس» عدد كبير من أعضاء الامريكية لفنون وعلوم السينما وقاموا بترشيحه في عام ١٩٤٦ لاربع من جوائز الاوسكار بينها جائزة أفضل فيلم وجائزة أفضل دور يقوم به ممثل • وقد أثار ذلك غضب مدراء الاستديوهات الكبرى في هوليوود الذين كانوا يخشون هيمنة السينمائيين البريطانيين على جوائز الاوسكار •

الا أن أعضاء الاكاديمية الذين أعجبوا بفيلم « هنرى الخامس » أخذوا يبحثون عن أفلام بريطانية أخرى لمشاهدتها ، وقاموا في نفس العام بترشيح خمسة أفلام بريطانية أخرى لعدد من جوائز الاوسكار ، وقد فازت الافلام البريطانية في عام ١٩٤٦ بثلاث من جوائز الاوسكار كما منح لورنس أوليفييه جائزة أوسكار فخرية تقديرا لانجازاته الفنية عن بطولة واخراج وانتاج فيلم « هنرى الخامس » •

وفي نفس العام رشح الفيلم الفرنسى « أطفال الجنة » والفيلم الايطالى « المدينة المفتوحة » لجائزة الاوسكار لافضل سيناريو •

وبذلك كان عام ١٩٤٦ نقطة تحول هامة بالنسبة لعلاقة الافلام البريطانية بشكل خاص والافلام الاجنبية بشكل عام بجوائز الاوسكار رغم اعتراض مدراء استديوهات السينما الكبرى في هوليوود الذين ذهبوا الى حد التشكيك في وطنية أعضاء الاكاديمية الذين يصوتون لافلام غير امريكية • الا أن ذلك لم يثن أعضاء الاكاديمية عن التصويت للافلام حسب جدارتها الفنية بصرف النظر عن جنسية العاملين فيها • ولم يتمكن مدراء الاستديوهات

المتنفذون من ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ·

وفي العام التالي ، أي عام ١٩٤٧ ، رشح الفيلم البريطاني « توقعات عظيمة » للمخرج ديفيد لين لخمس من جوائز الاوسكار بينما جائزة أفضل فيلم ، وجائزة أفضل مخرج · وكان فيلمه « لقاء قصير » قد رشح فى العام السابق لثلاث من جوائز الاوسكار · وأشاد عدد من المخرجين السينمائيين فى هوليوود بمجهود المخرج ديفيد لين فى فيلم « توقعات عظيمة » مؤكدين انه يستحق الترشيح لجائزة الاوسكار لافضل مخرج ·

ورشح في عام ١٩٤٧ أيضا فيلمان بريطانيان آخران هما فيلم « النرجسة السوداء » وفيلم « الرجل الشاذ » والفيلم الفرنسى « قفص طيور العندليب » والفيلم الايطالى « شوشاين » لعدد من جوائز الاوسكار · وفاز كل من فيلم « توقعات عظيمة » و « النرجسة السوداء » باثنتين من جوائز الاوسكار · وقد حدا ذلك بناشر جريدة « هوليوود ريبورتر » و · رد · ويلكلسون الذى كان بمثابة متحدث غير رسمى باسم مدراء استديوهات هوليوود الى القول « أن أمريكا ساعدت الاوروبيين على الانتصار فى الحرب ولكنها غير ملزمة بمساعدتهم على الفوز بجوائز الاوسكار » ·

وفى العام التالى ، أى عام ١٩٤٨ ، رشح فيلم بريطانى آخر من اخراج وانتاج وبطولة لورنس أوليفييه هو فيلم « هامليت » لسبع من جوائز الاوسكار وفاز باربع منها بينها جائزة أفضل فيلم وجائزة أفضل دور يقوم به ممثل ورشح فى نفس العام الفيلم البريطانى « الحذاء الاحمر » لاربع من جوائز الاوسكار وفاز باثنتين منها ·

وقبل أن يحين موعد الترشيح لجوائز الاوسكار أدرك مدراء الاستديوهات الكبرى فى هوليوود أن فيلمي « هاملت » و « الحذاء الاحمر » من الافلام الرفيعة المستوى التي سيكون لها نصيب كبير فى جوائز الاوسكار وقام مدراء الاستديوهات الخمسة الكبرى ، وهى « الاخوة وارنر » و « بارامانت » و « مترو جولدوين ماير » و « فوكس القرن العشرين » و « آر • كى • أو » بعقد اجتماع طارىء فى نيويورك فى أواخر عام ١٩٤٨ وقرروا سحب دعمهم المادى لحفلة توزيع جوائز الاوسكار لعام ١٩٤٨ •

وفى مساء الرابع والعشرين من مارس/آذار عام ١٩٤٩ أى فى حفلة توزيع جوائز الاوسكار لعام ١٩٤٨ ، أعلن جين هيرشولت رئيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما للمستمعين عبر الشبكات الاذاعية فى سائر أنحاء الولايات المتحدة أن الاستديوهات ، بسحبها لدعمها المادى لتمويل الحفلة ، تعمل على تقويض الاكاديمية • الا أن هذه الاستديوهات نفت أن يكون قرارها ناجما عن توقع فوز فيلم « هاملت » بجائزة الاوسكار ، مدعية أنها سحبت دعمها المادى للجوائز لكى لا تثار أية شكوك فى نزاهة الجوائز التى تمنح لتلك الاستديوهات •

الا أن ذلك الادعاء لم ينطل على أعضاء الاكاديمية الذين ذكروا الاستديوهات بأن دعمها المادى لحفلات توزيع جوائز الاوسكار مستمر منذ عام ١٩٣٩ وانه لم يتوقف الا عند توقع فوز أول فيلم بريطانى بجائزة الاوسكار • ويؤكد بعض المؤرخين السينمائيين أن الحافز الاساسى لوقف الدعم المالى لحفلات جوائز الاوسكار من قبل استديوهات

هوليوود في ذلك الوقت هو حافز مادى • فقد أظهرت الدراسات أن فوز الفيلم بجائزة الاوسكار لافضل فيلم بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ كان يضمن له دخلا اضافيا قدره مليونا دولار في السنة • ولم يكن مدراء الاستديوهات في هوليوود على استعداد لتمويل حفلة تسهم في اضافة مثل هذا المبلغ لايرادات فيلم بريطاني على شباك التذاكر •

غير أن الخلاف الذى نشب بين استديوهات هوليوود الكبرى والاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في عام ١٩٤٨ عاد بفائدة كبيرة على الاكاديمية في المدى البعيد فقد أكسبها استقلالا كليا عن الاستديوهات التى استغلت الاكاديمية لمصالحها الخاصة في سنواتها الاولى ، وحررها من الاعتماد المالي على الاستديوهات الكبرى •

كما فتح ذلك الطريق لترشيح وفوز الافلام البريطانية بشكل خاص والافلام الاجنبية بشكل عام بجوائز الاوسكار وقد خصصت جائزة أوسكار ـ كما هو معروف ـ للافلام الاجنبية غير الناطقة باللغة الانجليزية منذ عام ١٩٥٦ •

ورغم مضى أربعة عشر عاما على فوز فيلم « هامليت » بجائزة الاوسكار لافضل فيلم في عام ١٩٤٨ قبل أن يفوز فيلم بريطاني آخر هو فيلم « لورنس العرب » بجائزة الاوسكار لافضل فيلم في عام ١٩٦٢ ، فقد فاز ستة أفلام بريطانية أخرى بتلك الجائزة منذ عام ١٩٦٣ ، وفازت الافلام البريطانية منذ ذلك الوقت بالعشرات من جوائز الاوسكار بفئاتها المختلفة •

المخرج فرانك كابرا
وجائزة الاوسكار

في أواسط فترة الثلاثينات مرت الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما بأكبر ازمة تعرفها في تاريخها بعد أن اتضح لاعضائها المنتمين الى فروع الممثلين والمخرجين والكتاب والمصورين وغيرهم أن مدراء الاستديوهات الذين اسهموا في تأسيس الاكاديمية ـ وعلى رأسهم مؤسس الاكاديمية ورئيس شركة مترو جولدوين ماير السينمائية لويس ماير ـ كانوا يحاولون استخدام الاكاديمية كوسيلة لمحاربة النقابات المختلفة الممثلة لفروع الاكاديمية المتعددة وهي نقابات بدأت تظهر في تلك الفترة ·

وفي عام ١٩٣٥ أصبح المخرج فرانك كابرا رئيسا للاكاديمية اثر انسحاب معظم أعضاء الاكاديمية من صفوفها · ويقول فرانك كابرا أن عضوية الاكاديمية انخفضت في تلك الفترة من ٦٠٠ عضو الى حوالى ٥٠ عضوا فقط · وأخذ فرانك كابرا على عاتقه مهمة اعادة بناء الاكاديمية واحيائها وتوسيع عضويتها من جديد ، واستمرت جهوده أربع سنوات وكللت في النهاية بالنجاح

وكان فرانك كابرا قد أمضى اثني عشر عاما في هوليوود قبل أن ينتمي الى عضوية الاكاديمية · ومارس العديد من المهن السينمائية وتدرج من خلالها قبل أن يصبح واحدا من أشهر وأنجح مخرجي هوليوود فى فترة الثلاثينات ·

وكان فرانك كابرا من المؤمنين المخلصين بالاكاديمية كمؤسسة سينمائية ذات رسالة هامة • وبذلك كانت نظرته نحو الاكاديمية تختلف عن نظرة مدراء الاستديوهات وكبار المنتجين السينمائيين فى هوليوود الذين أسهموا فى تاسيس الاكاديمية وشجعوا نموها لاسباب ترتبط بمصالحهم المالية وكوسيلة للتحكم فى أعضاء الفروع المهنية المختلفة للاكاديمية ولمحاربة انشاء نقابات مهينية لاعضاء تلك الفروع •

وقد بدأ اهتمام فرانك كابرا بالاكاديمية وبجائزة الاوسكار في عام ١٩٣٠ بعد أن أخرج فيلم « سيدات الترف » الذى حقق نجاحا شعبيا كبيرا وحول بطلته الممثلة باربرا ستانويك ـ وهى الممثلة المفضلة لدى فرانك كابرا ـ الى نجمة سينمائية بين عشية وضحاها • وكان فرانك كابرا يتوقع أن يفوز بجائزة الاوسكار عن اخراج الفيلم وأن تفوز باربرا ستانويك بالجائزة عن أفضل دور تقوم به ممثلة وأن يفوز منتج الفيلم ورئيس شركة كولومبيا السينمائية هارى كوهن بجائزة الاوسكار عن أفضل فيلم ومما شجعه على ذلك الاطراء الكبير الذى كاله النقاد للفيلم •

ولكن حين ظهرت قائمة المرشحين لجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٣٠ لم تشتمل على ترشيح واحد لفيلم « سيدات الترف » ، مما أدى الى خيبة أمل فرانك كابرا الذى كان يتوقع أن ترشح باربرا ستانويك عن دورها فى الفيلم على أقل تقدير • وقد أثار ذلك شكوك كابرا فى نزاهة عملية اختيار الفائزين بجوائز الاوسكار وأدرك عندئذ أن شركات السينما الكبرى، وخاصة مترو جولدوين ماير وباراماونت والاخوة وارنر ، تهيمن على جوائز

الاوسكار ، وان شركة كولومبيا السينمائية التي كان يعمل فيها والتي كانت شركة سينمائية صغيرة آنذاك محرومة من تلك الجوائز ٠

ومنذ ذلك الحين أصيب فرانك كابرا بهوس الفوز بجائزة الاوسكار وأصبح الفوز بالجائزة ضالته المنشودة وقد حقق تلك الامنية بعد جهد شاق وفازبجائزة الاوسكار بالفعل ثلاث مرات بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨ بعد أن شن حملة شعواء ، كما رشح للجائزة ثلاث مرات أخرى ٠

وتعد الحملة التي شنها فرانك كابرا للفوز بجائزة الاوسكار واحدة من أشهر خمس حملات شخصية شهدتها هوليوود في سبيل الفوز بالجائزة ٠ والحالات الاربع الاخرى تشتمل على المنتج السينمائي ارفنج تالبيرج في مسعاه المتواصل لفوز زوجته الممثلة نورما شيرر بجائزة أوسكار ثانية ، والمنتج السينمائي ديفيد سيلزنيك في مسعاه الدءوب لفوز زوجته الممثلة جنيفر جونز بجائزة أوسكار ثانية ، والناشر الثرى وليام راندولف هيرست في حملته الضارية لفوز عشيقته الممثلة ماريون ديفس بجائزة الاوسكار أو حتى بترشيحها للجائزة ، والممثل جون وين في حملته الشعواء لفوز فيلمه « الالامو » بجائزة الاوسكار وقد عجز كل من هؤلاء الاشخاص الاربعة عن تحقيق هدفه

وكان فرانك كابرا يدرك أن ضعف نظام الترشيح والفوز بجوائز الاوسكار يكمن في سيطرة عدد قليل من مدراء الاستديوهات الكبرى ، يتراوح بين ثمانية وعشرة اشخاص متنفذين ، على الاكاديمية ٠ وبدأ حملته بتوجيه رسالة شديدة اللهجة الى مجلس ادارة الاكاديمية يتهم فيها الاكاديمية باغفال جانب الخلق والابداع الفنى للفيلم

السينمائى . ثم وجه فرانك كابرا اهتمامه نحو هارى كوهن رئيس شركة كولومبيا السينمائية ومديره المباشر وذكره بأن مدراء الاستديوهات الآخرين لا يعطونه نصيبه المشروع من جوائز الاوسكار . ولما لم يلق اذانا صاغية لدى هارى كوهن أكد على نقطة حساسة تهم كوهن الذى كان معروفا بجشعه وبحبه للمال،وذكره بملايين الدولارات الاضافية التى قد يضيفها الفوز بجائزة الاوسكار الى ايرادات الافلام على شباك التذاكر . وقد أثار ذلك حمية هارى كوهن الذى باشر على الفوز بالاتصال بجاك وارنر رئيس شركة الاخوة وارنر وعضو الاكاديمية للاحتجاج على ما يحدث .

وقد أثارت رسالة فرانك كابرا قلق مؤسسى الاكاديمية فتلقى دعوة خاصة من المخرج فريد نيبلو ، وهو أحد مؤسسى الاكاديمية ، نيابة عن مجلس ادارتها للانضمام الى عضويتها . وبذلك حظى فرانك كابرا بمعاملة خاصة . فالانضمام الى عضوية الاكاديمية يحتاج الى تزكية من عضوين ثم المرور فى عملية ترشيح طويلة قبل موافقة مجلس الادارة على ذلك . الا أن فرانك كابرا دعى من قبل مجلس ادارة الاكاديمية بكافة أعضائه للانضمام الى عضويتها . وبعد أسبوع تم ترشيحه للعضوية باجماع الاصوات وأصبح عضوا عاملا .

واكتشف فرانك كابرا بعد انضمامه الى عضوية الاكاديمية أن التصويت النهائى لاعضائها لاختيار الفائزين بجوائز الاوسكار يتم بطريقة نزيهة وأمينة ، الا أن عملية الترشيح معرضه للتلاعب والضغوط والتأثير على أصوات الاعضاء ، كما تؤخذ فيها اعتبارات أخرى بعيدة عن الجدارة

الفنية • فالافلام التي تحقق نجاحا كبيرا في دور السينما تفضل على الافلام الرفيعة المستوى فنيا فى عملية الترشيح فى كثير من الاحيان ، كما أن التكتلات داخل الاستديوهات السينمائية أو ضمن فروع الاكاديمية المختلفة هى التى تقرر أسماء المرشحين وتؤثر فى نزاهة عملية الترشيح •

وبما أن اعضاء فرع المخرجين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما يختارون خمسة مرشحين لجائزة أفضل مخرج بالاقتراع السرى فان أى تكتل للمخرجين من أعضاء الاكاديمية في استديو كبير يلعب دورا كبيرا فى اختيار المرشحين للجائزة ، مما يضعف امكانية اختيار مخرج يعمل فى استديو صغير كالمخرج فرانك كابرا •

واستنتج فرانك كابرا أنه لابد له أن يخرج فيلما لاستديو كبير كمترو جولدوين ماير ليحصل على ترشيحه الاول • وادرك أن اخراج فيلم جيد فى أوائل فترة الثلاثينات لا يكفى بحد ذاته للترشيح ، اذ لابد من الحصول على دعم من استديو كبير للحصول على الترشيح • وقد أقنع جارى كوهين رئيس شركة كولومبيا السينمائية خصمه لويس ماير رئيس شركة مترو جولدوين ماير باستعارة فرانك كابرا لاخراج فيلم لشركته ، الا أن ماير أعاده بسرعة الى شركة كولومبيا بعد أن وجد أن كابرا مخرج مبدع ومجدد لا يلائم أفلامه التجارية •

وعندئذ قرر كابرا اخراج فيلم يعالج مشكلة الكساد الاقتصادى الذى كان يجتاح الولايات المتحدة فى مسعاه للحصول على جائزة الاوسكار • وفى عام ١٩٣٢ قدم فيلم « الجنون الامريكى » الذى كان من أوائل الافلام التى تعالج أزمة الكساد الاقتصادى ، وقدم الفيلم بأسلوب سينمائى

جديد يتميز بسرعة خطاه • ومع أن الجمهور تجاوب مع الفيلم الا أن النقاد هاجموه بشدة ، مما قضي على فرصة ترشيحه لجائزة الاوسكار ، لان اعضاء الاكاديمية الذين يختارون المرشحين لجوائز الاوسكار يتأثرون جدا بآراء النقاد ، وخاصة النقاد العاملين في وسائل الاعلام بمدينة لوس انجيليس • وما زال هذا التقليد ساريا حتي هذه الايام •

وفي العام التالى ، أى عام ۱۹۳۳ ، قرر فرانك كابرا أن يخرج فيلما فنيا بحتا فى مسعاه المستمر للفوز بجائزة الاوسكار • فقدم فيلم « الشاى المر للجنرال يين » للممثلة باربرا ستانويك ، وعالج فى الفيلم موضوع تمازج الاجناس عن طريق الزواج فى قصة حب بين جنرال صيني ومبشرة دينية أمريكية • ومع أن الفيلم كان فيلما رفيع المستوى وحظى باعجاب المخرجين الاوروبيين الذين قالوا ان الفيلم جاء سابقا لزمانه بثلاثين عاما ، فان أعضاء الاكاديمية أغفلوه ولم يرشح الفيلم حتى لجائزة أوسكار واحدة •

وعندئذ قرر المخرج فرانك كابرا اختراق حاجز الاوسكار عن طريق آخر بتقديم فيلم عاطفي يثير حزن الجمهور وضحكه فى آن واحد ، وهو فيلم « سيدة ليوم » الذى رشح بالفعل لاربع جوائز الاوسكار ، وهى جائزة افضل فيلم وافضل مخرج وافضل ممثلة وافضل سيناريو •

ويعترف فرانك كابرا بأنه مر فى تلك الفترة بمرحلة عصبية وأصبح لا يطاق ممن كانوا حوله لان الفوز بجائزة الاوسكار كان يتملكه • وكان يتوقع لفيلم « سيدة ليوم »

أن يفوز بأربع من جوائز الاوسكار ويسجل رقما قياسيا ليصبح أول فيلم يفوز بهذا العدد من الجوائز حتى ذلك الوقت •

ويقول فرانك كابرا انه كتب آنذاك عشرات الخطب استعدادا لالقائها عند استلام الجائزة ثم قام بتمزيقها ، واشترى أول بذلة رسمية سوداء لارتدائها فى حفلة توزيع جوائز الاوسكار ، وقام باستئجار منزل فخم لهذه المناسبة فى بيفرلي هيلز بضواحى مدينة لوس انجيليس •

وفى حفلة توزيع جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٣٢/١٩٣٣ والتي أقيمت مساء السادس عشر من مارس /آذار عام ١٩٣٤ فى فندق الامباسادور بهوليوود ، كان فرانك كابرا يجلس متالقا بين الحاضرين ببذلته الرسمية الجديدة بعد أن وضع خطاب قبول الجائزة النهائى فى جيب معطفه استعدادا لقبول جائزة الاوسكار •

وبعد مرور عشر دقائق على بدء الحفلة منحت جائزة أفضل سيناريو لفيلم « نساء صغيرات » ، وأدرك فرانك كابرا عندئذ أن فيلمه لن يستطيع الفوز بأكثر من ثلاث جوائز • وبعد قليل صعد النجم الكوميدى المعروف ويل روجرز الى منصة المسرح ليعلن اسم الفائز بجائزة الاوسكار لافضل مخرج ويقدم له الجائزة • وعندما فتح ويل روجرز الظرف الذى كان يحتوى على اسم الفائز وقرأه خاطب الحاضرين بقوله : « لقد راقبت هذا الشاب الفائز وهو يصعد من أدنى درجات السلم » • وعندئذ اقتنع فرانك كابرا بأنه المقصود بذلك وبأنه المخرج الفائز لانه كافح وناضل سنين طويلة وصعد من ادني درجات السلم ليصل الى مرتبته الحالية • ومضى ويل روجرز قائلا : « ليس من

الممكن أن يحدث ذلك لشخص أظرف وأطيب •• تعال يا فرانك واستلم الجائزة» •

وفى تلك اللحظة وقف الجالسون على مائدة فرانك كابرا وهم يصفقون بحماس ، ونهض كابرا ببطء من مقعده وتوجه نحو المنصة • وفجأة سلطت الاضواء على المخرج فرانك لويد الفائز الفعلى بجائزة أفضل مخرج لعام ١٩٣٣ وتبين أن فرانك كابرا لم يكن الفائز بالجائزة • وقد نتج سوء الفهم عن تشابه الاسم الاول لفرانك كابرا وفرانك لويد ، واكتفاء مقدم الجائزة ويل روجرز بذكر الاسم الاول للفائز دون ذكر اسمه الاخير •

ويقول فرانك كابرا عما حدث في تلك الليلة انه وقف متسمرا فى مكانه دون أن يصدق ما حدث ، ثم بدأ وصفه « بأطول وأحزن وأقسى عملية انسحاب فى حياتى » • وعندما عاد الى المائدة التى كان يجلس عليها وجد أصدقاءه يجهشون بالبكاء • وقرر آنذاك أن يتجنب الظهور فى حفلات توزيع جوائز الاوسكار فى المستقبل اذا رشح للجائزة لكى يتفادى الاذلال الذى تعرض له فى تلك الامسية

الا أن فرانك كابرا غير رأيه فى العام التالى ، أى عام ١٩٣٥ ، ليستلم جائزة أفضل مخرج التى فاز بها عن فيلم « حدث ذات ليلة » الذى فاز بخمس من جوائز الاوسكار لعام ١٩٣٤ ، وكان أول فيلم يفوز بجائزة أفضل فيلم وأفضل مخرج ، وأفضل ممثل ، وأفضل ممثلة ، وهو انجاز لم يحققه أى فيلم آخر حتى عام ١٩٧٥ حين كرر فيلم « أحدهم حلق فوق عش الوقواق » هذا الانجاز الهام •

وفى أواخر عام ١٩٣٥ لجأ اعضاء الاكاديمية الى المخرج فرانك كابرا لانقاذ الاكاديمية من الانهيار فى خضم أزمتها وانتخبوه رئيسا لها • وقد ورث فرانك كابرا الاكاديمية

الامريكية لفنون وعلوم السينما فى حالة يرثى لها • فقد انخفضت عضويتها من ٦٠٠ الى حوالى ٥٠ عضوا وانخفض عدد موظفيها الى موظفة واحدة هى سكرتيرتها التنفيذية مارجريت هيريك التى كانت تعمل متطوعة بدون أجر ، وخفضت الاستديوهات السينمائية الكبرى دعمها المالى للاكاديمية بعد أن عجزت عن استخدام الاكاديمية كوسيلة لمحاربة النقابات المهنية •

كما كانت الاكاديمية مقاطعة من قبل نقابات الممثلين والمخرجين والكتاب الذين أرادوا هدم الاكاديمية فى ذلك الوقت لكى يحرموا الاستديوهات الكبرى من المزايا المالية والمعنوية الناتجة عن الفوز بجوائز الاوسكار • وهكذا اعتمد بقاء الاكاديمية على عدد قليل من الاعضاء الموالين والمتحمسين الذين لم يفقدوا ثقتهم بالقيمة الفنية والثقافية للاكاديمية •

ويقول فرانك كابرا ان الاكاديمية كانت توشك على الانهيار كليا فى عام ١٩٣٥ وأنه تعين على أعضاء مجلس ادارتها فى ذلك العام أن يدفعوا ثمن تماثيل جوائز الاوسكار واللوازم المكتبية من جيوبهم الخاصة • كما أنه استغاث بأعضاء الهيئات التنفيذية للنقابات المهنية السينمائية للسماح للاكاديمية بارسال أوراق الاقتراع لجوائز الاوسكار الى أعضاء تلك النقابات •

وقد استمرت الحملة الضارية التى شنها فرانك كابرا وغيره من الاعضاء المخلصين للاكاديمية أربع سنوات • وفى عام ١٩٣٩ انتهت الازمة واستعادت الاكاديمية قوتها واستهلت فصلا جديدا من الازدهار بعد عودة أعضاء النقابات المهنية السينمائية المختلفة الى صفوفها •

المخرج ستيف سبيلبيرج
وجـــائـــزة الاوســـكار

يقدم المخرج الشاب ستيف سبيلبيرج مثلا جيدا على أثر العوامل الشخصية على الترشيح والفوز بجائزة الاوسكار وخاصة عامل الحسد من الغير على النجـــاح الكبير الــذي يحققه البعض في هوليوود • فقد ظهر نبــوغ ســـتيف سبيلبيرج فى الاخراج السينمائى حين كان شـــابا مراهقا وبرز هذا النبوغ أثناء دراسته الجامعية وفى أول أفــلامه التليفزيونية •وقبل أن يبلغ ستيف سبيلبيرج سن الخامسة والعشرين أصبح علما من أعلام هوليوودوواحدا من مخرجيها المتميزين • وحين نستعرض الانجازات السينمائية للمخرج ستيف سبيلبيرج نصاب بالدهشة والذهول حين نعلم أنه لم يفز بجائزة الاوسكار لافضل مخرج حتى الآن •

ويجمع ستيف سبيلبيرج فى أفلامه بين المستوى الفنى الرفيع والنجاح التجارى الكبير ، وهما الجـــازان مميزان لمعظم أفلامه • ولعل الشعبية المذهلة التى حققتهـــا أفــلام ستيف سبيلبيرج بين الجمهور من الاسباب التى حالت دون فوزه حتى الآن بجـــائزة الاوسكار • اذ ان النجـــاح المالى والتجارى الذى حققته أفلامه لابد وأن يثير غيرة وحســـد الكثيرين فى هوليوود ، وخاصة فى أوســـاط المخرجين فحتى نهاية عام ١٩٨٧ بلغت ايرادات الافلام التى قام ستيف سبيلبيرج باخراجها أو انتاجها أكثر من بليـــونى دولار فى دور السينما الامريكية وحدها ، وهو انجـــاز لم يحققه أى

مخرج او منتج سـينمائى اخر ، حتى المخـرج والمنتج السينمائى جورج لوكاس منتج الافلام الثـلاثة فى سلسلة أفلام « حرب النجوم » • ولا تدخل فى هذا الرقم ايرادات أفلام ستيف سبيلبيرج خارج الولايات المتحدة لصـعوبة التاكد منها بدقة بسـبب تعقيد شبكـات توزيع الافـلام السينمائية فى العالم ، كما لا تدخل فيها ايرادات المنتجات الاخرى المتعلقة بالافلام السينمائية كالكتب واللعب والملابس وغيرها ، ولا تدخل فيها أيضـا ايرادات افلام الفيديو أو العروض التليفزيونية •

وبين أفلام ستيف سبيلبيرج فيلم « مخلوق من الفضاء الخارجى » ١٩٨٢ الذى يحتل المركز الاول بين الافلام التى حققت أعلى الايرادات فى تاريخ السـينما ، والذى زادت ايراداته حتى الان على ٤٠٠ مليون دولار فى دور السينما الامريكية وحدها • وهذا الفيلم من الافلام الممتازة فنيا •

ومع أن سبيلبيرج اشتهر بالافـلام العلمية الخيالية الحافلة بالمغامرات والمطاردات والتى تعتمد الى حد كبير على براعة المؤثرات الخاصة التى أحبها الجمهور فان آخر فيلمين قدمهما للشـاشة من أفلام الدراما الجادة التى خرجت عن نمطه السينمائى المالوف ، وهما فيلم « اللون الارجوانى » ١٩٨٥ الذى رشح لاحدى عشرة من جوائز الاوسكار ولكنه لم يفز بجائزة أوسـكار واحدة ، وفيـلم « امبراطـورية الشمس » ١٩٨٧ الذى رشح لست من جوائز الاوسكار •

وقد رشح ستيف سبيلبيرج لجائزة الاوسكار لافضـل مخرج ثلاث مرات عن فيلم « لقـاءات قريبة من النـوع الثالث » ١٩٧٧ وفيلم « غزاة تابوت العهد المفقود » ١٩٨١

وفيلم « مخلوق من الفضاء الخارجي » ١٩٨٢ • ورشح الفيلمان الاخيران وفيلم « الفك المفترس » ١٩٧٥ ، وهو من اخراج سبيلبيرج أيضا ، لجائزة الاوسكار لافضل فيلم •

الا أن جائزة الاوسكار الوحيدة التي فاز بها ستيف سبيلبيرج كانت جائزة أوسكار فخرية ، وهي جائزة ارفنج تالبيرج التذكارية التي منحت له في عام ١٩٨٧ في حفلة توزيع جوائز الاوسكار لعام ١٩٨٦ •

وهناك اعتقاد واسع النطاق في هوليوود وبين أوساط النقاد بأن عدم فوز ستيف سبيلبيرج بجائزة أوسكار عادية يرجع الى عاملين أساسيين يلقيان الضوء على الاعتبارات الخاصة التي تدخل في عمليتي الترشيح والفوز بجائزة الاوسكار • العامل الاول متعدد الجوانب ويشتمل على ثروته الهائلة من أعماله السينمائية وغروره ونزعته الاستقلالية ونجاحه المذهل ، وهي أمور أثارت غيرة وحسد الكثيرين • والعامل الثاني ـ وهو عامل حاسم في عملية الترشيح لجوائز الاوسكار ـ هو أن فرع المخرجين في الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الذي يقوم بترشيح أفضل خمسة مخرجين لجائزة الاوسكار يضم نسبة كبيرة من المخرجين الكبار في السن بين أعضائه الذين بلغ عددهم ٢٣٠ عضوا في عام ١٩٨٧ و ٢٥٧ عضوا في عام ١٩٨٨ • ويمثل ذلك نسبة صغيرة جدا من مجموع المخرجين الامريكيين • ويبلغ عدد أعضاء نقابة المخرجين الامريكيين أكثر من ٨٠٠٠ عضو ، الا أن هذا العدد يضم مخرجي الافلام والبرامج التليفزيونية والافلام الوثائقية والقصيرة وغيرها •

وتشير الاحصائيات الى أن ٧٠ بالمائة من أعضاء فرع المخرجين في الاكاديمية قد تجاوزوا سن الستين وأن قرابة

٤٥ بالمائة منهم لم يخرجوا اى أفـلام سـينمائية خـلال السنوات العشر الماضية ، بل إن بعضهم مارس الاخراج السينمائى فى عصر السينما الصـامتة • ومثـل هؤلاء المخرجين الكبار فى السن وشبه المعتزلين للاخراج السينمائى ينظرون الى المخرجين الشباب الناجحين من أمثال ستيف سبيلبيرج نظرة غيرة وحسد واستياء فى بعض الاحيان ، ولابد أن يؤدى ذلك الى التأثير على أصوات كثيرة فى عملية الترشيح لجائزة الاوسكار •

ومما يزيد الوضع سوءا بالنسبة لاشخاص مثل ستيف سبيلبيرج أن عددا من أبرز مخرجى هوليوود الشـباب الذين يمكن أن يصنوتوا لمخرجين مجددين ومبدعين مثـل ستيف سبيلبيرج ليسوا أعضاء فى فرع المخـرجين التابع للاكاديمية لانهم بدأوا عملهم السينمائى كأعضاء فى فروع أخرى كفرع الممثلين ويصعب عليهم تغيير عضـويتهم • ومن الامثلة العديدة على ذلك جون كاسافيتيس وسيدنى بوتيـيه وبول نيـومان ووارين بيتى وروبرت ريدفـورد وسيلفستر ستالون الذين اشتهروا كممثلين قبل ممارسة الاخراج السينمائى وينتمى معظمهم الى فـرع الممثلين فى الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما • ولذلك فهم ليسوا مؤهلين للاشتراك فى عملية ترشيح المخرجين لجوائز الاوسكار • وقد حاول بعضهم كالممثل والمخرج بيتر فوندا تغيير عضويته من فرع الممثلين الى فرع المخرجين ولكنه لم يفلح فى مسعاه •

ومما يثبت تحيز أعضاء فرع المخرجين دون أدنى شك ضد المخرج ستيف سبيلبيرج أن فيلمه « اللون الارجوانى » رشح لاحدى عشرة من جوائز الاوسكار ، بما فيها جائزة

أفضل فيلم ، ولكن سبيلبيرج لم يرشح لجائزة أفضل مخرج ، علما بأنه فاز عن اخراج الفيلم بجائزة رابطة المخرجين الامريكيين التي تضم أكثر من ٨٠٠٠ عضو • وقد تساءل البعض : كيف يمكن لفيلم أن يرشح لاحدى عشرة من جوائز الاوسكار دون أن يرشح المخرج المسئول عن جميع مقومات هذا الفيلم للجائزة ؟ وكيف يمكن حرمان مخرج من الترشيح لجائزة الاوسكار عن فيلم مرشح لجائزة أفضل فيلم وعن فيلم رشحت ثلاث من ممثلاته في اول أدوارهن السينمائية لجائزة الاوسكار بفضل حسن اختيار وتوجيه ورعاية مخرجه ؟ •

وقد أثار عدم ترشيح ستيف سبيلبيرج لجائزة الاوسكار عن اخراج فيلم « اللون الارجواني » وعدم فوز الفيلم حتى بجائزة أوسكار واحدة رغم ترشيحه احدى عشرة مرة ، أثار موجة من السخط بين النقاد وفي الاوساط السينمائية والصحفية • ولكي تكفر الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما عن شعورها بالذنب قررت في العام التالي منح ستيف سبيلبيرج جائزة ارفنج التذكارية تقديرا لانجازاته السينمائية الفذة •

وقد تكرر ما حدث بالنسبة لفيلم « اللون الارجواني » أيضا في فيلم « امبراطورية الشمس » حين أعلنت أسماء المرشحين لجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ في السابع عشر من فبراير/شباط ١٩٨٨ • فقد رشح فيلم « امبراطورية الشمس » للمخرج ستيف سبيلبيرج لست من جوائز الاوسكار ، ولكن سبيلبيرج لم يرشح لجائزة الاوسكار لافضل مخرج ، كما أن الفيلم لم يرشح لجائزة افضل فيلم • وقد نتجت عن ذلك موجة استياء أخرى في

الاوساط الصحفية والسينمائية ضد عملية الترشيح لجوائز الاوسكار فى الاكاديمية .

ومع أن فيلمى « اللون الارجوانى » و « امبراطورية الشمس » يضربان مثلين صارخين على اغفال المخرج ستيف سبيلبيرج فى جوائز الاوسكار ، فلم يكن هذان الفيلمان الحالتين الوحيدتين اللتين تعرض فيهما سبيلبيرج لهذه المعاملة غير المنصفة فى جوائز الاوسكار . فقبل ذلك أثيرت دهشة كثيرين من النقاد حين لم يرشح فيلمه « لقاءات قريبة من النوع الثالث » لجائزة الاوسكار لافضل فيلم فى عام ١٩٧٧ . كما تساءل كثيرون من النقاد كيف يمكن لفيلم « مخلوق من الفضاء الخارجى » ، تلك الرائعة السينمائية الفذة ، أن يخسر جائزة الاوسكار لافضل فيلم فى عام ١٩٨٢ لفيلم بطىء وممل وتقليدى كفيلم «غاندى»

أن محاولة الاجابة على هذه الاسئلة وتجربة المخرج ستيف سبيلبيرج مع جائزة الاوسكار تضيف أبعادا جديدة الى لغز جائزة الاوسكار ، وهو بعد يتمثل فى العوامل العديدة التى تدخل فى عملية اختيار المرشحين والفائزين بتلك الجوائز .

جوائز الاوسكار
لعـــام ١٩٨٧

كنموذج تطبيقى لعملية التصويت للمرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار

لاعطاء القارىء صورة واقعية لعمليـــة التصـــويت للمرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار سنستعرض فى الصفحات التالية المراحل المختلفة لذلك بالنســـبة لافلام ١٩٨٧ .

الجدول الزمنى لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧

الحدث	التاريخ
الموعد النهائى لتقديم الطلبات الرسمية لعرض الافلام المؤهلة للترشيح	١٩٨٧/١٢/٧
مدة التأهيل لجميع الافلام المتقدمة عدا الافلام الاجنبية الوثائقية والقصير	١٩٨٧/١/١ ١٩٨٧/١٢/٣١
مدة التأهيل للافلام الاجنبية	١٩٨٦/١١/١ ١٩٨٧/١٠/٣١
مدة التأهيل للافلام الوثائقية ــ الافلام التى عرضت فى مهرجان سينمائى معترف به أو فى دار ســـينما تجارية بمدينة لوس أنجيليس	بين ١٩٨٦/١١/١ و ١٩٨٧/١٠/٣١

مدة التأهيل للافلام القصيرة ـ الافلام التي عرضت في مهرجان سينمائي معترف به أو في دار سينما تجـارية بمدينة لوس أنجيليس بين ١/١٢/١٩٨٦ و ٣٠/١١/١٩٨٧

موعد ارسال أوراق الاقتراع للاعضـاء لعملية الترشيح ٢٢/١/١٩٨٨

موعد اغلاق صناديق الاقتراع لعملية الترشيح ٥/٢/١٩٨٨

موعد اعلان اسماء جميع المرشحين لجوائز الاوسـكار ١٧/٢/١٩٨٨

موعد بدء عرض الافلام المرشحة لجوائز الاوسكار في مسرح ساموئيل جولدوين بالاكاديمية الامريكية لفنـون وعلوم السينما ٢٧/٢/١٩٨٨

ـ موعد ارسال أوراق الاقتراع الى الاعضاء لعملية اختيار الفائزين ٢٦/٣/١٩٨٨

موعد اغلاق صناديق الاقتراع للتصـويت للفائزين ٥/٤/١٩٨٨

موعد اعلان أسماء الفائزين بجوائز الاوسكار ١١/٤/١٩٨٨

عملية اختيار المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ مع تسلسلها الزمني

ارسلت قسائم الاقتراع للترشيح لجوائز الاوسكار السنوية الستين الى أعضاء الاكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما الذين يحق لهم التصويت ، وهم ٤٣٢٦ عضوا ، فى العشرين من يناير \ كانون الثانى عام ١٩٨٨ ، كما ارسلت لهم قائمة مفصلة باسماء جميع الافلام المؤهلة لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ مع لوائح بأسماء المشتركين والعاملين فى الفئات المختلفة المؤهلة لجوائز الاوسكار فى تلك الافلام • وحدد يوم الخامس من فبراير/شباط عام ١٩٨٨ لاستلام قسائم الاقتراع للمرشحين فى مقر الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ، بحيث قام كل عضو فى الاكاديمية بترشيح خمسة أفلام لجائزة أفضل فيلم ثم قام كل عضو بترشيح خمسة أسماء فى كل فئة يحق له التصويت فيها • فأعضاء فرع الممثلين ـ مثلا ـ اشتركوا فى التصويت فى أربع فئات هى أفضل دور يقوم به ممثل وأفضل دور تقوم به ممثلة وأفضل دور مساعد يقوم به ممثل وأفضل دور مساعد تقوم به ممثلة، وقام كل منهم بالتصويت لخمسة أشخاص فى كل فئة •

واشترك الكتاب فى التصويت فى فئتين هما جائزة افضل سيناريو أصلى وجائزة أفضل سيناريو مقتبس • كذلك اشترك الموسيقيون فى التصويت فى فئتين هما

جائزة أفضل موسيقى تصويرية أصلية وجائزة أفضل اغنية اصلية . أما المخرجون فقد اشتركوا فى التصويت لجائزة أفضل مخرج ، كما اشترك المصورون فى الترشيح لجائزة أفضل مصور . وقد تم الترشيح بهذه الطريقة في سبع عشرة فئة من الجوائز الاثنتين والعشرين التى قدمت لافلام عام ١٩٨٧ . وقد شكلت الاسماء الخمسة التى حصلت على أكبر عدد من الاصوات فى كل فئة قائمة المرشحين لجوائز الاوسكار .

أما جوائز الاوسكار الخمس الاخرى التى منحت لافلام عام ١٩٨٧ ، وهى جائزة افضل فيلم أجنبى والافلام الوثائقية القصيرة والطويلة والمؤثرات البصرية والماكياج فقد اتبعت اجراءات ترشيح خاصة لها قررتها الفروع المسئولة فى الاكاديمية او احدى لجانها الخاصة . ففى حالة الترشيح لجائزة الاوسكار لافضل مؤثرات بصرية ـ مثلا ـ أمكن للجنة جائزة المؤثرات البصرية اتباع واحدة من ثلاث طرق وهى ترشيح ثلاثة افلام للجائزة ، أو اختيار فيلم واحد وتقديمه مع توصية خاصة الى مجلس ادارة الاكاديمية لمنحه جائزة انجازات خاصة ، أو عدم ترشيح اى فيلم للجائزة على الاطلاق . وقد قررت اللجنة فى هذه الحالة ترشيح فيلمين لجائزة الاوسكار لافضل مؤثرات بصرية هما فيلم « أعماق الفضاء » وفيلم « المفترس » ، وفاز فيلم « أعماق الفضاء » بالجائزة . وقد قامت لجان خاصة باختيار الافلام المرشحة لجوائز الاوسكار الاربع الاخرى .

وقد ذكرت الاكاديمية اعضاءها ـ كما تفعل منذ سنين ـ بأن القرار المتعلق بتحديد دور الممثل أو الممثلة كدور

رئيسى أو مساعد يعود الى الاعضـــاء أنفسهم ، ولا يحق للاستديو أو الشركة السينمائية المنتجة للفيلم تقرير ذلك كما كان الحال فى السنوات الاولى لجوائز الاوسكار • الا ان أنظمة الترشيح الحالية تمنع ترشيح نفس الممثـل أو الممثلة لاكثر من مرة فى نفس الفئة • واذا تم ترشـيح ممثل ما عن دورين فى فيلمـين مختلفين لنفس الفئـة ، كجائزة أفضل درر يقوم به ممثل ، فعندئذ يتم ترشـيحه عن الدور الذى يحصل فيه على أكبر عدد من الاصـــوات ويلغى ترشيحه عن الدور الثانى • وليس من المستبعد أن يكون الممثل مايكل دوجلاس الذى فاز بجائزة الاوسكار لافضل دور يقوم به ممثل عن فيلم « شـــارع المال » قد حصل على أصوات كافية لترشيحه أيضا عن دوره فى فيلم « جاذبية قاتلة » بالنظر لادائه القوى فى ذلك الفيلم أيضا، وأن يكون الترشيح الثانى قد ألغى لانه يتنافى مع قواعد الاكاديمية وأنظمتها • الا أن الاكاديمية لم تعلن عمـا إذا كان ذلك قد حدث أم لا بالنسبة للممثل مايكل دوجـلاس لانها لا تعلن الا أسماء المرشحين الخمسة للجائزة •

غير انه من الممكن أن يرشح نفس الممثـــل أو الممثلـة لجـــائزة الاوســـــكار عن دورين مختلفين فى فئتـين مختلفتين هما جائزة أفضـــل دور وجائزة أفضـــل دور مساعد • وقد حدث ذلك بالفعل ثلاث مرات فى الماضى كان آخرها فى عام ١٩٨٢ حين رشحت الممثلة جيســيكا لانج لجائزة افضل دور تقوم به ممثلة عن فيلم « فرانسيس » ولجائزة أفضل دور مســـاعد تقوم به ممثلة عن فيـلم « توتسى » وفازت بالجائزة الثانية •

وقواعد الاكاديمية التى تسرى على الممثلين تطبق أيضا

على المصورين الذين لا يسمح بترشيحهم أكثر من مرة لجائزة أفضل مصور في نفس العام • الا أن هذه القاعدة لا تطبق على المخرجين والكتاب ومدراء المونتاج والموسيقيين ومهندس الصوت والمدراء الفنيين ومصممي الازياء الذين يمكن ترشيحهم مرتين أو أكثر عن فيلمين أو أكثر في فئاتهم المختلفة في نفس العام •

وقد تعين على أعضاء الاكاديمية اعادة قوائم الاقتراع للترشيح لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ الى مقر الاكاديمية في موعد أقصاه الخامس من فبراير/شباط عام ١٩٨٨ • وبعد اثنى عشر يوما تم خلالها عد وفرز الاصوات من قبل شركة برايس واترهاوس المستقلة أعلنت في١٩٨٨/٢/١٧ أسماء المرشحين لجوائز الاوسكار الاثنتين والعشرين لعام ١٩٨٧ • وقد تم اعلان أسماء المرشحين في الساعة الخامسة والنصف صباحا في مقر الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما في بيفرلي هيلز ، وهي ضاحية من ضواحي مدينة لوس أنجيليس • وقد تم اختيار تلك الساعة المبكرة لاعلان أسماء المرشحين لاخذ الفارق الزمني مع بقية أنحاء العالم بالاعتبار واعطاء معظم أنحاء العالم الفرصة للاطلاع على أسماء المرشحين لجوائز الاوسكار في نفس اليوم •

وفي السابع والعشرين من فبراير / شباط عام ١٩٨٨ بدأ عرض الافلام المرشحة لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ في مسرح ساموئيل جولدوين في مقر الاكاديمية لاتاحة الفرصة لاعضاء الاكاديمية لمشاهدة الافلام المرشحة ، وذلك تمشيا مع قواعد وأنظمة التصويت •

وفي السادس والعشرين من مارس/آذار عام ١٩٨٨

ارسلت الاكاديمية أوراق الاقتراع النهـــائية التى حملت قوائم المرشحين لجوائز الاوسكار الى جميـــع أعضـــــاء الاكاديمية الذين اشتركوا فى عملية التصـــويت النهائية لاختيار الفائزين بجوائز الاوسكار فى جميع الفئات • الا ان ذلك لم يشتمل على جائزة الاوســـكار الفخرية ، وهى جائزة ارفنج ثالبيرج ، التى قام أعضـــــاء مجلس ادارة الاكاديمية الذين يمثلون جميع فروع الاكاديمية باختيـــار الفائز بها وهو المخرج بيلى وايلدر •

وقد تعين على أعضاء الاكاديمية اعادة قسائم الاقتراع الى الاكاديمية فى موعد أقصاه الخامس من ابريل/نيسان عام ١٩٨٨ • وتولت شركة برايس واترهاوس مهمة فرز وعــد الاصوات لاختيار الفائزين ، وهى مهمة أحيطت بسرية تامة حتى لحظة اعلان أسماء الفائزين مســاء الحادى عشر من ابريل/نيسان عام ١٩٨٨ فى حفلة توزيع جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ •

عرض لجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧

انطوت أسماء المرشحين لجوائز الاوســـكار لافلام عام ١٩٨٧ على الكثير من المفاجئات ، منها حصـــــول فيلم « الامبراطور الاخير » ، وهو فيلم بريطانى الانتـــاج ناطق باللغة الانجليزية للمخرج الايطالى برناردو برتولوشى ، على أكبر عدد من الترشيحات ، وهو تسع جوائز • ومنها أيضا ان الفيلم الذى كان مفضلا قبل اعلان أسماء المرشحين وهو فيلم « أخبار تليفزيونية » حصل على سبعة ترشيحات فقط • والشىء الذى أدهش معظم النقـــاد هو أن جيمس

بروكس مخرج فيلم « أخبــار تليفزيونية » لم يكن بين المرشحين الخمسة لجائزة أفضل مخرج • كما ان عـدم ترشيح المخرج ستيف سبيلبيرج لجائزة أفضل مخرج عن فيلم « امبراطورية الشمس » أثار دهشة الكثيرين ، خاصة لان الفيلم رشح لست من جوائز الاوسكار، مما عزز الانطباع السائد عن تحيز أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ضد المخرج ستيف سبيلبيرج •

ولم يكن هناك مخرج امريكي واحد بين المخرجين الخمسة الذين رشحوا لجائزة الاوسكار لافضل مخــرج • وكانت هذه أول سنة لايرشح فيها مخرج أمريكي لجائزة الاوسكار منذ بدء تقديم الجوائز قبل ستين عاما • وقد تضـــمن المرشحون لجائزة أفضل مخرج الى جانب المخرج الايطالى بيرناردو بيرتولوشي الذى فاز بالجائزة المخرجين البريطانيين جون بورمان عن فيلم « أمل ومجد » وادريان لاين عن فيلم « جاذبية قاتلة » والمخرج الكندى نورمان جويـــسون عن فيلم « واقع تحت تأثير القمر » والمخرج الســويدى لاسي هالستروم عن فيلم «حياتى ككلب » • وبين هؤلاء المخرجين الخمسة اثنان رشحا للجائزة لاول مرة همــا ادريان لاين ولاسي هالستروم •

وتضم قائمة الافلام التى رشحت لجوائز الاوســـكار لافلام عام ١٩٨٧ خمسة عشر فيلما رشح كل منها لجائزتين أو أكثر ، كما يظهر فى الجدول المرفق • وبين هذه الافلام ستة أفلام رشح كل منها لخمســـة جـــوائز أو أكثر • وتشـــتمل هذه الافلام الستة على الافلام الخمســـة التى رشحت لجائزة أفضـــل فيلم وهى « الامبراطور الاخير » و « أخبار تليفزيونية » و « جاذبية قاتلة » و « واقع تحت

الفيلم	عدد الترشيحات	عدد الجوائز
الامبراطور الاخير	٩	٩
اخبار تلفزيونية	٧	٠
امبراطورية الشمس	٦	٠
جاذبية قاتلة	٦	٠
وقاع تحت تاثير القمر	٦	٣
امل وحيد	٥	٠
المنبوذون	٤	١
نداء الحرية	٣	٠
وداعا ايها الاطفال (فرنسى)	٢	٠
الميت	٢	٠
ايرونويد	٢	٠
حياتى ككلب (سويدى)	٢	٠
ايام الاذاعة	٢	٠
روبوكوب	٢	٠
ساحرات ايستويك	٢	٠

تأثير القمر » و « أمل ومجد » . والفيلم السادس هو فيلم « امبراطورية الشمس » الذى رشح لست جوائز ليس بينها جائزة أفضل مخرج أو أفضل فيلم .

ومن أبرز مميزات ترشيحات هذا العام كثرة عدد الممثلين الذين رشحوا لجائزة الاوسكار لاول مرة . اذ ضمت قائمة الممثلين والممثلات العشرين المرشحين ثلاثة عشر ممثلا رشحوا للجائزة لاول مرة . وبين المرشحين الخمسة لجائزة أفضل دور يقوم به ممثل ممثلان رشحا لجائزة الاوسكار لاول مرة ، هما مايكل دوجلاس الذى فاز بالجائزة وروبن وليامز ، علما بأن مايكل دوجلاس كان قد فاز بجائزة أوسكار كمنتج لفيلم « أحدهم حلق فوق عش الوقواق » الذى فاز بجائزة أفضل فيلم فى عام ١٩٧٥. أما الممثلون المرشحون الثلاثة الاخرون فقد سبق أن فازوا أو رشحوا لجائزة الاوسكار من قبل .

وبين المرشحات الخمس لجائزة أفضل دور تقوم به ممثلة ممثلتان رشحتا لاول مرة هما هولى هنتر وسالى كيركلاند . وقد سبق للممثلات الثلاث الاخريات اللاتى رشحن للجائزة أن فزن أو رشحن لجائزة الاوسكار من قبل .

وبين المرشحين الخمسة لجائزة أفضل دور مساعد يقوم به ممثل أربعة ممثلين رشحوا لاول مرة وهم شون كونيرى الذى فاز بالجائزة وألبرت بروكس ومورجان فريمان ودنزيل واشنطن . والممثل الخامس هو فنسنت جاردينيا الذى كان قد رشح لجائزة الاوسكار من قبل .

وجميع الممثلات الخمس اللاتى رشحن لجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة تم ترشيحهن لجائزة الاوسكار

لاول مرة ، وهن أوليمبيا دوكاكيس التى فازت بالجائزة وآن آرشر وآن رمزى وآن سوذرن ونورما اليالدرو ٠

الفائزون بجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧

خرج فيلم « الامبراطور الاخير » بنصيب الاسد من جوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ ٠ فقد حصل هذا الفيلم البريطانى الانتاج للمخرج الايطالى المعروف بيرنارد بيرتولوشى على جوائز الاوسكار التسع التى رشح لها ، وهى جائزة افضل فيلم وافضل مخرج وأفضل مصور وأفضل سيناريو مقتبس وأفضل موسيقى تصويرية وأفضل مدير مونتاج وأفضل مدير فنى وأفضل مهندس صوت وأفضل مصمم أزياء ٠ وبذلك أصبح أول فيلم يفوز بمثل هذا العدد من جوائز الاوسكار منذ عام ١٩٦١ حين فاز الفيلم الموسيقى الاستعراضى « قصة الحى الغربى » بعشر جوائز ٠ كما أصبح فيلم « الامبراطور الاخير » أول فيلم يفوز بجميع جوائز الاوسكار التى رشح لها منذ أن حقق الفيلم الموسيقى « جيجى » هذا الانجاز فى عام ١٩٥٨ ٠

وجاء فى المركز الثانى فيلم « واقع تحت تأثير القمر » الذى فاز بثلاث جوائز هى جائزة أفضل دور تقوم به ممثلة التى منحت للممثلة والمغنية شير وجائزة أفضل دور مساعد تقوم به ممثلة التى منحت للممثلة أوليمبيا دوكاكيس وجائزة أفضل سيناريو أصلى ٠ وقد فاز بجائزة افضل دور يقوم به ممثل النجم السينمائى مايكل دوجلاس عن دوره فى فيلم « شارع المال » ، ومنحت جائزة أفضل

دور مساعد يقوم به ممثل للنجم السينمائي البريطاني شيون كونيرى عن دوره في فيلم « المنبـــوذون » • وفاز بجائزة أفضل أغنية فيلم « رقص قذر » ، وفاز بجـــائزة أفضل مؤثرات بصرية فيلم « أعماق الفضـــاء » ، وفاز بجائزة أفضل ماكياج فيلم « هارى وأسرة هندرسون » •

ومن مفاجئات جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ فــوز الفيلم الدانماركي « وليمة بابيت » بجائزة أفضــل فيلم أجنبى ، متغلبا على الفيلم الفرنسى « وداعا أيها الاطفال » للمخرج المعروف لوى مال ، وهو الفيلم الذى كان مفضلا للفوز بالجائزة •

وتشير نتائج جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ الى أن فيلمين فازا باثنتى عشرة جائزة وأن ثمـــانية أفلام فقط تقاسمت جوائز الاوسكار الثمانى عشرة التي قدمت للافلام الروائية لعام ١٩٨٧ من بين اثنتين وعشرين جائزة • وقد قدمت جوائز الاوسكار الاربع الاخرى لافلام الرســـوم المتحركة والافـلام العادية القصـــيرة والافـلام الوثائقيـة الطويلة والقصيرة •

كما قدمت جائزة ارفنج ثالبيرج التذكارية للمخرج بيلى وايلدر ، ولكن لم تقدم فى هذا العام جائزة جين هيرشولت الانسانية أو جائزة جوردون سوير الفخرية ، لان الجوائز الفخرية ليست الزامية فى كل عام • كما لم تشتمل جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ على جـــائزة أفضـــل موسيقى تصويرية لاغنية أصلية ، وهى ثالث سنة على التوالى لاتقدم فيها هذه الجائزة • ويشترط فى هذه الجائزة أن تقـدم لمؤلف وملحن أو مجموعة مؤلفين وملحنين قامــوا بتأليف وتلحين خمس أغان أصلية فى نفس الفيلم ، وهو شرط لم

يستوفيه أى فيلم بين أفلام عام ١٩٨٧ ٠

وقد فشلت اربعة أفلام رشح كل منها لخمس من جوائز الاوسكار أو أكثر في الفوز بجائزة واحدة ، وهو أمر يندر حدوثه في أى سنة ٠ وهذه الافلام هى فيلم « أخبار تليفزيونية » ، وفيلم « امبراطورية الشمس » وفيلم « جاذبية قاتلة » وفيلم « أمل ومجد » ٠ ومن المفارقات أن نقادا كثيرين كانوا يتوقعون لفيلم « أخبار تليفزيونية » أن يهيمن على جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ ، وهو ما حققه فيلم « الامبراطور الاخير » ٠

الطابع العالمي لجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧

عند استعراض أسماء المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار لعام ١٩٨٧ يتضح لنا الشوط الذى قطعته جوائز الاوسكار خلال الستين سنة الماضية ، من صبغتها الامريكية الى طابعها العالمي ٠ واذا ما تذكرنا الحملة الضارية التى شنتها استديوهات هوليوود الكبرى في فترة الاربعينات ضد ترشيح الافلام البريطانية لجوائز الاوسكار ، وما حققته الافلام البريطانية وغيرها من الافلام الاجنبية من انجازات فى جوائز الاوسكار منذ ذلك الوقت، فاننا نرى ذروة تلك الانجازات في جوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ ، وهى جوائز تتخذ طابعا عالميا بمعنى الكلمة ٠

وتدل أسماء المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار لافلام عام ١٩٨٧ على أن أعضاء الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما يحكمون على المستوى الفنى للافلام السينمائية عند تصويتهم من منطلق فنى عالمى وأن

هوليوود تحررت من أغلال ضيق الافق التي كبلتها في الماضي .

ولعل أفضل مثل على ذلك ـ كما ذكرنا سابقا ـ انه ليس بين المخرجين الخمسة الذين رشحوا لجائزة الاوسكار لافضل مخرج لعام ١٩٨٧ مخرج أمريكي واحد . كما أن أربعة من الافلام الخمسة التي رشحت لجائزة أفضل فيلم من اخراج مخرجين أجانب . وقد رشحت هذه الافلام الاربعة مجتمعه لست وعشرين من جوائز الاوسكار . وبين هذه الافلام الاربعة فيلمان من انتاج أوروبى هما فيلم « الامبراطور الاخير » وفيلم « أمل ومجد » .

وقد أشار المخرج روبرت وايز رئيس الاكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما الى أن ترشيح أفلام مثل فيلم « الامبراطور الاخير » لتسع جوائز وفيلم « أمل ومجد » لخمس جوائز يدل دلالة قاطعة على نزاهة جوائز الاوسكار مشيرا الى أن أعضاء الاكاديمية يصوتون لافضل الافلام في رأيهم بصرف النظر عن آراء النقاد ومدراء الاستديوهات . وقال المخرج روبرت وايز انه كان من أنصار فكرة اعادة السماح بترشيح الافلام الاجنبية لجوائز الاوسكار لافضل فيلم تمشيا مع التاكيد على الطابع العالمي لجوائز الاوسكار

ومما يذكر أن الانظمة المتعلقة بترشيح الافلام الاجنبية لجوائز الاوسكار عدلت مرة أخرى في عام ١٩٨٧ ، وسمح فيها لاول مرة منذ عام ١٩٦٩ بترشيح الافلام الاجنبية لجائزة الاوسكار لافضل فيلم بالاضافة الى جائزة أفضل فيلم أجنبى . وكانت آخر مرة سمح فيها ذلك في عام ١٩٦٩ حين رشح فيلم « ز » ـ الذى قدم باسم الجزائر ـ لجائزة أفضل فيلم وجائزة أفضل فيلم أجنبى وفاز بجائزة أفضل فيلم أجنبى .

ترجمة لنص مقابلة مع السيد بروس ديفيس المدير الادارى للاكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما

أجريت هذه المقابلة فى ١٩٨٧/٦/٦ فى مكتب السيد ديفيس بمقر الأكاديمية فى لوس انجيليس

المؤلف : سيد ديفيس ، ما هى الأهداف الرئيسية للأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما ؟

ديفيس : للاكاديمية أهداف عديدة . معظم الناس يصابون بالدهشة حين يعلمون أن منح جوائز الاستحقاق للانجازات الفنية المتميزة لم يكن بين الأهداف الرئيسية للأكاديمية عند تأسيسها . الأهداف الأساسية للأكاديمية هى نشر المعرفة عن الافلام السينمائية ، سواء ضمن صناعة السينما ، اى بين الاشخاص العاملين فى انتاج الافلام السينمائية ، أو خارج نطاق صناع السينما ، اى بين رواد السينما . ومازال هذا الحافز من الحوافز الرئيسية لانتماء الفنانين الى عضوية الاكاديمية . ومازالت الجوائز العلمية والتقنية التى نقدمها ، والتى لا يعلم الجمهور الشىء الكثير عنها ، بالغة الاهمية بالنسبة للسينما كفن ، وذلك لأن السينما تختلف عن غيرها من الفنون ، من حيث أنها شكل فنى يعتمد اعتمادا كبيرا على العلوم والتكنولوجيا وعلى تطوير افلام وعدسات جديدة ، وما الى ذلك .

لذا فان المشاركة فى هذه المعرفة المقتصرة اساسا على الوسط الفنى السينمائى من الاهداف الرئيسية للأكاديمية . ولكن مما لاشك فيه أن منح جوائز الاوسكار على مر السنين أصبح فى نظر الجمهور من الأهداف الرئيسية للأكاديمية . وهو من الألويات بالنسبة لنا ايضا .

المؤلف : كما نعلم ، شهدت الاكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما تغيرات كثيرة وارغمت على التكيف مع

الظروف على مر السنين ، وخاصة في فترة الثلاثينات . هل لك ان تلقي بعض الضوء على هذا الجانب الهام من تاريخ الأكاديمية ؟

ديفيس : نعم ، اتخذت الأكاديمية منعطفا خاطئا في فترة الثلاثينات بالنظر لتدخلها في المشاكل المتعلقة بنقابات العمال التي كانت تواجه صناعة السينما كما كانت تواجه العالم الصناعي باسره في ذلك الوقت . ولذلك انخفض عدد أعضاء الأكاديمية الأميركية لفنون وعلوم السينما انخفاضا شديدا لفترة من الزمن ، وخاصة فى عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٤ . وعندئذ قامت الأكاديمية بتغيير قانونها الداخلي ، وتعهدت بعدم التدخل منذ ذلك الوقت في النزاعات العمالية أو القضايا السياسية بكافة اشكالها . وقد تمسكت بذلك بحرص شديد منذ ذلك الوقت ، وتجنب التدخل فى اية مسائل مسببة للشقاق بين فروع الأكاديمية ، وكللت جهودها فى هذا الصدد بالنجاح التام .

المؤلف : جوائز الأوسكار ، كما ذكرت ، هى ابرز النشاطات المعروفة للأكاديمية . فما الذى اكسب هذه الجوائز مثل هذه الأهمية على مر السنين ؟

ديفيس : سبب ذلك فى اعتقادى هو انها جوائز فريدة فى نوعها لأن الفنانين انفسهم هم الذين يمنحون الجوائز ، وبالتالى هم الذين يكرمون زملاءهم . وهناك جوائز عديدة تقدمها روابط نقاد السينما وغيرها من المؤسسات الصحفية او الجمهور نفسه . ولكن اصبح من المعروف منذ البداية أن الممثلين والمخرجين ومدراء المونتاج وغيرهم من الفنانين الخلاقين الذين يشتركون فى انتاج افلام كل عام يقومون بأمعان النظر فى الحصيلة السينمائية لذلك العام ويختارون مايعتبرونه أهم انجازات العام . واعتقد أن ذلك يحظى باحترام الجمهور .

المؤلف : ما الذى يعنيه الفوز بجائزة الأوسكار بالنسبة لممثل مثلا ؟

ديفيس : يعتز الممثل بجائزة الأوسكار لانه اختير لها من قبل غيره من الممثلين . كثيرا ما نسمع ، وهذا شيء صحيح بطبيعة الحال ، أن البعض يجد صعوبة في الاختيار بين ممثلين يقومان بدورين مختلفين ، أحدهما يقوم بدور كوميدي والآخر يقوم بدور جاد . ولذلك تصعب المقارنة بينهما . وقد قال شخص ما ان الطريقة المنصفة الوحيدة للمقارنة هي ان يقوم الجميع بنفس الدور - كهاملت مثلا - ثم نقرر أيا من الممثلين أجاد دور هاملت احسن من غيره . وهذا بطبيعة الحال شيء مستحيل . اننا نقر بوجود مثل هذه المشاكل ، ولكن لابد من التاكيد في الوقت ذاته على ان الترشيح بحد ذاته أصبح شرفا عظيما لأن أقران الفنانين وزملاءهم في العمل يمعنون النظر في عمل الممثل ويقولون انه أبلى بلاء حسنا في هذا العام في الدور او الأدوار التي اسندت اليه .

المؤلف : وما الذي يعنيه الفوز بجائزة الاوسكار بالنسبة لفيلم سينمائي ؟

ديفيس : اننا لسنا متاكدين من الوقع الاقتصادي على الفيلم الذي يفوز بجائزة الاوسكار . لكن بعض المؤسسات الأخرى أجرت دراسات بهذا الصدد تشير الى أن لفوز الفيلم بجائزة الأوسكار لافضل فيلم اثرا هاما على ايرادات شباك التذاكر . غير أن الأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما توخت الحرص على مر السنين وتفادت عن عمد تحري مثل هذه المسالة لأننا ننظر الى الجائزة كجائزة تعترف بعمل فني متميز ورفيع المستوى وليس شيئا مرتبطا بسعر معين . ولكن دعني أقول انه يسعدنا أن نعلم ان جوائز الأوسكار التي نمنحها تؤدي الى زيادة اقبال الجمهور على مشاهدة الأفلام التي تفوز بالجوائز . الا اننا لا نحتفظ باية احصائيات تتعلق بالعوامل الاقتصادية المقترنة بالفوز بجائزة الأوسكار .

المؤلف : كما أشرت وكما يعلم الجميع فان الفوز بجائزة

الأوسكار كان بمثابة قوة دفع هامة فى الحياة الفنية لمعظم الممثلين الذين فازوا بالجائزة . ولكن هناك بعض الحالات التى لم يتحقق فيها ذلك . هل لديك أى تفسير او تعليل لهذه الظاهرة ؟

ديفيس : لعلك تشير الى مايعرف "بنحس" الأوسكار . اننى فى الحقيقة لا أعرف سبب ذلك . وقد قيل ان ببعض الوكلاء او مدراء الأعمال المتحمسين يرفعون اجر الممثل الى درجة غير معقولة بعد فوزه بجائزة الأوسكار ، وبالتالى يصعب حصول الممثل على ادوار سينمائية لانه زاد اجره على الحد المعقول . ولكن اذا عدنا الى الماضى نجد صعوبة كبيرة فى العثور على أى ممثل عانى من هذا "النحس" . وقد سمعت الكثيرين يرددون اسم الممثلة لويز راينر فى الماضى كمثال على ذلك . ولكن الحقيقة هى انها قررت النزوح الى اوروبا بعد فترة قصيرة من فوزها بجائزة الأوسكار للسنة الثانية على التوالى . فهذا اذن قرار اتخذته بنفسها ، ولم تكن ضحية سوء طالع او ما شابه ذلك .

المؤلف : كما نعلم ، هناك ثلاث روايات مختلفة عن اصل اسم "الاوسكار" . وهناك ثلاثة يدعى كل منهم انه مصدر الاسم ، وهم مارجريت هيريك الأمينة السابقة لمكتبة الأكاديمية ، والممثلة بيتى ديفيس ، والمعلق الصحفى سيدنى سكولسكى . فما هو الموقف الرسمى للأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما من ذلك ؟

ديفيس : الموقف الرسمى للأكاديمية هو اننا غير متأكدين ومن المثير للاهتمام أن بيتى ديفيس تدعى انها قالت ان مؤخرة تمثال جائزة الأوسكار تذكرها بمؤخرة زوجها . وفعلا كان لبيتى ديفيس زوج اسمه الأوسط اوسكار . ويقال ان مارجريت هيريك نظرت الى التمثال وقالت انه يشبه عمها اوسكار . وفعلا كان

لها عم اسمه اوسكار . وكما نرى فان هناك حقائق تدعم كلا من هاتين الروايتين . والشخص الثالث الذى يدعى انه مصدر الاسم هو سيدنى سكولسكى . وهناك دلائل على انه نشر شعبية استخدام اسم "الاوسكار" فى عموده الصحفى . ولكن الحقيقة هى انننا لا نعلم على وجه اليقين من هو صاحب الفضل فى هذه التسمية . الا أن الشىء المثير للاهتمام هو أن الأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما شعرت بالخجل من هذه التسمية للجائزة فى البداية وحاولت الحيلولة دون انتشارها ، ولكنها حين أدركت فيما بعد ان الاسم ادى الى انتشار شعبية الجوائز نفسها قررت تبنى الاسم ، بل ان الأكاديمية قامت بتسجيل اسم "الأوسكار" فى حق التاليف والطبع والنشر" .

المؤلف : لا أستطيع ان اجد اى مصدر يشير الى السنة التى شاع فيها اسم "الاوسكار" لجوائز الأكاديمية . فهل لديك بحكم منصبك مصدر لذلك ، أو هل تذكر السنة التى تبنت فيها الأكاديمية اسم "الاوسكار" لجوائزها ؟

ديفيس : لا . لم نستطع تحديد ذلك الموعد بالضبط . ولكن اقرب موعد لانتشار اسم "الأوسكار" هو عام ١٩٣٢ او عام ١٩٣٣ . ويبدو أن الاسم لم يستخدم فى السنوات الاربع الأولى من عمر الأكاديمية ، واطلق على الجوائز آنذاك اسم جوائز الاكاديمية للاستحقاق ، وهو الاسم الفعلى لها حتى هذه الأيام . ولكن فى حوالى عام ١٩٣٣ أصبحت تعرف بجوائز الأوسكار . الا اننا غير متاكدين على وجه التحديد من العام الذى اطلق فيه اسم "الأوسكار" على الجوائز .

المؤلف : كيف ينظر اعضاء هيئة موظفى الأكاديمية عادة الى أسماء المرشحين والفائزين بجوائز الأوسكار ، وما هو مدى اهتمامهم بها ؟

ديفيس : اننا كموظفين دائمين فى الاكاديمية الأميركية

لفنون وعلوم السينما نظهر بطبيعة الحال اهتماما كبيرا بالانجازات الفنية المختلفة ، وكغيرنا من الناس ، نميل الى مرشحين معينين ونتوقع فوزهم . والشيء المثير للاهتمام هو ان قوائم المرشحين والفائزين لا ترضى احدا من اعضاء الأكاديمية . ويبدو ان الجمهور يميل الى نسيان ذلك . فلنا جميعا مرشحون مفضلون لا نجدهم على قوائم الترشيح ، وقد نجد احيانا مرشحين للجوائز لم نكن نتوقع ان يرشحوا لها . وبما ان عدد اعضاء الأكاديمية الذين يصوتون للمرشحين والفائزين يزيد على ٤٠٠٠ شخص ، فليس هناك عضو واحد تتحقق توقعاته كاملة . الا ان ذلك لا يمنعنا من مراقبة التطورات بشغف واهتمام كبير .

اصحاب الأرقام القياسية فى الفوز بجوائز الأوسكار فى جميـع الفئات

اكبر عدد لجوائز الأوسكار فى فيلم واحد	فيلم بن هير	١١
افضل دور يقوم به ممثل	جارى كوبر ، مارلون براندو فريدريك مارش ، سبنسر تراسى	٢
افضل دور تقوم به ممثلة	كاثرين هيبيرن	٤
افضل دور مساعد يقوم به ممثل	والتربرينلن	٣
افضل دور مساعد تقوم به ممثلة	شيلى ونترز	٢
افضل مخرج	جون فورد	٤
افضل كاتب	بيلى وايلدر	٣
افضل مصور	جوزيف روتنبيرج ، روبرت سورتيز	٣
افضل مصممة ازياء	ايدث هيد	٨
افضل مدير فنى	سيدريك جيبونز	١٠
افضل مهندس ديكور	ادوين ويليس	٨
افضل مدير مونتاج	رالف دوسون ، دانيال مانديل	٣
افضل فيلم اجنبى	فرنسا	٨
افضل موسيقى	الفريد نيومان	٩
افضل اغنية	سامى كان ، جونى ميرسر	٣
افضل مهندس صوت	دوجلاس شيرر	٥
افضل مؤثرات خاصة ومؤثرات بصرية	خاصتل . ب . ابوت ، ارنولد جيليسبى	٤
افضل مؤثرات صوتية	دوجلاس شيرر	٢
افضل افلام قصيرة	والت دزنى	١٢
افضل افلام وثائقية	والت دزنى	٤
اكبر عدد من الجوائز الفخرية	بوب هوب	٥
جائزة ارفنج ثالبيرج	داريل زانوك	٣
افضل جوائز علمية أو فنية	شركة بارامونت السينمائية	٢٨
اكبر عدد من الجوائز بمختلف فئاتها	والت دزنى	٣٠

الأفلام الفائزة بأكبر عدد من جوائز الأوسكار

الفيلم	سنة الانتاج	عدد جوائز الأوسكار
بن هير	١٩٥٩	١١
ذهب مع الريح	١٩٣٩	١٠
قصة الحى الغربى	١٩٦١	١٠
جيجى	١٩٥٨	٩
غاندى	١٩٨٢	٩
الامبراطور الأخير	١٩٨٧	٩
من هنا إلى الابد	١٩٥٣	٨
ذئاب الميناء	١٩٥٤	٨
كباريه	١٩٧٢	٨
جسر على نهر كواى	١٩٥٧	٧
لورنس العرب	١٩٦٢	٧
سيدتى الجميلة	١٩٦٤	٧
باتون	١٩٧٠	٧
اللدغة	١٩٧٣	٧

أرقام قياسية سجلتها الأفلام الفائزة بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم

الفيلم الذى حقق أعلى الايرادات (بالقيمة الثابتة للدولار) فيلم ذهب مع الريح (١٩٣٩)

أطول فيلم : لورنس العرب (١٩٦٢) - ٣ ساعات و ٤٢ دقيقة .

أكبر عدد من الترشيحات : فيلم كل شىء عن حواء (١٩٥٠) - ١٤ ترشيحا

أكبر عدد من جوائز الأوسكار : فيلم بن هير (١٩٥٩) - ١١ جائزة

أقل عدد من الترشيحات : فيلم أوتيل جراند (١٩٣٢/١٩٣١) - ترشيح واحد

أقل عدد من جوائز الاوسكار : فيلم لحن برودواى (١٩٢٨/١٩٢٩) ـ جائزة واحدة

فيلم أوتيل جراند (١٩٣١/١٩٣٢) ـ جائزة واحدة

فيلم تمرد على السفينة باونتى (١٩٣٥) ـ جائزة واحدة

أطول عنوان : فيلم احدهم حلق فوق عش الوقواق (١٩٧٥)

أقصر عنوان : فيلم جيجى (١٩٥٨)

أول فيلم غير أمريكي يفوز بجائزة الأوسكار : فيلم هامليت (١٩٤٨) ـ بريطاني

الفيلم الصامت الوحيد الفائز بجائزة الأوسكار : فيلم أجنحة (١٩٢٧/١٩٢٨)

أول فيلم بالالوان : فيلم ذهب مع الريح (١٩٣٩)

الافلام المرشحة لأكبر عدد من جوائز الأوسكار وغير الفائزة أو الفائزة بجائزة واحدة فقط

الفيلم	سنة الانتاج	عدد الترشيحات	عدد الجوائز
جونى بيلندا	١٩٤٨	١٢	١
بكيت	١٩٦٤	١٢	١
مستر سميث يذهب إلى واشنطن	١٩٣٩	١١	١
الحى الصينى	١٩٧٤	١١	١
نقطة التحول	١٩٧٧	١١	٠
اللون الارجوانى	١٩٨٥	١١	٠
العملاق	١٩٥٦	١٠	١
[illegible]	١٩٧٠	١٠	١
المواطن كين	١٩٤١	٩	١
لمن تقرع الاجراس	١٩٤٣	٩	١

منذ ان تركتني	١٩٤٤	٩	١
كوو فاديس	١٩٥١	٨	٠
حصى الرمل	١٩٦٦	٨	٠
تمرد على السفينة باونتي	١٩٦٢	٧	٠

الممثلون والممثلات المرشحون لأكبر عدد من جوائز الاوسكار والفائزون بجائزة الاوسكار

الممثل او الممثلة	عدد الترشيحات	عدد مرات الفوز
كاثرين هيبيرن	١٢	٤
لورنس اوليفييه	١٠	١
بيتي ديفيس	١٠	٢
سبنسر تراسي	٩	٢
جاك نيكولسون	٩	٢
جاك ليمون	٨	٢
جيرالدين بيج	٨	١
مارلون براندو	٧	٢
ميريل ستريب	٧	٢
جرير جارسون	٧	١
بول نيومان	٧	١
نورما شيرر	٦	١

الممثلــون المرشحــون لأكبر عــدد من جوائز الاوسكار دون الفوز بالجائزة

اسم الممثل	عدد الترشيحات
بيتر أوتول	٧
ريتشارد بيرتون	٧
ال باشينو	٥
أرثر كيندى	٥
مونتجمرى كليفت	٤
البيرت فينى	٤
تشارلز بوييه	٤

الممثلات المرشحات لأكبر عدد من جوائز الأوسكار دون الفوز بالجائزة

اسم الممثلة	عدد الترشيحات
ديبوراه كير	٦
ثيلما ريتر	٦
ايرين دان	٥
أجنس مورهيد	٥
باربرا ستانويك	٤
جريتا جاربو	٤
روزاليندا راسيل	٤

ممثلون وممثلات فازوا بجائزة أفضل ممثل أو ممثلة وجائزة أفضل دور مساعد

	جائزة افضل ممثل أو ممثلة	جائزة افضل دور مساعد
١ - جاك ليمون	فيلم أنقذ النمر (١٩٧٣)	فيلم مستر روبرتس (١٩٥٥)
٢ - روبرت دينيرو	فيلم الثور الهائج (١٩٨٠)	فيلم العراب - الجزء الثاني (١٩٧٤)
٣ - جاك نيكلسون	فيلم احدهم حلق فوق عش الوقواق (١٩٧٥)	فيلم شروط المحبة (١٩٨٣)
٤ - انجريد بيرجمان	فيلم نور الغاز (١٩٤٤) فيلم انستاسيا (١٩٥٦)	فيلم جريمة على قطار الشرق السريع (١٩٧٤)
٥ - هيلين هيز	فيلم خطيئة مادلين كلوديت (١٩٣٢/٣١)	فيلم مطار (١٩٧٠)
٦ - ماجي سميث	فيلم شباب مس جين برودي (١٩٦٩)	فيلم جناح في كاليفورنيا (١٩٧٨)
٧ - ميريل ستريب	فيلم اختيار صوفيا (١٩٨٢)	فيلم كريمر ضد كريمر (١٩٧٩)

اكبر وأصغر الممثلين والممثلات
الفائزين بجائزة الأوسكـــــار

اكبر ممثل سنا يفوز بجائزة افضل دور يقوم به ممثل هنرى فوندا ـ ٧٦ سنة

اصغر ممثل سنا يفوز بجائزة افضل دور يقوم به ممثل ريتشارد درايفس ـ ٢٩ سنة

اكبر ممثلة سنا تفوز بجائزة افضل دور تقوم به ممثلة كاثرين هيبرن ـ ٧٤ سنة

أصغر ممثلة سنا تفوز بجائزة افضل دور تقوم به ممثلة جانيت جيتور ـ ٢٢ سنة

اكبر ممثل سنا يفوز بجائزة افضل دور مساعد يقوم به ممثل جورج بيرنز ـ ٨٠ سنة

اصغر ممثل سنا يفوز بجائزة افضل دور مساعد يقوم به ممثل تيموثي هتون ـ ١٩ سنة

كبر ممثلة سنا تفوز بجائزة افضل دور مساعد تقوم به ممثلة روث جوردون ـ ٧٢ سنة

اصغر ممثلة سنا تفوز بجائزة افضل دور مساعد تقوم به ممثلة تاتوم أونيل ـ ١٠ سنوات

المخرجان الوحيدان الفائزان بجائزة
الأوسكار عن أول فيلم من إخراجهمـــا

١ ـ ديلبيرت مان عن فيلم مارتي (١٩٥٥)
٢ ـ روبرت ريدفورد عن فيلم اشخاص عاديون (١٩٨٠)

الشخصـــان الوحيـدان الحـاصـلان على أربعـة
ترشيحـات لجائـزة الأوسكار عن نفـس الفيلم

١ ـ أورسون ويلز ـ فيلم المواطن كين تمثيل ، اخراج ، سيناريو ، انتاج

٢ ـ وارين بيتي ـ فيلم الجنة تنتظر تمثيل ، اخراج ، سيناريو ، انتاج

ممثلات رشحن لأفضل دور تقوم به ممثلة وأفضل دور مساعد تقوم به ممثلة فى نفس العام

	العلم	افضل دور	افضل دوز مساعد
١ - فاى بينتر	١٩٣٨	الرايات البيضاء	جيزيبيل (فوز بالجائزة)
٢ - تيريزا رايت	١٩٤٢	كبرياء فريق اليانكيز	مسز منيفر (فوز بالجائزة)
٣ - جيسيكا لانج	١٩٨٢	فرانسيس	توتسى (فوز بالجائزة)

الممثل الوحيد الذى رشح لجائزة أفضل دور يقوم به ممثل وأفضل دور مساعد يقوم به ممثل فى نفس العام وعن نفس الفيلم

	العام	افضل دور	افضل دور مساعد
بارى فيتزجيرالد	١٩٤٤	فيلم ذاهب فى طريقى	فيلم ذاهب فى طريقى (فوز بالجائزة)

أعضاء من نفس الأسرة فازوا بجائزة الأوسكار

١ - ليونيل باريمور : جائزة افضل دور يقوم به ممثل (١٩٣٠/١٩٣١)
وشقيقته اثيل باريمور : جائزة افضل دور مساعد تقوم به ممثلة (١٩٤٤)
الأخ والأخت الوحيدان الفائزان بجائزة الاوسكار.

٢ - أوليفيا ديهافيلاند : جائزة أفضل دور تقوم به ممثلة (١٩٤٦ و١٩٤٩)
وشقيقتها جون فونتين : جائزة افضل دور تقوم به ممثلة (١٩٤١)
الشقيقتان الوحيدتان الفائزتان بجائزة الأوسكار.

٣ ـ جون هيوستن : جائزة افضل مخرج (١٩٤٨)
ووالده والتر هيوستن : جائزة افضل دور مساعد يقوم به ممثل (١٩٤٨)
وابنته انجيليكا هيوستن : جائزة افضل دور مساعد تقوم به ممثلة (١٩٨٥)
أول ثلاثة اجيال فى أسرة واحدة يفوزون بجائزة الأوسكار .
٤ ـ فرانسيس فورد كوبولا : جائزة افضل مخرج (١٩٧٤)
ووالده كارماين كوبولا : جائزة افضل موسيقى تصويرية لفيلم دراما (١٩٧٤) .
٥ ـ هنرى فوندا : جائزة افضل دور يقوم به ممثل (١٩٨١)
وابنته جين فوندا : جائزة افضل دور تقوم به ممثلة (١٩٧١ و١٩٧٨) .
٦ ـ فنسنت مينيلى : جائزة افضل مخرج (١٩٥٨)
وابنته لايزا مينيلى : جائزة افضل دور تقوم به ممثلة (١٩٧٢) .
٧ ـ جيمس جولدمان : جائزة افضل سيناريو (١٩٦٨)
وشقيقه وليام جولدمان : جائزة افضل سيناريو (١٩٦٩ و ١٩٧٦) .
٨ ـ هيرمان مانكيويكز : جائزة افضل سيناريو أصلى (١٩٤١)
وشقيقه جوزيف مانكيويكز : جائزة افضل مخرج وجائزة افضل سيناريو (١٩٤٩ و ١٩٥٠) .

● مراجع عربية

- مقالات في عدة مجلات سينمائية وصحف امريكية
● أمريكان فيلم
● فيلم كومنت
● واشنطن بوست
● نيويورك تايمز
● لوس أنجيلوس تايمز

● مراجع اجنبية

— OSCAR – A PICTORIAL HISTORY OF THE ACADEMY AWARDS by Thomas Simonet
— HISTORY OF THE OSCARS by Daniel and Susan Cohen
— 50 GOLDEN YEARS OF OSCAR by Robert Osborne
— INSIDE OSCAR – THE UNOFFICIAL HISTORY OF THE ACADEMY AWARDS by Mason Wiley and Damien Bona
— THE REAL OSCAR by Peter H. Brown
— OSCAR DEAREST by Peter H. Brown and Jim Pinkston
— VARIETY PRESENTS : THE COMPLETE BOOK OF MAJOR US SHOW BUSINESS AWARDS by Mike Kaplan.

الهلال ٩٦

ستة وتسعون
عامًا من عمر المجلة

سبتمبر ١٩٨٨ ٦٠ قرشا

١٨٩٢ الهلال AL-HILAL ١٩٨٨

■ السينما والمستقبل جزء خاص

■ غنائيات تحية حليم: مصريون نسائية

الهلال : النافذة الثقافية على الوطن العربي

فهـــرس

ص

مقدمة ٧
العوامل المتعددة لأهمية جائزة الأوسكار ٩
تأسيس الأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما ١٧
اهداف الاكاديمية وجوائز الاوسكار ١٩
مولد جوائز الاوسكار ٢٣
اختيار المرشحين والفائزين بجوائز الاوسكار ٣١
منظمة مستقلة تشرف على عدّ الاصوات ٣٤
تمثال الاوسكار ٣٨
كيف جاء اسم اوسكار ٤٠
جائزة أفضل فيلم ٤٢
الأفلام ذات المواضيع الحربية فى المقدمة ٤٩
جائزة أفضل ممثل ٥٢
جائزة أفضل ممثلة ٦٢
كاثرين هيبرن وجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة ٦٧
اللهجات والشخصيات الأجنبية وجوائز التمثيل المساعدة .. ٧٧
جائزة أفضل مخرج ٧٨
جائزة أفضل كاتب ٨٤
المخرجون ـ الكتاب ٨٧
جائزة أفضل فيلم اجنبى ٨٩
جوائز الأوسكار للموسيقيين والملحنين ٩٥
اهمية الموسيقى التصويرية في الأفلام السينمائية ٩٩
جوائز الأوسكار للعاملين وراء الكواليس ١٠٥
جائزة الأوسكار والتصوير السينمائى ١٠٧
ايدث هيد ملكة مصممى الأزياء وجوائز الأوسكار ١١٠
جوائز الأوسكار والمؤثرات الخاصة ١١٢

جوائز الأوسكار للأفلام القصيرة ١١٦
هيمنة والت ديزنى على جوائز الاوسكار للافلام القصيرة
والوثائقية ١١٨
جوائز الاوسكار للافلام الوثائقية ١٢٠
جوائز الاوسكار العلمية والفنية ١٢٤
جوائز الاوسكار الفخرية ١٢٧
أثر التليفزيون في انتشار شعبية جوائز الاوسكار ١٣٦
اسطورة نحس الأوسكار ١٤٤
الصراع على جائزة الأوسكار ١٥٤
جوائز الاوسكار والافلام البريطانية ١٦٥
المخرج فرانك كابرا وجائزة الأوسكار ١٧٢
المخرج ستيف سبيلبرج وجائزة الأوسكار ١٨١
جوائز الأوسكار لعام ١٩٨٧ .... ١٨٧
عملية اختيار المرشحين والفائزين لجوائز الاوسكار لأفلام
عام ١٩٨٧ مع تسلسلها الزمنى ١٨٩
ترجمة لنص مقابلة مع السيد بروس ديفيس المدير
الادارى للأكاديمية الامريكية لفنون وعلوم السينما ٢٠١
عدد من القوائم الاحصائية المفصلة المتعلقة بجوائز الأوسكار ....
.... ٧

رقم الايداع : ٥٢٤٦ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى : ١ ـ ٣٧٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

هــــــــذا
الــــكـتـــاب

يسعدني أن أقدم للقارىء العربي لأول مرة كتابا باللغة العربية عن جوائز الأوسكار العالمية فمما لاشك فيه ان جوائز الأوسكار السينمائية والتي تمنحها سنويا اكاديمية العلوم والفنون السينمائية الأمريكية لاحسن الافلام وافضل الممثلين والممثلات واحسن الفنيين ومبدعي الصور المتحركة من الامريكيين او الاجانب هي من أهم الجوائز العالمية واكثرها شهرة ودعاية ولا أغالي اذا قلت انها اشهر من جوائز - نوبل - وبوليتزر وذلك بفضل الدعاية المكثفة التي تحيط بهذه الجوائز والحفلات الضخمة التي تقيمها الأكاديمية لتوزيع هذه الجوائز ويحضرها أكبر عدد من الشخصيات المعروفة ويترقبها الفنانون في جميع انحاء العالم وينتظرون نتائجها ويتحمسون لها سواء رضوا عن هذه النتائج أم خيبت أمالهم . وبالرغم من ان مايكتب وينشر يوميا على صفحات المجلات والجرائد ومايذاع عن طريق الاذاعة أو التلفزيون من معلومات شيقة عن هذه الجوائز يتابعها القارىء والمتفرج والمستمع بشغف ولهفة فإن مؤلف الكتاب الأستاذ محمود الزواوى استطاع ان يضمن كتابه الكثير من الخفايا التى تدور فى كواليس الأكاديمية قبل وأثناء وبعد توزيع الجوائز فبجانب المعلومات الدقيقة عن الأكاديمية ونشأتها واسماء الفنانين والفنيين الذين حصلوا على هذه الجائزة منذ نشأتها سنة ١٩٢٧ حتى اليوم استطاع المؤلف أن يغوص فى أعماق الأكاديمية ويكشف الكثير من اسرارها وخفاياها ومايدور فى الكواليس من مؤامرات واتفاقات قبل ظهور النتائج ومايصاحب هذه النتائج من مشاكل ومشاحنات فى سبيل انجاح الفيلم وامتاع المتفرج لا ان تكون وسيلة للدعاية والمظاهر الفارغة .

ويهمني قبل ان اختم هذه الكلمة ان أشيد بمؤلف الكتاب الأستاذ محمود عبدالرحمن الزواوى وهو حاليا رئيس القسم العربي لاذاعة صوت أمريكا في واشنطون فقد بذل مجهودا طيبا واستطاع ان يوفر للمكتبة العربية مصدرا هاما من مصادر المعرفة في موضوع شيق يفيد القارىء وخاصة المهتمين بالفن السينمائي وينمي معلوماتهم وأتمنى ان يتحفنا بكتب اخرى تضاف الى المكتبة السينمائية العربية .

المخرج صلاح أبو سيف

١٢٥ قرشا

لا للعنف

دراسة علمية
في تكوين
الضمير الإنساني

د. سيد عويس

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ ، سبعة خطوط
KITAB ALHILAL
العدد ٤٥٤ - صفر ١٤٠٩ - اكتوبر ١٩٨٨
NO · 454 — october 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
محمـد أبـو طالـب

لا .. للعنف

دراسة علمية
فى تكوين
الضمير الانسانى

بقلم

د. سيد عويس

دار الهلال

المقدمة

أرجو ان يوافقني القارىء الكريم على ان مطلب « السلام » للانسانية مطلب يرحب به كل ذى عقل راجح ، وان مطلب « العنف » للانسانية مطلب مدمر ولا يقره ذو عقل راجح .

والملاحظ ان الانسانية قد عانت من العنف على مر التاريخ منذ وجد الانسان على وجه الارض الوانا واشكالا .. وكان الافراد الاقوياء يستخدمون اساليب العنف الرهيبة لكى يحققوا مصالحهم ضد كل انسان يعارضهم سواء كانت هذه المصالح مادية او معنوية . حدث كل ذلك عندما كان الانسان فى الكهوف او كان عضوا فى قبيلة او اداة طيعة فى يد الاستعمار بكل الوانه .

وكانت اساليب العنف التى تستخدم عديدة ، ولعل اسلوب القتل كان احدها ، والحروب التى لاتفرق بين المحاربين وغير المحاربين قد اشتعلت منذ ان اشتعلت وفى جعبة القوى الاسلحة المدمرة .. التى تفتك بالاضعف دون ما ذنب او جريرة الا ان يكون قد يطالب بحقه فى الحياة .. وقد يشكل هذا المطلب عقبة فى سبيل طمع الاقوياء او جشعهم .

وقد عاصرت حربين عالميتين الاولى والثانية ، وعشت مع اعضاء اسرتى وساكنى الحى الذى اعيش فيه العنف والظلم والظلام والاظلام جميعا . وفى ضوء هذه الخبرات أكتب الكتاب الحالى وموضوعه « لا .. للعنف » .

وأرجو أن يتفضل القارىء الكريم بملاحظة ان عنوان هذا الكتاب مستعار من الرسالة التى تفضل « قداسة البابا بول السادس » بالقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى اول شهر يناير عام ١٩٧٨ . وتتضمن هذه الرسالة الانسانية ضمن ماتتضمن الدعوة الى ابناء المعمورة كلهم ، دون ماتفرقة بين الدين والجنس والنوع ، لكى يعيشوا فى سلام ، والسلام كما يراه قداسته ، هو مفهوم يشع الجلال والبهاء والوداعة . ومن أجل ذلك فهو مفهوم ممجّد والانسانية فى حاجة ماسة الى تحقيقه على الأرض ، وبكل تواضع محمود قال قداسته فى رسالته الانسانية ان « السلام » ليس من اختراعنا وانما اتانا من « المملكة غير المنظورة » مملكة السماء . اننا نحس بسموها عندما نتلو متواضعين ونكرر هذه التلاوة :

« المجد لله فى الاعالى وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » (لوقا ٢ : ١٤)

ويذكر قداسته تأييده للسلام اذ يقول : « يجب ان يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا » . انه بلاغ للناس وان هذا البلاغ يتجدد فهو بشارة عظيمة ، انه ايضا بشارة منذ بزوغ عام ١٩٧٨ وعلى مر الزمان للناس قاطبة . فالسلام عطية تعطى ويجب ان تعطى لكل الناس الذين يستطيعون بل يجب ان يستطيعوا قبولها ، ويضعونها فوق قمة ارواحهم وبرامجهم وآمالهم فضلا عن سعادتهم . فالسلام ليس حلما مثاليا او انه مجرد شىء جذاب لايتحقق . ان السلام هو ، بل يجب ان يكون ، حقيقة ـ حقيقة دينامية وان يسود فى كل مرحلة من مراحل الحضارة ، انه الخبز الذى لانعيش الا به ، وهو ثمرة الارض التى نحيا على اديمها ، بل

هو ثمرة « العناية الالهية » ، وهو ايضا نتاج العمل الانسانى .

والسلام ماهو الا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل ، انه الذكاء والشجاعة الحية ، ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو أعضاء المجتمعات الانسانية ، الرجال منهم والنساء ، وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى انماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الانسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين ام من الناشرين أم من الفنانين أم الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والاعلام أم من المدرسين فى مدارسهم ، أم من مدرسى الفن والدعاة الى الصلاة فضلا عن المخططين وعمال اسواق الاسلحة فى العالم ـ نرجو الجميع بلا استثناء ان يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الامين الكريم من اجل سيادة السلام فى عالم اليوم .

وتقويم السلام لكى يسود لايختلف عليه اثنان من ذوى العقول الراجحة ومن الذين يملأ صدورهم الايمان ، ونجد فى وقتنا الراهن من يحاول ان يرفع رايته فى « منظمة الأمم المتحدة » وبخاصة فى « الجمعية العامة » ، لهذه المنظمة التى عقدت اجتماعا خاصا لمناقشة مشكلة نزع السلاح . ومع ذلك فاننا نلاحظ مع الاسف الشديد ان ظاهرة الازدواجية ترفع رايتها فى عالمنا المتمدين فى الوقت الراهن ، حيث نلاحظ ظاهرة الحماس المتعمد لظاهرة العنف . ويرجع وجود ظاهرة العنف ، بالضرورة الى الفساد الذى يستشرى فى الضمير الاخلاقى الذى لم يدرب التدريب السوى ولم يساعد بتحقيق ذلك الهدف النبيل . بل على العكس نجد أن التفاؤل الاجتماعى يتبدد روحيا وذوقيا مما يؤدى الى عدم الالتزام

بالامانة من أجل الأمانة ، وبكل ماهو جميل وسعيد فى القلب الانساني : أي مايملأ القلب الانسانى بالمحبة الحقيقية النبيلة الصادقة.

والمعلوم ان العنف كظاهرة لايمكن ان يعنى ابدا الشجاعة انه مجرد انفجار او تبديد اعمى للطاقة التى تنحط بالانسان الذى يباهى باستخدامه ، الى مستوى الانفعال النفسانى المزرى ، والملاحظ ان العنف هو نشاط غير اجتماعى وذلك لانه يستخدم اساليب .. نفس الاساليب .. التى تسمح له لكى يسبب ارتكاب الجرائم .. ومن ثم فالسكوت على حدوثه يعنى مؤامرة صامتة ضد الانسانية .. فهو اى العنف يتلاعب اذ يخون العمليات القانونية العادية فضلا على ان من يستخدمونه يعملون بالقوة على تفادى التدابير الاجرامية التى تنحط الى مستوى اعمال الارهاب التى لاترحم .

وقد تضمنت الرسالة البابوية ايضا بعض التحذيرات اذ تقول ان العنف هو عدو للسلام ، وان الحروب المحلية والقومية ومايتخللها من الوان من العنف التى تسبب الكوارث للآمنين والمحاربين على السواء ، كما تضمنت التأكيد على أن معنى « نعم » للسلام يتسع ليكون « نعم » للحياة ، وأن السلام لايجب ان نذكره ونحن نخوض المعارك الحربية فحسب بل نذكره حيثما وجد الانسان . وان هناك ـ بل يجب ان يكون ـ السلام الذى لايحمى فقط هذا الوجود من التهديدات التى تسببها اسلحة الحرب فقط ولكن ليحمى ايضا الحياة ضد كل خطر وكل النكبات وكل هجوم غادر .

ان حفظ الحياة هو هدف الاهداف .. ان رحم الام ومهد الطفل هما اول الحضنين اللذين ليس فقط يحميان السلام ولكنهما ايضا يحميان الحياة بل ويبنيان قواعد السلام :

« هو ذا البنون ميراث من الرب ثمرة البطن أجرة »
(مزمور ١٢٧ : ٣)

والذى يختار السلام ويعارض الحرب والعنف ، يختار آليا الحياة ، والاهتمام بمتطلباتها الضرورية .

وقد اعلنت الرسالة التى كتبت خصيصا بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى المشار اليه انفا فى يوم ٨ من شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ ، وتفضل الأخ الاستاذ الدكتور ميشيل فرح باعطائها لى لكى ادرسها واكتب فى ضوئها دراسة القيها فى احتفال « لجنة العدالة والسلام » فى تمام الساعة السادسة والنصف مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل ، شارع بنك مصر القاهرة .

ولما كنت اصغر مقاما من المتحدثين اللذين تفضلا بقبول الحديث فى هذه المناسبة وهما قداسة البابا شنودة والاستاذة الدكتورة سهير القلماوى ، فقد بدأت حديثى وتفضلت الاساتذة الدكتورة سهير القلماوى فألقت حديثها بعدى ، وكان ختام الاحاديث ختام مسك تفضل قداسة البابا شنودة الثالث بالقائه .

وكان الحضور جما غفيرا شرفه بعض الاباء القساوسة كما شرفه المريدون والاب الكبير بطريرك الاقباط الكاثوليك ورئيس لجنة العدالة والسلام والسادة اعضاؤها .

ومهما يكن من الامر فان الموضوعات المدونة فى الكتاب الحالى تتضمن عدا المقدمة والخاتمة مايلى :

أولا : من مفاهيم الدراسة الحالية .
ثانيا : دراسة عن السلوك الانسانى
ثالثا : امثلة حية معاصرة عن بعض انماط العنف

رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض انماط العنف .
خامسا : العمل من اجل السلام .

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ ان هذه الموضوعات قاصرة عن تحقيق اهداف مايجب ان يتضمنه الكتاب الحالي . وانني اذا اعترف بذلك ارجو ملحا ان يغفر لي هذا القصور . فالموضوع الذي يتحدث عنه الكتاب الحالي هو كما ذكرت من قبل موضوع الحياة بحلوها ومرها وبنسيمها واعاصيرها . وانني في خبراتي المحدودة لا استطيع ان الم بكل عناصره العديدة التي وجدت على الأرض ماوجدت الحياة ، حياة الانسان أشرف المخلوقات :

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (ك الاسراء : ٧٠)

ومهما يكن من الامر ايضا فالرجاء ان يتقبل القارىء الكريم .. هذا الكتاب قبولا حسنا ، وليعلم انني على الرغم من الوان شقاء الانسان من الوان العنف التي تنفث العداوة حيث نجد الصراع بينها وبين الوان السلام العادل والسلام الروحي ، فان التفاؤل يجب ان يكون ديننا .. ففي ضوء الخبرات الانسانية نلاحظ ان الشر لاينتصر باستمرار وان الوان السلام ، وان توارت عوامل وجودها ، عندما تكون الظروف الاقتصادية والسياسية والتسلط الغاشم والقوة المستبدة تبدو انها السائدة ، تنتظر الظروف المواتية لكي تظهر وتسود .

واكرر قولي انه في ضوء خبراتي المحدودة لا استطيع ان ألم بكل العناصر العديدة لموضوعات هذا الكتاب ، اذ كتبت ما

كتبت عنها ، فانني كتبتها بوصفى «ياء» المفكرين المصريين فى المجتمع المصرى المعاصر .

ولايسعنى وقد عرضت موضوعات الكتاب الحالى فى الصفحات التالية الا ان اتقدم بالشكر العميق الخالص الى اعضاء اسرتى الكريمة : زوجتي وابنتى آمال وتيسير وابنائى احمد وسمير ومسعد على تشجيعى للقيام بتأليفه وبخاصة فى الظروف التى اواجهها فى حياتى الراهنة التى تعنى كبر السن والتى تظللها ظلام عدم الوفاء الدامس .. فكان لهذا التشجيع الانسانى الرائع الحافز الاكبر لأعيش .. وان اكتب ما كتبت ، حياة مشرقة ارجو من الصميم ان تكون مثمرة لاعضاء المجتمع المصرى الخالد الذين يعملون جاهدين على ارساء قواعد السلام العادل .

ولن انسى ماحييت فضل السيدة الزا ثابت التى لولا حفزها لى ماديا ومعنويا لما خرج هذا الكتاب الى النور .. وانتهز الفرصة فادعو الله جل وعلا لسيادتها بالشفاء العاجل من مرضها راجيا لسيادتها ان تتمتع بالصحة والعافية .

وان انس لا انسى فضل الاخ الفاضل الحاج محمد شوقى والسيدة الفاضلة حرمه الكريمة على تعاونهما على نسخ موضوعات هذاالكتاب على الالة الكاتبة راجيا لهما ولابنائهما التوفيق والسداد .

والرجا التوفيق

د . سيد عويس

مصيف جمصة السياحى شهر اغسطس عام ١٩٨٨

من مفاهيم الدراسة الحالية

١ ـ مفهوم العنف والسلام فى التراث الثقافى الاجتماعي المصرى :

واذا اتحدث عن هذين المفهومين فاننى اتحدث فى ضوء خبراتى كباحث علمى اجتماعى مصرى .. وهذه الخبرات تكون ، بالضرورة ، خبرات محدودة ، ومع ذلك فاننى ابادر بالقول بانها خبرات منتظمة (أى علمية) تتضمن نتائج بحوث ودراسات علمية قمت باجرائها او الاشراف على اجرائها فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى ، والخبرات التى اتحدث عنها ، مع ذلك قد تتضمن فى بعض الاحيان بعض الانطباعات وبعض الاراء ، وان كان همها الاول ان يقتصر على الحقائق .

وارّجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذ حاولت دراسة مفهوم « العنف » دراسة علمية بقصد محاولة فهمه فهما موضوعيا ، اى محاولة التعرف على معناه وعلى بعض انماطه وعلى بعض صور التعبير عنه ، فلعل التعرف على هذه الامور ، وغيرها ان ييسر لى ، وان كان ذلك بالضرورة غير كاف ، التعرف على مايواجهها من امور بمفهوم « السلام » .

ومفهوم العنف ، لغة بضم العين ضد الرفق او الاخذ بالشدة والقسوة ، والملاحظ ان مفهوم العنف فى هذا الضوء غير التعنيف ى التعيير واللوم .

وارجو ان يعلم القارىء ان مفهوم العنف في هذا الحديث يقصد به « العنف الانساني » اى الذى يصدر عن البشر من بني الانسان .. فالعنف موجود بين الانسان والطبيعة وبين الانسان والحيوان وبين الحيوان والحيوان ، ولكننى اتحدث عن لعنف بين الانسان والانسان ايا كان هذا الانسان ذكرا ، كان او انثى ، رجلا كان او امرأة ، شابا كان او شابة ، صبيا كان او طفلا الذين يعيشون تحت سماء مصرنا الخالدة سواء اكانوا معاصرين ام غير معاصرين .

والملاحظ ان العنف لايحدث بين الافراد فحسب ولكنه يحدث كذلك على مستوى الجماهير ، وقد يكون تلقائيا ، اى لم يخطط او ينظم له من قبل . وذلك على عكس مايصدر من انماط السلوك العنيفة عن بعض الجماعات او التنظيمات الاجتماعية او الثقافية او الدينية او السياسية المنظمة ، كالجامعات والاحزاب والتنظيمات المهنية .

وفى ضوء احدى الدراسات العلمية التى قام بها المركز القومى للبجوث الاجتماعية والجنائية ، فسر « العنف الجماهيرى » بأنه عنف الجماهير ضد ممثلى السلطة . وهو فى ضوء طبيعته « سلوك عدوانى ايجابى » بدنى او مادى ضد بعض ممثلى السلطة (او ضد فئات اخرى) موجهة من بعض افراد الجمهور ـ على اساس انتمائهم لجماعات معينة او دفاعهم عن قيم معينة تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام ، او تتعارض مع القيم التى يرعاها ممثلو السلطة الذين وقع عليهم العدوان ، وارجو ان يلاحظ القارىء عبارة « تتعارض

مع قيم المجتمع بوجه عام » فهى عبارة غامضة على الرغم من ان البحث رجع الى احد المراجع الاجنبية لتفسير هذه العبارة او لتبرير وجودها فى المتن (انظر بحث العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى ، ١٩٧٦ صفحات ٤٤ ـ و٤٨ ـ ٤٩) لاننا نلاحظ ان الاخذ بظاهرة الثأر موجود فى بعض المجتمعات المحلية فى المجتمع المصرى مثلا ، وارتكاب احدى جرائمها يتضمن بالضرورة العنف الجماهيرى ضد الاشخاص (القتل) او الاموال (تسميم المواشى) او الاداب (صيانة العرض والشرف) اوحتى ضد الدولة او ممثليها (فترات الانتخابات) وفى ضوء البحوث والدراسات العلمية نجد ان ظروف الحياة المعاشة فى ظل مناخ ثقافى له ذاتية ثقافية معينة تجعل اعضاء هذا المجتمع المحلى مهما كان مستوى تعليمهم او مكاناتهم الاجتماعية ذكورا كانوا او اناثا تغرس فى نفوسهم قيم ظاهرة الاخذ بالثأر ويتمثلونها وهم اطفال ويعيشون بها ولها واذ تختار احدى الجماعات (العائلات الكبيرة) احد اعضائها لارتكاب ماتمليه عليه جماعته من جرائم قام بذلك ، واذ يفعل من اختير ما امر به فان قيمه لم تتعارض مع قيم مجتمعه المحلى وان اعتبرت خرقا لقانون العقوبات المصرى .. لذلك فاننا نرى ان القضاة الذين يحاكمون الجاني يأخذون فى الاعتبار عادة ماتمثله من قيم يعيش بها ولها والتى تحدد انماط سلوكه فنجد هؤلاء القضاه لايحكمون عادة على الجانى باقصى العقوبة التى ينص عليها قانون العقوبات المصرى .

ونذكر بهذه المناسبة ان شخصية الانسان منا تتكون محدداتها وملامحها عند بلوغ الفرد منا سن الخامسة أو السادسة ويرى البعض ان هذه المحددات والملامح تبقى

مابقى الفرد حتى يصير شخصا اى فرد صاحب شخصية اجتماعي . وقد لايرى البعض هذه المقولة حيث ان محددات شخصية الانسان منا وملامحها تتغير بتغير التجارب والخبرات الاجتماعية التى يواجهها فى حياته ؛ والملاحظ ان محددات شخصية الانسان قد تكون ادواره الاجتماعية التى يتوقع المجتمع الذى ولد فيه ويعيش ان يؤديها . وقد تكون محددات تكوينية تتعلق بالتكوين الجسمى والبيولوجى للشخص . او محددات ثقافية اجتماعية وهى تعنى الخبرات التى يواجهها الشخص منذ ان يولد وحتى الوقت الذى تدرس فيه هذه الشخصية .. وقد تكون محددات عقلية ونفسية تتعلق بصحة الشخص العقلية او النفسية اى ضعفه العقلى او ماقد يصيبه من مرض او امراض عقلية او نفسية . ومن ثم فانى ارجح تغير شخصية الانسان تغيرا مقصودا او غير مقصود . ولعل التغير المقصود يكون اقرب الى الصواب .

وكما ذكرت آنفا اننا نلاحظ ان مفهوم العنف الوان وانماط ، وان الشعور بالعداوة صور وأنماط ايضا . والملاحظ ان الشعور بالعداوة فى احد انماطه ـ النمط الفردى او الشخصى ـ ماهو الا انفعال يندفع من شخص معين ضد شخص اخر . وقد يكون هذا الشعور بغضا مقنعا ، او يكون فعلا بغيضا موجها ضد شخص ، وما الفعل البغيض الموجه ضد شخص الا تعبير ظاهر عن الشعور بالعداوة ضده .. فنحن نلاحظ بوضوح ان تهديد اى شخص بالقيام بفعل بغيض او توجيه هذا الفعل البغيض ضده يثير عادة انواعا متباينة من الاستجابات فى نفسه قد يكون الشعور بالعداوة احدها ، والمقصود بالتهديد هنا هنا هو الخوف الحقيقى او حتى الوهمى من امور بغيضة مثل الاذى او الضرر او التحقير أو

حرمان الات حرمانا على مستوى معين ، وقد يتحقق هذا التهديد ايضا عند اعاقة شخص معين من فرصة فهم نفسه حق الفهم ، او من توقع هذا الشخص تحقيره او تقييده .. وقد يتحقق هذا التهديد كذلك اذا خشى الشخص من رفض الاعتراف بحاجاته المشروعة او رفض الاعتراف بحقوقه كعضو فى جماعة معينة .

واذا كان مفهوم « العنف » فى هذه الدراسة هو « العنف الانسانى » فانى اذ اتحدث عن « مفهوم السلام » اعنى ايضا « السلام الانسانى صحيح ان « السلام » فى ضوء التعاليم الدينية قد يكون اسما لله جل وعلا ، تماما كمفهومالمحبة ، ومع ذلك فارجو ان يعذرنى القارىء اذا ذكرت ان معنى مفهوم السلام هنا قد يكون التحية بين اعضاء المجتمع وقد يكون الامان او الصلح او النجاة من الآفات فضلا عن السلامة (على المستوى البشرى) والبراءة من العيوب .

ومهما يكن من الامر فان مفهوم السلام هو ضد مفهوم العنف بالمعنى الذى ذكرناه من قبل . والملاحظ فى الحياة الانسانية ان الشعور بالعداوة (وليد العنف بصوره وانماطه) يوجد كما يوجد الشعور بالمحبة (وليد السلام بصوره وانماطه) والملاحظ ايضا فى هذه الحياة اى الحياة الانسانية ان هذين النوعين من الشعور الانسانى فى صراع مستمر . فهما فى الواقع سمتان من سمات هذه الحياة ، والصراع بينهما هو فى الحقيقة سنة الحياة ، وكلنا يعلم ان الشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، فى ضوء تراثنا الثقافى المصرى ، هو هدف كل الاهداف ، والشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، فى ضوء قيم المجتمع المصرى المعاصر ومبادئه ومثله العليا هو ، ايضا غاية كل

الغايات وفضلا عن ذلك ، وربما مع كل ذلك ، فهو في ضوء التراث الثقافى الانسانى ، امل كل الامال .

واذا كان الشعور بالعداوة والشعور بالمحبة ، كما سبق ان ذكرت يتصارعان ، فاننا نجد ان الدعوة الى العنف الانسانى والدعوة الى السلام فى محيط البشر يتصارعان كذلك ويعنى مفهوم « الصراع » فى الدراسة الحالية ، اى معناه الاجتماعى ، هو « عملية اجتماعية وموقف يحاول فيه اثنان او اكثر من الكائنات البشرية او الجماعات الاجتماعية ان يحقق كل اغراضه ومصالحه ، ومنع الاخر من تحقيق ذلك لو اقتضى الامر القضاء عليه وتحطيمه ، ويرتبط الصراع جوهرا بوجود حدود لمصادر الاشباع المختلفة ، وفى معناه السوسيولوجى يتضمن بالضرورة كائنات انسانية ، وهو مثله مثل الشعور بالعداوة ذو درجات من الشدة والانتشار تبعا لاهداف واغراض اطراف الصراع ، ويعد الصراع ظاهرة عامة تلحظ فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وفى الاقتصاد والسياسة والدين والمعايير الاخلاقية وبين الطبقات وفى اللغة (التنابذ بالالقاب التى تحدث فى المشاكسات مثلا) وقد يكون الصراع داخل الجماعات الاجتماعية او بينها .

واذا اعتبرنا الصراع نوعا من التفاعل الاجتماعى بمعنى انه عملية من العمليات الاجتماعية فانه يجب التمييز بينه وبين « المنافسة » وقد يرى البعض ان الصراع نوع من التنافس ، يحاول المتنافس ان ينظم فيه جهوده وقوته ، املا فى الفوز ولذلك يرون انه اقسى عملية بين العمليات الاجتماعية او انه نوع عنيف من التنافس ، ومع ذلك فهناك فارق بين المنافسة والصراع فالوعى شرط ضرورى للصراع فى حين ان هذا

الوعى ليس ضروريا بالنسبة للمنافسة بل ان هناك انواعا من المنافسة تكون لاشعورية . هذا ويعتبر كل من الصراع والمنافسة اشكالا للنضال والكفاح .

ومع ذلك فالملاحظ انه اذا كان مفهوم « العنف » يوجد فى المجتمع المصرى المعاصر على مستوى الجماعات او على مستوى الافراد ، فان التراث الثقافى لهذا المجتمع يتعطر بمفهوم « السلام » ويكفى لتأكيد ذلك ان نذكر ان الكتاب المقدس قد تضمن مفهوم « السلام » بصوره وانواعه ١٢٣ مرة كما تضمن مفهومى « العداوة والاعداء » وهما وليدا مفهوم « العنف » بصورهما وانواعهما ٤٠ مرة ، وقد ذكر مفهوم « السلام » لفظة ومشتقاته فى مواضيع عديدة فى القرآن الكريم ، فى صوره واياته ١٣١ مرة كما تضمنت مفاهيم « الاعتداء والعدو والعداوة والعدوان » وهى وليدة مفهوم « العنف » بصورها وانواعها ١٠٤ مرات .

٢ - مفهوم الضمير الانسانى فى التراث الثقافى الاجتماعي المصرى .

ان مفهوم « الضمير الانسانى » لغة هو « استعداد نفسى لادراك الخبيث والطيب من الاعمال والاقوال والافكار والتفرقة بينها ، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها . والملاحظ ان الفرد منا لايولد وعنده « ضمير » وحتى كبار السن منا لانستطيع ان نجد عضوا من اعضاء اجسامهم كالكليتين وعضلة القلب والرئتين والغدد مثلا اسمه « الضمير » وقد يرى البعض ان الضمير هو النفس التى قد تكون نفسا مطمئنة او نفسا لوامة . واذا كان لايولد الانسان وعنده ضمير فلابد اذا اخذنا بالمعنى اللغوى للضمير ان يتكون كلما ازدادت عوامل تكوينه فى خلال مراحل حياته مرحلة بعد مرحلة . اى

ان يربى الشخص منا لكى يدرك الخبيث والطيب من الأعمال .. الخ .

والمعلوم ان مفهوم « التربية » لايعنى مفهوم « التلقين » وعلى الرغم من ان معانى ودلالات المفهوم الاول تتعدد فاننى ارى انه ينبغى ان تفهم التربية على انها « عملية تغيير » بواسطتها ينمو الانسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته . وهو اى الانسان ، اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته مع تكوينه وتحويله الاخرين ، والبيئة التى يعيش فيها . ان عملية التغيير هذه تهدف اولا وقبل كل شىء الى اعداد المواطن (الانسان) لكى يستطيع ان يؤدى ادواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش ، انها عملية تكوين الشخصية اى عملية جعل « الفرد » شخصا ، أى فرد له شخصية اجتماعية ، اى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد او يضر المجتمع وجماعاته ، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع . ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . اى ان قيم المجتمع وجماعاته قد تكون اهدافها حميدة ، اى قيم بناءة تكون من وراء انماط سلوك اعضاء المجتمع . اقصد افكارهم واتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والاشياء والاشخاص ، اى نحو الحياة التى يعيشونها او التى يصنعونها او التى يحاولون صنعها على السواء . وهى قيم اهدافها حميدة لانها تدعو الى الخير ولا تدعو الى الشر . واعنى بالخير كل مايعين على العمل الصالح من اجل الاخرين فى ضوء مايدرك عضو المجتمع عن طريقها ماهو خبيث من الاعمال والأقوال والافكار فيتجنبه وفى ضوء مايدرك هذا

العضو عن طريقها ماهو طيب من الاعمال والاقوال والافكار ، فيعمل به . ومن ثم فانه يصبح انسانا او فردا ذا شخصية عنده ضمير يستحسن كل ماهو حسن ومحبوب ويستقبح كل ماهو قبيح ومكروه .

وفى ضوء التاريخ نجد ان المصريين القدماء قد عرفوا منذ الماضى السحيق عن طريق التفكير والتأمل ان الرجل الفاضل يسمى « محبا للسلام » وبالنص الحرفى « حامل السلام » وهذا التعبير فى ضوء مايعنيه هو تعبير اخلاقى مافى ذلك من شك حيث يمكن التعرف على الفاضل (صاحب الضمير) بعلاقاته بمن حوله . وعلى النقيض منه ماوصل اليه هؤلاء الاقدمون عندما اطلقوا على كل من يخطيء فى حق من حوله اسم « حامل الجريمة » او « المجرم » ولعل القارىء الكريم اذا اطلع على امثال « بتاح حتب » (حكيم مصرى قديم) التى يرجع تاريخها الى الدولة القديمة او من عام ٣٤٠٠ الى ٢٤٧٥ ق . م (الأسرة الخامسة) يرى انها تقوم شاهدا على تقدم الاختمار الخلقى . او مايمكن ان يسمى مولد الضمير الانسانى وتطوره . ولعل المثال التالى يوضح مااقول (انظر كتاب « سيد عويس » قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى القاهرة دار روزاليوسف ابريل عام ١٩٨٨ صفحة ٩٦) :

« لاتكن متعجرفا بسبب علمك ولاتنتفخ اوداجك لانك رجل عالم استشر الجاهل كما تستشير العالم ، لان حدود الفن لايمكن الوصول اليها ، وليس هناك فنان كامل فى براعته . الكلام الطيب اندر من الحجر الاخضر الثمين ، ومع ذلك فانه يوجد احيانا فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين احجار الرحى »

وقد علق « جورج سارتون » فى كتابه تاريخ العلم : الجزء الاول ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الثالثة ديسمبر عام ١٩٧٦ على هذا المثال قائلا : « من الواضح ان هذه العبارة وامثالها لاتتعلق بالفن او العلم او الدين ، ولولا هذه العبارة وامثالها لاستحال بقاء اية حضارة مدة طويلة » (انظر صفحتى ١٢٩ ـ ١٣٠)

وتعنى الصفات التى يتحلى بها الانسان ذو الضمير الانسانى الذى يحب السلام ، فى ضوء التعريف السابق ، وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى الراهنة ، ان يكون مواطنا صالحا يعرف حقوقه ويؤدى واجباته التى يتطلبها هذا المجتمع . وقد قدمت حقوق عضو المجتمع المصرى المعاصر متعمدا فالملاحظ ان المصريين منذ ان عاشوا على ضفاف النيل يعطون اكثر مما يأخذون ويواجهون الازمات الاقتصادية والسياسية التى تواكبها عادة المشاكل الاجتماعية التى تتضمن ضمن ماتتضمن الوانا عديدة من الانحرافات ، منها واهمها معاناة الشباب منهم من القلق المرضى وارتكاب الجرائم وتعاطى المخدرات ومن التطرف السياسى او الدينى .

واذ ادعو الى السلام فاننى ادعو الى السلام القائم على العدل . والملاحظ ان مفهوم « العدالة » قد نبت من تربة مصرنا الخالدة منذ الاف السنين فى شخص الالهة « ماعت » ، ومنذ اينابنوس المصرى » اول اسقف كرسه « مرقص فى عام ٦٤ ميلادية » نجد ايات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى حقوق الانسان وتنشر نورها فى اعماق قلوب المصريين المسيحيين وتعطر المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ذلك الحين :

« العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الارض التى يعطيك الرب الهك » (سفر التثنية اصحاح ١٦ : آية ٢٠) و« هكذا قال الرب ، احفظوا الحق واجروا العدل . لانه قريب مجيء خلاصى واستعلان برى » (سفر اشعياء اصحاح ٥٦ : اية ١)

ثم عانقت الايات القرانية الكتاب المقدس التي تعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعي المصرى منذ ان اقيم اول مسجد فى مصرنا الخالدة في عام ٢١ هجرية الموافق عام ٦٤١ ميلادية :

« .. واستقم كما امرت ولاتتبع اهواءهم وقل امنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (٤١ ك الشورى آية ١٥)

و« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١٦ ك النحل : اية ٩٠)

دراسة عن السلوك الانسانى

٣ ـ متصل السلوك العدوانى الانسانى :

ارجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذا كنت استعرت « مفهوم المتصل » لاشرح تدرج السلوك العدوانى الذى كما ذكرت انه وليد العنف ، وعلى الرغم من اننى لم اقصر فى سرد بعض انماط هذا السلوك اقصد السلوك العدوانى ، فاننى تحت هذا العنوان ساحاول ان اذكر ماتبقى دون ماتكرار حتى لايمل القارىء من التكرار .

وقد استعرت مفهوم المتصل من علم الاجتماعى الحضرى وهو يعنى التغيرات المتدرجة بين درجات التريف والتحضر على اساس انه من الممكن تصنيف المجتمعات (المحلية) المختلفة وفقا لنقاط معينة على هذا المتصل . ويفترض من أجل ذلك ان المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية الي الحضرية ، وفقاً لعدد من الخصائص ، وان هذا التدرج تواكبه بالضرورة اختلافات او فروق متسقة فى انماط السلوك . ونحن نلاحظ فى الوقت الراهن ان مدن المجتمع المصرى المعاصر ، وبخاصة مدينة كمدينة القاهرة الكبرى قد تريفت ، بمعنى ان انماط السلوك الانسانى لمن

يعيشون بين جنباتها قد اختلطت واصبحت اقرب الى انماط الريف . فقد نلاحظ مثلا ان « الاتوبيس العام » قد يكون مزدحما بمن يحمله من الركاب الذين يبغون الوصول الى مواقع عملهم او الى مدارسهم وجامعاتهم ، فاذا بالسائق يوقف « الاوتوبيس » حتى يتيسر « للكمسارى » ان ينزل لجلب كوبين من الشاى مثلا من المقهى الذى وقف امامه ولايتحرك الاوتوبيس من مكانه على الرغم من الاجسام المكدسة سواء كانت اجساما لاطفال او لشباب او لرجال او لنساء حتى يحضر الكمسارى المطلوب . وتصرف السائق والكمسارى فى هذه الحالة هو تصرف من يملك الشارع وكأنهما يسيران على « الزراعية » فى الريف المصرى . ومثل هذا النمط من السلوك الريفى نجده عندما تجمع كناسة « الشارع » او « المنزل » وتحرق بلا مبالة فى احد اركان الشارع امام المنزل ! واصبحت انماط السلوك الريفى تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى فى هذه المدينة وغيرها من المدن والمراكز فى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن ، ولعل ذلك يرجع الى الهجرة الداخلية غير المنتظمة سواء كانت هجرة داخلية من الريف الى الحضر او هجرة الى مدن مصر ، قد تكون مؤقتة نعم ، ولكن المهاجرين يحملون على اكتافهم عناصر ثقافة اوطانهم التى جاءوا منها . وقد تختلف هذه العناصر جذريا مع عناصر الثقافة المصرية .

والمعلوم ان انماط التعبير عن العنف عن طريق السلوك العدوانى سواء كان الاخير ضد الافراد او ضد السلطة وممثليها ، كما سبق ان ذكرت عديدة . وفى ضوء متصل السلوك العدوانى الانسانى الذى اتخذته نبراسا كما اوضحت نلاحظ ان هذا السلوك قد يبدأ سلبيا ثم يتدرج الى ان يكون

ايجابيا . واقصد بذلك فى ضوء المقصود من الدراسة الحالية ان عدوان الشخص قد يوجه ضد ذاته عن طريق ايذائها وذلك (بالانتحار مثلا او بالادمان بانواعه) . وقد يوجه ضد الاخرين عن طريق الاعتداء على الاموال (السرقة مثلا) او الاعتداء ضد الاداب العامة (ظاهرة البغاء مثلا) او يوجه ضد الدول (التجسس لحساب دولة اخرى) او يوجه ضد الاشخاص (الضرب والقذف والقتل مثلا) .

وفي ضوء ماسبق ، اى فى ضوء ، « المتصل السلوك العدواني الانسانى » الذى تبنته الدراسة الحالية ، ارجو ان يلاحظ القارىء الكريم العلاقة الحميمة بينه وبين « علم الاجرام » والمقصود بهذا العلم انه يهدف الى دراسة الظاهرة التى تسمى عادة بظاهرة « الاجرام » او ظاهرة « الجريمة » . والملاحظ ان علم الاجرام قد يكون علما نظريا او علما تطبيقيا . ومهما يكن من الامر فانه كعلم استقرائى . مثله مثل العلوم الاستقرائية يهتم بملاحظة الحقائق (الوقائع) ملاحظة دقيقة بقدر الامكان ويحاول بكل الاساليب المتاحة التعرف على عوامل الظواهر الاجرامية ومن ثم فهو فى هذه الحالة يهتم اول مايهتم باحدى مناطق اهتماماته الا وهى التعرف على « عوامل الجريمة » او مايسمى بعلم أل (Etiology) . واذا كانت المادة التى يهتم بها علم الاجرام هى ظاهرة الاجرام ، اى الجرائم التى ترتكب واعضاء المجتمع الذين يرتكبونها فضلا عن الاجراءات القانونية التى تتصل بهذه الجرائم من قريب او من بعيد ـ فانه من المستحسن محاولة تعريف مفهوم او ظاهرة الجريمة ، والملاحظ ان هذا المفهوم كاحد المفاهيم الانسانية له صور عديدة فضلا عن انه مفهوم فضفاض ، اى له معان عديدة ايضا . وهى اولا وقبل كل شىء انماط من

السلوك اذا اداها المواطن او امتنع عن تأديتها ، فى ضوء قانون العقوبات ، يستحق العقاب .

وقد يرى البعض ان مفهوم او ظاهرة الجريمة ينتمى الى فئة الافعال اللااخلاقية ومع ذلك فالملاحظ انه ليس كل الافعال اللااخلاقية تكون بالضرورة جرائم .

ويجب التأكيد على ان مفهوم علم الاجرام بمعناه الواسع لاينتمى فقط الى علم الـ (Etiology) بل ينتمى ايضا الى علم الـ (Penology) وعلم الـ (Criminalistics) .

والملاحظ انه منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى قد ظهرت حركة مميزة من اجل التغيير الجوهرى فى نظرية « علم الاجرام » وتطبيقاتها حين قام بالتمرد طلاب الجامعات والعمال والفقراء ساكنو المناطق المنعزلة فى المدينة (الحوارى) فى البلاد الغربية الصناعية فى ذلك الحين . وكانت اثار ردود الفعل لهذا التمرد ، على الحكومات وبخاصة فيما يتعلق بالتوازن السياسي الاجتماعى ومايتصل به ، ان اوجدت الحوار المتنوع والمناقشات العديدة ليس فقط فى محيط العمل الراديكالى بل فى الفكر الراديكالى ايضا .

ومن ثم اتجه علم الاجرام نحو الراديكالية كما اتجه نحو موضوع « الضبط الاجتماعى » وبخاصة ماتعلق بالمهن التى تهتم بالمساعدة على تأييد وجوده فى المجتمع .

والملاحظ ان تعريف مفهوم علم الاجرام (الراديكالى) مسألة صعبة المنال . ولكننا نجد ان هذا المفهوم يرى ، على وجه العموم ، ان القانون الجنائى والادارة التى تشرف عليه هما جزء من الدولة وان هذه الدولة ان هى الا جهاز قمعى يعمل فى سبيل مصالح الطبقة التى تملك رأس المال (الطبقة

البروجوازية) .

والملاحظ ايضا ان ماهو راديكالى من حيث نسبته الى علم الاجرام لم يكن متحجرا بل اخذ فى اعتباره اختلاف الثقافات وتغيرها فى النظرية وفى التطبيق وقد اهتم هذا العلم منذ بزوغه فى افق المعرفة (اى منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى) بالتغييرات الرئيسية المتعلقة بالسلوك الاجرامى ، اى بمعناها ودورها المتاح فى التغيير الاجتماعى ، فضلا عن الحالة التى تؤدى الدولة وظائفها بالنيابة عن مصالح الطبقة التى تؤيدها ، وهى فى هذه الحالة الطبقة البرجوازية ، وعلى سبيل المثال يمكن ان نتساءل : هل السلوك الاجرامى يعنى انه تأييد للرجعية السياسية ؟ وهل الاشخاص المجرمون هم ضحايا او انهم اشخاص متفردون ؟

والملاحظ كذلك ان علم الاجرام الراديكالى يهتم أول مايهتم فى ضوء عوامل وجوده ، بدراسة مصالح الدولة ، وان حواراته ومناقشاته تدور حول هذه المصالح من حيث انها تخدم الدولة وتيسر وجودها عن طريق الوعى الطبقى أو يكون ذلك عن طريق التعسف البنائى الموجود فى المجتمع . (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية) .

وبالاضافة الى ماذكرته من قبل ارجو ان يسمح لى القارىء الكريم بأن أذكر بعض القضايا التى تتصل به ، وهى قضايا وصلت اليها فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت باجرائها وهى :

ان تقدم العلوم المادية (علوم الفيزياء والكيمياء والميكانيكا مثلا) يكون له أثر فعال على الانسان فى علاقته

مع نفسه ومع الناس الذين من حوله .

- ان معنى ذلك ان العلوم المادية تسبق عادة العلوم الانسانية (علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الخدمة الاجتماعية مثلا) التى تتعلق مباشرة بالسلوك الانسانى على وجه الخصوص .

- ان العلوم المادية وغير المادية تزدهر فى ظل الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المواتية . وهى أيضا فى تطور مستمر وتتجدد على مر الأيام .

- ان تباين تقدم العلوم غير المادية ومنها علم الاجرام فى المجتمعات البشرية لايرجع عادة الى المستوى الذى بلغته العلوم المادية ولكن أيضا الى الواقع الحى لهذه المجتمعات وعلاقة كل مجتمع بالمجتمعات الاخرى المتقدمة منها والنامية ، فضلا عن واقع الثقافات السائدة فى هذه المجتمعات وتاريخ كل مجتمع منها .

- ان التكامل الثقافى بين العلوم المادية والعلوم غير المادية أصبح قضية لايختلف عليها اثنان . (انظر سيد عويس : علم الاجرام : دراسة مقارنة ، دراسة علمية غير منشورة ، عام ١٩٨٦) .

وفى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها وموضوعها « حول عقوبة الاعدام فى مصر » (المجلة القومية الجنائية - العدد ٢ - ٣ يونيو - نوفمبر ١٩٧٨ ، صفحات ٩٣ - ١١٧) اتضح لى مايلى :

- ان فئة المجرمين بعامة هم نتاج المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . فالمجتمع أى مجتمع كما يستحق المواطنين الصالحين الذين يضمهم فهو أيضا يستحق المواطنين الصالحين (ومنهم المواطنون المجرمون) الذين يوجدون فيه .

ـ ان جريمة القتل جريمة خطيرة وينفر منها المجتمع الانساني مافى ذلك من شك . وذلك لان المجتمع يخسر الشخص الذى قتل أو الاشخاص الذين قتلوا . ومع ذلك فالملاحظ ان القتل فى المجتمعات الانسانية لايحدث بالضرورة كمخالفة لقانون العقوبات ، فالحروب والفيضانات والزلازل وحوادث الطيران وغيرها كحوادث المرور تسبب قتل الأبرياء وغير الابرياء من الأطفال والشباب والرجال والنساء .

ـ ان القتلة العاديين الذين يدانون ويحكم عليهم بعقوبة الاعدام لايختلفون كثيرا عن القتلة الآخرين من الاشخاص الطبيعيين كالقتلة فى الحروب وحوادث المرور مثلا . ولايعنى ذلك ان يترك القاتل العادى الذى يمثل امام المحكمة ويدان وشأنه ، بل يجب أن تدرس حالته حتى نصل الى بعض الحقائق عن شخصيته لكى نيسر له إعادة تنشئته الى حظيرة الانسانية مواطنا صالحا يحب السلام ويدعو اليه . ولكى يزداد فهمنا للنفس البشرية مما ييسر عمليات التنشئة السوية للمادة البشرية فى المجتمع ووقاية أعضائها من الجريمة والجناح والانماط الاخرى التى تكون مادتها العنف بألوانه المختلفة .

ـ ان القاتل العادى أو حتى غير العادى (أى الذى يقتل وهو يحارب بدافع الوطنية أو الذى يرتكب جريمة قتل خطأ أيا كانت مثلا) لايمكن أن يحاسب ويعاقب ، فيعدم الأول ويسجن أو يعتقل الثانى ، مثلا ، على أساس انه يملك مايسمى بالارادة الحرة . ومن ثم فهو مسئول عن تصرفاته وأفعاله . ذلك انه لايوجد انسان يملك هذه الارادة الحرة . وان ردع المجرم الذى يعدم لاطائل فيه وردع الاخرين لايثبته الواقع ، فالجرائم لاتزال ترتكب سواء أكانت جرائم قتل عمد ارتكبت مع سبق

الاصرار والترصد أم غيرها كالضرب الذى أفضى الى الموت والسرقة بالاكراه ، والتزوير والتجسس .. الخ . صحيح ان الانسان منا « البالغ » لديه إرادة ولكنها ليست حرة حرية مطلقة . انها محدودة فى ضوء الامكانات والقدرات . والملاحظ ان القدرات الانسانية قد تكون منتظمة أو غير منتظمة . والقدرة المنتظمة هى التى تستند الى العلم ، أقصد التى تستند الى الفهم الموضوعى للظواهر الانسانية أو المادية . وذلك فى ضوء التعرف على القوانين التى تحكم هذه الظواهر الانساتية أو المادية . ومن ثم نرى أن قدرة الانسان المنتظمة هى قدرته التى تيسر التغيير أن اقتضت الضرورة هذا التغيير .

ـ ان الاحكام بعقوبة الاعدام قد ازدادت بعد عام ١٩٥٢ (أى فى خلال الفترة من ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣) عنها قبل ذلك (أى فى خلال الفترة من عام ١٩٢٢ الى ١٩٥٢) ومن ثم فان الاشخاص الذين حكم عليهم بالاعدام فى الفترة الأولى قد زاد عددهم . وكانت نسبة من حوكم من هؤلاء امام محاكم استثنائية مثل المحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة العليا ومحكمة الشعب ومحكمة الثورة في خلال فترة الدراسة العلمية الحالية (أى من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٧٣ نحو ١٦,٣٪ من الحالات التى عرفت فيها جهة صدور الحكم بالاعدام شنقا أى ٨٩ شخصا من ٥٤٦ شخصا) وقد حوكم ٧٠ شخصا من الـ ٨٩ شخصا فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣ ، أى بعد عام ١٩٥٢ بنسبة نحو ٧٨,٧٪ أما الباقى وقدره ١٩ شخصا بنسبة نحو ٢١,٣٪ فقد حوكموا أمام محاكم استثنائية فى خلال الفترة من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ .

ـ ليس كل من يرتكب جريمة قتل أو جرائم أخرى تستحق ، فى ضوء قانون العقوبات المصرى ، عقوبة الاعدام يحكم عليه اذا ماأدين بالاعدام ، وليس كل من يحكم عليه بالاعدام بالضرورة ينفذ فيه هذا الحكم .

ـ ان عددا من الذين حكم عليهم بعقوبة الأعدام من المواطنين المصريين فى خلال فترة الدراسة الحالية ونفذ فيهم هذا الحكم ، لايعتبرهم الكثيرون فى ضوء تغير الظروف الاجتماعية والسياسية مذنبين . بل هم فى نظر هؤلاء أبطال وشهداء . والأمثلة على ذلك عديدة . ومن حق القارىء الكريم أن يأخذ بما يراه هؤلاء أو لايفعل ذلك . ومهما يكن من الأمر فان المجتمع المصرى باعدامهم قد خسر ، فى رأيى ، حتما النفع الاجتماعى الذى يكمن بالضرورة فى شخصية كل منهم . وهو نفع فى ضوء مستواهم الثقافى والاجتماعى ، وفى ضوء الاهتمام العام الذى كان يملأ نفوسهم سواء كان اهتماما بالعقيدة أو بالوطن أو بالفكر ، وفى ضوء العصر الذى عاشوا فيه وماتوا ، نفع ثمين مافى ذلك من شك .

وبالاضافة الى ماسبق فاننى أذكر انه فى ضوء وقائع التاريخ نجد الكثير من المفكرين واصحاب العقائد والمثل العليا قد أدينوا ظلما وحكم عليهم بالموت . فقد استقبل حياة الخلود كل من المعبود المصرى القديم « اوزوريس » (أول الشهداء) والفيلسوف « سقراط » (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق . م) ، والقديس « مرقص البشير » (٦٨ م) والامام على بن أبى طالب (٢٣ قبل الهجرة ـ ٤٠ هجرية ، أى حوالى ٦٠٠ ـ ٦٦٠ م) والأمام الحسين بن على (أبو الشهداء : ٦٢٥ ـ ٦٨٠ م) والامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) والفيلسوف « جيوراندو برونو » (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠

م) لانهم وقفوا صامدين يدافعون عن عقائدهم وافكارهم وكأن لسان حالهم كما قال سقراط لقضاته : « .. سيذهب كل منا فى طريقه ، انا فى طريقى الى الموت ، وانتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلاً » وكما قال الامام على بن أبى طالب لابنه الحسن فى شأن ضاربه « ابصروا ضاربى ، أطعموه من طعامى ، واسقوه مز شرابى ، واذا انا مت فلا تغال فى كفنى ، وكبر على سبعا وفى رواية خمسا ، وغيب قبرى »

والتاريخ يزخر بغير هؤلاء الأبطال ، التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، والحديث عن صرعى التفرقة العنصرية أو التفرقة الدينية والمعتقلات والسجون ، أصحاب الرى والعقيدة ، طويل طويل طويل ، فنحن فى عصرنا الحالى نعيش خبراتهم فى كل يوم بل فى كل لحظة ، ولعل ذلك يرجع الى ماذكره « العقاد » فى كتابه (العبقريات الاسلامية ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الكاتب اللبنانى صفحة ١٥٩) « .. مسكينة هذه الانسانية! .. لاتزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها افات الأثرة والانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الازمنة الغابرة ، لانه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات »

وقد يلخص هذا وربما يؤكده ماذكره « صلاح عبد الصبور » مؤلف المسرحية الشعرية « مأساة الحلاج »

(الحسين بن منصور الحلاج : ٨٥٨ ـ ٩٢٢ م) الذى كان مشغولا بقضايا مجتمعه فوقفت الدولة ضده وصلبته فى احدى ساحات بغداد ولسان حاله :

« كان يقول :
اذا غسلت بالدماء هامتى واغصنى
فقد توضأت وضوء الانبياء
كان يريد أن يموت ، كى يعود للسماء
كأنه طفل سماوى شريد
قد ضل عن أبيه فى متاهة المساء

كان يقول :
كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ ارادة الرحمان
لانه يصوغ من تراب رجل فان
اسطورة وحكمة وفكرة

كان يقول :
ان من يقتلنى سيدخل الجنان
لانه بسيفه أتم الدوره
لانه أغاث بالدماء اذ نخس الوريد
شجيرة جديبة زرعها بلفظى العقيم
فدمت الحياة فيها ، طالت الاغصان
مثمرة تكون فى مجاعة الزمان
خضراء تعطى دون موعد ، بلا أوان
وحين اسلمه السلطان للقضاء

انظر كتاب : صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، مسرحية شعرية ، بيروت منشورات دار الاداب ، ١٩٦٥ ، صفحات ٢٠ ـ ٢٢)

ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان
ووشيت أعضاؤه بثمرة الدماء
تم له ماشاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟

٤ ـ ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض انماطها وعواملها :

تحدثت قبل ذلك عن « مفهوم العنف » وذكرت ان العنف هو سلوك عدواني ، أو هو وليد الشعور بالعداوة . وذكرت أيضا ان الشعور بالعداوة قد يوجه ضد الطبيعة أو يوجه من افراد إلى أفراد أو من أفراد الي جماعات منتظمة أو من جماعات منتظمة الي جماعات أخرى منتظمة .

وفي ضوء ماسبق نجد ان مفهوم « الارهاب » بمعنى السعي للحصول على السلطة والسلطان بالقوة والعنف ، سواء أكانت الجماعات القائمة بهذا الارهاب من الاقليات أم كانت من جماعات الأغلبية ـ موجود في كل زمان ومكان . ولكن الملاحظ ان الارهاب ، الذى يواكبه العنف بالضرورة ، يستشرى فى دول العالم في الوقت الراهن . وبفضل وسائل الاعلام العديدة التي جعلت من العالم الذى يعيش بنو البشر بين جنباته مجرد قرية صغيرة ، أصبح الارهاب يكاد أن يوجد فى كل مكان فيها . فهو موجود فى الوقت الحاضر فى جميع قارات العالم .

وفي ضوء الواقع نلاحظ ان اساليب الارهاب متنوعة ، فقد يستعمل الارهابيون كل أنواع وسائل العنف (المتفجرات

واختطاف الطائرات أو البواخر أو الاسلحة النارية مثلا) . ونحن نلاحظ ان كل جماعة من جماعات الاقليات أو جماعات الاغلبية يرى أعضاؤها أن أهداف ارهابهم مشروعة : كل من وجهة نظره . واذ أتساءل عن هذه الوجهة النظر ، لكى أيسر على القارىء الكريم التعرف على ماسبق ذكره ، السؤال الضرورى وهو : الارهاب الذى يستخدم الوسائل العنيفة المتنوعة ضد من ؟ فاننى اجد كما يجد غيرى ان الاجابة عن هذا السؤال تكون فى العادة اجابة متحيزة ! وذلك لاننا نلاحظ انه باسم « الوطنية » مثلا تشن الحروب التى يكون ضحاياها الملايين من البشر ، والتى تدمر الحضارات وتقف فى بعض الاحيان أو فى الحقيقة فى الكثير من الاحيان فى سبيل ازدهارها وتنميتها ، فضلا عما تجلبه من الهلع والدمار النفسى للاطفال وكبار السن والمعوقين والمعوقات .. الخ (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية)

واود ان اعترف للقارىء الكريم ان الموضوع الحالى لايقصد أن يتحدث عن مفهوم الارهاب ولكن هدف اهدافه التحدث عن ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض أنماطها وعواملها . ولولا أن الصلة وثيقة بين هذا المفهوم وبين ارتباطه بظاهرة الشعور بالعداوة التى هى كما سبق أن أوضحت معناها ، فاننى ارجو ان لايمل القارىء الكريم من هذا التكرار علما بأننى لم أذكر شيئا كثيرا مما سبق . وسيتضح للقارىء الكريم فيما بعد وجاهة هذا التكرار وان كنت مازلت مصرا على موقفى من هذا الرجاء .

وانماط الشعور بالعداوة عديدة . نلاحظ وجود هذا الشعور وهو يوجه من الذات الى خارجها . وفى هذه الحالة يعمل على مستويات معينة . منها مستوى الشعور بالعداوة المركز على أشخاص . معينين . ومنها مستوى الشعور بالعداوة المركز على جماعات معينة أو مستوى الشعور بالعداوة الجماعى ، وهناك مستوى آخر لهذا الشعور يوجه عادة ضد الذات من داخلها ، وقد ذكرت من قبل أمثلة على هذا المستوى منها الانتحار مثلا .

ومن أنماط الشعور بالعداوة مايعتبر عدوانا مزاغا او منحرفا ، اى انه لاينعكس ضد المصدر الاصلى بل يحيد عنه وينحرف ضد مصدر اخر بديل . ويعتبر هذا النمط من الشعورعاملا هاما من عوامل الصراع العنصرى أو الصراع الثقافى . ومن الظروف التى تحدد هذا النمط نجد الوان الاحباط او الحرمان التى يفرضها بعض المصادر الغامضة ، اى المصادر التى يصعب تعريفها او تحديدها ، أو تلك التى يفرضها الاشخاص الذين يكونون من ذوى النفوذ والسلطان على الشخص الذى يمارس هذا النمط من الشعور التى تفرضها المنظمات الثقافية الاجتماعية ذات النفوذ والسلطان ، أو التى يفرضها أشخاص يرتبط هذا الشخص بهم عاطفيا ارتباطا وثيقا (الأشخاص المتطرفون سواء كان تطرفهم سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا مثلا) . ومن الظروف التى تحدد هذا النمط تلك التى تمنع الوان الشعور بالعداوة المثارة من التعبير المباشر تجاه مصادر الاحباط الاصلية ، وبخاصة عندما يكون بديل الهدف الاصلى للعدوان متاحا ويكون واضحا ومن الممكن مهاجمته ، بمعنى ان يكون فى وضع لايمكنه من رد العدوان .

ويبدو انه في حالة العدوان المباشر نجد ، دائما ، قدرا من العدوان المزاغ يصاحبه والذى يضيف الى قوة منطقية الاعتداء قوة اضافية .

ونجد من أنماط الشعور بالعدواة نمطا ، آخر ، واسع الانتشار ، وهو نمط متكرر وعلى جانب من الأهمية ، وهو أيضا نمط من أنماط التكوين العاطفى فى المجتمع الانسانى ، ونلاحظ هذا النمط فى سهولة وفى يسر على مستوى البديهيات ، والامثلة العادية عليه عديدة . منها مثال الطفل الذى يعاقبه والده أو تعاقبه والدته فنراه يدمر لعبته أو يقسو على الحيوان الاليف . ومنها مثال الموظف الذى يعامله رئيسه معامله مهينة فنراه يعكس هذه المعاملة على اعضاء اسرته . ومنها مثال رجل الاعمال الصغير الذى يواجه الفشل فنراه ينضم الى احدى الحركات المعادية للاقليات ..

ومن عوامل الشعور بالعداوة ، من حيث زيادة هذا الشعور ومن حيث انخفاض نسبته ، عامل الاحباط أو احدى دلالاته أو حتى وظيفة من وظائفه . فنحن نلاحظ في ضوء ظروف معينة انه كلما ازداد احباط رغبات انسانية عامة عند شخص معين او عند اشخاص معينين او احباط حاجات اجتماعية لهم ـ كلما ازداد الشعور بالعداوة عندهم . ومن الملاحظ ان الاحباط . من حيث اثاره المترتبة عليه يتباين . فقد يكون مجرد « حرمان من حاجة من الحاجات التى يحتاجها الانسان عادة او قد يكون احساسا بـ « تهديد شخصية هذا الانسان » ومن المتوقع ان ينتج اشد مايكون من الوان الشعور بالعداوة عن الوان من الاحباط التى تتضمن بعض السمات منها تلك التى تقف حائلا امام الامال العادية او أمام التوقعات العادية التى تعتبر من الناحية الادبية توقعات منطقية . ومنها تلك التى تولد

الاحساس بانها غير ضرورية ومن الممكن تجنبها . ومنها تلك التى تعتبر تهديدا لنظام امن الشخصية الانسانية كلها ، اى تهديد لاحساس الشخص بمكانته الاجتماعية ، وهذا يختلف بالضرورة عن مجرد حرمان الشخص من حاجة من حاجاته الجزئية .

ويعتبر الشعور بالعداوة ، كذلك احد وظائف الشعور بعدم الامان ، فنحن نلاحظ فى حدود معينة ، أنه كلما ازداد الشعور بعدم الامان كلما ازداد الشعور بالعداوة . وفى ضوء نتائج بحوث ودراسات علوم الاجتماع والنفس الاجتماعى والطب النفسى نجد ان الاشخاص الذين يشعرون بعدم الامان هم انفسهم الذين يعبرون عن الشعور بالعداوة ضد الاخرين .

ويلاحظ ان القلق المرضى قد يتولد عادة من الشعور بالعداوة المكبوت . وهو بدوره يولد الشعور بالعداوة . والمثل الواضح فى المجتمع المصرى المعاصر مايعانيه اعضاء هذا المجتمع من الشباب وبخاصة الذين فى الفئة العمرية من سن ١٥ الى سن ٢٥ ؛ فى ضوء الظروف الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية ، من هذا القلق المرضى . فهم اى هؤلاء الشباب يعانون ليس فقط من هذا النوع من القلق ولكن من أمور اخرى منها عدم وضوح الرؤية . ومنها عدم وجود القدوة الحسنة ، ومنها عدم الاهتمام باشراكهم فى تقرير مصيرهم وتنفيذ الخطوات الضرورية لتحقيق هذا المصير من اجلهم ومن اجل من يأتى من بعدهم الذى يؤكد لهم المستقبل المشرق .

وقد يتخذ الشعور بالعداوة اشكالا متباينة عديدة ولكنها محددة وتكون بالضرورة نتاجا لانماط معينة من المواقف

الاجتماعية التى ذكرت بعضها فى الفقرة السابقة . مع ملاحظة ان العدوان اذا كان علنيا او حتى اذا كان مقنعا لايكون . بالضرورة ، هو الاستجابة الوحيدة الممكنة لتحقيق التكيف الاجتماعى ، وذلك لان « الانسحاب والسلبية والتسامى والاسترضاء والهروب وغيرها من الاستجابات مثلا » قد تكون فى بعض الاحيان ذات اثر فعال فى اضعاف البواعث العدوانية عند الذين يتعرضون للحرمان او للتهديد . ومهما يكن من الامر فانه قد يكون العدوان العلنى اكثر ارضاء عند الشخص من العدوان غير العلنى . وان تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب طرديا مع قوة الاستجابات المتوقعة بالنسبة لتوقيع العقاب على العدوان ، وان تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب عكسيا مع القوة الحافزة للاستجابة التى تتعلق بتحقيق هدف معين وتكون قد احبطت ، وان العدوان المباشر ، يفترض مع كل ذلك ، ان يكون اكثر ارضاء عند الشخص من العدوان غير المباشر .

وفى ضوء خبراتى فاننى ارجو ان يسمح القارىء الكريم بان اذكر احدى التجارب التى مرت علىّ عندما كنت ادرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة بوستن فقد نصحنى استاذى «البرت موريس» رئيس قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بهذه الجامعة لانضم الى جماعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة مادة العلاج الجماعى تحت اشراف الدكتور « روبرت و . هايد » وكيل المستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وكانت هذه الجماعة عشرة اعضاء كنت واحدا منهم ، وكان موضوع البحث الذى كان على هؤلاء الطلبة ان يقوموا

باجرائه جماعيا « الشعور بالعداوة »

وكان من نتائج هذا البحث الجماعى بعض اساليب التعبير عن هذا الشعور ، وقد استطاعوا اقصد اعضاء اللجنة وقد ضم اليهم الدكتور المشرف ومساعده الوصول الى ثلاثة وعشرين اسلوبا من اساليب التعبير عن الشعور بالعداوة هى :

الاثارة ـ كون الشخص متسلطا ـ التعبيرات البدنية ـ المعارضة المطلقة ـ مركز الانتباه ـ التمييز ضد ـ المعاملة فى غير احترام مع الانانية ـ ارباك الاخرين ـ التعبير عن الاحساس بالسمو ـ المزاح ـ الاسلوب العقلى ـ المعاملة النفعية ـ الجزع الزائد على الحد ـ الاعتداء البدنى ـ الوقاحة ـ الاسقاط ـ التحكم التام مع التسليم بذلك ـ تحميل شخص ضعيف خطايا غيره ـ عقاب الذات ـ المعاملة الصامتة ـ افساد ذات البين ـ لهجة الحديث ـ الاذعان دون اقتناع .

والملاحظ ان اعضاء الجماعة المذكورة قد انتهوا الى ان التعبير السليم عن الشعور بالعداوة ، وان كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته ومحاولة اثبات فعاليته عن طريق التجربة يتفق اجمالا دون ماتفصيل مع مضمون الاية القرآنية الكريمة :

« ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٣٤ ك فصلت : ٤١)

(انظر كتاب : سيد عويس ، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة ، القاهرة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، صفحتا ١٠٥ ـ ١٠٦ وصفحة ١١٧)

أمثلة حية معاصرة
عن بعض أنماط العنف

٥ ـ حول مشكلة الانتحار

على الرغم من ان المصريين الاقدمين كانوا يعملون كل مايستطيعون من اجل الخلود اى لكى يحيوا بعد الموت . وعلى الرغم من ان فكرة الحياة بعد الموت احتلت فى انفسهم المكانة العظيمة . وعلى الرغم من انهم كانوا يخلدون الروح فى قول ، وكانوا يؤمنون بالقيامة والبعث وفى كلتا الحالتين كانوا يؤمنون بالخلود الشخصى بعد الموت .

وعلى الرغم من ان المصريين المسيحيين يؤمنون أيضا بالحياة بعد الموت ، حيث يرجع « التراب » (أى الجسد) الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى اعطاها « جامعة ١٢ : ٧ »

وعلى الرغم من ان المصريين المسلمين يجمعون على ان الموت ليس بعدم محض ، وانما هو انتقال من حال الى حال .

وعلى الرغم من ان العنف هو عدو السلام وان الدعوة الى السلام هى دعوة الى الحياة ، وان حفظ الحياة هو هدف الاهداف .

على الرغم من كل ماسبق نلاحظ فى ضوء ماتحدثت عنه عن موضوع « متصل السلوك العدوانى الانسانى » (انظر : ثانيا رقم ٣ من الكتاب الحالى) فاننا نجد من المصريين من يحاولون الانتحار او ينتحرون فعلا . صحيح ان عدد هؤلاء واولئك عدد قليل فى ضوء احصاءات تقارير الامن العام السنوية ، ولكننا نجدهم من حين الى حين باستمرار اى على مر السنين والاعوام . ولعل قلة عدد من يحاولون الانتحار او ينتحرون فعلا من المصريين سواء اكانوا مسلمين ام مسيحيين الذين يمثلون الوحدة الوطنية فى بلادنا العزيزة ، ترجع الى التراث الذى ذكرته آنفا ، وترجع ايضا الى تعاليم الديانة المسيحية والى تعاليم الديانة الاسلامية .

والملاحظ ان الاساليب المستخدمة فى الشروع فى الانتحار أو الانتحار فى بلادنا تعكس ماوصل اليه المجتمع المصرى من مستوى تكنولوجى . فالمصرى الذى يشرع فى الانتحار أو حتى الذى ينتحر يستخدم اساليب لايستخدمها الانجليزى أو الروسى أو الامريكى أو اليابانى . وبالمثل نجد ان عوامل الشروع فى الانتحار او الانتحار عوامل متباينة وذلك لان العناصر الثقافية التى توجد فى كل مجتمع من المجتمعات التى يعيش فيها المصرى والانجليزى والروسى والامريكى واليابانى متباينة كذلك .

وكان اول عهدى بدراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية عندما كنت ادرس الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه . كان علىّ ان امتحن امتحانا اترجم فيه فصلا من فصول كتاب باللغة الفرنسية الى اللغة الانجليزية ، وطلب منى ان اقرا كتاب « اميل دوركايم » عالم الاجتماع الفرنسى عن « ظاهرة الانتحار » باللغتين الانجليزية والفرنسية (لغته

الاصلية) وانني اذكر انني كنت افعل ذلك كل يوم لمدة ساعة لفترة ثلاثة شهور . وكنت اقتدى بعلى ماهر الذى لم يكن يعلم عن اللغة الالمانية شيئا واضطر ليتعلمها عندما شكلت لجنة وضع دستور عام ١٩٢٣ لكى يطلع على الدستور الالمانى للافادة منه . كان على ماهر قد فعل مافعلته ، اقصد انني فعلت مافعله على ماهر ، وهذا طبعا مع الفارق . كان على ماهر يفعل مافعل عن طواعية فلم يكن امامه امتحان فى اللغة الالمانية ، وكنت مضطروا لاذاكر اللغة الفرنسية حتى اجتاز امتحان الترجمة المطلوب منى قهرا .

وقد درس « دوركايم » مشكلة الانتحار فى مظهرها الاجتماعى ، وذلك من خلال ما يكشف عنه تحليل الاحصاءات الرسمية من تكرار حدوث الشروع فى الانتحار او تكرار حدوث الانتحار فى مجتمع معين ، وفى وحدة زمنية محددة او على مدى اكثر من وحدة زمنية واحدة ، واقتضى منهج دوركايم الاشارة الى دلالة هذا التكرار وتغايره زمانا ومكانا فى مجتمع واحد أو اكثر . وارتباطه أو مصاحبته لظواهر أو مشاكل أو تغيرات اجتماعية تجرى أحداثها فى نفس الفترة الزمنية أو تسبقها بقليل على مسرح المجتمع موضع الدراسة .

وقد انتهى « دوركايم » فى دراسة ظاهرة الانتحار الى تصنيف معين بعد أن حاول ان يعرف ظاهرة الانتحار بمايلى :

« اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على أى موت يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل ايجابى أو سلبى قام به المجنى عليه نفسه » .

ولكن « دوركايم » لاحظ ان هذا التعريف غير كامل فاعاد

صياغته فيما يلى :

« اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على جميع حالات الموت التى تكون نتيجة مباشرة او غير مباشرة لفعل ايجابى للمجنى عليه نفسه الذى يعلم انه سيحدث هذه النتيجة »

أما اصطلاح ظاهرة الشروع فى الانتحار فقد عرفه بمايلى :

« هو الفعل الذى لايصل الى حد حدوث الموت فعلا »

وقد اكد « دوركايم » علي أن التعريف الاخير لايمكن ان ينطبق علي الحيوانات . .

وقد انتهى « دوركايم » فى دراسته عن الانتحار الى التصنيف التالى :

- الانتحار الاثرى (الذى يرتكبه الشخص الانانى أو المحب لذاته) ويرى « دوركايم » ان هذا النمط من الانتحار يكون ناتجا عن عدم تكامل شخصية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه .

- الانتحار الايثارى (الذى يرتكبه الشخص مفضلا غيره على نفسه) : ويرى « دوركايم » ان هذا النمط من الانتحار يبدو على صور الاستشهاد والتضحية والفداء وموت الجنود فى الحروب باسم الوطنية وبقصد استعمار الاخرين واستعبادهم .

- الانتحار اللامعيارى : ويرى « دوركايم » ان هذا النمط يظهر فى فترات الاضطراب واختلال التنظيم الاجتماعى وخصوصا فى خلال الثورات والتغيرات الاجتماعية الحادة وتحت وطأة الازمات الاقتصادية حيث تهتز القيم ذات الاهداف الحميدة وتضطرب عناصر الثقافة فى المجتمع . وقد

وصل دوركايم الى فكرة اللامعيارية في دراساته الاخرى حتى اصبحت تستخدم فى تحليل عدد من المشاكل الاجتماعية الشخصية . واعطاها مضمونا عكس مضمون التضامن الاجتماعي ، فاذا كان التضامن الاجتماعى يعبر عن حالة من التكامل الايديولوجى الجمعى ، فان اللامعيارية تعتبر حالة من التخبط وانعدام الأمن وفقدان المعايير الامر الذى تصبح معه التمثلات الجمعية منهارة تماما .

ومن الامثلة التى ذكرها « دوركايم » بهذا الصدد مثال الغنى المفاجىء فهو يرى انه احد الدوافع الى الانتحار على اساس ان الفرد الذى أصبح غنيا ولم يكن يتوقع ذلك لا يستطيع ان يكافح الفرص الجديدة التى اتيحت له ، ومن ثم فان حدود رغباته العالية او المنخفضة التى كان يرنو الى تحقيقها ، ودرجات سلم حياته ، اصبحت كلها قد تزعزعت واضطربت .

وضرب دوركايم مثلا اخر عن « الطلاق » وهو يرى انه اذا وقع الطلاق بين الرفقاء فإن نسبة ارتكاب الانتحار تعلو . وان الموقف اللامعيارى الذى يواجهه الازواج المطلقون اصعب من الموقف اللامعيارى الذى تواجهه الزوجات المطلقات . ذلك لان الازواج هم الذين يكتسبون اكثر من تأثير الزواج المنتظم .

والملاحظ ان « اميل دوركايم » فى دراساته وبخاصة دراسته عن مظاهرة الانتحار كان فى حقيقة الامر يؤدى دور عالم النفس الاجتماعى على الرغم من معارضته لعلم النفس . كان فى هذه المجالات فى الواقع يعارض « علم النفس

الفردى » وقد تجاهل دور كايم بطريقة منتظمة اهمية « مفهوم القوة » وكان يرى « ان الناس يوافقون على امور معينة لانهم ببساطة يرغبون فى ان يوافقوا . ونجد « دوركايم » اذ يتجاهل السلطة او القوة فانه يتعمد ان يتجاهل ان التعليم قوة وان عوامل الانتاج اذا امتلكها بعض الافراد لايرى فى ذلك قوة ، وكان لايرى القوة السياسية . ومع ذلك فانه كان اهتمامه يبدو واضحا وهو يتحدث عن « مفهوم الثقافة » وكان يفترض ، دون ان يثبت ذلك علميا ، أن ثقافة المجتمع ثقافة متجانسة .

ولابد ان اذكر ان « اميل دوركايم » كان رائدا علميا وهو يدرس موضوع ظاهرة الانتحار او الشروع فيه ، ولكننا نحن نعلم فى الوقت الحاضر اكثر مما وصل اليه فى دراسته من نتائج (انظر سيد عويس : ظاهرة الانتحار لاميل دوركايم ، باللغة الانجليزية المجلةالجنائية القومية العدد الاول ، مارس عام ١٩٧٢ ، صفحات : ١١٢ ـ ١٢٢)

وقد واجهت التفكير فى الانتحار بقصد ايذاء ذاتى عن طريق مواجهة العنف حيث تتنازع الانسان مناخ هذا الموقف ، كمرحلة اولى من متصل السلوك العدوانى الانسانى الذى ذكرته من قبل ، قوتان : قوة القاتل وقوة القتيل معا ، قوة الجانى وقوة المجنى عليه فى وقت واحد . فقد كان تفكيرى بقصد تدمير ذاتى وهدم كيانى واعدام وجودى . فكرت فى القيام بهذه الفعلة الشنعاء عندما لاحظت بعد عودتى من الخارج فى اواخر شهر مايو عام ١٩٥٦ حاملا درجة الدكتوراه فى جعبتى ولم يتفضل احد من جماعتى المرجعية بزيارتى حيث كنت اجتاز محنة التعطل ولم يكن لى مصدر مالى اعيش به واسرتى الصغيرة حياتى الانسانية ، كنت وحيدا اعزل ومنعزلا . وكادت ان تضطرب صحتى النفسية من جراء ماكنت

اعانيه في ذلك الحين من تناقضات بين حقوقي والتزاماتي وبين الامكانات التي كانت تحت يدى فضلاً عن تصورى لتوقعات الاخرين وبخاصة من اعضاء جماعتي المرجعية . واننى اذكر اننى كنت ضائعا حقا واحترم اعضاء اسرتي الصغيرة صمتي وعذوفي عن الدنيا .. ووصلت الى نتيجة حاسمة . وجدتني فجأة افكر في الانتحار وكانت فكرة لم تمكث الا برهة وجيزة بددتها تذكرى لمواعظ استاذى الشيخ محمود خطاب السبكي حيث كان يندد في مواعظه بالقتل على وجه العموم (اخذا بالثأر) او بقاتل نفسه . كان يرى ان هذه الافعال ان هى الا جرائم من وجهة نظر تعاليم الديانة المسيحية (قتل السيد المسيح عليه السلام مثلا) ومن وجهة نظر تعاليم الديانة الاسلامية . وكان يؤكد رحمه الله جل وعلا على ان تمنى الموت لايدل على ايمان من يتمناه ، ويذكر الاحاديث النبوية التي تفصح عن ذلك ، ومنها :

عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايتمنى احدكم الموت اما محسنا فلعله يزداد ، واما مسيئا فلعله يستعتب » (متفق عليه) .

واننى اذكر مجيىء احدى الآنسات الى « المعهد القومى البحوث الجنائية » قبل ان يصبح « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » وذلك قبل عام ١٩٥٩ وكانت تحمل هذه الانسة دراسة عن « ظاهرة الانتحار لاميل دوركايم » كتبتها باللغة الفرنسية لتريني كم هي بارعة توطئة لكي تنضم الى باحثي المعهد المساعدين في ذلك الحين . كان قد ارسل هذه الانسة اليّ احد الاصدقاء . ولما لم اكن ادير المعهد ومن بعده المركز . ولا سلطة ولا سلطان في يدى فاشرت عليها ان تذهب الى الاستاذ المدير فلعله ان يقتنع بشخصيتها ويكون

من نصيبها ان تعمل باحثة مساعدة . وقد حدث ذلك فعلا ومازالت تعمل بالتحرير حتى وقت كتابة هذه السطور .

وقبل ان اختم موضوع الانتحار اود ان ابين للقارئ الكريم ان المصريين القدماء أو بعضهم فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التي قمت باجرائها (عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) انه لم تكن الحياة فى بلد من البلدان ، غير مصر ، اكثر جاذبية أو اكثر اشتهاء . ومع ذلك فلايوجد ايضا بلد من البلدان ، غير مصر ، أميط اللثام عن الموت ، فيه ، بمثل هذا الوضوح ، ومن ثم فلاعجب اذا كان المصريون القدماء قد حملوا الى درجة التعصب ، كراهية ومقتا للموت ، وخصصوا جزءا غير صغير من اموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته ، ولعل هذه الخاصية النفسية الجوهرية ، عند المصريين القدماء ، تكشفها الكلمات الرئيسية للاستغاثة المنقوشة على الكثير من شواهد قبور المملكة المتوسطة . وتحض هذه الكلمات عابرى السبيل على ترتيل الدعوات بالنيابة عن المتوفى :

« انت الذى تعيش وتبقى ، انت الذى تحب الحياة وتمقت الموت ، كل من يمر على هذا القبر ، كما تحب الحياة ، وتمقت الموت ، لهذا السبب فانك تهب لى بكل مافى يديك »

وقد بينت الدراسة المشار اليها انه اذا كان المصريون القدماء منذ الاف السنين ، فى الماضى السحيق ، يخافون الموت ويمقتونه ويكرهونه احيانا ، ولايخافون الموت ولايمقتونه ولايكرهونه احيانا اخرى ، فان المصريين القدماء ، مثل المصريين المعاصرين ، كانوا فى معظم

الاحيان لايخافون الموتى (انظر كتاب سيد عويس « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٦ ، صفحات ٩٢ ـ ٩٣ و٢٨ ـ ٢٩ و٤٤ ـ ٤٥)

والملاحظ ان انتحار الانسان هو اقصى مراحل ايذاء ذاته ، ومع ذلك فاننا نلاحظ ان شرب « القهوة » و« الشاى » و« التدخين » و« تعاطى الخمر » و« تعاطى المخدرات بأنواعها » هى مراحل من مراحل ايذاء الذات ، والأدمان عليها يؤكد هذا الايذاء . والمقصود بمفهوم « الادمان » هنا فى ضوء تعريف منظمة الصحة العالمية الذى تبنته فى عام ١٩٥٧ انه :

« حالة التسمم « التخدير » الدورية او المزمنة الناتجة عن تكرار تعاطى المادة » وتتميز هذه الحالة ببعض الصفات هى :

ـ رغبة قهرية للاستمرار فى تعاطى المادة والحصول عليها بأية وسيلة .
ـ الميل الى زيادة الجرعة .
ـ ظهور اعتماد نفسى وعادة اعتماد جسمانى للتعاطى
ـ تأثير مدمر على الفرد والمجتمع

وقد تبنت المنظمة المذكورة مفهوما اخر هو التعود ويقصد به :

« الحالة الناتجة عن الاستعمال المتكرر للمادة »

والملاحظ ان سماتها يمكن تمييزها فيما يلى :

ـ رغبة (ليست قهرية) للاستمرار فى تعاطى المادة لرفع معنويات المتعاطى .
ـ عدم الميل الى زيادة الجرعة .
ـ ظهور الاعتماد النفسى الى حد ما مع عدم ظهور اعتماد

جسمانى مطلقا وبذلك لاتظهر اعراض الانقطاع عند عدم الاستمرار فى التعاطى .

ورأى المتخصصون فى مواد العقاقير المخدرة تداخل استعمال هذين التعريفين وان استعمال تعريف « الادمان » فى ضوء الصيغة السابقة ، يكون فى حقيقة الامر فى غير موضعه الدقيق حيث ان الادمان بالصورة التى ذكرت لاينطبق الا على عدد محدود جدا من المواد المخدرة مثل « الافيون والمورفين والهيروين » فى حين توجد مواد مخدرة اخرى لاينطبق عليها هذا التعريف الا انها اخطر المواد المخدرة التى عرفها القانون مثل مواد « الحشيش والكوكايين والمهلوسات » . لذلك فقد رأت لجنة المخدرات بالامم المتحدة استبعاد هذين التعريفين واستخدام تعريف اخر اكثر شمولا للتطبيق وهو مصطلح « الاعتماد » الذى يقصد به :

« الحالة التى تنشأ من التعاطى المتكرر سواء كان دوريا او مستمرا »

والنظرية الاكثر شيوعا فى تفسير الاعتماد على « العقاقير المخدرة » تقوم على ملاحظة ان الخصائص الاكلينيكية لاعراض التوقف عن التعاطى تكون فى طبيعتها على عكس الخصائص المهدئة للعقار . (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : شبعة المخدرات ، دراسة غير منشورة ١٩٨٧) .

٦ ـ بعض جرائم القتل :

ويتدرج « متصل السلوك العدوانى الانسانى » من حالة ايذاء الذات واستخدام العنف فى ذلك للدرجة التى يقتل الجانى نفسه او يحاول الشروع فى هذا القتل ، او تعاطى

انواعا شتى من المكيفات التى تنتهي بفقدان حياته على الرغم من معرفته بذلك ، وقد يكون الاعتداء على الاموال بالسرقة اى باختلاس مال منقول للغير ، او يكون الاعتداء على الاداب العامة التى تنفر منه قيم المجتمع الحميدة . ويكون الاعتداء على الدولة بالتجسس فى غير مصلحتها .. الخ . وقد ذكرنا ذلك وغيره من قبل .

ولاجدال فى ان جريمة القتل من اخطر جرائم الاعتداء على الاشخاص ، ولقد حرمته جميع الشرائع السماوية والوضعية ، واستنكرته جميع المجتمعات فى الازمان القديمة والحديثة . وقد اهتم الكثير من الباحثين فى مجالات علم الاجرام وعلم النفس الاجتماعى فى البلاد الغربية بدراسة هذه الجريمة محاولين معرفة العوامل التى تؤثر على بعض بنى البشر فتدفعهم الى الارتكاب هذه الجريمة .

وكان من هؤلاء استاذى « البرت موريس » الذى آلى على نفسه اجراء بحث عن جريمة القتل . وقد تفضل ، وكنت احد تلاميذه ، ان يشركنى فى جمع مادة بحثه ، وقد اعد المنهج الذى استخدمه قاصدا ان يكون طريقة لدراسة انماط الجرائم الاخرى . وكان هذا المنهج يرى ان التعريف القانونى للجريمة ، وبخاصة لجريمة القتل ، اولى بالاختيار والاعتماد عليه الا اذا كانت نتائج البحث تعد له بالاضافة اليه او بغير ذلك . وكان هذا المنهج يهتم اهتماما كبيرا فى حالات الجرائم (القتل + السرقة + تعاطى المخدرات مثلا) باسلوب ارتكاب هذه الجرائم . فهو اقصد البروفسورالبرت موريس كان يؤكد لنا على ان اسلوب ارتكاب الجرائم يعكس المستوى التكنولوجى للمجتمع الذى ارتكبت فيه احدى الجرائم السالفة الذكر . فالقتل مثلا قد يستخدم فى ارتكابه استخدام

المسدس او البندقية ، وقد يستخدم فى ارتكابه اساليب اخرى كالذبح او الضرب بآلة حادة او بغير الة حادة او كالخنق او يستخدم اسلوب الحريق او القذف من مكان عال او من عربة وهى تسير ، والسم والغرق والصدمة الكهربائية او الاهمال المتعمد .. الخ . ويتضمن هذا المنهج الظروف التى تيسر للقاتل ان يرتكب جريمة القتل ، فضلا عن السمات التى يتحلى بها القاتل وبخاصة سمات النوع (الذكور والاناث) ، ومستوى الذكاء وحالة صحته العقلية . وكان دور المجنى عليه او عليها موضع الاهتمام . وكان يرى البرت موريس ان للمجنى عليه دورا فى ارتكاب جريمة القتل وبعض الجرائم الاخرى كالجرائم الجنسية مثلا ، وصلة الجانى بالمجنى عليه كان يراها البروفسور موريس تساعد عل تفسير ارتكاب جرائم القتل . وكذلك المجتمع الذى نشأ بين جنباته والمناخ الثقافى الذى عاش تحت ظله ، فضلا عن الظروف الاجتماعية ككل ، فقد كان يرى ان القوى الاجتماعية هى التى تساعد على تغيير السلوك الانسانى . واهتم منهج البحث بالعواقب الاجتماعية لجريمة القتل وبخاصة ماتعلق منها بحوادث المرور وقتل السياسيين .

ومهما يكن من الامر فان البروفسور موريس كان يؤكد اهمية دراسة جرائم القتل مرارا وتكرارا اذ كان يقول لمساعديه وكنت واحدا منهم انها من الجرائم اللامعة اجتماعيا .

واذا كانت جميع جرائم القتل ، كما يذكر ذلك احد البحوث التى اجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : ملامح جريمة القتل ، عام ١٩٧٠) ـ تتضمن عنصرا من عناصر

العنف وذلك لان الشخص الذى يقتل انما يقضى على حياة شخص بطريقة اجرامية . فان هذا البحث فى ضوء نتائجه يرى ان هذا العنف الذى يصاحب القتل يتدرج من حيث الشدة . فالبعض من القتلة تنتهى جريمته بمجرد القضاء على المجنى عليه ، ولكن البعض الاخر قد يستمر فى عدوانه على المجنى عليه حتى بعد موته كما يبدو ذلك واضحا فى حالات التمثيل بالجثة .

وذكر البحث المشار اليه فى هذا الصدد تصنيف القتلة تبعا لما قاموا به من عنف فى اثناء ارتكابهم لجريمتهم . وذكر ان التصنيفات التى اتبعها « جاروفالو » تتعلق بالطريقة التى ارتكبت بها الجريمة . فعندما يستخدم القاتل التعذيب او يطيل فى عملية القتل بقصد ايلام المجنى عليه ، فانه اى جاروفالو على يقين بان ذلك يرجع الى قسوة القاتل الفطرية ! فليس هناك انسان سوى يستطيع ان يتحمل انين الضحية او منظر تشويه الجثة . فالتعذيب فى حد ذاته دليل كاف على انعدام عاطفة الرحمة حتى ولو لم يكن قصد القاتل واضحا . وذكر هذا البحث ان فى بعض الوسائل المستخدمة فى جريمة القتل نوعا من استخدام العنف اكثر من غيره كما فى حالة استخدام الشنق او الخنق او الطعن باداة حادة كالبلطة مثلا فى مقابل استخدام السم .

ـ شاب قتل مرتين فى مدينة القاهرة :

وفى ضوء احدى الدراسات العلمية الاجتماعية التى قمت بها عن شاب مصرى فى الثالثة والعشرين من عمره ارتكب جريمتى قتل : الأولى قتل فيها رجلا بالاشتراك مع اخر والثانية قتل فيها احدى السيدات بالإشتراك مع اخرين . وقد حكم على هذا الشاب بالاعدام فى كل من الجنايتين ـ تبين ان

هذا الشاب قد ولد وكان عمر ابيه ٤٥ عاما . وقد ولد بعد ميلاد ثلاث بنات ، ويبدو انه نشأ مدللا ولا يحتمل ابواه (وخصوصا والده) اى شخص يمسه بسوء او اهانة .

وكان فى الاسرة اخوه الاكبر ، شاب مجتهد ، كان محل اهتمام جميع اعضاء الاسرة كان متميزا عن ابناء الاسرة وبناتها فى كل شىء . فله مدرس خاص ليتعلم الموسيقى وحجرة خاصة منفصلة عن باقى الحجرات ، كذلك له دراجة للذهاب بها الى المدرسة .. الخ ومن ثم تحدد للشاب موضوع الدراسة ، تعسفيا ، مستوى معين من الطموح عليه ان يعمل جاهدا للوصول اليه لتحقيق امال الاسرة .

ويبدو ان هذا الشاب لم يأبه كثيرا للسعى فى سبيل تحقيق مستوى الطموح الذى حددته له مكانة اخيه الاكبر خصوصا فى خلال الفترة التى كان ابوه فيها يستطيع ان يرعاه بشخصه واكتفى بالدلال الذى سمح ابوه له به والذى بلغ حد التساهل فى بعض الاحيان .

ان اسرة الشاب قد كفلت له كل حاجاته المادية والمعنوية حتى تركها الى القاهرة ليعيش مع جدته واخته واخيه الاكبر . وكان امل الاسرة ان يقتفى اثر اخيه الاكبر فى التعليم والنجاح فى يسر وسهولة ، وفات الاسرة ان الشاب كان مدللا كان مستمراً الدلال الذى سمح ابوه له به الى حد بعيد ، الى حد انه استطاع ان « يعاند » جميع اعضاء الاسرة ومن بينهم والدته التى كان يحبها وكاد ذات مرة ان ينتحر من اجلها . ونجح الشاب فى استخدام سلاح العناد فى مختلف مراحل حياته .

وأصبح الشاب بفضل هذه المعاملة الثنائية يشعر ببعض الكبرياء الكاذب وانه شخص مهم أو يجب ان يكون شخصا

مهما ولو كان ذلك على حساب شعور الاخرين ومصالح الاخرين ، سواء كانوا اقرب الناس اليه او لم يكونوا . فمثلا يلعب « بتصاص » صغير وقرناؤه يلعبون « بتصاصات » أكبر ، هذا محال فيسرق من « حصالة » اخيه الاصغر ليشترى « تصاصا » اكبر ولا يحاسب على ذلك .

واستمرأ الشاب هذا السلوك غير السوى ، ورفض أن يجارى رغبات الاسرة فيسعى فى سبيل تحقيق المستوى التعسفى للطموح الذى حددته له ظروف اخيه الاكبر ، فبدلا من ان يكون هذا الاخ مثالا يحتذى صار مثالا يكره . اى انه بسبب التمييز فى المعاملة بين الشاب واخيه الاكبر ، ووضع مستوى تعسفى للطموح فى شخص الاخ الاكبر امام الشاب نبت الشعور بالعداوة عنده ضد الاخ الاكبر .

كره الشاب اخاه مافى ذلك من شك . وخصوصا عندما اصبح الاخ الاكبر رب الاسرة الحقيقى (اى عندما كان الشاب فى الرابعة عشرة من عمره ويعيش مع اخيه فى القاهرة) وكرهه . لانه فى مركز احسن ، فهو طالب فى كلية الهندسة ، والشاب مازال فى السنة الاولى الثانوية . كرهه لانه منافسه ، كرهه لانه ابعد من ان يكون مصدرا للتساهل معه . واخيرا كرهه لانه أصبح مصدر هوانه ، فالاخ الاكبر فى حدود قيمه الاجتماعية التى كان يرى ان اهدافها حميدة ، لم يعامله المعاملة التى يجب ان تكون . كان يضربه ويسبه وكان يكشف نقاط ضعفه فى عنف وفى قسوة فى بعض الاحيان .

لم يستطع الشاب ان يصادق اخاه الاكبر رب الاسرة ومثله الاعلى المفروض عليه . وفشل الاخ الاكبر فى تقبل الشاب وحبه واحترامه والاعتراف به ، فذهب الشاب الى الشارع

(الى الشلة) . فلعله ان يجد فيها اشباعا لبعض حاجاته : التقبل والحب والاحترام والاعتراف به .

ومات الاب ، وترك الشاب المدرسة ، وسعى الاخ الاكبر الى ان يلحق الشاب بعمل ثم بعمل ثم بعمل . ولكن الشاب يترك كل عمل لاسباب غير مقنعة . انه ينتقم لنفسه من اخيه الاكبر . انتقم منه قبل موت ابيهما ، عندما كان فى المدرسة بالهرب من المدرسة . وانتقم منه بعد وفاة ابيهما عندما كان يترك كل عمل يلحقه الاخ الاكبر به بدون سبب وجيه .

ويعلل الشاب ذلك بقوله ان اخاه الاكبر كان يجعله يحس امام الناس وخصوصا اعضاء الاسرة « زى الفار » او « اننى صغير وماسواش حاجة » او « انى صغير خالص ماليش صفة » ، وان اخاه الاكبر كان « بيبص لى من فوق تملى »!

ولم يكن الاخ الاكبر وحده يفعل ذلك . بل كان زوج الاخت الكبرى للشاب يخشى من تأثيره على اولاده ، ويمنع اولاده من صداقته .

وفى المدرسة كان المدرسون والناظر وحتى الاخصائى الاجتماعى يعاملون الشاب معاملة غير سليمة . من صورها انه شخص تافه يضرب « الشلوت »

وعن العمل أسأل الشاب لماذا تركه ؟ فيجيب عن ذلك أن احد المسئولين حاول ان يهزأنى او « علشان احفظ كرامتى » !

كان معظم البالغين حول الشاب موضوع الدراسة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه ، مصادر هوانه واحتقاره وتفاهته ، ومن ثم مرارته . فهو لم يجد فى الاسرة ماكان يجده عندما كان صغيرا : الشعور بالاهمية . ولم يجد فى المدرسة

الا الاحتقار . ولم يجد فى العمل مايساعده على ان لايكون تافها . فذهب الى الشارع حيث المغامرات ، وحيث المكانة الاجتماعية تزداد كلما ازدادت هذه المغامرات .

وجد الشاب فى الشارع أشخاصا يواجهون الى حد كبير ظروفا مثل ظروفه : ظروف تشعرهم دائما بان الحياة فى بعض صورها شيء لاقيمة له ، ظروف تذكرهم بانهم ليسوا اناسا بل مجرد اشياء وان اعضاء اسرهم ومدرسيهم واصحاب العمل يعيشون على النفاق وبالنفاق ، وان الكثير من امالهم يبدو سرابا .

ان الشاب وزملاءه الذين اشتركوا معه كانوا يسرقون بالدرجة الاولى بقصد الصرف على المأكل والملبس والظهور بالمظهر الذى حرمتهم الظروف منه . اما ارتكاب جريمة القتل فكان وسيلة وليس هدفا فى ذاته . وهذا يدل على عدم عراقتهم فى ارتكاب جرائم السرقة . فالمجرم الذى يحترف السرقة يهمه ان يسرق فقط ، ويحاول ما استطاع ان يتجنب ارتكاب جريمة اخرى بله جريمة قتل او شروع فى قتل .

كان الشاب يسرق ، وكان يصرف كل مايسرقه فى اسراف ملحوظ ، ولعله كان يحاول التعويض عما يحس به من تفاهة او حرارة .

وربما كان اتهام الشاب بالشذوذ الجنسى صحيحا . مما زاد فى ضوء قيم مجتمعنا فى شعوره بعدم الثقة فى نفسه ، وخلق فيه الشعور بالتفاهة والدونية ، وربما كان تقبل رفاقه له ، على علاته ، دافعا على التهور فى المغامرات ومن ثم استهتاره بالقيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة التى حاولت اسرته « المحافظة » ان تنشئه عليها . والتى لم تجد من يسهر فى

محيط الاسرة او المدرسة أو المنظمة الدينية او النادى الاجتماعى او غيرها من اجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فى المجتمع ، على تثبيتها فى نفسه وبخاصة فى مرحلة المراهقة التى اجتازها تحت سلطان اخيه الاكبر الذى كان فى الحقيقة مصدر معظم عوامل الاحباط التى واجهها الشاب فى هذه المرحلة ، ومن هذه العوامل التمييز فى المعاملة ، وفرض مستوى تعسفى للطموح ، والفشل الواضح فى تقبل هذا الشاب واحترامه والاعتراف به ، ومن ثم كانت كراهيته لاخيه الاكبر ، ومايكنه له من الألوان العديدة من الشعور بالعداوة ، التى انتقلت بدورها عن طريق عملية الازاحة او عملية التحويل الى العالم الخارجى . اى الى المجتمع دون ان يهيىء المجتمع لهذه الكراهية والالوان العديدة من الشعور بالعداوة ، عن طريق منظماته الاجتماعية او اجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فيه ، تطبيق الاساليب السليمة للتعبير عنها ، او يهيىء المجتمع المنافذ غير الضارة الكافية فيه التى ربما كانت يسرت للشاب ان ينفس عن طريقها ، عن هذه الكراهية او غيرها من الالوان العديدة من الشعور بالعداوة .

ومن ثم نجد تفسير قيادة الشاب لرفاقه وتسلطه عليهم . فقد كان اكثرهم جرأة واستهتارا ولامبالاة لانه اختير له ان يكون اكثرهم تفاهة واكثرهم حاجة الى الشعور بالعداوة ، وان تكون للحياة فى بعض صورها ، فى نظره اقل قيمة (انظر سيد عويس دراسة غير منشورة القيت فى احتفال لجنة العدالة والسلام مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل)

ـ جريمة قتل فى المدينة :

فى صباح يوم ٢٧ من شهر اغسطس عام ١٩٦٠ حمل

المدعو (أ) بندقيته المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل ، وانتظر السيدة (ر) على محطة « اتوبيس » تقع في احد شوارع القاهرة المزدحمة ، وهى المحطة التى اعتادت السيدة (ر) الركوب منها ، وهى فى طريقها الى العمل .

لم يعرف احد من الواقفين على محطة الاوتوبيس اى شيء عن المدعو (أ) او السيدة (ر) او عن العلاقات الاجتماعية التى تربطهما او عما يبيته كل للاخر ، لم يعرف احد عن شخصية كل منهما شيئا ، ولم يعرف احد عما يعتمل فى نفس كل منهما شيئا .

وقف المدعو (أ) على محطة الاوتوبيس ينتظر وينتظر . وفى نفسه مشاعر جمة ، متناقضة متصارعة . ولكن لم يلحظ احد من الناس شيئا ، فكل فى طريقه الى عمله او فى طريقه لقضاء حاجاته . مثلهم فى ذلك مثل معظم سكان الحضر . علاقاتهم فى اغلب الاحيان غير شخصية وغير قوية ، وغير متجانسة .

ولم يطل انتظار (أ) على المحطة . فقد جاءت السيدة (ر) لتأخذ اوتوبيسها كالمعتاد فى طريقها الى العمل ، فهى تعمل فى احدى المصالح ، موظفة متواضعة تعمل فى ادارة الحسابات .

واذا كان احد من الناس ، فى الشارع الواسع المزدحم الذى يقع فى وسط المدينة الكبيرة قد لاحظ هذين الشخصين قبل ان تقع الواقعة ، لرأى ان (أ) يتحدث مع (ر) وكأنه يعرض امورا عليها . امور هامة عنده يود لو انها تتحقق فهى تمس كيان نفسه مسا فيه عمق . ولوجد كذلك على وجه (ر) سمات الامتعاض ، وربما سمات التشفى والسخرية . ولو قدر لاحد ان يسمع مادار بينهما من حديث ، لعرف أنهما كانا على

صلة معينة فى وقت من الاوقات ، وانه قد تحطمت هذه الصلة فى الوقت الحاضر ، وانه يرغب لهذه الصلة ان تعود كما كانت ، حتى تعود اليه نفسه المطمئنة ، وحتى يبرأ من بعض الجروح التى ألمت به ، وحطمت كيانه او كادت . ولعرف ان (ر) ترفض رفضا باتا هذه الرغبة فهى لاتريد اعادة الامور بينها وبين (أ) الى مجاريها ، بل تطلب منه صراحة ان يبتعد عن طريقها وان يتركها تأخذ سبيلها فى الحياة دونه .

ولكن لم ير الناس الواقفون على محطة الاوتوبيس شيئا ، ولم يلاحظوا شيئا ، وكذلك لم يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و (ر) ولم يدر الناس الاخرون الذين يسيرون فى الشارع المزدحم او يلاحظوا شيئا كذلك . ولا يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و (ر)

لم ير احد من هؤلاء جميعا البندقية المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل التى كان يحملها (أ) ولم يروا يده عندما امتدت الى هذه البندقية ، ولا اصابعه عندما ضغطت على الزناد ست مرات ، ولم يروا كذلك الرصاصات الست التى افرغت فى قلب (ر) . ولكن فوجئوا بكل ذلك عندما رأوا شابة يبدو عليها اثار من ملامح الوسامة الصارخة التى كانت ، ولايعدو عمرها الثانية والعشرين سنة ، واقعة على الارض تتخبط فى دمائها ، ثم عندما رأوها جثة هامدة لاحراك فيها ويقف على رأسها رجل لايزيد عمره على اثنتين وثلاثين سنة ، حاملا فى يديه بندقية مازال دخان البارود يخرج من فوهتها ، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب . وتطوع حشد منهم للتحفظ عليه . وسارع اخرون يطلبون شرطة النجدة . وجاء رجال شرطة النجدة فى التو والساعة وقبضوا على (أ) بتهمة قتل (ر) . وقف (أ) فى قفص الاتهام امام محكمة الجنايات

بالقاهرة وككل قاتل على صلة وثيقة بالمجنى عليه او بالمجنى عليها ، فقد اعترف اعترافا تفصيليا . فهو قد ولد فى ميت غمر منذ اثنتين وثلاثين سنة ، ونشأ فيها حتى أصبح يافعا . ثم انتقل مع اسرته الى القاهرة المدينة الكبيرة وواجه وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره اساليب حياة اجتماعية جديدة تختلف الى حد كبير عن تلك التى كان يواجهها فى ميت غمر ولكنه لم يصطدم كثيرا ، فقد تمكن من التكيف ازاء هذه الظروف الجديدة ، واستطاع بعد ان ترك المدرسة وتأكد من معرفته مبادىء القراءة والكتابة ان يجد عملا فى صناعة الاحذية وحذق هذه الصناعة واتقنها ، وكان طموحا . فلم يرض لنفسه ان يكون صانع احذية فقط . بل سرعان ماتبلور هدفه فى ان يكون صاحب محل يصنع فيه الاحذية ويبيعها ، وعمل فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، ونجح . واصبح يملك محلا فى احد شوارع المدينة المزدحمة ، فى احد الاحياء الذى تسكنه اغلبية كبيرة من اعضاء الطبقة المتوسطة من التجار والموظفين ، كما يسكنه الكثير من اعضاء الطبقة العاملة .

تم لـ (أ) كل ذلك .. تحققت اماله ووصل الى مايصبو اليه من مستوى معين من الاستقرار الاقتصادي . واصبح معلما يملك ويأمر وينظم اموره بنفسه ويدبر لغيره ، بعد ان كان « اسطى » يعمل بالقطعة يؤمر وينظم ويدبر له . تم له كل ذلك عندما اكمل الخامسة والعشرين من عمره .

وكان اهتمام (أ) بتحقيق استقراره المعاشى شغله الشاغل . فلم يفكر فى الزواج قبل ذلك وان كان هذا لم يمنعه من ان تكون له حياة جنسية ، او على الاقل علاقات معينة مع أعضاء الجنس الاخر . فقد كان شابا ناجحا ، وكان حديثه

طليا ، يتحدث في لباقة مع عملائه الذكور والاناث . وان كانت الاناث اكثر اصغاء الى هذا الحديث ، كما كن اكثر اغراء به . فضلا عن ذلك فقد كان (أ) موضع غبطة مرؤوسيه وجيرانه ، وحسد زملائه في بعض الاحيان

وبعد ان استقر أمر (أ) في محله الذى يملكه ، واستتب له الامر ، واصبح مقصد العملاء والعميلات يشترون منه احذيتهم او يصنعونها او يصلحونها عنده ، رأى (أ) ان يستقر استقرارا من نوع اخر ، استقرار ينظم حياته الشخصية فتكون له اسرة يسكن اليها ، ويحقق عن طريق بنائها بعض رغباته وآماله كإنسان ، وكعضو يعيش فى المجتمع ، وكتاجر يهمه ان تكون سمعته فوق مستوى الشبهات ، وتحقق له ذلك وهو في السابعة والعشرين من عمره ، عندما وجد بين الاناث من وافقت على الزواج منه ، كما وافقت ايضا على مد يد المساعدة المادية له حتى يستطيع ان يحقق طموحه فى دعم تجارته وازدياد معاملاته المالية .

ولكن اذا كان (أ) قد نجح في اتقان مهنته ، ودعم سمعته ، والوصول فى السلم الاجتماعى الى مكانته ، وتحقيق مستوى من الاستقرار الاقتصادي ، فانه لم ينجح فى الاستقرار في اسرته التى سرعان ما اهتزت دعائمها وتصدع بنيانها ، وحل الخلاف بينه وبين زوجته محل الوئام . وانتهى الامر بالطلاق بعد ان استمر الزواج فترة غير طويلة ، استمرت بعدها الشحناء بينهما ، ورفع كل منهما قضايا ضد الاخر .

وعاش (أ) بعد الطلاق وهو يفكر فى الزواج مرة اخرى . وهو لن يعدم ان يجد اخرى من بين من تترددن على محله من عميلات . خصوصا اللاتى يعجبهن شبابه ، ونجاحه ، وحديثه الطلى ، ولباقته الجذابة ، ومن اللاتي يحسن الاصغاء الى هذا

الحديث وتبهرهن هذه اللباقة . وكانت (ر) من اكثر العميلات اعجابا بـ (أ) لكل هذه السمات والخلال ، وربما لبعض الامور الاخرى ، وكان (أ) يبادلها اعجابا باعجاب ويراها كل يوم عندما تتردد على المحل او فى غدوها ورواحها .

كانت (ر) طالبة فى مدرسة التجارة المتوسطة وتقع هذه المدرسة فى احد الشوارع القريبة من المحل الذى يملكه (أ) تذهب الى المدرسة فى الصباح ، وتعود منها فى طريقها الى بيتها بعد انتهاء الدراسة . وفى كل مرة تمر امام محل الاحذية الذى كثيرا مايجتذب انظارها . فتقف امامه لحظات او دقائق او اكثر من ذلك احيانا . تشاهد مافى واجهته من نماذج الاحذية وما طرأ على هذه النماذج وما جد منها ، تعجب ببعضها وقد لايعجبها البعض ، تتلهف على الحصول على نموذج معين ، وقد تجبن ان تناقش صاحب المحل فى ثمنه ، وتتشجع فى الكثير من الاحيان ، وتشترى احيانا ولاتشترى احيانا اخرى ، وعندما تشترى تساوم وتتعامل كأنثى ، تحاول اغراء من يحادثها ، وكثيرا مايكون هو (أ) الذى كان يسمع لها ، ويحدثها حديثه الطلى ، ويحاول ان يبيعها ماتطلبه ، وكان ييسر عليها عملية الشراء ولو على حساب مايجب ان يتقاضى من ثمن . فقد كانت (ر) شابة لم تعد العشرين من عمرها ، فيها وسامة صارخة ، وتملأ جسدها الحيوية ، وفيها جاذبية الانثى اللعوب ، وقد اخذت هذه السمات والخلال بلب (أ) فجاذبها الحديث الشخصى ، وتجرأ فى حديثه هذا ، وشجعته (ر) على ذلك . فتواعدا على اللقاء خارج العمل ، وخارج المدرسة بعيدا عن الناس ، وكثر اللقاء ، وبات كل منهما يحلم حلمه الجميل على الرغم من فارق السن بينهما ، اذ بلغ هذا

الفارق نحو عشر سنوات ، وان كان الفرق بين مكانتهما الاجتماعية يكاد ان لا يكون . الامر الذى شجع (أ) على التقدم لخطبتها من اسرتها التي كانت متصدعة بسبب وفاة الاب . وسرعان ماوافقت الام على هذه الخطبة ، فان (أ) رجل يعمل ويكسب ويستطيع ان يمدها ببعض المساعدة المادية وبعض العون المعنوى .

نشأت (ر) فى كنف امها معظم سنى حياتها . فمنذ وفاة ابيها ، وهى فتاة في العاشرة من عمرها ، قد كفلتها هذه الام . وكان دخل الاسرة يكاد ان يكفي حاجاتها المتعددة . وكانت الام عندها بعض الطموح ، فأبت الا ان تعلم ابنتها حتى تكمل تعليمها المتوسط على الاقل . ويبدو ان الام لم تكن العائل الذى يستطيع ان يحزم امره عندما تتطلب الامور ذلك . وربما كان يُتم (ر) المبكر عاملا من عوامل عدم استطاعة الام ان تكون حازمة حريصة على بعض القيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة التى تسود عادة الطبقة التى تنتمى اليها هذه الاسرة

ونشأت (ر) فى هذا المناخ الاسرى مدللة،او شبه مدللة ، وقد ساعد على وجود هذا الدلال انها شبت قوية الجسم صحيحته ، ترى فيه عناصر الانوثة الجذابة تشع وتلألأ كلما زاد عمرها ، وعرفت (ر) كل هذه الامور عن نفسها ، فتركت لنفسها العنان ، ولم تجد من امها الرقيب الذى يهتم بسلوكها ، او الشخص الذى يفسر لها اسرار الحياة ويرى ضرورة الحرص على القيم ذات الاهداف الحميدة التي يجب ان تسود ، والحذر من الزلل ، فكانت لها حياة جنسية مع اعضاء الجنس الاخر ، علاقات تشبع بها غرورها ، وقد تتباهى ببعض تفاصيلها بين لداتها ، على الرغم من انها لم تتعد العشرين

من عمرها وانها مازالت تطلب العلم فى مدرسة التجارة المتوسطة .

اكملت (ر) دراستها ,وعملت فى احدى المصالح موظفة متواضعة ، واحست بكيانها الاجتماعى الجديد ، فملأتها الثقة بنفسها او كادت ، وازدادت علاقاتها بـ (أ) واصبح يزورها فى منزلها تحت اعين امها والجيران ، وكانت زيارته تجد ترحيبا من الام دائما ، فان كل زيارة تأتى فى طياتها بما يشبع رغبتها من مساعدة مادية فى شكل هدايا عينية او نقدية .

وعندما بلغت (ر) من العمر اثنتين وعشرين سنة ، امكنها ان توفر بعض المال الضرورى لاعداد مطالب الزفاف . وعندما ازداد الحاح (أ) على ضرورة عقد القران وافقت فى الحال وتم عقد القران وتم حفل الزفاف ، وكان عمر (أ) اثنتين وثلاثين سنة وعمر (ر) اثنتين وعشرين سنة ، اى ان فارق العمر بينهما يبلغ نحو عشر سنوات .

لم يكن (أ) فى خلال فترة الخطوبة يعرف السر الذى ربط قلبه وبين قلب (ر) . ولم يحاول ان يعرف شيئا . ولكنه كان يعرف امرا واحدا . كان يحبها حبا ملك عليه نفسه ، وقد بدا له فى غمار هذا الحب ان (ر) تبادله هذا الحب الكبير . وانه بذلك موضع عطف امها وبركاتها . ومهما يكن من الامر فهو من وجهة نظر اخرى قد وجد ضالته فى هذه الشابة « المتعلمة » الجميلة الجذابة ، التى تعمل « موظفة »

ولم يكن (أ) يعرف كذلك سر طول الخطبة التى بلغ عمرها سنتين الا ان اسرة (ر) تستعد لاكمالها عندما تتاح الفرصة لذلك ، اى عندما يتم الحصول على وظيفة لها ، وعندما يتم توفير بعض المال الضرورى ، لم يعرف (أ) شيئا غير كل

ذلك . لم يكن يعرف مايساور (ر) من هواجس ولا من مشاعر يشوبها بعض الخوف وربما بعض ملامح العار . ولم يكن يعرف كذلك من باب اولى ، عوامل هذه الهواجس والمشاعر .

ولكن (أ) قد بدا له أنه عرف السر الثاني في ليلة الزفاف ، ومع ذلك فانه لم يعرف السر الاول حتى الان . وكان اذا ألح عليه التساؤل عن هذا السر كان يحاول الاجابة عنه في شيء من الغموض . كأن يطمئن نفسه قائلا انه « الحب » ولا شيء غير الحب .

ولئن كان (أ) لم ينجح في التعرف على عوامل السر الاول حتى الان ، فهو احس نتائجها واثارها في اعماق نفسه وكانت هذه النتائج واثارها في اعماق نفسه هي العامل المهم في محاولة التغاضي عن نتائج السر الثاني واثارها في اعماق نفسه .

كان حفل زفاف (أ) متواضعا جمع الاصحاب والخلان في مودة وحبور . كان حفلا تعطر جوه الاماني والتفاؤل وتحقيق الرغبات الطيبة . وعندما آن انصراف الاصحاب والخلان ومن في حكمهم ، وتأهب (أ) للدخول بعروسه (ر) كان كل شيء ، يجرى مجراه العادى ، لم يكن يدور بخلد (أ) ماحدث بعد قليل ، وكان مايدور بخلده يدعو الى الطمأنينة ؟ بعكس ماكان يدور بخلد (ر) وانتهى الامر بان ماكان مستورا قد انكشف ، وكان المستور مفاجئة غير متوقعة صدمت كرامة (أ) في الصميم .

وكان المشهد رهيبا . انثى مازالت في ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران .فهى تنتمي الى مجتمع يحدد لها ولبنات جنسها قيما معينة لايجوز لهن ان يحدن عنها

، ولكنها فى ضوء تاريخ حياتها وتجاربها الاجتماعية لم تستطع الا ان تحيد عن هذه القيم ، وتضطر فى ضوء كل هذا ان تخفى كل شىء ولاتبوح به . وهاهى الان تواجه موقفا يكشف وهى كارهة الغطاء عن كل شىء . وطالما حاولت تأجيل هذا الموقف ، وقد نجحت لفترة لاتعدو السنتين . ولكن لابد مما منه بد .

اما (أ) فقد كان الرجل الذى يواجه هذه الانثى التى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران . وهو ينتمى الى مجتمع يعطيه الكثير ويغفر له الكثير . مجتمع يعطيه كما يعطى لابناء نوعه حقوقا لا عديد لها خصوصا تلك الحقوق التى تتعلق بالمرأة واذا اخطأ السبيل او تزيد بما لاينبغى ان يتزيده على هذه الحقوق . فانه لايحاسب الحساب العسير . وكثيرا مايضطر لان يخفى شيئا من هذا القبيل ، وقد نجده على العكس قد يظهر احيانا الكثير المغالى فيه من هذا القبيل ، مباهاة وتفاخرا ، ومع ذلك فان قيم المجتمع الذى يعيش فيه تقف به وبامثاله من الرجال من اخطاء النساء عامة وزللهن خاصة موقف المحاسب القاسى ، وفى بعض الاحيان وخصوصا اذا ماتحددت العلاقة بين الرجل والانثى واصبحت علاقة زوج وزوجة ، يقف موقف المجروح فى كرامته الذى يعطى لنفسه كل الحقوق ، فيؤدى ادوار الاتهام والتحقيق والحكم والقصاص جميعا .

ولكن (أ) ازاء هذا الموقف الرهيب لم يسلك كل مايمكن ان يتوقع من الوان السلوك كان يحب (ر) حبا ملك عليه نفسه ، وقد بدا له فى غمار هذا الحب انها تبادله هذا الحب الكبير . وان ماحدث حدث قبل ان يتفتح هذا الحب فى قلبيهما ، وان ماحدث كان نزوة عابرة لن تعكر صفو الحياة القادمة .

وانه وقبل كل شيء يجب ان يكون رجلا شهما يغفر عند المقدرة ، ويعفو عما سلف ، فالله جل وعلا ستار ، وهو غفور رحيم ، وانتهى الامر به ان اعتبر ماحدث كأنه لم يحدث ، كتم عن الناس كل شيء . واعتبر ماحدث جريمة اخلاقية غير منظورة ، او ربما جريمة جنائية غير منظورة ، وما اكثر الجرائم ، اخلاقية كانت او جنائية ، غير منظورة في المجتمع .

عاش (أ) و (ر) كزوجين سعيدين ، او كزوجين يبدوان انهما سعيدان ، التأمت جروح كرامة (أ) مع الايام ، فهو من وجهة نظره يعيش في ظلال الحب الوارفة فلا يرى الا الجمال والخير والتفاؤل . اما (ر) فبعد ان استردت ثقتها بنفسها كاملة اخذت نفسها بالامال والامنيات ، انها شابة اهم ماتوصف به انها موضع اشتهاء الرجال ، كل الرجال . الرجال الذين لهم مكانة زوجها الاجتماعية ، فضلا عن الرجال ممن هم اعلى مكانة اجتماعية من مكانته الاجتماعية . وكانت (ر) تعتبر الزواج من (أ) صفقة ليست بالضرورة ، من وجهة نظرها ، صفقة خاسرة ، بل على العكس لقد كانت صفقة ضرورية ، ساعدتها على بدء مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، ويسرت لها ان تؤمل كثيرا في المستقبل الباسم الذى سيملأ حياتها وسيمدها بما تشتهيه من متع . فأخذت تعلل نفسها بالامال والامنيات ، كما اخذت تتحين الفرص وتتربص بها

وجاءتها الفرصة السانحة . جاءت هذه الفرصة عندما نجحت زوجة (أ) السابقة في الحصول على احكام عديدة ضد زوجها السابق . فقد حكم لها ضده بمؤخر الصداق وبمبلغ كبير من المال نفقة شرعية تستحقها ، فضلا عن بعض الديون التى كان زوجها السابق يدين بها لها

والعجيب ان (ر) لم تكن تعلم عن هذه الاحكام شيئا . فقد

اخفاها عنها زوجها (أ) معللا نفسه بأنه سيقوم بالسداد ان عاجلا وان اجلا . ولكنه لم يستطع السداد فى الوقت المناسب . فالمبلغ المطلوب ، ازاء ظروفه الحالية ، لاطاقة له به ، وفضل ان يدخل السجن ليقضى فيه شهرا وفاء للنفقة التي تستحقها مطلقته . واضطر (أ) ان يخترع قصة غير صحيحة للحصول على موافقة زوجته (ر) على غيابه لبضعة اسابيع . فاخبرها ان دواعى العمل تضطره الى السفر بعيدا عن القاهرة ، المدينة الكبيرة ، لانه على وشك عقد صفقة جلود قد تدر عليه الربح الوفير .

وخيل لـ (أ) انه باختراعه هذه القصة الزائفة انما يبغى اراحة زوجته من معرفة الحقيقة وتفاصيلها المؤلمة ، كما يبغى الحرص على كرامتها وكرامته ، فضلا عن ان ييسر امر غيابه شبه الطويل على نفسها . ولكن (ر) لم تناقشه طويلا او قصيرا فى هذا الموضوع ، ولم تبد اية معارضة موضوعية او غير موضوعية ، بل وافقت للتو والساعة ، وبدأت تداعبها الامال وتعلل نفسها بالامنيات .

دخل (أ) السجن وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته ، ولم يبال بالصعوبات التى ستواجهه فى المجتمع الجديد ، مجتمع السجن ، وارجو ان يلاحظ القارىء ان السجن فى ضوء تعريف المجتمع لايمكن ان يكون مجتمعا بل هو مؤسسة عقابية ، ومهما يكن من الامر فان (أ) لم يبال بشىء فهو يرى انه لم يرتكب جرما ما . لم يسرق مثلا او يزور لم يفعل شيئا ما يشينه كرجل ، ولكن المسألة هى عسر وقتى ، ومن كان ذا عسرة فنظرة الى ميسرة . وهو يعيش فى حب كبير ، ويضحى فى سبيل هذا الحب الكبير ، وكل مايرجوه ان يحافظ على هذا الحب الكبير .

ولكن (ر) حاولت ان تصدق قصة زوجها ، ولكنها فى الوقت ذاته ابت الا ان ترفضها وقد ساعدها على هذا القرار ماكانت تعلل نفسها بالآمال والامنيات ، فأخذت تتحرى صدق هذه القصة ووصلت الى الحقيقة . وهى انها قصة مخترعة لاصدق فيها ، وعرفت ان زوجها (أ) فى السجن ، يقضى مدة شهر وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته .

وما ان عرفت (ر) هذه الحقيقة حتى اطمأن قلبها ، واهتزت نفسها فرحا وحبورا فان الاغلال التى تقيدها ان لها أن تتحطم ، وان الدنيا الان تتسع امامها ومن حولها ومن فوقها اتساعا يليق بشبابها الناضر يروح فى اجوائها ويجىء ، يرشف من كل شىء ، يروى ظمأه من كل نبع ، يشبع نهمه دون مبالاة ، فهى امرأة قد نالت كل شىء ، الجمال وبعض الاستقرار الاقتصادى ، ولكن جمالها سلاح بتار تستطيع عن طريقه ان تتسلق السلم الاجتماعى حتى تنال استقرارا اقتصاديا ذا مستوى ارفع ، وقد يستمر ارتفاعه ويعلو ، فتنال ماتصبو اليه من امال ومن امانى ومن حياة مليئة بالمتع . حياة لاتغلو عليها فهى حياة ليس من العسير عليها ان تدفع ثمنها من جمالها وشبابها وانوثتها .

وانتهى الامر بـ (ر) الى قرار لابد ان تزور (أ) فى السجن ، وتفاجئه بهذه الزيارة حتى تحطم كبرياءه بل كيانه معرفتها بالحقيقة ، ومعرفتها بمصيره ، فهى لم تفكر قط بأن تكون زيارة مشتاقة الى مشتاق ! او زيارة وئام وتشجيع ، بل زيارة سوء وقطيعة وتحطيم . يجب ان يتحطم زوجها (أ) ماديا ومعنويا . ان فى تحطيمه تحطيما لكل القيود ، ولكل الاغلال التى تعيش فيها حياتها الحاضرة .

لم تتذكر (ر) موقفها الرهيب فى ليلة زفافها . وكيف كانت

وهى فى ثوب الزفاف تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران . لم تتذكر ايضا موقف (أ) ازاء كل ذلك موقف الرجل الذى كان يحبها حبا ملك عليه نفسه ، فكان لايملك الا ان يحب وان يصفح وان يلتمس الاعذار ، وربما كانت (ر) قد ذكرت كل ذلك ، واحست بمرارة الذكرى . وقد آن لها ان تجعل زوجها وهو فى السجن ، ان يستبدل بدوره دورها وهى فى ليلة الزفاف . ولم تكتف بذلك . بل أبت على نفسها ان تستبدل بدورها دوره . فالحياة والدنيا وكل المتع قد اصبحت ترنو اليها والامانى امانيها ، والامنيات امنياتها قد اصبح تحقيقها قاب قوسين او ادنى منها .

لم يصدق (أ) عينيه عندما رأى زوجته (ر) وهى تزوره فى السجن . ولم يصدق أيضا اذنيه عندما سمعها تطلب الطلاق منه ، وبدا له ان الاوضاع قد انقلبت رأسا على عقب ، وان القيم ذات الاهداف الحميدة قد توارت او ذهبت وكأنها لم توجد قط . وعندما انصرفت (ر) انصرفت قبل انتهاء موعد الزيارة المحدد . وتركت وراءها (أ) وقد حطت على رأسه بلايا الدنيا واصبحت الحياة لامعنى لها ، حياتها وحياته جميعا ، وبقى فى ذهول بقى طويلا جدا . وبقيت اثاره فى نفسه طويلا جدا كذلك .

لم يسمع (أ) لطلب (ر) بل عارضه فى قوة ، ولكنها اصرت على الطلب فملأت عينيه دموع الاسى ، واختنق الكلام فى حنجرته ، وماكان يستطيع ان يفعل الا ان تتوسل ملامح وجهه الى (ر) ولكنها كانت قد حزمت امرها ، واصرت عليه . بدت له قاسية غير وفية وكأنها قالت الكلمة الأخيرة . وقبل ان يستجمع قواه ويهم بالكلام او يتم مابدأ ان يقوله تركته وذهبت لاتلوى على شىء .

ولكن (أ) كان يحب (ر) حبا كبيرا فحاول ان يلتمس لها الاعذار ، وعلل نفسه بعد الخروج من السجن ، ببعض الامال ، منها ان (ر) سوف تثوب الى رشدها ، او يجب ان تثوب الى رشدها ، فهى كل شيء عنده فى هذه الدنيا ، وهو لم يتوان عن فعل كل مايحفظ عليها كرامتها ، وكل مايسعدها فى حدود طاقته كرجل وكعضو فى المجتمع .

ولكن يبدو ان (أ) كان يعيش فى سراب ، فعندما خرج من السجن ، وجد زوجته شخصا اخر لم يتصور وجوده قط . وجدها امرأة غير تلك التى عرفها من قبل . امرأة تصادق الرجال الاغراب ، وتعيش على هواها ومن أجل هواها . واصبحت سيرتها مضغة فى الافواه . فلم يجد بدا من طلاقها ، ولم يطل امر الطلاق ، فقد اعادها الى عصمته مرة اخرى ، بعد ان تدخل المعارف فى الامر . وقد رضى حكم المعارف لانه حكم يتفق مع حكم قلبه ومشاعره وعادت (ر) الى سيرتها مرة اخرى ، واصبح (أ) يعب العذاب عبا ويشرب الهوان والمذلة شربا ، وملأ قلبه اليأس ، ولم تهن عليه كرامته ، وعز عليه ان يتنكر لقيمه ذات الاهداف الحميدة كرجل يعيش فى مجتمع معين ، فانتهى امره الى طلاقها للمرة الثانية .

وكان طلاق (ر) هو ماتصبو اليه نفسها ، فهو اطلاق لسراحها من القيود والاغلال وفرصة لها للانطلاق الذى ييسر لها اسلوبا معينا من الحياة ، تبغيه وتطلبه وترجوه من كل قلبها ، ولو كان على حساب القيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة او على حساب قلب (أ) الكبير ، وحبه لها ، وتفانيه فى هذا الحب .

ولم يأت الطلاق الثانى بالراحة التى يرجوها (أ) لنفسه ، فهو مازال يحب (ر) ومازال ينبض قلبه بحبها ، وحاول ان

ينسى ، فلم يستطع النسيان ، واحتسى الخمر ، وهام على وجهه ، ولم يأت كل ذلك بفائدة ، وانتهى الامر به الى ان يهمل اعماله ، وعاش فى افكار لونها ظلام ، وحاول محاولة اخيرة ، طلب من (ر) العودة ، ولكنها رفضت فى اصرار ، وبان على وجهها ومن حديثها الوان من التشفى والسخرية والتهكم . واخبرته فى سهولة ويسر ، انها ستتزوج من اخر .

وكم انتظرها (أ) فى غدوها وفى رواحها ، وكم الح عليها فى العودة ، وكم توسل اليها مرة ، وكم هددها مرات ، ولكن (ر) كانت ترفض وتمانع وتتشفى وتسخر وتتهكم

وعندما تأكد لـ (أ) أن (ر) ستتزوج فعلا من غيره ، هانت عليه الحياة واصبحت الدنيا لاتساوى فى نظره شيئا مذكورا ، ولكنه لم يفكر فى الانتحار ، او فى اسلوب اخر كمهرب لما هو فيه ، بل فكر فى حياته كلها ، كيف نشأ ، وكيف نما ، وكيف تدرج اجتماعيا ، وكيف وصل الى ماوصل اليه ، وحاول ان يتلمس التعرف على عوامل ماوصل اليه من حال لاترضى رجلا مثله ، اثبت رجولته يوما ما ، واثبت شهامته يوما ما ، رجل كل مايعيبه انه يحب ، وانه يريد من صميم فؤاده ان يعيش لهذا الحب ، بكل كيانه ، وان يضحى فى سبيله بكل غال . ولكن الظروف تأبى ذلك ، الظروف التى جعلت من يحب تقف ، فى ضوء عناصر المناخ الثقافى التى نشأت عليها منذ ان مات ابوها ، فى سبيل تحقيق ذلك . على الرغم ، كما كان يرى ، من تضحياته وبذله ورجولته وشهامته وتوسله .

وانتهى (أ) الى وجوب ازالة هذا العائق . العائق الوحيد الذى يقف فى سبيل تحقيق ماكان يؤمل فيه ، وليذهب هو الى الجحيم بعد ذلك ، فقد كانت الحياة ، واصبحت الدنيا فى

تصوره لاتساوى شيئا مذكورا .

وفى صباح يوم ٢٧ من شهر اغسطس عام ١٩٦٠ حمل (أ) بندقيته المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل ، وانتظر (ر) على محطة اوتوبيس تقع فى احد شوارع القاهرة المزدحمة وهى المحطة التى اعتادت (ر) الركوب منها وهى فى طريقها الى العمل .

وعلى الرغم من وجود الناس من حوله فلم ير احدا . انه يعيش افكاره المظلمة فى شىء من التردد ، ويداعبه شىء من الامل . فهو اولا وقبل كل شىء ، لم يأت للانتقام . كان يرى ذلك . ولكنه كان يرى ايضا ان الظروف التى واجهها فى حياته الاخيرة ظروف لم يصنعها ولكنه يرجو ان يغيرها . فان استطاع ذلك وحده فبها . والا فليكن مايكون .

ولم يستطع (أ) ان يغير الظروف التى لم يصنعها ، فملأه اليأس من كل انسان ، ومن كل شىء ، فامتدت يده الى البندقية المملوءة بالرصاص القاتل ، وضغطت اصابعه على الزناد ست مرات ، وفوجىء الناس الذين كانوا حوله بكل ذلك ، ورأوا شابة ، يبدو عليها بعض اثار من ملامح الوسامة التى كانت ، ولايعدو عمرها الثانية والعشرين سنة ، واقعة على الارض تتخبط فى دمائها ، واصبحت فى لحظة ، جثة هامدة لاحراك فيها ، ويقف على رأسها رجل ، لايزيد عمره على اثنتين وثلاثين سنة ، حاملا ذى يديه بندقية مازال دخان البارود القاتل يخرج من فوهتها ، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب .

واستمعت هيئة محكمة الجنايات بالقاهرة لاعتراف (أ) التفصيلى ، وهو تارة يبكى وأخرى وكأنه يهذى . وقبل ان

ينتهى من اعترافه طالب فى ختامه الحكم عليه بالاعدام . فلم يبق له شىء فى الحياة يحرص عليه . لم تبق له نفسه كانسان ، وهى عزيزة دائما . ولم يبق له امل فى حياته المستقبلة ، فلا امل بغير حب وقد فقد هذا الحب .

ولم تلب المحكمة طلب (أ) وحكمت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

(انظر : سيد عويس ، المجلة الجنائية القومية ، مج ٥ ، عدد ٣ ، تاريخ نوفمبر ١٩٦٢ ، صفحات ٤٦٣ ـ ٤٧١)

ـ السفاح محمود امين سليمان :

فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ ، اعطيت نسخة من تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن حالة « الشقى محمود امين سليمان » . وقد وصف التقرير هذه الحالة بانها « مأساة » هذا الشقى . وقد اطلقت الصحافة المصرية عليه فى ذلك الحين بدلا من المصطلح الشرطى « الشقى » اسم « السيفاح » .

واذا كان التقرير المشار اليه قد اكد على ان وجود هذا الشخص يعتبر مأساة فاننى اتعمد ان استخدم مدلول « الشخص » عليه لان كل شخص فى الحياة لديه الاستعداد لارتكاب الجرائم بانواعها ولكنه لايرتكبها الا اذا دعته ظروفه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الى ارتكابها واننى ارى ان مأساة هذا « السفاح » هى مأساة المجتمع او المجتمعات التى ولد وعاش فيها . ولكن التقرير يقول ان مأساة الشقى محمود امين سليمان ، على قصرها ، قد احدثت اثرا واضحا في محيط الرأى العام (ويرجع ذلك فى رأيى طبعا الى اهتمام

الصحافة بالموضوع وكتابة الصفحات والمنشتات يوما بعد يوم عنه) وفى محيط اجهزة الشرطة المصرية على السواء . فقد اتسمت فترة ظهوره على مسرح الجريمة بسمات خاصة اضفت عليه طابعا فريدا لم يعهد من قبل فى تاريخ الاجرام فى بلادنا الطيبة . اذ عرف هذا الشقى بالجرأة والدهاء والمباغتة كما عرف بالتجديد فى اساليب السرقة والسطو على المنازل . غير ان موهبته الكبرى كانت فى ذكائه المفرط وقدرته الفائقة على تدبير وسائل الهرب وتضليل رجال الشرطة .

وقد ولد الشقى محمود امين سليمان (كما يقول التقرير) فى عام ١٩٣٠ فى طرابلس من اعمال لبنان من أب « مصرى » هو امين محمود سليمان الذى كان يقيم وقت كتابة التقرير بمدينة الاسكندرية ، وقد جاوز ابوه فى ذلك الحين سن الخامسة والستين ، وهو اى الاب ينتمى الى اسرة فقيرة ببلدة « الكعيمات » (بلاد المال قبلى) مركز « ابو طشت » محافظة قنا . ولما ضاق بالاب العيش نزح فى عام ١٩٢٠ تقريبا الى تركيا والعراق وسوريا سعيا وراء الرزق حيث اقام فى لبنان وعمل حمالا فى المطارات ثم تطوع فى فرقة « الجندرمة » لمدة ثمانى سنوات تقريبا تزوج فى خلالها مرتين ثم طلق زوجتيه بسبب عدم انجابهما اطفالا ، ولما انتهت مدة خدمته العسكرية التحق بوظيفة مخزنجى باحدى محطات السكة الحديدية بخط طرابلس لبنان ثم عين رئيسا للحمالين بها ، وكان يكسب يوميا حوالى ثلاثة جنيهات مصرية (يلاحظ ان الجنيه المصرى فى ذلك الحين كان يساوى جنيها ذهبيا + قرشين مصريين ونصف) الى ان تزوج فى عام ١٩٢٨ من سيدة لبنانية انجب منها محمود (موضوع

هذه الدراسة) تم رزق باخوات له هن فاطمة وعليه ونادية وغادة وباخ اصغر احمد فى عام ١٩٤٦ ، وفى عام ١٩٥٠ رزق الاب بهدى ، والى جانب هؤلاء تبنى ابنا لزوجته هذه واسماه محمد امين وهو اكبر سنا من محمود . وكانت زوجته تساعده على مواجهة اعباء الحياة عن طريق حقن المرضى اذ كانت تعمل مساعدة لطبيب يدعى (رشاد يحيى) فى طرابلس . وما ان بلغ محمود سن السادسة حتى الحقه ابوه « بمدرسة الفرير » بطرابلس واشتهر عنه فى اثناء دراسته تزعمه لزملائه بالمدرسة . ونظرا لسوء سلوكه واختلاطه بمن هم اكبر منه سنا فقد اعتاد الهرب من المدرسة حتى فشل فى دراسته وتركها .

وبدأ يهيم محمود فى الشوارع يسرق البرتقال من بعض الحدائق بمدينة طرابلس وهو فى سن السابعة من عمره ، وكانت والدته تعاقبه بقصد تأديبه بالضرب والكى بالنار ، وفى ذات مرة سرق نقودا من والده مما دعا هذا الوالد ان يعاقبه وذلك بوضع القيود الحديدية فى قدميه الصغيرتين !

وفى سن العاشرة كان محمود يقوم ومعه آخرون بالسطو على معسكرت الجيش البريطانى فى لبنان وقد سلمه ابوه لرجال الشرطة ولكنهم لصغر سنه اطلقوا سراحه وسلموه لاهله . واستمر محمود فى مخالطة الاشقياء وشاركهم فى ارتكاب جرائم السرقة حتى حصل على شهرة كبيرة فى مجال الاجرام . وقد عرفت عنه الجرأة والتهور حتى ان لذاته اطلقوا عليه لقب « محمود البطل » ، واعتاد كل من له خصوم الاستعانة به على ايذائهم ، وتردد على السنة اعضاء اسرته انه اشترك مع اخرين فى سرقة احد المساكن مع استعمال السلاح وحكم عليه فى هذه الجناية بالسجن اربع سنوات ابعد بعدها الى مصر حيث استوطن واسرته الحضرة بمحافظة الاسكندرية .

وقد ذكر ابوه انه عندما قامت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، كان محمود قد بنعت سنه حوالى الثامنة عشر عاما ، وتطوع فى فرقة الفدائيين تحت قيادة احد القادة فى ذلك الحين (القاونجى) وكان لمحمود خال متزوج من سيدة يهودية تركها فى فلسطين عندما اندلعت الحرب وهرب ومعه اولاده الى لبنان ، وقد تمكن محمود ، كما يذكر بعض اعضاء اسرته من تخليص زوجة خاله من ايدى اليهود فى اسرائيل وعاد بها الى لبنان .

وقد ذكرت « السيدة نوال » التى كانت احدى زوجات محمود انها فاتحته فى امر حياته التى كانت ترى انها تكتنفها الغموض بعد ان علمت من احد اصدقائه اللبنانيين من الذين كانوا يترددون عليه بالاسكندرية فروى لها محمود مايلى :

« ان الجناية الملحقة به هى جناية اهله . فقد نشأ بينهم فقيرا ولم يكن راضيا عن مستوى معيشتهم . وكان والده بخيلا ولايتولى الانفاق على والدته كما ينبغى اذ كان يعطيها مصروفا يوميا ضئيلا ويصرف باقى دخله على النسوة والسهرات . فما ان بلغ اى محمود سن السابعة من عمره حتى دأب على سرقة الفاكهة والخيار من الحدائق وتدرج الى السطو على المعسكرات وسرقة السلاح ، وبيعه وتسليم ثمنه الى والدته واندمج فى عصابات اللصوص وعرف رجال الشرطة بلبنان عنه الكثير فكان موضع مطارداتهم واضطهادهم . وذكر لها انه ضبط فى قضية سرقة مصوغات وحكم عليه بالحبس شهرا مما هيأ له فرصة الاختلاط بنزلاء السجن وهو حديث السن

وتوطدت صلته بهم وواصل نشاطه معهم بعد ذلك حتى تمكن وهو فى السادسة عشرة من عمره من سرقة مصوغات اخفاها عند والدته وشقيقته وحكم عليهن بالحبس مدة شهر بينما حكم عليه بالحبس ثمانية شهور ، وقد ذكرت الزوجة « نوال » ايضا ان محمود اخبرها بانه تمكن من تكوين ثروة اعانته على شراء منزل ومقهى ومجموعة من سيارات الاجرة ثم تقدم لاستئجار ارض جمرك بلبنان ولكن عرضه قد رفض ، فما كان من محمود الا ان اطلق مسدسه على من كان مصدر هذا الرفض ، واصابه ، ثم اودع فى السجن وتظاهر بالمرض فنقل الى المستشفى حيث تمكن من الهرب . ثم قبض عليه بعد سنوات عديدة وحكم عليه بالسجن اربع سنوات . وفى اثناء محاكمته وجه محمود تهديدا حاسما للقاضى الذى قضى بادانته ، وقام اعضاء العصابة التى كان يقودها فعلا باغتيال هذا القاضى .

وذكرت « نوال » ان والدة محمود ، كما قال لها ، كانت تشجعه على السرقة حتى تواجه نفقات الاسرة . كما ذكرت ان محمود قال لها ان خاله كان من المجرمين الخطرين بلبنان ، كما كانت سيرة والدته وشقيقاته سيئة .

وعلمت « نوال » من أحد اصدقاء محمود وكان يعمل فى مهنة المحاماة انه اى المحامى ذكر لها ان محمود عندما كان فى سن السابعة من عمره استيقظ فى اثناء نومه مع امه على صوت حركة غير عادية وشاهد شخصا غريبا يواقعها ، وان ذلك ترك اثرا فى نفسه لم تمحه الايام من ناحية النساء قاطبة

او على حد قوله الشك في « حواء » وكان يقول ذلك في مناسبات عديدة متباينة . وعندما كبر شخص محمود هذه الواقعة فأرجعها الى ضعف شخصية ابيه وسيطرة امه عليه .

وفي ضوء ماذكرته الزوجة « نوال » نلاحظ ان محمود قد بدأ نشاطه الاجرامي في لبنان وهو في السادسة من عمره ، وانه تدرب على ايدى عصابات ، وانه كان شخصية قيادية فكون لنفسه عصابة تأتمر باوامره وبخاصة فيما يتعلق بارتكاب الجرائم وكان معظمها جرائم القتل والسرقات ، وانه فعلا وحقا كان جريئا في ارتكاب الجرائم او التخطيط لارتكابها

وفضلا عن كل ذلك وغيره نلاحظ ان خيانة امه لابيه وهو في سن غضة قد تركت في نفسه عقدة لم تحل بمرور مراحل حياته من ناحية النساء . وفي قول ان محمود قد ولد في اسرة متصدعة ولم تجد معه اجهزة التنشئة الاجتماعية السوية لانه لم يجدها لا في البيت او في الجيرة أو في المدرسة او في غيرها من الاجهزة التي تكون المواطن الصالح .

وانتهى الامر الى ابعاد اسرة محمود الى مصر في عام ١٩٥٣ على حساب القنصلية المصرية بلبنان على اثر ماتكشف لسلطات الامن من خطورة محمود (كان محمود في ذلك الحين مودعا في السجن) . وقد ذهبت الاسرة الى الاسكندرية ثم رحلت الى بلدة الكعيمات (من بلاد المال قبلي) مركز ابو طشت مديرية قنا . ولم يستقر اعضاء الاسرة بالبلدة ، طويلا نظرا لتفاوت العادات والتقاليد التي يظللها المناخ الثقافي بهذه البلدة ، عما اعتادوه في لبنان فرحلوا منها الى الاسكندرية حيث تناسبهم الظروف الحياتية بها

وفى الاسكندرية كانت اسرة محمود تقيم بحى الحضرة بجوار اسرة كانت من بين اعضائها انسة تدعى « عواطف » وتم التعارف بين الاسرتين ، وكانت ام محمود تردد ان لها ابنا يدعى محمود ، وكانت تكذب اذ تقول انه تخلف بلبنان لبيع ممتلكات الاسرة .

وفى ذات يوم فوجئت اسرة « عواطف » بزيارة محمود ، ووالدته بقصد خطبتها . ورفض ابوها بادىء الامر ثم عاد فقبل وتم الزواج فى ١٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وفى اثناء ذلك افتتح محمود « جراجا » بمنطقة سيدى بشر . وبعد فترة سافر ومعه زوجته الى القاهرة بحجة ضعف حركة العمل بالاسكندرية شتاء ، ثم افتتح ورشة للنجارة بدائرة قسم باب الشعرية بالاشتراك مع شخص اخر .

وقد لاحظت الزوجة « عواطف » تغير حال زوجها بعد وصوله الى القاهرة وكثيرا ما دب الخلاف بينهما . اذ كان يصر على السكن مع احد اصدقائه واسرته فى مسكن واحد ، وكانت الزوجة « عواطف » تعارض فى ذلك لما لمسته من سوء سلوك هذا الصديق حيث كان يتصل باحدى الراقصات . وضاعف من هواجسها ما كانت تلاحظه من خروج زوجها (محمود) ليلا وفى قدميه حذاء من المطاط وفى يده مصباح كشاف ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ومعه مبالغ كبيرة ، ولم يتطرق الى ذهنها فى ذلك الحين ان زوجها (محمود) لص او ان تلك المبالغ كانت من حصيلة مايسرقه .

وفى خلال عام ١٩٥٦ ايام العدوان الثلاثى على مصر ترك محمود زوجته « عواطف » بالقاهرة وسافر الى الاسكندرية حيث توجه الى منزل شقيقته « غادة » التى كانت متزوجة فى ذلك الحين ، فوجد بالمنزل احدى شقيقات زوجته « عواطف »

وكانت تبلغ من العمر خمس عشرة سنة وحاول اغتصابها ، وادى هذا الحادث المشين الى طلاق زوجته « عواطف » فى شهر مارس عام ١٩٥٧ بعد ان رزقت منه بولد .

وفى اواخر عام ١٩٥٧ تعرف « محمود امين سليمان » بسيدة تدعى « حميدة » وكان اسمها المشهورة به (ببيلا) وكان هذا التعارف عن طريق شخص يعمل فى مهنة المحاماة (وهو غير الشخص التى ذكرته « نوال » من قبل) وعرض محمود على « حميدة » الزواج فقبلت . واستمرت حياتهما الزوجية اربعة ايام فقط ، ثم هجرها دون طلاق .

وكان زوجته « نوال » التى سبق ان تحدثت عنها والتى صارحها محمود بتاريخ حياته دون تفصيل حيث القى اللائمة على حياته التى صار اليها على اهله وظروف الحياة التى عاشها وهو صغير السن . وتم زواج محمود من زوجته « نوال » التى اصبحت خطيبته فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٥٧ وتم زفافهما فى اوائل شهر اكتوبر عام ١٩٥٨ ، وبذلك اصبحت « نوال » الزوجة الثالثة لمحمود امين سليمان ، واقام الزوجان « محمود ونوال » سويا بحى محرم بك بالاسكندرية . ومرت ثلاثة شهور فاذا بـ « نوال » تلاحظ اجتماع زوجها باحد المحامين وقضائهما سهرات طويلة فى اعداد مايشبه المذكرات . وبعد ذلك ابلغ محمود زوجته بعزمه على السفر الى القاهرة . ولم تتردد « نوال » فى سؤاله عن موضوع (المذكرات) او مايشبه المذكرات فاضطر للاعتراف لها بانه متهم بسرقة احد المساكن فى مدينة القاهرة وصحبها معه حيث حضرت الجلسة الخاصة بمحاكمته ، وقد ذكر محمود لـ « نوال » ان هذه القضية قد لفقت له . ومع ذلك فانه كان يكثر من التردد على مدينة القاهرة الى ان اصدر ضده حكم

بالحبس فى تلك القضية . وكثيرا ماكان يرسل فى طلب حضور « نوال » من الاسكندرية لمقابلته فى اثناء التحقيق معه فى قضية تبديد اخرى . وبعد التحقيق نقل الى سجن مصر ثم الى سجن المرج ثم الى مستشفى الدمرداش حيث اجريت له عملية الزائدة الدودية .

وفى فجر احد الايام فوجئت « نوال » بحضوره الى الاسكندرية حيث ذكر لها انه هرب من المستشفى . واقاما سويا بمنزل احد الاصدقاء رغم معارضة اهلها الذين اضطروا اخيرا لارشاد الشرطة عنه الا انه استطاع الهرب عن طريق (التخلص من سترته) واقتاد رجال الشرطة زوجته « نوال » الى قسم باب شرقى لاشتباههم فى آلة تصوير ضبطت لديها . وقد بحث محمود فى ذلك الوقت عن احد المحامين لحضور التحقيق مع زوجته « نوال » وقد افرج عنها فى نفس الليلة . وقبض على محمود فى اليوم التالى ورحل الى مدينة القاهرة وصحبته « نوال » وشقيقته « غادة » الا انه اى محمود استطاع الفرار فى اثناء ترحيله .

وقد ترددت « نوال » على مدينة القاهرة ومعها المحامى (نفس المحامى الذى حضر معها التحقيق والذى نجح فى الافراج عنها فى نفس الليلة) لحضور جلسات المعارضة الخاصة بهروب محمود فى اثناء ترحيله وقضى فيها ببراءة محمود . فضاعف ذلك من ثقته فى هذا المحامى .

وبعد الافراج عن محمود عاد الى مدينة الاسكندرية الا انه لم يلبث ان سافر وزوجته الى مدينة القاهرة ونزلا فى احد الفنادق بهذه المدينة بعد ان تركا ابنتهما « ايمان » بمدينة الاسكندرية مع والدته . وكان محمود يترك « نوال » بالفندق ليلا ثم يعود اليها عند الفجر ومعه مبالغ من النقود كبيرة

مدعيا انه كان يدخن مخدر « الحشيش » مع بعض اصدقائه وانه استعاد بعض النقود التى كان يقرضها لآخرين .

ثم نزل محمود ونوال وابنتهما ايمان مع ابن عمه ، ثم مالبث ان استأجر مسكنا بحدائق شبرا ظل به حوالى ستة شهور كان فى خلالها يغادره ومعه مصباح كشاف حوالى الساعة الثامنة مساء بحجة الذهاب الى السينما ثم يعود حوالى الساعة الخامسة صباحا . وبعد ذلك استأجر مسكنا جديدا بشارع المتحف الزراعى بالدقى .

وفى خلال فترة اقامة محمود واسرته فى مدينة القاهرة كان المحامي الذى يثق فيه محمود والذى اصبح له صديق حميم يحضر من مدينة الاسكندرية الى محل اقامة اسرة محمود يومي الخميس والجمعة من كل اسبوع ، وكانت ترافقه زوجته فى بعض تلك الزيارات . وقد ترك هذا المحامى الصديق زوجته ذات مرة فى ضيافة محمود واسرته شهرا كاملا ، وفى ذلك الوقت افتتح محمود محلا للبقالة وعهد الى والده و بن عمه بادارته الا انه مالبث ان باعه بعد حوالى اربعة شهور لشكه فى تلاعبهما بايراده .

وفى احد الايام وصلت الى محمود برقية من صديقه المحامى يطلب منه فيها الاتصال به فى مدينة الاسكندرية ، ولكن محمود آثر السفر اليه ، وبعد عودته اعتدى على زوجته « نوال » بالضرب ونسب اليها انها كانت على علاقة بالمحامى وانها كانت تقضى معه الليالى بمدينة القاهرة فى اثناء وجوده بالسجن وحضورها معه جلسات المعارضة . واخذ محمود يعذب « نوال » حوالى شهر وهددها بالقتل شنقا ، وفى احدى سهراته مع المحامى الصديق ابدى له شكه فى وجود علاقة

بينه وبين زوجته « نوال » وادعى انها اعترفت له بذلك فاعترض المحامي الصديق على ذلك في حضور صديق لهما الذي نسب اليه محمود ايضا انه على صلة بزوجته « نوال »

ولما علم اقارب « نوال » بخبر تعذيبها انتهزوا واخوتها فرصة زيارته لعديله وتكاثروا عليه واوثقوه ثم سلموه لرجال المباحث بقسم الوايلي . وعند تفتيش منزله بالدقي عثر فيه على سرقات كثيرة تبين انه سرقها من عدة منازل بمدينة القاهرة وضواحيها واعترف محمود بالسرقات ولكنه ادعى بان شقيقي « نوال » وصديقه المحامي قد اشتركوا معه في تلك الجرائم ، وان المحامي يخفي بعض المسروقات لدى احدى زملائه بحي المنيل ، وقد ضبطت هذه المسروقات فعلا الا انه لم تثبت عليهما تهمة الاشتراك او تهمة الاخفاء .

وفي اثناء التحقيق مع محمود في سرقاته العديدة ، ادعى ابتلاع « دبابيس » ونقل الى مستشفى ام المصريين بالجيزة تحت الحراسة المشددة ، وكان مكبلا بالقيد الحديدي ثم اعيد الى سجن القاهرة حيث حاول الانتحار فنقل الى مستشفى القصر العيني في اوائل شهر فبراير عام ١٩٦٠ ، وقد تمكن من الهرب منه في اواخر نفس الشهر ، ثم بدأت سلسلة حوادثه ومطارداته التي انتهت بمصرعه .

وكانت من ضمن هذه الحوادث ان محمود هاجم منزل زوجته « نوال » التي تقيم فيه واستطاع ان يغافل رجال الشرطة المنبثين حول المنزل وتسلل اليه واطلق الرصاص من كوة بباب الشقة والاسرة مجتمعة حول طعام « السحور » قاصدا اصابة زوجته « نوال » الا ان الرصاص لم يصبها واصاب ابنة شقيقتها الطفلة .

والملاحظ ان محمود في ضوء الصور الفوتوغرافية التي

اخذت له بعد مصرعه ، تبين انه انتحر ، ونقف هنا لنتساءل هل حالة محمود حالة انتحار ونتجاهل جرائم القتل التى ارتكبها في مراحل سني حياته ؟ انها فى رأيى حالة شخص قد مارس ارتكاب جرائم القتل منها والسرقات . صحيح كان هدفه او اهم اهدافه ارتكاب جرائم السرقة ولكنه لم يكن ليتورع فيقتل كل من كان يقف فى سبيل هدفه او اهم اهدافه .

وتقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية يذكر عبارة "مصرعه" اى مصرع محمود أمين سليمان ، ولم يذكر بل ولم يجرؤ أن يذكر من الذى صرعه انه كما ذكرت قد صرع نفسه بنفسه . صحيح لقد نجح رجال الشرطة فى أن يحكموا الحلقة عليه فاضطر الى الاختباء بمغارة فى تلال المقطم بناحية قسم حلوان ، ويبدو أنه علم أن مقاومته أصبحت غير مجدية وأن مصيره محتوم فما كان منه إلا أن أطلق على نفسه بضع رصاصات أثبت التقرير الطبى الشرعى أنها كانت كفيلة بالقضاء عليه ، ومن ثم أستطاع بعض رجال الشرطة أن يقتحموا عليه المغارة ويجدوه مقتولا (أنظر : تقرير اللجنة الدائمة بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، (دراسة غير منشورة ، شهر سبتمبر عام ١٩٦٠) .

والملاحظ أن احدى الرصاصات بان فى الصور الفوتوغرافية أثرها فى ثقب فوق الاذن اليمنى فى رأس محمود الذى كان ، والرصاصة الثاية بأن أثرها فى ثقب فى رأسه ، وبعد ارتكاب جريمة القتل ، اطلق رجال الشرطة رصاصات غير قاتلة بطريقة عشوائية بانت آثارها فى جثته !

٧ ـ قوات الأمن المركزى :

قمت بالاشراف على دراسة علمية عن موضوع أحداث

الشغب والعنف التى وقعت فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ . وقد قام بهذه الاحداث المجندون الذين يطلق عليهم افراد قوات الأمن المركزى . وكان المجال الجغرافى لهذه الاحداث جمهورية مصر وبخاصة فى المدن التى يعمل بها هؤلاء الجنود . وكان من بين هذه المدن بالضرورة مدينة القاهرة . والملاحظ أن هؤلاء المجندين يمثلون جانبا هاما من القوات التى تعتمد عليها الدولة ووزارة الداخلية فى الحفاظ على أمن البلاد ضد أعمال العنف والشغب .

ومن العجيب أن هؤلاء المجندين على عكس المتوقع منهم قاموا هم أنفسهم بأعمال العنف حيث انهالوا فى خلال يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ على المنشآت المصرية ومؤسساتها تدميرا وتخريبا . أى أنه بدلا من ان يكونوا حماتها وحراسها أصبحوا رافعين لواء العنف والشغب ضد ما أؤتمنوا عليه والتزموا به من واجبات . ومن العجيب أيضا ، ولاعجب فى ذلك ، أن هؤلاء المجندين قد وجدوا من أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين من يسر لهم بل من عاونهم على القيام بأعمال العنف والتخريب المشار اليها .

والملاحظ أن مفهوم "المجند" فى الدراسة الحالية يعنى الشخص الذى وصل لسن التجنيد بالفعل وتم الحاقه بالشرطة عملا بالمادة الثانية أولا فقرة ب من قانون الخدمة العسكرية والوطنية رقم ١٢٧ لسنة ١٩٨٠ ، والذى يؤدى الخدمة الالزامية لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة الأولى من نفس القانون .

والحوادث التى اهتمت بها الدراسة المذكورة تعنى أى سلوك عدوانى ايجابى ، بدنى ، أو مادى ، أو معنوى ، ضد بعض ممثلى السلطة أو بعض أعضاء المجتمع أو الممتلكات

العامة والخاصة ـ يوجهه بعض مجندى قوات الأمن والأمن المركز بوزارة الداخلية يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ .

وقد لاحظت الدراسة بعض الملاحظات منها :

ـ أن المجند المتهم فى أرتكاب العنف وحوادث الشغب كان واقعا تحت تأثير الضغوط الاقتصادية أكثر من غيره ، كأنتمائه لأسرة هو عائلها الوحيد أو كفقدان لمهنته التى كانت تدر عليه دخلا كافيا له ولأسرته .

ـ أن المجند ينتمى الى مجموعة من المجندين يكاد أن ينعدم الاشراف عليهم وتوجيههم .

ـ أن المجند واقع تحت تأثير بعض الأمور الاستفزازية بالنسبة له كآدمى يحس بانسانيته وله آماله وطموحاته المشروعة .

ـ أن المجند ممن صادفته ظروف معينة صعبة داخل المعسكرات التى يعيش ويحيا فى ظلها .

ـ أن ما توقعه المجند من عملية التجنيد وما تحقق له بالفعل من هذه العملية يختلفان ولم يكن يخطر على باله

وأننى أرجو أن يتذكر القارىء الكريم الدراسة عن مفهوم العنف عندما تحدثت عنه وعن مفهوم السلام من قبل . ولكنى أود أن أؤكد أن العنف المقصود هو العنف الانسانى ، وأن أعضاء الشعب المصرى بالطبع أعضاء مسالمون . ولكنهم يبغون السلام العادل . ولا يلجأون أبداً الى العنف إلا اذا أجبروا عليه ووجدوه الوسيلة الوحيدة التى يدافعون بها عن كرامتهم .

وظاهرة العنف ان وجدت فى محيط المصريين ، فهى توجد

عادة من أجل الدفاع عن النفس والحرية والكرامة . وأن أهم المنافذ الاجتماعية ، أو الأساليب التى يواجه الشعب المصرى بها صنوف القهر وألوانه هى فى معظم الاحوال ، منافذ وأساليب غير عنيفة . فالمصريون لايبدأون الهجوم بالعنف . ولكنهم اذا اتخذوا سبيل العنف سلاحا فانهم يفعلون ذلك مدافعين عن أنفسهم ضد العنف الذى يصيبهم ، إذ هم يرون بحق ، فى ضوء حقائق التاريخ ، أن العنف يولد العنف .

وقد يرى البعض أن مكافحة العنف ومواجهته مثل أية عملية من عمليات الشرطة الهامة ، تخضع فى المقام الأول لاعتبارات الظروف الخاصة والملابسات المتصلة بكل حادث ، وزمانه ، ومكانه ، وعدد الاشخاص المشتركين فيه ، وأسلحتهم ... الخ . ومن هنا ، كما يرى هذا البعض ، يصعب وضع قواعد ثابتة ومحددة تكون قابلة وصالحة للتطبيق فى كل حادث ، وأنه من الزم الضرورات للشرطة أن تعد نفسها اعدادا تاما لمواجهة هذا العنف الجماهيرى ، ولأنه جماهيرى ، فهو فى العادة يكون مخططا وفى بعض الاحيان تلقائيا .

وقد نشأت فكرة استخدام الأفراد المجندين بوزارة الداخلية فى مجال الأمن بعد قيام ثورة عام ١٩١٩ . وذلك لوقوع اضطرابات كثيرة وشديدة فى ذلك الوقت . ونظرا لعدم وجود احتياطى لقوات الشرطة فقد رؤى الاستعانة بأفراد مجندين من القوات المسلحة لاستخدامهم فى مقاومة الاضطرابات .

ثم فكر المسئولون فى أفراد مجندين من بين المستدعين لتأدية الخدمة العسكرية للعمل بوزارة الداخلية بقصد مقاومة الأضطرابات وحفظ الأمن والنظام ، وذلك بدلا من الاستعانة بأفراد القوات المسلحة وأطلق عليهم اسم "بلوكات الخفر"

وقد بدىء فى انشاء أول "بلوكات للخفر" بمحافظات القاهرة والاسكندرية والقناة وذلك فى عام ١٩٢٠ .

وفى عام ١٩٣٠ أنشىء "بلوك خفر" فى بلدة قويسنا وسمى بلوكات خفر الاقاليم (وجه بحرى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات فى مديريات الوجه البحرى ، وأخر فى مدينة أسيوط وسمى ببلوكات الخفر الأقاليم (وجه قبلى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات بالوجه القبلى .

وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢ ، أعيد تنظيم هذه القوات وتوزيعها على جميع المحافظات ، وسميت قوات الأمن وقسمت هذه القوات الى ثلاث مجموعات . وتم تعديل أسم بلوكات نظام الأقاليم وخصص "قشلاق" هذه البلوكات لتدريب المجندين الجدد .

وقد برز دور المجموعة الثانية (التى أصبحت تسمى قوات الأمن المركزى): بروزا كبيرا وبخاصة منذ عام ١٩٦٩ . وكان أهم واجباتها ، كوحدات من قوات الأمن للعمل كاحتياطى مركزى ، هو ايجاد قوة تحت تصرف الحكمدار لاستخدامها فى مقاومة حالات الأضطرابات أو اختلال الأمن العام التى لايمكن لقوات الشرطة العادية وقوات الاحتياطى المحلى السيطرة عليها . وأستخدمت هذه القوات (قوات الأمن المركزى) فى الأعمال الآتية :

- قمع الأضطرابات ، وفض المظاهرات والتجمهر ، وأعمال الشغب وما اليها فى حالات الطوارىء .

- حراسة المرافق والمنشآت الحيوية التى تؤثر على الحياة العامة ، وذلك فى حالات الطوارىء

ـ المعاونة في حفظ النظام فى الاجتماعات العامة ، عندما يتطلب ذلك قوات أكبر من المتيسر تدبيرها من رجال الشرطة العاديين وقوات الاحتياطى المحلى .

ـ الحالات التى يرى الحكمدار فى المحافظة أو المديرية ، ضرورة الاستعانة فيها بقوات الاحتياطى المركزى .

ـ يجوز استخدام قوات الاحتياط المركزى ، بأمر الحكمدار عند الضرورة على أن يخطر مدير مصلحة الأمن بتقرير عاجل بالظروف التى اقتضت ذلك .

وقد صدرت قوانين عديدة تتعلق بمعاملة هذه القوات ، وكذلك لوائح خاصة لاستقبال القوات المسلحة للمجندين والكشف الطبى عليهم وتحديد مستوياتهم الثقافية .

وقد كان الاهتمام بوسائل الانتقال والاتصال كبيرا . وذلك لان المسئولين يرون أن هذه الوسائل هى العصب الحيوى لادارات واقسام قوات الأمن ، ويتطلب العمل سرعة انتقال القوات الذى يتوقف علي مدى توفير وصلاحية وسائل الانتقال والسائقين . وبقصد التأكد ، دائما ، من امكانية تحرك القوات بعدد كاف وفى أى وقت يتبع مايلى :

ـ يخصص لورى لكل فصيلة فض مظاهرات .
ـ تخصص سيارة ركوب لكل قائد تشكيل .
ـ تخصص سيارات ركوب لمدير الادارة أو رئيس القسم ونائبه ولكل ضابط من ضباط الرئاسة .
ـ يتم تسليح هذه السيارات واللوارى بالشبك المسلح وتجهيزه باللاسلكى . .
ـ يخصص عدد من السيارات لتوزيع التعينات .
ـ يجهز لورى بدون صندوق لنقل ما يلزم المبنى من رمل

وادوات واثاثات .

- يجوز تزويد الادارة أو القسم بجرار زراعى وسيارة كسح وسيارة مقطورة مياه حسب الظروف .

ومع ذلك نلاحظ أنه يصرف للمجند ٧٥ مليما يوميا فى حالات الطوارىء ويخصم مما يصرف الاجازات والغياب بدون أذن والحبس والحجز بالمستشفى . أما بدل التعيين النقدى فقدره ١٨٠ مليما يوميا (عدل الى ٤٠٠ مليم) بعد أحداث يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ .

وارجو أن يسمح لى القارىء الكريم بأن اكتفى بما ذكرت عن هذه القوات لكى ابرز بعض النتائج أهمها مايلى :

- أن قوات الأمن المركزى منذ أنشائها كانت اليد القوية لاصحاب السلطة والسلطان فى الدولة . وقد اختير أعضاؤها ودربوا لكى ينفذوا الأوامر فى ظل شعار المقولة المشهورة "النقمة تعم والنعمة تخص" ومنذ انشاء هذه القوات وتحديد مهامها وواجباتها واعدادها تتزايد على مر الأيام حتى بلغ عددها فى الوقت الراهن (فى أوائل عام ١٩٨٦) حوالى ٣٠٠,٠٠٠ عضو .

- أن وجود هذه القوات يعنى وجود جماعات أو تنظيمات مهنية جديدة فى مجتمعنا المعاصر . وقد أتسم أعضاء هذه الجماعات بسمات انسانية معينة . منها بل ربما تكون أهمها انهم فى مستوى عقلى معين وانهم فى سن المراهقة المتأخرة . أى السن التى يكون المرء منا فيها أكثر حساسية وأقل نضجا . أى السن التى لم تتكون فيها المحددات التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية العقلية لكل عضو من أعضاء هذه الجماعات ، أى السن التى لم يكمل فيها تكوين شخصيته الاجتماعية .

ـ ويلاحظ أن وضوح تباين هذه الجماعات عن غيرها من جماعات المجتمع الأخرى يرجع الى مظهر اعضائها المادى (الملابس مثلا) فضلا عن آثار سلوك هؤلاء الأعضاء فى مواجهة أعضاء الجماعات الأخرى فى المجتمع . وهى آثار كانت فى الأغلب الأعم سلبية ويراها ويسمع عنها أعضاء المجتمع المصرى افرادا وجماعات . وكان من هذه الآثار السلبية ميل أعضاء هذه القوات الى الاعتداء على الآخرين حيث تزداد مكانة العضو فيها ارتفاعا كلما ازدادت مهارته فى استخدام الأسلحة المختلفة التى يعتدى بها على الآخرين ويحطم بها الأشياء .

ـ ومن ثم فإن جماعات قوات الأمن أصبحت منعزلة وغير مقبولة اجتماعيا . وأصبح التعامل مع أعضائها يولد الشعور بالعداوة بينهم وبين غيرهم من أعضاء المجتمع المصرى الأسوياء منهم وغير الأسوياء على السواء .

ـ واذا كان بعض أعضاء المجتمع المصرى لم يبلغ شعورهم بالعداوة مستوى يجعلهم يستعملون العنف ضدهم ، فإن أعضاء هذه القوات عاشوا فى قلق مرضى وفى حيرة من أمرهم . فهم قبل كل شىء من أبناء الوطن المفدى ، هذا الوطن الذى يتعطر مناخه الثقافى الاجتماعى ، فى ضوء تراثه ، بالسلام وبالقيم الاجتماعية العديدة ذات الاهداف الحميدة التى منها الشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، والتعاون على البر ، والأيمان الخالص ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل شرف الوطن والتضحية من أجله .. الخ .

ـ وإذا كان أعضاء قوات الأمن المركزى فى خلال الفترة الأخيرة (يومى ٢٥ ـ ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦) قد ارتكبوا جنايات عديدة تتسم بالعنف الشديد (منها جنايات

القتل والضرب الذى أفضى الى الموت) ، فإن هذه الجنايات كانت فى الأغلب الأعم جنايات مقاومة السلطات والتجمهر . أى أنها جنايات يرتكبها عادة جماعات ولا يرتكبها افراد (أرجو أن يتفضل القارىء بمراجعة ما ذكرته عن مفهوم العنف وما يتعلق به من قبل) . والملاحظ أنه اذا صدر العنف عن الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو المدنية أو السياسية المنظمة كالجامعات والاحزاب والتنظيمات الدينية (المتطرفة) والتنظيمات المهنية (يلاحظ أن قوات الأمن المركزى تنظيم مهنى) يكون هذا العنف عادة مخططا له من قبل .

- وفى ظل بعض ألوان القهر التى يعيش فى ظلها أعضاء المجتمع المصرى المعاصر ، وجد أن بعض هؤلاء الأعضاء قد اشتركوا فى ارتكاب بعض الجرائم ، ولكن يلاحظ أن الأغلبية الساحقة من أعضاء هذا المجتمع وقفت موقف المتفرج وكأن لسان حالهم يقول أن : "السلطة تحارب ضد السلطة" . ومع ذلك فإننا لاحظنا أن عددا كبيرا من أعضاء هذا الشعب قد تعاونوا مع بعض قوات الأمن المركزى الذين أرغموا على دخول السجون ولم يصرف لهم طعام ولا ماء ثم أفرج عنهم أو هربوا من السجون ومشوا فى الطرقات . على غير هدى . وكان العديد من المصريين البسطاء الكرماء يمدون لهم العون بالطعام والشراب والملبس (حيث تركوا فى السجن بملابسهم الداخلية فقط) والمأوى ، وذلك لأنهم أى المصريين البسطاء رأوهم يأكلون ما يصادفهم من حشائش الأرض المزروعة، وكانت حالاتهم يرثى لها . ولعل هذا الموقف أقصد موقف المتفرج وكذلك موقف المصريين البسطاء الكرماء أن يكونا متوقعين .

وعلى العكس من ذلك فقد لوحظ أن بعض ساكنى حى الهرم وغيرهم من سكان العمارات التى حول حديقة الحيوانات قد تبرعوا لجنود الجيش المصرى وضباطه بالشاى الساخن وبعض الحلوى والكعك . وتعتبر هذه الأنماط السلوكية متوقعة أيضا من هؤلاء السكان ، وان كانت تعتبر أستثناء .

ـ وأننى أرجو من القارىء الكريم أن يلاحظ ما لاحظته ولاحظه الكثيرون من أعضاء المجتمع ، المكان ، الذى بدأ فيه العنف وتوقيت حدوثه . فالمكان كان سياحيا والتوقيت كان فى الموسم السياحى حيث يكثر الاجانب من الجنسيات المختلفة وهم خير وسيلة اعلامية خارج حدود مصرنا الخالدة للنيل من النظام الذى يعيش أعضاء مجتمعنا تحت رايته .

ـ وقد اتخذت صور عنف المتمردين من أعضاء قوات الأمن المركزى ، وبخاصة فى منطقة القاهرة الكبرى ، صورا عديدة . وكانت تهدف هذه الصور فى الأغلب الأعم الى ازهاق الارواح والى ما يملكه ذوو اليسار من أبناء الوطن أو غيرهم ، وأحراق الملاهى الليلية (الكاباريهات) والفنادق والمطاعم . ويرجع ذلك الى شدة صور العنف وقسوتها وليس بالضرورة الى وازع دينى ، وان اتخذ بعض المتدينين المتطرفين هذا الوازع ذريعة فى بعض الأحيان (أنظر : محمد ابراهيم حسنين عمران : أحداث الشغب والعنف يومى ٢٥ و ٢٦ فبراير ١٩٨٦ ، اشراف سيد عويس ، معهد القادة لضباط الشرطة ، شهر ابريل عام ١٩٨٦) .

أمثلة حية تاريخية
عن بعض أنماط العنف

٨ ـ التفرقة اللاانسانية :

من الوصمات اللامعة اجتماعيا ، التي توجد في الكثير من المجتمعات البشرية المعاصرة ، ما يطلق عليه التفرقة اللا انسانية . وهى أنماط عديدة . منها التفرقة الطبقية والتفرقة الدينية والتفرقة العنصرية . والأمثلة على التفرقة الأخيرة وبخاصة فى قارتنا الأفريقية عديدة ، وهى واضحة وضوح الشمس وهى ساطعة فى كبد السماء فى المجتمعات الغربية وبخاصة فى المجتمع الأميريكى . ونجدها فى الوقت الراهن فى معظم بلاد العالم أقصد فى معظم القارات التى تكوّن كوكب الأرض . يقرأ الانسان العادى عن ذلك في الصحافة ونسمع ونشاهد ألوانا من هذه التفرقة على الشاشة الكبيرة وعلى الشاشة الصغيرة أيضا .

ولاجدال فإن التفرقة العنصرية تسلم بوجودها ، بالضرورة المبادىء غير الانسانية بأنماطها . فهو أى وجود التفرقة العنصرية مهما كانت عوامله ، لايمكن أن تعترف به ، أبداً مبادىء العدالة والانصاف . والملاحظ إذا أمعنا النظر فى

البقاع التى توجد فيها هذه التفرقة الانسانية نجد أنها مصدر هام من مصادر الشعور بالعداوة الذى بدوره يؤكد الصراعات فى المجتمعات التى تسمح بوجودها . وأرجو أن يذكر القارىء الكريم هذا الشعور أقصد الشعور بالعداوة ، أنه وليد العنف بألوانه . ففى ضوء تجاربى الواقعية التى عشتها وأنا فى الولايات المتحدة فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ ، وعندما زرت هذه البلاد فى خلال عام ١٩٧٠ ، كانت التفرقة العنصرية السائدة فى المجتمع تنم عن ألوان مستمرة من الاحباط فى صفوف الزنوج الأميريكيين ، بل كانت مصدر لاينضب من مصادر هذه الألوان .

وكانت التجربة الأولى عندما تيسر لى السكن فى "محلة نورفلك" الواقعة فى ميدان "جون اليوت" بمدينة بوستن. واختار لى المدير غرفة من غرف المحلة العديدة التى كان عددها حوالى مائة غرفة أو أكثر . وأننى أذكر أن هذا المدير قد قابلنى وكان بشوشا ويبدو على وجهة السرور ، ولم أعرف عوامل هذه البشاشة وهذا السرور إلا بعد هذه المقابلة . وقد ذكر المدير أنه نظير المبيت فى غرفتى والاستمتاع بحقوقى (إستعمال المكان المخصص للراحة والمطبخ ومشاهدة برامج التليفزيون .. الخ) أن أعطى من وقتى ست ساعات فى المساء أسبوعيا واخترت يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع لاؤدى عملى كاخصائى اجتماعى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة .

والملاحظ أن محلة "نورفلك" كانت تقع فى حى يسكنه سكان من الزنوج كثيرون . وقد كانت نية مدير هذه المحلة أن يبدأ السماح لكى يلتحق بالمحلة بعض الشبان من الزنوج وبخاصة وقد وجد لون جلدى مناسباً لريادة هؤلاء الشباب .

وفى ضوء خبراتى المهنية وسمات وجهى رأى المدير أننى فى نظره صالح لقيادة هذه الجماعة من شبان الزنوج شكلا وموضوعا . وكانت نشاطاتى مع جماعة الأولاد الزنوج الذى أطلقوا على انفسهم "ذافيبرز" أى "الافاعى السود" متعددة . وقد لاحظت أن كل عضو من هؤلاء يلبس "جاكيت" سوداء اللون مكتوبا عليها باللون الأبيض اسم الجماعة .

وقد سعدت بمهمتى سعادة كبيرة لأننى أعمل بين الأولاد الزنوج الذين يعتبرهم "البعض" بعامة وحتى فى مدينة بوستن "مدينة الحرية والأحرار" حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا أقيم تخليدا لذكرى أول زنجى صرعه الانجليز (المستعمرون) فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠ ، انصاف مواطنين . وأنا لا أقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر لى "جون جراى" الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن ، أنه لم يجيء إلى محلة نورفلك إلا بعد أن دار فى شوارع بوستن وحاراتها اياما لكى يسكن مع زميل له "ابيض" ولم يجد مكانا يؤويه إلا إحدى الكنائس التى وجهته الى المحلة . كان أصحاب الشقق للايجار يرحبون بزميله الأبيض ويرفضونه هو . وكانت صدمة عنيفة له لانه كان يعتقد أن مدينة بوستن لها تاريخها وتعتبر مصدر الحرية والأحرار الذين فروا من أوروبا إلى الأرض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين ، لايمكن أن يجد فيها لونا من ألوان التفرقة .

ولن أنسى وسأذكر دائما وقع سقوط قلعة "ديان بيان فو" فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ ، وهى التى حاصرها الفيتناميون الأحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات

المتحدة السياسيين وغيرهم عندما استمعت الى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة ، كان رثاء "ندابة" مصرية ، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا . ولقد دهشت لان هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من "أقليم فيتنام" ، وأن الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة . ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب ، كلها ، هى التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين أن يبث مرثاته على بنات وأبناء الشعب الأميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ .

وسأذكر دائما انطباعات نزلاء محلة نورفلك (زميلاتى وزملائى) لما حدث فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، عندما هبت على المجتمع الأميريكى زوابع "جوزيف مكارثى" الذى كان يظنه البعض من خارج الولايات المتحدة أنه القائد الأميريكى "دوجلاس ماك آرثر" الذى قاد القوات الأميريكية فى الشرق الأقصى فى الحرب العالمية الثانية ، والقوات المتحالفة لليابان بعد هذه الحرب ، أما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الأميريكى عن ولاية "وسكونسن" وكان من أصل ايرلندى وكاثوليكى وينتمى الى الحزب الجمهورى ، كان هو وأتباعه فى تلك الفترة يتعقبون بالشبهة والشائعة العديد من المثقفين الأميريكيين (كأساتذة الجامعة ومن فى حكمهم مثلا) ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية واثارة الفتن . وكانت جلسات محاكمة الأخيرين تعقد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا . وكانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلال فترة بثها ملايين الأميريكيين حول التليفزيونات متتبعين مايدور فيها . وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على أن نفعل ذلك ونرى

أمامنا مايحدث وكأننا نرى فيلما سينمائيا مخيفا . وقد تأكدت أن مكارثي وأعوانه ومن كانوا وراءهم كانوا يبغون أن لايلفتوا نظر أعضاء المجتمع الأميريكي الى ما يهمهم من أمور عن عمد بوساطة جذب انتباههم الى ما كان يحدث فى هذه المحاكمات . أن مجتمع الولايات المتحدة كما كنت أراه ويراه غيرى من العلماء والمثقفين الأميريكيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة ، فقد كانت أكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع ، وكانت أكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع أيضا . وكانت من كل عشر آنسات أو سيدات أربع مريضات بمرض نفسى أو عقلى ، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسية المثلية . وكان جناح الاحداث فى ذلك الحين يستشرى فى أكثر من مليون حدث . كل هذه الحقائق وغيرها مثلها قد عرفتها وعرفها غيرى فى ضوء نتائج بحوث علمية اجتماعية أجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين . صحيح أن مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الأميريكى مستوى عال ما فى ذلك من شك . وأن مستوى المعيشة فى محيط الأميريكيين مستوى عال ما فى ذلك من شك أيضا . ولكن القارىء الكريم يعلم كما أعلم تماما أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ومهما يكن من الأمر فإننا نجد فى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة ، طبقا لما ذكره "شارد بورزسميث" فى كتابه (اليانكيون والآله) ، ظواهر تشابه "ظاهرة المكارثية" . أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة . والملاحظ أن مقومات هذه الظواهر كانت فى الأغلب الأعم متشابهة . فنجد أنها تستند الى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وأن غباءها مستحكم لدرجة أنها لاتستطيع نقد نفسها ذاتيا أو أن تكون فكرة أو تصورا

عن ذاتها . وهى تستند أيضا إلى الاندفاع العصابى اما لتحقيق القوة أو للاحتفاظ بها . وهى تستند كذلك الى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة أخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف أو النزوع الى الحصول الى المغانم غير المشروعة ، فضلا عما تقوم به من أنواع الحقد وتعمد الاذى والرذيلة .

كانت هذه المقومات التى ذكرها "شاردبورزسميث" فى كتابه الذى نشر فى عام ١٩٥٤ كلها ، تتحدث عن نفسها امامنا ، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الأميريكى ، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على الشاشة الصغيرة . وقد شهدها قطعا أعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا أعضاء "مذهب الكويكرز" وأعضاء "مذهب البابتستس" (المعمدون البروتستانتيون) ، وما حدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت "الساحرات" وعذبن فى مدينة "سالم" بولاية ماساتشوسيت لمدة ستة شهور . وفى خلال الاعوام ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ عندما ظهرت الحركة المضادة للمذهب الكاثوليكى . (أنظر شاردبورزسميث : اليانكيون والآله باللغة الانجليزية ، نيويورك ، عام ١٩٥٤ ، صفحة ١٠ ، وصفحة ٤٢٩ وصفحة ٤٦٤) .

ولم أكن أدهش كثيرا عندما كنت أرى تابعا من أتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت إراها كما كان يراها الملايين غيرى على شاشة التليفزيون . كنت أرى فى هذا التابع ظلام الجهل الذى يعشش فى تلافيف دماغه ، وكنت أرى فيه الشعور بالنقص واضحا ، أما رغبته فى تحطيم من كان أفضل منه وأعظم فلم تكن تخفى على أحد . وكنت أرى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليها لتظهر

قدرته على إظهار كل ماهو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته . وكانت تنتهى المحاكمة واذكر أننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا . وكان لايتكلم منا أحد . ثم نتفرق واحدا وراء الآخر . لم يكن يتحدث معى عما رأيناه وسمعناه أحد ، ولم اكن أنا أيضا اتحدث مع أحد حتى مع من كان تجمعنى وأياهم النظرة نحو الحياة . لم يكن يجرؤ واحد منهم أن يقول لى شيئا أو يعلق على ما رآه وسمعه بشىء . ولعل ذلك يرجع الى أننى كنت فى حجرة المطبخ فى الساعة الواحدة صباحا فى يوم من أيام هذه الفترة وكان معى شاب "كندى" كنا نلتمس طعاما "نسكت به العصافير" التى كانت تزقزق فى بطن كل منا . فإذا بالنزيل الزنجى (الذى انضم معه الى نزلاء المحلة آنستان زنجيتان فى تلك الفترة) . كان فى الخارج وفى أثناء دخوله من باب المحلة ناداه أحد رجال الشرطة من الزنوج . وقال لنا جون أنه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون ، فنفى جون أنه سمع شيئا غير عادى أو رأى فعلا استثنائيا . كان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجه وكانت يداه ترتعشان . ولم نعلق بشىء ولكننا عرفنا أننا أى نزلاء المحلة تحت المراقبة . ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له أن يعيش حياة الاغتراب أى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى آن واحد . ان المسألة ، كما كنت اقول لنفسى ، ليست جبنا أو خوفا أو خشية ، ولكن المسألة أهم من ذلك وأعظم وهى أن أحرص على حياتى أن تهدم بلا مبرر . وكانت لى تعاليم "أسبارتاكوس" العبد الثائر ، الذى ثار على روما والدولة الرومانية وكانت فى عنفوانها وسطوتها على العالم فى ذلك الحين ، أسوة . فقد كان هذا العبد الثائر حريصا على أن

يبقى حيا لكى يبدأ مهمته العظيمة ولكى يتمها بنجاح . وكان ينصح زملاءه بأن يحرصوا ما استطاعوا على صحتهم لكى يبقوا احياء لكى يؤدوا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم ونحو زملائهم ونحو المستقبل ، أقصد مستقبل الانسان لكى تتحقق انسانيته فعلا وحقا .

واذا اعتبر القارىء الكريم أن زوابع مكارثى هى نوع من التفرقة اللاانسانية الفكرية ، فقد كانت عواقبها وخيمة وفى ضوء التاريخ الأميريكى بدا تكرارها . وقد اكد ذلك "شاردبورزسميث" فى كتابه الذى ذكرته من قبل عن "مذبحة الزنوج المسيحيين" كما سماها . فعلى الرغم من أن هؤلاء الزنوج قد اتخذوا من الدين المسيحى وجاء وحماية فإن هذا لم يمنع من ذبحهم فى إحدى الفترات التاريخية فى إحدى الولايات "انجلترا الجديدة" .

والشىء بالشىء يذكر فإننى أرجو من القارىء الكريم أن يسمح لى بأن اذكر خبراتى مع جماعة شبان الزنوج الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "الافاعى السود" . كنت أشرف على هذه الجماعة ، نظير اقامتى بمحلة نورفلك ، كأخصائى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة . كانت لى مع هؤلاء تجارب وتجارب ، وأرجو من القارىء الكريم أن يسمح لى بإرجاء التحدث عن ذلك حتى أتمكن من ذكر تجربة أخرى هزت المجتمع الأميريكى هزا عنيفا . فوجىء أعضاء هذا المجتمع فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ بما قامت به السيدة الحائكة الزنجية "مسز روزا باركس" التى كانت تعمل فى معرض "مونتجمرى بولاية الاباما" وأصبح ماقامت به هذه السيدة الزنجية تاريخا . كانت مسز روزا باركس بعد يوم شاق فى عملها فى طريقها الى "محطة الاوتوبيس" . وعندما

ركبت وقفت فى القسم المخصص للزنوج وجلست فى أول المقاعد التالية للقسم المخصص للبيض . وكان "الاتوبيس" مزدحما فأمرها سائق الاتوبيس هى وثلاثة آخرين من الزنوج باخلاء مقاعدهم حتى يجلس مكانهم بعض الواقفين من البيض . وأخلى الثلاثة الآخرون أماكنهم ، أما مسز باركس فقد رفضت . ولما كان ما فعلته هذه السيدة الزنجية فى ضوء القانون يعد جريمة فقد قبض عليها وسيقت إلى قسم الشرطة مشيعة ببعض ضحكات الركاب البيض ولعناتهم . وانقضى الحادث فى دقائق . ولكن من هذا الحادث الذى كان يبدو صغيرا انبثق ما يشبه الثورة فى محيط زنوج الولايات المتحدة . كان موقف مسز باركس يعتبر انفجارا فى محيط زنوج الولايات المتحدة أو محيط الأغلبية الساحقة منهم . وقد ابلغتنى "دوتى" وهى احدى النزيلتين الزنجيتين بمحلة نورفلك انها تعرف هذه السيدة معرفة شخصية ، ووصفتها بأنها سيدة طيبة "وفى حالها" وهى أى دوتى دهشت كثيرا لما حدث منها . والواقع أن دوتى لم تكن وحدها التى كانت تحاول اكتشاف العوامل التى حدت بمسز باركس الى أتخاذ هذا الموقف ، فقد علمنا أن سلطات مونتجمرى كانت تصر على أن "أتحاد تقدم الملونين" بالولايات المتحدة هو-الذى دفعها الى فعل ما فعلت . وقال بعض المتطرفين أن ما فعلته مسز باركس كان عملية "شيوعية" . ولكن الحقيقة كما بدت لى فى ضوء خبراتى التى عشتها فى الولايات المتحدة أن مسز باركس انما عبرت عن روح العصر . لقد كانت واحدة من الزنوج الذين فاض بهم الكيل . وكان القبض عليها بمثابة الشرارة التى أشعلت نيران الحماس فى قلوب بعض السيدات الزنجيات فكوّن لجنة منهن التى أتصلت بالقسس وغيرهم من القادة الزنوج المدنيين ، وطالبت هذه اللجنة بمقاطعة الزنوج

للاوتوبيسات وقد كانوا يكونون ٧٥٪ من ركاب الأوتوبيسات ، وأخذ "قس" شاب على عاتقه مسئولية توزيع المطبوعات التى تدعو الى المقاطعة . وكان هذا القس هو "الدكتور مارتن لوثر كنج" .

كانت هذه الحوادث تجرى بسرعة مذهلة ، وكنا أنا ومن حولى فى محلة نورفلك وحتى فى الجامعة نترقبها أولا بأول ولم نكن ندرى ما الذى سيكون مصيرها ، وأن كنا ندرى أن ماحدث كله لم يكن ثورة ضد البيض بقدر ما كان ثورة ضد قيادات الزنوج وأهدافهم . وقد تأكد لى ذلك مرات ومرات فقد علمت أن أحد أعضاء مجلس النواب الأميريكي ذهب مع من ذهبوا لحضور "مؤتمر باندونج" الذى عقد في شهر ابريل عام ١٩٥٥ . وقد أعد هذا العضو زيارات الى مدن الولايات المتحدة ليلقي فيها محاضرات عن هذا المؤتمر وكان من بين هذه المدن مدينة بوستن ، وأنه قد تحدد موعد حضوره الى مدينة بوستن فى خلال شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وما أن علمت بذلك حتى سارعت إلى حجز مقعد لى فى الصالة التى ستلقى فيها المحاضرة نظير مبلغ معين . واذكر اننى عشت مترقبا الموعد حتى جاء . وذهبت فوجدت القاعة غاصة بالمواطنين الأميريكين من الزنوج . ولم يكن من بينهم من غير الزنوج سوى عدد قليل جدا . وعلمت وأنا فى القاعة أن المحاضر (أحد القادة) زنجى . كان محاضرا لبقا ما فى ذلك من شك تتدفق الكلمات من فمه بلهجته الزنجية الراقية سلسة عذبة ، ولكن المهم عندى كان ما الذى يزمع أن يقوله عن هذا الحدث العالمى وهو القائد الزنجى المرموق . قال كل شىء عن ظروف معيشته . ووصف وجبات الأغذية الرخيصة الثمن بالنسبة للأسعار فى المجتمع الأميريكى . وصف أيضا الشوارع وعلو

المنازل وطبقاتها والوانها ونظافتها . وأنني اذكر وأنا في دهشة أن القاعة قد ضجت ، عندما ذكر الأسعار التي دفعها نظير كل وجبة ، بتصفيق الحاضرين ، وكان هذا كل ماقاله المحاضر الزنجي "الخطيب المفوه الذي كان يعي مايقول والغرض مما يقول" فقد كان يكرر ماقاله مرات ومرات وبخاصة ماقاله عن أصناف الطعام وسعرها الرخيص . كان يبدي ويعيد ويكرر ما كان يقوله محاولا أن يستغرق من الوقت أطوله . ثم ختم حديثه ، وكان التصفيق حادا ، عندما ذكر أن الملونين من الناس في العالم هم أضعاف البيض ، وأن النصر سيكون حتما حليفهم . لم يقل شيئا عن مؤتمر باندونج ولا عن الخطب التي ألقيت فيه ولا عن التوصيات شيئا.

وقد حزنت بعد سماعي لهذا المحاضر القائد الزنجي الذي تخلى عن واجباته نحو ذويه وأهله نظير دراهم معدودات يجمعها من هنا ومن هناك والتي ستزيد حتما على تكاليف ذهابه إلى مؤتمر باندونج اذا كان قد صرف من حسابه سنتا واحدا . فمثل هذا الرجل يرسل خصيصا من جهة من الجهات المسئولة عن تخطيط السياسة في الولايات المتحدة والنفقات تكون بالضرورة على حسابها . ومهما يكن من الأمر فإنني بعد هذه التجربة وغيرها من تجارب على شاكلتها من قبل ومن بعد ، قد زادت بل اكدت اقتناعي بأن ماقامت به "مس باركس" كواحدة من زنجيات الولايات المتحدة وزملائها الزنوج في نفس الولايات من الذين فاض بهم الكيل . وما فعلته كان في الأغلب الأعم ضد بعض قيادات الزنوج وأهدافهم .

وأعود الآن الى خبرتي مع جماعة "الافاعي السودانية" طبعا اذا تفضل القارىء بالسماح لي . لم اعرف رد فعل هؤلاء

الاعضاء ، اذ كانوا أول جماعة من الزنوج تسمح لهم إدارة محله نورفلك باجراء نشاطاتهم فيها . ولم أكن أعرف رد الفعل عندما علموا بأننى سأكون المشرف عليهم كأعضاء فى المحلة . كنت لا أملك لهم ، وأنا لا أملك غير ذلك ، إلا الحب والاحترام ، كانوا فى أول الأمر لايثقون فى الثقة التى أبغيها منهم لكى أفيدهم بخبراتى ولكى أفيد بخبراتهم . كانت اللغة فى أول الأمر عائقا بينى وبينهم ، فقد كانوا يتحدثون اللغة "الأميريكية" بأسلوب الرجل العادى غير المثقف (الذى يستعمل فكره أكثر من يده) ، فقد كانوا يتحدثون هذه اللغة بسرعة . وكنت عندما أتحدث اليهم وكانت لغتى هى اللغة الفصيحة يسخرون من لغتى ويداعبوننى . كنا نتقابل يومى الأثنين والأربعاء من كل أسبوع من السادسة مساء الى الساعة التاسعة مساء . وكنت أول من يحضر فى المكان المخصص لنا ، إذ كانوا يتلكئون فى الحضور ويتأخرون عن المواعيد المحددة . وكنت أجلس انتظر مؤمنا بأن حبى لهم واحترامى سيشعرون بهما حتما فى يوم من الأيام . وفى احدى الليالى فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ انتظرت جماعة الفيبرز ، ولكن لم يحضر أحد . ومر الوقت فإذا الساعة تشير الى السابعة والنصف مساء . فحزمت أمرى على أن أذهب اليهم ، فقد كنت أعلم أن المدارس فى "حى وكسبرى" تفتح أبوابها للشباب مساء لكى يقضوا أوقات فراغهم كلما عنّ لهم ذلك . ولم يكن هناك أشراف مهنى فى هذه المدارس على من يحضر من شباب الحى أو من غيرهم من الشباب . وذكرت لمدير المحلة ما عزمت عليه فلم يقف فى سبيلى وترك الأمر لى . وذهبت فى شوارع حى روكسبرى ألتمس المدارس التى تقع فيه ، وكان البرد قاسيا حقا ،

وسرعان ما وجدت أعضاء جماعة الفيبرز فى أحد الملاعب فى احدى المدارس رأيتهم وما أن رأونى حتى سارعوا الى استقبالى وطلبت منهم الذهاب معى الى المحلة أقصد محلة نورفلك ، فقد انتظرت طويلا ولم يحضر أحد . وابلغتهم في حب واحترام أن هذه المحلة قد اتاحت لهم الفرصة لكى ينشطوا ماشاء لهم من النشاط المشروع فى حدود الوقت المحدود . ورأيتهم يحيطون بى ويتبعوننى ، وذهبنا الى المحلة ودخلنا من الباب الى الحجرة المخصصة لنا حيث تعهد الجميع على عدم التأخير فى يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع فى خلال الفترة المسائية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة ، وقد أوفوا بوعدهم منذ ذلك الحين الى أن تركت المحلة بعد أن أديت مهمتى الدراسية بحصولى على درجة الدكتوراه فى شهر مايو عام ١٩٥٦ : لقد أيقنت منذ تلك الليلة فى أوائل ديسمبر عام ١٩٥٣ بأننى كسرت "لوح الثلج" الذى كان يقف عائقا بينى وبين جماعة الفيبرز . وقد تأكد ذلك عندما تبرعوا لكى يشتروا لى "هدية" بمناسبة "عيد الكريسماس" ، وعندما دعونى لحضور كنيستهم صباح يوم أحد من الآحاد ، وعند ما دعانى رئيسهم الى طعام الغذاء فى بيتهم المجاور للمحلة . وعندما كنا نتبادل الزيارات العديدة بعد ذلك ، هم يأتون عندى فى المحلة وأنا أذهب الى بيوتهم وتوطدت صداقتى الخالصة بهم وبأعضاء أسرهم . ولن أنسى ما حييت زياراتى لبيت عضوين من أعضاء الجماعة الزنجية كان البيت فى احدى حوارى حى روكسبرى الفقيرة جدا واذا بى فى الشقة اجدها نظيفة جدا وأثاثها يتضمن "البيانو" و "المكتبة" التى تتكدس فيها الكتب والمجلات من كل نوع . ولن انسى الرجل الزنجى كبير السن الذى قابلته فى احدى المرات ، كان الجد الكبير ، ويبدو أنه كان فى الثمانين

من عمره . وكان هذا الرجل الهرم لطيفا معى واحتفى بى ، فأنا قد جئت من قارة أفريقيا ، احتفاء كبيرا . وتحدث معى كثيرا وكان يقول لى فى يقين "يا ابنى لاتثق أبدا فى الرجل الأبيض ولاتذهب الى دار السينما ولا إلى مطعم وتجنب الرجل الأبيض ما استطعت الى ذلك سبيلا" . ولعل هذه العبارات التى صدرت على لسان هذا الرجل الهرم قد نشىء على معانيها أعضاء أسرته الرجال والنساء والشبان والشابات . ولعل ذلك يعنى أن الحياة بين الرجل الأبيض وبين الرجل الزنجي كانت متوترة أبدا ولاتسعد اى انسان عاقل رشيد يرى أن الانسان ليس بأصله أو بنوعه أو بجنسه بل الانسان يقدر بما يفعله من خير لمجتمعه أى لما يريد لمجتمعه أن يتغير الى ما يجب أن يكون وذلك بتغييره الى الأفضل حيث يحسن عضو المجتمع بانسانيته ويحس بانتمائه لوطنه .

ويبدو لى أننى اقول كلاما ليس له صدى . فقد قدر لى أن اقف مواقف سخيفة بسبب لون بشرتى أو بسبب تفكيرى أو بسبب دينى فى الشارع وفى المحلة وفى الجامعة مرارا وتكرارا . وارجو أن لايمل القارىء الكريم اذا ذكرت هذه المواقف حيث كنا فى فترة من فترات الصيف . وعلى الرغم من أننى كنت اعمل صيفا وشتاء كمتلقى لمحاضرات الجامعة نظريا وعمليا حتى أختصر وقت الدراسة لاعود الى بلدى الحبيب مصرنا الغالية حيث تعيش أسرتى الحبيبة ـ وكانت فترة الصيف فى محلة نورفلك يتخذها الطالبات والطلبة الجامعيين فى جامعات مدينة بوستن ، مقرا لهم ، وذلك ليقوموا بعمليات تنظيف الشقق التى يسكنها الفقراء فى حى روكسبرى . وكان أصحاب هذه الشقق من البيض الفقراء ومن الزنوج المطحونين . وكان طالبات وطلبة جامعات بوستن هؤلاء من الأسر التى تستطيع أن تدفع مصاريف الجامعة

العالية فضلا عن المصاريف الأخرى التى تتطلبها المعيشة الرغدة لبناتها وأبنائها .

كان هؤلاء الطالبات والطلبة من طبقة غير الطبقة ، ويحاولون أن ينزلوا الى الطبقات الدنيا ليحتكوا ثقافيا بأعضائها فيفيدوا . وفى نظير ذلك أو فى سبيل تحقيق ذلك يلتزمون بأداء خدمة تنظيف الشقق عن طريق تبييضها أو نقشها أو إعادة تبييضها أو نقشها . وكنت أرى أعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم "السلم الخشبى" "أو فى أيديهم الفرشاة" أو "جردل البوية" . وأراهم وهم يسيرون فى الشارع بأصرار ودون ما وجل أو خشية من أحد وكنت أرى ذلك ، وكان غيرى من سكان الحى يرونه ، وكنت أرى الزهو أحيانا ، وكنت أرى التواضع أو ماكان يبدو لى أنه تواضع احيانا أخرى .

ولاننى كنت من نزلاء محلة نورفلك ، ولأن وقت الفراغ فى خلال فترة الصيف أطول منه فى فصل آخر ، فقد كان المسئول عن نشاطات اعضاء جماعة الطالبات والطلبة المذكورين يوجه الدعوة الىّ لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية ، لم تكن هذه الدعوة توجه الىّ يوميا بالطبع ، فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية الحميدة منها فى رأيى وغير الحميدة منها فى رأيى أيضا . ولم أكن عضوا فيها . وكانت الجماعة تعيش فى محلة نورفلك فى فترة الصيف حيث لا عمل فيها أو فى الجامعات التى ينتسبون اليها . أن أعضاءها فى حقيقة الأمر كانوا يقيمون فى المحلة اقامة فعلية لفترة لاتقل عن شهر . وفى الاجتماع الذى كنت أحضره اجد أن كل عضو يدلى من ورقة بشىء يشبه التقرير عما مرّ به من تجارب وما اكتسب من خبرات .

وكان من بين أعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل "ولاية الباما" و "ولاية جورجيا" .

وفى احد الاجتماعات الذى دعيت الى حضوره أدلى احدهم وكان من احدى العائلات البيض الثرية تقريره اليومى وكان يسهم مع آخر فى تنظيف احدى الشقق لأسرة زنجية . كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة "جامعة هارفارد" فى منطقة "كامبردج" التى لايفصلها عن جامعة بوستن الا كوبرى صغير . وبدت على وجه هذا الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا . وقال ضمن ما قاله أنه "لايطيق رؤية أحد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له أن يقوم بتنظيف شقة أسرة زنجية أو أن يسهم فى هذا التنظيف ؟ . كانت مشاعره تأبى عليه أن يواصل مابدأ . وبدا أن الموقف ، إذ كنت حاضرا ، حرجا . وكان رئيس الجماعة أو المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة الى جلسة مقبلة التى لم أحضرها لسبب بسيط لأننى لم أدع الى حضورها أو إلى حضور غيرها من الجلسات .

وأننى أرى وأرجو من القارىء الكريم أن يرى ما أرى أن الظاهرة الاجتماعية بل أن أى شىء فى عالمنا شىء له تاريخ . كل له تاريخ هذا عنوان كتاب "بروفسور هولدين" الذى نشر فى عام ١٩٥١ . وفى ضوء هذه العبارة الصادقة التى تذكرتها وأنا فى عرض المحيط الأطلنطى عائدا الى مصرنا الخالدة بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٦ . فى هذه الأثناء تذكرت أيضا زنوج الولايات المتحدة وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن أحضان ذويهم الحانية الى القارة الأميريكية .

كان الانجليز من أهم تجار "العبيد" كانوا يبزون الاسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولانديين فى هذه التجارة اللاانسانية . وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون أن زنوج افريقيا خير معين لهم فى القيام بالاعمال الشاقة فى مزارعهم الشاسعة .

وكان الانجليز من المستعمرين يقومون بهذه التجارة عن طريق ما أطلق عليها "تجارة المثلث" حيث كانت تخرج المراكب من ميناء "ليفربول" أو "ميناء" "برستل" وهى فارغة ، ويقودها القراصنة من التجار الانجليز ، الذين كانوا يسولون لانفسهم تجارة البشر (أصبح هؤلاء فيما بعد اللوردات الانجليز الذين طالبوا بالحكم ، وأحفادهم اليوم هم الساسة المرموقون فى المجتمع الانجليزى) . وكانت المراكب الانجليزية الفارغة تسير الى أن تصل الى مرساها عند ساحل افريقيا المطل على المحيط الأطلنطى . وكانت بضاعة هؤلاء النخاسين التى يستبدلون بها البشر من العبيد الأفريقيين من الذين كانوا يجمعون بعد أن يصطادهم الذئاب من التجار الذين كانوا يحشدونهم فى أماكن تقع على ما يعرف الآن بـ (ساحل غينيا) . كانت هذه البضاعة الزجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والأسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة .

وتمثل هذه العمليات الضلع الأول من مثلث هذه التجارة اللعينة . ثم يحشد ما تم أستبداله من العبيد فى المراكب لكى يعبروا المحيط (الأطلنطى) مرة ثانية فى طريقهم الى المستعمرات الأميريكية . وكان هدف أهداف هذه العمليات مرجعه الى الجشع والرغبة فى الربح عن طريق العنف والقسوة اللا انسانية وكانت هذه الرغبة فى الربح تتغلغل فى أعماق أعماق نفوس تجار العبيد من البشر أو تجار البشر

الذين أصبحوا عن طريق استخدام الأرهاب عبيدا .

وبتحقيق هذه العملية يكون قد أستكمل الضلع الثانى من تجارة المثلث . ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التي انتجتها المستعمرات الأميريكية ومن أهمها "عسل السكر" نظير مابقى من العبيد المغلوب على أمرهم حسب اعمارهم ونوعهم وماتبقى لهم من صحة وعافية . ثم تقلع المراكب بما حملت لتذهب من حيث أتت أى الى ميناء ليفربول أو ميناء برستل . (الموسوعة البريطانية : عدد ٢٠ ، بتاريخ ١٩٦٨ ، صفحة ٦٣٥) .

لم أكن فى ذلك الوقت الرهيب جئت الى هذه الدنيا ولكننى قرأت الاعلان المواجه لصفحة رقم ١٩٦ فى الموسوعة البريطانية : عدد ١٦ ، بتاريخ ١٩٦٨ ، اذ يقول هذا الاعلان :

"للبيع على سطح مركب" بانسى : باند "يوم الأثنين ٦ من شهر مايو المقبل على "المعدية ـ ابليرى" حمولة منتقاة من ١٥٠ زنجيا أصحاء وصلوا فى الوقت الراهن من شاطىء ويندورد وريس" .

والعناية التامة بهؤلاء الزنوج قد اتخذت ، وستستمر هذه العناية حتى يتفادوا أى خطر من حيث العدوى بمرض "الجدرى" . ولم يسمح لأى قارب ليكون على سطح المركب ، وقد تم تحريم اتصال أى شخص آت من "مدينة شارلس" .

(··· ملاحظة :

نصف عدد الزنوج المذكورين أعلاه كانوا مصابين بمرض "الجدرى" عندما كانوا فى بلادهم) .

وعشت فى هذه الدراما اللا انسانية المرعبة ساعات وساعات . وكنت أتصور أننى كنت واحدا منهم وأحاول أن

اتخيل التجربة أو التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر . وقد تأكدت هذه المشاعر المظلمة عندما قرأت كتاب "الجذور" لؤلفه" الكس هيلى" الذى نشر فى عام ١٩٧٧ . كان مضمون هذا الكتاب يفصح بوضوح عن أن الانسان يمكن أن يكون وحشا كاسرا ، وعندما ماشاهدت "الفيلم" الذى عكس الدراما اللا انسانية التى تضمنها الكتاب المذكور زادت مشاعرى المظلمة ظلاما .

وتذكرت ما كتبته عن "رفاعة رافع الطهطاوى" نقلا عن كتاب الأخ الفاضل الاستاذ الدكتور "رفعت السعيد" وعنوان هذا الكتاب (المؤلفات الكاملة : المجلد الأول ، الناشر دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، تاريخ ١٩٧٨) . فإذا بى أعيد قراءة وثيقة بخط رائد الأجيال رفاعة رافع الطهطاوى وختمها بخاتمه فأجد انسانية هذا الرجل ساطعة تؤكد اهتمامه بالمرأة واحترامه لها . وعلى الرغم من وجود "الجوارى" فى منزله حيث كان رجال الشريعة الاسلامية يبيحون التمتع بهؤلاء الجوارى (ملك اليمين) . وليقرأ معى القارىء الكريم الوثيقة التى أشرت اليها :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة كريمة العلامة الشيخ محمد الفرغلى الانصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء ، أو تمتع بجارية أخرى . فأن تزوج بزوجة أياما كانت .. كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين . ولكنه أوعدها وعدا صحيحا لاينتقض ولا يحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الامانة والعهد لبيتها ولاولادها ولخدمها وجواريها . ساكنة معه فى محل

سكناه ، لايتزوج بغيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوار أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لاحدهما بقضاء . (أنظر : رفعت سعيد) المؤلفات الكاملة المجلد الأول ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧٨ ، صفحة ٣٤) .

ومن نكد الدنيا أن نجد فى ضوء حقائق التاريخ أن الانجليز بعد أن مر إثنا عشر عاما على احتلالهم لمصرنا الخالدة ، كما ذكر الاستاذ الصحفى "صلاح عيسى" فى كتابه "حكايات من مصر" الذى انتهى من كتابته فى شهر ابريل عام ١٩٧٢ وقد نشرته دار "الوطن العربى" ببيروت ـ أن الرقيق كان قد الغى من مصر بموجب معاهدة مصرية انجليزية ابرمت فى عام ١٨٧٧ (قبل الاحتلال المشئوم) ، وتطبيقا لها صدر أمر عال من الخديو (إسماعيل) فى اغسطس من العام نفسه ، ينص على فترة إنتقال مدتها أثنا عشر عاما يسمح فى خلالها للأسر التى تمتلك جوارى أو عبيد أن تتاجر فى الرقيق مع غيرها » .

"وبعد مضى المدة المحكى عنها اذا كان أحد من رعايا الحكومة المحلية يخالف الأمر ويتجرأ على بيع الرقيق السودانى أو الحبشى تصير مجازاته بالاشغال الشاقة لمدة أقلها خمسة أشهر وأكثرها خمس سنوات" (أنظر صفحة : ١٥٩) .

والملاحظ أنه فى ضوء ما كتب من قبل أن دور الانجليز فى تجارة العبيد التى بدأت منذ عام ١٦٨٠ ، كان الزنوج خير معين لهم فى القيام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم فى ذلك الحين . كانت الحالة الاقتصادية تقتضى وجود هؤلاء الزنوج أى الايدى الانسانية العاملة . ولما تطورت الحالة الاقتصادية ، واخترعت الآلة ، اكتفى الانجليز والمستعمرون

الآخرون بما فعلوه من معاملة لا إنسانية مع قطاع الزنوج القطاع المستضعف . أقصد المستعمرين وهم على أبواب بناء الرأسمالية قد وجدوا أن تكاليف هؤلاء أصبحت باهظة . ومن ثم أرتفعت الأصوات بإلغاء الرقيق فى العالم . ولكن بالاضافة الى ذلك "قيام الحرب الأهلية" فى الولايات المتحدة التى ناضل فيها الذين كانوا ينادون بالغاء الرق . وقد كسب هؤلاء الحرب ولكنهم خسروا السلم . وفى خلال الأعوام المضطربة من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٧ وعن طريق انتهازية بناة الدولة الرأسمالية وجشعهم ونقص التخطيط وضعت أسس نظام التفرقة الذى يعانى منه زنوج الولايات المتحدة حتى وقتنا هذا .

ولم يكن "ابراهام لنكلن" الذى قاد الحرب الأهلية "يؤيد إلغاء الرق ، وكان يعتبر هذه الحرب ثورة من "مواطنى" الجنوب وليست من "ولايات" الجنوب ، ومن ثم فإننا نراه بعد انتهاء الحرب كان من رأيه أن يدع ولايات الجنوب تعالج مشكلة الزنوج كما يروق لها (انظر كتاب ثورة الزنوج تأليف لويس لوماكس ، ترجمة سيد عويس ، فى كتب سياسية : الدار القومية للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٦ ، صفحة : ١٩) .

وقبل أن يمل القارىء الكريم أود أن اذكر أنه فى عام ١٩٦٤ قد حصل "جان بول سارتر" على جائزة نوبل ، ولكنه رفضها . كما حصل "مارتن لوثر كنج" على نفس الجائزة ولكنه قبلها ولم يرفضها ، ونلاحظ أن مارتن لوثر كنج الذى كان نصيرا لعدم العنف قد صرع قتيلا فى عام ١٩٦٨ ، وذلك على الرغم من أن الزنوج الأميريكين ، فى ضوء معاملة البيض لهم فى كل مواقع الحياة التى يحيونها ، هم الذين لاحيلة لهم إلا استخدام العنف ، فالمعروف أن "العنف يولد العنف" . (المرجع السابق : صفحات ، ٤٤ ـ ٤٧)

وقد شهد شاهد من أهلها اذ طالعتنا مجلة "تايم مجازين" (عدد رقم ١٢ ، شهر مارس عام ١٩٨١ ، صفحات ١٨ ـ ٢٣) بالمعلومات عن بعض جرائم العنف التى ترتكب فى المجتمع الأميريكي ، فذكرت أن فى كل ٢٤ دقيقة ترتكب جريمة قتل فى مكان ما فى الولايات المتحدة (٢١٩٠٠ جريمة فى العام) وأن فى كل عشر ثوان ترتكب جريمة سرقة فى احد المساكن ، وأن فى كل سبع دقائق ترتكب جريمة أغتصاب . وهناك أمر هام (كما ذكرت المجلة) ويعتبر جديدا بشأن جرائم القتل والسرقات والأغتصاب والاعتداء على الآخرين ، وهذا الجديد يبرز أن لعنة العنف فى أرتكاب الجرائم قد انتشرت وتنتشر ليس فقط فى أحياء الأقليات (ومنهم الزنوج بالضرورة) وبخاصة فى المدن التي ينتشر فيها الكساد حيث يسود الحقد ، ولكن قد نجد هذا العنف منتشرا أيضا فى كل بقاع المناطق الحضرية وضواحيها وحتى فى أنحاء الريف (المسالم) !

ومن المهم أن نذكر (هذا ما تذكره المجلة المذكورة) أن أنواع الجرائم قد أصبحت أكثر وحشية وترتكب من وحى الغرائز دون ما منطق وبعشوائية . ومن ثم فهى بالضرورة مخيفة ومفزعة . ومن الجرائم التى تزعج الرأى العام يلاحظ أن كل أسرة من ثلاث أسر فى الولايات المتحدة كانت لها صلة مباشرة بنوع من أنواع الجرائم الخطيرة فى العام الماضى (أى عام ١٩٨٠) . ومن النادر أن نجد امريكيا واحدا لايعرف شخصيا ضحية واحدة على الأقل من ضحايا العنف فى المجتمع الأميريكى . ونجد أن الخوف والهلع يتسلطان على المجتمع الأميريكى : أعضائه وجماعاته ومؤسساته . وفى أسبوع واحد (من يوم ٨ من شهر مارس

عام ١٩٨١ حتى يوم ١٤ من شهر مارس عام ١٩٨١) ، وجد ٤٠٠ أمريكي مقتولين فى الولايات المتحدة . ومعظم دوافع (وليس عوامل) ارتكاب هذه الجرائم يحدث فى أثناء مجرد عراك أو مناقشات الجيران أو فى حرب المخدرات وفى مناقشات العصابات . والملاحظ أن ثلث المجنى عليهم قد قتلهم أغراب ، وفى الغالب دون أى مبرر واضح .

وقد نشرت إدارة (F. B. I.) نسبا عن جرائم العنف (جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء العنيف والسرقات) . وقد تبين أنه فى عام ١٩٧٠ كانت الجرائم ترتكب بنسبة ٣٦٣,٥ جريمة لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، فى حين وجدت هذه النسبة ٥٣٥,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩ . والملاحظ أن جرائم القتل أرتفعت بنسبة ٩,٧ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩ وقد تأكد أن ثلث جرائم القتل قد أرتكبها مجرمون لم يقابل أحد من المجنى عليهم واحدا منهم فى حياته قط . ومن ثم فإن هؤلاء المجرمين ، وهم فى الغالب يقتلون من أجل سلب الضحايا ، هم الذين يسهمون فى خلق العنف فى المجتمع الأميريكي وفى إشاعة الخوف والهلع فى قلوب أعضائه . وقد تبين أن الجرائم الخطيرة التى ارتكبت فى "مدينة نيويورك" فى خلال ستة شهور من عام ١٩٨٠ ، قد زادت بنسبة نحو ٦٠٪ فوق المستوى القومى العام . والملاحظ أن جرائم السرقة كانت نسبتها فى هذه المدينة أعلى نسبة فى البلاد . وفى عام ١٩٨٠ بلغ عدد جرائم القتل فى هذه المدينة (نيويورك) ١٨١٤ جريمة .

٩ - السجن كمؤسسة قمعية :

يلاحظ أن "السجن" هو أحد الأساليب العقابية التى كانت

توقع على المدانين فى أفعال يراها المجتمع ضارة . وهى قديمة ومتعددة ، كان منها الجلد والعزل والنفى والكى لاحداث علامة تدل على المدان فى أفعال لاتقرها عادات المجتمع وقيم المجتمع ، وكان منها أيضا التشهير به عن طريق ادخال يديه ورأسه فى آلة خشبية أو تعذيبه عن طريق أداة خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رجلاه ويداه أو مجرد رجليه فقط !

وقد تطورت هذه الأساليب العقابية بمرور الزمن عندما تغيرت نظرة قوانين العقوبات (المقصود الذين يشرعون هذه القوانين بالطبع) منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن . وأصبحت المؤسسات العقابية تخصص للمذنبين من الرجال والنساء والشبان والشابات والاحداث ذكورا كانوا أو أناثا . فنجد اليوم فى أغلب دول العالم السجون وأماكن الحجز لكبار المذنبين الرجال منهم والنساء ، وللشبان وللشابات المذنبين ، وفضلا عن ذلك نجد أيضا المؤسسات الخاصة بإيداع الاحداث الجانحين سواء أكانوا من الذكور أم من الأناث ، كما نجد أماكن للكبار وللشبان وللشابات والاحداث المتهمين لحجزهم احتياطيا تحت التحقيق أو لحجزهم فى أماكن الحجز المركزى توطئة لمحاكتهم .

وفى ضوء النظرة القانونية الاجتماعية نلاحظ أن المؤسسات العقابية (ومنها السجن) أن هى إلا مؤسسات اجتماعية ، أى أن لكل منها نجد بناء أو نسقا معينا ، كما نجد لها وظائف اجتماعية معينة . ولعل أبرز سمة من سمات بناء أو نسق هذه المؤسسات هى أن الأقلية فى كل منها تتحكم فى الأغلبية . والملاحظ أن الأقلية فى شخص إدارة كل مؤسسة تكون بالضرورة أقلية قوية ، والأغلبية فى شخص النزلاء تكون عادة ، وليس بالضرورة ، أقلية سلبية مستضعفة . وربما كانت

هذه الأقلية القوية ، أيضا ، حكيمة وعاقلة (وهذا نادر) . وربما أصبحت الأغلبية ، أى النزلاء ، فى بعض الاحيان ، أغلبية ايجابية متعاونة . ويرجع هذا كله إلى نوع الوظائف الاجتماعية التى تقوم المؤسسة بأدائها . فهى إما أن تكون وظائف هدفها العقاب لذاته (العنف الذى يولد العنف والشعور بالعداوة فى نفوس النزلاء) ، أو أن يكون هدفها التنشئة الاجتماعية ، أى تكوين نزلائها ليصبحوا مواطنين صالحين فى المجتمع الذى سيخرجون اليه بعد انتهاء مدة ايداعهم .

وأعضاء مجتمع السجن أناس شتى ، وهم فى الواقع لايكونون مجتمعا بل تجمعا . ويرى بعض الناس أن هؤلاء هم حثالة المجتمع ، ويرى آخرون أنهم أناس غير محظوظين . وهم ، أولا وقبل كل شيء ، نتاج المجتمع (الخارجى) الذى ولدوا فيه وعاشوا . وأغلب الناس الذين يدخلون السجن من الكبار . والكبار من الناس هم غير الاحداث . وهم بالضرورة ذكور أو أناث قد خالفوا نصا من نصوص قانون العقوبات . ومنهم من ثبتت هذه المخالفة عليهم ، وهم المجرمون الكبار . ومنهم من ينتظرون ثبوت هذه المخالفة أو عدم ثبوتها . ولا يطلق على الإخيرين صفة المجرمين حتى تثبت المخالفة .

ويلاحظ أن المجرمين الذين يعيشون فى غياهب السجون قد يكونون من ساكنى الحضر أو من ساكنى الريف أو من ساكنى الحضر المتريف . ومنهم من كانوا يحيون قبل دخول السجن حياة البداوة ، ولكل من هذه المجتمعات سماتها الاجتماعية المختلفة وظروف معاشها وثقافتها .

وهم (أى نزلاء السجون) ، أيضا قد ينتمون الى الأغلبية ، أو إلى الأقلية ، أو إلى طائفة معينة من الناس ، أو

ينتمون الى طبقة معينة أو يعيشون فى المجتمع كأفراد منعزلين .

ويلاحظ أيضا أن المجرمين الكبار فئات ، فمنهم الفلاحون ، ومنهم العمال ، ومنهم التجار ، ومنهم الموظفون الصغار ، ومنهم الموظفون الكبار ، ومنهم الطلبة .. الخ . ويلاحظ كذلك أن المجرمين الكبار قد يكون منهم الأميون ، ومنهم من يحظون بقسط كبير أو صغير من التعليم ، وقد يكون منهم المتزوجون أو غير المتزوجين أو المطلقون أو المنفصلون أو الأرامل ومنهم من له أبناء ، ومنهم من ليس له أبناء .

ونجد أن المجرمين الكبار يرتكبون ، كما ذكرت من قبل ، أنواعا متباينة من الجرائم . فمنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأموال ، ومنهم من يرتكب الاعتداء على الاشخاص (كالقتل مثلا) ومنهم من يرتكب الجرائم الجنسية (وهذه الجرائم مثل جرائم الرشوة والمخدرات والتهريب من الجرائم غير المنظورة التى قد لاتصل الى رجال الشرطة أو الى المحاكم) ، ومنهم يرتكب جرائم أمن الدولة .. ونجد أيضا أن من المجرمين الكبار من يرتكب الجريمة لأول مرة ، ومنهم من يعتاد ارتكاب الجريمة (كجريمة السرقة بأسلوب النشل مثلا) .

ونجد كذلك أن المجرمين الكبار الذين يعيشون فى السجون من يعتبرون مجرمين شواذ سواء كان هذا الشذوذ جنسيا أو عقليا أو نفسيا ، ومنهم ذو العاهات الجسمية ، ومنهم الذين لا عاهة لهم ، ومنهم أيضا غير المعتادين على العمل المنتج ويستمرئون البطالة والتعطل .

وقد حظيت الجريمة ، على تباين تعاريف مفهومها ، بالاهتمام الكبير فى كل المجتمعات الانسانيـة على اختلافها(وبخاصة الجرائم الخطيرة كما ذكرت ذلك من قبل) . كانت الجريمة ، ومازالت ، شيئا مخيفا رهيبا وضارا ، ثم أصبح الاهتمام بالمجرم أيضا ، واضحا بعد ذلك . لأن الجريمة ما هى إلا سلوك بشرى لايرتكبها إلا انسان . وأصبح من العلماء ، اليوم (بل منذ الأربعينيات من القرن الحالى) ، من لايقصر اهتمامه على الجريمة والمجرم فقط ، بل أمتد هذا الاهتمام الى المجنى عليه . فالجريمة يرتكبها بالضرورة مجرم (إنسان عاش فى ظروف اقتصادية اجتماعية غير مواتية فى العادة) . ومعظم الجرائم التى يرتكبها مجرمون ترتكب ضد مجنى عليهم . وإذا كان المجرم انسانا فإن المجنى عليه فى معظم الحالات انسان كذلك .

وفى ضوء كل هذه الاهتمامات انبثق مفهوم معاملة المجرمين ، وخصوصا الذين يدخلون السجون . وقد تغير هذا المفهوم على مر الأيام . وهذا شىء عادى ، أى شىء متوقع ، فبرز فى أفق معاملة المجرم الدعوة الى "تفريد العقوبة" وظهر مفهوم "الدفاع الاجتماعى" كما ظهر أيضا مفهوم "السياسة الجنائية" ثم "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الأقليمي العربى للبحوث والوثيق فى العلوم الاجتماعية :. مفاهيم ، "تفريد العقوبة" و "الدفاع الاجتماعى" و "السياسة الجنائية" و "قواعد الحد الأدنى") .

ويلاحظ أن مفهوم "التفريد" يعنى تصنيف أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته حسب سماتهم الشخصية

(السن والنوع والديانة والمستوى التعليمى ومستوى الذكاء والمهنة والخلفية الاجتماعية مثلا) .. والملاحظ أن هذه السمات تيسر التعرف على شخصيات أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته كلما دعت الحاجة الى ذلك ، كما تيسر معاملتهم بعضهم لبعض .

واذا كان عضو المجتمع قد أرتكب احدى الجرائم وأدين فيها وحكم عليه بالسجن مثلا ، فإن السجن كمؤسسة اجتماعية يجب أن يضع النظم الكفيلة بمعاملة المذنبين يودعون فيه . وفى ضوء "تفريد العقوبة" نجد أن هذه النظم الكفيلة بعاملة المذنبين تهتم ، أول ما تهتم ، لكى تكون هذه المعاملة مثمرة بتقسيمهم الى مجموعات متجانسة ليس فقط من حيث السن والنوع و . و . و . ولكن أيضا من حيث نوع الجريمة التى أرتكبها والعوامل التى أدت الى مخالفته للقانون (قانون العقوبات) .

ومن ثم يتيسر للمسئولين أن يضعوا أفراد كل مجموعة من المذنبين فى مؤسسة مستقلة تتوافر فيها جميع الامكانات الضرورية التى تيسر إعادة تربيتهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين بعد إطلاق سراحهم وخروجهم الى المجتمع .
واذ ألخص ماسبق فإننى أقول : أن معاملة المذنب فى ضوء تفريد العقوبة يجب أن تناسب المذنب كشخص له سمات معينة ، وذلك لأن هذا النوع من التفريد أجدى من أن تناسب العقوبة الجريمة التى أرتكبها .

ومفهوم "الدفاع الاجتماعى" هو مفهوم قديم ومتجدد ، أننا نجد بذوره منذ القرن الثامن عشر (مارشيزذ . بيكارا) ،

ونجد صياغته شبه المتكاملة فى خلال الفترة عقب الحرب العالمية الثانية (جراماتيكا الفقيه الايطالى) والمستشار الفرنسى (مارك آنسل) ـ ومنذ ذلك التاريخ تغير معنى مفهوم الدفاع الاجتماعى ومضمونه ، وهذا أمر متوقع ، تغيرا ملحوظا .

وفى ضوء ما يلاحظ فى هذا المجال نجد أن أهم أغراض الدفاع الاجتماعى المتفق عليها هى :

ـ وقاية أعضاء المجتمع من الانحراف (أى الجريمة والجناح بخاصة) .
ـ وقاية المجتمع من أعضائه المنحرفين (أى من المجرمين والجانحين بخاصة) .

وذلك بإعادة تنشئتهم اجتماعيا ليصبحوا مواطنين أسوياء أى أن وقاية أعضاء المجتمع ووقاية المجتمع فى ضوء الغرضين السابقين تعنى :

ـ جعل أرتكاب الجريمة أكثر صعوبة من غير أن تكتشف .
ـ وجود سماحة أكثر نحو السلوك الذى لايمكن ضبطه بالقانون .
ـ انغماس الشباب انغماسا فعالا فى عمليات التنمية .
ـ وجود قيادات أفضل وإتاحة الفرص الخلاقة للأشخاص المعرضين للجريمة والجناح (الذين فى سن الشباب بخاصة) .
ـ وضع ميزانيات خاصة للجماعات الأكثر خطورة كالمتعطلين والمتخلفين عن المدارس وضعاب المراس من المجرمين (أى المجرمين العدوانيين أو السيكوباتيين أو الذين يرتكبون الجرائم قهرا عنهم) .

- تخطيط جنائى أفضل ، وتقويم الاستثمارات المخصصة
مشروعات الدفاع الاجتماعى وبرامجها .

وإذا كان من أهم أغراض الدفاع الاجتماعى هو ، كما ذكرت آنفا ، تخطيط جنائى أفضل ، فالملاحظ أنه لايمكن وجود تخطيط جنائى أفضل إلا إذا توافرت بعض الشروط هى :

- وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف .
- إجراء بحوث ودراسات علمية عديدة فى محيط الجريمة والجناح .
- تعاون المخططين الجنائيين والباحثين العلميين فى ميدان الجريمة والجناح والعاملين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن الجماهير .

والملاحظ أنه لن توجد سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف ، إلا إذا وجدت سياسة اجتماعية واضحة المعالم والأغراض والاهداف . ولن يتم وضع هذه السياسة إلا فى ضوء ايديولوجية المجتمع . ناميا كان أو غير نام ، أى أن هذه السياسة يجب أن تسترشد بقيم هذا المجتمع وتقاليده وعاداته ومثله العليا .

والملاحظ أيضا أن وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف ييسر وضوح الرؤية أمام المخططين الجنائيين والباحثين العالميين فى ميدان الجريمة والجناح ، والعاملين الآخرين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن جماهير المجتمع على اختلاف فئاتهم ومكانتهم الاجتماعية

وثقافاتهم . وأن تيسير وضوح الرؤية يعنى العمل الجاد وتحقيق الاهداف باقل التكاليف .

ووجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف يرتكز على أنواع موضوعات الدراسات والبحوث العلمية في محيط الجريمة والجناح . ولكى تفى هذه الموضوعات بتحقيق أهداف السياسة لجنائية يجب أن تكون عديدة ومتنوعة ومتناسبة . أى تتناول على سبيل المثال حجم الجريمة والجناح وأنماطهما (ومنها الانماط غير المنظورة) واتجاهاتهما وعوامل وجودهما وبخاصة أنماطهما غير المنظورة ، كما تتناول مناطق الجريمة والجناح كمظهر من مظاهر النمو الحضرى ، فضلا عن البحوث والدراسات التقويمية والتتبعية وأحكام السجن للمجرمين أول مرة ، وآثار إعادة الدخل القومى وتكافؤ الفرص على زيادة أو نقص معدلات الجريمة والجناح فى المجتمع . ولعل البحوث والدراسات عن خطورة الجريمة والجناح تكون ضرورية سواء أكانت مجالاتها تعنى بهذه الخطورة من وجهة نظر الجماهير أم من وجهة نظر المشرعين .

أما موضوع "قواعد الحد الأدنى لمعاملة السجونين" فإننا في ضوء حقائق التاريخ نجد أن هذه القواعد قد أنشئت فى عام ١٩٢٩ ونوقشت فى المؤتمر الدولى الأول للأمم المتحدة الذى أقرها فى عام ١٩٥٥ ثم إعتمدها المجلس الاقتصادى الاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٧ . ومن ثم أصبحت بذلك ميثاقا دوليا أجمعت الدول الأعضاء على تطبيق نصوصه وأحكامه .

وتعنى قواعد الحد الأدنى بالاهتمام بمعاملة المسجونين من حيث عدم النزول بمستوى هذه المعاملة وتنظيم وإدارة مؤسساتهم الى ماهو أقل من المستوى الذى حددته هذه

القواعد ، ويعتبر هذا النزول ليس فقط خروجا على المبادىء الأولية لعلم العقاب الحديث وأمر لايقره رجال الاصلاح المعاصرون فحسب ، ولكنه يعتبر بالمثل امتهانا صريحا لكرامة الانسان واعتداء صارخا على حقوقه الاساسية التى كفلها له ميثاق الأمم المتحدة .

وتتضمن قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين ٩٤ قاعدة ، منها ما يتعلق ببعض الملاحظات الأولية ، والقواعد العامة المتعلقة بالتطبيق من حيث المبدأ الأساسى الذى تطبق فى ضوئه هذه القواعد بدون تحيز ، ومن حيث السجلات الخاصة بالسجن وأبنيته ، ومن حيث الصحة الشخصية الكساء والفراش والتغذية والرياضة البدنية والخدمات الطبية والنظام والتأديب وأدوات الأكراه ، ومن حيث أخطار المسجونين بالتعليمات وحقهم في الشكوى والاتصال بالعالم الخارجى ، ومن حيث الكتب ، ومن حيث أداء الفرائض الدينية ، ومن حيث متعلقات المسجونين والاحتفاظ بها ، ومن حيث التبليغ عن الوفاة والمرض والنقل ، ومن حيث موضوع النقل نفسه والحالة التى يتم بها ، ومن حيث موظفو المؤسسات (اختيارهم وتدريبهم مثلا) .

وقد اهتمت القواعد بتطبيقها على طوائف خاصة من المسجونين المحكوم عليهم بعقوبة وذلك بالنسبة للمبادىء الموجهة ، ومن حيث معاملتهم وعلاجهم وتقسيم وتفريد معاملتهم وعلاجهم ، ومن حيث الامتيازات التى تمنح تشجيعا لسلوك المسجونين الحميد ، ومن حيث العمل وبعده عن أن يكون وسيلة للتعذيب ، ومن حيث التعليم والترويح والصلات الاجتماعية والرعاية اللاحقة .

أما بالنسبة للمسجونين المصابين بالجنون (أو بالشذوذ

العقلى) فقد كانوا موضع اهتمام القواعد ، وكذلك الاشخاص المقبوض عليهم أو المحبوسين احتياطيا . واهتمت القواعد بالمسجونين المحكوم عليهم بسبب دين أو بالحبس المدنى .

وقبل أن أختم الموضوع الحالى أرجو أن يسمح لى القارىء الكريم بأن أذكر له تجربة واجهتها عندما كنت فى مدينة "نيش" وأنا أزور "يوغسلافيا" فى خلال الفترة من يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ الى يوم ٦ من شهر فبراير عام ١٩٦٤ ، حيث يسرت لى هيئة الأمم المتحدة هذه الزيارة ، إذ منحتنى "منحة الزمالة" لتتاح لى فرصة الاطلاع على الدراسات الاجتماعية والجنائية التى تقوم بها الهيئات المتخصصة فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين .

ولاحظت ان المجتمع اليوغسلافى أو المسئولين عنه يرون أن المسجونين آدميون لكل واحد منهم طاقة بشرية ، وهم أقصد المسجونين ، كمجموعة ، عبارة عن طاقة بشرية هائلة لايجوز أن تضيع هباء . ولايمكن أن تترك لتتبدد . وأن العمل الانسانى هو طقس من الطقوس فى هذا المجتمع . وهو واجب وحق لكل عضو من أعضائه . والمسجونون مهما كانت ظروفهم فهم بعض أعضاء هذا المجتمع . ومعاملتهم يجب أن يكون أهم أهدافها القيام بعملية تنشئتهم إجتماعيا . والعمل ، وحده كفيل بذلك ، أى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه العملية ، فإذا أعطى المسجون الفرصة ليعمل العمل المناسب وينتج ، أسترد كرامته ، وأسترد ثقته فى نفسه ، وأحس بكيانه الانسانى ، وأصبح مواطنا صالحا .

وقد لاحظت أن المسجونين فى المجتمع اليوغسلافى يعطون فرصة العمل المنتج مهما كانت صور جرائمهم ومهما

اختلفت مكاناتهم الاجتماعية ومهما تباينت أعمارهم . وهم يتعلمون ويتدرجون فى التعليم حتى يتخرج منهم العمال المهرة وغير المهرة : كل حسب قدراته وحسب مدة سجنه . ولايقف مستوى التعليم فى السجون اليوغسلافية عند حد . ولعل هذا المستوى يصل الى مستوى الجامعات والمعاهد العليا . وأهم مجالات العمل فى السجون المصانع . وهى مصانع حديثة إذا دخلت فى أحدها تجده مصنعا عاديا مثله مثل أى مصنع فى خارج السجن . وتجد القتلة والمزيفين والمزورين وغيرهم من المسجونين يعملون كلّ حسب دوره . ولا يمكن أن تميزهم عن العمال العاديين وربما كان الكثير منهم من الأميين أو من أهل الريف قبل التحاقهم بالسجن . وانظر اليهم وهم يديرون الآلات الدقيقة ، وانظر الى وجوههم ، وانظر الى نظرات عيونهم تجد الاصرار والعزيمة والجد وملامح الثقة بالنفس والأمل ، كما تجد صورا زاهية من الانتصار .

وظروف العمل فى السجون هى نفس ظروف العمل فى خارجها . فالمسجونون يحصلون على الأجور ، كل حسب عمله ، كما يحصلون على مكافآت تشجيعية مرتين أو ثلاث مرات فى العام الواحد . وهم وأن كانوا لايتمتعون بعضوية النقابات فإن قواعد ونظم النقابات تطبق عليهم . والضمان الاجتماعى يشمل كل المسجونين العاملين . وأيام العمل ستة أيام وهى نفس عدد أيام العمل فى خارج السجن (فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين) . ويتمتع المسجونون بالاجازات الرسمية أسوة بغيرهم ، وهم أن عملوا فى أيام الاجازات الرسمية يحصلون على أجورهم كاملة .

ولاتصرف الأجور كلها للمسجونين . فجزء منها يوفر

للمسجونين وجزء آخر يرسل الى أسر المسجونين وجزء ثالث يصرف للمسجون يشترى به ما يشبع به حاجاته الأساسية وغير الأساسية من "كانتين" السجن . وقد لاحظت أن هذا الكانتين مملوء بالسلع الاستهلاكية من المأكولات والمشروبات وغير ذلك ، ولا يعرض الكانتين الخمور بأنواعها للبيع . .

وفي ضوء الشعار القائل : أن العمل شرط الوجود الانساني ، نجد أن المسجون لايعطي أى عمل اعتباطا . فالسجن مزود بالمتخصصين فى العلوم الانسانية . ومنهم من يستقبلون المساجين في مركز خاص ملحق بالسجن لدراسة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا . ويقوم بهذه الدراسات ، عن وعي مهني ، الاخصائيون الاجتماعيون والتربيون والأطباء والاخصائيون النفسيون والأطباء النفسيون . وفى ضوء الدراسة يوجه كل مسجون الى المهنة التى تتناسب مع شخصيته وقدراته وخبراته . فالمسجونون ، هم أولا وقبل كل شيء ، آدميون ، لكل واحد منهم ، كما سبق أن ذكرت ، طاقة بشرية ، وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة لايجوز أن تضيع هباء ولايمكن أن تترك لتتبدد .

والملاحظ أن المصانع التى يعمل بها المسجونون تكون جزءا من مصانع الدولة ، أى أن انتاج هذه المصانع يكوّن جزءا من الانتاج القومى .

وقد وجدت وأنا أزور سجن نيش أنه يضم نحو ١٥٠٠ مسجونا ، وكلهم من المحكوم عليهم بثلاث سنوات أو أكثر . ويعمل نحو الألف منهم فى مصانع السجن ويصنعون "السخانات والأفران الكهربائية والموازين الدقيقة

والبانيوهات وقطع الاثاثات .. الخ" ويصدر معظم هذه المصنوعات الى الخارج وتحصل الدولة عن طريق ذلك على العملات الأجنبية .

وهذا السجن وغيره تجده يحصل من بيع مصنوعاته العديدة التى يطلبها السوق الاجنبى على الأرباح سنويا ، وتوزع هذه الأرباح وفقا لنظام معين بنسب معينة على الميزانية والاحتياطي ورأس المال والأعمال الجديدة والبرنامج الثقافى والمساعدات .

ويتبرع سجن نيش من أرباحه سنويا بجزء من أرباحه على مؤسسات رعاية الأحداث والشباب فى المدينة . أى أن سجن نيش ، وهو مؤسسة اجتماعية هدفها الأول معالجة الجريمة بصورها المتعددة فى محيط الكبار ، يقوم بدوره ، عن وعى ، فى ميدان الوقاية من الجريمة وفى ميدان التنمية الاجتماعية ، فى محيط الأحداث وفى محيط الشباب ، أى أن سجن نيش ، كمؤسسة اجتماعية ، يحس إحساسا واعيا بالمسائل الاجتماعية المتعلقة بالسلوك البشرى ، السوى وغير السوى ، فى المجتمع الذى يحيط به ، ويسهم اسهاما واعيا فى مواجهة هذه المسائل . أى أنه يعيش واقعه ، فى ميدان تخصصه الواسع ، ويرفض العزلة والسلبية ، ويؤمن بالتفاعل الاجتماعى مع مجتمعه (أنظر كتاب سيد عويس : "مذكرات يوغسلافية" ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، صفحات : ٨٧ ـ ٩٤)

•

وأننى أعترف للقارىء الكريم بعجزى عن القيام بالمقارنة بين السجون فى مصرنا الخالدة والسجون التى ذكرت عن بعضها شيئا . فالملاحظ أن تقارير مصلحة السجون على

الرغم من أنها تتضمن احصاءات ، فهى لاتشفى غليل الباحث الجاد . فعدد السجون بالجمهورية أصبح ٢٦ سجنا بما فيها ما يسمى "سجن ك (٢) ٩٧ والسجن العسكرى . وعدد المسجونين فى أوائل عقد الثمانينيات فى يوم ٣١ ديسمبر حوالى ٢٥٠٠٠ مسجون منهم نحو ٣٢٪ من النساء ويجب أن لاننسى نزلاء المعتقلات وعددهم غير معروف .

طاقة بشرية هائلة أليس من الممكن أن تكون فى ضوء بحث حالة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا طبيا أن يكونوا من المنتجين الذين يرفعون شعار الانتاج وهو شعار الدولة فى الوقت الراهن ؟ ان مايقومون به يعتبر ليس فقط خسارة بشرية بل خسارة مالية كذلك .

وفى ضوء خبرتى عندما كنت "عضوا فى المجلس الأعلى للسجون" ، كنا اقصد أعضاء المجلس ورئيسه نجتمع ثم ننفض ولا نقرر شيئا رشيدا كان ذلك فى خلال عامى ٧٣ - ١٩٧٤ . وكان جدول الأعمال يهتم بتطبيق التشريعات الخاصة بالمعاملة الناجحة للمسجونين ، ولكن لاتطبيق يحدث وبخاصة ما تعلق منها بـ "قواعد الحد الأدنى" التى سبق أن ذكرتها وكنت أتحدث عن سجن نيش فى دولة يوغسلافيا وما يقوم به نزلاؤه من أعمال تدر الأرباح التى تيسر الحصول على العملات الاجنبية والتى تسهم أيضا ليس فقط فى معالجة النزلاء معالجة علمية ولكن فى وقاية أحداث وشباب المجتمع الخارجى وفى بعض الاحيان فيما يحدث من حوادث أو كوارث فيه (كاعادة بناء مدينة "سكوبيا" التى أصيبت فى صيف عام ١٩٦٣) .

واذا كان من الواجب أن لاننسى نزلاء المعتقلات فإنه من الأوجب أن نذكر نزلاء "تخشيبات" أقسام الشرطة التى

تشهد كما يقول الأستاذ ("مصطفى طيبة" فى كتابه "رسائل مسجون سياسى الى حبيبته ، الجزء الأول" ، بغداد ، دار العربى للنشر والتوزيع ، عام ١٩٧٧ صفحة رقم ٢٦) .

"نشاطا كبيرا وأعداد من رجال الشرطة الذين يحملون القيود الحديدية التى توضع فى المعصمين فى أيدى الخطرين ، أو جنزيرا طويلا يربطون به عدد من المتهمين "غير الخطرين" . ومع اشراقة صباح كل يوم عندمايسمع نزلاء التخشيبة صوت القيود والسلاسل الحديدية مختلطة بأصوات رجال الشرطة تنادى عليهم يستعدون جميعا للرحيل ..."

وفى ضوء ما نشر من مؤلفات بعد اطلاق المعتقلين من الأخوان المسلمين فى عام ١٩٧١ ، ما يدل على ألوان العنف الذى لم يحقق إلا إهدار كرامتهم . ويكفى أن نطالع عناوين بعض هذه المؤلفات لنؤكد هذه النتيجة . ومن هذه العناوين نجد مثلا :

- فى الزنزانة (على جريشة عام ١٩٧٥)
- المذبحة : فى الذكرى العشرين للمذبحة التى تعرض لها الأخوان المسلمون بليمان طرة يوم السبت ١٩٥٧/٦/١ (مصطفى المصيلحى ، عام ١٩٧٧).
- الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا ، (جابر رزق ، عام ١٩٧٨) .
- يوميات الشهيد محمد يوسف هواش : مجزرة القرن العشرين (محمد يوسف هواش عام ١٩٧٨) .
- من المذبحة الى ساحة الدعوة (عباس السيسى ، عام ١٩٧٨) .
- عشت هول المذبحة : أقسمت أن أروى (روكس مكرون ،

عام ١٩٧٨) .

ـ مذبحة الأخوان فى ليمان طرة (جابر رزق ، عام ١٩٧٩) .

ـ خوطر مسجون : ديوان أزجال (سعد سرور كامل ، عام ١٩٧٩) .

ـ قال الناس ولم أقل فى حكم عبد الناصر (عمر التلمسانى ، عام ١٩٨٠) .

هذا بعض ما نشرته المطابع الذى صادفنى وصادفته . ومالم ينشر ربما كان أكثر . ومهما قيل فى قيمة المادة الى تضمنتها هذه المؤلفات المنشورة ، فإن تأثيرها على قرائها من أبناء وبنات من تناولتهم وواجهوا العذاب والتعذيب أو من أقاربهم المقربين وغير المقربين أو من الغرباء ، تأثير لاجدال فيه . ولن يكون تأثيرا حسنا أبدا وبخاصة على من عاش منهم الخبرة المريرة عندما كان المعتقلون مازالوا فى المعتقلات وعندما رأوا الاحياء منهم بعد اطلاق سراحهم . فقد مات قبل صدور الأمر بإطلاق السراح من هؤلاء المعتقلين من مات ، وتضمنت سجلات مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية منهم أسماء العشرات (أنظر : سيد عويس ، "دراسة : عن العوامل التي ادت الى ظهور الجماعات الدينية المتطرفة ، المركز الأقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٨٢)

وقد كان من حظى العلمى أن تناولت الدراسة العلمية عن "ظاهرة التسول وحياة المتسولين فى مدينة الاسكندرية" . وقد أجرى هذه الدراسة الاستاذ محمود ابراهيم حسين للحصول على درجة الماجستير قسم الانثروبولوجيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية فى عام ١٩٨٣ . وقد أشرف على

هذه الرسالة المغفور له أستاذ جليل فى العلوم الاجتماعية والانثروبولجية ـ الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى ـ وكان تناولى لموضوع هذه الرسالة بوصفى ناقدا حتى يتاح للتقرير الذى أضعه عنها لكى ينشر فى المجلة الجنائية القومية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (أنظر : سيد عويس ، المجلة الجنائية القومية ، مج ٢٨ ، ع ٢ ، يوليو عام ١٩٨٥) .

وكان من النتائج الهامة التى وصل اليها الباحث عن طريق دراسته الميدانية ما يلى :

ـ أن العاهات التى ينتحلها بعض المتسولين قد انقرضت وحلت محلها العاهات المصطنعة .

ـ وجود نظام سرى فى داخل جماعات المتسولين الذين عايشهم وتقمص شخصية واحد منهم سواء كان يمتهن التسول فى شوارع مدينة الأسكندرية وبعض مناطقها أو عندما كان أحد نزلاء "ملجأ الهداية" يعيش فيه كنزيل من نزلائه ليلا ونهارا فترة غير قصيرة (أستطاع الباحث القيام بهذا الدور لضعف نظره الشديد ولأنه كان يضع على عينيه نظارة سوداء) .

ـ ان مؤسسات الايداع سواء أكانت تستقبل الاحداث المتسولين أم البالغين المتسولين ، لاتؤدى أدوارها التربوية بل على العكس تكسب نزلاءها وبخاصة الاحداث منهم أنماطا إجرامية جديدة .

ـ ان المتسولين يتخذون من "الملجأ" الذى يودعون فيه "لوكاندة" ويجعلون منه وكرا للجريمة بأنماطها أو يتخذونه

سوقا تجاريا لتحقيق المكاسب المادية حيث يعرضون فيها شتى السلع ومنها المخدرات بأنواعها وما يصنعونه من أنواع الخمور وغيرها من السلع التى قد يحتاجها بعض النزلاء غير القادرين على الخروج لعجزهم عن ذلك بسبب العاهات الجسمية التي تعوق حركتهم . ويحصل الأخيرون على السلع التى يحتاجون اليها نظير الثمن الذى يفرض عليهم فرضا ، والذى يدفعونه من النقود التى فى حوزتهم التى تكون قد وصلت اليهم من الأقارب أو من المحسنين الذين يأتون إلى الملجأ فى العواسم والأعياد من أجل ذلك .

وكنت حين أقرأ الرسالة المذكورة أتذكر روايات "شارلز ديكنز" وبخاصة رواية "اوليفرتوست" التى قرأتها وشاهدت فيلما عنها . وكأن ملاجىء مصرنا الخالدة فى العصر الحالي ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، هى صورة تكاد أن تكون طبق الأصل من ملاجىء البلاد الانجليزية فى خلال القرن التاسع عشر وما قبله .

١٠ ـ الحرب العالمية الثانية وآثارها :

حالة الحرب هى ذروة الشعور بالعداوة . والملاحظ أن الحرب بين الدول هى ظاهرة انسانية يعرفها الناس جميعا على مر الازمان . كما يعرفونها فى كل بقاع العالم المعاصر ، وهى شر مستطير تعانى منه الانسانية ولاتزال . والحرب أنواع ويمكن أن نقسمها الى نوعين رئيسيين ، النوع الأول :

"هو الحرب التى تهدف الى الاستعمار والاستغلال ، استغلال الانسان لأخيه الانسان" .

أما النوع الثاني :

"فهو الحرب التى تهدف الى الدفاع عن النفس واقرار السلام القائم على العدل" .

والنوعان يتضمنان نوعين من الشعور بالعداوة الانسانى الجماعى . أحدهما الشعور بالعداوة غير المشروع ، وهو

الشعور الذى يدعمه الحقد والبغض والاستغلال والجشع . وهذا الشعور يولد ، مافى ذلك من شك ، النوع الثانى ، أى الشعور بالعداوة المشروع الذى يهدف الى اقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل ويمثل إرادة الحياة الفاضلة فى مجتمعنا الانسانى .

ومهما يكن من الأمر فالحرب كذروة من ذرا الشعور بالعداوة الانسانى الجماعى : الحرب التى تهدف الى الاستعمار والاستغلال ، لايقرها انسان عاقل ، ولا تسلم بوجودها ، بالضرورة المبادىء الانسانية : مبادىء العدالة والانصاف : مبادىء السلام القائم على العدل . وهى شر مستطير اذا لاحظنا بعض اثارها المعنوية السلبية . كسيادة قوانين الغاب أو محاولة ذلك ، وهى شر مستطير لاحظنا بعض اثارها المدمرة . ولعل الحرب العالمية الثانية تكون مثلا واضحا على ذلك .

وقبل أن أتحدث عن الحرب العالمية الثانية ، أرجو أن يسمح لى القارىء الكريم أن أذكر شيئا عن انطباعاتى وبعض الحقائق عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . فقد اندلعت هذه الحرب وكنت فى السنة الأولى من حياتى ، لا أدرى عنها شيئا كثيرا أو قليلا . ولكننا نلاحظ فى المجتمع المصرى وفى بعض المجتمعات الأخرى أنه قد يموت الانسان فى فراشه فيسأل الناس عن السبب . ويموت الانسان تحت عجلات قطار فيقولون : قضاء وقدرا . ويموت الانسان فى ساحة الحرب فيقولون : شهيدا يستحق الجنة . ويموت الانسان مناضلا عن عقيدة أو قيمة ذات هدف حميد أو مبدأ فيقولون : شهيد يستحق الخلود . ويموت الانسان اذا قتله آخر فيمسكون بتلابيب القاتل ويقتصون منه وقد يقتلونه فى

بعض الاحيان ، وقد لايقتلونه أبدا ، بل قد يكرمونه .

فالقاتل الذى ينفذ حكم الاعدام موظف مسئول يأخذ مرتبا . والقاتل الذى يقتل الجاسوس الذى يعمل ضد بلده تنهال عليه المكافآت من دولته ، والقاتل الذى يمارس القتل الجماعي فى أثناء الحرب بأن يقذف بالقنابل المدمرة بأنواعها على مدن العدو وقراه الآمنة ويقتل الرجال والنساء والأطفال ينال الأوسمة والنياشين .

والأغلبية الساحقة من قتلى الانسانية فى الحروب لايخفون على أحد ، سواء أكانوا من القتلي العسكريين أم من القتلى المدنيين . وكل جانب يدعى استشهاد قتلاه ! الظالم يفعل ذلك والمظلوم يفعل ذلك على السواء . وتغرق الانسانية فى الدماء والخراب والتدمير فى ظل بعض الشعارات التى يشترك فى رفعها الظالم والمظلوم معا ! واتباع كلّ تائهون مبلبلون متعصبون ! ويترك كلّ لحكم التاريخ ينصف من ينصف ويدين من يدين ويستخلص العبرة والدرس . ومع ذلك فإن عدد الضحايا بمرور الوقت يتضاعف والتفنن فى القتل والتقتيل يزداد وحشية .

واذا كنت طفلا صغيرا عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، فقد استطعت عندما شببت عن الطوق ثقافيًا أن أطلع على "الموسوعة البريطانية ، مجلد رقم ٢٣ ، عام ١٩٦٨" فهالنى ما قرأت من أرقام عن القتلى من الجنود (كانوا عشرة ملايين جندى) ، وعدد القتلى من المدنيين (كانوا عشرة ملايين مدنى أيضا) ، أما عدد الجرحى ، كنتيجة مباشرة لهذه الحرب ، فقد كان عشرين مليونا ، وفضلا عن ذلك فإننا نجد أن عدد الموتى بسبب الأوبئة والمجاعات التى انتشرت فى خلال هذه الحرب كان عشرين مليونا ! .

وقد هالني الدمار الذى لحق بالبشرية في هذه الحرب ، وعندما علمت عما لحق بالعالم في الحرب العالمية الثانية التى عشت أيامها منذ أن أندلعت في عام ١٩٣٩ وانتهت في عام ١٩٤٥ ، وجدت أن الأعداد قد تضاعفت ، وذلك للتقدم الهائل في أساليب الدمار والعنف والقسوة الذى حققته الدول واتساع رقعة هذه الحرب التي شملت القارات التى كان ، ومازال ، يعيش فيها بنو البشر .

لقد سجل التاريخ عن الحرب العالمية الثانية الشىء الكثير : عن الجيوش التى لم يكن لها نظير ، والقوات المسلحة التى لم يسبق لها وجود التي عبئت في البر وفي البحر وفي الجو . وقد سجل التاريخ عن القوة الصناعية الضخمة التى استخدمت في هذه الحرب . هذه القوة التى لم تستخدم في حرب قبل ذلك . كانت هذه الحرب أعظم الصراعات التى سجلها التاريخ منذ ٧٠٠٠ عام ، أى منذ أن بدأ الانسان يسجل تاريخ البشرية . لقد كانت أقدار سبعين دولة في هذه الحرب في خطر ، كما كان مصير نحو ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من أعضاء البشر فيها في خطر كذلك . لقد مس لهيب هذه الحرب العاتية بلادا تكوّن أكثر من ثلاثة أرباع السكان في العالم . وقد اشترك في القوات المحاربة نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من البشر ، أى شخص واحد من كل ٢٠ شخصا من سكان الكرة الأرضية . أن سجل القتلى والجرحى في هذه الحرب سجل رهيب ، وايضاح مفجع لحضارتنا ، فقد تبين من الاحصاءات الرسمية ان ضحايا هذه الحرب من القتلى أكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ قتيل ، وأن نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال قد شردوا من ديارهم ، وأن نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ من هؤلاء قد عذبوا وذبحوا ، وأن مئات الألوف من المساكن قد دمرت وصارت خرابا .

وقد قدر البعض لتكاليف الحرب العالمية الثانية ثمنا ، أقصد تكاليف ما دمرت وأتلفت وتسببت فى خسائر اقتصادية ، وكان هذا التقدير نحو ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى . وقد شمل الدمار والخراب ثروات العالم العظيمة وموارده المالية والصناعية وطاقاته وقدراته البشرية على السواء . وتراكمت على الدول الديون ، وهى ديون تزيد فى جملتها على جميع الأموال التى كانت موجودة فى العالم فى ذلك الحين ، وقد تركت للأجيال التالية ، بالضرورة ، تبعة سداد هذه الديون .

والملاحظ أن الأموال الكبيرة التى التهمتها الحرب العالمية الثانية ، وحدها ، كانت تكفى لبناء مسكن لكل أسرة فى العالم ، أو كانت تكفى لتعليم كل طفل على وجه الأرض . ومقادير هذه الأموال أعظم من كل الأموال التى أنفقت فعلا على المدارس والمعابد والمستشفيات منذ أن وجدت البشرية على كوكب الأرض .

واذا اعتبرنا الحرب العالمية الثانية أول وأعظم حرب جوية . فهى أيضا أول وأعظم حرب جندت لها القوات المسلحة فى البر والبحر ، أنها فى الواقع "حرب العلماء" أسهمت فيها بقسط وافر المخترعات والاكتشافات والعبقرية الانسانية الآلية والانتاج الكبير . ومن خلال عصر الراديو الجديد والتسلط على الزمان والمكان أصبح العالم كله فى هذه الحرب متصلا بعضه ببعض اتصالا وثيقا . ومن خلال التصوير السينمائى والتصوير بالراديو أمكن لصور حوادث جبهات القتال والمعارك أن تدخل البيوت فى التو واللحظة . أن الحرب العالمية الثانية قد مرت حوادثها أمام أعين الذين عاشوها على الستار الفضى . وقد حفظت أفلام هذه الحوادث

لتراها أعين الذين سيأتون من بعدها من الأجيال القادمة . وكلها تنطق بالرهبة والعنف والقسوة والدمار (أنظر كتاب :
(Miller, Francis Trevelgan :, Histry of world II, conada, Toronto, Dominion Book and Bible. 1945, P. P. V-VI).

وأنني لا أجادل فى المكانة الرفيعة للعلم والعلماء في الحروب الحديثة ، ولكن يجب أن نلاحظ أنه اذا كان العلم يدمر العدو ، فإنه يحمي ، أيضا ، من يقاتل هذا العدو ، وليس بالضرورة أن يكون هذا العدو الانسان فحسب فقد يكون فيروسا أو ميكروبا أو أثرا من أثار الطبيعة العاتية . واذا كان العلم يستخدم فى وقت الحرب كسلاح رهيب فتاك ، فإن بعض آثاره التى وصل اليها العلماء فى أثناء الحرب تنقذ الأرواح فى وقت السلام . واذا كان معظم العلماء فى المجتمع الرأسمالى الاحتكارى يكدحون فى سبيل حفنة من الناس ، يملئون جيوبهم بالأرباح الوفيرة ، فإن كل العلماء فى المجتمع الذين يناصرون الكادحين يعملون مخلصين فى سبيل كل الناس . فبالعلم يوضع الاساس الانسانى الاقتصادى الثقافى . لتزدهر فضائل الانسان ، وروحانية الانسان ، وذلك لان انسانية الانسان تؤمن بأن الجائع أو الجاهل أو العاطل أو القلق قلقا عاديا أو حتى مرضيا ، لن يستطيع أن يفكر ويتأمل ويعبد الله ، عن رضا وايمان لاعن خوف أو عن ذل وحاجة (أنظر كتاب : سيد عويس ، الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا المعاصر ، دار المعارف بمصر ، عام ١٩٦٦ ، صفحتا ١٩ ـ ٢٠) .

وإذا كنا نبغض الحروب فحرى بنا أن لانرضى أبدا أن يسود قانون الغاب ، وإذا كانت الحروب الاستغلالية ، وعلى رأسها الحروب الامبريالية ، بآثارها المعنوية وآثارها المادية شرا مستطيرا ، فإن السكوت على الحقد والكراهية والجشع والاستغلال التى تمدها بالوقود أكثر شرا . أن الحروب تحمل عادة فى طياتها التوترات الاجتماعية الرهيبة . ولكن هذه التوترات ليست فى ذاتها أشياء حسنة أو أشياء سيئة . وذلك لأن بعض هذه التوترات قد يخدم التقدم البشرى ، وقد يساعد البناء الاجتماعى حتى لو تطلب ذلك تقديم التضحيات ! فالحروب المشروعة ، أى تلك التى تشتعل للدفاع عن النفس وللدفاع عن الوجود الانسانى : الحروب التى تهدف الى اقرار الحق واقرار السلام القائم على العدل (كحروب السود وهم الأغلبية ضد البيض وهم الأقلية فى جنوب افريقيا والفلسطينين ضد اليهود فى الشرق الأوسط مثلا) . أن هذه الحروب وما تحمل فى طياتها من توترات تخدم التقدم البشرى وتساعد على تحرير انسان . وفضلا عن ذلك فإنها تمحو من الواقع الحى المؤلم استغلال الانسان لأخيه الانسان . وعلى العكس من ذلك فإن الحروب الاستغلالية ، وعلى رأسها الحروب الامبريالية تهدف الى تحقيق بعض صور العبودية . ومن الواجب على كل محب للأنسان لكى يحيا حياة الأمن والأمان أن يدين تجميع اشكال العبودية ، كما يدين كل الحروب الامبريالية ، القديمة منها والمعاصرة على السواء . أن الحروب الامبريالية المعاصرة تعنى تقسيم وجه الأرض بين الدول الكبيرة واحتكاراتها . وذلك للحصول على اكبر ربح من العمل الرخيص لشعوب البلاد النامية (المستعمرات بمعناها الحديث) . أى البلاد التى أصبحت أماكن للنهب

الحر وبيع البضائع بأسعار خيالية ، فضلا عن أنها الاماكن التي تربح فيها الاستثمارات الرأسمالية أكثر مما تربح في موطنها الأصلى . ومن ثم تزداد الديون على مر الزمان وهذه الحالة تؤكد التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية جميعا .

وأننى كمصرى اعيش فى بلد عريق وأصيل أدعو دعوة صريحة الى رفض هذه الألوان من الاستغلال . إن أعضاء المجتمع المصرى المعاصر يجب أن يحاربوا هذه الحروب الخفية بكل طاقاتهم ، بشرف وأمانة ، وبعزة وارادة هى إرادة الحياة الفاضلة فى هذا المجتمع .

وإننى أرجو أن لايتهمني أحد من أبناء وطنى العزيز بالمثالية . وذلك لأن القضاء على الامبريالية ، الاستعمار الحديث ، وعلى أذنابه في الداخل والخارج يعنى القضاء على التوترات الخطيرة الحالية التى تكلف الشعوب الحرة المناضلة فى سبيل الحق وفى سبيل السلام القائم على العدل الشيء الكثير .

ولعل الشعوب الحرة ، ومنها شعبنا المصرى المجيد ، أن تعلم جيدا أن النضال فى سبيل هذه الاهداف الانسانية . سيستمر حتما الى حين . ومهما يكن من الأمر فهو نضال شريف وانسانى واهدافه نبيلة . بعكس ما يهدف اليه أعداء السلام العادل الذين يرون :

« أن حضارتنا يجب أن تبني حتما على جبال من الجثث ، وعلى محيطات من الدموع ، وعلى حشرجات الموت لاعداد لاتحصى من الناس » .

كل ذلك فى سبيل تحقيق اطماعهم وجشعهم ، وفى سبيل فرض الألوان العديدة من الاستغلال (إنظر كتاب : سيد

عويس ، محاوله فى تفسير الشعور بالعداوة ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، صفحتا ٦٨ ـ ٩٦) .

ومهما يكن من الأمر فإن قوة أعداء السلام القائم على العدل لن تشيع الخوف فى نفوسنا .وذلك فإنه لاحاجة لنا إلى هذا الخوف . فإن كل ما نحتاجه هو معرفة الوسائل للتغلب عليهم . وفى ضوء حقائق التاريخ منذ الزمن القديم وحتى الآن سننتصر ، حتما ، حتى يصنع أعضاء الشعب المصرى العظيم ، تحت القيادة الرشيدة ، الحياة الفاضلة لهذا الشعب : حياة السلام العادل والسلام الروحى .

وأود أن أؤكد هنا ماذكره "قداسة الباب بول السادس" فى رسالته التى تفضل بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨ :

« يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا » .

١١ ـ بعض المؤامرات السياسية :

أود أن أصارح القارىء الكريم أن الفضل كل الفضل فى إننى اتجاسر واكتب فى هذا الموضوع يرجع الى المؤرخ الكبير "محمد عبد الله عنان" كنت أقرأ مقالاته الرائعة فى "مجلة الرسالة" التى كان يصدرها الاستاذ الكبير "أحمد حسن الزيات" ، فضلا عن مقالاته الثرية فى جريدة "السياسة الأسبوعية" التى كان يرأس تحريرها الاستاذ الكبير "محمد حسين هيكل" ومقالاته التى لاتبارى التى كان يكتبها فى مجلة "الثقافة" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "أحمد أمين" .

فمنذ أن كنت شابا وأنا أقرأ فى هذه الينابيع من الثقافة الرفيعة وأحاول أن أستوعب مافى مقالاتها من أفكار وأتمثلها . وكنت أنجح فى معظم الأحيان . ولما تفضل المغفور له الاستاذ محمد عبد الله عنان وجمع معظم مقالاته التى كتبها سواء في هذه المناهل العذبة وفى غيرها فى كتب ، كان من حظى أن أشترى معظم هذه الكتب ، وبدأت بكتاب "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مارس عام ١٩٣٧" وكتاب "تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية ، يناير عام ١٩٤٧" وكتاب "نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، أغسطس ١٩٥٨" وكتاب "مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، أغسطس ١٩٦٢" وكتاب "لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكرى ، مايو عام ١٩٦٨" وكتاب "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لذى الوزارتين لسان الدين الخطيب ، المجلد الأول ، ١٩٨٠ ، والمجلد الثانى ، ١٩٨١" .

وكان من حسن حظى أن وقع فى يدى كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنان ، بعد أن قرأت كتبه الأولى (أى حتى عام ١٩٤٧) الذى اقتبست عنوانه للدراسة الحالية وهو :
« تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية . من أقدم العصور الى أحدثها ، التى نشرته إدارة الهلال بمصر فى سنة ١٩٢٨" .

وارجو أن يلاحظ القارىء الكريم أن المؤامرات السياسية قديمة قدم الدهر ، وسأتحدث عن بعض هذه المؤمرات فى اختصار ، وسأفعل ذلك أيضا عنها فى العصور الوسطى ، وسيكون اهتمامى بما حدث ويحدث فى مصرنا الخالدة وبخاصة فى الفترة الراهنة .

ولعلنى فى ضوء خبراتى المحدودة أحاول التحدث عن أهم

العوامل التى عرفتها من قراءاتى فى التاريخ أو تلك التى أستخلصتها على مسئوليتى وحدى .

اذا أستعرضنا تاريخ مصرنا الخالدة وجدنا المؤامرات السياسة فى معظم مراحله إن لم تكن فى كل مراحله حتى وقتنا الراهن ، كان ملوك البلاد مقدسين أو شبه مقدسين ، وكانوا أصحاب امتيازات مطلقة ، وكانت سلطاتهم لاحد لها ، وكانوا فى الأغلب الأعم كل شىء ، والشعب كله لاشىء باسم الدين كانوا يحكمون سواء كان هذا الدين وثنيا أو سماويا نجد ذلك كما ذكرت فى وقائع التاريخ ، كما نجده فى الاساطير . ولنا فى أسطورة "أيزيس وازوريس وحورس" دلالة واضحة . فقد تآمر "ست" أخ "أوزوريس" كما تذكر الاسطورة ليحل محله ويصبح ذا سلطان وامتيازات . وكان من نصيب أوزوريس أن قطع إربا إربا حتى نجحت اخته "إيزيس" وزوجته فى الوقت نفسه فى لم أشلائه حتى قام ولدها "حورس" الذى حارب عمه "ست" وتوج ملكا على عرش أبيه المسلوب .

وعلى الرغم مما تذكره هذه الأسطورة فإننا نجد فى ضوء ما سجله التاريخ عنها أن "ست" قد أحاط عرشه الذى سلبه من أخيه بعصابة من المداهنين المرتزقة . على أنه بالرغم من ذلك ، نلاحظ أن أصحاب المؤامرات لا يلبثون أن يواجهوا عشاق الحرية ، فى أى عصر ، وأى مكان وأى ظروف ، الذين يواجهون الطغيان من أجل السلام ويعملون فى سبيل تحقيق ذلك ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، واننى لا أرى أبدا أن ما يفعلونه يعتبر تآمر على الطاغى المستبد الذى لايحكم إلا بحواسه ، وذلك لان الباعث على سلوك هذا السبيل الخطر هو التماس العدل والاصلاح وسيادة الحرية والسلام .

والملاحظ أن أسطورة "أوزوريس وأيزيس وحورس" قد بقيت ، لاتزال ، في وجدان المصريين حتى وقتنا هذا . فإن "أوزوريس" يعتبر فى رأيى "أول الشهداء" ، واذا كان هو كذلك فإن "الامام الحسين بن على" رضى الله عنهما يعتبر كما يقول "العقاد" عندما تحدثت عن بعض الشهداء من قبل ، "أبا الشهداء" ، وأن كان يرى الكثير أن الامام الحسين هو "سيد الشهداء" وارجو القارىء الكريم أن يسمح لى بالتحدث عن موضوع بقاء الاسطورة القديمة في وجدان المصريين عندما أتحدث عن القديسين "مرقس الرسول" و "مارمينا" و "القديسة دميانة" الذين واجهوا الطغيان والعنف الى الدرجة التى قتلوا وقطعت جثثهم إربا إربا كما حدث للأمام الحسين بن على (أنظر كتاب سيد عويس : "الأبداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والأولياء فى مصر ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨١ ، صفحات ٢٤ ـ ٧٤) .

والملاحظ ، أيضا أنه على الرغم من أن عصور الاستقرار فى ربوع مصر كانت طويلة . وخاصة العصر الاساسى الأول (الدولة القديمة) ، فإنه منذ عام ٥٢٥ ق . م وحتى عام ١٩٥٣ ميلادية . أى منذ حوالى ٢٤٧٨ عاما كان حكام مصر من الاجانب . وكان الحاكم منذ عام ٥٢٥ ق . م هو "قمبيز بن كورش" ملك فارس ، الذى زحف بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان "بساماتيكوس" بن أماسيس (من أعيان المصريين الذين استخلفته الدولة الفارسية من قبل ثم تمرد عليها) وقد قبض قمبيز على بساماتيكوس بعد حروب طاحنة وألزمه أن يشرب مقدارا كبيرا من دم الثيران ففعل ذلك به كالسم ومات . وخضعت لقمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر

وصارت مقاطعة فارسية وتوالى عليها نواب ملوك فارس واستمرت مملكة مصر خاضعة للفرس الى أن افتتحها "أسكندر ذو القرنين" فى عام ٣٣٢ ق . م وبعد أن مات اسكندر تولى زمام مصر "الدولة البطليموسية" (أنظر كتاب : يوحنا أبكاريوس : "قطف الزهور فى تاريخ الدهور" طبع فى بيروت سنة ١٨٧٣ ، صفحات : ١٨٥ ـ ١٨٧) .

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن "هيرودوت" جاء الى مصر في عهد قمبيز من بلاد اليونان ليدرس عادات اهلها وتقاليدهم وليعرف مواضع القوة فيهم ومواضع الضعف ، توطئة لاتاحة الفرصة لليونان لكى يضموها الى مملكتهم ، وقد نجح فى ذلك ، كجاسوس أكثر منه مؤرخا ، تماما كما حدث بعد ذلك في البلاد العربية وفى مصر ، من أمثال عملاء خبراء المستعمرين "لورنس" و "فيلبى" و "جوردون" و "لين (منصور افندى) و "دى لسبس" وحتى وقت قريب ، وحتى وقتنا هذا ، ومن هؤلاء "ويندل كليلاند" و "جون بادو" ومخابرات الدول وبخاصة الولايات المتحدة ودول أوروبا المتقدمة الغربية والشرقية واسرائيل .. وغيرها .

وانقرضت دولة اليونان فأستولى على مصر "الرومان" فى عام ٣٢ ق . م . وقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة ، وكانت البلاد المصرية تحسب ولاية من الولايات الرومانية . ثم كرس "الرسول مرقص" "اينيانيوس" المصرى أسقفا ، وكان اول أسقف مصرى مسيحى ، وذلك فى عام ٦٤ ميلاديا ، وباسم "المقوقس عظيم القبط" سادت الديانة المسيحية بعد أن امتحن معتنقوها فى "عهد الاضطهاد الاعظم" وكان عدد الاضطهادات التى أثارها

القياصرة الرومانيون على المسيحيين عشرة أولها عام ٦٤ ميلادية فى زمن "نيرون" واخرها أى عاشرها عام ٣٠٢ ميلادية فى أيام "ديوكليتيان" .

وبعد أن تولى الملك "قسطنطين" امتازت أيامه عن باقى القياصرة بأمرين عظيمين أولهما : نقل كرسى السلطنة الى "القسطنطينية" ، والثانى : اعتناقه فى عام ٣١٢ ميلادية الديانة المسيحية .

وكان "عهد الاضطهاد الأعظم" فى البلاد المصرية فى زمن الأمبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ميلادية) وقيصره "جاليريوس" ثم هذا الأخير منفردا (٣٠٥ ـ ٣١١ ميلادية) و "ماكسيمين دازا" (+ ٣١٣ ميلادية) وقد سيق عدد كبير من المصريين المسيحيين الى الموت زمرا ، ففر كثيرون بعقيدتهم الى الصحراء . كانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشهدت صحارى مصر من " النطرون" الى "طيبة" جموعا هائلة من المصريين المسيحيين الذين أفلتوا بدينهم من قبضة الاباطرة الوثنيين . وعاش بعض من هؤلاء متوحدا تحتويه صومعة كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف ، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الاديار (انظر : كتاب رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى" ، القاهرة كتاب روزاليوسف ، يناير عام ١٩٧٤ ، صفحتا ٤١ ـ ٤٢) .

وفى ضوء بعض حقائق التاريخ نجد أنه كان من جملة النازحين الفارين من الطغيان والعنف اللذين كانا وليدى الشعور بالعداوة ضد الوثنيين من الحكام ، رجل يقال له

"بولس" من مدينة طيبة انفرد بذاته وعكف على العبادة والصيام فحسب أول من ظهر فيه روح الرهبنة . ولكنه ظهر فى أوائل الجيل الرابع من معتنقى الديانة المسيحية رجل آخر يدعى "أنطونيوس" فبنى ديرا وجمع أناسا فيه ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ، ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سمى بأبى الرهبان ، ثم أن هذه الطريقة أخذت فى الامتداد حتى وصلت الى فلسطين وسوريا بواسطة خلفاء انطونيوس ، وبالتدريج عمت أكثر البلاد المسيحية .

(أنظر : كتاب قطف الزهور فى تاريخ الدهور ، صفحتا ١٧١ ـ ١٧٢) .

وفى خلال خلافة امير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أى فى عام ٦٤٠ ميلادية غزا عمرو بن العاص مصر . ومنذ ذلك التاريخ بدأ فيها دين الاسلام فى الانتشار كما بدأت اللغة العربية تجد طريقها فى حديث المصريين بدلا من اللغة القبطية التى كانت سائدة . واستمرت مصر يحكمها الخلفاء الراشدون . ثم عندما أسس "معاوية بن أبى سفيان" دولة بنى أمية ، أرسل الى مصر عمالا موالين لهم مدة خلافتهم . وكان جملة من تولى ابالنيابة عن هذه الدولة ستة وعشرين عاملا فى خلال فترة زمنية تقدر بمائة واحدى عشرة سنة . وكان هؤلاء العمال يسمون عمال خراج مصر . وأصبحت مصر عند هؤلاء مجرد "ضيعة" عندهم .

والمعلوم أن معاوية بن أبى سفيان كان قبل تأسيس دولة الأمويين واليا على الشام منذ خلافة ابن عمه "عثمان بن عفان" . وعندما ولى "على بن أبى طالب" الخلافة أراد أن ينزل كل ولاة عثمان الحكم وان يولى مكانهم نفرا من صحبه ممن يثق فى ولائهم له ، فبعث عاملا جديدا الى الشام فرده

أهلها ، وأظهر معاوية الخلاف ، ووجد فى المطالبة بدم عثمان حجة يستتر بها معاوية في الخلافة والملك (لقد قتل الخليفة عثمان فى عام ٣٥ هـ) .

ودبرت المؤامرة حيث اجتمع نفر من "الخوارج" (هم نفر من اهل العراق ممن غضبوا لأن الخليفة على بن أبى طالب رفض أن يمضى فى الحرب ضد العصاة من أمثال معاوية بن ابى سفيان) في موسم الحج سنة ٣٩ هـ . وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادى والحجاج بن عبد الله التميمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التميمي - وتحدثوا فى أمر "الحرب الأهلية" التى يثيرها ، في رأيهم ، جشع الرؤساء ، واستبداد الولاة . واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة أقصد "على ومعاوية وعمرو ابن العاص" هم المسئولون عن وقوع هذه المصائب ، وأنه يجب قتلهم وإراحة الأمة الاسلامية من شرهم وجشعهم ، وتعاهدوا على أن يقوموا بتلك المهمة ، وأن يهبوا أنفسهم رخيصة في سبيل تحقيقها . واتفقوا على أن يتولى عبد الرحمن بن ملجم قتل على ، والحجاج الصريمى قتل معاوية ، وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص . على أن يكون التنفيذ فى الكوفة والشام ومصر في- وقت واحد هو ليلة ١٧من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة .

ويرى "الاستاذ محمد عبد الله عنان" أنه يعتقد أن منشأ تلك المؤامرة الشهيرة يرجع الى ما وراء ذلك ، وأن زعماء الخوارج أنفسهم هم الذين دبروها ، وأن "ابن ملجم" وزميليه كانوا رجال التنفيذ فقط ، ولم يكن اجتماعهم بمكة وتدبرهم لطرق تنفيذها إلا مرحلة أخيرة للمؤامرة (أنظر كتاب : محمد عبد الله عنان" تاريخ المؤامرات السياسية" ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، صفحات : ٩٩ - ١٠١) .

وصرع "على" أمير المؤمنين فى عام ٤٠ من الهجرة ـ ٦٤٠ ميلادية . ونجا معاوية وعمرو بن العاص . وقبض الناس على ابن ملجم وعلا الصياح وأشتد الاضطراب . وأجتمعت شيعة الخليفة الجريح حوله فقال : ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وأن أعش فأنا ولى دمى إما عفوت وأما اقتصصت . ولكنه توفى بعد يومين ، وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه ، وفقد الاسلام بمقتل "على" زعيما من أكبر زعمائه (المرجع السابق : صفحة ١٠١) .

ولعل الحديث بعد مقتل "الخليفة على" أن يملى علينا ذكر بعض الأمور عن الامام الحسين . الذى سبق أن تحدثنا عنه عند ذكر أسطورة "أوزوريس وأيزيس وحورس" من قبل : والامام الحسين هو "الامام عبد الله الحسين بن على رضى الله عنه" . وهو أسم ملأ فى عصره وبعده كل مكان فى البلاد العربية والاسلامية وغيرها من المعمورة ، وقد أصبح "للحسين" بعد مأساة كربلاء وبنسبه الشريف وخلقه الكريم وورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين ، مكانة فى قلوب الناس لاتدانيها مكانة ، وقد تواترت الروايات على أن "الحسين" كان يقول الشعر وبخاصة فى اغراض الحكمة وأنه كان خطيبا بما أوتى من طلاقة للسان والفصاحة وحسن البيان .

وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج ، وكانت له فى كل منها مواقف مشهودة . وبقى مع والده حتى قتل . وبعد وفاة الخليفة "على" بقى الحسين مع أخيه "الحسن" رضوان الله عليهما ، الى أن أسلم الأمر الى "معاوية" . وكان الحسين غير راض على ما فعله أخوه "الحسن" من تسلم أمر الخلافة الى معاوية . فلم يوافقه علي أولا وأشار بالقتال ، ولكنه نزل بعد ذلك على رأى أخيه الأكبر .

وقد صحب الحسين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أن توفى وهو عنه راض . ثم كان "الصديق ابو بكر" يكرمه ويعظمه وكذلك الخليفة "عمر" والخليفة "عثمان" .

وفى "كربلاء" تكاثر الجيش على "الحسين" وصحبه وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا . وقد أستشهد كل صحبه وانفرد وحده بجيش "عبيد الله بن زياد" ، وكان يحمل عليهم فيتفرقوا تحرجا من قتله وكان منهم من يخشى أن يصاب على يديه حتى صاح فيهم "شمر بن ذى الجوشن" : وَيْحَكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم امهاتكم . فحملوا عليه من كل جانب وضربه "زرعة بن شريك التميمى" على يديه اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه فأخذ يقوم ويكبر وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى لفظ نفسه الأخير . ووجد بجسده ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية بالنبل والسهام . ونزل "سنان بن أنس النخعي» "فاجتز رأسه" وقيل فى رواية أخرى أن شمر بن ذى الجوشن هو الذى ذبحه واجتز رأسه . ثم عمدوا الى سلب ما كان عليه من كساء فأخذ قميصه "اسحاق بن حيوه الحضرمى" واخذ سراويله "بحر بن كعب" واخذ "قيس بن الاشعث" قطيفته وهى من خز ، فكان يسمى بعد "قيس قطيفه" وأخذ عمامته "أخنس بن مرثد الحضرمى" وأخذ نعليه "الأسود الاودى" وأخذ سيفه رجل من "دارم" وترك الحسين يكاد أن يكون عاريا .. ثم وطأت الخيل جثته كما أمر "ابن زياد" حتى رضوا صدره وظهره (نظر كتاب : الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين الاولياء فى مصر ، صفحات : ٦٤- ٦٨)

ولابد لى من كلمة عن موقعة كربلاء ، فقد ذكرت "سعاد ماهر محمد" فى كتابها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : الجزء الأول ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ١٩٧١" تحت عنوان "خروج الحسين ومقتله" . صفحتا : ٣٥٥ ـ ٣٥٦) .

"لما توفى معاوية سنة ٦٠هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وعلى مكة يحيى بن حكم بن صفوان بن أمية ، وعلى البصرة عبد الله بن زياد ، وعلى الكوفة النعمان ابن بشير الانصارى ، فكتب يزيد بن معاوية الى الوليد بن عتبة (من يزيد امير المؤمنين الى الوليد بن عتبة ، أما بعد فإن معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام) ثم أضاف (أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) . فلما قرأ الوليد ، والى المدينة فى ذلك الحين ، للحسين الكتاب ونعى اليه معاوية ، فقال الحسين" انا لله وإنا اليه راجعون ورحم الله معاوية ، أما البيعة فإن مثلى لايعطى بيعته سرا ولا أراك تقنع بها سرا قال أجل ، فقال الحسين فإذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا" . وكان الحسين رضوان الله عليه قد عوّل على ترك المدينة إلى مكة ، كما تركها قبله بليلتين ابن الزبير دون مبايعة يزيد ، فخرج منها ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، فلما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة ، اجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها "إنه ليس علينا أمام فأقبل لعل الله أنه يجمعنا بك على الحق" ، ثم

سرحوا عدة رسل بالكتاب اليه . وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس . ولبث في مكة على هذه الحال أربعة أشهر . ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابى طالب فأمره بالمسير الى الكوفة ، فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل اليه بذلك ، وكتب الى أهل الكوفة .

قبل ذلك كتابا قال فيه : « أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ماذكرت من محبتكم بقدومى عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمى وثقتى من اهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته ان يكتب الىّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب الىّ انه قد اجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم علىّ مثل ما قدمت علىّ به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، اقدم عليكم وشيكا ان شاء الله ، فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام »

ولما علم يزيد بخبر مسير مسلم بن عقيل الى الكوفة كتب الى عبيد الله بن زياد ، وكان واليا على البصرة ، يأمره بالمسير الى الكوفة وتولى امارتها واخذ شيعة الحسين بالشدة وبالقضاء على مسلم بن عقيل ، وكان مسلم قد نزل بالكوفة وتلقى البيعة للحسين من ألوف الناس ، قال عنهم ابن كثير ثمانية عشر الفا وقال ابن قتيبة ثلاثين الفا .

وما ان قدم ابن زياد الى الكوفة حتى عمل على تحويل الناس عن مسلم ، وسرعان ماقضى عليه وعلى من انضم اليه من اهل الكوفة وبعث برأسه ورءوس من قتل معه من صحبه الى يزيد .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة جمع الحسين رأيه على الخروج ، فجاءه عبدالله بن العباس يناشده فى المقام ويعظم عليه القول فى ذم أهل الكوفة وقال له : « أنك تأتى قوما قتلوا

اباك وطعنوا أخاك ومارأراهم الا خاذليك » فقال له : « هذه كتبهم معى وهذا كتاب مسلم باجتماعهم (قتل مسلم بن عقيل لتسع خلون من ذى الحجة ، اى بعد خروج الحسين من مكة بيوم واحد) فقال له ابن عباس « ان كنت لابد فاعلا فلا تخرج أحد من ولدك ولاحرمك ولانسائك » .

وبلغ الحسين نبأ مقتل مسلم وهو فى طريقه الى الكوفة فدب الخلاف بين من معه من المناصرين ونصح فريق منهم بعدم مخاصمة يزيد بن معاوية ، ونصح فريق آخر باصرار على مقاتلة يزيد والفريق الثالث وقف موقفا وسطا ، وانتهى بأنه لامناص من المضى قدما فى محاربة يزيد ومواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على حكم الطغاة المتآمرين .

وسار الحسين حتى وصل به مناصروه إلى « كربلاء » وهكذا كانت النتيجة المحتومة تكاثر الجيش على الحسين وصحبه وكانوا كما سبق ان ذكرت اثنين وثلاثين فارسا واربعين راجلا ، وكلهم مشهود له بالشجاعة وسداد الرمى ومضاء الضرب بالسيف وهم على قلتهم كفء لمبارزة فرسان جيش عبدالله بن زياد واحدا بعد واحد لو جرى القتال على سنة المبارزة . ولكن هؤلاء الفرسان أقصد فرسان جيش عبيدالله بن زياد خشوا مغبتها فعدلوا عنها (المرجع السابق (صفحات : ٣٥٦ ـ ٣٥٩) .

وارجو من القارىء الكريم ان يوافقنى على أن رسوخ « اسطورة اوزوريس وايزيس وحورس » فى وجدان المصريين المسلمين ، يؤكد الاهتمام الذى يرقى الى التقديس أو شبه التقديس عندما يزور المصريون المسلمون ، السنيون منهم والشيعيون على السواء ضريح « الامام الحسين » أو ضريح شقيقته « السيدة زينب » أو ضريح ابنه « على زين

العابدين » ويرجع ذلك الى أن مكانة الآلهة المصرية القدماء قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخ مصرنا الخالدة ، بعملية توفيقية الى الانبياء والقديسين ثم الاولياء .

وقبل أن أتحدث عن وقائع التاريخ المصرية التالية اراني مضطرا لكى أتحدث عن أهم الصراعات الفكرية التى حدثت وبخاصة بين الأئمة الفقهاء : إبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وبين حكام البلاد فى أزمانهم الذين كانوا يحكمون باسم الدين والسلطة والسلطان فى أيديهم وحدهم فقد كانوا كل شىء والشعوب المحكومة لاشىء .

والملاحظ اننى تحدثت من قبل عن الشهداء وذكرت من بينهم أبا حنيفة النعمان بن ثابت ، وقد آن الأوان ان اذكر حق القارىء الكريم فى التعرف على عوامل استشهاد هذا الفقيه الكبير ، فالتاريخ يذكر انه لم تكن حياة ابى حنيفة وان طالت الا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الانسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية ولاوسيلة الا الحرية والتسامح فى كل أطوارها » .

واننى أرى وأرجو أن يرى القارىء الكريم ماأرى ان العالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل الى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى حتى يعم السلام ويتبدد العنف الذى يكون عادة وليد الشعور بالعداوة .

وقد قيل ان حبس ابى حنيفة النعمان كان لسبب سياسى وهو تشيعه لـ « محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » المسمى بـ « النفس الزكية » أو لاخيه ابراهيم ويرد عبدالحليم الجندى فى كتابه : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، ١٩٦٦ » قائلا :

ان من المسلم ان محمدا وأخاه ابراهيم قتلا فى سنة ١٤٥ هـ حين خرج محمد بالمدينة على ابى جعفر وبعد أن خرج عليه ابراهيم فى البصرة وان كان من المسلم به ان الاجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ هـ فانه يكون عجيبا أن يتشيع أبوحنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين . وأعجب منه ان يرتاع رجل شديد البأس قوى المراس ، كأبى جعفر من العطف على ذكريات الموتى .. لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الاعظم عن حكمة السبعين عاما (صعدت روحه الزكية وهو ساجد في شهر رجب سنة ١٥٠ هـ (انظر صفحة ٢٠٨ وصفحة ٢٢٢) .

وقد جاءت ابا حنيفة الدعوة الى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى وبين يدى التاريخ وهو سجين وبين يدى الفكر الانسانى الداعى الى انسانية الانسان وهو يتلقى العذاب من جرائه .

واخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به الى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد ، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال :

« رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة . كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبرت إذ قبرت الى خير وسنة وأتعبت من بعدك » (المرجع السابق : صفحة ٢٢٢) .

وفي ضوء ماسبق أرجو أن يوافقني القارىء الكريم على أن أبا حنيفة قد مات فى قضية القضايا : الا وهى قضية الحرية أو قضية القضاء . أو قضية تسخير العلماء في خدمة

الخلفاء ! فاظهر ان الزهد والعلم ليسا غاية الحياة وانما العمل الذى هو شرط الوجود الانسانى هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة .

•

وأبدأ حديثى عن « مالك بن أنس » صاحب « الموطأ » بقولة قرأتها للاستاذ الجليل « زكي نجيب محمود » عندما اضطر الى الذهاب بالقرب من مسجد « الليث بن سعد » الفقيه المصرى ، قال زكى نجيب محمود « ويل للمعاصرين من المعاصرين » وذلك لان الليث كان أفقه من مالك إلا أن أصحابه أبوا عليه أن يعترفوا بذلك (لم يقوموا به) .

وقد ذكر المغفور له الشيخ أبوزهرة فى كتابه الشافعى : حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه ـ القاهرة دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٤٨ ، صفحات ٢٨ و٣٠ » .

« لما بلغ الشافعى ان مالكا تقدس آثاره وثيابه فى بعض البلاد الاسلامية ثارت نفسه ونقد آراء مالك وأعلن الزيف منها وألف كتابا « خلاف مالك » وفى هذا المقام يروى الفخر الرازى : « ان الشافعى انما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه ان بالاندلس قلنسوة لمالك يستقى بها . وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قال مالك . فقال الشافعى : ان مالكا آدمى قد يخطىء ويغلط فصار ذلك داعيا الى الشافعى الى وضع الكتاب على مالك . وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك ولكنى استخرت الله تعالى فيه سنة .. »

وعلى الرغم من عدم ميل « مالك » للنضال فقد امتحن بالسياسة وهى الاعتداء المادى على أمثاله من أصحاب العلم الدينى ، بالضرب على شكل ما ، وبالحبس أحيانا ، فالعلماء الفقهيون فى ذلك العهد يمثلون سلطة الشعب ، راضين أو كارهين ، منتبهين فى وعى أو غير منتبهين لانهم لابد

متحدثون عن الحقوق والواجبات لكل من الحاكمين والمحكومين .. ومن ثم فإن صفحات تاريخ السلطة الشعبية ضد الحكم المستبد الطاغي العنيف المتفرد وهي بذلك صفحات في تاريخ الحرية الفكرية .

وكان امتحان « مالك » في الحجاز الذي يبدو انه لم يبرحه طول حياته ، وقد حدث هذا الامتحان في سنة ١٤٦ هـ على عهد المنصور . اذ الجو كان مكفهرا ، اقصد الجو السياسي ، وكان الناس مهتاجي الاعصاب بما تفعل الدولة الجديدة (الدولة العباسية) في تثبيت سلطانها والمخالفون ينتهزون الفرص لزعزعة مركزها .

وقد ارتكب محنة مالك العباسيون بتوجيه خليفتهم وبيد عاملهم على المدينة . والخليفة هو المنصور والوالي هو جعفر ابن سلمان .

وكانت نفس مالك تنطوي على ميل للأموية وقد بدرت منه بوادر لسانيه ، في الثناء على الأمويين بالاندلس ، وكان مالك يحدث بحديث « ليس على مستكره يمين » ومنه أفتى الناس بالخروج مع « محمد الشبه » الذي هو بسبب مافي الجو من تلبد ، و « مالك » رغم كل مداراة للناس لا ينجو من حسد منافس حاقد ينتهز الفرصة ، وكل اولئك مجتمعا يصور سبب المحنة العام ، وظروف إثارتها الخاصة دون قصرها على جزئية واحدة .

وقد جرد مالك من الثياب الا مايستر العورة ، عقابا له ، ثم مد جسمه على الأرض ، وربطه بالحبال تكتيفا ، ووضعت اليدان في آلة تمسكهما ، وبعد ان مد مالك يديه في العقابين وضرب بالسياط على الظهر حتى خلع كتفه الامر الذي لم

يستطع معه ان يسوى رداءه ، والملاحظ ان الاثر المعنوى لمثل هذا الصنيع بعالم ، هو مايكون دائما، من أن يخسر بها الطاغية الظالم القاسى وتسوء سيرته حين يعظم المعتدى عليه ويرتفع شأنه وكذلك يقول الاولون انفسهم : أفتى بحق ، وضرب بباطل فكانت هذه السياط عليه حليا حلى بها . (انظر : كتاب امين الخولى « مالك ، تجارب حياة » أعلام العرب رقم ١١ ، وزارة الثقافة والارشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، صفحات ٢٨٤ ـ ٣٠٦) .

ويجدر بى أن اختم هذه الدراسة عن « مالك بن انس » بما سطره يراع الاستاذ الكبير « امين الخولى » تحت عنوان : التجربة الاخيرة ، اذ يقول :

ابا عبدالله .. إمض راضيا مرضيا .

أشفقت من الفتوى ، وكنت اذا سئلت فكانما أشرفِ عليك الموت وقد أمضيت عمرك تفتى .. ويشرف عليك الموت كلما سئلت وفزعت من السياط .. ولكن ناشتك السياط على كبره وضعف وقد أحللتهم رغم ماأحلوا بك مما لم تبرأ منه .. حتى أغمضت عينيك بشيبة صالحة .. وثقة صادقة .. شارفت بروحك عفو الله .. وخبرت عوادك الذين سألوك : كيف تجدك ؟ افهم سيعانون من عفو الله مالم يكن فى حساب .

غدوت الى الروضة ورحت .. مصليا متبتلا .. ودارسا متعلما وراويا معلما ، واليوم تغدو الى الروضة مسجى محمولا .. « يصلى عليك » ويشهد الناس لك ـ وصاحب الدعوة خير شاهد ـ انك تأخذ منه ولاترد عليه ..

وفى ثرى « المدينة » الذى اشفقت ان يطأه حافر تركبه لان محمدا ثاو فيه ..

فى هذا الثرى اليوم مثواك .. وأكرم به جوارا ..

وفى روضة من رياض الجنة علمت وتعلمت .. فإلى روضة من رياض الجنة ثويت حتى يدعو الخلق داعيها فتلقى ربك وقد أوفيت .

وسلام عليك يوم ولدت .. ويوم مت .. ويوم تبعث حيا .

ومات « مالك بن انس » سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع (المرجع السابق : صفحتا ٤٢٦ ـ ٤٢٧) .

والامام الشافعى هو : ابو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف ، اى انه عربى قرشى هاشمى وطلبى ويلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف .

وقد ولد الامام الشافعى بغزة سنة ١٥٠ هـ وهى نفس السنة التى مات فيها الامام ابو حنيفة كما سبق ان ذكرنا وكان مولده بمدينة غزة من ارض فلسطين . ومات ابوه وهو صغير فانتقلت به امه الى مكة لتحافظ على شرف نسبه .

شب الشافعى فقيرا ضيق العيش وحفظ القرآن الكريم وهو صغير ، واخذ يحفظ الاحاديث النبوية ويكتبها ورحل إلى البادية وعاشر قبيلة « هذيل » قرابة عشر سنين ليأخذ منها قواعد اللغة الربية وكلماتها ، فحفظ الشافعى أشعار هذيل واخبارها وكانت هذيل أفصح العرب قاطبة .

ثم تعلم الشافعى الفقه على يد مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ونبغ فيه على حداثة سنه واذن له استاذه فى الافتاء ولكن همة الامام الشافعى لم تقنع بما وصل اليه ، إذ بلغته اخبار امام المدينة « مالك رضى الله عنه » وكان ذلك فى

وقت ارتفع فيه اسم مالك فى الآفاق وتناولته الركبان وبلغ شأنا عظيما فى العلم والحديث .

وقد جذبت هذه الاخبار اهتمام الشافعى وعول على الهجرة الى المدينة فى طلب العلم وأعد لذلك عدته بأن استعار كتاب (موطأ مالك) من رجل فى مكة وقرأه وحفظه ثم أخذ خطاب توصية من « أمير مكة » الى « امير المدينة » ليتوسط له عند مالك حتى يقبله تلميذا عنده .

وسافر الشافعى الى المدينة وقابل مالك . ثم أخذ يقرأ ومالك يستزيده فى القراءة وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه ويدارسه المسائل التى يفتى فيها الامام الجليل الى أن مات الامام مالك سنة ١٧٩ هـ .

ولم يقعد شرف « نسب » الامام الشافعى عن العمل والسعى فى طلب الرزق ليأكل من كد يمينه وعرق جبينه ، وتصادف ان قدم الى الحجاز أحد ولاة اليمن فحادثه بعض القرشيين فى ان يولى الشافعى على عمل فى اليمن فقبل ورهن الشافعى دارا ليجهز نفسه للسفر ، ثم تولى عملا فى « نجران » ظهر فيه ذكاؤه وعدله وترفعه عن الظلم فرفض التملق والرشوة التى كانت تقدم لمن سبقه من الحكام وكان الامام الشافعى يذم الحكام الظالمين وينقدهم ويذكر ما أعده الله من العقاب للحاكم الظالم ثم ولى على اليمن ومن أعمالها « نجران » ، وال ظالم مستبد فكان الشافعى يأخذ على يديه ويمنع مظالمه أن تصل الى ممن تحت ولايته .

فلما بلغ ذلك والى اليمن ، كتب الى « هارون الرشيد » كتابا يتهم فيه الشافعى بالتشيع لعلى وآل بيته واتهمه بأنه يسعى سرا لنقل الخلافة من العباسيين الى العلويين واتهم معه تسعة آخرين ، وكتب فى الخطاب الى الرشيد (ان تسعة من العلوية تحركوا وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه فارسل هارون

الرشيد الى والى اليمن يأمره بأن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعى .

أمر هارون الرشيد بضرب أعناق التسعة ثم جاء دور الشافعى فقال للخليفة : « مهلا ياأمير المؤمنين فانك الداعى وانا المدعو انت القادر على ماتريد منى ولست القادر على ماأريده منك . ياأمير المؤمنين ، ماتقول فى رجلين ، احدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده ، أيهما أحب الىّ ؟

قال الرشيد : الذى يراك أخاه

قال الشافعى : فذاك انت ياأمير المؤمنين .

قال الرشيد : كيف ذاك ؟

قال الشافعى : ياأمير المؤمنين ، انكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم وهم يروننا عبيدهم .

فانشرح الرشيد لذلك ، وقال للشافعى : ياابن ادريس ، كيف علمك بالقرآن ؟ فقال الشافعى : عن أى علومه تسألنى ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبى ، وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليله ونهاره ، ووحشيه وأنسيه ، وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به العام .

فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ فقال : انى أعرف منها البرى والبحرى والسهلى والجبلى والمفيق والمصبح وماتجب معرفته .

فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ فأجاب الشافعى إنى لأعرف أنساب اللئام وانساب الكرام ونسبى

ونسب امير المؤمنين

قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها امير المؤمنين ؟ فوعظه بموعظة مؤثرة لطاووس اليماني ، فبكى الرشيد وامر للشافعي بمال كثير وهدايا ففرقها عند الباب . (انظر كتاب سعاد ماهر محمد : مساجد مصر واولياؤها الصالحون الجزء الثانى المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، عام ١٩٧٣ ، صفحات ١٤٠ ـ ١٤٤) .

وفى ضوء وقائع التاريخ ، وفى ضوء بعض ماسبق ، نجد أن الامام الشافعي بدأ دراساته الاولى فى الحجاز درس أولا على « مسلم بن خالد الزنجى » مفتى مكة ثم رحل الى المدينة حيث تفقه على الامام « مالك بن انس » .

واكمل الامام الشافعى دراساته فى العراق ، حيث قدم اليه وهو فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره قدمته الاولى واتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة وناشر مذهبه .

وكان الامام الشافعى كثير الاسفار فى البلاد الاسلامية ليعلم أحوال الناس وأخبارهم وشئونهم الاجتماعية ، فضلا عن طلب الحديث . وقد انتهت أسفاره ورحلاته الى القدوم إلى مصر فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ ـ ٨١٥ ميلادية) وقيل بعد ذلك بسنتين . اى انه مكث فى مصر نحو خمس سنوات وقيل نحو ثلاث سنوات . ولم يزل بمصر ناشرا العلم ملازما للاشتغال بجامع عمرو الى أن تآمر عليه حساده فضربه جمع من السوقه بعد ان انتهى من إلقاء درسه واصيب بضربة شديدة مرض بسببها اياما ثم مات فى يوم الجمعة سلخ رجب سنة اربع ومائتين من الهجرة (٨١٩ ميلادية) وله من العمر نحو أربع وخمسين سنة (انظر كتاب سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى

ضريح الامام الشافعى : القاهرة عام ١٩٦٥ ، صفحات ٥٣ ـ ٥٥) .

ولعلنى لا أبعد كثيرا عن الموضوع الذى انا بصدده وقد ذكرت ماجرى بين « الامام الشافعى » وبين « الخليفة هارون الرشيد » ان يسمح لى القارىء الكريم بالحديث عن المؤامرة السياسية الكبرى ، أقصد كما ذكرت فى كتاب (تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة منقحة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، صفحات ٢٨٧ ـ ٢٩٤) تحت عنوان « ذكر الخبر عن ايقاع الرشيد بالبرامكة » والملاحظ ان هذه المؤامرة دبرها الخليفة نفسه أو اشترك فى تدبيرها ليسترد سلطات مغتصبة وليدعم هيبة محتضرة .

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ، ظهرت الى ميدان الحوادث بقيام الدولة العباسية وكان عميدها ومؤسس سؤددها « خالد ابن برمك » من كبار الشيعة ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان وولى « ابنه يحيى » على أرمينية ، ثم عهد اليه المهدى بتربية ولده الرشيد . فلما ولى الرشيد استوزر يحيى ، وفوض إليه فى مهام الحكم . وكان بنو يحيى وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعا من أولى العزم والنباهة ، فظهروا جميعا بين رجالات الدولة ، وشغلوا أعظم مناصبها . فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخوه من الرضاع ، ثم استوزر جعفر وبذلك اجتمعت السلطة كلها فى يد يحيى وولديه . وآلت اليهم مصائر الشئون العامة ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ فى الدولة .

وكان البرامكة أصحاب فضل وجود وذكاء وعزم فلبثوا يديرون شئون الدولة فترة من الزمن (١٧ عاما) وكان نفوذهم

فى ازدهار والدولة على ايديهم فى تقدم وكانت سلطة الخلافة راسخة متمكنة ، ورضى عنهم الشعب المحكوم . ومع ذلك فقد كانت لهم المكانة العليا فى كل ناحية من نواحى الامور سواء كانت عامة أو خاصة ، وكانت الحال التى صار اليها اصحاب السلطة الحقيقية لم تلبث ان اثارت جزع الرشيد وتوجسه . وكان خصومهم لاينقطعون فى نفس الوقت عن الكيد والسعاية فى حقهم ، واحس الرشيد بأن بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاءه وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه ، وفى ضوء هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم التى كادت ان تكون صنوا للدولة الشرعية بل أقوى .

وكان للخليفة الرشيد اليد الطولى فى تدمير هذا السلطان غير الشرعى ، بل كان روح فكرة هذا التدبير .

والروايات عن نكبة البرامكة فى طوايا التاريخ عديدة منها قصة العباسة ابنة « المهدى واخت الرشيد » ومنها دخول يحيى بن خالد ذات يوم بغير اذن وعنده طبيبه ، ومنها ان الرشيد عهد بيحيى بن عبدالله وهو من ولد على بن ابى طالب وكان قد خرج بالديلم ودعا لنفسه فحاربه جند الرشيد وأسروه ـ الى جعفر ليسهر على اعتقاله ، فأطلق جعفر سراحه خفية .

واذا رجعنا الى ماذكره « العلامة ابن خلدون » فى هذا الموضوع ، ربما يستحوذ علينا الاقتناع بما ذكر :

« وانما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدومهم نواشى الغيرة والاستنكاف من

الحجر والانفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبدالله »

(انظر كتاب : محمد عبدالله عنان ، تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية ، صفحات : ١٠٨ ـ ١١١) ، (انظر أيضا كتاب : يوحنا اكباريوس ، قطف الزهور فى تاريخ الدهور ، صفحتا ١٠٩ ـ ١١٠)

واستأنف حديثي عن صراع « أحمد بن حنبل » الفكرى الذى قضى عليه كما قضى على الأئمة ممن سبقوه : أبى حنيفة النعمان ومالك بن انس وابى عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . الذين كعلماء للاسلام قد سجلوا الاسوة الحسنة لمن يأتى من بعدهم ، فقد امتحنوا جميعا من أجل آرائهم .

وقد سجل فى كتاب « تاريخ الطبرى » الذى سبق ان ذكرته فى الحديث عن محنة البرامكة (انظر : صفحات ٦٣١ ـ ٦٤٥) تحت عنوان « ذكر خبر المحنة بالقرآن » وكان ذلك فى عهد « الخليفة المأمون » الذى مكر بأخيه « محمد الامين » على الرغم بما كان اخذ عليه لهما والدهما (الرشيد) من العهود والمواثيق .

وفى عام ٢١٨ هـ كتب الخليفة المأمون الى اسحق بن ابراهيم فى امتحان القضاة والمحدثين ، وأمر بأشخاص جماعة منهم اليه الى « الرقة » وكان ذلك أول كتاب كتب فى ذلك .

وكتب المأمون بعد ذلك الى اسحق بن ابراهيم فى

اشخاص سبعة نفر ، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وابومسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبوخيثمة ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبى مسعود ، واحمد بن الدورقى ، فأشخصوا ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا ان القرآن مخلوق فاشخصهم الى مدينة السلام فأحضرهم اسحق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من اهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم . وكان مافعل من ذلك اسحق بن ابراهيم بأمر المأمون .

وكتب المأمون مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم أمرا آياه بأن يقرأه على جعفر بن عيسى وعبدالرحمن بن اسحاق القاضى ، ويعلمهما ان امير المؤمنين لايستعين على شيء من أمور المسلمين الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وانه لاتوحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق فان قالا بقول امير المؤمنين فى ذلك ، فتقدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ...

فاحضر اسحق بن ابراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين . وأحضر أبا حسان الزيادى وبشر بن الوليد الكندى وعلى بن أبى مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وسجادة والقواريرى واحمد بن حنبل وقتيبه وسعدوية الواسطى وعلى بن الجعد واسحق بن أبى اسرائيل وابن الهرش وابن عُليه الاكبر ويحيى بن عبدالرحمن العمرى وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضى الرقة ـ وابانصر التمار وأبا معمر القطيعى ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر ابن شميل وابن على بن عاصم وابو العوام بن البزاز

وابن شجاع وعبدالرحمن بن اسحق ، فادخلوا جميعا على اسحق ابن ابراهيم ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ماقد ترى ، فقال : أقول : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ماأحسن غير ماقلت لك ، وقد استعهدت امير المؤمنين الا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ماقلت . فاخذ اسحق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : أشهد ان لا إله إلا الله احدا فردا لم يكن قبله شيء ولابعده شيء ، ولايشبه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولاوجه من الوجوه ، قال : نعم : وقد كنت أضرب الناس على دون هذا فقال للكاتب : اكتب ماقال ...

ثم دعا اسحق بن ابراهيم « احمد بن حنبل » فقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لاأزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » قال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وأمسك عن لايشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه . فقال إسحق بن ابراهيم لاحمد بن حنبل : مامعنى قوله : (سميع بصير) ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لاأدرى هو كما وصف نفسه .

وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب اسحق بن ابراهيم فى امر من استجوبهم بعد أن مكثوا تسعة ايام . وقد تضمن

كتاب المأمون ضمن ماتضمن :

« ... واما احمد بن حنبل وماتكتب عنه ، فاعلمه ان امير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها »

وفي سنة مائتين وثمان عشرة أعاد اسحق بن ابراهيم القول عليهم الى أن القرآن مخلوق . فأجاب القوم الا أربعة نفر ، منهم احمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المضروب . فأمر به اسحق بن ابراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجادة الى ان القرآن مخلوق ، فامر باطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى الى أن القرآن مخلوق ، فامر باطلاق قيده وخلى سبيله وأصر احمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، ولم يرجعا ، فشدا جميعا في الحديد ، ووجها الى طرسوس . وهكذا كان من نصيب احمد بن حنبل ان يذوق بعض الموت فى خلق القرآن ، دفاعا عن فكره واصراره على رأيه فى قضية أثارها الخليفة دون مامبرر . ولكن يبدو لى أن الاذى الذى يصدر عن الطغاة هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر .

ومن الملاحظ اننا نجد فى ضوء حقائق التاريخ قد حكم مصر منذ عام ٥٢٥ ق . م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية حكام أجانب . وقد انقرضوا جميعا وبقيت مصر الخالدة لاتزال ، انقرضت دولة اليونان ثم دولة الرومان التى اقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية ، وفى ذروة الاضطهاد الوثنى كما سبق أن

ذكرت بقيت مصر المسيحية صامدة حتى فتحها « عمرو بن العاص » فى خلافة « عمر بن الخطاب » سنة ٦٤٠ ميلادية وتولى بعد عزله غيره من العمال الى ان انتهت خلافة الخلفاء الراشدين (وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) الى بنى امية . فكانوا يرسلون لها عمالا من طرفهم مدة خلافتهم ، وكانوا يسمون كما ذكرت من قبل عمال خراج مصر ، ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت تابعة لها الى سنة ٨٦٨ ميلادية حينما قام فيها « احمد بن طولون » وصار سلطانا ، وخلفته ذريته من بعده واستمر الحكم فى ايديهم ٣٨ سنة ، وانقرضت الدولة الطولونية بعد حدوث فتن عندما عصاه ابنه العباس ـ وقد نصح احمد بن طولون وليه فلم يذعن ، وانتهى الامر بقتل عدد كبير من اتباع العباس الذى شاهد مقتلهم وتعذيبهم على يد ابن طولون ، ثم حبس العباس بأمر أبيه ، وظل فى الحبس حتى مات (فى عهد اخيه خمارويه) . وفى عهد « خمارويه » تزوجت ابنته « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسي ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه . وكان الاسراف فى جهاز العروس داعيا الى افقار خمارويه وحكومة مصر ، وقد قتل بدمشق .

وبعد سقوط الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) عادت مصر الى التبعية المطلقة للعباسيين ولكن الوالى اصبح من الضعف بحيث استبد به الجند . ولم تستفد مصر فى خلال الفترة التى تلت سقوط الطولونيين حتى وليها الاخشيديون . واستمرت هذه الدولة فى خلال الفترة ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ = ٩٤٣ ـ ٩٦٩ ميلادية . وأسس الدولة الاخشيدية « محمد ابو بكر بن طغج » وعهد « الخليفة المتقى » لابن طغج بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ ميلادية . على أثر انتصاره على

الفاطميين حين حاولوا غزو الديار المصرية سنة ٣٢١ هـ . ومن الغريب ولا غرابة فى ذلك ان علاقة الاخشيد بالفاطميين فى المغرب قد تجلت فى الحملات التى بعث بها الخلفاء الفاطميون لأخذ مصر وجعلها مقر خلافة فاطمية وطلبوا اليه نشر الدعوة الفاطمية فى مصر !

وقد اشترى محمد بن طغج الأخشيد « كافورا » الذى كان مجرد مملوك دميم الخلقة . وحكم كافور مصر فى خلال الفترة ٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ ـ ٩٦٦ = ٩٦٨ ميلادية .

ويكفينى أن اذكر بهذه المناسبة قصيدة الشاعر « ابو الطيب المتنبى » أشعر شعراء عصره ومنها :

عيد باية حال عدت ياعيد   بما مضى ام لامر فيك تجديد
جود الرجال من الايدى وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لاتشتر العبد الا والعصا معه   ان العبيد لانجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة   اقوامه البيض ام اباؤه الصيد
من كل رخو وكاء البطن منفتق   لا فى الرجال ولا السنوان ومدود
اكلما اغتال عبدالسوء سيده   او خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الابقين بها   فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح باخ   لو انه فى ثياب الخز مولود
ماكنت احسبنى احيا الى زمن   يسىء بى فيه كلب وهو محمود

(انظر كتاب : على ابراهيم حسن ، « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ، القاهرة مكتبة النهضة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٤ ، صفحات ٦٥ ـ ٩٨)

واستولت الدولة الفاطمية (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ ٩٦٩ ـ ١٧٧١ ميلادية) على الديار المصرية بعد اشعال المؤامرات وانتشار المجاعة فى البلاد ، ومكث خلفاؤهم حوالى ١٩٩ عاما حاولوا

فى خلالها نشر الدعوة الشيعية ، ولكنهم ما أن انقرضوا وذهب ريحهم حتى عاد المصريون الى المذهب السنى كما كانوا منذ عام ٦٤٠ ميلادية . وكان عدد هؤلاء الخلفاء اربعة عشر نفرا منهم ثلاثة انفار ظهروا وماتوا فى بلاد المغرب واحد عشر بمصر ، وأول الاخيرين المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى . ومن هؤلاء الخلفاء « الحاكم بأمر الله » وهو الخليفة الثالث .

ولى « الحاكم بأمر الله » الخلافة حدثا دون الثامنة عشرة . وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الرابع والعشرين من ربيع الاول سنه ٣٧٥ هـ (١٤ من شهر اغسطس سنة ٩٨٥ ميلادية) وامه أم ولد ، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية (الاقباط الكاثوليك) وكان لها أيام « العزيز » (ابى الحاكم بأمر الله) نفوذ عظيم فى الدولة ، وكان لهذا النفوذ أثره ولاريب فى سياسة التسامح الواضح التى اتبعها العزيز نحو النصارى وفى تقوية جانبهم ونفوذهم .

ومنح « الخليفة العزيز » ولاية عهده لابنه الحاكم منذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٢ هـ) وبويع بالخلافة فى « بلبيس » يوم وفاة أبيه : واوصى الخليفة العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : برجوان الصقلبى خادمه وكبير خزائنه ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة !!

وكانت أم الحاكم ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع فى ظل هذه الوصاية .. الخطرة حيث كان التنافس بين الاوصياء يبدو

صراعا على السلطة .. وانتصر « برجوان » على منافسيه أو بالاحرى على مصارعيه . واستمر يعامل الحاكم (الذى أشرف على الخامسة عشرة) معاملة الطفل المحجور عليه . ومن ثم اضمر الحاكم التخلص منه اى من برجوان الوصى الطاغية . ودبر مكيدة أودت بحياة « برجوان » حيث أوعز لبعض مخلصيه فانقضوا عليه طعنا بالخناجر واجتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ - ابريل سنة ٩٩٩ ميلادية)

وكان الحاكم بأمر الله صبيا فى نحو السادسة عشر حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة . وعلى الرغم من صغر سنه فانه كان حاكما حقيقيا يقبض على السلطة بيديه القويتين . وتقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة . وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم وفى الاحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . ومن حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ هـ قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا . وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم ، هذا عدا من قتل من الكافة فى خلال هذه الأعوام الرهيبة وهنا نجد اوضح مثال للارهاب فى نظر الحاكم كوسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل . فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل الى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فإن القتل أنجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ، واذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الاوامر أو قانون من القوانين ، فإن ازهاق عدد منهم يكفل عودهم الى السكينة والخنوع . وكانت

هذه السياسة التي تحيط الحاكم بسياج منيع من الرهبة .

ولعلني اذ اذكر للقارىء الكريم أنى لا أبرر شيئا من اجراءات الحاكم بأمر الله وتصرفاته الدموية ، اذا لاحظنا فى عصرنا الراهن وفى أرقى الامم ، اقصد الامم المتقدمة غربية كانت أو شرقية واذا لاحظنا مايحدث فى الامم المتخلفة بانواعها ـ انها فى الاغلب الامم تعتمد على النظم الطاغية حيث ترتكب المذابح باستعمال أحدث الوسائل المدمرة باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة (لعل مايحدث فى العراق وايران وفى اسرائيل وفى معظم بقاع المعمورة فى زماننا الحالى خير دليل وشاهد على ما أقول) .

(انظر كتاب محمد عبدالله عنان : « الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة مارس سنة ١٩٣٧ ،صفحات ٤١ ـ ٥٨) .

واختفى الحاكم بامر الله ، أو فى قول أخر قتل ، وكان ذلك سنة ٤١١ هـ ٩٩٦ ميلادية ويرجع ذلك الى أن الحاكم وقع تحت تأثير جماعة من النفعيين أقنعوه بأن روح الله قد حلت فى جسده حتى أمر الناس بعبادته . وقد حاولت اخته « ست الملك » أن ترد أخاها الى الصواب فلم تستطع ونظرت الى الدولة فوجدت الشعب متذمرا والحكم منحلا ، والدولة مشرفة على الانهيار ، وقد اختلفت الروايات فى كيفية قتل الحاكم بأمر الله ، ولكن يقال ان اخته ست الملك كانت لها يد فى قتله .

(انظر كتاب : « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » صفحتى ١٤٣ ـ ١٤٤)

وعبر القرون فى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٤ ميلادية) والمماليك البرجية (١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ميلادية)

مرورا بالفتح العثمانى فى عام ١٥١٧ وحتى مذبحة القلعة فى يوم ٢ من شهر مارس عام ١٨١١ ميلادية ، كانت اعمال العنف سائدة وكان معظمها بين الحكام بعضهم البعض ، ومع ذلك فان حكمهم كان قاسيا جافيا من غير قاعدة وكانوا يظلمون الرعية ولايبالون بنجاح البلاد . واستمروا فى الظلم والطغيان الى سنة ١٧٩٨ ميلادية حين حضر « نابليون بونابرت » بأربعين ألفا من الجيوش الفرنسية الى مصر وقهرهم وفرقهم فى اقطار الصعيد والحجاز ، واستمرت احكام البلاد فى قبضته مدة ثلاث سنوات الى ان استخلصتها الدولة العثمانية (بالاتحاد مع الانجليز) سنة ١٨٠١ ميلادية واقامت عليها واليا وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنوات حتى تولى عليها « محمد على » وتسلم مقادير حكم البلاد فى عام ١٨٠٥ ميلادية .

وبعد أن استتب الحكم محمد على ، اى فى عام ١٨١١ ميلادية ، اقام حفلة لتناول القهوة فى سراى القلعة احتفالا بخروج « طوسون باشا بن محمد على باشا » لمقاتلة الارهابيين فى شبه جزيرة العرب ، وغدر محمد على بقتل من حضر من هؤلاء المماليك بقصد تصفيتهم حيث كان يرى أنهم اعداؤه الحقيقيون وكان عدد من من قتل فى هذه المذبحة مايربو على أربعمائة مملوك ، ولم يكتف محمد على بذلك بل قطع دابر كل من وقف فى وجهه حتى الذين ساندوه من المصريين وعلى رأسهم « عمر مكرم »

وقد علق « الجبرتى » على هذه المذبحة ذاكرا :

« وختم الله للجميع (من ذبحوا) بالخير ! فإنه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس ، وفي حالة القتل ، انهم كانوا يقرأون القرآن ، وينطقون بالشهادتين والاستغفار ، وبعضهم طلب ماء

وتوضأ وصلى ركعتين قبل ان يرمى عنقه . ومن لم يجد تيمم »

(انظر كتاب : عبدالرحمن الجبرتى : تاريخ الجبرتى » القاهرة مطابع الشعب ، الجزء السابع ، عام ١٩٥٩ ، صفحة ٨١٤) .

والملاحظ انه فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى الحديث والمعاصر نجد بعض الايام التى غيرت الى حد كبير وجه تطور هذا المجتمع ، ومن هذه الايام حادثة الاسكندرية فى ١١ من شهر يونيو عام ١٨٨٢ (هزيمة الثورة العرابية) ويوم ٤ من شهر فبراير عام ١٩٤٢ (الذى هدد فيه الملك فاروق بالتنازل عن العرش) ويوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ (الذى احترقت فيه مدينة القاهرة) .

وكان حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حادثا بالغ الخطورة فى مجال التآمر على الشعب المصرى ، فقد كانت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين مشتعلة ضد الاحتلال الانجليزى ، وكان الفدائيون المصريون يحيلون معسكرات الانجليز فى القنال الى جحيم ، وكانت حكومة « النحاس » قد أعلنت إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ووقفت في وجه الاحتلال موقفا وطنيا صريحا . من هنا بدأت المؤامرة لتصفية حركة الفدائيين ، ولاشعال فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين المصريين كان ابراهيم فرج الوزير المسيحى فى وزارة الوفد قد رفض الاستقالة على الرغم من طلب بعض المسيحيين المصريين المتعصبين بايعاز من المستعمر الانجليزى ، ذلك منه وانتهى الحريق الى جانب ما أحدثه من خسائر اقتصادية فادحة وخسائر أخرى فى الارواح الى اسقاط الحكم الوطنى بالفعل وإقالة وزارة النحاس بعد يوم واحد من الحريق ، ثم محاولة فرض حكم ارهابى على الشعب

لتنفيذ خطط الاستعمار والملك فاروق ، وانتهى الامر كله فى العام نفسه بقيام ثورة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

وقد كنت فى مدينة لندن عندما احترقت مدينة القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ . وكنت أقرأ عن هذا الحادث الرهيب وماحدث بعده من حوادث فى جرائد لندن المختلفة الاتجاهات . واننى اذكر انه عندما تولى « على ماهر » الوزارة بعد اقالة « النحاس » اننى قرأت فى احدى الصحف « مانشت » يملأ نصف الصفحة الاولى يصفه « على ماهر » بـ « رجل الساعة » .

ويقول « محمد أنيس » فى كتابه « حوادث القاهرة » بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر شهر سبتمبر عام ١٩٧٢ مايلى :

ان الاستعمار الانجليزى وبه « مخابراته » معروف بالتجائه الى مثل هذه الاساليب من حرق وقتل واتخاذها ذريعة لاحداث ثورة مضادة واخماد الحركة الوطنية ومن المسلم به تماما ان مصر عاشت فترة الثورة المضادة (القصيرة الان) منذ يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

وجدير بالذكر ان بيانات « الضباط الاحرار » عقب حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير كانت تتضمن فى تحليلها « ان الانجليز والمخابرات الانجليزية » بصفة خاصة هى التى تقف وراء الحريق ... (انظر صفحتى : ٥٢ و٥٣) .

وقبل أن أختم الموضوع الذى اهتمت به هذه الدراسة عن « بعض المؤامرات السياسية » وبخاصة بعد حدوث بعض الوقائع الخطيرة التى كادت تؤدى بالقتل والدمار للسادة :

اللواء حسن أبوباشا واللواء محمد النبوى اسماعيل والصحفى الكبير الاستاذ مكرم محمد احمد ـ اجد انه من واجبى أن أدلى بدلوى فى موضوع الجرائم التى ارتكبت تحت تأثير المعتقدات الدينية . اننى لن أتحدث عن الوقائع الخطيرة السابقة فهى فى يد القضاء ولايمكن أن أتجاسر وأخوض فيها أو فى وقائعها حتى يقول القضاء كلمته .

ولكننى اهتم فى هذه الدراسة من الوجهة الاجتماعية بجماعتى « الفنية العسكرية » و « التكفير والهجرة » اللتين قد تم البت فيهما قضائيا فعلا وحقا وأرجو أن أن يعذرنى القارىء الكريم إذ اننى لن أتحدث عن « تنظيم الجهاد » الذى صرع بعض أعضائه الرئيس انور السادات وآخرين فى يوم ٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٨١ ، وذلك لأن المعلومات عن هذا الحادث لا أعرف عنها شيئا لأنها ليست فى متناول يدى بدافع السرية التى فرضتها السلطات الرسمية عليها .

ومع ذلك فانه كان من حظى أن أشترك فى احدى الندوات التى قامت باعدادها وحدة من وحدات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٠ عن « الحركات الاجتماعية المتطرفة » فاننى اذكر ان تقرير هذه الندوة قد تبين ان الجماعتين من أولى الجماعات التى وصل فيها العنف الدينى الى أقصاه فلقد ذهب ضحية هذا العنف فى « قضية الفنية العسكرية » نحو أربعة عشر فردا من طلبة وحرس الكلية الفنية العسكرية . ويبدو هذا العنف ايضا جليا فى قتل « الشيخ محمد حسين الذهبى » فى قضية « التكفير والهجرة » .

وقد تبين أن لأعضاء « جماعة الفنية العسكرية » صفات مشتركة تتمثل فى ان عددا كبيرا منهم فى مرحلة الشباب ،

وان القلة القليلة منهم قد تجاوزت هذه المرحلة . وتبين ايضا ان اغلبيتهم من الطلبة الملحقين بمراحل التعليم الجامعى والعسكرى ، وان عددا قليلا منهم ملتحقون بمراحل التعليم المتوسط ، وان القلة القليلة غير ملتحقين بالتعليم وان كانوا يتمتعون بقدر لابأس به من الاستيعاب لمبادىء التعليم وقد تبين كذلك ان اعضاء الجماعة الملتحقين بمراحل التعليم العالى من المتفوقين .

اما « جماعة التكفير والهجرة » فاعضاؤها ممن لم يتجاوزوا مرحلة الشباب وتبين أن مستوياتهم التعليمية فى نطاق مرحلتى التعليم الجامعى والمتوسط ، وانه لايوجد بينهم اميون ويتميز أعضاء هذه الجماعة بوجود روابط قربى أو مصاهرة أو جيرة أو زمالة سابقة بينهم وقد أسهمت هذه الروابط فى توثيق روابط العقيدة وفى تجنب المخاطرة فى تجنيد أشخاص غرباء لاتكتمل عوامل الثقة بهم .

ويشترك أعضاء جماعة « الفنية العسكرية » فى الاهتمام والاستزادة من الثقافة الدينية معتمدين فى ذلك على الكتب والمجلات الدينية الشائعة ، وخاصة مايصدر منها عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ومجمع البحوث الاسلامية وبعض الكتابات الدينية الأخرى ككتابات « ابو الاعلى المودودى » فضلا عن الخطب التى تلقى ببعض المساجد والمناقشات الدينية التى تتم فى رحابها ، وخاصة ماتعلق عنها بنقد الاحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين (حكومات وشعوبا) والمطالبة باصلاحها .

وقد نشىء اعضاء جماعة « التكفير والهجرة » فى بيئات تتسم بالالتزام الدينى أصلا . ويتمتعون بقدر من الثقافة الدينية ، وهم يهتمون ثقافيا ودينيا ، فى دعم العقائد والاحكام

التى تؤيد فكر جماعتهم الذى يتضمن ضمن مايتضمن الحماسة بالآيات والاحاديث التى تدعو الى الجهاد وتكفير من يعارض هذا الفكر . وتراهم يدعون الى الانعزال عن المجتمعات الراهنة لانهم يرفضون أنظمتها وتشريعاتها . وتلعب المناقشات بين اعضائها فضلا عن التوجيهات التى تصدر من « أمراء » الجماعة ، دورا ملموسا فى بلورة فكر أعضاء هذه الجماعة وفى تكوينهم الثقافى . ومن ثم نجد المسئولين عن هذه الجماعة يوصون أعضاءها بترك الكليات والمعاهد التى ينتمون اليها بحجة عدم جدوى مايتلقون فيها من علوم فضلا عن مخالفتها لأحكام الدين . وهم اى أعضاء هذه الجماعة يقرأون أيضا الكتب والمجلات الدينية الشائعة ، وبوجه خاص تراهم يقبلون على مؤلفات « ابو الاعلى المودودى » .

ويبرر احد امراء « جماعة الفنية العسكرية » ماتتخذته الجماعة من وسائل العنف الذى اتبعه اعضاء هذه الجماعة بأن الحوار مع السلطة كان قد فشل ويرجع ذلك الى أن الذى كان يدير هذا الحوار ضباط الشرطة ، ويتساءل الأمير قائلا : كيف يأتى اللقاء الفكرى بين عقلية ضباط الشرطة اى عقلية الموظف الروتينى السلطوى وبين عقلية المفكر المثقف العقائدى ؟ ثم اكمل حديثه قائلا : ان الجماعة (جماعة الفنية العسكرية) تطرح هذا التساؤل لتثبيت أن هدفها لم يكن العنف وانما هو توصيل الامانة (يقصد الدين الاسلامى) الى الناس وانها ليست مجموعة من الشباب المضلل أو المغرور الذى ينساق وراء شخص معين نجح فى الاستخفاف بها ! ودلالة ذلك ، كما يقول هذا الامير ، وجود المد الاسلامى رغم ان حسن البنا وسيد قطب وصالح سرية وشكرى قد قتلوا

وانتهوا ويكرر قائلا : خلاصة القول ان فشل الحوار مع السلطة أدى بالجماعة الى العمل « تحت الارض » والى استخدام العنف كبديل لحرية الكلمة وللوصول المعلن .

وارجو من القارىء الكريم أن اقف عند هذا الحد ، وارجو أن اكون قد ابرزت فيما ذكرت بعض الملامح الموضوعية التى وصل فيها العنف الدينى ، من وجهة النظرة الاجتماعية إلى اقصاه فى نطاق « جماعة الفنية العسكرية » .

وانني اذكر انه عندما ظهرت « جماعة التكفير والهجرة » فى المجتمع المصرى ظننت ان التاريخ يعيد نفسه وهذا ما لاعتقده ، ظننت أن الاضطهاد الوثنى الذى نكب به المصريون المسيحيون فى خلال الفترة من عام ٢٨٤ ـ ٣١٣ ميلادية واضطرهم الى الفرار بعقيدتهم الى الصحراء (وقد ذكرت ذلك من قبل) وكانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الارض بما رحبت . ولكنى وانا المسلم الذى أخبر عن جده « سيدى عويس القرنى » أو « سيدى أويس القرنى » النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب بأنه سيظهر فى زمانه اى فى زمان سيدنا عمر ، فاطلب منه أن يدعو لى . وظهر هذا الجد الاكبر لى ودعا للنبى صلى الله عليه وسلم (كما ذكر لى جدى لأبى) .. اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مكانا محمودا الذى وعدته .

ومن ثم فاننى استبعدت أن تكون « جماعة التكفير » التى يكفر أعضاؤها المسلمين من الناس فى المجتمع ويفرون الى الصحراء قد فعلوا « أو يفعلون » ما فعله أجدادنا المصريون المسيحيون من قبل وقلت لعل هذه الجماعة احدى الفرق الاسلامية المتطرفة وقد تأكد لى ذلك عندما استعملوا العنف

بألوانه فى قتل احد رجال الازهر ، أقصد « الشيخ محمد حسين الذهبى » .

وليعذر لى القارىء الكريم اذا اكتفيت بالحديث عن فكر هذه الجماعة فيما يلى :

ـ تضع الجماعة قاعدة خطيرة تزعم فيها ان أية معصية يقع فيها المسلم هى بمثابة وقوع فى الشرك . وفى رأيها ان المعاصى شرك بالله تعالى ويتساوى فى ذلك عند أعضائها أى معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فكلاهما شرك بالله تعالى .

ويدعى اعضاء الجماعة ان عدم أداء طاعة واحدة مفروضة تسقط بقية الطاعات الأخرى التى يؤديها المسلم ، إذ لابد أن تؤدى جميع الطاعات المفروضة مجتمعة والا فكأنها لم تكن . ويقولون ان الاسلام ربط الطاعات المفروضة كشرط فيه . ففريضة الصلاة والزكاة والحج وفريضة الجهاد والتوكل على الله وكذلك فريضة اكرام الضيف واكرام الجار (لم تذكر فريضة صوم شهر رمضان المعظم) .. كل هذه الطاعات المفروضة شرط فى الاسلام وغياب اى طاعة منها محبط للجميع وكأنها لم تكن .

ـ وتقول الجماعة ان الاصرار على معصية واحدة كفر بالله العظيم ومحبط لكل أعمال البر وإن كانت كجبال تهامة

ـ تحكم الجماعة بالكفر على كل مسلم تبلغه دعوتهم ثم لاينضم اليهم .

ـ وقد وصل الامر بالجماعة ان رفضوا الاقرار بأن الامامين مسلم والبخارى من المسلمين وذلك ماتعتقده الجماعة ان مدار نقل الخبر ـ أى خبر ـ يبنى على الصدق وليس على الاسلام .

- وترى الجماعة ان الكافر أصل الحكم فيه انه حلال الدم والمال والعرض وان الكافرين مستحقون للقتل سواء أكانوا جماعة أم أفرادا .

وفي صدد الحديث عن الهجرة نجد أن جماعة « التكفير والهجرة » تدعي أن أرض مصر هي أرض كفر وأرض حرب ، وانه تجب الهجرة منها الى الجبال والكهوف للاعداد لمقاتلة أهلها من أجل اقامة الاسلام أى ان خطة الجماعة تتمثل فى ضرورة الهجرة ثم يبدأ القتال دفاعيا ثم هجوميا تبعا للواقع . اما الدليل الذى تعتمد عليه الجماعة فى ضرورة وجوب هذه الهجرة فهو قوله تعالى :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (٤ م سورة النساء : آية رقم ٩٧)

وهم أى اعضاء جماعة التكفير والهجرة يرون ان هذه الآية تعنى أن وجود الانسان فى ارض الكفار يدفعه الى الوقوع فى المعصية وممارسة الفحشاء فيكون مأواه جهنم . ولهذا فان الهجرة واجبة عليه تجنبا لذلك .

(انظر كتاب : حامد حسان وآخرون : « مواجهة الفكر المتطرف فى الاسلام : مناقشة موضوعية لافكار جماعة التكفير والهجرة من واقع سجلات المحكمة » ، (الطبعة الثانية) القاهرة ، مطبعة الجبلاوى ، عام ١٩٨٠ ، صفحات ٢٠ _ ٢٢ و٤١) .

العمل من اجل السلام

١٢ ـ دور القادة الثقافيين :

يقصد بالقادة الثقافيين فى الدراسة الحالية اعضاء المجتمع .. أى مجتمع الذين يؤهلون تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية في هذا المجتمع . اى الذين اتخذوا العمل الثقافى (بمعناه العلمى) مهنة لهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه والملاحظ ان هؤلاء القادة هم بعض اعضاء المجتمع الذين يعملون بالضرورة من اجل اعضائه وبهم ، والملاحظ ايضا ان ميادين العمل الثقافى فى المجتمع تكون ، بالضرورة ، أيضا ميادين شتى . واهم هذه الميادين هى ميادين الاعلام والخدمة الاجتماعية والوعظ الدينى والتعليم والتربية . فالصحفى والاذاعى ومن يعمل فى مجالات التليفزيون والمسرح والشاشة الكبيرة هم من القادة الثقافيين والاخصائى الاجتماعى الذى يعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية العديدة ومجالاتها ، وامام المسجد وواعظ الكنيسة ومن فى حكمهما ، والمدرس والمربى هم ايضا من القادة الثقافيين ان كل هؤلاء من اعضاء المجتمع الذين يؤهلهم هذا المجتمع تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو

ادوارهم الثقافية فيه . اى الذين قد يسمون أحيانا « بالعقلانيين » وأحيانا أخرى « بالانتليجنسيا » واحيانا ثالثة « بالمفكرين » الذين يعملون بالقلم أو ما فى حكمه بعقولهم وبأحاسيسهم ووجدانهم وخيالاتهم أكثر من أيديهم وفئوسهم هم حملة الاقلام وهم الممثلون والاذاعيون وهم حملة الفرشاة من الفنانين ومن هؤلاء أقصد الفنانين نجد الفنانين التشكيليين والمصورين والفنانين الموسيقين وغيرهم وغيرهم .

والقادة الثقافيون فى المجتمع .. اى مجتمع الذين ذكرتهم ليسوا بالضرورة هم القادة الثقافيون الوحيدون فى هذا لمجتمع إنهم بعض القادة الثقافيين فحسب . فالآباء والامهات ورجال الحكم والرؤساء وكبار السن فى المجتمع وبخاصة فى الريف ، ورجال الطرق الصوفية وأمثالهم هم أيضا قادة ثقافيون أو هم فى الاغلب الأعم فى حكم هؤلاء القادة (بالمعنى العام) ومع ذلك فأننى أولى اهتماما كبيرا بالقادة الثقافيين الذين اتخذوا العمل الثقافى مهنة لهم . فهم عندى القدوة التى يجب أن تكون حسنة وهم اذا كانوا صادقين أقصد أعمالهم تكون صادقة نتوقع التعرف على الواقع الراهن ، بحلوه ومره ،كما نتوقع التعرف على المستقبل القريب أو البعيد ولايعنى هذا عندى اننى لا أهتم بالأخيرين . فالاخيرون وخصوصا رجال الحكم منهم لاهميتهم القصوى يجب أن يكونوا مجالات بشرية لدراسة أو دراسات خاصة .

ومهما يكن من الامر فالملاحظ أن فئة القادة الثقافيين فى المجتمع .. إى المجتمع .. فئة تؤدى بالضرورة واجبات خطيرة فى هذا المجتمع . فأعضاؤها هم ، كما سبق ان اوضحت فى حقيقة الامر ، الذي يقودون كل مايعمل فى

المجتمع ومن يعمله وكل مايقال فيه ومن يقوله ، وكل مايصنع فيه ومن يصنعه ، ويحددون وقت حدوث هذا العمل وهذا القول وهذه الصناعة كما يحددون الظروف التى تحدث فى ظلها اى هم فى حقيقة الامر بعض رموز النظام الاجتماعى فى المجتمع ، وهم أيضا لسان حاله . وهم بفضل ذلك يكونون جزءا من شخصيات أعضاء المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون اذا كانوا صادقين من أجل أعضائه وبهم . (انظر كتاب : سيد عويس : « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » بيروت ، ١٩٧٣ ، صفحة ١٥٦)

واذا درسنا المهام إلتى يجب على القادة الثقافيين المصريين أن يأخذوها على عاتقهم كواجب أو واجبات من الضرورة أن يقوموا بها من اجل مصر وبخاصة فى الوقت الراهن ، فاننى اتساءل ومن حق القارىء أن يتساءل كما اتساءل : هل هذه المهام تعنى مواجهة المشاكل العديدة التى تواجهها البلاد وبخاصة المشاكل الاقتصادية التى تواكبها عادة مشاكل اجتماعية وثقافية وسياسية وتحتاج الى حلول تتفق مع ظروف المجتمع المصرى النامى مع تميزه حيث انه مجتمع له أصالة ومراحل تاريخية لاينكرها إلا مكابر ـ هل هذ المهام تعنى أن المناخ الاجتماعى لهذا المجتمع يجب أن يتغير تغيرا مقصودا ؟ (يقصد بمفهوم « المناخ الاجتماعى » السمات العامة للاتجاهات الاجتماعية الشائعة وخصوصا تلك التى ثبتت منها نسبيا ، فتبلورت فى عادات اجتماعية مرعية : أعراف وقوانين) أو يجب ان يتغير بعض نواحيه ؟ وهل ذلك يقتضى بالضرورة وجود الاستعداد لهذا التغيير عند أعضاء المجتمع ؟ وكيف يوجد هذا الاستعداد عند اعضاء المجتمع

أو حتى عند قادته اذا لم يكن موجودا ؟ وهل يأتى الاستعداد عن طريق القهر ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد للتغيير الى مدة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد الى ممارسة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد الى توعية معينة مستمرة ؟

وهل يكفى وجود الاستعداد للتغيير عند أعضاء المجتمع المصرى او حتى عند قادته ، أو الذين فى حكم هؤلاء القادة ، وحده ؟ واذا كان الجواب عن هذا التساءل بالنفى فهل لابد من وجود الامكانات التى تحقق مطالب الاستعداد ؟ وماهى هذه الامكانات ؟

ولكن لماذا غير المصريون ، على مدى تاريخهم الطويل الكثير من العناصر الثقافية المادية وغير المادية ؟ لماذا جدد الزارع المصرى في الحقل لأدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ؟ لماذا جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف اليها مالم يكن معروفا من قبل ؟ ولماذا غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها اكثر من مرة في خلال تاريخهم ؟ ولماذا استبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين ؟ هل الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون مسئول عن قهر وجود الاستعداد للتغير أو التغيير فى محيط بعض العناصر الثقافية ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد الناتجة عن هذا الاستعمار الطويل المستمر مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين المستمرة من مواجهة المجهول ؟ ومن ثم نجدهم متمسكين بمواجهة الانتظار فى صوره المختلفة ؟

(انظر كتاب : « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » صفحات : ٣٨٥ ـ ٣٨٧ .

ان محاولة الخوض في هذه الموضوعات كانت ولاتزال همى الاول . كما كانت حافزا لى لكى أنشر العديد من الكتب

عنها . وخاصة ماوصلت إليه حتى كتابة هذه السطور ان المجتمع المصرى على الرغم من كل شىء ، سواء أكان هذا الشىء ظلما أم ظلاما ، قد عاش أعضاؤه لايزالون وتجد الخريطة المصرية بين خرائط بلدان العالم باقية لاتزال صحيح ان الكثير من العناصر الثقافية المصرية القديمة بغثه وثمينه لايزال مستمرا معنا (أقصد مع المصريين المعاصرين) فى نفوسنا وفى وجداناتنا حتى الان لكن المجتمع المصرى بقدر ما أعطى الى الدنيا أخذ منها ما يرى الافادة منه ضرورية وغير ضارة فمصر كما أوضحت فى البحوث والدراسات العلمية التى قمت باجرائها والتى أشرفت على اجرائها والتى نشرت على الملأ أو تلك التى لما تنشر حتى الآن ـ قد أعطت وكانت تأخذ ، أعطت اليونان والرومان قبل أن تأخذ منهما وفى أثناء نير استعمارهما لها . فقد عب الاغريقيون من فروع العلم المقدس المصرى ونقلوا إلى بلادهم ماكانوا يرون أنها تحتاج اليه من علوم ومعارف . وقد أعطت مصر فى خلال حكم الرومان حيث غزت الرومان بثقافتها فى عقر عقولهم ، وحتى فى اللغة التى نتحدث بها ونكتبها نحن المصريين نجد العديد من الالفاظ الفارسية .

وقد ينسى البعض أو يتناسى ، ماسبق ان ذكرته ونشرته من ان العناصر الثقافية التى أتى الدين الاسلامى الحنيف بها الى مصر لم تكن غريبة عن العناصر الثقافية المصرية القديمة تماما مثلها مثل العناصر الثقافية التى أتت بها الديانة المسيحية ، وارجو أن يتذكر القارىء الكريم ماذكرته من قبل حول هذا الموضوع من حيث انه عندما دخلت الديانة المسيحية ثم الديانة الاسلامية الى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضا بكرا أو صحراء جرداء .

ويشهد التاريخ بان مصر فى ضوء اقتناع أبنائها ، قد احتفظت بالدين الاسلامى وتعاليمه وحفظته من الشوائب فى معظم الاحيان . وعلى الرغم من معاناة اللغة القبطية المصرية وكفاحها ضد تسلط اللغة العربية حتى القرن الثامن عشر ميلادية ، فإن مصر قد حافظت على اللغة العربية من الشوائب كذلك . ومع ذلك فاننى اعترف بان الدين الاسلامى دين متغير زمانا ومكانا . فالواقع يؤكد ان اسلام الخلفاء الراشدين غير اسلام العصر الحاضر ، وان الاسلام فى المجتمع المصرى غير الاسلام فى المجتمع الاندونوسى وان الاسلام فى السعودية غيره فى ايران .

وقد اثبت فى بعض بحوثى ودراساتى العلمية ان مُصرنا الخالدة تمتاز تاريخيا بالاستمرارية ليس فقط فى العناصر الثقافية المادية (أدوات الزراعة بكل أنواعها من عهد « مينا » الى عهد « محمد على » بخاصة مثلا) وفى العناصر الثقافية غير المادية (التى لايمكن فى رأيى وضع فاصل بينها وبين العناصر الثقافية المادية) وذلك لان العنصر الثقافى المادى يؤثر فى العنصر الثقافى غير المادى والعكس صحيح . والامثلة فى الواقع الحى فى المجتمع .. أى مجتمع شاهدة على ما أقول . فجهاز « التليفزيون » (عنصر ثقافى مادى) فى المجتمع المصرى يختلف مايبثه اختلافا بينا عما يبثه التليفزيون فى المجتمع الغربى (عناصر ثقافية غير مادية) مثلا . (انظر دراسة سيد عويس عن موضوع « حول موضوع الهوية والتراث وجهة نظر ثقافية اجتماعية مصرية » بحوث ومناقشات ندوة « تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى فى ضوء الهوية والتراث » المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية ، العربية للدراسات والنشر ، ٩ ـ ١٠ من

شهر نوفمبر ١٩٨٥ ، صفحات : ٢٢١ ـ ٢٢٣ و٢٢٧ ـ ٢٢٩) .

وارجو من القارىء الكريم الا يمل اذا حاولت ان أحدد فى حدود قدراتى وخبراتى المحدودة بعض مهام القادة الثقافيين المصريين المعاصرين . ومن حق القارىء الكريم ان يوافق على ماوصلت إليه ومن حقه أيضا ان لايوافق . واننى بكل تواضع صادق أذكر مايلى :

ـ ان المجتمع المصرى المعاصر يواجه مشاكل عديدة منها واهمها المشاكل الاقتصادية . والملاحظ ان المجتمع المصرى ليس فريدا فى مواجهة هذه المشاكل بل ان العالم الغربى وبخاصة البلاد الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا تعيش فى وجل منذ فترة طويلة حتى وقتنا الراهن من أن تحدث كارثة الركود أو الكساد الاقتصادى كما حدث ذلك فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى ، صحيح ان التنبؤات بهذا الخصوص متضاربة ولكن لايخفى على المتتبع الواعى النظرة المتشائمة التى يحس بها المتخصصون فى ظل المناخ الاقتصادى ، فى الوقت الحاضر .

ـ والمعلوم ان المشاكل الاقتصادية اذا لم تحل حلا مواتيا يواكبها عادة مشاكل اجتماعية عديدة منها بل اهمها مشاكل الانحراف بأنواعه : فقد يكون هذا الانحراف سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا .

ـ واذا كان مجتمع مصرنا الخالدة ، كما ذكرت ذلك مرارا ، مجتمع قديم (عجوز) فان هذا المجتمع فى الوقت الحاضر أصبح مجتمعا شابا ، فهو يموج بالشباب والاطفال . والاخيرون (اى الاطفال) من سن ١٥ سنة فاقل يكونون

مايزيد على خمسى أعضاء هذا المجتمع . وانني أرى ان هؤلاء الاطفال فى مسيس الحاجة الى اهتمام القادة الثقافيين المصريين .

ـ ان اهتمام القادة الثقافيين المصريين بهؤلاء الاعضاء ، ذكورا كانوا أو اناثا ، يعنى الاهتمام بتكوينهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين ، اى ليكونوا مواطنين يعرفون حقوقهم فيطلبوا تحقيقها ، كما يعرفون واجباتهم فيؤدوها فى ضوء مبادىء المجتمع المصرى وقيمه ومثله العليا . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى طالبت فى الفقرة السابقة التعرف ، اقصد تعرف اطفال المجتمع على حقوقهم قبل التعرف على واجباتهم . وذلك لأنم كما ذكر غيرى مرارا وكما ذكرت أيضا مرارا وتكرارا ليسوا فقط فى حاجة الى الاهتمام الواعى ولكنهم ايضا يكونون تربة صالحة لتغرس فيها الاتجاهات القويمة التى ينبغى أن يشبوا عليها لكى يستطيعوا أن يواجهوا نتائج العلم العصرى فيستوعبوها والتكنولوجيا الحديثة فيطبقوها .

ـ وانني أؤكد على غرس الاتجاهات القويمة لمن هم فى سن ١٥ فأقل عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية المختلفة التي توجد فى كل المجتمعات : البدائية منها والمتحضرة على السواء ـ لان اعضاء هذه الفئة من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر سريعو الايحاء ومايرونه أو يمارسونه يكون لديهم اتجاهات وليس مجرد آراء وذلك لانهم مازالوا يواجهون مشكلة تكوين شخصياتهم بمحدداتها التكوينية والثقافية الاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية على عكس اعضاء المجتمع الكبار الذين قد اكتملت شخصياتهم ويقومون فعلا بتأدية أدوارهم

الاجتماعية التى نشئوا على ممارستها سلبا أو ايجابا فى المجتمع .

١٣ ـ غرس القيم ذات الاهداف الحميدة في نفوس المواطنين :

لايمكن أن نغرس قيما ذات أهداف حميدة أو غير حميدة فى نفوس المواطنين الا بالتربية الخلقية (بمعناها العلمى) وحق القارىء الكريم على الكاتب ان يعرف اول مايعرف « معنى مفهوم التربية ومعنى مفهوم الاخلاق » فالملاحظ ان المفهومين من المفاهيم الانسانية التى تكون فى الاغلب الاعم مفاهيم غامضة اى لها معان عديدة وهى ايضا مفاهيم فضفاضة أى لها صور متعددة وقد تستخدم فى بعض الاحيان فى مواقف متناقضة .

ومفهوم « التربية » قد تعددت معانيه ودلالاته ومع ذلك فأننى أرى أنه ينبغى ان نفهم التربية على انها عملية تغيير بواسطتها ينمو الانسان وهو يبدأ دورة حياته (أدوار الطفولة والشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة) : أى وهو فى دور الطفولة . ثم ينمو الانسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته فى مراحل دورة حياته . وهو أى الانسان اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته ، مع تكوينه وتحويله الاخرين والبيئة التى يعيش فيها . ان عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شىء إلى إعداد المواطن (الانسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش انها عملية تكوين الشخصية ، اى عملية جعل « الفرد » « شخصا » إى فرد له شخصية اجتماعية ، اى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع

وجماعاته . وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع ، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . أى أن قيم المجتمع قد تكون قيما ايجابية (اى اهدافها حميدة) قيما بناءة تكون من وراء أفكار أعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والاشياء والاشخاص اى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء . وهى قيم بناءة (بالمعنى السابق) لانها تدعو الى « الخير » ولاتدعو الى « الشر » وأعنى بالخير هنا كل مايعين على العمل الصالح من أجل الآخرين ، اى كل مايعين على التغيير الى الافضل والى الاقوى والى الاعظم . ومن ثم فهى قيم حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع اى المجتمع « وترتفع » بهذه الروح وتثبتها وتقويها . وقد تكون قيم المجتمع وجماعاته على عكس ذلك ـ قيما سلبية ـ اى قيم اهدافها غير حميدة لاتدعو الى الخير العام بل تدعو الى الشر العام ، أى تدعو الى مايعين على العمل غير الصالح من أجل الأخرين . (انظر : اولا ، « من مفاهيم الدراسة الحالية » ، بند رقم ٢) .

وفى ضوء ماذكر عن القيم الاجتماعية سابقا ، اجد من واجبى شرح مفهوم هذه القيم إنها فى بساطة الأشياء التى تكون ذات قيمة معينة عند جماعة من الناس ، مجتمعين أو موزعين ، وتنبت القيم الاجتماعية ، عادة عن طريق الرأى الجمعى لهذه الجماعة . اى ان هذه القيم لايمكن أن تفرض من الخارج على الجماعة فرضا ، ولكنها تتولد من الظروف المعاشية التى تحياها وتكون مقبولة ومعترفا بها عندها .

ويلاحظ ان الاشياء المادية تمثل أنواعا متباينة من القيم . ذلك لان هذه الاشياء هى فى الواقع موضوع اهتمامات

انسانية متباينة قد تكون اهتمامات مادية أو اقتصادية أو معنوية فقطعة الخشب إذا صنعها نجار صارت مكتبا تمثل قيمة مادية ، اى تصبح ذات قيمة نفعية . والمكتب ذاته كنتاج للعمل الانسانى يحتوى على قيمة اقتصادية . وإذا عالج قطعة الخشب ذاتها فنان أصبحت قطعة فنية ذات قيمة جمالية . ونجد قطعة الخشب ، فى كل العلاقات السابقة ، ليست فقط شيئا ماديا بل ظاهرة اجتماعية كذلك ، أى انها شىء ذو منفعة وسلعة ونتاج عمل فنى جميعا . اى هى موضوع اهتمامات انسانية .

ويلاحظ أيضا أن ظواهر الوعى الاجتماعى وتتمثل فى الافكار لها كذلك قيم ، وعن طريقها يعبر الناس عن اهتماماتهم فى أسلوب أيديولوجى معين . فأفكار الكفاية والعدل والوسائل التى تحققها تتضمن فى الواقع اهتمامات فئات من أعضاء الشعب كما تتضمن اعمالهم ورغباتهم وارادتهم ، فضلا عن الاهداف العملية للمؤسسات السياسية أو الاجتماعية التى تضمهم . ثم نجد ان هذه الافكار كهدف لهذه الفئات من اعضاء الشعب أو كموضوع آمالهم أو كحلم يهدى أعمالهم هى .. أى هذه الافكار فى الواقع مثل عليا أو قيم من القيم المعنوية .

ويلاحظ كذلك انه بالاضافة إلى القيم المادية والاقتصادية والجمالية نجد أيضا القيم الاخلاقية . ونجد المجتمع أى مجتمع لكى يوجه أنماط سلوك أعضائه أو ينظم هذه الانماط ، يخلق عادة جهازا من المفاهيم الاخلاقية والمثل العليا وأساليب تقييم هذه الافعال ، وهذه كلها من قبيل القيم الاخلاقية .

وإذا كان « مفهوم التربية » يعنى كما سبق أن أوضحت ، انه عملية تغيير الفرد فى المجتمع لكى يكون شخصا أو فردا

ذا شخصية له أدواره الاجتماعية التى يؤديها فى المجتمع . فان مفهوم « الاخلاق » هو انماط السلوك التى تصدر عن أنماط الشخصية الاجتماعية عندما تواجه الحياة بظروفها ومواقفها الاجتماعية .

والملاحظ ان أنماط السلوك البشرية عديدة ومتباينة ومتناقضة جميعا . وقد تكون انماطا فاضلة أو انماطا غير فاضلة . والخلق الفاضل هو ذلك الذى يرمى الى أفضل الحالات الاجتماعية وفى الوقت نفسه يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى يدرك هذا الغرض الاسمى . والخلق غير الفاضل يرمى الى العكس . اى يرمى الى أسوأ الحالات الاجتماعية التى ترمى بدورها الى السلبية والهدم ، أى إلى الشر ، أى ترمى الى مايعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين أى أننى لا أرى مايراه البعض أى أن الخلق شىء داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل وأما الفعل نفسه فهو السلوك . أى أن الخلق هو شىء باطنى فى الانسان لاعلاقة له بالبيئة الاجتماعة الا عن طريق شىء آخر هو السلوك . اى أن الناظر الى الانسان لايري الاخلاق وانما يشاهد العمل أو الفعل أو بعبارة أخرى أن أحد هذين الامرين هو سبب والآخر نتيجة له . فالاخلاق هى السبب ، والسلوك أو العمل هو النتيجة ـ أن هذه فلسفة ثنائية ـ ولكن فلسفة الدين الاسلامى الحنيف هى التوحيد . وهذا بخلاف مايقبله اهل الغرب الذين وجدوا متسعا فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية وثنائية وحتى جمعية . فالملاحظ أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الامر بخلاف ذلك . فمثلا قد توجد حالة تطلب من الكائن الحى (الشخص) أن يعمل أو ينشط فترى هذا الشخص يأخذ فى التفكير ـ اى فى « غربلة » اختباراته السابقة بقصد اكتشاف الصلة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين مامر عليه فى عهده

السابق . وعندما يكتشف المشابهة فى الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الاولى اى أن يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة ـ تلك الاستجابة التى أتت بالغرض في الدفعة الاولى . ثم يتخيل انه عمل فى هذه الحالة الراهنة ماعمله فى الاولى . وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر . ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى داخلى مستتر الى فعل ظاهر صريح (سلوك بشرى) وكل هذه العملية هى عملية متصلة ليس لها انقطاع وليس لجزئياتها انفصال . (انظر : يعقوب فام : « التربية والاخلاق » القاهرة : مطبعة المجلة الجديدة ، عام ١٩٣٠ صفحتى : ٢٦ ـ ٢٧) .

وفى ضوء ماسبق يمكن القول بانه اذا كان السلوك البشرى يصدر عن الشخصية الانسانية فى ضوء محدداتها . ومنها خبراتها الثقافية الاجتماعية ، فالملاحظ أن القيم الاجتماعية تؤدى في هذه العمليات دورا خطيرا . والملاحظ أيضا أن مصادر هذه القيم الاجتماعية بأنواعها العديدة ، عديدة كذلك منها وأهمها التراث الدينى (وبخاصة التراث المسيحي والتراث الاسلامى) والتراث التاريخى (التاريخ القديم والمتوسط والحديث جميعا) ، والتراث الادبى والفنى (بكل انواعهما وصورهما من شعر وادب وفنون تشكيلية وتصويرية ومسرحية وسينمائية وماتعلق بها) ومنها الامثال الشعبية (سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة تحيا فى نفوس أعضاء المجتمع ووجداناتهم) .

١٤ ـ الوعي باستغلال مفهوم الوطنية في سبيل مصالح تجار الحروب :

عندما تحدثت عن موضوع « مفهوم الضمير الانساني فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى » من قبل تحدثت عن مفهوم « التربية » كما تحدثت عن مفهوم « القيم الاجتماعية » (انظر اولا ـ من مفاهيم الدراسة الحالية ، بند رقم ٢) كان حديثى فى هذا البند مقتضبا ولكنى توسعت فى شرح مفهوم التربية وأضفت اليه مفهوم « الاخلاق » فضلا عن مفهوم « القيم » سواء أكانت اهدافها حميدة أم غير حميدة . (انظر : خامسا ـ العمل من اجل السلام ، بند رقم ١٣) .

وأبدأ حديثى الآن عن « مفهوم الوطنية » على أساس انه من القيم الاجتماعية الاولى حيث نجد أن « ظاهرة الوطنية » تتضمن حب الوطن ، الشعور بالانتماء اليه والولاء له والوفاء بحقوقه . وقد تعمدت ذكر « ظاهرة الوطنية » على أساس انها فى رأيى (المتواضع) تعتبر « قيمة مركبة » ذات أهداف إيجابية (حميدة) أحيانا أو أهدفا سلبية (غير حميدة) أحيانا أخرى ، اى أنها صور عديدة من القيم ذات الاهداف الحميدة أو الاهداف السلبية فظاهرة الوطنية ليست فقط قيم حب الوطن والشعور بالانتماء اليه والولاء له والوفاء بحقوقه ، بل هى أيضا لكى تتحقق كل هذه القيم بالاضافة الى قيمة الايمان وقيمة العطاء وقيمة البذل وقيمة التضحية فضلا عن قيمة التعاون . أى أن هذه القيم اذا كانت أهدافها حميدة لابد ان تكون من وراء سلوك المواطن الصالح .

والملاحظ ان معنى ظاهرة الوطنية الذى أقصده فى هذه الدراسة لايعنى فقط مجرد حب مكان اقامة الانسان ومقره

واليه انتماؤه ولد به أو لم يولد وانما يعنى كذلك حب وطن الاسلاف والاخلاص لأرضه وتقاليده والدفاع عن سلامته . وان ظاهرة الوطنية ترتكز على التجارب التى تنمو بمرور السنين منذ الطفولة وعهد الشباب ، كما ترتكز ايضا على الارتباط بالارض والبيئة وهى أقصد ظاهرة الوطنية تثير عادة مشاعر عميقة فى نفس المواطن .

وفى ضوء وقائع التاريخ نلاحظ ان ظاهرة الوطنية ترتبط ارتباطا كبيرا بالحروب القومية وبالحروب الامبريالية . ونجد ان هذه الحروب تبرر باسم الوطنية ماتقوم به من استغلال باسم الوطنية التى يغرس قيمتها فى نفوس المواطنين من أبنائه الذين يستعملون أدوات الدمار والعنف والقسوة ضد المواطنين المستضعفين الذين لايستطيعون مواجهة هذه الادوات المدمرة ليس فقط لانم لايملكونها ولكن أيضا اذا ملكوها لايستطيعون الافادة منها ، وذلك لأن التدريب عليها يكون عادة قاصرا وقد يرجع ذلك الى ان مستوى العلم يكون أيضا قاصرا فضلا عن المستوى العام لتطبيقاته من ثم يكون منخفضا .

ان الطرفين الاقوى والمستضعف قد غرست فى نفوس أعضاء مجتمعاتهم قيم ظاهرة الوطنية ولكن الاقوى (وهم المستعمرون فى كل زمان ومكان) يستغلون مفهوم الوطنية فى محيط اعضاء مجتمعاتهم ، جنودا كانوا أو مواطنين عاديين ، ليزدادوا قوة على قوة ، وليستغلوا ثروات المستضعفين واذ أقول المواطنين العاديين فاننى اعنى مأأقول . فقد يكون هؤلاء عمالا فيعملوا اكثر واكثر ، وقد يكون هؤلاء رجالا تحتاجهم ساحة الوغى فتحل محلهم النساء لكى يعملوا ماكان الرجال يعملون وقت السلام .. الخ كل ذلك

يحدث امام أعيننا فى الوقت الراهن ، كما حدث فى الماضى ، باسم الوطنية وحتى يستطيع بائعو الاسلحة ان يبيعوا اكثر واكثر ليربحوا اكثر واكثر وتؤكد ذلك اجابة أحد سفراء جمهورية الصين عندما عاتبه أحدهم للسماح ببيع الاسلحة لايران فقال له ان ٤٠ دولة أخرى تبيع لايران الاسلحة !

والدمار الذى هو وليد العنف يكون من نصيب كبار السن وغير القادرين وغير القادرات على خوض غمار الحرب او العمل فى المصانع تماما كما ذكر « قداسة البابا بول السادس » فى رسالته التى ألقاها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى اول شهر يناير عام ١٩٧٨ .

« ... والسلام ماهو الا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل ، انه الذكاء والشجاعة الحية ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو اعضاء المجتمعات الانسانية ؛ الرجال منهم والنساء وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الانسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين ام من الناشرين ام من الفنانين ام الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والاعلام أم من المدرسين فى مدارسهم ، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن « المخططين وعمال أسواق الاسلحة فى العالم » - نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم » .

١٥ - دور الجماهير :

مفهوم « الجماهير » لغة هو من الناس جلهم ، ومن كل

شيء معظمه ويقال جمهر الشيء أى أخذ جمهوره وهو معظمه . (انظر كتاب : حسين يوسف مرسى وعبدالفتاح الصعيدى : الافصاح فى فقه اللغة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٧ ، صفحتى ١٣٢ و١٣٧) .

وفى ضوء تراث « علم الاجتماع » و « علم النفس الاجتماعى » توجد مفاهيم أخرى عديدة حول المعنى السابق . مثل مفهوم « طبقات العامة » أو « عامة الشعب » أو « التكتلات البشرية » (The Masses) ومفهوم التجمعات (oggre gates) ومفهوم الحشد (Crowd) ومفهوم « الدهماء » أو « الرعاع » (Mobs) ومفهوم « الشعب » أو « الجمهور » (The Pu1blic) والملاحظ ان هذه المفاهيم هى ، فى معظم الاحيان ، مفاهيم غامضة وفضفاضة .

ومنذ استخدام « ليبون » (Le Bon) لمفهوم طبقات العامة أو « عامة الشعب » أو التكتلات البشرية The Masses) نلاحظ استخدام هذا المفهوم فى عمليات وظواهر عديدة . فقد استخدم هذا المفهوم كل من « اورتيجاى جاست) (Orte gy g asset) « اميل ليدرر » (Emil Lederer روس (E. A. Rass)« وكارل مانهايم » (Rarl Mannheim) وغيرهم من الكتاب ـ فى اشكال مختلفة وبتعديلات مختلفة فنلاحظ ورود مفاهيمْ « مجتمع التكتل » (Mass Soeity) يقصد بمفهوم « مجتمع التكتل » المجتمع الغربى الحديث وبخاصة مجتمع الولايات المتحدة . حيث يتميز هذا المجتمع بالتصنيع الضخم ، وبالتطورات الحضرية الضخمة وبانتشار الادارة البيروقراطية ، وبازدياد الاشكال والنماذج الموحدة ،

وبالتوسط وبالتحرر من الاوهام وبالاغتراب ويتميز هذا المجتمع فضلا عن ذلك ، أو بسبب ذلك ، بضياع الحريات ووهن بالملامح التقليدية (أنظر : G . Dunean M . G . A, Dieitenary of Socialag, 198, P. 116

كما نلاحظ أيضا ورود مفاهيم « حركة الكتلة العاملة » (Mass Movement) و « وسائل الاتصال الجمعى » (Mass - media) و « جماهير الشعب » (mass Publics) و « البيع الاجمالى » (Mass SALE)و « مظاهرات الشعب » (Mass Demonstrations) و « العرض أو المشاهد الجماهيرية »-(Mass Specta-cles) وغيرها ـ وهى تعبر عن المدى العريض للظواهر التى يغطيها هذا المفهوم .

والملاحظ ان مفهوم « طبقات العامة » أو « عامة الشعب » أو « التكتلات البشرية » يعنى فى حقيقة الامر اعدادا ضخمة من الناس .

اما مفهوم « التجمعات » فيتضح معناه عندما نلاحظ الناس فى احد الشوارع ، فهم مجرد ناس يوجدون فى منطقة معينة ولكنهم يتصلون بعضهم ببعض ، ولايعيشون حياة مباشرة ، ولاتجمعهم أهداف أو قيادة مشتركة ، ولا تربطهم مشاعر تماسك معينة . ويدل مفهوم « التجمعات ـ على سبيل المثال ـ على جماعات الناس الذين يذهبون زرافات وهم يسوقون سياراتهم أو يمشون على الاقدام الى أعمالهم عند الصباح ، كما يدل على جماعات النساء اللاتى يذهبن الى محلات البيع فى المواسم . ان كل واحد من هؤلاء يعيش مع نفسه ولنفسه . وتراه ينافس الآخر فى الحصول على مكان مناسب فى « الاوتوبيس » يجلس فيه أو فى ركن من أركان الشارع يوقف فيه سيارته ، أو فى الحصول على سلعة من السلع بثمن

أرخص . ومع ذلك فإننا نلاحظ أن هؤلاء الناس يتفقون - على الرغم من اختلافهم - فى بعض أنماط السلوك مثل الاستجابة الى أوامر رجل المرور مثلا !

واذا وجدت هذه التجمعات موضوع اهتمام مشترك أصبحت « حشدا » أو أصبحت « رعاعا » فالحشد من النظارة الذين يجتمعون حول حادث من حوادث المرور مثلا ، هم بعض الناس الذين قد لفت انظارهم وانتباههم هذا الحادث . إنهم يقفون حول الحادث ينظرون دون أن يحدثوا شيئا . اما اذا أحدثوا هذا الشيء بأن تظاهروا مثلا ، أى أصبحوا ينشطون نوعا معينا من النشاط فان « حشدهم » يصبح « رعاعا » والحشد يطلق على الناس الذين يلتفون حول احد الخطباء أو حول احد الوعاظ ، أو الذين يشاهدون حادثا ما أو منظرا ما ، أو الذين يلاحظون اناسا آخرين ينشطون نشاطا معينا كأن يمثلون أو يرقصون أو يغنون أويتظاهرون ساخطين أو غير ساخطين .

وفى كل هذه المواقف نجد ان موضوع الاهتمام المشترك عند الحشد من الناس يؤدى الى استجابات ذاتية (اى ليست جماعية مشتركة) قد تكون استجابات مشجعة أو ساخطة أو قد تكون مجرد الصمت الغاضب .

والملاحظ ان الناس فى الحشد يكونون على اتصال بعضهم ببعض ولكنه اتصال عشوائى . على عكس « الدهماء » أو « الرعاع » فالاخيرون ينشطون فى ضوء شعارات معينة تدعو الى تحقيق اهداف معينة وهم يعملون تحت قيادة غير رسمية معينة . وقد ينشطون امام حشود صديقة تشجعهم أو امام حشود غير صديقة تعاديهم . وفى كلتا الحالتين فإن دور الحشد يكون مجرد دور المشاهد الذى

لاينشط نشاطا جماعيا مشتركا .

وكما تتحول « التجمعات » من الناس فى الشارع تحت ظروف معينة الى « حشود » مشاهدة فان هذه التجمعات والحشود قد تتحول الى « دهماء » أو « رعاع » اذا نشطت في سبيل تحقيق اهداف اجتماعية أو سياسية معينة في ظل قيادة منظمة .

واننى لا أرى مطلقا ان يطلق مفهوم « الدهماء » أو « الرعاع » (MOBS) اعتباطا على كل جماعة من الناس منظمة ولها أهداف معينة وتحت قيادة معينة . فان بعض هذه الجماعات ضرورى للغاية اذا كانت هذه الاهداف انسانية تحقق التقدم فى محيطها أو فى محيط المجتمع الذى تعيش فيه ، واذا كانت القيادة رشيدة مخلصة فى سبيل تحقيق هذه الاهداف . والملاحظ فى ضوء التجارب والخبرات أقصد تجاربى وخبراتى ان اعداء الحرية والذين يقفون فى سبيل تقدم الشعوب ، يعمدون الى اطلاق اسم الدهماء أو الرعاع على الكثير من الشرفاء الذين لايعيشون فى أوطانهم فحسب ولكن أوطانهم تعيش فى وجداناتهم وكياناتهم .

ويتكون « الجمهور » (The Public) عادة من أناس لايعيشون حياة الوجه للوجه ، ولكنهم مع ذلك يظهرون عيانا اهتمامات متشابهة . أو يتكون من أناس يعرضون إلى مؤشرات متشابهة على الرغم من أنها قد تكون مؤشرات بعيدة الى حد ما .

وجمهور القائد قد يكون القرينة الوحيدة على قيادته . فالقائد يقدم نفسه نموذجا رمزيا للجمهور ، أو يكون كذلك على أية حال .

وفى المجتمع الانسانى توجد أنواع عديدة من الجمهور .

وفي ضوء هذا التعدد يتحدد مضمون خاص لكل نوع . فهناك على سبيل المثال « جمهور الشباب » و « جمهور الطلبة » و « جمهور المسرح » و « جمهور السينما » و « جمهور القراء » و « الجمهور السياسى » .. الخ ويوجد الجمهور الأخير عادة عندما يكون للناس خارج الحكومة الحق فى اسداء النصيحة الى الحكومة أو فى نقد أعمالها .

وتتكون أنواع الجمهور حسب أنواع الناس وأعمارهم واهتماماتهم وقياداتهم وما يتعرضون اليه من مؤثرات متشابهة . فقد ينتظم بعض الناس فى جماعات اختيارية اجتماعية أو علمية أو ثقافية أو ترفيهية . وقد تخلق وسائل الاتصال الجمعى أنواعا عديدة من الجمهور ، وفي هذه الحالة تكون القيادة فى العادة قيادة رسمية ، أى قيادة لم يتفق أعضاء الجمهور على اختيارها . وقد ترى الدولة ان تجعل من الجماعات الاختيارية السابقة جماعات منظمة تقوم هى (اى الدولة) بالاشراف عليها. (انظر كتاب : Hans gerth and I. Wright Mills, (Character and and Social Stra cture) New yark, Hartcourt, Brace And Co, 1953, p. p. 433 - 436 .

والملاحظ ان اعضاء المجتمع اى مجتمع لايعيشون فى فراغ أى انه لايتصور وجود فرد أو شخص (عادى) لايعيش فى علاقات اجتماعية دائمة . فهو يعيش فى جماعة أو فى جماعات . وهذه كلها تعيش فى المجتمع ، بل هى قوام المجتمع . كل واحد منا يبدأ ظهوره فى المجتمع ، اول مايبدأ ، فى الاسرة التوجيهية (اى اسرة ابيه وامه وابنائهما) أو فى أسرة بديلة اى فى جماعة . وهذه الاسرة

تعيش فى حى أو فى جيرة ، اى فى مجتمع محلى ، أو تعيش فى ناحية من نواحى القرية . وهذا الحى أو هذه الجيرة أو هذا المجتمع المحلى يرتبط بغيره من الأحياء أو الجيران أو المجتمعات المحلية فى المدينة (يلاحظ أن الجيرات فى مجتمع القاهرة الحالى كادت ان تتلاشى معاملها أو سماتها) . والملاحظ ان القرى قد تتصل بغيرها من القرى وان بعضها اصبح اتصاله بالمدينة (المراكز والمدن الأخرى) فى الوقت الراهن ميسرا .

وانني ارى ان كل جماعة من* الجماعات التى توجد فى المدينة أو المركز أو الكفر أو النجع ، ان هى إلا جمهور كل عضو فيها ، اى ان المفهوم « الجمهور » فضلاً عن المعنى العام السابق ذكره عندى معنى آخر خاص . والمعنى الاخير هو ، بالضرورةكل جماعة من جماعات المجتمع الانسانى . ولعل اهم الجماعات الاجتماعية الاساسية التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضرورة الاجتماعية ، عضوا فيها ، هى الجماعات التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون .

واهم الجماعات الاساسية التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لاعضاء المجتمع يمكن ان نوجزها فيما يلى :

- الاسرة .
- الجيرة .
- المنظمة التربوية .
- المنظمة الدينية .
- منظمة شغل اوقات الفراغ .

وقد نلاحظ احيانا أن البعض يرى ان مفهوم الجمهور لايمكن ان ينطبق معناه على الاسرة فالجمهور يتكون عادة من اناس لايعيشون حياة الوجه للوجه - والجمهور يتضمن العمومية ، والاسرة تتضمن الخصوصية ، والعمومية ضد الخصوصية ، ويرى هذا البعض ان الجمهور هو الجماعة التى تتكون من أفراد خارج دائرة الاسرة الاليفة والدراسة الحالية فى ضوء طبيعتها لاترى هذا الرأى فالملاحظ ان الدراسة الحالية لاتهتم بأسرة معينة ، بل بالاسرة كاحدى الجماعات (المنظمات) الاساسية فى المجتمع . وان اطفال المجتمع الانسانى العادى فى الاغلب الأعم جمهور الاسر فى هذا المجتمع ، وهم أهم جمهور فيه . وان الاسر فى المجتمع لايمكن ان تعيش كلها حياة الوجه للوجه فى المجتمع وان الاسرة موجودة فى كل مجتمع ويندر أن يفلت منها الطفل العادى فى أى جزء من أجزاء العالم ، وذلك على الرغم من تعدد اشكالها وأحجامها وعلى الرغم من اختلاف التقاليد والعادات والقيم وحتى العقائد التى يمارسها أعضاء هذه الوحدة الاساسية (أقصد الاسرة) من مجتمع لآخر . وحتى الطفل غير العادى (اقصد الطفل غير الشرعى) فقد يعيش فى كنف اسرة بديلة وبالاضافة الى ذلك فان أطفال المجتمع ككل ، لايعيشون حياة الوجه للوجه وان كانوا قد يعيشون هذا النمط من الحياة فى كل اسرة على خدة .. ومع ذلك فاننا نلاحظ فى الكثير من المجتمعات وبخاصة المجتمعات المتقدمة (Developed Societies) أو التى تسير نحو التقدم ان الاسرة لم تعد وحدها تقوم بعمليات تنشئة اطفال المجتمع ، بل أصبح العديد من المنظمات والاجهزة

الاجتماعية (من خارج الاسرة) تسهم فى هذه العمليات . واذكر فى ضوء خبرتى المحدودة على سبيل المثال لا الحصر ، جماهير الاطفال التى خلقتها اجهزة الاعلام ، الاذاعة المسموعة والمرئية المسموعة ودور الحضانة السينما والمسرح والملعب فضلا عن المدرسة وغيرها . ومن ثم أصبح اطفال المجتمع من وجهة نظر هذه المجتمعات (وهى وجهة نظر الدراسة الحالية) يعرضون فى معظم الاحيان الى مؤثرات متشابهة بعيدة الى حد ما (اى من خارج الاسرة الخاصة) .

ولكى نتحدث عن مفهوم « الجيرة » توطئة للحديث عن جمهورها ، نعود الى الوراء الى عام ١٩٢٣ . عندما صاغ « كلارنس يرى » (Clarence Perry) مفهوم الجيرة (NEIGHBOURH OOD) وعندما اقترح اهمية وجود وحدة محلية مخططة تتميز بالميزات المحلية المرضية ، حيث يعتنى بتخطيط طرقها ويعنى بصحة ساكنيها وراحتهم . واصبح بمرور الزمن لمفهوم الجيرة تعريفان : الاول وهو « تعريف مادى » يشير الى جزء من البلدة أو المدينة الذى يتميز بحدود معينة مثل الشوارع الرئيسية ، أو السكة الحديدية ، أو الانهار ، أو الترع ، أو الفضاء المفتوح . كما يتميز أيضا بتشابه مبانيه . ويوجد فيه عادة مركز للحوانيت وبعض المؤسسات المحلية كالمنظمة الدينية والمقاهى والحانات والمكتبات .. الخ .

اما التعريف الثانى لمفهوم الجيرة فهو « تعريف اجتماعى » يرى ان الجيرة تتميز بوجود سكان متشابهين اجتماعيا . ويكون هذا التشابه بخاصة فى الطبقة الاجتماعية او فى السلالة .

والملاحظ انه في ضوء درجة التحضر التى يصل اليها

مجتمع المدينة ، تتفاوت حياة سكان الجيران فى هذا المجتمع . فقد تكون هذه الحياة حياة الوجه للوجه احيانا . واذا بلغ التحضر في جيرة من الجيرات درجة عالية من التعقيد تنمو فى محيط سكانها العلاقات الثانوية أحيانا أخرى (انظر كتاب :
(P. 124, Dictionary of SOEIOLGY) .

ومهما يكن من الامر فسكان كل جيرة هم جمهورها . فهم وان عاشوا حياة الوجه للوجه احيانا تراهم يتعرضون ، فى الغالب ، وبخاصة فى المجتمعات المعاصرة الى مؤثرات متشابهة عديدة من خارج الجيرة .

والمنظمة التربوية بأنواعها ومراحلها من الاجهزة الهامة التى تسهم فى القيام بعمليات التنشئة الاجتماعية لاعضاء المجتمع (اطفاله وفتيانه وفتياته وشبابه) اى ان هذه المنظمة ، فى الوقت الراهن ، لايمكن ان تكون بناء يحتجز العديد من جماهير المجتمع من التلاميذ والطلبة والطالبات داخل اطاره بغرض تلقينهم بعض الدروس فحسب . بل ان هذه المنظمة يجب ان تكون بالضرورة الى جانب ذلك ومسايرة منها لتطورات الحياة الاجتماعية ومافيها من تيارات تستدعى تنمية الجوانب الاجتماعية والنفسية لاعضاء جماهيرها لكى يكونوا أقدر على مواجهة الحياة السوية ـ مؤسسة تربوية قبل ان تكون مؤسسة تعليمية تلقينية .

ولعل الهدف الاول من عمليات التربية بين جدران هذه المنظمة يكون الاسهام فى عمليات التنشئة . وذلك بقصد صياغة كل عضو من أعضاء جمهورها أو جماهيرها فى قالب جديد يدرك عن طريقه قيمة الحياة الاجتماعية وقداستها حتى يكون قادرا على تفهمها وتقبلها بروح مرنة غير متجمدة وهو

فى ذلك يسعى الى الانسجام الاجتماعى بصورة طليقة .

أى ان دور المنظمة التربوية يكون أو يجب أن يكون الاسهام فى تكوين المواطن الصالح ، وفى استمراره ليكون صالحا . وذلك لان هذه المنظمة تضم جماعات بشرية كبيرة نسبيا ، ويكون جماهير التلاميذ والطلبة والطالبات بالضرورة أعضاء فيها . وهم كأعضاء فى هذه الجماعات يحاولون وهم يمارسون الحياة فى المنظمة أن يوفقوا بين تحقيق حاجاتهم الشخصية الاساسية وبين كسب ثقة هذه الجماعات وموافقتها ، حتى يتمتعوا بالحياة الطيبة الخالية من العنف الذى يولد الشعور بالعداوة التى تكفلها لهم المنظمة ويؤدوا فى الوقت نفسه لها وللمجتمع الكبير خارج المنظمة أحسن ما يستطيعون أداءه .

أما « المنظمة الدينية » فهى تمثل فى أغلب الاحيان « الكنيسة » أو « المسجد » ومايتصل بكل منهما من نشاطات . والملاحظ ان جماهير المنظمة الدينية أناس شتى ، منهم الاحداث ومنهم الفتيان والفتيات ومنهم الشباب ومنهم الرجال والنساء . وأدوار المنظمة الدينية فيما يتعلق بجماهيرها التعاون الاكيد مع اسـر الحى « الجيرة وجماهيرها » وان تسهم هذه الادوار فى التعاون مع جماهير « المنظمة التربوية » وفضلا عن ذلك فأنها تتعاون تعاونا وثيقا مع اجهزة الاعلام فى المجتمع ومن ثم تكون المنظمة الدينية مكانا صالحا للقادة الثقافيين الحقيقيين من اعضاء المناطق التى توجد فيها ، حيث تتاح لهم الفرصة ليتدارسوا المشاكل الثقافية والاجتماعية التى توجد فى كل منطقة توطئة لايجاد الحلول المواتية لمواجهتها . اى ان تكون المنظمة الدينية فضلا عن أنها مكان للعبادة مركزا اجتماعيا يقوم ، فى جد

وإخلاص مع جماهيرها ومن تتعاون معه من جماهير المجتمع ، بالاسهام فى عمليات التنمية الاجتماعية فى محيط المادة البشرية فى محيط هذه الجماهير ، وفى عمليات وقاية هذه المادة البشرية وفى عمليات علاجها على السواء .

« ومنظمة شغل اوقات الفراغ » كاحدى الجماعات الاجتماعية الاساسية جهاز اجتماعى يسهم مع الاسرة والجيرة والمنظمة التربوية والمنظمة الدينية فى تكوين المواطنين . ومن ثم فهى تكون ، بالضرورة مؤسسة تربوية قبل ان تكون مؤسسة رياضية ترويحية أو حتى ثقافية . والملاحظ ان هذه المنظمة تعتبر مجالا هاما لرعاية الشباب فى المجتمع فالشباب فى الاغلب الاعم هم جمهورها . والملاحظ ايضا ان رعاية الشباب فى كل مجتمع لها اتجاهات ولها أساليب تحقق هذه الاتجاهات . ولكى نقى من الانحرافات بأنواعها (ومنها بالضرورة الجريمة والجناح) فان هذه الاتجاهات يجب أن تؤكد الرعاية المتكاملة ، كما تؤكد الرعاية الشاملة ، اى تهتم بجميع الفئات ويكون اهتمامها بالقاعدة الشعبية أول الاهتمامات ، وان تؤكد هذه الاتجاهات ايضا على ان تكون الرعاية على أسس علمية سليمة ، والتى تهتم بالخدمات الانشائية (التنموية) والوقائية أكثر من اهتمامها بالخدمات العلاجية فى ضوء تخطيط علمى سليم . كل ذلك بقصد اعداد المواطن الصالح (حسب ماعرف من قبل) فى كل القطاعات وفى محيط كل الجماعات ، مع استمراره مواطنا صالحا .

. ولعل القارىء الكريم قد شعر بنفورى من الرياضة كهدف ، لأنها عندى مجرد وسيلة وعن طريقها يمكن ان تسهم تربويا فى تزويد الاغلبية الساحقة من اعضاء الشعب (لامجرد بعض الاعضاء) ليس فقط باللياقة البدنية بل ايضا بالاخلاق

القويمة التى تيسر لهم القدرة على التكيف الاجتماعى إزاء المواقف الاجتماعية التى يواجهونها حيثما يكونون ، والتى تيسر لهم ايضا القدرة على التفاعل الايجابى فى سبيل المصلحة العامة والخدمة العامة مسلحين بالقيم ذات الاهداف الايجابية التى تتفق مع ظروف المجتمع المصرى فى الوقت الراهن . (انظر : خامسا ، البند رقم ١٣ من الكتاب الحالى) (انظر أيضا : سيد عويس « الدراسة التى قدمتها للمؤتمر الذى عقد فى جمهورية ليبيا فى ١١ ـ ١٥ أكتوبر عام ١٩٧١ ، وموضوعها « دور الجمهور فى الوقاية من الجريمة والجناح ») .

وأرجو أن يلاحظ القارىء الكريم ان هذه الدراسة قد طلب منى اعدادها على أساس أن أذهب الى هذا المؤتمر لعرضها حتى يناقشها اعضاؤه ـ ولكن ادارة المركز القومى البحوث الاجتماعية والجنائية أبت علىّ الذهاب دون ذكر الاسباب .

١٦ ـ دور رجال الشرطة :

لايمكن الا أن أتذكر المغفور له « اللواء عبدالعزيز مفرح » فقد كان رجلا شرطيا يعرف واجباته فى العمل الشرطى الى الدرجة التى يضحي من أجل واجباته نحو أسرته . ذكر لى هذا الرجل ذات مرة وسمات وجهه تنم عن خليط من الأسى والاهتمام بالواجب أن ابنة له كانت فى غرفة العمليات تجرى لها عملية جراحية عندما استدعى لأداء واجبه الشرطى . فما كان منه إلا أن لبى نداء واجب عمله تاركا ابنته فى غرفة العمليات .

ربما كان من حظى ان اعلم ذلك منه شخصيا ، فقد كان

علمى هذا دافعا لى لأن اكتب هذه الدراسة اقصد « دور رجال الشرطة » التى تعنى فى حقيقة الامر الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة ومايجب ان تكون عليه . واننى لايمكن أن أدعى فى ضوء خبراتى ومعاملاتى معهم فى مواقع أعمالهم ، أن كل رجال الشرطة مخلصون فى أعمالهم العديدة (والخطيرة ايضا) التى هدف أهدافها الامن والأمان للملايين من المصـريين . فهناك بالضرورة آخرون لايفعلون ذلك تماما ، كما نجد فئة من الاطباء أو أساتذة الجامعة أو المدرسين أو رجال الاعلام والثقافة وغيرهم وغيرهم من اعضاء الصفوة فى البلاد ، من لايؤدون واجباتهم كما ينبغى ان تؤدى .

وأننى أرى ان الانسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو خلق تاريخى ، ويمكن فهمه بوضوح اذا عرفنا الادوار الاجتماعية المعترف بها والمندمجة فى ذاته . وهذه الادوار الاجتماعية محددة بحكم الانساق الاجتماعية التى حدث أن ولد وترعرع وصار بالغا فى كنفها . فذاكرته وفهمه لمعنى الوقت والمكان ، وادراكه الحسى ، والبواعث التى تدفعه ، وحتى الفكرة المجردة عن نفسه ووظائفها النفسية .. كل ذلك تشكلها وتوجهها ، فى نسق معين ، الادوار الاجتماعية التى استوعبها وتمثلها الانسان من مجتمعه .

وعلى هذا فكون الواحد منا له « شخصية اجتماعية » يعنى انه بحكم كونه عضوا فى جماعات تتكون له أدوار اجتماعية يؤديها . وعلى هذا يمكن القول ان الشخصية الاجتماعية لأى شخص فى مجتمع من المجتمعات هى مجموع الادوار الاجتماعية التى يؤديها هذا الشخص فى هذا المجتمع .

ورجل الشرطة هو شخص يعيش فى مجتمع . اى انه عضو فى جماعات وبحكم هذا الوضع الاجتماعى له ، تكون له أدوار اجتماعية يؤديها . وشخصيته الاجتماعية يحددها العدد الوفير لهذه الادوار الاجتماعية . فهو فى مجتمع كالمجتمع المصرى « رجل » وبحكم كونه عضوا فى عائلة يكون ابنا ، وقد يكون أخا أو عما أو خالا أو ابن عم أو ابن خال أو صهرا وقد يكون ربّا لاسرة فهو زوج وهو أب وفضلا عن كل ذلك هو مواطن وجار وهو ابن من أبناء مدينة معينة أو قرية معينة أو اقليم معين . وقد يكون عضوا فى ناد أو أكثر أو فى هيئة اجتماعية معينة أو هيئة ثقافية معينة . وهو فى الوقت نفسه رجل شرطة . وكونه رجل شرطة فهو يقوم بأداء أدوار اجتماعية متعددة . منها على سبيل المثال لا الحصر قيامه بمنع المجرمين من ارتكابهم جرائم أو مخالفات قانونية ، والقبض على من ارتكب منهم جرائم أو مخالفات قانونية ، والعثور على الأطفال الضالين ، وتنظيم المرور ومراقبة الاندية وصالات « الرقص » ومنع واطفاء الحرائق وتنفيذ لوائح الرفق بالحيوان وغيرها من الادوار الاجتماعية الهامة التى لايستطيع القيام بها غير رجل الشرطة .

ورجل الشرطة ككل انسان يعيش فى مجتمع انسانى يهمه جدا معرفة صورته عن نفسه والفكرة التى يكونها عن شخصه . واننى ارى ان تحقيق هذا الهدف هو عبارة عن عملية البحث عن النفس (أقصد الذات) ، وهى عملية يشترك فيها رجل الشرطة مع غيره من الناس . وينعكس عليه كيانها الاساسى من استحسان ونقد الاشخاص المحيطين به والذين يقيم لآرائهم وزنا .

ان مانظنه فى أنفسنا متأثر حتما بما يظنه غيرنا فينا . فابداء موافقتهم أو عدم موافقتهم على تصرفاتنا يرشدنا ويعلمنا كيفية أداء الادوار الاجتماعية المكلفين بأدائها او التى نأخذ على أنفسنا القيام بها . ونحن إذ نتأثر بآراء الناس ووجهات أنظارهم فينا وفى سلوكنا لانكسب فقط أدوارا اجتماعية جديدة ولكن نكسب بمرور الوقت صورة عن أنفسنا . ومن المسلم به أن هذه الصورة قد تكون انعكاسا حقيقيا او مشوها للنفس ذاتها . وعلى هذا فإن الناس الذين يسعى الشخص منها باستمرار إلى إرضائهم هم أناس لهم أهميتهم فى حياتنا ويتحكمون فى مصير أشخاصنا .

وكذلك رجل الشرطة يسعى باستمرار الى إرضاء من لهم أهميتهم فى حياته أو يتحكمون فى مصيره . وهؤلاء يكونون عادة رؤساءه . فرجل الشرطة الحديث العهد بوظيفته يحس بالغبطة من رضاء رئيسه عليه . واذا كانت كلمات الثناء التى يصف بها الرئيس سلوك رجل الشرطة الناشىء تهمه كثيرا ، فانه فى هذه الحالة يكون (أى رجل الشرطة الناشىء) تحت تأثير عملية توجيه نحو أدوار اجتماعية جديدة والى صورة جديدة لنفسه وتصبح القيم الرئيسية للرئيس بمرور الوقت قيما اخلاقية لرجل الشرطة الناشىء الذى سيقوم بتطبيقها لا على غيره من الناس فقط ، فى هذه الحالة الجمهور بل على اعماله الشخصية كذلك وقد قيل : « ان النفس مصنوعة من التقديرات المنعكسة من الناس الآخرين » .

والملاحظ أنه إذا كان الشخص الواحد يؤدى أدواراً اجتماعية مختلفة فان كل دور اجتماعى يكون جزءا من الانساق الاجتماعية المختلفة والمواقف الاجتماعية المختلفة التى يتحرك الشخص بينها . فنرى أن تصرف رجل الشرطة

مع زملائه يختلف عن تصرفه مع عملائه ، ويختلف عن تصرفه مع من هم أقل منه رتبة ، ويختلف عن تصرفه مع أبنائه في المنزل . ونجد أن تصرف الفتاة وهى فى حفل بين قريناتها يختلف عن تصرفها بين ذويها وهى على مائدة الطعام .

وحتى فرصة التعبير عن العواطف والاحساس بها تختلف باختلاف مراكز الناس الاجتماعية والطبقية . لأن التعبير عن العواطف الذى نتوقعه من الآخرين ويتوقعه الآخرون منا يكون أوصافا مميزة للكثير من الادوار الاجتماعية . فالتعبير عن العواطف بين أبناء وبنات طبقة الكادحين غيره بين أبناء وبنات الطبقة الوسطى ، وهو بين أبناء وبنات الفلاحين غيره بين ابناء وبنات البدويين وهو بين رجال الشرطة غيره بين الأغلبية الساحقة من عملائهم !

والادوار الاجتماعية التى يؤديها أعضاء المجتمع ويتوقعونها ، وماتسبب من صور الاعضاء عن أنفسهم ، وتأثير هذه الادوار الاجتماعية والصور النفسية على اعضاء المجتمع ـ كل ذلك راسخ فى نسق اجتماعى معين . وعلى هذا فان التعبيرات النفسية الداخلية ونظم الضبط الاجتماعى فى المجتمع مرتبطة بعضها ببعض .

واذا سلمنا بأن أى نسق اجتماعى هو عبارة عن منظمة مكونة من أدوار اجتماعية ، ويعنى هذا أن الادوار الاجتماعية تحمل في ثناياها درجات متفاوتة من السلطة نجد أن الادوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة وهى احدى وظائف الضبط الاجتماعى تحمل فى ثناياها درجة كبيرة من السلطة يجب أن يفهمها ويقبلها باقى أعضاء الادوار الاجتماعية الأخرى كضمان للدوام النسبى الخاص بالنماذج السلوكية الكلية للنسق الاجتماعى .

وانني ارى أن مهمة تفهيم باقى اعضاء الادوار الاجتماعية الأخرى فى أى نسق اجتماع للأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة ، بل بشخصية رجل الشرطة الاجتماعية المتكاملة وماتحمل فى ثناياها من سلطة ضرورية تقع على عانق رجال الشرطة أنفسهم . ومجرد التفهيم هو خطوة هامة بل ضرورة اجتماعية ، ولكن المهم ان تكون عملية التفهيم هذه بقصد تقبل باقى اعضاء الادوار الاجتماعية لها .

وتلعب الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة في أى نسق اجتماعي دورا هاما فى الحياة النفسية للأعضاء الآخرين فى النسق الاجتماعى . فرجل الشرطة فى مجتمع كالمجتمع المصرى وخاصة في المناطق الريفية يجب أن يكون بمثابة الرئيس فى جماعة . فما يظنه الرئيس باعضاء جماعته ، كل فى دوره الاجتماعى الخاص ، أو حتى مايتصورون ظنه بهم ، يعتبر جزءا منهم . وشخصية رجل الشرطة الاجتماعية يجب ان تكون لها ما للشخصية الاجتماعية للأب « الرئيس » فى الاسرة يتطلع عادة إليه كنموذج ولايخفى ما لنظرة الاب الى « طفله » من الأهمية وتتوقف على هذه النظرة نظرة الطفل الى أبيه والى سلوكه وربما الى نفس الطفل ذاتها . فباتخاذ هذه النظرة يبنى الطفل « آخر » فى كيان ذاته . وادراكه لنظرة هذا نحوه شرط لنظرته نحو نفسه . وللاشخاص « الآخرين » فى أدوارهم الاجتماعية الأخرى نظرات معينة إلى الطفل ويحتمل أن تكون كل من هذه النظرات جزءا منه ، وتكون فى النهاية أجزاء من صورته عن نفسه . ولكن نظرة الرئيس فى النسق الاجتماعى الذى فيه تؤدى دورا اجتماعيا هى نظرة حاسمة في نضجنا الاجتماعى .. فان قال « هذا فعل محمود » فاننا

نشعر بالامن والطمأنينة فيما نفعل وفيما نتصوره لانفسنا . ويصبح الرئيس اذا ماقدرت نظرته الى نفس العضو حق قدرها « آخر خاص » وليس معنى هذا أنه ينظر اليه على انه شخص آخر ، بل هو رمز ولسان حال النسق الاجتماعي بأسره فهو البؤرة التى تجمع فيها النظرات النهائية لادوارنا الاجتماعية الرئيسية ولأنفسنا فى نطاق النسق الاجتماعى فهو يحمل هذه النظرات جميعا . وعندما نعتنق هذه النظرات ويتبع ذلك مايتوقعه الآخرون منا ومانتوقعه نحن من الآخرين فاننا بذلك نتحكم باسم هذه النظرات فى أمر سلوك النسق الاجتماعى ، وهكذا عن طريق جعل هؤلاء « الآخرين » جزءا منا يصبح سلوكنا وأداء أدوارنا الاجتماعية فى حدود النسق الاجتماعى محكوما حكما ذاتيا . (انظر : سيد عويس : الدراسة التى نشرت فى مجلة البوليس وموضوعها « الشخصية الاجتماعية لرجل البوليس » عام ١٩٥٧ ، صفحات : ٣٨ ـ ٤١) .

ولعله اذا تضمنت الدراسة الراهنة موضوع « السلطة » التي يتمتع بها رجل الشرطة وهو يؤدى ادواره الاجتماعية المتعلقة بوظيفته التى هى احدى وظائف الضبط الاجتماعى ، ارجو أن يتذكر القارىء الكريم الشعار القائل : « من الذى يستطيع أن يسيطر على رجال الشرطة » (Who can POLice the police) فرجال الشرطة وبخاصة فى المجتمع المصــرى هم حكام هذا المجتمع الحقيقيون ، وهم يعلمون ذلك ويعرفونه حق المعرفة . كما أرجو القارىء الكريم ، ايضا ، ان يتذكر بعض ماتضمنه تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية الذى نشر فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ عن حالة « الشقى » محمود امين سليمان الذى اشتهر فى محيط

أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين باسم « السفاح » (انظر ثالثا « أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف ، بند رقم ٦ من الكتاب الحالى) .

وقد تعمدت الدراسة المشار اليها ان اذكر بعض جهود رجال الشرطة المصريين وهم يؤدون وجباتهم ويتفرغون لهذا الاداء ، لكى أبين للقارىء الكريم بعض ماتعكسه هذه الجهود على الشخصية الاجتماعية لرجال الشرطة فضلا عن أهمية تعاون أعضاء الجمهور معهم حتى يسود الامن والامان فى المجتمع المصرى الذى ولدوا فيه ويعيشون .

وأود أن أؤكد للقارىء الكريم ماسبق أن ذكرته وأذكره دائما حتى كتابة هذه السطور ، من حيث ان رجل الشرطة كانسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو « خلق تاريخى » اى انه يأخذ من المجتمع ويعطى مايأخذه الى المجتمع الذى فى ضوء سلطته وسلطانه قد يتحكم فى أعضاء هذا المجتمع كأحد موظفى الضبط الاجتماعى فيه .

وهذا التحكم فى ضوء ظروف المجتمع اى مجتمع سواء كانت ظروفا اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية قد يكون ظالما قاسيا وعنيفا فى بعض الاحيان ، وقد يكون عادلا انسانيا مسالما فى أحيان أخرى . والمعروف ان المجتمع المصرى فى ضوء تاريخه الطويل وخصوصا فى مراحل استعماره الطويلة الطويلة ، لايعتبر رجل الشرطة صديقا فى معظم الاحوال . وانا لا ألقى الكلام على عواهنه ، ففى ضوء خبراتى فى التدريس لكبار رجال الشرطة وصغارهم كنت أسأل سؤالا فى أول حصة أحضرها عن العدو اللدود لرجل الشرطة فيكون الجواب عن هذا السؤال فى كل مرة : انه المتهم : وان وسيلتى « المنع والقمع » اللتين يستخدمهما

عادة أو فى بعض الاحيان تؤكد ان هذا الشعور بالعداوة وبخاصة عند استجواب المتهم وقبل ذلك لان اكبر مايهتم به رجل الشرطة هو ان. تتحول التهمة إلى ادانة .

والملاحظ ان ردود الفعل عند اعضاء المجتمع المصرى المتهمين ومن يلوذ بهم ردود تشع ، بالحق أو بالباطل الكراهية لرجل الشرطة المصرى ويضرب بها الامثال . وربما يرجع ذلك الى ان مايراه رجل الشرطة « باطلا » يرونه « حقا » وان مايرونه « حقا » يراه رجل الشرطة « باطلا » ففى ضوء المنهج العلمى « لاشىء مطلق » وحتى فى الحياة التى يحياها الناس نجد ظاهرة الازدواجية الثقافية سائدة فى كل المجتمعات وان تباينت عواملها ، باسم الدستور وباسم القانون ؛ وباسم الوطنية (كما ذكرت ذلك من قبل أنظر : خامسا ، الوعى باستغلال الوطنية فى سبيل تحقيق مصالح تجار الحروب : بند رقم ١٤ من الكتاب الحالى).

الخـــاتمــة

أود أن أعترف للقارىء الكريم بأننى مجرد شخص مصرى يحب أن يحيا الناس فى ربوع مصر بل فى ربوع العالم قاطبة حياة السلام . واعترف اعترافا لا لبس فيه ولا ابهام بأننى لست اهلا ، فى ضوء كتابة الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى ، الا أن أدعو الى سيادة الخير فى محيط بني البشر . اى الا أن أدعو إلى السلام العادل وان انفر من العنف والظلم والاستبداد والاستعباد .

واذا كان هذا هدفا أو أهم أهداف الكتاب الحالى ، فاننى لايمكن ان أدعى اننى « رسول » أو « نبى » أو « فيلسوف » ولكنى اظن ان من حقى أن لا أعيش فى رهبة مستمرة لانتشار الاسلحة النووية التى تملأ « ترسانات» الدول الغربية والشرقية وخاصة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية وتتملكنى الرهبة ايضا اذا نظرت الى مناطق المعمورة حيث توجد الدول التى تنظر إلى بعضها البعض كأعداء محتلين ولاتدعم رسميا عدم انتشار الاسلحة (بلدان شرق آسيا وبخاصة الصراع بين الهند والباكستان مثلا) وتتملكنى الرهبة كذلك إذ أجد كما يجد غيرى ادخال الصواريخ المتطورة فى حرب الخليج ، ومايرى كل ذي بصيرة ، بالفعل بوادر سباق التسليح الخطير الذى قد يعرض للخطر بلدانا بعيدة جدا عن منطقة الخليج .

وفضلا عن كل ذلك ، فأننا نلاحظ استخدام الاسلحة الكيميائية فى خلال السنوات الاخيرة الأمر الذى يشكل انتهاكا لاتفاقية جنيف لعام ١٩٢٥ . كما نلاحظ ان الدول النامية استوردت فى خلال الفترة من عام ١٩٧٧ الى عام ١٩٨١ أسلحة قيمتها حوالى ١٢٨ مليار دولار أمريكى وان البعض ذكر ان هذا الرقم سوف يرتفع فى السنوات الخمس التالية التى انتهت فى عام ١٩٨٦ الى ١٨٠ مليار دولار امريكى بزيادة قدرها ٤٠ ٪ .

ونجد فى ضوء الواقع المر أن البلاد الصناعية أو المتقدمة هى أكبر مصدر للسلاح بأنواعه الى البلاد النامية وغيرها وحتى التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى .

واذا كنت لا أدعى اننى « رسول » أو « نبى » أو « فيلسوف » فاننى لا أدعى أيضا أننى أدعو الى « يوتوبيا » ذات أيديولوجية معينة . ومع ذلك فأننى أدعى بحق اننى واحد من ابناء مصر دون ماتعال أو غرور هؤلاء الابناء الذين يعيشون فى أواخر القرن العشرين حيث توجد الظروف التى أوضحتها من قبل ، وينظرون بلهفة الى القرن الواحد والعشرين وما سيأتى به من معجزات قد تمهد لألوان العنف والظلم والاستبداد والأستعباد أو قد تحد من هذا العنف حتى لايتفشى وتيسر فى ضوء ماوصلت إليه البلاد الصناعية مايعين على سيادة السلام العادل والحياة السوية . وذلك لاننى أرى انه لاشىء مطلق ؛ وان مايصل اليه العلماء على اختلاف مشاربهم فى أثناء الحروب يفيد حتما البشر فى مراحل السلام وقد تكون رؤيتى هذه وهما ولكنى أجد نفسى مع المتفائلين من بنى البشر . وذلك لاننى أنظر بفرح انسانى الى التجارب الانسانية التى نحس بها ونراها بأعيننا فى علوم الفيزياء والكيمياء وفى مجالات الطب والهندسة الوراثية

والتحكم فى الظاهرة الفلكية والتطبيقات العلمية التى توفر عناء الانسان وتقرب المسافات والتى تنمى ذاكرة الانسان وتفكر من أجله (الكمبيوتر المفكر مثلا) .. الخ .

واذا كنت احد ابناء مصرنا الخالدة ، التى صنعت الحضارة الانسانية الاولى ، والتى ادركت منذ الماضى السحيق ان الحياة تمنح للمسالم (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة) والتى عرف مفكروها القدامى ان « المسالم » هو الذى يفعل ماهو « محبوب » وأن المجرم هو الذى يفعل ماهو « مكروه » وان كل ماهو محبوب « ممدوح » وكل ماهو مذموم « مكروه » ومن ثم استطاع الانسان المصرى منذ الماضى السحيق ، التمييز بين « الخلق الحسن » و « الخلق السيىء » ثم بين قيمة « الحق » التى يكون هدفها حميدا وقيمة « الباطل » التى يكون هدفها ايضا حميدا ـ فاننى فى ضوء خبراتى المحدودة أجدنى منساقا لكى ادعو دعوة السلام العادل وارجو أن لايدهش القارىء الكريم اذ أقول ان أهداف كل من قيمة الحق وقيمة الباطل يجب ان تكون بالضرورة حميدة . فالملاحظ ان من يرى الحق لايراه حقا على وجه الاطلاق فقد تكون قيمة الباطل حقا عند بعض الناس وقد تكون قيمة الحق باطلا عند آخرين فأنا أرى وقد ذكرت ذلك فى بعض البحوث والدراسات العلمية التى أجريتها أو قمت بالاشراف على اجرائها المنشورة منها وغير المنشورة . وإننى اكرره الآن وارجو ان لا يمل القارىء الكريم هذا التكرار .

ومصرنا الخالدة ، كما يعلم القارىء الكريم ، فى ضوء مراحل تاريخها الطويل الطويل هى مهد العقائد بأنواعها ، وهى ايضا مهد الاديان السماوية . ومن قبل كانت جامعة

الجامعات التى عب العلم المقدس فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن نقلوا المناهج المتعددة لهذا العلم إلى الدنيا بأسرها على الرغم من مكابرة المبطلين والمزيفين .

وارجو أن يلاحظ القارىء الكريم ماتجاسرت وأطلقت عليه « متصل السلوك العدوانى » (انظر : ثانيا دراسة عن السلوك الانسانى بند رقم ٣ فى الكتاب الحالى) . ان هذا المتصل كما ذكرت ، هو احد مفاهيم « علم الاجتماع الحضرى » وقد شرحت هذا المفهوم فى مكانه المناسب فى الكتاب الحالى ، واذا كنت قد استعرته كيما أطبقه على « السلوك العدوانى » فاننى رغبت فى شرح تدرج هذا السلوك فى محيط البشر ، أقصد السلوك العدوانى . ولعل ذلك ان يكون أمرا جديدا لم يفعله أحد من قبل ورجائى الحار أن يتقبله القارىء المدقق فى سهولة ويسر واذا عنّ له أن يرفع لواء النقد فحبا وكرامة . وذلك لأننى إذ فعلت مافعلت لا أقصد سوى الاجتهاد فى هذا المجال وأرجو أن أكون قد وفقت .

ولعل ماكتبته فى صدر هذه الخاتمة يؤكد على أن « منظمة الامم المتحدة » وبخاصة « مجلس الامن » لم يؤديا واجبهما الاداء الكامل وذلك بمكافحة العنف الانسانى والعمل على نشر السلام ، وتقارير « لجنة لحقوق الانسان » وتقارير « منظمة العفو الدولية » شاهدة على ذلك . ويبدو لى أن الخير والشر فى حياتنا البشرية باقيان وتجدهما فى صراع دائم . وقد ينتصر الخير احيانا وقد ينتصر الشر احيانا أخرى . ان كل ما نرجوه هو أن نحيا حياة مطمئنة وان يسود السلام فى كيان البشر .

واننى اعترف للقارىء الكريم بأننى لا أملك صيغة تحقق هذا الهدف الكبير أو حتى تحد من أضرار العنف وشروره غير

الانسانية فانا لا أدعي بانني « غاندى » أو « جيفارا » أنني فى ضوء مهمتي أعرض افكارى للسادة المنفذين كل فى موقعه . صحيح ان التاريخ قد سجل المهام الرائعة التى حققها « المهاتما غاندي » كما سجل المثل العليا التى ضحى من أجلها « جيفارا » ولكن التاريخ قد سجل أيضا سطورا تبدو ناصعة لكل من « نابليون بونابرت » و « ادولف هتلر » وهما كما يعلم القارىء كانا المحرضين لاستعمال ادوات الدمار فى الحروب التى اندلعت وقتل فيها الملايين من الخلق محاربين كانوا أو غير محاربين من الرجال والنساء والشباب والاطفال . وقد اصبح الجميع مجرد ذكرى وبمرور الزمن وضعوا فى كفة واحدة فى تقدير شعوبهم وربما فى تقدير غير شعوبهم فى الوقت الراهن .

وانني اذ قلت ان مهمتى هى مجرد عرض أفكارى وبخاصة ماتضمنتها دراسات الكتاب الحالى ، اعترف وانا لا أتواضع بأننى فى ضوء خبراتى المحدودة ، مجرد " ياء » المفكرين المصريين الحاليين .

لقد تضمن الكتاب الحالى : « لا » للعنف و « نعم » للسلام : دراسة علمية فى تكوين الضمير الانسانى » موضوعات شتى ويخرج منها القارىء المتشائم بأن « القوة هى الحق » وليس « الحق هو القوة » وقد تعمدت ان تبين هذه الموضوعات الشعور بالعدواة الذى هو وليد « العنف والظلم والقسوة والاستبداد » كما تبين الشعور بالامن والامان والاستقرار النفسى التى هى وليدة « السلام » وأكدت على ان السلام بألوانه يجب ان يسود فهو ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا . واننى وقد انتهيت من كتابة هذه الموضوعات أسائل نفسى وقد قلت اننى لا أملك « صيغة » لمواجهة العنف

الانسانى بالوانه واشكاله وانني اعرض افكارى للسادة المنفذين ، رموز السلطة والسلطان فى المجتمع ، كل فى موقعه ، وانني مجرد « ياء » المفكرين المصريين الحاليين - اسائل نفسى هل أنا واهم ؟ أو أنا جبان ؟ أو أنا عاجز عن افعل شيئا لتحقيق هدف اهداف الكتاب الذى كتبته عن وعى بقلمى . وكانت الاجابة عن هذه الاسئلة بالنفى . وذلك لان الذى يقوم بالتغيير هم شباب مصرنا الخالدة .

فالملاحظ أننى اكتب للشباب المصرى العربى دائما . فهم العدة والعتاد والحاضر حاضرهم ، والمستقبل مستقبلهم ، وهم صرعى الحروب وقتلاها ، وهم آباء وامهات المستقبل القريب أو البعيد ! وهم فضلا عن ذلك ، الذين قد خدعوا فى الماضى القريب فاعطوا المكانات الاجتماعية الرفيعة دون ضرورة بقصد درء ماقد يصدر عنهم من آثار القلق المرضى من أجل مصالح حفنة من المنفذين اصحاب السلطة والسلطان (رموز السلطة والسلطان) فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

وقد تضمن الكتاب الحالى على وجه الخصوص الصراعات الفكرية ، ومانتج عنها من عنف وقتل وتدمير . لقد اهتممت بالصراعات الفكرية التى حدثت فى وجود « الامام ابو حنيفة ابن النعمان » و « الامام مالك بن أنس » و « الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى » و « الامام احمد بن حنبل » ويبدو أن هذا الموضوع قد أخذ بلبى لما حدث فى ثناياه من صراع ليس فقط بين مفكرين ومفكرين ، ولكن بين المفكرين واصحاب السلطة والسلطان - صحيح لقد شاهدت وقرأت النقد اللاذع بين المفكرين والكتاب المصريين فى العشرينيات ومابعدها من القرن الحالى . ولكن كان هناك من صارعوا السلطة وصرعوها احيانا وصرعتهم احيانا أخرى .

ومن هؤلاء اذكر الامام محمد عبده وعبدالله النديم ومحمد فريد والقاياتى وسعد زغلول وصحبه وطه حسين وسلامة موسى واحمد لطفى السيد وعبدالرزاق السنهورى وعلى عبدالرازق ومصطفى لطفى المنفلوطي وعباس العقاد، والشيخ حسن البنا وبيرم التونسى وغيرهم وغيرهم .

وارجو ان يلاحظ القارىء الكريم ان بعض من ذكرت قد حكم عليه بالنفى أوالسجن أو النقل الى وظيفة غير الوظيفة التى أؤهل لها وكان يشغلها أو سحبت منه الشهادة العالمية أو ضرب وأهين أو الذى اضطر لكى يعيش فى المنفى وعاد إلى أرض الوطن أو توفاه الله فى منفاه أو من نجح التدبير لقتله .

وصحيح ايضا اننى شاهدت وقرأت المذكرة التى قدمها نخبة من المفكرين والكتاب المصريين وعلى رأسهم « توفيق الحكيم » الى « محمد انور السادات » الذى كان يتربع على كرسى الرئاسة ويقول عن نفسه انه « وجمال عبدالناصر » آخر الفراعنة ! ثم كيف انتقم من بعض هؤلاء المفكرين والكتاب وغيرهم بعد ذلك واعتقلهم ولم يفرج عنهم الا بعد أن صرعه أعضاء « تنظيم الجهاد » فى يوم ٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٨١ .

ويبدو لى وهذا مجرد رأى يلاحظه القارىء المدقق لدراسات هذا الكتاب ان الغنى الفاحش والفقر المدقع لايمكن

والانحرافات الدينية والانحرافات الاجتماعية واقصد بمفهوم الانحرافات هنا مفهوم « التطرف » والتطرف الاجتماعى نجده

ان يكونا علي وئام أو يؤكدان السلام فالملاحظ ان الغنى الفاحش وبخاصة اذا كان غنى غير مشروع (من تجارة المخدرات بأنواعها أو الاتجار فى الاعراض مثلا) وظاهرة البطالة وبخاصة في محيط القادرين من اعضاء المجتمع لها علاقة متينة بظاهرة الشعور بالعداوة . وظاهرة الشعور بالعداوة تعنى ردود افعال اهمها الانحرافات السياسية

واضحا فى محيط الحصول على عمل فنجد الوانا من الجرائم المنظورة وغير المنظورة ترتكب في سبيل تحقيق هذا الهدف ... وكل قارىء لاية جريدة أو مجلة يجد ذلك مؤكدا .

كما يبدو لي كذلك ان التفرقة اللاإنسانية ، فى ضوء خبراتى الواقعية التى عشتها فى مجتمع الولايات المتحدة مصدرها ان لم يكن من أهم عواملها المستوى المنخفض الذى يعيش فى ظله زنوج الولايات المتحدة وقد سجلت هذه الخبرات في الكتاب الحالى (انظر رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض انماط العنف بند رقم ٨) ولعل ذلك أيضا يوجد فى محيط زنوج جنوب افريقيا . علما بأن زنوج الولايات المتحدة الامريكية يمثلون اقلية فى المجتمع وان زنوج جنوب افريقيا يمثلون الاغلبية فى مجتمع جنوب افريقيا .

والعمل من أجل السلام له نصيب فى الكتاب الحالى (انظر : خامسا بنود ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦) وقد تعمدت ان اذكر دور القادة الثقافيين . واقصد بهم المفكرين حملة الاقلام والفنانين والموسيقيين وذلك لاننى أرى أن أدوار هؤلاء جميعا هامة فى اى مجتمع انسانى فهم فى الأغلب

الاعم أقرب الى الوصول إلى الحق ان كانوا صادقين اى إنهم يعكسون واقع حياة الناس ويرنون الى مايجب ان يكون عليه مستقبلهم المشرق . فهم بصدقهم يغرسون فى نفوسهم الحب والخير والجمال وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر اعتقد ان تحقيق كل ذلك أمر ضرورى ولاينكره إلا معتوه .

ولذلك خصصت بندا سميته « غرس القيم ذات الاهداف الحميدة فى نفوس المواطنين » ولن يغرس هذه القيم الا القادة الثقافيون الواعون الصادقون غير المتلونين .

أما البند الذى يلى ذلك فهو يتعلق باستغلال الناس المحاربين وغير المحاربين باسم الوطنية أى يتعلق بتجار الحروب والذين لاهم لهم الا أن يربحوا بالضرورة ويزيدوا من أرباحهم بكل انواع الاساليب غير المشروعة . وهؤلاء التجار ليسوا بالضرورة ان يكونوا أفرادا ، بل هم الدول التى يعتنق حكامها وساستها الذين يؤمنون بأن « القوة حق » فتراهم يستعبدون الشعوب الضعيفة المستضعفة بقوتهم ، أقصد عدتهم وعتادهم واختراعاتهم التى تشيع العنف والدمار لكى يفرضوا تبعية الشعوب كل الشعوب لهم . ويبقى أمامهم فرض المذلة عليهم فهم الاقوى والأغنى ، والآخرون هم الأضعف والأفقر . ولن أنسى ماحييت الشعار الذى ملأ آفاق مجتمع الولايات المتحدة الامريكية يوما من الايام الذى يقول : « كل مايفيد شركة (چنرال موتورز) يفيد أميريكا » وليس كما يجب ان يكون العكس وذلك لأن اصحاب هذه الشركة وغيرها هم اصحاب المصالح الحقيقيين الذين يقفون من وراء الساسة والحكام ، وكأن الاخيرين مجرد خيالات مآته فى هذا المجتمع أو ذاك . ونحن نلاحظ فى الوقت الحاضر ظاهرة وجود الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وفروعها عبر القارات .

وفى ضوء مراحل التاريخ البشرى نجد ان الاستعمار يتبع رؤوس الاموال . والاستعمار يعنى العنف ولايمكن ان يعنى السلام .

ويبقى بندان آخران وهما بند ١٥ وبند ١٦ . والبند الاول يهتم بدور الجماهير ، اما البند الثانى فيتعلق بدور رجال الشرطة وقد تعمدت ان اتحدث عن دور الجماهير قبل ان أتحدث عن دور رجال الشرطة . وذلك لان الجماهير الواعين اى الذين يحرصون على اخذ حقوقهم ويحرصون على اداء واجباتهم هم صمام الامان فى مجتمع كالمجتمع المصرى ذى التاريخ القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة . ويؤكد ذلك أن الشعب المصرى على الرغم مما بذل وضحى وعانى ، نجح فى ابقاء خريطة مصرنا الخالدة على خريطة الحياة ولن يتأتى ذلك إلا اذا عاشت هذه الجماهير الاساليب الديمقراطية بأنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو علمية . لقد رأينا فى ثنايا دراسات الكتاب الحالى كيف يهدر حكم الفرد آدمية الانسان ، وكيف يشيع ضروب العنف والفوضى . وكيف يقف حائلا بين اعضاء المجتمع وبين ازدهارهم وتحقيق نضجهم السياسى والاجتماعى والعلمى .

والقارىء الكريم المتتبع لبحوثى ودراساتى التى أجريتها أو اشرفت عليها المنشور منها بخاصة يتجلى له هذا الرأى الذى لا يمكن أن أحيد عنه وبخاصة فى ضوء ظروف المجتمع المصرى الراهنة اننى إذ أدعو لا أدعو الى الحرية المطلقة ولكنى أدعو الى التربية التى تيسر للانسان المصرى ان يثق فى نفسه ويحترم ذاته ويعرف حقوقه وواجباته ويؤديها عن طواعية وأن يكون واعيا بالأمور التى تدور من حوله وان يسمع الاحاديث أو الخطب من رموز المجتمع على اختلاف مواقعهم من السلطة والسلطان فيصدقها لان مضمون هذه الاحاديث

وهذه الخطب ينفذ فعلا ولايضيع فى الهواء سواء صدر هذا المضمون عن طريق أجهزة الاعلام بأنواعها أو صدر فى جلسات خاصة أو فى جلسات عامة . ان ظروف المجتمع المصرى تنفر حتما من المثقفين المصريين (بالمعنى العام) الذين لديهم القدرة على التكيف فى كل عصر وأوان . اقصد الذين يتلونون كالحرباء فى سبيل تحقيق مصالحهم التى تنتهى حتما بمرور الوقت الى زوال .

وفى بند ١٦ وهو البند الاخير من دراسات هذا الكتاب تحدثت عن « رجال الشرطة » واننى أرى ان رجال الشرطة هم فى حقيقة الأمر الحكام الحقيقيون فى مجتمعنا واننى أقول مجتمعنا وذلك فى ضوء تجاربى وخبراتى معهم وبخاصة فى قاعات المحاضرات أو فى الاشتراك فى القيام ببعض البحوث والدراسات مثل جرائم المخدرات وجرائم الاحداث أو جرائم السرقة عن طريق اسلوب النشل أو جرائم المرور .. الخ . ومن ثم فان واجباتهم كبيرة بل هى أيضا خطيرة .

ومع ذلك فاننا نجد أنهم بشر يخطئون ويتجنبهم الصواب أحيانا سواء كانوا يعملون فى المطافى وفى السجون وفى الاقسام أو فى طرقات المدن أو فى غيرها . واننى مع ذلك ألتمس لهم الاعذار أحيانا . وذلك لأنهم من الفئات اللامعة اجتماعيا ، فى أيديهم السلطة هذا صحيح ، ولكن أعضاء الفئات الأخرى الذين على شاكلتهم ليسوا ملائكة . أى أنهم يرتكبون الاخطاء ضد المواطنين أيضا . وقد ينبذونهم فى الكثير من الاحيان فينشروا الذعر والهلع فى نفوس الآمنين باسم الوطنية أو باسم أمن الدولة وأمانها نجد ذلك فى محيط الذين تكون مواقع أعمالهم « المخابرات » أو « المباحث » ونجد المجنى عليهم وهم مظلومون حقا ، كما ذكرت من قبل رهن السجون والاعتقالات والملاحظ أن المجنى عليهم هؤلاء

ليسوا فقط من سجنوا أو اعتقلوا وانما يضاف إليهم ذووهم المقربون من الآباء والامهات والابناء وربما بعض الاصدقاء أو بعض الجيران .

واذا كنت قد ذكرت أن واجبات رجال الشرطة فى معظم الحالات خطيرة لأنهم يواجهون الاخطار الجسيمة فى معظم الاحيان ، فأننا يجب ان نعترف بأن رجال الشرطة على اختلاف رتبهم هم من أعضاء الشعب المعاصر . اى انهم يتأثرون بالضرورة بالعناصر الثقافية المادية وغير المادية التى توجد فى مناخ هذا المجتمع إنهم عندى مثل المجرمين تماما . اى انه اذا كانت لديهم الاستعدادات للقيام باعمال القمع والمنع فأن ذلك يرجع الى الظروف الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية التى عاشوا فى كنفها . كلنا لدينا الاستعداد لارتكاب الجرائم العنيفة وغير العنيفة جميعا ، ولكن البعض منا وبخاصة الذين عوملوا فى بيئتهم الصغيرة (الاسرة) أو فى بيئتهم الكبيرة (المجتمع) باساليب التربية السوية قد ينفرون من ارتكاب الجرائم أيا كان نوعها .

وقد ذكرت فى البند المشار اليه فى مضمونه مالى وما لرجال الشرطة وماعليهم فى صراحة وفى صدق . ذكرت ماحدث لاحد اللواءات عندما ترك ابنته فى المستشفى لاجراء عملية لها من اجل تلبية واجباته الشرطية واذكر الآن أحدهم وكانت رتبته رتبة « الرائد » ويشغل وظيفة « كاتم اسرار وزارة الداخلية » التى يشغلها عادة شرطى تكون رتبته « اللواء » كان يجلس هذا الرائد وبجواره تليفونات عديدة تتصل بكل اركان الجمهورية . كان الكرسى الذى يجلس عليه وثيرا وكانت الغرفة التى يحتلها واسعة ومؤثثة بافخر الاثاث ، وكنت أجلس بجواره كى اترجم له خطابا من اللغة الانجليزية الى

اللغة العربية ، فيجيء اللواءات والعمداء تلو اللواءات والعمداء ويحيونه « التحية العسكرية » وهو جالس على كرسيه لايتحرك . كان هؤلاء اللواءات والعمداء يدخلون عليه نفاقا أحيانا أو كانوا يطلبون منه مطالب خاصة إحيانا أخرى وكانت المطالب الاخيرة تحدث عادة ، فى أثناء وضع حركة التنقلات أو حركة الترقيات الى مناصب أعلى . كان هذا الرائد يحس وكأنه ملء السمع والبصر وكان يجد الاحترام والتقدير المزيفين فى كل مكان وكان يجالس الوزراء والكبراء فى عهده الذى كان . وتراه عضوا فى لجان عديدة ليس لأن لديه مايفيد مايعرض عليها من موضوعات ولكن لانه « كاتم اسرار وزارة الداخلية » .

وكنت اسافر فى مؤتمر من المؤتمرات خارج الجمهورية فى صحبة عدد من رجال الشرطة ورجال القضاء والمتخصصين فى علوم الاجرام والنفس . كنا ندخل المطار فلا تفتح حقائبنا سواء كان ذلك ونحن فى طريقنا الى المؤتمر أو فى أثناء عودتنا « بالسلامة » من هذا المؤتمر . كان المسئولون لايرون داعيا إلى فعل ذلك أى الى أداء واجباتهم مادمنا فى صحبة عدد من رجال الشرطة بل كنت أجد من يرفع يديه بالتحية لهؤلاء الرجال .

انهم كما ذكرت آنفا من الفئات اللامعة اجتماعيا فى المجتمع المصرى . وبحكم وظائفهم ومستوى رتبهم يعتبرهم العديد من اعضاء هذا المجتمع « الشومة » المسلطة على أعناقهم من أجل تحقيق مصالح أصحاب السلطة والسلطان .

ومع كل ماذكرت انظر الى الواحد منهم بعد أن يحال الى « المعاش » أو الى « الاستيداع » نجد ان هيلمانه ، الذى كان يسقط « كجلمود صخر حطه السيل من على » وأنا لا أبالغ

المهربين والتجار والموزعين . ولكننا لكى نقضى على هؤلاء جميعا فانه يجب أن نبحث عن عوامل الطلب أو خلق هذا الطلب ، على المخدرات بانواعها ان هذه العوامل ستكون بالضرورة عديدة . ولكننا يجب التعرف عليها موضوعيا . وذلك لانه اذا لم يوجد طلب لايوجد عرض . والطلب على المخدرات فى رأيى يرجع الى الظروف التى يحياها أعضاء المجتمع المستهلكين لهذه الآفات .

وأرجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذا استعرت زجل « بيرم التونسى » عن رجال الشرطة الذين كان يسميهم « العساكر » إذ يقول :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلتين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عنيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
ايه الحكاية يابيه ؟ جال خالفت الجوانين
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين ؟
يمزعوا الجيوب ويفتحوا الدكاكين
أسأل وزير الشئون ولا اكلم مين ؟

ومهما يكن من الامر فأننى لم أحاول فى هذه الخاتمة أن ألخص مضمون دراسات الكتاب الحالى . ولكن رأيت أن اختار عينة منها فتحا لشهية القراء الكرام لكى يقرءوا هذا المضمون في تؤده وفى روية . ولعل ذلك يثير فى نفوس هؤلاء القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات وذلك لإن هدفا اهداف هذا الكتاب ان يجعل هؤلاء القراء الكرام يفكرون معى لا من أجل القضاء على العنف الانسانى قضاء مبرما ولكن للحد من هذا العنف حتى يتغلب السلام عليه لا لكى يسود

على وجه الاطلاق ولكن لكي يسود تسبيا . وهذا الرأى لايعنى أبدا عدم قدرة الانسانية على التغلب على العنف الانسانى على وجه الاطلاق ولكننى أبديه فى ضوء الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الايام . ومع ذلك فاننى جد متفائل فى المستقبل أقصد مستقبل الانسانية . واذا كان القارىء الكريم متفائلا مثلى على الرغم من كبر سنى فاننى ارى كما كان يرى المغفور له الاستاذ الكبير احمد امين عندما كان يحاضرنا فى معسكر « جماعة الرواد » فى منتصف الاربعينيات من هذا القرن بأن الحاجة ماسة الى خلق « حكومة عالمية » تضم شتات البلدان على المعمورة التى هى فى واقع الامر مجرد قرية صغيرة . كنا فى مدينة الاسكندرية فى ذلك الحين وكان المغفور له استاذنا الكبير يدعو هذه الدعوة وكان الحماس يملأ كيانه وكنا نحن الحاضرين المستمعين لمحاضرته نأمل فى ذلك ، وفى ضوء الظروف الانسانية القائمة مازال الأمل يداعبنا ! ولعل ذلك ان يرجع الى ماكتبه المغفور له « الاستاذ سلامة موسى » فى كتابة (هؤلاء علمونى) عن الاديب الكبير « هـ . ج ويلز » الذى ألف فى عام ١٩١٩ تاريخا للعالم كله يقول فيه :

« اننا أمة واحدة وان هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب ان ننظمها وان نخطط حركة المرور فيها . واننا يجب أن نتهيأ لايجاد حكومة واحدة مع ادارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا » وكان ويلز كما يذكر الاستاذ سلامة موسى فى كتابه المشار اليه يدعو : « الى ارتباطات ونظم عالمية لاتزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول فى حكومة عالمية واحدة . وهو يدعو الى ايجاد قانون عام لصيانة

الثروات العامة باعتبارها ملكا مشاعا للامم ، للبشر . اى يجب ان يحافظ على مناجم الفحم فى انجلترا أو عيون البترول فى ايران ، وغابات افريقيا والهند ، ووحوش الغابات باعتبار ان كل هذه الكنوز انما هى ملك عام مشاع للبشر وليس لأمة ان تستأثر بواحد منها »

وايمان وديانة ويلز كما يراها "الاستاذ سلامة موسى" فى ضوء مؤلفاته العديدة ، هما : العالمية البشرية . وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا هو قريتنا هو حديقتنا . وعلينا ان نصلحه وننظمه .

ويقول الاستاذ سلامة موسى إذ يختم الحديث عن ويلز مايلى :

« وانى اكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الاول من النصف الثانى من القرن العشرين فاحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها . ذلك اننا قبل اربعين أو خمسين سنة كنا نقول ان حربا تقع بين دولتين أو ثلاث دول لاشأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا فان حربا تقع بين روسيا وامريكا هى حرب أهلية للعالم كله ، « هى قتال جنونى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية هذا العالم ، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم ... هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته » .

(انظر كتاب : سلامة موسى « هؤلاء علمونى » اقرأ ٣٤٩ ـ دار المعارف ـ شهر يناير عام ١٩٧٢ ، صفحات : ٢٢٢ و٢٢٥ و٢٢٧ و٢٢٨) .

روايات الهلال تقدم

الحان

على أوتار عربية

مسرحية سياسية استعراضية

جواز

على ورقة طلاق

مسرحية اجتماعية

بقلم : الفريد فرج

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٨٨

رقم الايداع : ٥٩٨٠ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٩ - ٢٨٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣
13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للقارىء في مصر : ـ

سوريا ٧٠ ليره لبنان ١٠٠٠ ليره الاردن ٨٠٠ فلس الكويت ٧٠٠ فلس العراق ٦٠٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات الدوحه ١٠ ريالات البحرين ١٢٠٠ فلس دبي ١٠ دراهم أبوظبي ١٠ دراهم الحديدة ٦ ريالات تونس ١٧٥٠ مليما مسقط ١ ريال المغرب ١٨ درهما غزة والضفة ١ دولار لندن ١٢٥ بنسا



هال-الدكتور سيد عويس ما يحدث فى العالم من ألوان عديدة من العنف الذى هو وليد الشعور بالعداوة ، لا فى هذا العالم فحسب بل أيضا فى المجتمع المصرى المعاصر .

وقد حاول المؤلف أن يظهر ألوان العنف ويعدد أشكالها واوقاتها وأهدافها وأساليبها ، واقتصر على ألوان العنف الانسانى الذى هو فى حقيقة الامر ضد "السلام" .

والمؤلف ، مع ذلك ، لا يدعى انه "فيلسوف" ولكنه يرى ان من حق الناس قاطبة ، وهو منهم ، أن لا يعيشوا فى رهبة مستمرة لانتشار الاسلحة النووية التى تملأ ترسانات بعض الدول وبخاصة التى ينعتها الناعتون بأنها الدول المتقدمة أو الدول الصناعية التى تعتبر اكبر مصدر للسلاح بأنواعه الى البلاد النامية والى البلاد التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى .

والرجاء أن يلاحظ قارىء هذا الكتاب ان موضوعاته كتبها المؤلف "ككل عضوى لا يتجزأ" ، أى أن كل موضوع يكمل الموضوع الآخر . فقراءة كل الموضوعات أمر محتوم .

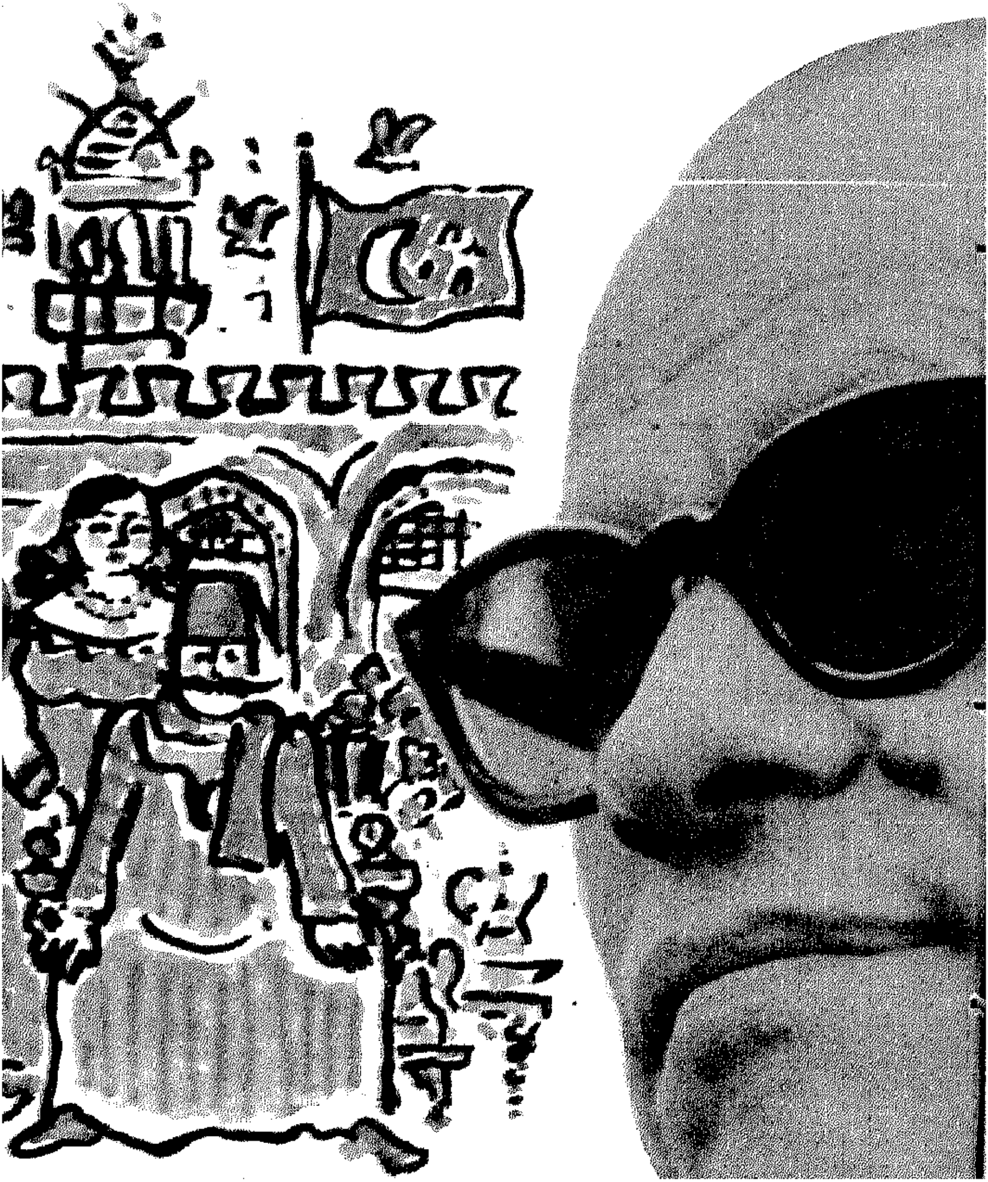
والرجاء ايضا أن تقرأ مضامين هذه الموضوعات فى تؤدة وروية . فلعل ذلك يثير فى نفوس السادة القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات . وذلك لان هدف هذا الكتاب ان يجعل السادة القراء يفكرون مع المؤلف لا من أجل القضاء على العنف على وجه الاطلاق ولكن لكى يسود نسبيا .. وهذا الراى لا يعنى أبدا عدم قدرة الانسانية على التغلب على العنف الانسانى على وجه الاطلاق .

ومهما يكن من الامر فان قارىء هذا الكتاب يلاحظ تفاؤل المؤلف فى مستقبل الانسانية على الرغم من الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الايام .

كتاب الهلال

دكتور رشيد العناني

عالم نجيب محفوظ من خلال رواياته



كتاب
الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد احمد
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عباد

مركز الإدارة :
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ . سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL
العدد ٤٥٥ - ربيع اول ١٤٠٩ - نوفمبر ١٩٨٨
NO . 455 Novemher 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :

حلمى التونى

عالم نجيب محفوظ من خلال رواياته

•

الدكتور رشيد العناني

دار الهلال

كلمة تمهيدية

عزيزى القارىء

اسمح لى ان ارفع الكلفة بينك وبينى ، فأحييك اولا سابق دون سابق معرفة ، ثم ان اتمادى فى توطيد اسس الالفة بيننا ، فاشرح لك القصد من وضع هذا الكتاب ، بل واقترح عليك اقتراحا او اثنين هما فى نظرى ضروريان لتمام انتفاعك واستمتاعك المرجوين من الصفحات التى بين يديك ، ولماذا لاترتفع الكلفة من بيننا وتحل محلها الالفة ؟ أليست تجمع بيننا ميول ومشارب مشتركة ؟ فأنا أعرف عنك مثلا انك مثلى محب للأدب عامة ، وللرواية خاصة ، وانك قارىء مشغوف بفن نجيب محفوظ العظيم ، والدليل على هذا انك قد تجشمت العناء ، وانفقت المال ، وخصصت الوقت لاقتناء الكتاب المفتوح امامك الان ومطالعته .

يقع هذا الكتاب فى قسمين ، اما القسم الاول ـ وهو نحو ثلثى الكتاب ـ فهو دراسة مفصلة لرواية نجيب محفوظ « حضرة المحترم » المنشورة سنة ١٩٧٥ ، وهى فى الواقع ترجمة متصرفة عن الانجليزية لقسم من اطروحة الدكتوراه الخاصة بي ، والتى اجيزت من قبل

(٢) تستخدم لفظة "القصة" بمعناها الفنى أى سلسلة الوقائع التى تشكل صلب الحبكة الروائية ، أما الحبكة فهى هذه الوقائع أو الاحداث ذاتها ، ولكن ليس من حيث هى أحداث متسلسلة آليا ، ولكن من حيث هى تشتبك معًا وتتابع منطقيا الى أن تتعقد تعقدا شديدا يتلوه الانفراج ، أو إنحلال العقدة وإنتهاء الحدث الروائى ، وهذه الألفاظ مستعارة من عالم المسرح ، وهو فن سابق تاريخيا على الفن الروائى كما يعلم القارىء .

(٣) انظر حضرة المحترم ، مكتبة مصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ . ص ١٣ ـ ١٤ . كل الاشارات النصية هى إلى هذه الطبقة ، وفيما يلى سنكتفى بذكر ارقام الصفحات بين قوسين فى مواضعها .

(٤) هذا التوصيف يصدق أيضا على محجوب عبد الدائم بطل القاهرة الجديدة ، والذى يعد النموذج الأولى لعثمان بيومى فى أعمال محفوظ .

وجهة نظر

المقصود بوجهة النظر هو الموقع الذى يحتله الكاتب اذ يسرد قصته على القارىء فهو قد يختار ان يسردها على لسان المتكلم ، اى ان يختار احدى شخصياته ليحكي القصة على لسانها ويبرز كل شىء من خلال وجهة نظر تلك الشخصية بالذات ، او ربما يشاء ان يلجأ الى وجهة نظر « المؤلف العالم بكل شىء » فيتنقل بالقارىء من شخصية الى اخرى ومن مكان الى اخر ، وبذلك يرى القارىء العمل من خلال عيون عديدة كما يحدث مثلا فى روايات نجيب محفوظ الواقعية القديمة (الثلاثية وماقبلها) او قد يختار الروائى ان يسرد القصة عن طريق استخدام « ضمير الغائب » وهو نفس الضمير المستخدم فى اسلوب « المؤلف العليم » الا ان المؤلف يختار هنا ان يتخلى عن علمه الواسع وان يقيده الى شخصية واحدة ومن هنا يقال لهذا الاسلوب السردى احيانا « وجهة النظر المقيدة » ، وهذه هى « وجهة النظر » التى يستخدمها نجيب محفوظ فى « حضرة المحترم ». وهى فى الواقع وجهة النظر التى يستخدمها فى غالبية روايات مرحلة مابعد الواقعية ، اى تلك الروايات التى تبتدىء « باللص والكلاب » المنشورة سنة ١٩٦١ (٥) . وهكذا فان كل

شىء فى الرواية يرى من خلال عينى البطل الذى يمثل نقطة الجذب فى العمل التى تمسك بكل شىء فى موضعه . ولنلاحظ هنا ان قصر وجهة النظر على الشخصية الرئيسية يجمع بين مزايا طريقة « ضمير المتكلم » وطريقة « ضمير الغائب » ، فالمؤلف هنا يستبقى الحرية النسبية التى يكفلها له السرد عن طريق « ضمير الغائب » ومن ناحية اخرى لايفتقر الى الخصوصية والتركيز اللذين يتسم بهما السرد عن طريق « ضمير المتكلم »

على اننا ينبغى ان نسجل ان محفوظ يزيد فى تكبيل وجهة النظر التى هى « مقيدة » اصلا . فهو قلما يستعمل الرخصة المخولة اياه بموجب اختياره للسرد عن طريق « ضمير الغائب » وفى الحق انه لايستخدم رخصة التدخل هذه الا كسرد بعض الوقائع الخارجية التى لايتسنى سردها عن طريق تيار الشعور الخاص بعثمان بيومى ، ولكنه لايستخدمها ابدا لاستطلاع مايجرى فى باطن شخصية اخرى ، وهو ماينتج لنا ان نقول ان وجهة النظر فى « حضرة المحترم » تكاد من الناحية العملية ان تكون « ضمير المتكلم » وليس « ضمير الغائب » وهذا التقييد لوجهة النظر بحيث تقتصر على رؤية كل شىء من خلال وجدان البطل وحده يزيد من القيمة الجمالية للرواية ، محققا لها تركيز الشكل من ناحية وتاركا مهمة الحكم على البطل من ناحية اخرى فى يد القارىء كما يجب . الا ان نجيب محفوظ احيانا مايغير وجهة النظر من « ضمير

الغائب » الى « ضمير المتكلم » بشكل عفوى يكاد لا يلاحظ . ويجد القارىء مثلا على ذلك فى مستهل الفصلين الثانى والحادى والثلاثين فالفصل الثانى يبدأ بالعبارة الانفعالية « انى اشتعل ياربى » بينما يبدأ الفصل الحادى والثلاثين بذلك الترديد الغاضب لأداة النفى « لا .. لا .. لا .. » وفى كلتا الحالتين فان التغيير فى وجهة النظر تمليه قوة الشعور الذى يعتمل فى نفس البطل ، فاستخدام « ضمير المتكلم » هنا بدلا من « ضمير الغائب » ينقل القارىء قوة الشعور ومباشريته ويقربه من وجدان الشخصية .

عقدا دقيقا بحيث يبرز فى النهاية المفارقة الاخلاقية التى تنطوى عليها الرواية ، فالبطل الذى طالما سعى الى زوجة تكون وسيلة لا غاية ولم يوفق فى مسعاه يقع فى نهاية المطاف فريسة لامرأة تفوقت عليه فى المكيافيلية حيث نجحت فيما خاب هو فيه ، ويتداعى من هذا ان البطل يصاب بالازمة القلبية التى تمنعه عمليا ان يتقلد المنصب الذى على مذبحه ضحى بكل قيمة نبيلة وهكذا تأخذ العدالة الفنية Poetic Justice مجراها فنجيب محفوظ القاضى الاخلاقية الصارم لايمكن ان يسمح بغير ذلك .

ويمكن ان نجد استخداما ادق للتغيير فى وجهة النظر اذا ما التفتنا الى مستهل الفصلين السادس والثالث والثلاثين . فالأول يفتتح بعبارة « ما اعجب الفصول فى تعاقبها » بينما يبدأ الثانى بالجملة « لتمضى الايام »

فهاتان العبارتان رغم انهما تبدوان كما لو كانتا سردا ، الا انهما فى الحقيقة تمثلان خواطر الشخصية ، وتقدمان ـ كل على حدة ـ سيل الافكار الذى يتبعهما . وثم مثال مختلف للتغيير فى وجهة النظر نجده فى بداية الفصل الحادى عشر ، ويتمثل فى الخطاب الذى يوجهه عثمان الى المدير العام . ولاشك ان اهمية المناسبة التى يكتب فيها الخطاب (وهى حصول عثمان على الشهادة الجامعية من ناحية ، ومخاطبته للمدير العام لاول مرة منذ تعيينه من ناحية اخرى) تتأكد وتكتسب مزيدا من الحيوية عن طريق تقديم الخطاب بضمير المتكلم بدلا من سرد محتواه بضمير الغائب .

على ان اسلوب نجيب محفوظ المفضل فى الانتقال من « ضمير الغائب » الى « ضمير المتكلم » يتمثل فى استخدامه« لتيار الشعور » او « المونولوج الداخلى » كما يسمى احيانا فتيار الشعور والفعل هما سبيلا كشف الشخصية الرئيسيان عند محفوظ . الا اننا يجب ان نلاحظ أن تيار الشعور عند محفوظ هو صورة معدلة تعديلا غير طفيف لذلك التكنيك الروائى الذى شاع لدى كتاب الغرب خلال النصف قرن الماضى او نحوه . فهو عند محفوظ لايشبه فى شىء تيار الوعى عند جيمز جويس أو فرجينيا وولف مثلا ، وهما من اعلام هذا التكنيك (٦) فعلى عكسهما لايطلق محفوظ العنان للقارىء داخل وجدان الشخصية ويتركه لشأنه فى تلك المتاهة المظلمة الشاسعة . كذلك هو لايهتم بتفكك الخواطر اللامنطقى اذ

ترد على الذهن ، ولايعنيه قدرة الذهن على الترحال بلا عائق عبر حدود الزمان والمكان ، ولا هو مغرم بالتركيز على الخبرات الحسية ، وانطباعاتها على الذهن رغم ان هذه كلهما جوانب وجدانية ارتبطت بصورة خاصة بهذا التكنيك الروائى .

والواقع ان نجيب محفوظ انما يقود خطواتنا بحرص داخل وجدان البطل ومسلطا ضوء كشافه فقط على تلك المواضع منه ذات الصلة المباشرة بالموضوع والموقف الروائيين .

فقبضة الكاتب على ذهن بطله محكمة وتنقيبه داخله يتسم بالمنطقية والترابط التام ، وهدفه الاول هو تحليل الدوافع الداخلية للسلوك .

وحقيقة الامر ان اصطلاح « تيار الشعور » ليس وصفا دقيقا لاسلوب محفوظ فى استكشاف ذهن ابطاله ، وثم اصطلاح ادق لوصفه هو « الحديث المنقول بتصرف » واصله بالفرنسية Syle indirecte libte وهو من وضع عالم اللغويات شارل بالى Charles Bally ويستخدم هذا الاصطلاح لوصف ذلك التكنيك الذي كان شائعا بين الروائيين الاوربيين فى القرن الماضى قبل ظهور « تيار الشعور » بزمان طويل ، والذى بمقتضاه يدمج الروائى خواطر الشخصية وحديثها الباطنى مع ذاتها فى ثنايا السرد الروائى(٧) . وهذا هو بالضبط مايصنعه نجيب محفوظ فى تناوله لوجدان شخصياته

ليس فقط فى حضرة المحترم ، وانما فى كل روايات مرحلة مابعد الواقعية ، بل والى حد ما فى الروايات الواقعية . نجيب محفوظ اذن لايستخدم اسلوب « تيار الشعور » ولا « المونولوج الداخلى » ولا « تداعى الافكار » فكل هذه الاصطلاحات غير دقيقة من الناحية الفنية رغم شيوعها بين جميع نقاد محفوظ ودارسيه ، انما هو يستخدم اسلوب « الحديث المنقول بتصرف » على افتقار هذه العبارة لجاذبية التسميات الاخرى .

وهكذا فان مايبدو وكأنه سرد على لسان الروائى طوال الوقت لما يدور فى ذهن البطل ليس فى الواقع سردا على الاطلاق . وانما هو افكار البطل ذاتها ، وتطالعنا امثلة على ذلك تقريبا على كل صفحة من صفحات الرواية . وانظر على سبيل المثال النماذج التالية التى انتقيت عشوائيا .

« راح يلوم نفسه كيف فاته ان يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة ألمدير العام ، كيف فاته ان يملأ عينيه من وجهه وشخصه ، كيف لم يحاول ان يقف على سر السحر الذى يخضع به الجميع فيجعلهم طوع اشارة منه ، هذه هى القوة المعبودة وهى الجمال ايضا ، هى سر من أسرار الكون ، على الأرض تطرح اسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة ، ان الزمن قصر بين الاستقبال والتوديع ولكنه لانهائى ايضا ، الويل للذى ينسى هذه الحقيقة .» ص ٨ ـ ٩ أو سر الكهل بقوله سرورا عظيما ذهل له عثمان . عجيب استغراق الرجل فى هذه الشئون .

واعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها ، ماذا يشدهم إليها ؟ أليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ص ٢٥

أو « انسية زمضان فهو يحبها . عليه ان يعترف بذلك امام ضميره وامام الله ، منذ عهد السبيل الاثرى لم يصدر عن قلبه مثل هذا اللحن العذب . ولذلك فعليه ان يخشاها اكثر من اى امرأة اخرى فى الوجود » ص ١١٤

واضح اذن ان نجيب محفوظ ـ رغم انه قد لايكون على دراية بالمصطلح الفنى « الحديث المنقول بتصرف » ـ قد اختار ان يحور اسلوب « المونولوج الداخلى » على النحو الذى وصفناه . ولعله قد وجد ان هذا الاسلوب المعدل انسب لاغراضه الروائية ، ذلك ان « تيار الوعى » بصورته التقليدية قد ارتبط بضروب من الخبرة الوجدانية ليست مما يهتم به محفوظ عادة ولنصغ لما يقوله الكاتب نفسه حول هذا الموضوع :

« المونولوج الداخلى .. منهج ورؤية وحياة .. ومع اننى استعمله فاننى لم اندرج تحت لوائه بهذا المعنى فقط فى لحظة من حياة بطلى اجدها لحظة جويسية فاعبر عنه بطريقة جويس مع شىء من التعديل(٨) »

وكثيرا مايستغل محفوظ « النقلة » من السرد الروائى « الى حديث المنقول بتصرف » لكى يوجه عقل القارىء خلسة من المستوى الواقعى للأحداث الى المستوى الرمزى بحثا عن الجليل فى المبتذل وعن الشعر فى طوايا النثر ، او عن المغزى فيما يبدو بلا مغزى . ويستخدم

محفوظ هذه الحيلة بانتظام وبقوة تأثير تتفاوت من موضع لاخر فى الرواية وفيما يلى مثالان على مانعنيه :

« صادفها صباح الجمعة فى الخيمية بصحبة امها تلاقت عيناهما لحظة ثم حولتهما عنه فى غير مبالاة ، لم تلتفت وراءها تجلى له معنى من معانى الموت ، كما خرج ابوه من الجنة بارادته . وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء » ص ٣٨

« شعر برثاء نحو ام حسنى التى تجهله كل الجهل رغم طول المعاشرة . مَن اين لها ان تفهم معنى مراجع بادارة الميزانية ومترجم ؟ مأساة الادمية انها تبدأ من الطين ، وان عليها ان تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم » ص ٥٨

فى المثال الأول نجد فى الجزء السردى وصفا اعتياذيا للقاء مصادف بين عثمان وسيدة بعد انفصام علاقتهما . اما مايتلو ذلك فهو « حديث منقول بتصرف » ينقل الينا انفعال عثمان الداخلى بنظرة اللامبالاة التى طالعها فى عينى سيدة ، فهى نوع من الموت ، وهجرانه لها يضاهى خروج آدم من الجنة ، على حين ان الألم الذى يعانيه من جراء خيانته للعهد بينهما يصور على انه عذاب روح ذات كبرياء .

وعلى النحو نفسه نجد فى المقتطف الثانى ان الجزء السردى يبين لنا كيف ان ام حسين تجهله كل الجهل اما مايتلو ذلك فهو مرة اخرى « حديث منقول بتصرف » وهو يقيم الصلة بين مايبدو لاعيننا مجرد طموح وظيفى

اعتيادى وبين مأساة البشرية التى تبدأ من الطين ثم يطلب منها ان تحتل مكانتها بين النجوم .

وفى كلا المثالين نجد ان تأثير هذا الانتقال السريع من اسلوب لاسلوب هو توسيع مجال الرؤية وتأكيد التناقض القائم بين تصرفات الشخصية كما تبدو من الخارج ، وبين تبريراته لها فى دخيلة نفسه .

واخيرا فان محفوظ يستخدم اسلوبا اخر لعرض خواطر الشخصية فى بعض الاحيان ، ونعنى بذلك استعماله « للحديث المنقول حرفيا » direct speech كأن يقول « وقاله لنفسه » متبعا ذلك بنص مادار فى ذهن الشخصية بين علامتي تنصيص . ولعل فى هذا التحاور مع الذات تأكيد على وحدانيته وتسلط الاوهام عليه وابراز لاثار الصراع الداخلى على ذهنه .

---

(٥) فلنلاحظ هنا على سبيل المقارنة أن "وجهة النظر" التى يستخدمها محفوظ فى جميع روايات المرحلة الواقعية (وأيضا فى روايات المرحلة التاريخية / الرومانسية السابقة عليها) هى « وجهة نظر المؤلف العليم " وهى وجهة النظر التى أستخدمها اغلب أساطين الرواية الأوربية فى القرنين السابقين .

(٦) من الطريق أن نلاحظ هنا أن محفوظ يعترف أنه قرأ رواية عوليس لجيمز جويس ويقول عنها "إنها رواية فظيعة ولكنها خلقت أتجاها ، مثل من يشير الى كهف وعلى الأخرين أن يدلفوا اليه بطريقتهم الخاصة ."

أنظر أتحدث اليكم إعداد صبرى حافظ ، دار العودة بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٩٤

(٧) Raymand Chapman, Lingnistic and Literature, Landan, 1973. P. 42.

(٨) أتحدث اليكم ص ٩٥ ـ ٩٦ .

الفصل الثالث :

موضوعات الرواية

١ـ الطموح

اشرنا فيما سبق الى ان الموضوع[٩] الرئيسى لحضرة المحترم هو الطموح ، وبالاضافة الى ذلك فثم موضوعان فرعيان فى الرواية احدهما هو الزمن ، والآخر سنسميه الانعزالية ، والمقصود بها هنا اتخاذ موقف سلبى مما يجرى فى المجتمع ، وهذه الموضوعات الثلاثة متصلة بعضها بالبعض اتصالا وثيقا ، واذا كان بامكاننا ان نناقشها واحدا واحدا بغرض الدراسة والتحليل فلا ينبغى ان ننسى انها فى الرواية لاتقبل الانفصام . ولنبدأ بالموضوع الرئيسى .

اول مايلفت النظر فى هذه الرواية هو اللغة التى يستخدمها الكاتب لطرح خواطر الشخصية الرئيسية (عثمان بيومى) حول تطلعاته الوظيفية انها لغة شديدة المبالغة ، لغة لو استخدمت فى الحياة الحقيقية للتعبير

عن مثل تلك الافكار لعد صاحبها مجنونا ، ولاعجب انه عندما يتحاور عثمان فى احد مواقف الرواية مع مدير الادارة التى يعمل بها حول امور الوظيفة ويلجأ الى استخدام تلك اللغة المبالغة فان مدير الادارة يشك فى سلامته العقلية ص ٨٩ ، وتتخلل هذه اللغة المتميزة الكتاب كله فلاتكاد صفحة تخلو منها ، والحق ان جو الكتاب كله يتحدد منذ الفقرة الاستهلالية من الفصل الاول : فحجرة المدير العام « مترامية لانهائية » وهى « تلتهم القادمين وتذيبهم » أما المدير العام نفسه فهو « الاله القابع وراء المكتب الفخم » ، واذا يدخل عثمان الحجرة فانه يتلقى صعقة كهربية « غرست فى صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة فى ذروتها الجليلة المتسلطة » ويشعر « انه يحظى بالمثول فى الحضرة » ص ٣ ـ ٤ .

ان الالفاظ المستخدمة هنا تنتمى الى سياق الخبرة الدينية وخاصة حالات الوجد الصوفى وهذا بالطبع اختيار مقصود من الكاتب ينقل به خبرة مبتذلة (أول مقابلة بين موظف صغير حديث التعيين وبين الرئيس الاعلى للمصلحة) الى مستوى ارقى بكثير من مستواها الحقيقى (مستوى الخبرة الدينية)[١٠] وبعبارة اخرى فان محفوظ يستخدم مفردات سجل لغوى معين كى يعبر بها عن خبرة غير مرتبطة بهذا السجل ولايعبر عنها من خلاله فى المعتاد .

ويشير الناقد الانجليزى ريموند تشايمان الى ان هذا

الخلط بين السجلات اللغوية المختلفة اضحى امرا شائعا فى الادب الحديث عامة ويضرب على ذلك مثلا يستحق الاقتباس ، فهو يقول ان الفجر ظاهرة طبيعية يمكن ان توصف وصفا علميا دقيقا ، فاذا ماصادفنا هذا الوصف العلمى الجاف فى موقف رومانسى داخل عمل ادبى فلابد ان تفترض ان هذه مناقضة متعمدة من قبل المؤلف يقصد منها اثارة الشعور بالمفارقة او غير ذلك[١١] .

فلنسأل اذن ماغرض محفوظ من خلط السجلات اللغوية فى حضرة المحترم ؟ الاجابة فى رأينا هى خلق الاحساس بالمفارقة او التناقض لدى القارىء . فالكاتب يغزل نسيجا دقيقا من المفارقة اللفظية ويدسه فى ثنايا الرواية كلها ، وهكذا نجد انفسنا طوال الوقت نطالع تفاصيل طموح عثمان الوظيفى فى مصطلح وأحيلة يقصد منها ان تثير لدى المتلقى صورة جهاد دينى شاق ، كما لو كان تسنم منصب المدير العام مسعى مقدسا اقتضته المشيئة الالهية ، وليس من تضحية تعز عليه ، وفيما يلى منتخب عشوائى لتلك الالفاظ والعبارات التى تنتشر فى كل صفحة من صفحات الرواية .

« الاحلام المقدسة . الشعلة المقدسة . النار المقدسة . الطموح المقدس . جهاز الحكومة المقدس .
اللانهاية . ابواب اللانهاية . الطريق الالهى اللانهائى . .

صوت القدر . اسرار الهية . سدرة المنتهى . كلمة الله العليا . الاعتاب الالهية . بركة الله ومجده العالى . القوة المعبودة .

احلام الابدية . حكمة ابدية . معجزة .

جلال الانسان على الأرض . طريق المجد . ذروة المجد .

ابهة الملك . عبادة ، قرابين ، عظيم . جليل . السحاب . النجوم . الافلاك . السماء »

هذا النمط المتكرر من المفارقات اللفظية يولد لدى القارىء وعيا بالتنافر القائم بين الموصوف وبين الاسلوب الذى يوصف به ، اى بين التجربة على مستواها الواقعى وبين المصطلح اللغوى الفضفاض الذى يسبغ عليها ، وبذلك يجد القارىء نفسه فى موقف يصح ان يطلق عليه اسم « المفارقة المسرحية » بمعناها الفنى ، اى ذلك الموقف الذى يكون فيه المشاهد على وعى بأمر لايدركه احد شخوص المسرحية ، كذلك هنا نجد القارىء على وعى بحقيقة جوهرية تجهلها الشخصية الروائية ، وهى على التحديد ان تسلط فكرة الترقى الوظيفى على خياله قد أضله السبيل السوى ، وان لاشىء مقدس فى طموحه وانه بحثه عن الخلاص قد سقط فى جحيم من صنعه .

٢ ـ الانعزالية

ولنلتفت الان الى ماسميناه بموضوع « الانعزالية »

يقول نجيب محفوظ في بعض مذكراته التى اعدها ونشرها جمال الغيطانى - ان السياسة تتخلل جميع مايكتب ، و ان المرء قد يجد قصة من قصصه تخلو من الحب او غيره من الموضوعات ، الا السياسة فهى محور تفكيرنا كله(١٢)

نستطيع ان نقبل هذا التصريح من محفوظ بلا تمحيص ولا مراجعة ، فالتزامه الاجتماعى فى كل ماكتب واهتمامه العميق بقضية العدالة الاجتماعية لم يكن ابدا موضع شك ، وعند محفوظ ان الاخلاق الفردية لاتنفصم عن الاخلاق الاجتماعية ، وبعبارة اخرى فان العرف الاخلاقى الخاص بمحفوظ لا امل فيه فى نجاة الفرد الذين يعمل من اجل خلاصه الذاتى فقط(١٣) ، انما لايدخل النعيم المحفوظى الا المجردون من الانانية المؤثرون للغير على الذات وللصالح العام على الخاص ، والذين يدركون ان محنتهم الخاصة انما هى جزء من محنة أعم(١٤) .

ففى اى قامة ياترى يدرج عثمان بيومى ؟ فى اطار العرف الاخلاقى الخاص بنجيب محفوظ لاشك انه يقف بين صفوف المدانين . فهو فردى النزعة ، ساعٍ وراء المصلحة الذاتية انانى الدوافع والاهداف ولايتردد فى وطأ اى قيمة انسانية تعترض طريق طموحه ، وعيناه ابدا لاترىان تلك الحقيقة الساطعة التى تقول ان جزءا كبيرا من معاناته ليس الا نتيجة مباشرة للظلم الاجتماعى السائد ، وان نضاله الانانى المنغلق لتحسين حياته قد

كان حريا ان يكون اقل مرارة وان يكون له معنى وان ينجيه من السقوط لو كان هذا النضال قد جرى فى سياق اجتماعى انسانى .

فلنحاول ان نرى الآن كيف يعالج محفوظ موضوع الانعزالية فى الرواية . يطرح محفوظ هذا « الموضوع الفرعى » فى شكل « خاطر معاود »[١٥] يعترض سبيل « الموضوع الرئيسى » بصورة منتظمة على مدار الحدث الروائى . ومن خلال هذا « الخاطر المعاود » تتضح معالم شخصية عثمان بيومي ، فهو فردى عصامى وصولى لديه ايمان لايحد بذاته وقدراته يوازنه احتقار عميق لمن حوله ممن تعوزهم قوة التصميم ووحدانية الهدف اللتين تميزانه . وهو يتخذ موقفا انعزاليا من الدائرة المحيطة به مباشرة ومن المجتمع ككل على السواء وما لايمسه شخصيا لايعنيه فى شىء ، ومادام نجاحه المادى وتقدمه الوظيفى مضمونا فعلى الارض السلام وبالناس المسرة ، وليس افضل من المقتطف التالى من الرواية تلخيصا للسان حاله .

« انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لايبلغ الا بالقوة والنضال » ص ٧٠ .

ان رجلا ثقته بنفسه بلاحدود ، وايمانه بالقوة بلاشريك ، رجلا تسلط عليه من باكورة حياته هدف انانى على نحو شدة رؤيته لذاته وللعالم الخارجى لايمكن ان

يشق طريقه فى الحياة الا وحيدا منعزلا والنضال الاجتماعى لايمكن ان يعنى شيئا عنده حتى وان كان هذا النضال انما يستهدف تحقيق المساواة الاجتماعية لامثاله من المطحونين . وهذه النزعة الفردية لدى عثمان تتضح مبكرا فى الرواية .

« عرف التاريخ من اقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى ، عرف الثورات . ولكنه لم يخشها ولم يستجب لها ، وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان . ما اعجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم ! لقد عاش حياته مطاردا بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتا لمد افاق تفكيره الى الخارج . انحصر فى الحارة بهمومها المجهولة من الجميع ، الوحشية القاسية المتلاحقة ، واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا والهيا فى ان لاعلاقة له فى تصوره بالاحداث العجيبة التى تجرى باسم السياسة . قال ان حياة الانسان الحقيقية هى حياته الخاصة التى ينبض بها قلبه فى كل لحظة . التى تستأديه الجهد والاخلاص والابداع . انها مقدسة ودينية بها تتحقق ذاته فى خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة او الدولة . بها يتحقق جلال الانسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا . انهم يهتفون بغير ذلك او بما يناقض ذلك ولكنهم مجانين مزيفون » ص٢١

اقتطفت هذه القطعة فى شىء من الاطالة لما تيسره لنا

من نظرة كاشفة فى ذهن الشخصية ، فمحفوظ هنا يطلعنا على فكر شخصيته فيما يتعلق بالصراعات السياسية والاجتماعية . وهو فكر يتلخص فى التنكر لكل نشاط انسانى ، بل فى عدم القدرة على فهم اى نشاط انسانى لايكرس لترقية حياة الفرد الذاتية(١٦) . ولنستمع اليه يوجه النصح لموظفة جديدة ، « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع ، الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كافراد » وحين تؤكد الفتاة له اعتقادها فى اهمية الفكر السياسى الاجتماعى فانه يقول لها « هذا يعنى انك لاتؤمنين بنفسك » ص ٨٦

ومن المفارقات فى الرواية ان عثمان لايدرك ابدا الصلة بين الفكر والنضال السياسيين وبين محنته الذاتية . ولايخطر بباله الشاق وتضحياته العديدة قد كان عنهما محيد لو انه كان يعيش فى مجتمع يسود فيه العدل الاجتماعى . فهو يقبل الوضع القائم ويتحرك داخل اطاره وبما يتفق مع معطياته لدفع وجوده الذاتى ، ولايتوقف ولو للحظة ليتساءل عن شرعية هذا الوضع القائم ، وحين يسمع عثمان زميلا له يقول ان الخبرة والمؤهلات وحدها لاتكفى كمسوغات لتعيين مدراء الادارة وان المكانة الاجتماعية ايضا تؤخذ فى الاعتبار(١٧) ، فانه يغضب ولكن حتى فى غضبه ، فهو يقبل ان هذه القاعدة تجوز فى حالة وكلاء الوزارات والوزراء اما مادون ذلك من مناصب فلايحرم منها ابناء الشعب ص ١٤٨ .

ولاتتبدل قناعات عثمان ابدا . فحتى فى مرض النهاية

بينما يصغى لاحاديث زواره عن الحرية والديمقراطية والجماهير العاملة والمذاهب الثورية فان تيار خواطره يجرى على هذا النحو.

« قال لنفسه ان الفرد ينوء بآماله افلا يكفيه ذلك ؟ ولكنهم يؤمنون بأن امال الفرد رهن باحلامهم الثورية . حسن ! اى ثورة تضمن له الشفاء وانجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة ؟ ولكنه لم يعلن افكاره ولم يبح بسره لاحد . انهم قطيع تافه فى مراعى التعاسة ، يعلقون الامل على الاحلام لضعف نفوسهم وتهافت ايمانهم وجهلهم ان الوحدة عبادة » ص ١٨١

وهكذا فهو حتى النهاية غير قادر على التوفيق بين « آمال الفرد » وبين « الاحلام الثورية » التى هى عنده علامة على « النفوس الضعيفة »

اضافة الى افكار عثمان بيومى حول الفرد والمجتمع التى تتيح لنا الكاتب الاطلاع عليها مباشرة والتى تبرز انعزاليته يستخدم محفوظ التفاصيل الواقعية استخداما ماهرا لتأكيد هذه الانعزالية . ونقصد بهذا استخدامه للحجرة « كموتيف » او « خاطر معاود » فحياة عثمان كما تتبدى لنا تبدو محصورة في عدد من الحجرات . الحجرة التى يعيش فيها فى حارة الحسينى ، والحجرة التى يعاشر فيها قدرية فى حارة البغاء ، وقبل كل شىء « الحجرة الزرقاء » ـ حجرة المدير العام ـ التى يحلم بان

يشغلها ذات يوم . واخيرا حجرة المستشفى التى يرقد فيها ينتظر الموت بينما يتجه فكرة الى حجرة اخرى تنتظره هى مقبرته الجديدة . ص ١٨٦ وهكذا فان اطوار حياته تتنقل به من حجرة الى حجرة ولكنها ابدا لاتؤدى به الى الغرفة التى فضلها على كل شىء اخر فى الحياة . وعلى هذا النحو فان انحصار عثمان الجسدى وانغلاق حياته داخل هذه السلسلة من الحجرات يتفق تماما مع انعزاليته السلبية ويؤكدها فى مخيلة القارىء[١٨]

ان نجيب محفوظ فى تناوله لموضوع الانعزالية فى حضرة المحترم انما كان يطأ ارضا غير غريبة عليه ، فعثمان بيومى هو بمعنى من المعانى بعث جديد لسعيد مهران بطل اللص والكلاب ، ولكنه بعث يدل على انه لم يتعلم شيئا من حياته السابقة ، فكل من سعيد وعثمان يختاران الطريق الفردى . اما سعيد مهران فى اللص والكلاب فانه يأخذ على عاتقه المفرد الانتقام من نظام فاسد ، فى حين ان عثمان بيومى فى حضرة المحترم يختار ان يتجاهل الظلم الكافى فى اساس النظام الاجتماعى ويحاول ان يستفيد منه شخصيا عن طريق التعاون مع ممثليه . ويتضح موقف محفوظ الاخلاقى من هذين النمطين (العنف الفردى من ناحية والانعزال التام من ناحية اخرى) فى فشل كليهما فى تحقيق اغراضه وفى نهايتها التعسة.

٣ ـ الزمن

ننتقل الان الى « الموضوع الفرعى » الثانى وهو موضوع الزمن . يتبدى الزمن فى مجمل اعمال محفوظ كقوة قهر ميتافيزيقية ، فالزمن هو جالب التغير والتغير عنده دائما مؤلم وهو عادة مايكون من سراء الى ضراء ، من صحة الى مرض ، من شباب الى شيخوخة ، من أمل الى خيبة .. وعند محفوظ كثيرا مالايقنع الزمن حتي يكيل لابطاله الضربة الاخيرة القاضية . فالزمن عند محفوظ هو القدر وهو يصرح بذلك فى مقابلاته الصحفية اذ يقول فى إحداها :

« الزمن بالنسبة للفرد هو هادم لذاته ومفنى شبابه وصحته والقاضى على اصدقائه واحبائه . والموت هو النهاية ، هو الفناء »(١٩)

وفي مقابلة اخرى تستحق ان تقتطف فى شىء من الاطالة ، يعرف محفوظ الحياة بأنها مأساة ويرى ان الموت (اى اداة الزمن القاتلة) هو اكبر اسباب مأساويتها ولكنه ـ وهذا امر جدير بالانتباه ـ يرى ان الاصلاح الاجتماعى قد يؤدى الى خلق الظروف التى يمكن معها حل مشكلة الموت .

« مادامت الحياة تنتهى بالعجز والموت فهى مأساة . بل ان تعريف المأساة لاينطبق على شىء كما ينطبق على

الحياة .. وحتى الذين يرون الحياة معبرا للآخرة فتعريف المأساة ينطبق على جزئها الاول وان نقلبت الى غير ذلك عند شمولها ككل ، ولكن مأساة الحياة مركبة وليست بسيطة اجل ، ان تفكيرنا فى الحياة كوجود يجردها من كل شىء الا فى الوجود والعدم ، ولكن تفكيرنا فيها كمجتمع يرينا مآسى كثيرة مفتعلة من صنع الانسان كالجهل والفقر والاستعباد والوحشية الى اخره . وهذا يبرر تأكيدنا على مآسى المجتمع ، اذ انها مآس يمكن معالجتها ، ولاننا فى معالجتها نخلق الحضارة والتقدم . بل ان التقدم قد يخفف من بلوى المأساة الاصلية وقد يتغلب عليها وقد قلت ذلك فى اولاد حارتنا . قلت ان معالجة الشرور الاجتماعية بالاشتراكية يفرغ الانسان لمعالجة مأساته الاولى وهى الموت »[٢٠] .

وفى مقابلة ثالثة مع نجيب محفوظ يطرح صبرى حافظ على الكاتب ان الموت فى روايات مرحلة الواقعية يبرز « كقدر اجتماعى له دلالة محددة » ويشير الى مصرع عباس الحلو فى زقاق المدق وفهمى عبد الجواد فى بين القصرين كمثال على ذلك النوع من الموت ، بينما يصبح فى روايات الستينيات « نوعا من القدر الميتافيزيقى الذى يلتهم الراغب فى الحياة ويعزف عن الراغب عنها »[٢١] ويميل محفوظ فى رده الى قبول هذا الرأى مع شىء من التحفظ اذ يقول ان روايات المرحلة الواقعية لاتخلو من الموت الميتافيزيقى كما فى خان الخليلى وان روايات الستينيات لاتخلو من الموت الاجتماعى كما فى اللص والكلاب .

الا ان حضرة المحترم تتميز بحضور قوى للزمن لانجده فى اى من الروايات الاخرى ، ففى تلك الروايات يوجد الزمن كقوة طاغية الا انها تعمل من وراء الكواليس ، تعيث فسادا فى كل مكان وتستدرج الشخصيات دون ان يشعروا نحو حتوفهم . اما فى حضرة المحترم فلا يحفل الزمن بالاختفاء والتلصص ، بل هو ظاهر سافر يراه ويشعر به فى زحفه الذى لايلوى على شىء ليس فقط القارىء وانما ايضا عثمان بيومى الذى ينازله نزالا بطوليا قبل ان ينسحق تحت اقدامه التى لاتعرف الرحمة (ولعل هذا النزال البطولى مما يشفع لزلات البطل ويكفل له عطف القارىء)

وبهذا المعنى يمكن ان نعتبر هذه الرواية تمثل ذروة فى انشغال نجيب محفوظ القديم بقضيته الزمن ، فالزمن هنا هو القوة الخارجية العظمى التى يتعين على البطل ان يتصارع معها ، وكل العناصر الاخرى فى الرواية مثل الفقر ، والتمييز الاجتماعى والحب ، وغواية الحياة المستقرة السعيدة لا تضارع فى تأثيرها على عثمان عنفوان الزمن وقسوته . والحق ان عثمان يتغلب على كل هذه القوى الثانوية المعوقة بصلابة ارادته الهائلة ، ولكنه الزمن الذي يهزمه فى النهاية ، وهو هنا زمن ميتافيزيقى ان شئنا استخدام التفرقة المشار اليها أنفا .

وفى رأى كاتب هذه السطور ان سقوط الشخصية النهائى على يد الزمن وحده يضعف فن المغزى

السياسى الاجتماعى للرواية ، وهو مغزى اساسى فى الرواية كما رأينا فى الصفحات السابقة ، ذلك ان النظام الاجتماعى السائد والذى يفترض فيه التفرقة الطبقية لايضن على عثمان بمنصب « المدير العام » الذى اضاع حياته وهناءه الخاص من اجله ومايمنعه حقا من تقلد المنصب انما هو مجيئه متأخرا بعد ان كان الزمن قد كال ضربته الصارعة . وهكذا فعلى حين ان عثمان يلقى جزاءه الا ان هذا الجزاء يبدو مجردا من محتواه الأخلاقى ، او ان هذا المحتوى يبدو مائعا فاقد التأثير على اقل تقدير لكون أداته قد اتت مفروضة فى الخارج اذ اننا قادرون بلاعناء ان نتخيل مجتمعا فاضلا تام الفضل ، ومع ذلك فان هذا لن يمنع ان يحال بين احد ابنائه وبين تحقيق رغبة مشروعة من رغباته عن طريق العجز او الموت ، وقد كان الانسب لقصد الكاتب هنا ان يجىء اندحار عثمان بيومى النهائى على يد « جهاز الدولة المقدس » كما اسماه والذى باع روحه له ، فنهاية الكتاب على هذا النحو هى حيلة مفروضة من الخارج ولاتتداعى طبيعيا من السياق ، والرؤية التى تبقى هى رؤية وجودية ، لا اجتماعية ، ومؤداها ان جهد الانسان عقيم ، وان لاشىء يستحق العناء مادام الزمن فى النهاية يخطف من ايدينا ثمار زرعنا ، وليس هذا هو الدرس الذى جهزتنا الرواية لاستيعابه وربما كانت مثل هذه النهاية مقبولة لو كانت الرواية تخلو من « موضوع الانعزالية الاجتماعية »

ولنحاول الان ان نعضد هذا الطرح عن طريق فحص

منهج محفوظ فى تقديم « موضوع الزمن » فى هذه الرواية . على مدار العمل يلجأ الكاتب الى استخدام كلمات وعبارات وجمل واخيلة شعرية بصورة متكررة وملحة حتى يكاد الزمن يتجسد امامنا باعتباره ألدْ اعداء عثمان بيومى وفيما يلى طائفة منتقاة اعتباطا من صفحات الرواية .

« تتابعت الايام ، من خلال تتابع الايام فى مجراها الابدى الايام تمر بلاتوقف ، وتمضى الايام وستمضى ابدا ، العمر يجرى ، الشباب يجرى ، الايام لاتريد ان تستريح . لانهائية الطريق كيف مر ذلك العمر بهذه السرعة ؟ المهم الا يسرقك الزمن . عجلة الزمن تزيد من سرعتها الوقت كالسيف ان لم تقتله قتلك . تقدم العمر . الامل طويل والعمر قصير . يبدو انه لايقاوم الموت بمافيه الكفاية من قوة الانتظار المؤرق لمجد يتعسر . السباق الرهيب مع الزمن . الجزع على المستقبل حمل تيار الزمن حدثا اخر العمر اسرع من جميع حركات الترقيات . الزمن يلهبه بسياطه على حين انه لم يعد يقوى على العدو »

ومن التناقضات الظاهرية فى الرواية ان الزمن يتبدى كقوة موجبة وسالبة فى آن ، فهو المشيد وهو المقوض . فرغم ان الزمن هو الذي يصرع عثمان فى النهاية الا انه ايضا القوة التى يدين عثمان لحركاتها الدائمة بنجاحه ، والتى بدونها لايتحقق شىء من تطلعاته . وبهذا المعنى فان كل ترقية ينالها عثمان هى منحة من الزمن . انظر المثالين التاليين .

« من خلال تتابع الايام فى مجراها الابدى خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغرها الى وزارة اخرى » ص ٤٣

و « انبثقت من تيار الايام موجة عالية وعاتية غير متوقعة بتاتا ، غيرت المصائر والحظوظ ، واعادت خلق العالم من جديد ، فقد اصبحت الوزارة ذات يوم على قرار بتعيين بهجت نور المدير العام وكيلا للوزارة فخلت وظيفة المدير العام لأول مرة منذ عهد مديد » ص ١٤٧

والزمن ذو وجهين اذا ابتسم احدهما فى مكان فالاخر ولابد مقطب فى مكان اخر ، والزمن فى علاقته بالبشر كثيرا مايتلخص دوره فى الحكمة الشعبية « مصائب قوم عند قوم فوائد » فالكثير من ترقيات عثمان الوظيفية تأتى نتيجة لتقاعد الزملاء او اصابتهم بمرض خطير او وفاتهم المفاجئة . ولعل عثمان نفسه خير من يحدد دور الزمن فهو كان يفهم خصمه اللدود فهما حسنا .

« بفضل الزمن نحقق كل شىء ، وبسببه نخسر كل شىء ، ولايبقى الا وجه ذو الجلال » ص ١٥٣

والزمن باعتباره قوة ميتافيزيقية قاهرة لايعنيه فى شىء مصير ضحاياه المفردة فهو دائما ماضى فى حركته المتصلة غير الراحمة . وهاهو عثمان اذ يرقد غير قادر على شىء على فراش المرض يفكر فى الموظفين الجدد الذين يلتحقون بالادارة والذين لايعرفونه وربما لن تتاح لهم معرفته ، ويفكر فى السحب تجرى فى السماء فوق ذلك

كله وتختفى وراء الافق ، ويشعر انذاك فقط انه قد فهم مغزى حركة الشمس (ص ١٧٦) ومن ناحية اخرى فالزمن يساوى بين الجميع « الحياة المجيدة تنقضى كالحياة التافهة » (ص ٨٨) ، وهذه الخاطرة تعود بنا الى التضاد الموضوعى فى الرواية الذى سبق مناقشته ، والذى يتمثل فى عدم الانسجام بين المغزى المستمد من « موضوع الانعزالية » وبين ذلك المستمد من « موضوع الزمن » . ومن الناحية الفنية فان افتقار الانسجام هذا يرجع الى ان نهاية الرواية (أى عجز عثمان عن تولى المنصب بعد ان رقى اليه) قد رُبطت بأحد الموضوعين دون الآخر أى بالزمن » على حساب « الانعزالية » وهذا يجعل الموضوع الثانى غير ذى حيثية فى الرواية . وقد لمحفوظ ان عالج الموضوعين بنجاح فى روايات اخرى لعل ابرزها الثلاثية اما سبب فشله فى المعالجة هنا فيرجع فى راى كاتب هذه السطور الى وضعه الزمن فى محل الصدارة من الرواية ، فهو هنا ليس مجرد « خاطر معاود » ينتبه اليه القارىء وحده ، ولكنه يكاد يكون شخصية حية فى الرواية وهو يتسلط على وجدان البطل طوال الوقت . وهكذا تفقد الرواية توازنها وتختلط الرؤى .

---

(٩) كلمة "موضوع" هنا تستخدم بالمعنى الفنى فى المصطلح النقدى ، وهى ما يقابل كلمة Theme بالانجليزية والفرنسية ، والمقصود بها الفكرة المحورية التى يدور حولها العمل الادبى ، فمثلا إذا كتب أحدهم رواية تدور حول إنسان يتمتع بحياة هنيئة مستقرة ثم نجده يستسلم للضعف البشرى فيرتكب خطأ كان

فى غنى عنه يهدم حياته ويجلب عليهالشقاء ، فإنها تقول إن هذه الرواية موضوعها "الخروج من الفردوس" ولاشك أن هناك مئات الروايات تدور حول هذه الفكرة الأساسية .

(١٠) يشير الاستاذ محمد عبد الله الشفقى فى عرضه السريع لحضرة المحترم الى أستخدام محفوظ "للغة شبه صوفية عند الحديث عن الوظيفة والموظفين" . ولكنه لايوضح الهدف الذى من أجله توظف اللغة على هذا النحو . أنظر الكاتب ، العدد ١٩٣ ، القاهرة ، مارس ١٩٧٧ ، ص ١١٤ .

(١١) المرجع المذكور ص ١٨ .

(١٢) راجع نجيب محفوظ يتذكر ، بيروت دار المسيرة ، ١٩٨٠ . ص ٧٨

(١٣) من أمثلة هذا النوع من الشخصية المحفوظية محجوب عبد الدايم فى القاهرة الجديدة وحسنين فى بداية ونهاية .

(١٤) من أمثلة هذا النوع مأمون رضوان وعلى طه فى القاهرة الجديدة ، وحسين فى بداية ونهاية ، والهام فى الطريق ، وعثمان خليل فى الشحاذ . وغالبا ما يلجأ محفوظ الى تأكيد موقفه الاخلاقى عن طريق تقديم النموذجين المتناقضين فى نفس الرواية : الايجابى والسلبى .

(١٥) "الخاطر المعاود" عى محاولة لتعريب المصطلح الادبى الموسيقى فى اللغات الأوربية Matif والمقصود به هو فكرة او صورة شعرية أو جملة موسيقية .. الخ لاتنى تتكرر فى العمل الفنى وتوظف لاثارة ايحاءات معينة لدى المتلقى .

(١٦) مما يستحق الالتفات هنا اختيار محفوظ لفترة سابقة على ثورة ١٩٥٢ كخلفية لأحداث الرواية . ولابد أن اختياره هذا كان عن قصد ، خاصة وأن كل روايات مابعد الواقعية عنده أى منذ اللص والكلاب (١٩٦١) وحتى هذه الرواية تدور أحداثها فى سنوات ما بعد ١٩٥٢ . فلا يكون إذن من فضول القول أن نسأل عن سر حيدته عن الاتجاه الذى كان سائرا فيه منذ نحو خمسة عشر

عاما . لعل الاجابة على هذا الطرح تكمن فى ان الكاتب قد وجد أن فترة الثلاثينيات والأربعينيات فى مصر باضراباتها السياسية وما تميزت به من ظلم اجتماعي وصراعات مذهبية هى أصلح محك لابراز فلسفة عثمان بيومى "الأنا وحدية" .

(١٧) من المناسب أن نلاحظ هنا أن نجيب محفوظ قد أعرب عن إيمانه "بتحرير الانسان من الطبقة وما يتبعهما من إمتيازات" وأن موقع الفرد فى المجتمع ينبغى أن يتحدد "بمؤهلاته الطبيعية والمكتسبة" . انظر أتحدث اليكم . ص ١٧ .

(١٨) فى مقابلة مع محفوظ ذكر الناقد صبرى حافظ أن شخصيات الروائى دائما ما ترى فى "أماكن مغلقة" وانها لاتحقق نفسها إلا فى مثل هذه الأماكن ، ثم سأل محفوظ لماذا لاتحقق شخصياته ذاتها فى العالم الخارجى فى المجتمع العام . وكان رد محفوظ "ان من يستطيع أن يفعل ذلك لابد أن يكون متمردا أو ثائرا يفكر فى قلب الأنظمة حتى يفرض روحه ووجهة نظره ورؤيته ... ولكن ليس الجميع يملكون هذا "
أنظر أتحدث اليكم ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(١٩) أتحدث اليكم . ص ٤٦ .

(٢٠)المرجع السابق . ص ٧٣ ـ ٧٤

(٢١) المرجع السابق ص ١١٦ ـ ١١٧

الشخصيات

تدور حضرة المحترم حول شخصية واحدة مثلها فى ذلك مثل اغلب روايات محفوظ فى مرحلة مابعد الواقعية . وهذه الشخصية الرئيسية هى قلب الرواية وقصته هى صلبها ، وليس لغيره من الشخصيات اهمية فى ذواتهم بل ينحصر دورهم فى توفير السياق البشرى لافعال البطل وردود فعله لتصرفات غيره ، كما انها بتقديمها مثلا مشابهة او مناقضة له تيسر فهم نفسيته ، والحكم عليها اخلاقيا ، وينبع من هذا ان هذه الشخصيات تصور تصويرا سريعا مسطحا ، ولايعني المؤلف الا ان يطلع القارىء على تلك الجوانب منها ذات الصلة بالبطل ، اما ماعدا ذلك فيبقى خافيا ، ويبلغ الامر اننا لانعرف ملامح بعضهم الجسدية ، دع عنك افكارهم ومعتقداتهم فكل مانعرفه مثلا عن اسماعيل فائق هو انه « ضعيف وجاهل » ص ١٢٥ ، وكل مانعرفه عن عبد الله وجدى هو انه فى الاربعين من عمره ، بدين يحب الطعام والشراب ص ١٥٠ ، وهناك شخصية اخرى اكثر اهمية فى الرواية هى حمزة السويفى ومع ذلك فهو بلا ملامح جسدية اطلاقا ولعل ذلك

سهو من الكاتب . وعلى كل حال فان هذا يبرز ضيق محفوظ بالتفصيلات الواقعية فى رواياته المتأخرة عامة .

لعل افضل الشخصيات الثانوية من الذكور تصويرا فى الرواية هى شخصية سعفان بسيونى رئيس قسم المحفوظات وسر اهتمام الكاتب به هو انه يستخدمه محكا لشخصية عثمان بيومى . فهو ينتمى لنفس الشريحة الاجتماعية التى ينتمى اليها عثمان (ص ٥٥) ومايميزه عن بطلنا هو افتقاره لطموحه وموهبته وقوة ارادته ، وهو مثال طيب لذلك النمط من البشر الذي يقنع بالموقع والدور الاجتماعيين اللذين يحددهما له النظام الاجتماعى السائد كيفما كان ، فهو يسر لعثمان ان رئاسة قسم المحفوظات « كانت ابعد من خياله » وان ابناء الشعب لايطمعون فى مايتجاوز رئاسات الاقسام » ص ٥٤ ، ومثل المعتقدات تباين معتقدات عثمان بيومى تماما ، وهذا الاخير لايكن لرئيسه المباشر سوى الاحتقار لذلك السبب .

« ثمة اناس لايتحركون مثل سعفان افندى بسيونى الرجل الطيب التعيس انه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئا . كذلك كان ابوه عم بيومى ، وليس كذلك من مست النار المقدسة قلوبهم » ص ٩

الا انه على الرغم من أن بسيونى يخلو من مثالب عثمان بيومى ، وأن الكاتب يصوره انسانا طيبا سمحا عاذلا ، فانه لايحظى منا بالاحترام وانما فقط بالشفقة ،

كما أن خالقه لايعفيه من نهاية تعسة ، فهو على الرغم من طبيعته الخيرة يقضى السنوات الاخيرة من حياته فى مرض وفقر ، ومما يعجل بوفاته عجزه عن شراء الدواء اللازم لعلاجه (ص ٧٨ ـ ٧٩) هذا النمط اذن ـ رغم ان محفوظ يستخدمه محكا لعثمان بيومى ـ ليس هو النمط المختار عند الكاتب والجدير بالخلاص . بل ان عقابه ليس ارحم من العقاب الذى ينزل بعثمان فما جريرته ياترى ؟ فى اطار العرف الاخلاقى لدى محفوظ ليس ثم الا اجابة واحدة ، السلبية الاجتماعية ، فأنت اذا قنعت بنصيبك فى الحياة بغير ان تتساءل عن شرعيته ، او تسعى لتحسينه ، او تنسيق جهودك مع الذين يعانون مثلك فلا فرصة امامك للنجاة . وهكذا فعلى حين ان عثمان بيومى حاول منفردا ، فان سعفان بسيونى لم يحاول اطلاقا . ولامكان فى الاخلاقيات المحفوظية لاى من النمطين .

على ان هناك نقطة فى رسم الشخصيات فى هذه الرواية تثير تساؤلا ، وهى إن كبار الموظفين الذين يتحكمون فى مصير عثمان بيومى وترقياته لايصور اى منهم فى صورة بغيضة او منفرة او فاسدة . فجميعهم عادلون منصفون فى معاملاتهم مع عثمان على الرغم من مناخ الاجحاف الاجتماعى السائد عامة ، وجميعهم يعترفون بمقدرة عثمان ويكافئونه بقدر استطاعتهم ، بل منهم من يناضل عناصر خارجية من اجل انصافه . حتى الوزير ـ وهو ليس شخصية فى الرواية ـ نعلم عن طريق وكيله بهجت نور انه يتخذ موقفا صلبا من اجل حق عثمان

فى الترقى الى درجة مدير عام رغم وجود اعتراضات . ولانملك هنا الا ان نتساءل اذا كانت كل رموز السلطة فى الكتاب اى الشريحة العليا فى المجتمع تتسم بالانصاف ، أفلا ينقص هذا من مغزاه الاجتماعى ؟

اما النساء فى حياة عثمان فجميعهن موظفات فى الرواية لابراز بعض سلبيات شخصيته . هناك سيدة وانسية وهما المرأتان اللتان احبهما بحق فى مرحلتين مختلفتين من حياته ولكنه ضحى بهما كليهما بقسوة على نفسه وعليهما لان الحب عنده بلا قيمة مالم يكن نافعا فى ازجاء طموحه فالذى كان يبغيه هو زوجة تشده خطوة او خطوات على مدارج الترقى الاجتماعى . اما اصيلة المرأة التى يحطمها بلا رحمة فهى تكشف عن مدى ماينحدر اليه من استغلال للضعف البشرى .

فاذا مانظرنا الى شخصية قدرية العاهرة التى يتزوج منها فى خاتمة المطاف نجد انها مثل عثمان نفسه ضحية نظام اجتماعى فاسد ، ولكنها تتميز بوعى اجتماعى ليس عنده . وحين تصرح له انها خرجت فى مظاهرة سياسية ذات يوم فانه يتصور انها مجنونة (ص ٥١) . ولايستطيع فى دخيلته ان يجد العذر لعهرها على اساس اجتماعى بل يقول لنفسه انه نشأ مثلها « فقيرا وعاجزا ومحروما من كل سلاح .. ولكنه اكتشف فى الوقت المناسب السر المقدس فى ذاته الضعيفة ..» ص ١٥٣

اما المرأة التى تضارع عثمان فى خسته فهى راضية عبد الخالق سكرتيرته وزوجته الثانية .. وهى امرأة مكيافيلية مثله ، وهى المرآة التى يرى فيها فى النهاية قبح صورته .

بعد هذا الاستعراض للشخصيات الثانوية نستطيع الان ان نلتفت الى الشخصية الرئيسية : عثمان بيومى . ولقد تحدثنا بالفعل عن بعض جوانب شخصيته فى اثناء الحديث على موضوعات الرواية وعلى الشخصيات الاخرى بقى ان ننظر الان الى كيفية تصويره .

شخصيات محفوظ ـ فيما عدا البعض القليل[٣٢] ـ هى شخصيات تامة الاستدارة وافية النمو لاهى بالخيرة تماما ولا بالشريرة تماما ، وعادة مايعكس تصويرها تعقد الطبيعة البشرية . ونجيب محفوظ فى رسمه لشخصياته عادة مايقدم للقارىء صورة متكاملة لها بحيواتها الخارجية والداخلية ، وهو يفعل ذلك فى حيدة موضوعية تاركا للقارىء اصدار الاحكام وبعبارة اخرى فليس للكاتب حضور مباشر فى رواياته وليس معنى هذا بالطبع ان الكاتب بلا وجهة نظر ، او انه فنان لايعنيه الا جماليات العمل الفنى . فعلى العكس من ذلك يظهر مجمل اعمال محفوظ أنه كاتب ملتزم بنظام فكرى معين لاتنى كتاباته على مر السنين تشى به وتؤكد معالمه . ان غاية مايفعله محفوظ لايعدو مايسميه هو ذاته « بالحياد التكنيكى »

« هذا الحياد التكنيكى يمكننى ان اتيح للقارىء ان

ينظر للأمور فى وجوهها المختلفة نظرة تساؤل وتأمل . وانا لا ابتر الطريق للقارىء واسبقه للحكم على الافكار او المواقف ، وانما امهد له ليحكم بنفسه . ولكن هذا التمهيد نفسه لايمكن ان يكون باطنه كظاهرة محايدا وانما يتضمن باطنه بالضرورة رأيى وموقفى »[٢٣] .

ثم يمضى محفوظ قائلا انه « لكى احكم على شخص لابد ان ابحث ظروفه ، فاذا عرفت ظروفه تعذر علىّ ان احكم عليه »[٢٤] .

لايملك الناقد الا ان يشك فى صحة هذا القول ، فالنظرة العابرة الى اعمال محفوظ تظهر ان « العدالة الفنية » دائما تأخذ مجراها ، وليس من شخصية تخالف مواصفات العرف الاخلاقى المحفوظى وتستطيع ان تأمن مع ذلك من سيف قصاص الكاتب[٢٥] الا ان محفوظ على حق فيما يتعلق « ببحث الظروف » فهذا عمل يؤديه بقدر كبير من الاهتمام والموضوعية والشمول وهكذا يفعل مع عثمان بيومى فهو يقدمه لنا موظفا صغير الشأن عنده طموح كبير ، وهو ان يصير مديرا عاما ، ثم لايلبث هذا الطموح ان يتحول الى فكرة تسلطية تلتهم حياته كلها حتى تصحبه فى النهاية الى قبره . وهكذا فان قراراته وافعاله جميعا تصبح خاضعة لتحقيق هذا الهدف البعيد والذى هو ايضا مسئول عن زلاته الخلقية .

هل يعنى هذا ان حضرة المحترم انما هى دراسة فى

طبيعة الافكار التسلطية ؟ هل هى بعبارة اخرى رواية نفسية ؟ لعلها كذلك ولكن هذا القول نصف الحقيقة فقط ، او على الاصح ثلث الحقيقة طبقا لمحفوظ نفسه ! فهو يقول انه يفسر « اى ظاهرة انسانية بنواحيها الثلاث المعروفة : البيولوجية والاجتماعية ، والنفسية »[٢٦] وهذا قول يصدق على حضرة المحترم كما يصدق على غيره من اعماله . ذلك ان طموح عثمان التسلطى لايرى بمعزل عن خلفيته الاجتماعية المتواضعة ، وهو على معنى من المعانى رفض جذرى للموقع الحياتى الذى فرضه عليه ارثه الاجتماعى . ومن هنا فان الرواية تبرز الفقر والحرمان اللذين نشأ فيها ومعاناة ابويه وخاتمتهما البائسة من اجل احلال طموحه محله من الاطار الاجتماعى .

اما بخصوص العنصر البيولوجى ، فلا يبدو انه ذو اهمية اولية فى حضرة المحترم خاصة بالمقارنة مع العنصرين الاخرين . على ان تأثيره واضح فى الرواية فى صراع عثمان المتصل مع رغباته الغريزية واستسلامه لها على حساب الضمير احيانا ، وانظر مثلا امتهانة لاصيلة حجازى ناظرة المدرسة ، فهو لايفسر الا على اساس الدافع الجنسى .

الا ان وصفنا عثمان بانه رجل ذو فكرة تسلطية لايعنى اننا نقول انه مريض نفسيا وانه لذلك غير مسئول عن افعاله . وليس هذا مايريده محفوظ اذ يصوره فاعلا حرا ،

واع تمام الوعى بما يختار وما يترك ، وعلى استعداد لتحمل نتائج افعاله ، والكاتب لايدخر جهدا فى تصوير الصراع المعنوى . الذى يخوضه قبل كل قربان قدمه على مذبح طموحه ، والعذاب ومشاعر الذنب التى يعانيها كل مرة بعد الواقعة .

---

(٢٢) هى أساسا فى روايات المرحلة الرومانسية / التاريخية .

(٢٣) أتحدث اليكم . ص ١٥٧ ـ ١٥٨

(٤٢) المرجع السابق . ص ١٥٨

(٢٥) يناقش د . عبد المحسن طه بدر العرف الاخلاقى لنجيب محفوظ مناقشة أصيلة ومشفقة وإن كنا لانوافقه فى كل ما يذهب إليه . أنظر كتابه الرؤية والاداة ، الجزء الأول ، (القاهرة : دار الثقافة) ، ١٩٧٨ ، ص ٦٧ ـ ٨١

(٢٦) اتحدث إليكم ـ ص ٢٠٨

اللغـــة

يجمع نقاد محفوظ على ان نشر اللص والكلاب سنة ١٩٦١ كان علامة جديدة على طريق تطوره الروائى ، وقد تدارسوا جميعا فى شىء غير قليل من التفصيل خواص هذا الطور الجديد ، وهى الخواص التي يمكن ايجازها فى مقترب يعزف عن تصوير الواقع كما هو ، ويميل الى طرحه باعتباره خبرة وجدانية فردية . وهكذا لايعود الروائى مراقبا محايدا يصف العالم الخارجى وفعال شخصياته فيه ، بل يلج داخل وعى الشخصية ويصف لنا دهاليزه المظلمة ، وهو لايزال يصف الواقع الخارجى ولكن هذا الوصف الان يأتينا من خلال عينى الشخصية وليس الكاتب وقد كان من الطبيعى ان يستلزم هذا التغير فى موقع الرؤية لغة جديدة تقدر على الوفاء بمتطلباته المختلفة ، لغة لاتسعى لتسجيل كل شىء فى عبارات تقريرية واضحة ولاتورد الحوار بين الشخوص فى افاضة كما كان الحال فى الطور السابق وانما لغة لها ايجاز الشعر ، ودقته وقدرته على الايحاء دون التصريح .

تتمتع حضرة المحترم مثلها مثل غيرها من روايات الطور المتأخر بالصفات العامة للغة المحفوظية الجديدة الا انها فى رأى كاتب هذه السطور - تتجاوز تلك الخصائص العامة وتعتلى وحدها قمة ليس لها مثيل فقط فى اعمال محفوظ الاخرى ، وانما فى الرواية العربية عامة فى حدود علمنا فليس هناك رواية اخرى فى اعمال الكاتب او غيره من اقطاب الرواية العربية فى تاريخها القصير يضطلع الزوائى فيها بسرد التجربة الروائية كاملة فى مصطلح لغوى يخالف مصطلحها المألوف فى الاستعمال العادى للغة ان نجاح الكاتب فى نقل الحدث من مستواه اللغوى إلى مستوى اعلى منه وتمكنه بطول نفس مدهش من ابقاء الحدث على هذا المستوى الجديد حتى النهاية لجهد خارق بحق[٢٧] . وماقام به الكاتب هنا يمكن ان يوصف بانه قمع تام للغة الواقعية لصالح اللغة النفسية . ولايصح هنا ان نقول ان اللغة « تعبر » عن خواطر الشخصية ، بل يجب ان نقول ان اللغة هى ذاتها خواطر الشخصية ، او ان الخواطر « تقمصت » اللغة فلا مسافة على الاطلاق بين الاثنين ، بل هو توحد كامل ، فلايمكن ان توجد « هذه الخواطر » بغير « هذه اللغة » .

لقد اوضحنا فى موضع اخر من هذه الدراسة بعض الجوانب البارزة فى استخدام نجيب محفوظ للغة فى حضرةالمحترم ، وخاصة فى تناوله « لموضوع الطموح » حيث نجده يلجأ الى لغة دينية المصطلح لسرد تجربة

ذات طبيعة تسلطية ، وقد رأينا ما لهذا الاستخدام من اثر ساخر يشبه اثر « المفارقة الدرامية » .

ونستطيع الان ان نضيف ان استخدام هذا المصطلح اللغوى الخاص قد كان ايضا له تأثير على « موضوع الانعزالية الاجتماعية » ويوفق الكاتب الى هذا الغرض عن طريق بث سلسلة من الاخيلة المستمدة من النار والنور فى صفحات الرواية . وهى اخيلة ترتبط تقليديا بالخبرة الصوفية حيث يطلب الصوفى « النور الالهى » « ويحترق بنار » الشوق المقدس الذى يلتهم روحه ، وسوف اقتطف فيا يلى بضعة نماذج من الرواية للتدليل على استخدام الكاتب المتكرر لهذا النمط من الاخيلة .

« انى اشتعل ياربى ، النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة فى الاحلام وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة كموجة من نور باهر . كان دائما يحلم ويرغب ويريد ، ولكنه فى هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة » ص ٦

« انه يشتعل .. ويخيل اليه ان النار المتقدة فى صدره هى التى تضىء النجوم فى افلاكها » ص ٩

« انه يحلم بفضل الشعلة المقدسة التى تتقد فى صدره » ص ١١

« .. ورأى بعينيه الحادتين اول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاد النابض » ص ١٢

« درجة المدير العام جوهرة متألقة » ص ١٣

« انه يواصل العمل بارادة صلبة وشهوة نارية » ص ٢٢

« وكان يقول ان حياته تيار غير منقطع ماض فى مجرى النور والعرفان » ص ٢٣

« النار المقدسة مشتعلة فى صدره » ص ٤٢

« المدير العام الذى اشعل النار المقدسة فى صدره لم تقع عليه عيناه منذ مثل بين يديه ضمن المستجدين » ص ٤٣

« انفجر كبركان وكأنما كان ينتظر هذه الفرصة منذ اشتعل قلبه بالطموح المقدس » ص ٤٤

ان التعبير عن طموح الشخصية عن طريق الايحاء بتجربة صوفية يبرز « موضوع الانعزالية » ابرازا غير مباشر من حيث ان الصوفية ـ فى جوهرها ـ هى تجربة فردية يهجر فيها الناسك الدنيا بحثا عن خلاص روحه هو .

ولايقتصر استخدام اللغة على دعم « موضوعات » الرواية بل هى ايضا توظف لتعميق صراع الشخصية الداخلى . فنحن نجد فى الرواية سلسلة من الصور الشعرية والطباق اللفظى تستخدم استخداما متقطعا لتكثيف الازدواجية فى وعى الشخصية والتى نعنى بها طموحه فى مقابل اصله المتضع وتأرجحه الدائم بين

نوازع الخير والشر فى ذاته . وتبين المقتطفات التالية عدة نماذج لما اسلفنا .

« انه واحد من ابناء الشعب التعيس الذى عليه ان .. يستلهم حكمة الله الأبدية التى قضت على الانسان بالسقوط فى الارض ليرتفع بعرقه ودمه مرة اخرى الى السماء » ص ٤٣

« .. وقف وراء نافذة حجرته ينظر الى الحارة الغارقة فى الظلام ، ورفع عينيه الى السماء فرأى النجوم الساهرة .. وقال ان الله خلق النجوم الجميلة ليحرضنا على النظر الى أعلى ..» ص ٤٦

« مأساة الآدمية انها تبدأ من الطين ، وان عليها ان تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم » ص ٥٨

« .. ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه امواج الخير والشر ..» ص ٦٩

« وهو كرس نفسه حقا لطريق الله المجيد ولكنه يغوص فى الآثام » ص ٨٣

« كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه فى الوحل ؟» ص ١٢١

يتسم نثر محفوظ فى حضرة المحترم ـ كحاله فى روايات مابعد الواقعية عامة ـ بالاحكام والتفعم ، فيكاد يكون لكل كلمة وظيفة ، وكما ان كل صورة او تفصيل مهما صغر يحتل مكانه المعد له فى البناء ، الهائل الدقيق فى

ان الذى شيده نجيب محفوظ الصنائعى والمعمار المتمرس من قديم ، ويتناسب احكام النثر وتحدده بجمله القصيرة المتقطعة مع الحالة الوجدانية للبطل التى هى عالية التوتر متلاحقة الخواطر ، وفيما يلى سأقتطع فقرتين متواليتين من الفصل السادس عشر نرى فيهما عثمان وقد تولى منصبه الجديد كرئيس للمحفوظات ، واقفا امام المدير العام الجالس الى مكتبه ، وهى المرة الاولى منذ السنوات الطويلة التى انقضت على تعيينه التى يتاح له فيها أن يرى صنمه الاعلى عن قرب ، بل وان يحادثه اما الفقرة الاولى فهي وصف خارجي لمظهر المدير ومن الطبيعى ان نجد الاسلوب فيها متراخيا ، اما الفقرة الثانية فهى تصف مشاعر عثمان اذ يقف فى حضرة الرجل الذى يؤلهه ، وفجأة نجد حياة جديدة تتدفق فى اوصال النثر ، فترتفع درجة توتره وتتلاحق الجمل تلاحقا ، ويساعدها فى ذلك الاستفادة الذكية من الاسجاع تلك الحلية الاسلوبية القديمة .

« وتهيأت فرص لاستراق النظر الى المدير السعيد ، وهو مستقر فوق مقعده الكبير ، ويطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق ، وطربوش غامق الاحمرار ، ورائحته الزكية ، وشاربه الاسود المتوسط الطول والارتفاع وهالة الصحة التى تطوقه ، وبدانته المتوسطة وان لم يعرف على وجه الدقة طوله ، وتحفظه الراسخ المهيب الذى يجعل من صداقته مطلبا عزيز المنال .

هاهو يقف فى حضرته فى متناول انفاسه فى مجال

رائحته الزكية يكاد يسمع نبضه ، ويقرأ افكاره ، ويستلهم رغائبه ، وينفذ ـ قبل البوح ـ أوامره ، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته ، وقرة عين حلمه الابدى ان يجلس ذات يوم مكانه » ص ٦٦ ـ ٦٨

واخيرا فلابد ونحن فى معرض الحديث على اللغة فى الرواية ان نتطرق الى موضوع الحوار ، لقد التزم محفوظ كما هو معلوم دائما بصياغة الحوار فى اللغة الفصحى بدلا من العامية المصرية . وهو امر لابد وان يثير اعتراضا من قبيل ان الفصحى تجعل الحوار اصطناعيا ، وتقف بينه وبين ان يكون محاكاة طبيعية للواقع والقضية كما هو معروف ليست مقصورة على محفوظ ، فالانقسام بين الفصحى والعامية أمر قد عانى منه كل الكتاب المبدعين الجادين (ربما باستثناء الشعراء) فى النصف قرن الماضى او نحوه ، واليوم يبدو ان المشكلة قد حسمت فما الادب المسرحى على الاقل (ربما باستثناء المسرح الشعرى) لصالح العامية وهذه نتيجة مفهومة حيث ان مسألة محاكاة الواقع تصبح اكثر حيوية على خشبة المسرح مما هى فى غير ذلك من الفنون . اما فى عالم القصة القصيرة والرواية فالصراع لايزال دائرا ، والقضية لازالت بعيدة عن ان تحسم ، وان كان يلاحظ بين ابناء الجيل الجديد من القصاصين ميل واضح لاستخدام العامية فى الحوار ، اما راى نجيب محفوظ فى القضية فهو ذائع معروف حيث يلقى الكاتب بثقله فى

جانب الفصحى . يقول فى مقابلة صحفية مع الناقد غالى شكرى اجريت سنة ١٩٦٣ .

« التزمت الفصحى لأنى وجدتها لغة الكتابة ، ولم تتبلور المشكلة الا فى وقت حديث نسبيا ، وكثيرون يعتبرونها مشكلة من الدرجة الاولى وقد تكون كذلك فى المسرح او السينما ، اما فى الرواية والاقصوصة فالامر ابسط من ذلك بكثير ، والزمن وحده سيفصل فيها ، والواقع انى اشعر ان الاستهانة بلغة توحد بين مجموعة من البشر هو فى ذات الوقت استهانة بالفن نفسه وبالعلاقة البشرية المقدسة »[٢٨]

وفى مقابلة اخرى ترجع الى سنة ١٩٧٠ يعترف محفوظ بان لغة الحوار مشكلة اذ يقول « علينا ان نصف الحياة اليومية بلغة خصصت من قديم للفكر والسياسة والفلسفة والدين » ثم يمضى فى وصف محاولاته الدائبة لتطويع هذه اللغة لاغراض الفن القصصى : « كان صراعا مستمرا ، واعتقد انى اسير فيه كمن يحمل اثقالا ولكنى اتخفف كل يوم من ثقل »[٢٩] .

فى حضرة المحترم نجد مصداقا هذا الكلام ونجد ايضا سمات الحوار المحفوظى فى الروايات المتأخرة عموما : ايجاز محكم دونما اخلال بالسيولة والحيوية[٣٠] . اما « الاكليشيهات » اللغوية البالية والعبارات والمفردات المهجورة او الميتة ، والتى كانت تكثر فى رواياته التاريخية المبكرة والتى لم تخل منها تماما الروايات الواقعية ـ فلا محل لها هنا . والجهد الذى

بذله الروائى فى التوصل الى لغة وسطى بين عربية الكتابة وعربية الكلام يتجلى بوضوح فى الشفافية والسلاسة اللتين تميزان لغة الحوار عنده .

---

(٢٧) انظر تحليلنا فيما سبق "لموضوع الطموح" .

(٢٨) اتحدث إليكم . ص ٦١

(٢٩) المرجع السابق . ص ٢١٢

(٣٠) انظر على سبيل المثال الحديث الهاتفى بين عثمان وأصيلة حجازى ص ١٠٦ _ ١٠٧

النمـــاذج الأولــــى لحضـــرة
المحترم فى أعمال نجيب محفوظ

القاهرة الجديدة

لطالما استخدم نجيب محفوظ "ديوان الموظفين" منجما يستخرج منه مادة قصصه ورواياته الخام وشخصياتها ، والتى يقوم بتوظيفها فنيا لطرح أفكاره الاجتماعية وفلسفته العامة ، واعتماده هذا على عالم الموظفين يرجع الى فترة مبكرة من حياته الروائية ، إلى القاهرة الجديدة وهى أولى رواياته التى يطلق عليها الروايات الواقعية أو الاجتماعية ، وقد نشرت سنة ١٩٤٥[٣١] . ومنذ ذلك التاريخ ما أنفك نجيب محفوظ يرتاد هذا العالم الغنى بأنماطه البشرية وخبراته المتنوعة ، وهو عالم يعرفه عن قرب إذ كان موظفا طول حياته وحتى سن التقاعد .

محجوب عبد الدائم إذن ـ بطل القاهرة الجديدة ـ هو نموذج محفوظ الأولى للموظف الوصولى الذى يضحى

بكل المبادىء الاخلاقية على مذبح الطموح ويئول فى النهاية الى حطام . ونحن مستطيعون - على معنى من المعانى - أن نعتبره نسخة فظة من عثمان بيومى فى حضرة المحترم . فما هى أوجه التشابه والتنافر بينهما ؟ والى أى حد يمكن أن نعتبر حضرة المحترم رجوعا إلى رؤيا قديمة للفرد والمجتمع عند المؤلف (لاحظ أن الفجوة الزمنية بين الروايتين لا تقل عن ثلاثين عاما) ؟

هذان سؤالان جديران بالدرس المستفيض

القاهرة الجديدة رواية تقليدية بسيطة مكتوبة حسب المنهج "الطبيعى"(٣٢) فى فهم السلوك البشرى ، والذى يؤكد على الأثر الحتمى لعنصرى الوراثة البيولوجية ، والبيئة الاجتماعية على تكوين الفرد نفسيا أو جسميا وبالتالى سلوكيا . هذا هو المبدأ الذى يعتمده محفوظ فى تصوير محجوب عبد الدائم واحسان شحاته الشخصيتين الرئيسيتين فى القاهرة الجديدة .

فمحجوب - مثل عثمان فى حضرة المحترم - فقير متواضع النشأة يعانى أبواه من المعاناة لكى يوفرا له نفقات الدراسة بالجامعة وكما فى حضرة المحترم أيضا فإن أحداث الرواية تدور فى فترة الثلاثينات بما كان فيها من اضطرام سياسى . ويسوق محفوظ فى الرواية شخصيتين تمثلان التيارين السياسيين الرئيسيين فى معارضة السلطة فى تلك الفترة ، وهما على طه الذى يمثل التيار الاشتراكى ، ومأمون رضوان الذى يمثل التيار الاسلامى . ويصور كلاهما - على تناقض عقيدتيهما - فى

صورة شاب مثالى يؤمن إيمانا متينا بأن مذهبه فيه خلاص المجتمع من شروره ، وهكذا ، فكلاهما محك لشخصية محجوب عبد الدائم الذى لامبدأ له ولا عقيدة سياسية أو إجتماعية من أى لون .

وحين يدور حوار بين الأصدقاء الثلاثة يقول فيه أحدهم أن المبادىء للانسان فى مثل أهمية البوصلة للسفينة ، فإن تعليق محجوب الوحيد هو "طظ" ، ولا يلبث أن يعلن أن هذا هو مثله الأعلى (٢٣) وفلسفته كما يعرفها الكاتب هى "التحرر من كل شىء ، من القيم والمثل والعقائد والمبادىء ، فى التراث الاجتماعى عامة ." (ص ٢٥)

ويقدم الكاتب لنا فى تقرير مباشر مصدر هذه الفلسفة قائلا : "لقد إستعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه ، ولكن تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة ." (ص ٢٦) ، والشارع والفطرة هما بالطبع البيئة والاستعداد الوراثى أو الطبيعى .

يتدهور الموقف قبل شهور من موعد الامتحانات النهائية إذ يصاب أبو محجوب بالشلل ويفقد وظيفته ، مصدر رزقه ، وعليه يجرى - تنزيل مصروف الاعاشة الشهرى .. الذى يرسل لمحجوب وهو مصروف ضئيل أصلا ، فيصير عاجزا عن شراء حاجاته من الطعام والكتب . ويصف الكاتب الموقف تفصيلا :

« وتتابعت أيام فبراير ومتاعب الحياة تصكه صكا . ولاحقه شبح الجوع ليلا نهارا ، فلم تطمئن معدته إلا

سويعات معدودات فى اليوم الطويل . وكان الى عملا الدراسي يكنس حجرته وينظف مكتبه ويرتب فراشا ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه . ولم يدر كيف يقتنى الحوائج التى يعدها غيره تافهه ، كابتياع قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق ، فاضطر أياما أن يقتصر على وجبة واحدة . وطحنه الجوع طحنا ، واشتد هزاله ، وشحوب وجهه ، حتى خاف على نفسه ... » (ص ٥٣)

هذه هى الخلفية التى تؤدى الى تردى محجوب أخلاقيا حتى يصير قوادا خاصا يتجر بعرض زوجته فى مقابل وظيفة حكومية ما كانت لتتيسر من غير هذا الطريق . والجدير بالتنويه هنا أن زوجته ، إحسان شحاته ، ذات خلفية مشابهة ، فهى تصور وكأن لاخيار لها إلا السقوط لكى تعول أبويها وأخوتها . ومما يزيد فى مغزى سقوطهما أنه لا تأثير لأحدهما على الآخر ، فكلاهما ضحية لفساد المجتمع وظلمه ، وحين تجمعهما الصدفة زوجا وزوجة فإنهما يكونان قد قطعا الشوط كله فى طريق الانحدار ، كل على حدة ، قبل أن يلتقيا . ومن ناحية أخرى يجب ألا يغيب عنا مغزى آخر ، وهو أن الشابين المثاليين فى الرواية على طه ومأمون رضوان ينحدران من أسرتين منعمتين آمنتين اقتصاديا . وهذا جزء من مقصد محفوظ ، فالأخلاق عنده لاتنهض فى فراغ وانما هى متصلة بأمور السياسة والاقتصاد والاجتماع .

على أنه لايسعنا إلا أن نلاحظ هنا أنه على الرغم من إنشغال محفوظ الواضح بقضية الشرور الاجتماعية فى القاهرة الجديدة ، فإن إصراره على انحراف محجوب عبد الدائم الكامل وعدميته الاخلاقية التامة منذ البدء يضعف من وجاهة حجته فى لوم المجتمع على سقوط الفرد [٣٤] ومع ذلك فهناك من النقاد من يطرح رأيا مناقضا لذلك ولا يوفق الى الاصابة فيما نرى . يقول د . حمدى السكوت :

« لاشك أن محفوظ يتعاطف مع الشخصيات من طراز محجوب عبد الدائم وأنه لهذا السبب يختار هذه الشخصيات أبطالا لرواياته .

إلا أنه لايكتفى بوصف الفقر والبؤس الذى يعيشون فيه وصفا موضوعيا ، ولكن أيضا يكشف عن نقائصهم بنفس الأسلوب المحايد[٣٥] »

ثم يمضى الكاتب قائلا إن هذا الأسلوب فى العرض من شأنه ابراز الظلم الاجتماعى فى الرواية ابرازا واقعيا . وهنا موضع الخلاف مع د . السكوت ، فمكمن عطاف الروائى يحدده كيفية تصويره للشخصية وليس مجرد اختياره لها لكى يكتب عنها . وفيما يختص بمحجوب فلا جدال فى إنه يبرز فى صورة بغيضة . وهكذا فإن المشكلة تبدو متعذرة على الحل : هل يقع االوم على محجوب نفسه أم على المجتمع الفاسد ؟ . والحق أننا نرى أن تضارب الآراء هذا بين النقاد إنما سببه ازدواج الرؤية الأخلاقية لدى المؤلف نفسه . فبينما

يبدو محفوظ وكأنه يدين النظام الاجتماعى المتردى ، إلا أنه يبدو من جانب آخر وكأنه غير راغب فى إعفاء الفرد من تبعة ترديه الشخصى . وهكذا نجد أنفسنا فى مواجهة فرد ساقط في مجتمع فاسد غير أن هذه النتيجة لاتتبع من تلك المقدمة ! وكأن محفوظ فى اضطراب الرؤية عنده ـ كما يتضح من تضاعيف الرواية ـ يقول إن الفرد مآله الى السقوط كيفما كان حال المجتمع !

فيم الاختلاف إذن بين القاهرة الجديدة وبين حضرة المحترم ؟ إن الاختلاف بين الروايتين من الناحية الفنية الجمالية هو من الوضوح بحيث أن التصدى لرصده لابد أن يتحول الى دراسة للتطور الفنى عند الروائى على مدى ثلاثين عاما ونحو عشرين رواية . وهو عمل قد تصدى له العديد من الباحثين وهو خارج نطاق الدراسة الحاضرة على كل حال .

إلا إنه ينبغى أن نؤكد من جديد أن الفروق بين الروايتين إنما هي فروق جمالية شكلية بحتة ، وأن نظرة الكاتب الى الفرد والمجتمع لم تكد تتغير على مدار الزمن . وكما يقول د . على الراعى فى مقالته "شبه عائلى بين شخصيات نجيب محفوظ" فمحجوب وعثمان كلاهما وصولى يبلغ هدفه بالوصولية ولكنه ينتحر فى النهاية . كذلك يشير د . الراعى الى التماثل في موقف الشخصيتين الرافض من العمل السياسى والثورة على الفساد الاجتماعى(٣٦) .

والدكتور الراعى على حق فيما يذهب اليه ، على أنه

ينبغى أن نضيف أنه على حين أن محجوب يبرز فى الرواية كشخصية لا أخلاقية بالمرة ، فهو الأسود الذى لايشوبه الأبيض إطلاقا ، فإن عثمان يتميز بوعى أخلاقى وإن كان يخالف نواهيه ، كما أن له ضميرا لاينى يعذبه ويبكته كلما اقترف جريرة ما .

ولاننسى كذلك إدخال "موضوع الزمن" فى حضرة المحترم وهو ما يوسع من دائرتها ويميزها بمزية أخرى على القاهرة الجديدة . فهذه الأخيرة لاتعدو أن تكون رواية اجتماعية صرفا ، فى حين أن نضال عثمان البطولى ضد الزمن فى حضرة المحترم يعطيه بعدا انسانيا عاما يجاوز محدودية المجتمع المعين والفترة المعينة ، ويزيد من قوة جذب الرواية .

كذلك فأن هذا التمويع النسبى للزمان والمكان الروائيين ، وشح التفاصيل الواقعية الى جانب تقييد "وجهة النظر" ، وقبل هذا كله الاستخدام فائق البراعة للغة ـ كل هذا يجعل من حضرة المحترم رواية رمزية تتواجد على مستويين أحدهما واقعى مقروء ، والأخر رمزى مكنون . فبين تلافيف القصة الواقعية عن الموظف الحكومى زائد الطموح تكمن مأساة الانسان الأزلية حيث لا يتحقق مجده إلا "فى تخبطه الواعى بين الخير والشر ، ومقاومة الموت حتى اللحظة الأخيرة" (حضرة المحترم ص ٥٢) .

ثانيا كلمة فى الليل

يمكننا إذاً أن نعتبر القاهرة الجديدة نموذج محفوظ الأولى "لموضوع الطموح" مطروحا من خلال تتبع حياة موظف حكومى ، وهو "موضوع" لم يلبث محفوظ أن عاد لطرحه في معالجة رفيعة في حضرة المحترم . إلا أنه قبل أن يفعل ذلك كان عليه أن يطرحه أولا فى صورة "مسودة" .

أما تلك المسودة فقد جاءت على شكل قصة قصيرة بعنوان "كلمة في الليل" ضمنت مجموعته المشهورة "دنيا الله" التى نشرت سنة ١٩٦٣ ، والتى تمثل بداية عودته لكتابة القصة القصيرة بعد انقطاع طويل . ولم تكن تلك أول مرة يقع فيها محفوظ على إحدى قصصه القصيرة ويعيد خلقها فى هيئة رواية وافية الطول مع ما يصحب هذا من تحولات بالضرورة . وقد لاحظ النقاد مثلا كيف أن قصة "زعبلاوى" ـ وهى أيضا من مجموعة دنيا الله ـ تمثل البذرة الأولى "لموضوع البحث عن الله" فى رواية الطريق[٣٧] . ولكن على حين أنه فى الطريق لايستعير الكاتب من قصته القصيرة سوى فكرتها المحورية ، ألا وهى الرحلة الرمزية سعيا وراء المطلق ، فإنه فى حضرة المحترم يعتمد اعتمادا أوثق من ذلك على قصته "كلمة فى الليل" . فهو هنا لا يقتصر على افتراض "الموضوع الرئيسى" ، بل أيضا الشخصية الرئيسية

والمكان وكثيرا من التفاصيل الواقعية . وفيما يلى ندرس هذا فى شىء من التفصيل .

حسين الضاوى بطل "كلمة فى الليل" هو مثل عثمان بيومى بطل حضرة المحترم : موظف صغير يرتفع من قاع الكادر الوظيفي الى الذروة الادارية فيصبح مديرا عاما ، ومثل عثمان فى طموحه الماضى نجده لايتورع عن التضحية بكل غال ورخيص فى سبيل الوصول ، ومثل عثمان أيضا فهو يكشف فى النهاية أن الثمن الذى دفعه كان غاليا جدا . ولكنه ـ وهنا الفارق الأساسى بين القصة القصيرة والرواية ـ يكتشف حقيقة ذاته وفحش خطأه ويعترف أمام نفسه أنه قد أضاع جُل حياته هباء . ويتركه القارىء نادما عاقدا العزم على البدء من جديد فيما تبقى له من سنى العمر .

وقد رأينا فى الرواية أن "وجهة النظر" مقصورة على البطل الذى يرى القارىء كل الأحداث والأشخاص من خلاله ، أما فى القصة القصيرة "فوجهة النظر" غير مقيدة والكاتب يطلعنا على صورة البطل فى عيون غيره من الأشخاص بطريق مباشرة .

وهكذا فإن الصفحات الأربع الأولى من القصة (٣٨) مكرسة لمحادثة بين عدد من الموظفين الصغار يلوكون فيها سيرة مديرهم العام المكروه ويحتفلون احتفالا شامتا بإنتهاء عهده وتقاعده . ويستغل محفوظ هذه المحادثة ليقدم لنا بعض التفاصيل الهامة عن شخصية الرجل وسيرة حياته . فنعلم كيف أنه شق طريقه الى القمة ليس

فقط من طريق الجهد الدائب وإنما باستخدام سبل ملتوية أيضا ، وكيف أن طموحه وانهماكه الدائم فى العمل قد قطعه عن أسرته وأضاع منه خلانه . ويتأكد هذا العرض الموضوعى فيما بعد فى القصة عن طريق تيار خواطر البطل وكذلك عن طريق المواجهة التى تصير بينه وبين غيره من كبار الموظفين أثناء حفل التكريم الذى أقيم على شرفه والذين لم يكد يحضره أحد . حين كتب محفوظ بعدما يربو على عشر سنوات حضرة المحترم فقد اختار أن يستغنى عن هذا العرض الموضوعى وأن يقصر "وجهة النظر" على البطل ، وليس من شأننا أن نسأل لماذا فعل ذلك فالعمل الأدبى يجب أن يدرس على ما هو عليه دون طرح فروض خارجية ، وإن كان بإمكاننا أن نلاحظ أن الكاتب كان قد هجر أسلوب تعديد "وجهات النظر" فى رواياته هجرانا بائناً فى ذلك الوقت ، وعلى التحديد منذ كتابة اللص والكلاب سنة ١٩٦١ .

وهناك بعض فروق أخرى مشفقة بين العملين مما يظهر فى تفاصيل الحبكة ففى القصة القصيرة ينجح حسين الضاوى فى دفع حياته الوظيفية الى الامام عن طريق الزواج من طبقة أعلى من طبقته ، وهو مطمح يحاول عثمان بيومى المستحيل من أجله ولايوفق . كذلك ينجح الضاوى فى القصة القصيرة فى الوصول الى منصب مدير عام فى وقت مبكر نسبيا من حياته ويقضى فيه سنوات متمتعا بالوجاهة والسلطان الى سن التقاعد . أما فى حالة عثمان فهو لايحظى إلا بترقية شكلية الى

المنصب تأتيه على فراش الموت ، فهو فى الواقع لايقبض أبدا بيده على حلم حياته الأوحد ، إلا أن التوازى بين العملين يتوقف اذا ما أشرفنا على الخاتمة ، وهو ماسوف نعود اليه لاحقا .

في أعقاب أول أيام التقاعد وما عاناه الضاوى فيه من إحساس معذب بالخواء والضياع واللاهدفية ، وتجربته المريرة فى حفل تكريمه الذى اجتنبه كل الموظفين كرها فى شخصه ، وكلمات منافسة القديم التى لاتزال ترن فى أذنيه « الدرجة هأنت تتركها فى مكانها ، الدرجة التى نبذت كل شيء فى سبيلها . وعقابك الحقيقى أنك ستجد أن الحياة قد نبذتك أيضا » ص ١٧٨ ـ فى أعقاب هذا كله يشرع الضاوى فى عملية تنقيب داخل ذاته . فذات يوم بينما يؤدى فرض الصباح بطريقة آلية كما اعتاد ، يجد نفسه يتوقف فجأة عند عبارة "باسم الله" ويكتشف لأول مرة فى حياته المعنى الحقيقى لهاتين الكلمتين . ومن شدة انفعاله يغادر مسكنه إلى الطريق "ويسير فيه الى الداخل لا إلى الشارع العمومى كما ألف أن يفعل كل يوم فى عشرات الأعوام الماضية" (٨١) ، ويرمز عروجه عن "الشارع العمومى" إلى "طريق داخلى" رمزا جميلا فى رهافته الى عملية الاستبطان ومساءلة الذات التى تجرى فى داخله ، والتى تنتهى ايجابيا باكتشافه كنه ذاته ، تماما كما يكتشف على الطريق الجديد عمرانا وحياة ذاخرة وجمالا كانت دائما على قيد

خطوة منه دون أن يدرك . وعلى العكس من عثمان بيومى الذى ظل حتى النهاية « على ايمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ... » ص ١٨٦ ، فإن حسين الضاوى يدرك أن حياته قد ضاعت قربانا رفع « باسم الطموح الجنونى ، باسم الجشع ، باسم الأنانية ، باسم الكراهية ، باسم الحقد ، باسم العراك ، ولا عمل واحد باسم الله » ص ١٨٢ وعلى خلاف الرواية أيضا التى تنتهى بالاحباط التام وبحجرة مستشفى يرين عليها شبح الموت ، فإن القصة القصيرة تختتم بنغمة حبور وتفاءل ، إذ يتصالح البطل مع ذاته ويطالع العالم رجلا قد ولد من جديد .

وكيفما نظرنا إلى الأمر ، فنحن واجدون الاختلاف بين النهايتين مدهشا ومستعصياً على التبرير إن جماليا وإن رؤياويا . فها نحن قبال شخصيتين عيبهما الخلقى واحد وآثامهما واحدة وتكاد حياتهما أن تتطابقا ، ومع ذلك نجد أحدهما يردع ردعا لا قيام بعده بينما ينال الاخر الغفران . فاين عدل الكاتب فى خلقه ؟ أتكون نزوائية مالكاتب هنا انعكاسا لتقلبات القدر فى الحياة الواقعية ؟ لعل هذا تفسير قد يروق لمحفوظ فهو يؤمن بفعل القدر فى حياة البشر ، وهو القائل دفاعا عن استخدامه للمصادفات فى رواياته « إنها تشارك فى تحقيق المشابهة بين العمل الفنى والحياة بصورة ما وتساعد على ترسيخ التصديق بحقيقة العمل (٣٩)... ؟

أم أن محفوظ يفرط فى سياق القصة القصيرة فيما لا يستطيع أن يفرط فيه فى سياق الرواية ؟ فالرواية كنتاج

أدبى هى بلاشك أثقل وزنا وأشد تأثيرا من القصة القصيرة ، ولذلك فالكاتب لا يستطيع أن يسمح لإحدى رواياته أن تنتهى على نغمة تخالف نظرته العامة للحياة ، وهى نظرة متشائمة كما يبرز من نهايات رواياته عامة ، ولعلنا نجد فى تعليق للكاتب نفسه على احدى رواياته القديمة ـ وهى بداية ونهاية ـ قبسا ينير بعض غوامض هذه القضية . يقول عن شخصيات تلك الرواية :

« عرفتهم فى طفولتى وهم يخوضون مشاق نشأتهم الصعبة ، ثم انتهوا بعد ذلك جميعهم نهايات ناجحة ... وفكرت أول الأمر أن أكتب عنهم هذه الرواية بأسلوب كوميدى مضحك ، أن أصف علاقاتهم ببعضهم البعض وعلاقاتهم بالناس على نحو كاريكاتيرى مضحك ... ولكنى عندما استغرقتنى الكتابة نسيت تماما نهاياتهم الحسنة ... وإذا بى أكتشف فى حياتهم مآسى لم تكن لتخطر على بالى عندما خالطتهم وأنا طفل صغير ... وخلقت لحياتهم نهايات من وحى احساسى لا من واقع حياتهم ..."(٤٠)

ألا نستطيع أن نفترض أن العملية التى أوصلت حضرة المحترم فى يد محفوظ إلى تلك النهاية المأساوية على خلاف ما حدث فى "كلمة فى الليل" تشبه تحول المادة الفنية بين يديه كما يصفه فى ما يتعلق ببداية ونهاية ؟ ألا نستطيع أن نقول إن حسين الضاوى . هو "حضرة المحترم" الذى ربما قابله نجيب محفوظ فى الحياة ، وأن عثمان بيومى هو ما آل اليه الضاوى بين أصابع الكاتب "حين أستغرقته الكتابة" ؟

(٣١) ينبغى أن نسرع بالاستدراك هنا فنقول إن القاهرة الجديدة نفسها تقوم على قصة قصيرة نشرها نجيب محفوظ فى مجلة الرسالة (٧ يوليه ١٩٤١) ولم تجمع فى كتاب مثلها مثل الكثير غيرها من قصص محفوظ المبكرة . القصة عنوانها "القىء" ويستطيع القارىء أن يجد ملخصا لها فى الرؤية والاداة للدكتور عبد المحسن بدر (ص ١٠٣) يتضح منه أنها المسودة التى تطورت منها القاهرة الجديدة بعد بضعة سنوات .

(٣٢) بالمعنى المذهبى ، أى نسبة إلى "الطبيعية" Naturalism وليس الطبيعة .

(٣٣) القاهرة الجديدة ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٧٤ . ص ٩ ، ١٠

فيما يلى سنكتفى بإيراد أرقام الصفحات داخل النص .

(٣٤) انظر الرؤية والاداة . ص ٣٠٨ . وأنظر أيضا
Ali Jad, Form and Technique in the Egyptian Novel, London, 1983. p. 152

(٣٥) انظر كتابه باللغة الانجليزية :
The Egyptian Novel and its Main Trends, Cairo, 1971. pp. 117-118

(٣٦) إنظر مجلة العربى ، العدد ٢١٥ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٧٦ ، ص ٤٢

(٣٧) أنظر غالى شكرى ، المنتمى ، القاهرة ، ١٩٦٩ . ص ٢٧٢ وما بعدها
أنظر أيضا الهامش (٣١) فيما سبق .

(٣٨) أنظر نجيب محفوظ ، دنيا الله (كلمة فى الليل) ، الطبعة الثالثة القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٣٩) التحدث إليكم ، ص ١١٥

(٤٠) المرجع السابق ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩

نجيب محفوظ بين قضايا السياسة والدين

الفصـــل الأول

نجيب محفوظ وثورة ٢٣ يولية

(١) حكام مصر بين فردوس الكاتب وجحيمه

"أمام العرش" كتاب نجيب محفوظ المنشور سنة ١٩٨٣ ، هو كتاب يصعب توصيفه ، فلا هو بالرواية ، ولا هو بالقصص القصيرة ، ولا هو بالمسرحية ، ولا هو حتى مجموعة من المقالات . فماذا يكون اذاً ؟ لعل العنوان الاضافى للكتاب يشرح شيئًا من ذلك : "حوار مع رجال مصر من مينا حتى أنور السادات" والحقيقة أن الحوار هو السمة الغالبة على الكتاب ، وأن السرد فيه جد قليل ، أو هو شبه منعدم ، ولكن هذا لايعنى أن الكتاب مسرحية ، فهو يعدو أن يكون سلسلة من المشاهد المستقلة ، لا يجمع بينها إلا وحدة المكان ، والتتابع الزمنى ووحدة الموضوع ، لكنها تخلو من عقدة تتطور أو شخصيات تنمو وتتغير . وعلى الرغم من أن الموقف الذى يقوم عليه الكتاب موقف وهمى فإن الشخصيات جميعها تاريخية والوقائع المذكورة حقيقية مثبوتة .

ولكن أى عرش هذا الذى يقف أمامه حكام مصر من مينا حتى السادات ؟ العرش هو عرش "أوزوريس" رب

العالم السفلى ورئيس المحكمة الأخروية التى تزن أعمال الناس ثم تبرئهم أو تدينهم فى الأساطير المصرية القديمة . وفى الفصل الأول من الكتاب تنعقد المحكمة بكامل هيئتها المقدسة والمكونة من "أوزوريس" وزوجته "ايزيس" وابنه "حورس" ، الى جانب كاتب الآلهة "تحوت" . وفى البدء يعلن أوزوريس أنه . عقب حوار طويل اتفقت الكلمة على أن هذه الساعة هى الساعة الفاصلة ، وها هى المحكمة تنعقد من أجل سياحة طويلة فى الزمن ، والساعة الفاصلة طبعا هى المرحلة الراهنة فى تاريخ مصر بعد اعتيال السادات وانتهاء عهده بما أثاره من أضطرابات وتحولات خطيرة فى مصر والمنطقة العربية كلها . فقد رأى نجيب محفوظ أن النهاية الدموية لحكم السادات والتمزق المصرى والعربى الذى ميز عصره منذ الصلح مع اسرائيل يحتمان على مصر وقفة مع الذات يَقَوِّم فيها المصريون تاريخهم وينظرون فى ماضيهم ويحاسبون حكامهم واضعين كلا فى محله الذى يستحقه من التكريم أو النبذ ، وهى وقفة طال أنتظارها منذ بدأ تزييف تاريخ مصر الحديث فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ ، سواء فى عهد عبد الناصر أو عهد السادات ، وهى أيضا وقفة ضرورية لمواجهة المستقبل على أسس جديدة تتلافى أخطاء الماضى .

يستعين نجيب محفوظ فى تقسيمه للأبدية بتقسيم الشاعر الايطالى دانتى فى رحلته الشهيرة الى العالم

الآخر ، فيجعل محكمة أزورويس تفضى الى ثلاثة مقامات هى الجنة والمطهر والجحيم ، غير أنه يبدل اسم المطهر فيجعله "مقام التافهين غير المذنبين ممن لايستحقون الجنة ولا النار" . وبمراجعة الكتاب بمجمله تتضح للقارىء المعايير التى بموجبها ترضى محكمة محفوظ الوهمية على الحكام فتدخلهم الجنة أو تغضب فتزج بهم فى النار ، أو تراهم أهون شأنا من رضاها وغضبها فتبعث بهم الى مقام التافهين . أهل الجنة هم الحكام الأقوياء الذين يحافظون على استقلال البلاد ووحدتها الوطنية فيعملون على رفعتها بين الأمم ، وفى مقابل ذلك تغفر لهم مثالبهم الشخصية واستبدادهم ونزواتهم ... الى آخره . أما أهل النار فهم الحكام الأنانيون والضعفاء الذين يقدمون مصالحهم الشخصية على مصلحة البلاد ويفرطون فى وحدتها وأمنها واستقلالها بسوء سياستهم واهمالهم وتقاعسهم عن أداء الواجب . وأما التافهون الذين لايحظون بالجنة ولكنهم ينجون من النار فهم الحكام الذين خلصت نيتهم ولكنهم كانوا أضعف من أعباء الحكم أو كانت ظروف البلاد كما وجدوها تستعصى على الاصلاح أو أنهم واجهوا قوى كانت أعتى منهم .

تعتمد المحكمة فى عملها التسلسل التاريخى فتبتدىء بالملك مينا ، أعظم ملوك الأسرة الأولى ، وأول من وحد شمالى مصر وجنوبيها فى مملكة واحدة ، وتتدرج صعوداً أو هبوطا - حسبما شاء القارىء أن يفهم حركة التاريخ ، ولعل الثانية أصح فى رصد ما حل بمصر كما هو مصور

في الكتاب ـ حتي تصل الى النظر فى أمر السادات . والطريف أن المحكمة تستبعد من دائرة اختصاصها مساءلة الحكام الأجانب الذين جلسوا على عرش مصر فى فترات مختلفة من تاريخها وهكذا لايمثل أمامها أحد من الفرس ، أو البطالمة ، أو الرومان ، أو حتي الفاتحين العرب ، كما أنها تتحرج من إصدار أحكام نهائية فى شأن الشخصيات القبطية أو الاسلامية التى لعبت دورا فى تاريخ مصر ، وانما تدرس حالاتهم ثم تحيلهم الى محاكمهم الدينية الخاصة بتزكية أو تأنيب يناسب الحال . أما الحكام الأجانب الذين يتسمون "بنزعة مصرية" ويعملون لرفعة مصر ، فإن المحكمة تعتبرهم مصريين ، ومن هؤلاء على بك الكبير ومحمد على باشا .

والطريف أيضا أن هذه المحكمة الأخروية تتبع تقليدا لا وجود له فى محاكمنا الدنيوية ... ذلك أن الملك الذى تبرأ ساحته يسمح له بأن يحتل مقعده بين الخالدين فى قاعة المحكمة ويصبح من حقه أن يدلى برأيه حامدا أو ناقدا في أفعال من تلاه من الملوك والحكام . وهذا التقليد طبعا ابتداع ذكى من لدن كاتبنا الأريب نجيب محفوظ ييسر له أن يعلق كيف شاء على سلوك حكام مصر دون أن يتورط شخصيا بشكل مباشر ، كما أنه يضفى حيوية على الحوار بالاضافة المستمرة لعدد المشتركين فيه ، ومن ناحية أخرى فإنه يتيح للمؤلف ان يوظف شخصياته توظيفا رمزيا يتجاوز أشخاصهم الى قيمة مجردة ليصبحون تجسيدا لفكرة أو مذهب معين .

وهكذا فإن الملك مينا موحد مصر العليا ومصر السفلى يصبح رمزا لمبدأ الوحدة الوطنية ، ونجد تعليقاته جميعا تدور على هذا المحور ، كما أن "أبنوم" ، أحد ثوار الفترة الممتدة ما بين سقوط الدولة المصرية القديمة وقيام الدولة الوسطى ، يصبح رمزا للثائر الأبدى والرافض المطلق ، فيضع نجيب محفوظ فى فمه تلك اللغة التى ألفناها تماما فى أعمال الروائى العظيم وفكره الاجتماعي ... لغة البطل الثورى المقاوم للظلم الاجتماعى ، المؤمن بالاشتراكية والعلم ، العازف عن الدين والموروثات . والحق أن اللغة فى هذا الموضع وفى غيره من الكتاب تنضح بالمصطلح العصرى على الرغم من أن المتحدثين يبعدون عنا آلاف السنين . يقول أبنوم فى تبرير ثورته أن الضعف كان قد حل بملك البلاد مما نتج عنه أن "أستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم واستبدوا بالأهالى ، فرضوا المكوس الجائرة ، ونهبوا الأقوات ، وإهملوا أى اصلاح للرى والأرض ، وانضم اليهم الكهنة حرصا على أوقافهم ، يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كل منكر ... وكلما قصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر ... " . يأخذ أبنوم فى النهاية مجلسه بين الخالدين ويشترك مثل غيره فى تقويم أعمال لاحقيه ، ويستمر يثير الحنق بآرائه الشعبية الثورية بين الفراعنة العظام الذين يقبلونه بينهم على مضض بأمر أوزوريس الذى لايرد .

وحين ندخل القرن التاسع عشر للميلاد ويمثل محمد

على باشا مؤسس مصر الحديثة أمام العرش فإن أبنوم ينتقده ويفسر فشل دولته بمعاييره الثورية التقدمية : « لم يكن ايمانك بالشعب كاملا ولا حبك له بالقدر الذى يجعلك توظف جهدك الحقيقى لاحيائه ودعمه ، استخدمت الفلاح فى سبيل الأرض والدولة وكان الواجب أن توجه كل مؤسسة لخدمة الشعب .. » ، أما حين يأتى دور سعد زغلول فإن ابنوم يهلل له : « لقد قمت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة وقمت أنت بالثورة الشعبية الثانية بعد آلاف السنين ، فأنت أخى وخليفتى وحبيبى » . كذلك يحيى عبد الناصر ويشهد له بأن : « الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل فى عهد ـ بعد عهدى ـ كما نعموا فى عهدكم ... »

وإذا كان أبنوم يمثل الاستقطاب الثورى العلمانى ، فإن أخناتون يمثل بطبيعة الحال الاستقطاب الدينى ، ومن أصلح منه وهو أول من دعا لوحدانية المعبود ، وهو الذى انغمس فى الاصلاح الدينى وهز معتقدات الناس حتى انهار ملكه وتشتت الامبراطورية المصرية العظيمة التى ورثها ؟ وحين يظهر الاسلام على مسرح الاحداث فإن اخناتون يهلل له باعتباره الانتصار النهائى لدعوته القديمة ، على حين ينظر بقية الفراعين ، والثائر ابنوم الى العرب باعتبارهم مجرد غزاة جدد ، هكذا يمثل أبنوم وإخناتون قطبين متنافرين فى الكتاب : الاول يرى أن مشكلة المصريين هى مشكلة الخبز ، والثانى يرى أنها

مشكلة لاهوتية ، وهو تنافر قديم عند نجيب محفوظ طالما ظهر فى رواياته ، وليس يخفى على القارىء الفطن أين تتجه عواطف الكاتب الكبير .

من أساليب محفوظ فى هذا الكتاب أنه يلجأ الى إسقاط الحاضر على الماضى ، وهو بذلك يبين كيف أن التاريخ يكرر نفسه ، كما أنه يستخدم الماضى البعيد لاعادة تقويم الماضى القريب أو الحاضر . وهو ـ الى جانب هذا وذاك ـ يقول ما يريد بغير أن يضطر لعبور الاسلاك الشائكة التى تحيط بالقضايا الساخنة والمواضع السياسية الحساسة . ومن ذلك أن الملك "سيكننرع" الذى كان يحكم جنوبى مصر أبان حكم الهكسوس لمصر الشمالية (وبالمناسبة هو أحد أبطال رواية نجيب محفوظ التاريخية "كفاح طيبة") والذى خاض حربا خاسرة ضد الهكسوس ، يسأل فى المحكمة ان كان قد أستنفذ « جميع الوسائل قبل الدخول فى معركة غير متكافئة » . ولا يملك المرء هنا إلا أن يحس بأن هذا السؤال بصيغته العصرية أنما يقصد به عبد الناصر وحرب يونيه ١٩٦٧ .

ومرة أخرى فى أثناء محاكمة الملك "تحتمس الاول" الذى كان من انجازاته اخماد ثورة فى سورية التى كانت فى ذلك الوقت جزاء من الامبراطورية يدور هذا الحوار بين الملك ومستجوبيه من الخالدين :

ـ ما سبب قيام الثورة فى سورية ؟

- التخلص من دفع الجزية .
- ألم تترك حامية بها كما فعلت فى بلاد النوبة ؟
- كلا ، فقد أشفقت من تمزيق قواتى وأبقيت عليها درعا للطوارىء .
- هكذا نحصد مازرعنا !

ذلك الحوار - ان نزع من سياقه وأسقط عنه برقعه التاريخى الذى يكشف أكثر مما يستر ، هل يكون شيئا غير تعريض بالسياسة المصرية التى أدت الى نجاح الانفصال السورى من الوحدة سنة ١٩٦١ ؟

ويمضى نجيب محفوظ خطوة أبعد فى قراءته للحاضر فى الماضى حين نصل الى محاكمة الملك "سيتى الأول" . الذى حارب الحثيين وأسترد منهم فلسطين ثم عقد معهم معاهدة صلح . يسأله تحتمس الثالث :

- لِمَ لَمْ تستمر فى محاربة الحثيين ؟
- شعرت بأن جيشى قد أنهكت قواه ، بالاضافة الى أن الحثيين كانوا قوما أشداء فى القتال ..
- المعاملة الوحيدة المجدية مع عدو قوى هى القضاء عليه لا عقد معاهدة صلح معه !
- معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير مجدية .

ولايجد القارىء عناء كبيرا هنا فى اكتشاف الموازاة الكاملة بين سيتى الأول والسادات من ناحية والحثيين والأسرائيليين من ناحية أخرى . وربما كان الفارق الوحيد هنا هو أن السادات لم يسترد فلسطين مثلما فعل سيتى الأول ، أو لعل الانتصار الجزئى فى [illegible] ١٩٧٣

واسترداد سيناء بمعاهدة الصلح هما المقابل لانتصار سيتى فى قصد الكاتب .

* * * * *

من أمتع الفصول فى كتاب نجيب محفوظ تلك الفصول الأخيرة التى يخصصها لمحاكمة زعماء مصر الحديثة من زمن محمد على الى السادات ، مرورا بأحمد عرابى وسعد زغلول ومصطفى النحاس وعبد الناصر وغيرهم ... فالقارىء بطبيعة الحال قريب الصلة بهذه الشخصيات وهو قد زامن الكثيرين منها ، كما أن بعض هذه الشخصيات قد عاصرت ـ بل عرفت بعضها بعضا ـ والآن يجتمعون كلهم فى الابدية لتقديم الحساب أمام عرش أوزوريس ، أم ترى نسقط الاقنعة فنقول عرش نجيب محفوظ الذى اختار أن يدلى بشهادته على عصره ـ بل على تاريخ مصر كله فى هذا الكتاب ؟ ومما يزيد هذه الفصول متعة أن الكاتب يواجه هذه الشخوص ببعضها بعضا فى أثناء المحاكمة فنراها تتقاذف وتتراشق كثيرا وتتصافح وتتصافى قليلا ، ولكنها فى الختام وبقرار المحكمة المقدسة تحتل مقاعدها بين الخالدين باعتبارها من أبناء مصر الصالحين .

ولننظر الآن فى بعض التفاصيل المشغفة لهذه المحاكمات . لقد رأينا فيما سبق كيف انتقد الثائر ابنوم محمد على ، ولكنه كان انتقادا لايجحف مؤسس مصر الحديثة حقه ، بل أننا نرى الملك "خوفو" يقول فى

أسرته معجبا : « كأنها أسرة فرعونية جديدة ، رغم أصلها الأجنبى » . ونرى ايزيس ـ التى ترمز لمصر أم الجميع ـ تقول : "من اجل (إنجازاتهم أعتبر هذا الحاكم الأجنبى من ابنائى" . ومن الطريف أن النقد الذى يوجهه لمحمد على هو نفسه الذى يوجهه لعبد الناصر ـ الرجل الذى قوض حكم أسرته فى مصر ـ فنرى تحتمس الثالث يلوم محمد على على الانهيار السريع لامبراطوريته فيقول له : « .. هذا يعنى أن ادراكك رغم ذكائك كان ناقصا ، لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدا ، فتحديته وأنت لا تدرى ، وعرضت نفسك لقوة لا قبل لك بها » . ومن ناحية أخرى نرى مصطفى النحاس يقول لعبد الناصر أن الاستبداد قد أفسد عليه أجمل قراراته ، وأن تحدى القوى العالية قد قاده الى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة . وأنه لم يفد من الرأى الآخر ولم يتعظ بتجربة محمد على . ونرى الآراء تتفاوت فى أحمد عرابى ما بين التعاطف حيث يقول له أخناتون : « أنك رجل طيب فجرت عليك النهاية المقدرة للقلوب الطيب ، وما بين النقد اللاذع فى كلمة الحكم "بتاح حتب" : هكذا ثرت من أجل حرية الشعب فجررت عليه احتلالا اجنبيا .. » .

إلا أن كاتبنا يدخر بعضا من ألذع نقده لعبد الناصر ، وأن كان ينبغى أن نسارع فنقول أنه أيضا يسبغ عليه من ايات الحمد والثناء الشىء الكثير ، فنرى رمسيس الثانى أعظم فراعين مصر قاطبه يقرن عبد الناصر بذاته فى

العظمة فيقول له : « كلانا يشع عظمة تملأ الوطن وتتجاوز الحدود » . ولكنه أيضا يقرنه بذاته فى ماهو دون العظمة : « ... وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة ، فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه » . وهذا اعتراف من رمسيس الثانى بما صنع من محو أسماء سابقيه من على جدران المعابد والمسلات ووضع أسمه محلها ، وهو أيضا تعريض بما كان فى عهد عبد الناصر من أغفال حق ثورة سنة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول وكفاح الوفد من بعده برئاسة مصطفى النحاس . هذا طبعا الى جانب غمط الحق التاريخي لمحمد على فى تأسيس مصر الحديثة . ويستمر الفراعين القدامى فى توبيخ الفرعون الحديث فيقول له تحتمس الثالث : « على الرغم من نشأتك العسكرية فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات الا العسكرية ، بل أنك لم تكن قائدا ذا شأن بحال من الأحوال ! » . وهذه طبعا اشارة واضحة للهزائم العسكرية العديدة فى عهد عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧ أو الفشل فى مواجهة الانقلاب السورى سنة ١٩٦١ أو الخسائر الفادحة فى حرب اليمن . ويواصل زعماء مصر المحدثون ما بدأه أسلافهم الفراعنة ، فيلوم سعد زغلول عبد الناصر على حكمه الاستبدادى ، إلا أن أمر النقد يأتى على لسان مصطفى النحاس ، وهو توزيع موفق للأدوار من ناحية الكاتب . فالنحاس هو الزعيم الشعبى الذى خلعه عبد الناصر من على عرشه وقذف به فى دائرة الظل حتى وفاته وكأنه لم يكن رئيس حزب الأغلبية ،

وأكثر زعماء مصر شعبية لما يربو على عشرين عاما : ينفجر النحاس من موقع الخالدين فى عبد الناصر، فيقول :

« أغفلت الحرية وحقوق الانسان . ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين وهم طليعة أبناء الأمة ، أنهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا حتى أذللت كرامتهم وأهنت أنانيتهم ومحقت ايجابيتهم وخربت بناء شخصياتهم ، والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها ، أولئك الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والابداع فى شتى المناشط السياسية والاقتصادية والثقافية ...

ليتك تواضعت في طموحك ... أن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم ، أن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن ، ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الأمبريالية العالمية . وآ أسفاه لقد ضيعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل ... »

ولا يملك القارىء هنا إلا أن يحس بنبضات قلب نجيب محفوظ في هذه الكلمات ـ ان المرارة هنا مرارة كاتب ملتزم كان يؤمل الكثير فى ثورة ١٩٥٢ ، لكن أمله خاب ، وهى مرارة المثقف الليبرالى الذى عاصر وشهد خنق الحرية بيد من كان يؤمل به خلاصها . ومن هنا نلمس تردد أوزوريس قاضى الآخرة قبل تزكية عبد الناصر للإنضمام للخالدين : « ... قليلون من قدموا لبلادهم مثلما

قدمت من خدمات ، وقليلون من أنزلوا بها مثلما أنزلت من اساءات ... »

وأخيرا يأتى دور السادات للمثول أمام العرش ، ولنلاحظ على الفور أن محاكمته أهون بكثير من محاكمة عبدالناصر ، وأن الآراء لا تتضارب فى مصيره كما حدث مع سلفه ، وأن أغلب النقد الذى يوجه اليه يأتى من عبد الناصر نفسه . وفى النهاية يحتل مجلسه بيسر بالغ بين الخالدين . يقول له عبد الناصر معاتبا : « كيف هان عليك أن تقف من ذكراى ذاك الموقف الغادر ؟ » فيرد السادات : « اتخذت ذلك الموقف مضطرا اذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك » ، ويحاسبه عبد الناصر مرة أخرى على سياسته العربية التى « قضت على مصر بالانعزال والغربة » فيدفع السادات التهمة عن نفسه بقوله : لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء ، ولم يمدّ لى العرب يد عون صادقة ، ووضح لى أنهم لايرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم ، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى » . ويلومه مصطفى النحاس قائلا : « سمعت عن دعوتك الى الديمقراطية فدهشت ، ثم تبين لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس على رأسه سلطاتك الديكتاتورية !» . فيرد السادات بعباراته التى لم يمل ترديدها فى حياته : « أردت ديمقراطية ترعى القرية ادابها وللأبوة حقوقها » . وهكذا ... حتى ترحب به المحكمة بين الخالدين من أبناء مصر ، وتعده بتزكية

مشرفة ليقدمها الى محكمته الأخرى ، أى العربية الاسلامية ، ولا يستطيع أن يتكهن إن كانت هذه التزكية ستنفعه كثيرا فى الظروف العربية الراهنة . ولكن لابد أن نقرر أن تقويم الكاتب لشخصى عبد الناصر والسادات وأضرار سياساتهما يبدو راجحا فى جانب الأخير ، وهى شهادة من أديبنا العظيم قد يختلف معها الكثيرون فى مصر وخارجها ، ولكنها يجب أن تحترم وأن تؤخذ بمنتهى الجدية ، فهى شهادة رجل هو - بتاريخه واخلاصه وكتاباته - جزء من ضمير مصر المعاصرة بلا نزاع .

(٢) الكاتب يعيد ترتيب فردوسه وجحيمه

نستطيع أن ندرج قصة "يوم قتل الزعيم" بلا تردد فى ذلك القسم من نتاج محفوظ الذى يمكن الاصطلاح على تسميته "بالأعمال الآنية" ، ونعنى به كتابات محفوظ القصصية والروائية التى تتعامل بصورة مباشرة مع معطيات الواقع المصرى السياسى والاجتماعى فى اللحظة الراهنة والتى تخلو من النظرة الانسانية العريضة التى تعبر بالعمل الأدبى حواجز الزمان والمكان وهو ما يميز أغلب أعمال أديبنا الكبير .

هذه الاهتمامات الآنية المحلية كان لها دائما القدرة على التسلل لأعمال محفوظ والتأثير على فنيتها بدرجات تتفاوت من مرحلة لأخرى ومن عمل لآخر ، فنحن نجدها

واضحة فى القاهرة الجديدة فى فترة الأربعينات ونجدها كذلك فى السمان والخريف وميرامار بين روايات الستينات حيث ينتقد محفوظ بعض سلبيات ثورة ١٩٥٢ . إلا أن هموم الكاتب الناتجة عن معايشته لمعاناة وطنه السياسية والاجتماعية تمعن فى التغلغل فى أعماله والتأثير على محتواها وشكلها منذ الهزيمة العربية فى يونيه ١٩٦٧ فنشهد أعمالا مثل تحت المظلة والحب تحت المطر والكرنك فى أواخر الستينات وفى السبعينات ، كما نلقى الباقى من الزمن ساعة وأمام العرش فى الثمانينات . وقد كان من الطبيعى أن تترك صدمة الهزيمة وتداعياتها الفادحة سياسيا وإجتماعيا بصماتها التى لاتمحى على أعمال كاتب إنسانى ملتزم مثل نجيب محفوظ والحق أن محفوظ نفسه على وعى كامل بطبيعة أعماله هذه ، إذ يقول فى أحد أحاديثه مع النقاد مما نشر فى كتاب أتحدث اليك من إعداد صبرى حافظ :

- "إن لدى أستعدادا لأن أكتب قصة من هذا النوع خدمة لرأى أحترمه ولظروف سياسية أحب أن أمارس دورى فيها ، حتى لو قدر لهذه القصة أن تموت فور إنتهاء المناسبة التى كتبت عنها ومن أجلها ." (أنظر ص ٢١١ من المرجع المذكور)

يوم قتل الزعيم المنشورة عام ١٩٨٥ هى قصة من هذا النوع كما أسلفنا ، فأما اليوم ، فهو السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ وأما "الزعيم" القتيل فهو أنور السادات

والقصة التى لاتبلغ صفحاتها التسعين تدور حول معاناة الشباب المصرى وضياعه نتيجة للتوجهات السياسية والاقتصادية الخاصة بعصر السادات . يحكى محفوظ القصة من خلال عدة وجهات نظر كما فعل سابقا فى روايته المشهورة ميرامار ، ووجهات النظر هنا هى للشخصيات الرئيسية الثلاث : الجد "المحتشمي" وحفيده "علوان" وخطيبته "رندة" أما الجد فهو عجوز طيب بلغ الثمانين وتصالح مع ذاته بعد حياة مديدة حافلة عاصر فيها تحولات السياسة وتجارب الأمة المصرية من أيام سعد زغلول إلى أيام السادات ، وشخصية الجد هذه هى فى الأنماط الأصلية Archetype المألوفة فى أعمال محفوظ وهى تذكرنا تذكيرا قويا بشخصية "عامر وجدى" فى "ميرامار" و "عم عبده" فى "ثرثرة فوق النيل" ولعله يرمز بها فى العمل الحالى كما فى الروايتين السابقتين الى وجه مصر الثابت الباقى العالى على كل ما يعتمل حوله من صيرورة وفساد ، هو إذن مصر اللازمانية وهو ـ رغم شيخوخته ـ المستقبل اللا متناهى ، ولذلك فهو يوارى رفاقه التراب الواحد بعد الآخر ويبقى ينتظر الموت ولكنه أبدا لايموت ، وكما أنه لازمانى فهو أيضا شمولى التوجه لايحتويه عصر ولا مذهب ولاهو دينى تماما ولا دنيوى بالكامل بل ينطوى كل ذلك فى بوتقة ذاته اللامحدودة . يبرز محفوظ ملامح هذه الشخصية الفذة من خلال عرض لتسلسل الخواطر فى ذهنها فى لغة شعرية رائعة وبالغة العذوبة ، فى حين أن اللغة التى

تنسكب فيها خواطر الحفيد وخطيبته لا ترقي الى هذا المستوى ، وهو تباين مقصود لاشك ، إذ عن طريق اختلاف المستويات اللغوية يؤكد الروائى التعارض المعنوى بين الشخصية اللازمانية ، الرمزية المدلول ، وبين الشخصية الواقعية الآنية .

وأما الحفيد وخطيبته "علوان ورندة" فهما شابان متحابات من القطاع الأدنى من الطبقى الوسطى ، يقطنان نفس الحى بنفس العمارة تخرجا من الجامعة والتحقا موظفين بنفس المصلحة الحكومية وهما فتى وفتاة نزيهان مستقيمان ، متدينان فى غير زهد ولا تزمت ، محبان للحياة فى غير ابتذال ولاتبرج . بإختصار هما يمثلان فيما بينهما الملامح التقليدية العامة للشخصية المصرية الايجابية المعتدلة (ولنلاحظ هنا عنصر الاستمرارية بين الجد فى رمزيته ، والجيل الجديد الناشىء فى واقعتين) . إلا أن هذين الحبيبين الخطيبين تطول خطبتهما سنوات ويشرفان على نهاية العقد الثالث من عمرها بغير أمل فى تحقيق حلم حياتهما بالزواج ـ فمن أين لهما بالمسكن والأثاث ونفقات المعاش فى عصر انفتاح الاقتصادى والتضخم المتزايد والأسعار عنان السماوات ، من أين لهما بكل ذلك مع أستقامتهما المتأصلة ، فى عصر شعاره "أنا ومن بعدى الطوفان" تنفك إذن الخطبة تحت ضغط أسرة الفتاة التى تخشى أن تحول إبنتها الى عانس ، وتنهار قيمة الحب المطلقة ، أمام مجتمع صار فيه كل شىء نسبيا وتساق الفتاة

أضحية على مذبح الاقتصاد الى رئيسها فى العمل الميسور الحال ، ولكن لا تمضى أيام على الزواج حتى يتضح أن ما أرادها لاستغلال جمالها فى فتح المزيد من سبل الثراء مع رجال المال والأعمال ، فتثور الفتاة لكرامتها ويصير طلاق سريع . ومن ناحية اخرى فإن علوان الحفيد يكاد ينجرف أيضا تجاه الزواج من أرملة ثرية تكبره سنا إلا أن يفيق الى نفسه فى اللحظة الأخيرة . وبينما الحبيبان فى حموة اليأس القاتل تصيب رصاصات السخط "الزعيم" فى مقتل كما يهجم علوان على رئيسه فى العمل الذى سلبه حبيبته وأراد أن يتاجر بعرضها فيضربه ضربة لايحتملها قلبه المعتل فيسقط صريعا .

وهكذا يسقط الرئيس ويسقط أحد أذنابه البعيدة فى لحظة واحدة ويدخل علوان السجن ولكن حكمه المخفف لايغلق الباب أمام الأمل فى خروج مبكر الى بداية جديدة وحبيبته مخلصة ، منتظرة ، وخدته بها آلام كثيرة . الحبكة الروائية هنا مفتعلة بلا مراء وخطوطها شديدة التحديد والتوازى ، إلا أن الاجادة الفنية التى لاتستعصى على محفوظ حين يبغيها ليست هى غايته الأولى هنا ، إنما غايته رصد ملامح مصر رصدا ناقدا لحذرا مكتئبا حائرا لكنه غير منقطع الأمل .

بقى أن نقول إن قصة "يوم قتل الزعيم" هى بمثابة وثيقة إدانة من نجيب محفوظ لعصر أنور السادات ، وهى

وثيقة قد طال إنتظارها من الكاتب الكبير الذى لم تعوزه الجرأة أن ينتقد عددا من الجوانب السلبية للتجربة الناصرية فى بعض من أشهر رواياته ، مثل "ميرامار" ، فى حياته عبد الناصر ، و "الكرنك" بعد مماته . ونقول وثيقة طال إنتظارها لأن رأى كاتب مثل محفوظ ـ هو بلا شك جزء من ضمير أمته الحى ـ وشهادته على عصر عايشه من مبتدأه الى منتهاه ، وكان له عواقب جد وخيمة على حياة أمته المصرية العربية ـ لهو رأى ذو أهمية قصوى . ومما يزيد فى هذه الأهمية أن محفوظ فى تقويمه أو "محاكمته" لحكام مصر فى أيام الفراعنة إلى زمن السادات التى قام بها فى كتابه "أمام العرش" المنشور سنة ١٩٨٣ بعد مصرع السادات بدا أنه يقسو على عبد الناصر بينما يدع السادات يفلت من غير عناء كبير* .

إن تقويم محفوظ لتجربة وطنه فى ظل كل من الناصرية والساداتية لهو تقويم يبدو من النظرة الأولى إليه أن كفة السادات ترجح فيه على كفة عبد الناصر ، وأن الأخير يتحمل بأثر رجعى الوزر الأكبر فى المحنة التى نزلت بوطنه . وهو تحليل يدعمه موقف محفوظ العملى فى تأييده لـ "مبادرة السلام" ولنقل من البدء إن أى إشتباه فى نزاهة موقف محفوظ هو أمر مستبعد تماما ، فللرجل رصيد كتابى وعملى وموقف فكرى متسق تراكم على مايقرب من نصف قرن ، ولايرقى اليه الشك من قريب أو بعيد . ولنذكر أن الرجل لم يتردد فى اتخاذ

موقف انتقادى من حكم السادات بالاشتراك مع نخب مثقفى مصر قبل حرب ١٩٧٣ . ولنذكر أيضا أن "أمام العرش" منشور بعد إغتيال السادات بنحو عامين . لاشبهة إذاً هناك ولا اتهام . ولكن هناك شيئا كثيرا من الدهشة ، فهل يعقل أن يكون الحساب الختامى للتجربة الوطنية المصرية المعاصرة عند كاتب تقدمى نقى وملتزم مثل نجيب محفوظ حسابا الناصرية فيه خاسرة والساداتية رابحة ؟ غير معقول . ومن هنا الاحساس العميق بالراحة والطمأنينة حين لايمضى عامان آخران على "أمام العرش" حتى يصدر محفوظ "يوم قتل الزعيم" الذى لانملك إلا أن نعده إستئنافا من قبل الادعاء فى حكم البراءة الذى خرج به السادات فى الكتاب السابق . والذى نتصور أنه حدث هو أن محفوظ ـ مثل الكثيرين غيره من المصريين ، مثقفين وغير مثقفين ـ قد انبهر بالبريق الساداتى بعد أكتوبر ١٩٧٣، فها هو نصر عسكرى على اسرائيل لأول مرة منذ ١٩٤٨ ، وها هو وعد بإنعاش الاقتصاد بالانفتاح على العالم وجلب رؤوس الأموال العالمية للاستثمار فى البلد الفقير ، ثم ها هو السلام الواعد بالرخاء فى عشية وضحاها والى أبد الآبدين ، وهو الحل الوحيد الذى لم نجربه مع إسرائيل ، فلم لا ؟ إن حالة التخبط والتردى التى كانت مصر قد وصلت إليها فى السبعينات وخاصة بعد أن انحسر مد الفرحة بالنصر العسكرى المحدود ، وعاد الموقف الى جمود اللا سلم واللاحرب الذى سبق أن عانت منه البلاد

قبل ١٩٧٣ ـ هذه الحالة خلقت عند الكثيرين من المصريين نوعا من اليأس المستعد لتجريب أى شىء ، وهذه الحالة النفسية هى التى اعتمد عليها السادات مبدئيا في مبادرته . وقد يقول المرء إذا انبهر عامة الناس فكيف ينبهر صفوة المفكرين ؟ على أن هذا السؤال فيه شىء من الاجحاف لجيل نجيب محفوظ . فهذا جيل مخضرم عاصر تاريخ مصر الحديث من ثورة ١٩١٩ حتى اليوم الحاضر ، وعلى مر هذا التاريخ الطويل رأى أحلامه فى النهضة والتقدم والحرية والديمقراطية لاتكاد تحلق حتى تقع مكسورة الجناح ، وإذا كان كل جيل من الأجيال اللاحقة قد جرب الاحباط فى عصره ، فهذا الجيل قد عاصر إحباطات الأمة واحدا بعد الآخر منذ مطلع القرن ، وصار عنده من تراكمات الفشل والتشاؤم ما يبرر انبهاره اللحظى بأى وعد بالخلاص مهما كان منافيا لمنطق الأشياء . ونحن نعتقد أن الانسياق المتعب وراء هذا الوعد الخلاب الى جانب أن محفوظ لا يستطيع أن يغفر لثورة يوليه ـ رغم حماسه لانجازاتها الكثيرة ـ تخلفها عن انتهاج الممارسة الديمقراطية الصحيحة مما أدى الى الوقوع فى أخطاء جسيمة ـ هما السر فى موقف نجيب محفوظ المرحلى فى "أمام العرش" وفى تأييده العلنى لسياسة السادات الخارجية .

إلا أن هذا الموقف لم يدم كما رأينا ، فها هو محفوظ يكتب قصة تنطوى على تنديد بالساداتية فى كل جوانبها

وتصور تصويرا تسجيليا عمق الرفض الشعبي لها . فسياسة الانفتاح الاقتصادى نتج عنها أن أصبح المصريون "محرومين وسط سنيرك من اللصوص" (ص ٢١) ، وأنهم أصبحوا أمما عديدة تعيش فى أمة واحدة (ص ٤٦) والانسان المصرى انسان مقهور ، فالنيل نفسه "لم يعد فى مقدوره الغضب" (ص ٩) والزمن "زمن شعارات مقزز ... وبين الشعار والحقيقة هوة سقطنا فيها ضائعين" (ص ١٧) ، ومصر قد أضحت فى حال لايخلصها منه إلا رحمة الله : "ماهذا القرار أيها الرجل ؟ تعلن ثورة فى ١٥ مايو ثم تصفيها فى ٥ سبتمبر ؟ تزج فى السجن بالمصريين جميعا من مسلمين وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر ؟ لم يعد فى ميدان الحرية إلا الانتهازيون ....٦٥ . وحين تدوى خطبة من الراديو "تنتشر الاكاذيب فى الجو مع الغبار" (ص ٤٧) والزعيم ليس "إلا ممثلا فاشلا ... الزى زى هتلر ، والفعل شارلى شابلن" (ص ٤٧) . والحنين الى عهد عبد الناصر يبدو العزاء الوحيد فى عصر بلا بطولة ولا مثل أعلى ، ويبلغ من قوته أنه يكاد يصبح بديلا فى التطلع الى المتسقبل (ص ٢٢ وص ٤٣) ، ومقهى المثقفين فى قلب القاهرة تحول الى "معبد تقدم به القرابين الى البطل الراحل الذى أصبح رمزا للآمال الضائعة ، آمال الفقراء والمعزولين . هنا أيضا تنقضى شلالات السخط على بطل النصر والسلام . يتكشف عن لعبة والسلام عن تسليم على مسمع من السياح الأسائيليين ..." (ص ٤٦)

وحين يفاجأ نبأ الاغتيال الجلوس بالمقهى ، فإن التعليقات الغالبة بعد الذهول الأولى هى من قبيل "هذا جزاء من يتصور أن البلد جثة هامدة .. فى لحظة أنهارت إمبراطورية اللصوص ..." (ص ٨٢) . وعلى العموم فإن مقتل الزعيم يتكشف بعد صدمته المبدئية - عن حدث إيجابى ، ويصبح لدى الفتى ، بطل القصة بؤرة للأمل والترقب الواعد ، فهكذا تجرى أفكاره) "أفعمنى ترحيب غامض باحتمالات مجهولة واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق غير محدودة ..." (ص ٨٢)

على أنه لاينبغى أن نفهم أن النقد المرير لعصر السادات وإرثة الذى تنطوى عليه قصة "يوم قتل الزعيم" يعنى بالضرورة تبرئة عهد عبد الناصر من أخطاءه . إنما كل مافى الأمر أن عناصر الصورة تكتمل ، وأن محفوظ يقيم هنا الميزان بالقسطاس وأنه لو عاد الآن لكتابة محاكمة السادات فى "أمام العرش" لربما قسى عليه بمثل ما قسى على عبد الناصر أو أشد . ولربما أيضاً صح القول بأن الاشتداد فى النقد هو ضرب من المديح المعكوس ، وأن هذا هو الأسلوب الصحيح للنظر لحملة محفوظ على عبد الناصر فى "أمام العرش" ، فحجم النقد وشدته إنما هو مقياس لحجم المنقود وانجازه ، كما أن الأخطاء العظيمة غالبا ما توافق الطموحات العظيمة . إن ما يتضح من كل من كتابىّ "أمام العرش" و "يوم قتل الزعيم" إذا ما نظرنا إليهما باعتبارهما فصلين لعمل

واحد هو أن نجيب محفوظ يعانى من ظاهرة تبدد الأحلام فى ثورة ٢٣ يوليو بعهديها الناصرى والساداتى معا ، وهى ظاهرة نعتقد أن كثيرين من المثقفين المصريين والعرب يشاركونه فيها ، إلا أن قسما منهم يقتصر فى نقده العلنى على ثلب عهد السادات ، فتراثه من الأخطاء هو الأقرب زمنا وتداعياته فى الواقع العربى الذى نعايشه اليوم لازالت ملموسة مكشوفة الجراح ، على حين أن عصر عبدالناصر قد بعد زمنا وانجازاته الوطنية المبكرة تلج الآن بخطى حثيثة فى عالم الأساطير بما يحيط بها من قداسة وغموض ، وهى تبدو فى هالتها النورانية الباهرة منقطعة الصلة بالواقع التعس الذى تعيشه الأمة اليوم . إن عبد الناصر بإنجازاته الوطنية ـ قد انضم اليوم ـ على قربه الزمنى ـ فى المخيلة الشعبية وقسم فى المخيلة المثقفة الى صف صلاح الدين الأيوبى وغيره من أبطال العرب الغابرين . ـ

حقيقة الأمر إذاً أن نجيب محفوظ بآرائه المعلنة فى أعماله يرفض الأشتراك فى هذا الهروب شبه الجماعى إلى ماضى مثالى حسب تصور الاذهان التى سحقها واقعنا الموجع . إنما هو يفضل البقاء على أرض الواقع . والنظرة الموضوعية للماضى والحاضر معا ، ولا يفقد أبدا ايمانه بالمستقبل كما كان دأبه دائما . وجلى أن المستقبل عنده ليس فى أحياء عهد عبد الناصر ، ولافى الأستمرار على عهد السادات ، وإنما هو شىء آخر يتجاوزهما معا بأخطائهما وإصابتهما ، فحتى ما كان

صوابا قبل ثلاثين عاما ، أو ثلاثمائة ، أو ألف أو أكثر أو أقل ، ليس بالضرورة صوابا اليوم والزمن فى حركة تقدمية دائبة لايرجع الى الوراء ولايتوقف أبدا، لا البطولات الخارقة توقفه ولا الهزائم الماحقة . هو أبدا يتجاوز اللحظة الراهنة ، حيا ، دائما لايموت ، إنما تموت الأمم التى لاتسير معه ، مزامنة خطاها مع خطاه ، متطلعة دائما صوب الأفق .

التاريخ فى خدمة الحاضر
هل عاش اخناتون فى "الحقيقة" أم فى "الوهم" ؟

أستهل نجيب محفوظ ـ كما هو معروف ـ حياته الأدبية بكتابة الرواية التاريخية حيث كتب ثلاث روايات مستقاة من تاريخ مصر القديم هى "عبث الأقدار" و "رادوبيس" و "كفاح طيبة" كان ذلك فى أواخر الثلاثينات ومطلع الأربعينات . ثم لم يلبث أن أنصرف عن كتابة الرواية التاريخية وأتجه الى رصد الواقع المعاصر وتفسيره فى رواياته الاجتماعية العديدة ، ثم فى روايات ما بعد المرحلة الواقعية التى تنحو الى معالجة الواقع عن طريق الرمز واللغة الشعرية الموحية وتيار الشعور وغير ذلك من أساليب الرواية الحديثة ، رحلة تطور فنى قطعها كاتبنا فى مايربو على أربعين عاما وأنقطع خلالها ما بينه وبين الرواية التاريخية تمام الانقطاع ، ثم إذا بنا نجده يعود الى تاريخ مصر القديم على غير انتظار فيكتب فى سنة ١٩٨٣ "أمام العرش" ، وهو كتاب يحوى الكثير من

خصائص الرواية ، وإن كان وصفة بالرواية يعد تجاوزا ، ولكن الذى يعنينا هنا هو أن مادة الكتاب ـ الذى يحاكم حكام مصر منذ الفراعنة الأقدمين الى عهد السادات ـ مستمد أغلبها من تاريخ مصر الفرعونية . ثم لايكتمل حولان حتى نرى محفوظ يرد من جديد منبعه القديم فينهل منه ويخرج علينا بروايته التاريخية "العائش فى الحقيقة" والتى تدور أحداثها فى أواخر سنوات الأسرة الثامنة عشر إبان حكم أخناتون الشهيرة . والسؤال الذى يطرح نفسه هنا على القارىء الناقد هو : ما الذى عاد بقصاصنا الى تاريخ مصر القديم ؟ وما هدفه من كتابة رواية عن فرعون مصر العظيم الذى عاش وحكم قبل زهاء ثلاثة آلاف وأربعمائة ؟ قبل أن نشرع فى الاجابة على هذا السؤال فى شىء من التفصيل ، فلندع نجيب محفوظ نفسه يمهد السبيل لنا لتلك الاجابة . يقول الكاتب فى حديث أجرى معه سنة ١٩٧٣ ونشر ضمن مجموعة الاحاديث التى ضمها الناقد صبرى حافظ فى كتاب بعنوان "أتحدث إليكم" :

"أن ثمة تقسيما يقسم الأدباء الى أدباء الفعل الماضى وأدباء الفعل المضارع وأدباء المستقبل . وعندما تأملت نفسى ، وجدت أننى من أدباء الفعل المضارع .. من أدباء الحاضر لا أحب الكتابة عن الماضى ، ولا يستهوينى التنبؤ بالمستقبل . بل إن تجربتى فى الرواية التاريخية فشلت من زاوية النظرة التاريخية لأننى حولت فيها الماضى الى حاضر."

(أنظر نجيب محفظوظ ، "أتحدث اليكم" دار العودة بيروت ، ١٩٧٧ ص ٩٢) نجيب محفظوظ إذن حين يكتب عن التاريخ فهو إنما يفعل ذلك وعينه على الحاضر . هو يستخدم الماضى قناعا للحاضر يقف وراءه ويقول مالا يستطيع أن يقوله جهاراً نهاراً بحكم المحظورات السائدة . وهو أيضا يلجأ الى التاريخ بإعتباره تجربة مكتملة منتهية يسهل تقويمها واستخلاص العبرة منها والانتفاع بها فى الحكم على الحاضر وتوجيهه هذه الوجهة أو تلك . فعل محظوظ ذلك منذ أربعين عاما فى "كفاح طيبة" حين كتب عن النضال الوطنى لتحرير مصر من حكم الهكسوس الغزاة وهو يبطىء تأجيج الشعور الوطنى ضد حكم الأتراك والانجليز . واليوم يفعل محفوظ نفس الشىء ثانية إذ يكتب عن اخناتون فى روايته المتأخرة "العائش فى الحقيقة" .

قبل أن نلتفت الى الرواية ذاتها يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ اخناتون الحقيقى هو أمنحتب الرابع أحد فراعين الأسرة الثامنة عشر الذى حكم مصر لمدة سبعة عشر عاما فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . بعد توليه الحكم بدل اسمه من أمنحتب الذى معناه "أمون راخى" إشارة الى كبير آلهة مصر العتيد أمون ـ الى إخناتون الذى يعنى "خادم أتون" وأتون هو قرص الشمس الذى يرمز الى الأله الأحد الذى اهتدى اليه ، أخناتون وانشغل بالدعوة إليه وسخف من أجله سائر الآلهة القديمة المعبودة فى مصر وفى مستعمراتها ،

وخاصة أمون الذى محى أسمه من النقوش والمعابد ، وعانى كهنته الأمرين بسبب زوال نفوذهم مع زوال نفوذ الألة الذى يخدمونه . والجدير بالذكر هنا أن أتون كان إلها معبودا من قبل اخناتون إلا أنه كان واحدا من زمرة آلهة حتى جاء اخناتون فجعله إلها مطلقا .

حين أعتلى اخناتون العرش كانت الأمبراطورية المصرية التى أسسها تحتمس الثالث قبل مائة عام كانت تضم فينيقيا وفلسطين والنوبة - فى غاية من الازدهار والقوة يهابها الأعداء وينعم بحمايتها الأصدقاء . ويتدفق عليها الثروات من التجارة والفتوحات . ولكن أنصراف اخناتون عن شئون الدولة وأستغراقه فى أمور الدين الجديد والدعوة اليه وأضطهاد رافضيه بث الفرقة داخل البلاد وشجع عليها الأعداء وخرب الاقتصاد فما أنتهى حكمه إلا ومصر متقلصة الحدود متفرقة الصفوف . وبعد وفاته سرعان ما انتهى حكم الأسرة الثامنة عشر وآل العرش الى القواد العسكريين الذين أمسكوا بزمام الأمور .

هذا هو موجز تاريخ اخناتون الذى يختلف فى أمره المؤرخون ، ففريق منهم يرى فيه الروحانى المثالى الذى أدخل فكرة التوحيد لأول مرة فى تاريخ البشرية ، والفريق الآخر يراه مثالا للتعصب الدينى تسبب بهوسة فى تفتيت وحدة مصر وتخريبها .

فأين يقف محفوظ فى تصويره لاخناتون وعصره من هذا كله ؟ هذا ما سنحاول استشفافه الآن من الرواية نفسها . تتخذ الرواية شكل رحلة للبحث عن الحقيقة فالراوى هو مؤرخ مصرى شاب من الجيل التالى لعصر اخناتون مباشرة نشأ فى صباه لايسمع اسم اخناتون إلا مقرونا بصفة "المارق" مشفوعا باللعنات لما جره حكمه على البلاد من فرقة وخراب وحين يمر مؤرخنا الشاب أثناء رحلة نيلية بمدينة "أخت آتون" - التى بناها خناتون وكرسها للاله الجديد ويرى كيف أنها هجرت وصارت مدينة أشباح فإنه يقرر - على حد قوله - أنه يريد "أن يعرف كل شىء عن هذه المدينة وصاحبها عن لمأساة التى مزقت الوطن وضيعت الأمبراطورية" .

وهكذا يبدأ فى إجراء سلسة من المقابلات مع من بقى من رجال الدولة ونسائها الذين عاصروا اخناتون كانوا له أعداء أو أصدقاء مخلصين أو منافقين ، مقربين و مبعدين . تبدأ المقابلات بكبير الكهنة آمون ، وهو طبيعة الحال على رأس الأعداء المناهضين ، وتنتهى نفرتيتى الملكة المخلوعة زوجة اخناتون وشريكته فى لحكم والعقيدة الجديدة حتى تخلت عنه فى أواخر أيامه سباب مجهولة .

ومن خلال هذه المقابلات تبرز لنا صورة لاخناتون تأرجح بلا قرار بين القداسة وبين الجنون ، بين الصلابة بين التخنث ، بين السماحة وبين التعصب طبقا للزاوية

التي ينظر منها الى شخص ذلك الفرعون المحير وأعماله .

من المعروف تاريخيا أن ديانة اخناتون كانت ديانة طبيعية تدعو الى الحب والسلام والتمتع بالوجود ، إلا أنها كانت تفتقر الى نظام أخلاقي يفرض الأوامر والنواهي ويقرر لها الثواب والعقاب . وغاية ما كان إله اخناتون يرتجيه من البشر هو أن يسبحوا بحمد الشمس لما تمنحهم من الدفء والحياة . وهذا فارق جوهرى بين "أتون" وآلهة مصر السابقين التى لا تخلو من الصرامة الواجبة لمواجهة نوازع الشر في الانسان .

على ضوء هذا الكلام نستطيع أن نفهم المنظور الذى يرى منه كاهن آمون اخناتون وإلهه الجديد إذ يقول للمؤرخ الباحث عن الحقيقة : "كان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من رجال وكهنة وآلهة ، وقد أخترع إلها على مثاله فى الضعف والأنوثة ... وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب ، فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا ، وغرق فى مستنقع الحماقة معرضا عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الأمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو ... حتى ضاعت الأمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس ..." .

فإذا نظرنا الى الأمور من المعسكر الآخر نجد نفرتيتى تصف كبير الكهنة بأنه "داهية يدافع عن الأمبراطورية على حين أنه يدافع فى الواقع عن نصيب معبده من

الأغذية والكساء والخمور" . ونجد أخناتون يصف الكهنة بأنهم "دجالون يستعبدون الضعفاء وينشرون الخرافات (بينما) قلوبهم ثملة بحب الدنيا ...."

إن الأسلوب الذى اختاره محفوظ لكتابة روايته والذى شرحناه آنفا أسلوب يتيح له ضربا فى الحياد الفنى فى عرضه للمواقف والميول المتناقضة المتصارعة . إلا أن حياد محفوظ هو دائما حياد إيجابى بمعنى أنه فيما وراء حيدة الفنان الظاهرية فهناك دائما رأيه الخاص وموقفه الفكرى المنحاز لجانب أو آخر والذى يتبدى للعين المتدفقة تتقصى الرأى الكامن فى أسلوب العرض والانتقاء الذى ينتهجه الفنان بالرغم من حياة المخادع .

لاجدال فى أن محفوظ يرسم اخناتون فى صورة مثالية ، فهو يتبدى لنا شاعرا مرهف الحس ، أو صوفيا اختبر لحظة كشف إلهى . وهو أيضا نبى يدعو البشر الى دين يقوم على الحب والسلام ونبذ الكره والتناحر والعداء . ولكنه أيضا يصوره حاكما أهمل شئون الحكم والرعية بإنهماكه فى الغيبيات ، وبث الفرقة وأثار الأحسن بين بنى بلده بتعصبه لدين دون سائر الأديان فجر الدمار على وطنه فى الداخل والخارج على الرغم من حسن نيته .

يقول الحكيم آى ـ مربى أخناتون ـ دفاعا عن أم الفرعون التى حملها الكهنة مسئولية انحراف ابنها

الدينى : "الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا وكانت تحلم بأن يحل "آتون" محل آلهة الأمبراطورية باعتباره الشمس التى تنفث الحياة فى كل مكان ، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها . كانت ترمى الى وضع الدين فى خدمة السياسة من أجل مصر ، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة لخلاف ما قصدت ، وأبت طبيعته أن يجعل الدين في خدمة أى شىء بل أراد أن يجعل كل شىء فى خدمة الدين . الأم طرحت سياستها عن وعى وتدبير ولكن الابن صدق وآمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه" .

وحين يجابه قواد اخناتون مليكهم بالأوضاع المتدهورة فى البلاد فإنه يسألهم عن مقترحاتهم فيجيبه حور محب قائد الحرس : "لامفر من إعلان الحرية للأديان ..." إلا أن اخناتون يصم اذانه عن هذه الدعوة الليبرالية العلمانية ويمضى فى سياسة فرض العقيدة الواحدة وتحكيم الغيب في شئون الدنيا حتى النهاية الأسيفه .

وهذا ـ فى رأينا ـ جوهر رسالة محفوظ الى القارىء ورأيه الظاهر المستتر . إن "الغائش فى الحقيقة" هو عنوان ينطوى على مفارقة ، وليس اخناتون إلا "عائشا فى الخيال" أو الغيب أو الوهم أو مشاء القارىء من مرادفات . بعبارة أخرى يريد محفوظ أن يقول إن حقائق الدين شىء وحقائق الدنيا شىء آخر . وأن الدول لاتقوم

على التعصب الديني وإنما على حرية العبادة والمساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء النحل والديانات . إن هذه الرواية هي رسالة محفوظ للتيارات الدينية المتعصبة وهي رده على الدعوة المتصاعدة لتطبيق الشريعة الاسلامية في وجه كل الاعتبارات ، وهي تحذيره بشواهد التاريخ من الانجراف في تيار معلوم المصير .

فهـــرس

ص
كلمة تمهيدية ٧

القسم الأول

مدخل لعالم نجيب محفوظ عن طريق قراءة نقدية لروايته « حضرة المحترم »

الفصل الاول : القصة والحبكة ١٢
الفصل الثاني : وجهة النظر ١٩
الفصل الثالث : موضوعات الرواية ٢٩
الفصل الرابع : الشخصيات ٤٩
الفصل الخامس : اللغة ٥٧
الفصل السادس : النماذج الاولى
لـ « حضرة المحترم » فى اعمال نجيب محفوظ
أولا : « القاهرة الجديدة » ٦٧
ثانيا : « كلمة فى الليل » ٧٤

القسم الثانى :
نجيب محفوظ بين قضايا السياسة والدين
الفصل الاول : نجيب محفوظ وثورة ٢٣ يوليه
(ا) حكام مصر بين فردوس الكاتب وجحيمه ٨٢
(ب) الكاتب يعيد ترتيب فردوسه وجحيمه ٩٥
الفصل الثانى : التاريخ فى خدمة الحاضر : هل
عاش اخناتون فى « الحقيقة » أم فى « الوهم »؟ ١٠٧

رقم الايداع : ٧٥٤٨ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٧ - ٠٣٩٠ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

كتاب الهلال يقدم

أوراق من الرماد والجمر

(متابعات مصرية وعربية ٨٥ ـ ١٩٨٧)

بقلم : فاروق عبدالقادر

يصدر ٥ ديسمبر ١٩٨٨

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣

13079 - تليفون ٤٧٤١١٦٤



الدكتور رشيد العنانى مؤلف هذا الكتاب أستاذ للأدب العربى بجامعة اكستر البريطانية ، وهو متخصص فى الأدب الروائى العربى الحديث .

كتب هذا الكتاب قبل حصول الكاتب الكبير نجيب محفوظ على جائزة نوبل ، وكأن كتابه نبوءة بما وقع ، فقد ترجم إلى اللغة الانجليزية بعض روايات نجيب محفوظ ، وقدم أدبه فى عدد من المجلات البريطانية المخصصة فى الآداب الأجنبية .

ويقدم تحليلا جديدا لعلاقة أدب نجيب محفوظ بكل من ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢ ، وكيف استأنف الكاتب الكبير حكمه الذى أصدره فى كتابه « أمام العرش » فى كتابه التالى « يوم قتل الزعيم »

وكتابه هذا يعتبر مدخلا لفهم وتذوق روايات كاتبنا الكبير وهو كتاب من نوع فريد ، يقدم تحليلا مبتكرا لفكر نجيب محفوظ والبناء الفنى لرواياته الخالدة .